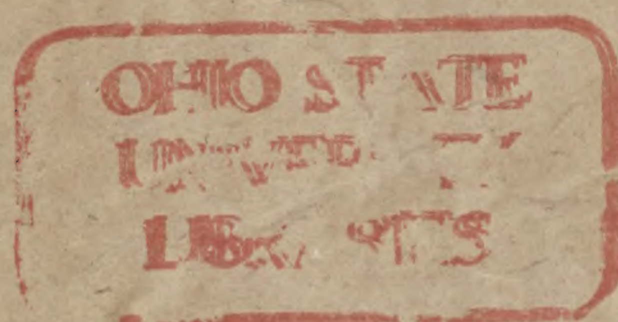


The Ohio State University
3 2435 05882704 9



فهرسة الجزء الاول من تفسير الخطيب الشربيني

سورة فاتحة الكتاب ٣	سورة البقرة ١٤	سورة آل عمران ١٩٣	سورة النساء ٢٧٨
سورة المائدة ٣٥٠	سورة الانعام ٤٠٨	سورة الاعراف ٤٦٢	سورة الانفال ٥٥١
سورة التوبة ٥٨٦			

الجزء الأول من السراج المنير في الاعانة
على معرفة بعض معاني كلام ربنا
الحكيم الخبير للشيخ الامام
الخطيب الشربيني قدس
الله روحه وعم بالرحمة
ضريحه
آمين
م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك السلام المهيمن العلام شارع الاحكام ذى الجلال والاكرام الذى أنزل القرآن بحسب المصالح منجما وجعله بالتحميد مفتتحا وبالاستعاذة مختتما وأوحاه على قسمين متشابها ومحكما فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ووسم كل شئ سواه بالحدوث عن العدم ومنّ علينا بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وأنعم علينا بكتابه المفرق بين الحلال والحرام والصلاة والسلام على خير من أوحى اليه حبيب الله أبى القاسم محمد النبىّ الامى المثبت بالعصمة المؤيد بالحكمة وعلى جميع الانبياء والملائكة البررة الكرام عدد ساعات الليالى والايام وعلى آله الاطهار وخلفائه وجميع المهاجرين والانصار وعلى بقيه الصحابة الاخيار صلاة وسلاما دائمين متلازمين آناء الليل وأطراف النهار (أمّا بعد) فيقول فقير رحمة ربه القريب محمد الشربينى الخطيب انّ الله جلّ ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين بشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به تبيان النبوّة وختم به ديوان الرسالة وأنزل عليه بفضله كتابا ساطعا تبيانه قاطعا برهانه ناطقا ببينات وحجج قرآنا عربيا غير ذى عوج مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية حسناته ظاهرة باهرة فى وجه كل زمان دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان أعجز الخليقة عن معارضته وعن الاتيان بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على الخلق مع اعجازه تلاوته ويسر على الالسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر فهو كلام معجز فى رقائق منطوقه ودقائق مفهومه لانهاية لاسرار علومه (وقد ألف أئمة السلف) كتبا

فى معرفة احكامه ونزوله كل على قدر فهمه ومبلغ علمه فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم ثم خطر لى أن اقتفى أثرهم وأسلك طريقتهم لعل الله أن يرزقنى من مددهم ويعود على من بركتهم فترددت فى ذلك مدة من الزمان خوفا من الدخول فى هذا الشان لقوله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ وقول سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه وفى رواية بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وقول أبى بكر رضى الله تعالى عنه لما سئل عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله تعالى مالا أعلم الى أن يسر الله تعالى لى زيارة سيد المرسلين صلى الله وسلم عليه وعلى سائر النبيين والآل والصحب أجمعين فى أول عام تسعمائة واحد وستين فاستخرت الله تعالى فى حضرته بعد أن صليت ركعتين فى روضته وسألته أن ييسر لى أمرى فشرح الله سبحانه وتعالى لذلك صدرى فلما رجعت من سفرى واستمر ذلك الانشراح معى وكتمت ذلك فى سرى حتى قال لى شخص من أصحابى رأيت فى منامى اما النبى صلى الله عليه وسلم أو الشافعى يقول لى قل لفلان يعمل تفسيرا على القرآن فعن قليل الا وقد قررت فى وظيفة مشيخة تفسير فى البيمارستان ثم سألنى بعد ذلك جماعة من أصحابى المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين بعد ان رأونى فرغت من شرح منهاج الطالبين أن أجعل لهم تفسيرا وسطا بين الطويل الممل والقصير المخل فأجبتهم الى ذلك ممتثلا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيما رويه أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه انه عليه الصلاة والسلام قال ان رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا واقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلف وليس على مافعلوه مزيد ولكن لابد فى كل زمان من تجديد ماطال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد تنبيها للمتوقفين وتحريضا للمتثبطين وليكون ذلك عونا لى وللقاصرين مثلى مقتصرا فيه على أرجح الاقوال واعراب مايحتاج اليه عند السؤال وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيأ من القراآت فهو من السبع المشهورات وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها ولكن بصيغة قيل ليعلم ان المرضى أولها (وسميته) السراج المنير فى الاعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير وأسأله من فضله واحسانه أن يجعله عملا مقرونا بالاخلاص والقبول والاقبال وفعلا متقبلا مرضيا زكيا يعد من صالح الاعمال (وقد تلقيت) التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة رواية ودراية عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم جمعنى الله واياهم والمسلمين فى مستقر رحمته بمحمد وآله وصحابته (وها أنا الآن أشرع) وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطى كل مسؤل

قوله فقال أى سماء كثيرا مانستعمل اعادة العامل لطول الفصل وهو فى القول كثير اه مصححه

(سورة فاتحة الكتاب)

وتسمى أمّ القرآن لانها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه ولذلك تسمى أساسا أولانها تشتمل على مافيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الاشقياء وسورة الكنز لانها نزلت من كنز تحت العرش والوافية والكافية لانها وافية كافية فى صحة الصلاة بخلاف غيرها عند القدرة عليها والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام هى شفاء لكل داء والسبع المثانى لانها سبع آيات باتفاق لكن من عدّ البسملة آية منها جعل السابعة صراط الذين الى آخرها ومن لم يعدها آية منها جعل السابعة غير المغضوب عليهم الى آخرها وسميت مثانى لانها تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها بان تقرأ فى كل صلاة وفى كل ركعة وقول بعضهم تثنى فى كل ركعة فيه تجوز وهى مكية على قول الاكثر وقال مجاهد مدنية وقيل نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة ولذلك سميت مثانى قال البغوى والاول أصح وقال البيضاوى وقد صح أنها مكية بقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهو مكى بالنص انتهى وأراد بالنص السنة فقد ثبت ذلك عن ابن عباس وقول الصحابى فى القرآن خصوصا فى النزول له حكم المرفوع والقرآن العظيم والنور والراقية وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها على ذلك وسورة المناجاة وسورة التفويض وفاتحة القرآن وأمّ الكتاب وسورة الحمد الاولى وسورة الحمد القصوى وسورة السؤال والصلاة لخبر قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدنى عبدى يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثنى على عبدى يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدنى عبدى يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين يقول الله عز وجل هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدى ولعبدى ماسأل ولانها جزؤها فهو من باب تسمية جزء الشئ باسم كله * وقوله تعالى (بسم الله) أى الملك الاعظم الذى لانعبد الااياه (الرحمن) أى الذى عم بنعمتى ايجاده وبيانه جميع خلقه أسفله وأعلاه أدناه وأقصاه (الرحيم) أى الذى خص من بينهم أهل وده برضاه آية من الفاتحة وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك والشافعى وقيل ليست منها وعليه قراء المدينة والبصرة والشأم وفقهاؤها والاوزاعى ومالك ويدل للاول ماروى أنه صلى الله عليه وسلم عدّ الفاتحة سبع آيات وعد بسم الله الرحمن الرحيم آية منها رواه البخارى فى تاريخه وروى الدارقطنى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم انها أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها وروى ابن خزيمة باسناد صحيح عن أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم عدّ بسم الله الرحمن الرحيم آية والحمد لله رب العالمين الى آخرها ست آيات وآية من كل سورة الا براءة لاجماع الصحابة على اثباتها فى المصحف بخطه اوائل السور

سوى

سوى براءة مع المبالغة فى تجريد القرآن عن الاعشار وتراجم السور والتعوذ حتى لم تكتب آمين فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا ذلك لانه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا وأيضا هى آية من القرآن فى سورة النمل قطعا ثم انا نراها مكررة بخط القرآن فوجب أن تكون منه كما أنا لما رأينا قوله فبأى آلاء ربكما تكذبان وقوله ويل يومئذ للمكذبين مكررا فى القرآن بخط واحد وبصورة واحدة قلنا ان الكل من القرآن (فان قيل) لعلها ثبتت للفصل (أجيب) بأنه يلزم عليه اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا ولثبتت فى أول براءة ولم تثبت فى أول الفاتحة (فان قيل) القرآن انما يثبت بالتواتر (أجيب) بأن محله فيما ثبت قرآنا قطعا أما ما ثبت قرآنا حكما فيكفى فيه الظن كما يكفى فى كل ظنى خلافا للقاضى أبى بكر الباقلانى وأيضا اثباتها فى المصحف بخطه من غير نكير فى معنى التواتر وأيضا قد يثبت التواتر عند قوم دون آخرين (فان قلت) لو كانت قرآنا لكفر جاحدها (أجيب) بأنها لو لم تكن قرآنا لكفر مثبتها وأيضا التكفير لا يكون بالظنيات وقد أوضحت ذلك مع زيادة فى شرحى التنبيه والمنهاج أما براءة فليست البسملة آية منها باجماع * (فائدة) * ما أثبت فى المصحف الآن من أسماء السور والاعشار شئ ابتدعه الحجاج فى زمنه والباء فى بسم الله متعلقة بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ لان الذى يتلوه مقروء اذ كل فاعل يبدأ فى فعله باسم الله يضمر ما يجعل التسمية مبدأ له كما أن المسافر اذا حل أو ارتحل فقال بسم الله الرحمن الرحيم كان المعنى بسم الله أحل بسم الله أرتحل وذلك أولى من أن يضمر أبدأ لعدم ما يطابقه وما يدل عليه ومن أن يضمر ابتدائى لما ذكرنا (فان قيل) المصدر لا يعمل محذوفا (أجيب) بأنه يتوسع فى الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع فى غيرهما وتقديره مؤخرا كما قال الامام الرازى أولى كما فى اياك نعبد واياك نستعين لانه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل فى التعظيم وأوفق للوجود فان اسمه تعالى مقدم ذاتا لانه قديم واجب الوجود لذاته فقدم ذكرا (فان قيل) قال الله تعالى اقرأ باسم ربك فقدم الفعل (أجيب) بأنه فى مقام ابتداء القراءة وتعليمها لانها أول سورة نزلت فكان الامر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض وان كان ذكر الله تعالى أهم فى نفسه وذكرت أجوبة غير ذلك فى مقدمتى على البسملة والحمدلة والباء للاستعانة أو للمصاحبة والملابسة على جهة التبرك والمعنى متبركا باسم الله اقرأ والثانى أولى لما فيه من التحاشى عن جعل اسمه تعالى آلة والاحسن أن تكون لهما اعمالا للفظ فى معنييه الحقيقيين أو الحقيقى والمجازى عند من يجوزه كامامنا الشافعى والبسملة وما بعدها الى آخر السورة مقول على ألسنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه ويحمد على نعمه ويسئل من فضله و يقدر فى أول الفاتحة قولوا كما قال الجلال المحلى ليكون ما قبل اياك نعبد مناسبا له بكونه من مقول العباد (فان قيل) من حق حروف المعانى التى جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التى هى أخت السكون نحو واو العطف وفائه (أجيب) بأنها انما كسرت للزومها الحرفية والجر ولتشابه حركتها عملها وحذفت الالف من بسم خطا كما حذفت لفظا دون باسم ربك وان كان وضع الخط على حكم الابتداء دون الدرج لكثرة الاستعمال وقالوا طولت الباء تعويضا من طرح الالف

وألحق بها بسم الله مجراها ومرساها وانه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم وان لم تكتب في القرآن الا مرة واحدة لشبهها بها صورة (فان قيل) لم حذف في بسم الله دون الله والرحمن الرحيم (أجيب) خطان لا يقاس عليهما خط المصحف وخط العروضيين ولا تحذف الالف اذا أضيف الاسم لغير الله ولا مع غير الباء * والاسم مشتق من السمو وهو العلو لانه رفعة للمسمى وشعار له فهو من الاسماء المحذوفة الاعجاز كيد ودم لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن ولان من دأبهم أن يبتدؤا بالمتحرك ويقفوا على الساكن وقيل من الوسم وهو العلامة فوزنه على الاول افع محذوف اللام وعلى الثاني اعل محذوف الفاء وفيه عشر لغات نظمها بعضهم في بيت فقال

سم وسما واسم بتثليث أول * لهن سماء عاشر تمت انجلي

والاسم ان أريد به اللفظ فغير المسمى لانه يتألف من أصوات مقطعة غير قارة ويختلف باختلاف الأمم والاعصار ويتعدد تارة ويتحد أخرى والمسمى لا يكون كذلك وان أريد به ذات الشئ فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى وقوله سبح اسم ربك الاعلى المراد به اللفظ لانه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته يجب تنزيه الالفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الادب أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وان أريد به الصفة كما هو رأى أبي الحسن الاشعري انقسم انقسام الصفة عنده الى ما هو نفس المسمى كالواحد والقديم والى ما هو غيره كالخالق والرازق والى ما ليس هو ولا غيره كالعلم والقدرة فانهما زائدان على الذات وليسا غير الذات لان المراد بالغير ما ينفك عن الذات وهما لا ينفكان (فان قيل) لم بدأ ببسم الله دون بالله (أجيب) بأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه وللفرق بين اليمين والتيمن * والله علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وأصله اله قال الرافعي كامام ثم ادخلوا عليه الالف واللام ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها الى اللام فصار اللاه بلامين متحركين ثم سكنت الاولى وادغمت في الثانية للتسهيل انتهى والاله في الاصل يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق كما ان النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا والحق انه أصل بنفسه غير مأخوذ من شئ بل وضع علما ابتداء فكما أن ذاته لا يحيط بها شئ ولا ترجع الى شئ فكذا اسمه تعالى وقيل مأخوذ من أله اذا تحير اذ العقول تتحير في معرفته وقيل غير ذلك وهو عربي عند الاكثر وعند المحققين انه اسم الله الاعظم وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعا واختار النووي تبعا لجماعة أنه الحي القيوم قال ولذلك لم يذكر في القرآن الا في ثلاثة مواضع في البقرة وآل عمران وطه * والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من رحم بتنزيله منزلة اللازم أو بجعله لازما ونقله الى فعل بالضم والرحمة لغة رقة في القلب تقتضي التفضل والاحسان فالتفضل غايتها وأسماء الله تعالى المأخوذة من نحو ذلك انما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي افعال دون المبادي التي تكون انفعالات فرحمة

الله تعالى ارادة ايصال الفضل والاحسان أونفس ايصال ذلك فهى من صفات الذات على الاول
ومن صفات الفعل على الثانى والرحمن أبلغ من الرحيم لان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى
كما فى قطع بالتخفيف وقطع بالتشديد (فان قيل) حذر أبلغ من حاذر (أجيب) بأن ذلك أكثرى
لا كلى وبأن الكلام فيما اذا كان المتلاقيان فى الاشتقاق متحدى النوع فى المعنى كغرث
وغرثان لا كحذر وحاذر للاختلاف وقدم الله عليهما لانه اسم ذات وهما اسما صفة والرحمن على
الرحيم لانه خاص اذ لا يقال لغير الله بخلاف الرحيم والخاص مقدم على العام وانما قدم
والقياس يقتضى الترقى من الادنى الى الاعلى كقولهم عالم نحرير لانه صار كالعلم من حيث انه
لا يوصف به غيره ولذلك رجح جماعة انه علم ولانه لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم
كالتابع والتتمة والرديف ليتناول مادق منها ولطف فليس من باب الترقى بل من باب التعميم
والتكميل وللمحافظة على رؤس الآى وهل الرحمن مصروف أولا فيه قولان مال السعد
التفتازانى الى جواز الامرين لان شرط منع صرف فعلان صفة وجود فعلى وشرط صرفه
وجود فعلانة وكلاهما منتف هنا لكن أظهرهما أنه ممنوع الصرف الحاقا له بما هو الغالب من
نظائره فى الزيادة والوصف والثانى انه مصروف الحاقا له بالاصل فى مطلق الاسم وهو الصرف
هذا مع ان المختار فى منع صرف ما ذكر انتفاء فعلانة لا وجود فعلى والحاصل انه تعارض فى
صرفه وعدم صرفه الاصل والغالب (فان قيل) هذا اذا لم تدخله ال (أجيب) بأن المختار ان غير
المصروف اذا دخلت عليه ال والعلتان فيه باق على منع صرفه وان جر بالكسرة (فوائد الاولى)
الوقف على الله قبيح للفصل بين التابع والمتبوع وعلى الرحمن كذلك وقيل كاف وعلى الرحيم تام
(الثانية) عدد حروف البسملة الرسمية تسعة عشر حرفا وعدد ملائكة خزنة النار تسعة عشر
قال ابن مسعود من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية فليقلها ليجعل الله تعالى له بكل حرف جنة
أى وقاية من واحد (الثالثة) قال النسفى فى تفسيره قيل الكتب المنزلة من السماء الى الدنيا
مائة وأربعة صحف شيث ستون وصحف ابراهيم ثلاثون وصحف موسى قبل التوراة عشرة
والتوراة والانجيل والزبور والفرقان وجميع كل الكتب مجموعة فى الفاتحة ومعانى الفاتحة
مجموعة فى البسملة ومعانيها مجموعة فى بائها ومعناها بى كان ما كان وبى يكون ما يكون زاد بعضهم
ومعانى الباء فى نقطتها وتخصيص التسمية بهذه الثلاثة التى هى الله والرحمن والرحيم ليعلم
العارف ان المستحق لان يستعان به فى جميع الامور هو المعبود الحقيقى الذى هو مولى النعم
كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها فيتوجه العارف بجملته حرصا ومحبة الى جناب القدس
ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره (الحمد لله) الحمد اللفظى لغة
الثناء باللسان على الجميل الاختيارى على قصد التبجيل أى التعظيم سواء أتعلق بالفضائل وهى
النعم القاصرة أم بالفواضل وهى النعم المتعدية فدخل فى الثناء الحمد وغيره وخرج باللسان الثناء
بغيره كالحمد النفسى وبالجميل الثناء باللسان على غير الجميل ان قلنا برأى ابن عبد السلام ان
الثناء حقيقة فى الخير والشر وان قلنا برأى الجمهور وهو الظاهر انه حقيقة فى الخير فقط ففائدة

ذلك تحقيق الماهية أو دفع توهم ارادة الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه وبالاختيارى المدح فانه يعم الاختيارى وغيره تقول مدحت اللؤلؤة على حسنها دون حمدتها وظاهر قول الزمخشرى الحمد والمدح أخوان انهما مترادفان وبه صرح فى الفائق لكن الاوفق ما عليه الاكثر انهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقا كبيرا والاشتقاق ثلاثة أقسام كبير وأكبر وأصغر وقد يعبر عنه بالصغير فالكبير أن يشترك اللفظان فى الحروف الاصول من غير ترتيب كالحمد والمدح والاكبر أن يشتركا فى أكثر الحروف الاصول كالفلق والفلج والفلذ مع اتحاد فى المعنى أو تناسب والاصغر أن يشتركا فى الحروف الاصول المرتبة كضرب والضرب وبعلى قصد التبجيل ما كان على قصد الاستهزاء والسخرية نحو قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم وتناول الظاهر والباطن اذ لو تجرد الثناء على الجميل عن مطابقة الاعتقاد أو خالفه أفعال الجوارح لم يكن حمدا بل تهكم أو تمليح وهذا لا يقتضى دخول الجنان والاركان فى التعريف لان المطابقة وعدم المخالفة اعتبرا فيه شرطا لا شطرا وعرفا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الحامد أو غيره سواء كان ذكرا باللسان أم اعتقادا ومحبة بالجنان أم عملا وخدمة بالاركان كما قيل

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

فمورد اللغوى هو اللسان وحده ومتعلقه يعم النعمة وغيرها ومورد العرفى يعم اللسان وغيره ومتعلقه يكون النعمة وحدها فاللغوى أعم باعتبار المتعلق وأخص باعتبار المورد والعرفى بالعكس والشكر لغة هو الحمد عرفا وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله والمدح لغة الثناء باللسان على الجميل مطلقا على جهة التعظيم وعرفا ما يدل على اختصاص الممدوح بنوع من الفضائل فالشكر أعم من الحمد والمدح من وجه لانه لا يختص باللسان وأخص منهما من وجه آخر لانه يختص بالثناء على الانعام وضد الحمد الذم وضد الشكر الكفران وضد المدح الهجو * وجملة الحمد لله خبرية لفظا انشائية معنى لحصول الحمد بالتكلم بها مع الاذعان لمدلولها ويجوز أن تكون موضوعة شرعا للانشاء وقيل خبرية لفظا ومعنى قال بعضهم وهو التحقيق اذ ليس معنى كونها انشائية الا أنها جملة انشاء الحامد الثناء بها وذلك لا ينافى كونها خبرية معنى * ولام لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص وقيل للتعليل والاولى أنها للاختصاص بالمعنى الاعم الصادق بالملك وبالاستحقاق لا بالمعنى الاخص المقابل لهما وعلى كل فهى متعلقة بمحذوف هو الخبر حقيقة فالحمد مختص بالله كما أفادته الجملة الاسمية سواء أجعلت لام التعريف فيه للاستغراق كما عليه الجمهور وهو ظاهر أم للجنس كما عليه الزمخشرى لان لام لله للاختصاص كما مر فلا فرد منه لغيره أم للعهد كالتى فى قوله تعالى اذ هما فى الغار كما نقله ابن عبد السلام وأجازه الواحدى على معنى ان الحمد الذى حمد الله به نفسه وحمده به أنبياؤه وأولياؤه مختص به والعبرة بحمد من ذكر فلا فرد منه لغيره وأولى الثلاثة الجنس زاد بعضهم او للكمال كما أفاده سيبويه فى الداخلة على الصفات كالرحمن الرحيم قال البيضاوى اذ الحمد

في الحقيقة كله لله اذ ما من خير الا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال وما بكم من نعمة فمن الله انتهى (فان قيل) بل هو موليه مطلقا بغير وسط (أجيب) بان المراد بالوسط من تصل اليه النعمة أولا ثم تنتقل منه الى غيره لا أنه وسط فى التأثير (فان قيل) لم خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحوه من بقية الصفات (أجيب) بأن لا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف قال البيضاوي وفيه اشعار بأنه تعالى حى قادر مريد عالم اذ الحمد لا يستحقه الا من كان هذا شأنه (رب العالمين) أى مالك جميع الخلق من الانس والجن والملائكة والدواب وغيرهم اذ كل منها يطلق عليه عالم يقال عالم الانس وعالم الجن الى غير ذلك وسمى المالك بالرب لانه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى الا مقيدا كقوله تعالى ارجع الى ربك والعالمين اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لان العالم عام فى العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام فى توضيحه وذهب كثير الى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع ثم اختلفوا فى تفسير العالم الذى جمع هذا الجمع فذهب أبو الحسن الى أنه أصناف الخلق العقلاء وغيرهم وهو ظاهر كلام الجوهرى وذهب أبو عبيدة الى انه أصناف العقلاء فقط وهم الانس والجن والملائكة وقيل عنى به الناس ههنا فان كل واحد منهم عالم من حيث انه يشتمل على نظائر ما فى العالم الكبير ووجه اشتمال الصغير وهو الانسان على نظائر ما فى الكبير وهو ماسوى الله تعالى أن تفاصيله شبيهة بتفاصيل العالم الكبير اذ الكبير ينقسم الى ظاهر محسوس كعالم الملك وهو ما ظهر للحواس وتكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وتضمنه التغيير والى باطن معقول كعالم الملكوت وهو ما أوجده سبحانه وتعالى بالامر الازلى بلا تدريج وبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه والى عالم الجبروت وهو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الازلية بما هو من عالم الملكوت والانسان كذلك ينقسم الى ظاهر محسوس كاللحم والعظم والدم والى باطن كالروح والعقل والارادة والقدرة والى ما هو مشابه لعالم الجبروت كالادراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة باجزاء البدن (فان قيل) لم جمع جمع قلة مع ان المقام يستدعى الاتيان بجمع الكثرة (أجيب) بأن فيه تنبيها على انهم وان كثروا قليلون فى جنب عظمته وكبريائه تعالى (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) ذكر سبحانه وتعالى فى هذه السورة من اسمائه خمسة الله والرب والرحمن والرحيم والمالك والسبب فيه كانه يقول خلقتك أولا فانا الله ثم ربيتك بوجود النعمة فانا رب ثم عصيت فسترت عليك فانا رحمن ثم تبت عليك فانا رحيم ثم لا بد من ايصال الجزاء اليك فانا مالك يوم الدين (فان قيل) انه تعالى ذكر الرحمن الرحيم فى التسمية ثم ذكرهما مرة ثانية دون الاسماء الثلاثة الباقية فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الحكمة فى ذلك كأنه قال تعالى اذكر أنى اله ورب مرة واحدة واذكر انى رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الامور ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال لا تغتروا بذلك فانى مالك يوم الدين ونظيره قوله تعالى غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقرأ عاصم والكسائى مالك

بألف بعد الميم ويعضده قوله تعالى لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله وقرأ الباقون بغير ألف ويعضده قوله تعالى ملك الناس وبينهما عموم مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة ولا يقدح فيها أن تقول مالك الدواب والانعام والوحوش والطير دون ملكها لان ذلك ليس من جهة عدم شمول حياطته لذلك بل من جهة انه انما يضاف عرفا الى ما فيه انقياد وامتثال وينفذ فيه التصرف بالامر والنهى قاله السعد التفتازانى وقيل هما بمعنى وهو القادر على اختراع الاعيان من العدم الى الوجود ولا يقدر على ذلك الا الله ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم كما تدين تدان وهو يوم القيامة وخص بالذكر لانه لا ملك ظاهر فيه لاحد الا الله تعالى لمن الملك اليوم لله (فان قيل) اضافة اسم الفاعل غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة (أجيب) بأنها انما تكون غير حقيقية اذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان فى تقدير الانفصال كقولك مالك الساعة أو غدا فاما اذا قصد به معنى الاستمرار أى هو موصوف بذلك دائما فتكون الاضافة حقيقية كغافر الذنب فصح وقوعه صفة للمعرفة (فان قيل) التقييد بيوم الدين ينافى الاستمرار لكونه صريحا فى الاستقبال (أجيب) بأن معناه الثبوت والاستمرار من غير اعتبار حدوث فى أحد الازمنة ومثل هذا المعنى لا يمتنع أن يعتبر بالنسبة الى يوم الدين كأنه قيل هو ثابت المالكية فى يوم الدين أو المراد انه جعل يوم الدين لتحقق وقوعه بمنزلة الواقع فتستمر مالكيته فى جميع الازمنة * (تنبيه) * اجراء هذه الاوصاف على الله تعالى من كونه رب العالمين موجدا لهم منعما عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها مالكا لامورهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على انه تعالى الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه فان ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له (اياك نعبد واياك نستعين) ايا ضمير منصوب منفصل وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الاعراب وفيه أقوال أخر ذكرتها فى شرح القطر (فان قيل) لم كرر ضمير اياك (أجيب) بأنه كرر للتنصيص على انه المستعان به لا غيره (فان قيل) لم قدمت العبادة على الاستعانة (أجيب) لتتوافق رؤس الآى وليعلم منه ان تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى الى الاجابة وأيضا لما نسب المتكلم العبادة الى نفسه أوهم ذلك فرحا واعترافا منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله واياك نستعين ليدل على أن العبادة أيضا مما لا تتم ولا تتيسر له الا بمعونة منه تعالى وتوفيق (فان قيل) لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب (أجيب) بان عادة العرب التفنن فى الكلام والعدول من أسلوب الى آخر تحسينا للكلام وتنشيطا للسامع فيكون أكثر اصغاء للكلام فتعدل من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم وبالعكس فيهما فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوى والتحقيق كما قاله بعض المتأخرين انها ستة لان الملتفت اليه اثنان وكل منهما اما غيبة أو خطاب أو تكلم من ذلك قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم الاصل بكم فهو التفات من الخطاب الى الغيبة وقوله تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الاصل فساقه فهو

التفات من الغيبة الى التكلم * والاستعانة طلب معونة وهى اما ضرورية أو غير ضرورية فالضرورية ما لا يتأتى الفعل دونه كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها وعند استجماع ذلك يوصف الرجل بالاستطاعة ويصح أن يكلف بالفعل وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة فى السفر للقادر على المشى أو يقرب الفاعل الى الفعل ويحثه عليه وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف غالبا وقد يتوقف كأكثر الواجبات المالية (فان قيل) لم أطلقت الاستعانة (أجيب) بأنها انما أطلقت لاجل أنها تتناول المعونة فى المهمات كلها أو فى أداء العبادات واستحسن هذا الزمخشرى قال لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض * (تنبيه) * الضمير المستكن فى نعبد ونستعين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضرى صلاة الجماعة أوله ولسائر الموحدين أدرج عبادته فى تضاعيف عباداتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعل عبادته تقبل ببركة عباداتهم وحاجته يجاب اليها ببركة حاجتهم ولهذا شرعت الجماعة فى الصلاة (فان قيل) لم قدم المفعول (أجيب) بأن تقديمه للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتقديم ما هو مقدم فى الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغى أن يكون نظره الى المعبود أولا وبالذات ومنه الى العبادة لا من حيث انها عبادة صدرت عنه بل من حيث انها نسبة شريفة اليه ووصلة بينه وبين الحق فان العارف انما يحق وصوله اذا استغرق فى ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه حتى انه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها الا من حيث انها ملاحظة له ومنتسبة اليه ولذلك فضل ما حكى عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لا تحزن ان الله معنا على ما حكاه عن كليمه موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ان معى ربى سيهدين لان الاول قدم ذكر الله تعالى على المعية والثانى بالعكس (اهدنا الصراط المستقيم) بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال كيف أعينكم فقالوا اهدنا والهداية الدلالة بلطف ولذلك تستعمل فى الخير (فان قيل) قال الله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم (أجيب) بأنه وارد على التهكم * (تنبيه) * هدى أصله أن يتعدى باللام أو بالى كقوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم وانك لتهدى الى صراط مستقيم فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا وقد يتعدى بنفسه كما هنا وهو حينئذ محتمل لاضمار الحرف ولعدم اضماره وهداية الله تعالى تتنوع أنواعا لا يحصيها عدد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ولكنها تنحصر فى اجناس مترتبة الاول افاضة القوى التى يتمكن بها المؤمن من الاهتداء الى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة والثانى نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد واليه أشار تعالى حيث قال وهديناه النجدين أى طريقى الخير والشر وقال وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثالث الهداية بارسال الرسل وانزال الكتب واياها عنى بقوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وقوله ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والرابع أن يكشف لقلوبهم السرائر ويريهم الاشياء

قوله واستحسن هذا الزمخشرى عبارته فان قلت لم أطلقت الاستعانة قلت ليتناول كل مستعان فيه والاحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ويكون قوله اهدنا بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم فقالوا اهدنا الصراط المستقيم وانما كان أحسن لتلاؤم الخ اه فتأمل اه مصححه

كماهى بالوحى والالهام والمنامات الصادقة وهذا القسم يختص بنيله الانبياء والاولياء وايامعنى تعالى بقوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (فان قيل) مامعنى طلب الهداية وهم مهتدون (أجيب) بأنهم طلبوا زيادة ما منحوه من الهدى والثبات عليه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء فى الاطباق وقد تشم الصاد صوت الزاى ليكون أقرب الى المبدل منه قرأ حمزة الصراط المعرف فى هذه السورة بالاشمام وهو أن ينطق القارئ بحرف متولد بين الصاد والزاى وأشم خلف صراط الثانى كالاول وكذا جميع مافى القرآن من معرف ومنكر وقرأ قنبل جميع مافى القرآن بالسين وقرأ الباقون بالصاد الخالصة فى الجميع وهذه لغة قريش وهى الثابتة فى الامام وهو مصحف سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وقيل ملة الاسلام وهذان القولان مرويان عن ابن عباس وهما متحدان صدقا وان اختلفا مفهوما (صراط الذين أنعمت عليهم) بالهداية بدل من الاول بدل كل من كل والعامل فيه مقدر على رأى الجمهور وقيل العامل فيه هو العامل فى المبدل منه وهو ظاهر مذهب سيبويه واختاره ابن لك (فان قيل) مافائدة ذكر صراط الذين أنعمت عليهم بدلا تابعا وهلا اقتصر عليه مع انه المقصود بالنسبة (أجيب) بان فائدته التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه لانه جعل كالتفسير والبيان له فكانه من البين الذى لاخفاء فيه ان الطريق المستقيم مايكون طريق المؤمنين وهذا هو الموافق لما اخرج ابن جرير عن ابن عباس ان المراد بالذين أنعمت عليهم الانبياء والملائكة والصديقون والشهداء ومن أطاعه وعبده وقيل الذين أنعمت عليهم الانبياء خاصة صلوات الله وسلامه عليهم وقيل أصحاب موسى وعيسى قبل التحريف والنسخ *(تنبيه)* أطلق الانعام ليشمل كل انعام لان من أنعم الله عليه بنعمة الاسلام لم تبق نعمة الا أصابته واشتملت عليه و يبدل من الذين بصلته (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود لقوله تعالى فيهم من لعنه الله وغضب عليه (ولا) أى وغير (الضالين) وهم النصارى لقوله تعالى قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا الآية ونكتة البدل افادة ان المهتدين ليسوا يهودا ولا نصارى وقيل ان غير صفة على معنى انهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهى نعمة الايمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال وقيل المغضوب عليهم هم الكفار والضالون هم المنافقون وذلك لانه تعالى بدأ فى أول البقرة بذكر المؤمنين والثناء عليهم فى خمس آيات ثم اتبعه بذكر الكفار وهو المراد من قوله تعالى ان الذين كفروا ثم اتبعهم بذكر المنافقين وهو قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الخ وكذا ههنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله أنعمت عليهم ثم اتبعهم بذكر الكفار وهو قوله غير المغضوب عليهم ثم اتبعهم بذكر المنافقين بقوله ولا الضالين (فان قيل) كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وان أضيف الى المعارف (أجيب) بأنه يصح بأحد تأويلين أحدهما اجراء الموصول مجرى النكرة اذ لم يقصد به معهود كالمحلى باللام فى قول القائل * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * أى

ثم يبنى اذلا مرور على الكل والثانى جعل غيره معرفة بالاضافة لانه أضيف الى ماله ضد واحد وهو المنعم عليه فليس فى غيره اذن الابهام الذى يأبى عليه أن يتعرف *(تنبيه)* انما سمى كل من اليهود والنصارى بما ذكر مع أنه مغضوب عليه وضال لاختصاص كل منهما بما غلب عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى رواه ابن حبان وصححه وقيل المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله لان المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به فكان المقابل له من اختل احدى قوتيه العاقلة والعاملة والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى فى القاتل عمدا وغضب الله عليه والمخل بالعمل جاهل ضال لقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (فان قيل) مامعنى غضب الله لان الغضب ثوران النفس عند ارادة الانتقام أو تغير يحصل عند ثوران دم القلب ارادة الانتقام وهو محال فى حقه تعالى (أجيب) بأنه اذا أسند الى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية فمعناه ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم ما يفعل الملك اذا غضب على من تحت يده نعوذ بالله من غضبه ونسأله رضاه ورحمته (فان قيل) أى فرق بين عليهم الاولى والثانية (أجيب) بأن محل مجرور الاولى النصب على المفعولية ومحل مجرور الثانية الرفع لانه نائب مناب الفاعل (فان قيل) لم دخلت لا فى ولا الضالين (أجيب) بأنها بمعنى غير كما قررته تبعا للجلال المحلى وأنها مزيدة كما قال الزمخشرى لتأكيد ما فى غير من معنى النفى كأنه قال لا المغضوب عليهم ولا الضالين وللتصريح بتعلق النفى بكل من المعطوف والمعطوف عليه *(فائدة)* أول السورة مشتمل على الحمد لله والثناء عليه والمدح له وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الايمان به والاقرار بطاعته وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله ومطلع الآفات ورأس المخالفات هو الاعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته (فان قيل) ما فائدة غير المغضوب الخ بعد ذكر أنعمت عليهم (أجيب) بأن الايمان انما يكمل بالرجاء والخوف كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا فقوله صراط الذين أنعمت عليهم يوجب الرجاء الكامل وقوله غير المغضوب عليهم الخ يوجب الخوف الكامل وحينئذ يتقوى الايمان بركنيه وطرفيه وينتهى الى حد الكمال وقرأ حمزة عليهم غير المغضوب عليهم بضم الهاء وقفا ووصلا وكذا جميع ما فى القرآن وقرأ ابن كثير عليهم بواو بعد الميم فى الوصل فاذا وقف أسقط الواو وكذا يفعل فى كل ميم جمع بعدها حرف متحرك وأما قالون فهو مخير فى ميم الجمع ان شاء وصلها بواو كابن كثير وان شاء لا يصلها بواو وأما ورش فانه يصل ميم الجمع بواو وان كان بعدها همزة قطع فيصير عنده مد منفصل وفى ولا الضالين مدان لازم وعارض فاللازم هو الذى على الالف بعد الضاد قبل اللام المشددة والعارض هو الذى على الياء قبل النون * والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من الفاتحة آمين مفصولا عن الفاتحة بسكتة وهو اسم الفعل الذى هو استجب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معناه فقال افعل بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين وجاز مد ألفه وقصرها قال مجنون ليلى

يارب لاتسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

أى بالمد وقال جبير لما سأل الاسدى المسمى بفطحل

تباعد عنى فطحل اذسألته * أمين فزاد الله مابيننا بعدا

فذكره مقصورا وكان من حقه التأخير لان التأمين انما يكون بعد الدعاء لكن قدمه للضرورة وليس امين من القران اتفاقا بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف كما مرت الاشارة اليه ولكن يسن ختم السورة به لقوله صلى الله عليه وسلم علمنى جبريل عليه السلام امين عند فراغى من قراءة الفاتحة كما رواه البيهقى وغيره وقال صلى الله عليه وسلم انه كالختم على الكتاب كما رواه أبو داود فى سننه وقال على رضى الله تعالى عنه امين خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده رواه الطبرانى وغيره لكن بسند ضعيف يقوله الامام ويجهر به فى الجهرية لما روى عن وائل بن حجر أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا قرأ ولا الضالين قال امين ورفع بها صوته وعن الحسن لا يقوله الامام لانه الداعى وعن أبى حنيفة مثله والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيه والمأموم يؤمن مع امامه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام ولا الضالين فقولوا امين فان الملائكة تقول امين وان الامام يقول امين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه زاد الجرجانى فى أماليه وما تأخر وأحسن ما فسر به هذا الخبر ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة قال صفوف أهل الارض تلى صفوف أهل السماء فاذا وافق تأمين من فى الارض تأمين من فى السماء غفر للعبد قال ابن حجر ومثل هذا لا يقال بالرأى فالمصير اليه أولى وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها قال بلى يارسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته رواه الترمذى وقال حسن صحيح وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ناداه مناد فقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أعطيته وما رواه البيضاوى عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة حديث موضوع

قوله لابى أى فى الكشاف لابى بن كعب ا ه

(سورة البقرة مدنية)

(وهى مائتان وسبع وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قال الشعبى وجماعة الم وسائر حروف الهجاء فى أوائل السور من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وهى سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها الى الله سبحانه وتعالى وفائدة ذكرها طلب الايمان بها والسبب فى ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الاسرار القوية كما لا يحتمل نور الشمس ابصار الخفافيش والله تعالى استأثر بعلم لا تقدر عليه

عقول الانبياء والانبياء استأثروا بعلم لاتقدر عليه عقول العلماء والعلماء استأثروا بعلم لاتقدر عليه عقول العامة وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور وقال على رضى الله عنه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى قال داود بن أبى هند كنت أسأل الشعبى عن فواتح السور فقال يا داود ان لكل كتاب سرا وان سر القرآن فواتح السور فدعها واسأل عما سوى ذلك وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال معنى الم أنا الله أعلم ومعنى الر أنا الله أرى ومعنى المر أنا الله أعلم وأرى قال الزجاج وهذا حسن فان العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم * قلت لها قفى فقالت قاف اى وقفت وقيل هى أسماء السور وعليه اطباق أكثر المتكلمين واختاره الخليل وسيبويه سميت بها اشعارا بأنها كلمات معروفة التركيب فلولم تكن وحيا من الله تعالى لم تتساقط قدرتهم عند معارضتها ونقضه الامام الرازى بأنها لو كانت اسماءلها لوجب اشتهارها بها وقد اشتهرت بغيرها كسورة البقرة وآل عمران وقيل أسماء للقرآن قاله قتادة والحكمة فى الاتيان بهذه الاحرف الثلاثة أن الالف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج واللام من طرف اللسان وهو وسطها والميم من الشفة وهى آخرها جمع الله تعالى بينها ايماء الى أن العبد ينبغى أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى ولما تكاثر وقوع الالف واللام فى تراكيب الكلام جاءتا فى معظم الفواتح مكررتين وهى فواتح سورة البقرة وأول آل عمران والاعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وابراهيم والحجر والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة (فان قيل) هلا عددت هذه الاحرف بأجمعها فى أوائل القرآن وما لها جاءت مفرقة على السور (أجيب) بأن اعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها الا غير وتجديده فى غير موضع واحد أوصل الى الغرض وأقرله فى الاسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة وكذلك مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فطلوب به تمكين المكرر فى النفوس وتقريره (فان قيل) هلا جاءت على وتيرة واحدة ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين والم والر وطسم على ثلاثة أحرف والمص والمر على أربعة أحرف وكهيعص وحمعسق على خمسة أحرف (أجيب) بأن هذا على عادة افتنانهم فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب عدة وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين الى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك سلك بهذه الفواتح تلك المسالك (فان قيل) ما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التى اختصت بها (أجيب) بأنه لما كان الغرض هو التنبيه والمبادى كلها فى تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطا كما اذا سمى الرجل بعض أولاده زيدا والآخر عمرا لم يقل له لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو لان الغرض هو التمييز وهو حاصل بذلك (فان قيل) هل لهذه الفواتح محل من الاعراب (أجيب) بأن لها محلا عند من جعلها أسماء لانها عنده كسائر الاعلام محلها يحتمل ثلاثة أوجه اما الرفع بأنها مبتدأ أو خبر لمبتدا محذوف أى هذه الم أو النصب بفعل مقدر كاذكر أو اقرأ أوائل الم أو الجر بتقدير حذف حرف القسم (ذلك الكتاب) الذى تقرؤه

يا محمد على الناس (لاريب فيه) لاشك فى أنه من عند الله تعالى (فان قيل) لم صحت الاشارة بذلك الى ماليس ببعيد (أجيب) بأن الاشارة وقعت فيه للتعظيم ولذلك قال الطيبى أحسن ماقيل فى توجيه ذلك قول صاحب المفتاح قال ذلك الكتاب ذهابا الى بعده درجة وقيل وقعت الاشارة الى الم بعد ماسبق التكلم به وتقضى والمنقضى فى حكم المتباعد وهذا فى كل كلام يحدث الرجل بحديث ثم يقول وذلك مالاشك فيه ويحسب الحاسب ثم يقول فذلك كذا وكذا وقال تعالى لافارض ولابكر عوان بين ذلك وقال نبى الله يوسف صلى الله عليه وسلم لايأتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى ولانه لما وصل من المرسل سبحانه وتعالى الى المرسل اليه صلى الله عليه وسلم وقع فى حدّ البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيأ احتفظ بذلك أى تمسك به وقيل معناه ذلك الكتاب الموعود انزاله بقوله تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا أوفى الكتب المتقدمة لان سورة البقرة مدنية كما مرّ وأكثرها احتجاج على اليهود وعلى بنى اسرائيل وقد كانت بنو اسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ان الله يرسل محمدا وينزل عليه كتابا فقال تعالى ذلك الكتاب أى الذى أخبر الانبياء المتقدمون بأن الله سينزله على النبىّ المبعوث من ولد اسمعيل وقيل انه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله وانه فى أمّ الكتاب لدينا وقد كان صلى الله عليه وسلم أخبر أمّته بذلك فغير ممتنع أن يقول تعالى ذلك الكتاب ليعلم أن هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ والكتاب مصدر سمى به المفعول للمبالغة أوفعال بنى للمفعول كاللباس ثم أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب لانه مما يكتب وأصل الكتب الضمّ والجمع سمى الكتاب كتابا لانه جمع حرف الى حرف والكتاب جاء فى القرآن على وجوه * أحدها الفرض قال تعالى كتب عليكم القصاص كتب عليكم الصيام انّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وثانيها الحجة والبرهان قال تعالى فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين أى برهانكم وثالثها الأجل قال تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم أى أجل ورابعها بمعنى مكاتبة السيد رقيقه قال تعالى والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم (فان قيل) كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه (أجيب) بأنّ الله تعالى مانفى أن أحدا لايرتاب فيه وانما المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له لانه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لاينبغى لاحد أن يرتاب فيه ألاترى الى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله فانه لم ينف عنهم الريب بل أرشدهم الى الطريق المزيح للريب وهو أن يجتهدوا فى معارضة سورة من سوره ويبذلوا فيها غاية جهدهم حتى اذا عجزوا عنها تحقق لهم ان ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيه كقوله تعالى فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج أى لاترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا والريب فى الاصل مصدر رابنى الشئ اذا حصل فيه الريبة وهى قلق النفس واضطرابها سمى به الشك لانه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع مايريبك الى مالايريبك فانّ الشك ريبة والصدق طمأنينة رواه الترمذى لكن بلفظ فانّ الصدق

طمأنينة

طمأنينة والكذب ريبة وصححه ومعناه اترك مافيه شك الى مالاشك فيه فاذا ارتابت نفسك في شئ فاتركه أو اطمأنت اليه فافعله فان نفس المؤمن تطمئن الى الصدق وترتاب من الكذب وهذا مخصوص بذوى النفوس الشريفة القدسية الطاهرة * (تنبيه) * جملة النفي خبر مبتدؤه ذلك و (هدى) خبر ثان أى هاد (للمتقين) الصائرين الى التقوى بامتثال الاوامر واجتناب النواهى لاتقائهم بذلك النار وتخصيص المتقين بالذكر تشريفا لهم ولانهم هم المنتفعون بالهدى كما قال تعالى انما أنت منذر من يخشاها وقال تعالى انما تنذر من اتبع الذكر وقد كان صلى الله عليه وسلم منذرا لكل الناس لان هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره * ولها ثلاث مراتب * الاولى التوقى من العذاب المخلد بالتبرى عن الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى * والثانية التجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهذا التجنب هو المتعارف بالتقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز التقوى ترك ماحرم الله وأداء ماافترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير * والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق تعالى وهذه هى التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال ابن عمر التقوى أن لاترى نفسك خيرا من أحد قرأ ابن كثير فيه هدى فيصل الهاء من فيه بياء فى الوصل لانها مكسورة وقبلها ساكن فان كانت هاء الكناية مضمومة وقبلها ساكن وصلها بواو فان كان قبلها متحرك وبعدها متحرك فجميع القراء يصلونها مكسورة بياء ويصلونها مضمومة بواو فمثال المكسورة به أن يوصل ومثال المضمومة قال له صاحبه وهو وما أشبه ذلك فان كان قبلها متحرك وبعدها ساكن فالجميع على عدم الصلة مثال ذلك به الله وله الملك وما أشبه ذلك ويدغم أبو عمرو الهاء فى الهاء بخلاف عنه وكذا كل مثلين مالم يكن الحرف المدغم تاء متكلم مثل كنت ترابا أو تاء مخاطب مثل أفأنت تكره الناس أو منونا مثل سميع عليم أو مشددا مثل فتم ميقات ربه * ثم وصف المتقين بما هو شأنهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) أى يصدقون بما غاب عنهم من البعث والجزاء والجنة والنار والصراط والميزان والايمان لغة التصديق وشرعا قيل التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ومجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج والاصح أنه التصديق وحده ويدل له أنه تعالى أضاف الايمان الى القلب فقال كتب فى قلوبهم الايمان وقال وقلبه مطمئن بالايمان وقال ولم تؤمن قلوبهم وعطف عليه العمل الصالح فى مواضع لاتحصى وقرنه بالمعاصى فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى فلولم يكن الايمان التصديق فقط بل هو وترك المعاصى لم يكونوا مؤمنين (فان قيل) قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص (أجيب) بأن ذلك محمول على الايمان الكامل وقرأ ورش والسوسى بابدال الهمزة الساكنة فى يؤمنون واوا وكذا يقرأ حمزة فى الوقف (ويقيمون الصلاة) أى يديمونها

ويحافظون عليها فى مواقيتها بحدودها وأركانها وهيآتها يقال قام بالامر وأقامه اذا أتى به
يعطى حقوقه لان الحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن وحقوقها
الباطنة كالخشوع والاقبال على الله تعالى لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ولذلك
ذكر فى سياق المدح والمقيمين الصلاة وفى معرض الذم فويل للمصلين والمراد بها الصلوات الخمس
ذكر بلفظ الوحدان كقوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب
بالحق يعنى الكتب والصلاة فى اللغة الدعاء قال الله تعالى وصل عليهم أى ادع لهم وفى الشرع
اسم لأفعال وأقوال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وقرأ ورش بتغليظ اللام
فى الصلاة حيث جاء (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم (ينفقون) يخرجون المال فى طاعة الله
فرضا كان أو نفلا ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والاصل فيه أو خصصه بها لاقترانها
بالصلاة لانهما يذكران معا فى القرآن ويحتمل أن يراد به الانفاق مما منحهم الله من النعم
الظاهرة والباطنة ويؤيده ما رواه الطبرانى فى الاوسط مرفوعا مثل الذى يتعلم العلم ثم لا يحدث
به كمثل الذى يكنز الكنز فلا ينفق منه والى هذا ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة
يفيضون والرزق بالكسر فى اللغة الحظ قال الله تعالى وتجعلون رزقكم أى حظكم ونصيبكم
من القرآن أنكم تكذبون وأما بالفتح فهو مصدر بمعنى اعطاء الحظ كما أنه بالكسر يكون
مصدرا أيضا كما قيل به فى قوله تعالى ومن رزقناه منا رزقا حسنا وفى العرف اسم لكل
ما ينتفع به حتى الولد والرقيق والمعتزلة لما استحالوا من الله أن يمكن من الحرام لانه تعالى منع
من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق
ههنا الى نفسه ايذانا بأنهم ينفقون الحلال الصرف الطيب وأن انفاق الحرام لا يوجب المدح
وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من
رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وأجاب أهل السنة عما ذكر بأن الاسناد للتعظيم والتحريض على
الانفاق والذم بتحريم ما لم يحرم واختصاص ما رزقهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول
الرزق له بما رواه ابن ماجه وغيره من حديث صفوان بن أمية قال كنا عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم فجاءه عمرو بن قرة فقال يا رسول الله ان الله قد كتب على الشقوة فلا أرانى أرزق الا من
دفى بكفى فأذن لى فى الغناء من غير فاحشة فقال لا آذن لك ولا كرامة كذبت أى عدو الله لقد
رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله وبأنه
لو لم يكن رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره مرزوقا وليس كذلك لقوله تعالى وما من دابة
فى الارض الا على الله رزقها (تنبيه) * تقديم رزقناهم على ينفقون للاهتمام به وللمحافظة على
رؤس الآى وادخال من التبعيضية عليه للكف عن الاسراف المنهى عنه فى حق من لم يصبر
على الاضاقة والافلاس باسراف فقد تصدق أبو بكر رضى الله تعالى عنه بجميع ماله ولم ينكر
عليه النبى صلى الله عليه وسلم (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) أى القرآن بأسره والشريعة
عن آخرها وانما عبر عنه بلفظ المضى وان كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على ما لم يوجد فيكون

مجازا

مجازا باعتبار تسمية الكل باسم البعض أو تنزيلا للمنتظر منزلة الواقع فيكون استعارة باعتبار تشبيه غير المتحقق بالمتحقق وفى كل من هذين الوجهين جمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز عند الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه (وما أنزل من قبلك) أى التوراة والانجيل وغيرهما من سائر الكتب السابقة على القرآن والايمان بالانزالين جملة فرض عين وبالاول دون الثانى تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض ولكن على الكفاية لان وجوبه على كل أحد يوجب الحرج ويشوش المعاش وهذه الآية فى المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله *(فائدة)* الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب أنزل على السيد شيث ستون صحيفة وعلى السيد ابراهيم ثلاثون وعلى السيد موسى قبل التوراة عشر فهذه مائة والاربعة الاخرى التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم واختلف القراء فى مد وقصر ما أنزل فقالون والدورى عن أبى عمرو يمدان و يقصران وابن كثير والسوسى يقصران بلا خلاف وباقى القراء وهم ورش وعاصم وحمزة والكسائى يمدون بلا خلاف ويتفاوتون فى طول المد فأطولهم مدا ورش وحمزة ودونهما عاصم ودونه ابن عامر والكسائى وهكذا كل مد منفصل (وبالآخرة هم يوقنون) أى يعلمون أنها كائنة لان اليقين هو العلم بالشئ بعد ان كان صاحبه شاكا فيه قاله الامام الرازى واذلك لا يوصف به العلم القديم ولا العلوم الضرورية فلا يقال تيقن الله كذا ولا تيقنت أن الكل أكبر من الجزء *(فائدة)* سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد فناء الدنيا وهى تأنيث الآخر صفة الدار بدليل قوله تعالى تلك الدار الآخرة قرأ ورش الاخرة بنقل حركة الهمزة الى الساكن قبلها حيث جاء وكذا الارض وقد افلح ومن امن وما أشبه ذلك (أولئك) الموصوفون بما ذكر (على هدى) أى رشد (من ربهم) ونكر هدى للتعظيم فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره وأكد تعظيمه بأن الله مانحه والموفق له *(تنبيه)* جميع القراء يمدون أولئك بلا خلاف لانه متصل لكن مرتبة ابن كثير وابى عمرو دون مرتبة ابن عامر والكسائى فى المتصل والمنفصل وأولاء كلمة معناها الكناية عن جماعة والكاف للخطاب كما فى حرف ذلك (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالجنة والناجون من النار كرر فيه اسم الاشارة تنبيها على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى كل واحد من الاختصاصين وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عن غيرهم فلا يحتاجون فيه الى مجموعهما (فان قيل) لم وسط العاطف بين هاتين الجملتين دون قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (أجيب) بأن الجملتين هنا مختلفتان باختلاف المسندين فيهما اذ على هدى من ربهم والمفلحون وان تناسبا تعلقا مختلفتان مفهوما ووجودا ومقصودا لان الهدى فى الدنيا والفلاح فى العقبى واثبات كل منهما مقصود فى نفسه بخلاف كالانعام والغافلون فانهما وان اختلفا مفهوما فقد اتحدا مقصودا ووجودا اذ لا معنى للتشبيه بالانعام الا المبالغة فى الغفلة فى الدنيا فناسب العطف فى الاول دون الثانى *(تنبيه)* تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتى بناء الكلام على اسم الاشارة

للتعليل مع الايجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسط الفصل لاظهار قدرهم والترغيب فى اقتفاء أثرهم وأصل الفلاح القطع والشق ومنه سمى الزراع فلاحا لانه يشق الارض فهم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة * ولما ذكر الله تعالى خاصة عباده وخاصة أوليائه بصفاتهم التى أهلتهم للهدى والفلاح عقبهم بذكر أضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغنى عنهم الآيات والنذر بقوله تعالى (ان الذين كفروا) الكفر لغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح وهو الستر ومنه قيل للزراع والليل كافر ولكمام الثمر كافور وفى الشرع انكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول به وينقسم الى أربعة أقسام كفر انكار وكفر جحود وكفر عناد وكفر نفاق فكفر الانكار هو أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر ابليس واليهود قال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبى طالب حيث يقول

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب وجميع هذه الاقسام من لقى الله تعالى بواحد منها لا يغفر له قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به * (تنبيه) * احتجت المعتزلة بما جاء فى القرآن بلفظ الماضى نحو ان الذين كفروا انا نحن نزلنا الذكر انا أرسلنا نوحا على حدوث القرآن لاستدعاء ما جاء فيه بلفظ الماضى سابقية المخبر عنه والقديم يستحيل أن يكون مسبوقا بغيره فأجاب أهل السنة بأن ما جاء فيه بلفظ الماضى مقتضى تعلق الحكم بالمخبر عنه وحدوث مقتضى التعلق لا يستلزم حدوث المخبر عنه فلا يستلزم حدوث كلام الله كما فى علمه تعالى فانه قديم ومقتضى تعلقه بغيره حادث والحاصل أنه لا يلزم من حدوث مقتضى التعلق وهو الكلام اللفظى حدوث الكلام النفسى (سواء عليهم) أى متساو لديهم (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) أى خوفتهم وحذرتهم أم لا والانذار اعلام مع تخويف وتحذير فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا وانما اقتصر عليه دون البشارة لانه أوقع فى القلب وأشد تأثيرا فى النفس من حيث ان دفع الضرر أهم من جلب النفع فاذا لم ينفع فيهم الانذار كانت البشارة بعدم النفع أولى (لا يؤمنون) بما جئت به وهذه الآية فى أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة فى سابق علم الله تعالى كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما فلا تطمع فى ايمانهم واحتج بهذه الآية من جوز تكليف ما لا يطاق فانه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالايمان فلو آمنوا وقع الخلف فى كلامه تعالى وهو محال والحق ان التكليف بالممتنع لذاته جائز عقلا غير واقع بخلاف التكليف بالممتنع لغيره كالذى تعلق علم الله تعالى بعدم وقوعه فانه جائز وواقع اتفاقا * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان من كلمة فقالون وأبو عمرو يسهلان الثانية ويدخلان بينهما ألفا وكذا ورش وابن كثير الا انهما لم يدخلا ألفا بينهما ولورش وجه آخر وهو أن يبدل الثانية حرف مد وهشام له وجهان تسهيل الهمزة الثانية وتحقيقها مع ادخال ألف بينهما

والباقون

والباقون بالتحقيق والقصر وجميع القرّاء يحققون الاولى * ثم ذكر سبب تركهم الايمان بقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) أى طبع واستوثق فلا يدخلها ايمان ولا خير والختم الكتم سمى به الاستيثاق من الشئ بضرب الخاتم عليه لانه كتم له (وعلى سمعهم) أى مواضعه فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق وقوله تعالى (وعلى أبصارهم) أى أعينهم (غشاوة) مبتدا وخبر أى على أعينهم غطاء من عند الله تعالى فلا يبصرون الحق وعبر الله تعالى عن احداث هذه الهيئة بالطبع فى قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وبالاغفال فى قوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وبالاقساء فى قوله تعالى وجعلنا قلوبهم قاسية وهذه الهيئة من حيث ان الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت اليه تعالى ومن حيث انها مسببة عما اقترفوه بدليل قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم وقوله تعالى ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم وردت الآية مظهرة عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم (فان قيل) لم وحد السمع دون القلوب والابصار (أجيب) بأنه على حذف مضاف مثل وعلى حواس سمعهم كمواضعه كما مرّ تقديره أو باعتبار الاصل فانه مصدر فى أصله والمصادر لا تثنى ولا تجمع والابصار جمع بصر وهو ادراك العين وقد يطلق مجازا على القوّة الباصرة وعلى العضو وكذا السمع قال البيضاوى ولعل المراد بهما فى الآية العضو لانه أشدّ مناسبة للختم والتغطية وبالقلب ماهو محل العلم وقد يطلق القلب ويراد به العقل والمعرفة كما قال الله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل وأمال أبو عمرو ألف أبصارهم وكذا كل ألف بعدها راء مكسورة متطرفة وانما جاز امالتها مع الصاد لانّ الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير (ولهم عذاب عظيم) أى قوىّ دائم فى الآخرة وهذا وعيد وبيان لما يستحقونه والعذاب كل ما يعيى الانسان ويشق عليه وقال الخليل العذاب ما يمنع الانسان عن مراده ومنه الماء العذب لانه يمنع العطش وانما وصف العذاب بالعظيم دون الكبير لانّ العظيم فوقه لانّ العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير واذا كان الحقير مقابلا للعظيم والصغير للكبير كان العظيم فوق الكبير لانّ العظيم لا يكون حقيرا والكبير قد يكون حقيرا كما أنّ الصغير قد يكون عظيما وتنكير الغشاوة والعذاب للتنويع لانهما لما قرنا بالختم على القلوب كان المعنى نوعا عظيما منه أى على أبصارهم غشاوة ليس مما يتعارفه الناس وهو التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع لا يعلم كنهه الا الله * ونزل فى المنافقين حكاية لحالهم قوله تعالى (ومن الناس) أمال أبو عمرو الالف قبل السين المكسورة امالة محضة وكذا كل ألف مثلها والباقون بالفتح (من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أجمع المفسرون على أنّ ذلك وصف المنافقين قالوا صنف الله الاصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدأ بذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا وثلث بالصنف الثالث المذبذب بين القسمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلا للتقسيم وهذا الصنف أخبث الكفرة وأبغضهم الى الله

تعالى لانهم مع مشاركتهم للكفار الاصليين فى أنهم جاهلون بالقلب كاذبون باللسان من حيث انهم ينسبون الى الله تعالى ماهو برىء منه كالولد والزوجة والشريك زادوا عليهم بأمور منكرة منها أنهم قصدوا التلبيس ورضوا لانفسهم بسمة الكذب ولبسوا الكفر على المسلمين فخلطوا به خداعا واستهزاء ولذلك طوّل الله فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الامثال وأنزل فيهم انّ المنافقين فى الدرك الاسفل من النار واللام فى الناس للجنس ومن موصوفة لا للعهد وكانه قال تعالى ومن الناس ناس يقولون وقيل للعهد والمعهود هم الذين كفروا ومن موصولة مرادبها ابن أبىّ وأصحابه ونظراؤه فانهم من حيث انهم صمموا على النفاق دخلوا فى عداد الكفار المختوم على قلوبهم واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لايأبى دخولهم تحت هذا الجنس (فان قيل) خصت من بالموصوفة على تقدير الجنس وبالموصولة على تقدير العهد (أجيب) بأنّ الجنس لابهامه يناسب الموصوفة لتنكيرها والعهد لتعيينه يناسب الموصولة لتعريفها واختصاص الايمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيص لما هو المقصود الاعظم من الايمان وادّعاء بأنهم اختاروا الايمان من المبدا والمعاد وايذان بأنهم منافقون فيما يظنون انهم مخلصون فيه فكيف بما يقصدون به النفاق وهو عدم التصديق بالقلب لانّ القوم كانوا يهودا وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ايمانا كلا ايمان لاعتقادهم التشبيه واتخاذ الولد وأنّ الجنة لايدخلها غيرهم وأنّ النار لن تمسهم الا أياما معدودة وغير ذلك ويرون المسلمين أنهم آمنوا مثل ايمانهم وفى تكرير الباء ادّعاء الايمان بكل واحد على الاصالة والاستحكام والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر الى مالا ينتهى أو الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لانه آخر الاوقات المحدودة بطرفين (وماهم بمؤمنين) لابطانهم الكفر وهذا انكار لما ادّعوا اثباته ووحد الضمير فى يقول نظرا الى لفظة من لانها صالحة للتثنية والجمع والواحد وجمع فيما بعدها نظرا الى معناها (فان قيل) كيف طابق قوله وماهم بمؤمنين قولهم آمنا بالله فانّ الاوّل فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل فكان المطابق له وما آمنوا (أجيب) بأنه انما عدل الى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وآكده لانّ اخراج ذواتهم عن عداد المؤمنين أبلغ من نفى الايمان عنهم فى ماضى الزمان ولذلك أكد النفى بالباء ونظيره قوله تعالى يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها هو أبلغ من قولك وما يخرجون منها وأطلق الايمان على معنى أنهم ليسوا من الايمان فى شىء ويحتمل أن يقيد بما قيدوا به وهو قوله تعالى بالله وباليوم الآخر لانّ وماهم بمؤمنين جوابه والآية تدل على أنّ من ادّعى الايمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمنا لانّ من تفوّه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمنا (يخادعون الله والذين آمنوا) اذ أظهروا خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ويحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم وأصل الخدع فى اللغة الاخفاء ومنه المخدع للبيت الذى يخفى فيه المتاع فالمخادع أظهر خلاف مايضمر والمخادعة تكون بين اثنين وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لانه تعالى لايخفى عليه خافية ولانهم

لم يقصدوا

لم يقصد واخديعته بل المراد اما مخادعة رسوله أو أوليائه على حذف المضاف لانهم لم يعتقدوا ان الله بعث الرسول اليهم فلم يكن قصدهم فى نفاقهم مخادعة الله تعالى فعلم أن خداعهم مع الله ليس المراد ظاهره كما فى قوله تعالى واسأل القرية أى أهلها أو على أن معاملة الرسول معاملة الله تعالى من حيث انه خليفته كما قال تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله واما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من اظهار الايمان واستبطان الكفر وصنيع الله معهم من اجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الاسفل من النار استدراجا لهم وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله فى اخفاء حالهم واجراء حكم الاسلام مجاراة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين ويحتمل أن يراد بيخادعون يخدعون لانه بيان ليقول أو استئناف بذكر ماهو الغرض منه الا أنه أخرج فى زنة فاعل للمبالغة فان الزنة لما كانت للمغالبة والفعل متى غولب فيه كان أبلغ منه اذا جاء بلا مغالبة معارض استصحبت الزنة ماذكر من المبالغة وقال الجلال المحلي والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص وذكر الله فيها تحسين (ومايخدعون الا أنفسهم) لان وبال خداعهم راجع عليهم فيفتضحون فى الدنيا باطلاع نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون فى الآخرة والنفس ذات الشئ وحقيقته وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وقرأ الباقون وهم عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومايخدعون بفتح الياء وسكون الخاء ولا ألف بعدها وفتح الدال ولا خلاف بين القراء فى الكلمة الاولى وهى يخادعون الله فالجميع قرؤا بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال وأما الرسم فى الموضعين فبغير ألف (ومايشعرون) أى لايحسون بمعنى لايعلمون أن خداعهم لانفسهم لتمادى غفلتهم جعل لحوق وبال الخداع ورجوع ضرره اليهم فى الظهور كالمحسوس الذى لايخفى الا على موف الحواس وهو المصاب بآفة (فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق لان ذلك يمرض قلوبهم أى يضعفها والمرض حقيقة هو فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل فى أفعاله ومجاز فى الاعراض النفسانية التى تخل بكمال أفعالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والبغض وحب المعاصى لانها مانعة من نيل الفضائل أومؤدية الى زوال الحياة الحقيقية الابدية والآية تحتمل الحقيقة والمجاز وعلى المجاز اقتصر أكثر المفسرين لانه أبلغ من الحقيقة (فزادهم الله مرضا) بما أنزل من القرآن لانه كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا شكا ونفاقا واسناد الزيادة الى الله تعالى من حيث انه خلقها وأوجدها والى السورة فى قوله تعالى فزادتهم رجسا لكونها سببا وقرأ حمزة وابن ذكوان بامالة الالف التى بعد الزاى محضة والباقون بالفتح (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم بفتح اللام وصف به العذاب للمبالغة اذ الالم انما هو للمعذب حقيقة لا للعذاب فنسبة الالم الى العذاب مجاز ويجوز كسر لام مؤلم كسميع بمعنى مسمع وعليه فنسبة الاليم الى العذاب حقيقة (بما كانوا يكذبون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال أى بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال أى بكذبهم

في قولهم آمنا لان الايمان التصديق بالقلب والكذب هو الخبر عن الشئ على خلاف ما هو به قال البيضاوي تبعا للزمخشري وهو حرام كله لانه علل به استحقاق العذاب حيث رتب على الكذب وما روي أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات أي لما روى البخاري ومسلم في حديث الشفاعة فيقول ابراهيم اني كذبت ثلاث كذبات وذكر قوله في الكوكب هذا ربي وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله اني سقيم فالمراد التعريض أي وهو اللفظ المشار به الى جانب والغرض جانب آخر وقيل هو خلاف التصريح وهو تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر وسمي تعريضا لما فيه من التعريض عن المطلوب ولكن لما شابه الكذب في صورته سمي به انتهى وهذا ليس على اطلاقه فان من الكذب ما هو مباح وما هو مندوب وما هو واجب وما هو حرام لان الكلام وسيلة الى المقصود فكل مقصود محمود ان أمكن التوصل اليه بالصدق فالكذب فيه حرام وان لم يمكن الا بالكذب فهو مباح ان كان المقصود مباحا ومندوب ان كان المقصود مندوبا وواجب ان كان المقصود واجبا وفي حديث الطبراني في الكبير كل الكذب يكتب على ابن آدم الا ثلاثا الرجل يكذب في الحرب فان الحرب خدعة والرجل يكذب على المرأة فيرضيها والرجل يكذب بين الرجلين فيصلح بينهما وفي حديث في الاوسط الكذب كله اثم الا ما نفع به مسلم أو دفع به عن دينه (واذا قيل لهم) أي لهؤلاء فهو عطف تفسير على يكذبون فمحله نصب لكونه معطوفا على خبر كان فيكون جزأ من السبب الذي استحقوا به العذاب الاليم أو على يقول فلا محل له من الاعراب لكونه معطوفا على صلة من فلا يكون جزأ من السبب والقائل هو الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو بعض المؤمنين (لا تفسدوا في الارض) بالكفر والتعويق عن الايمان والفساد خروج الشئ عن الاعتدال والصلاح ضده والفساد يعم كل ضار والصلاح يعم كل نافع وكان من افسادهم في الارض اثارة الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ومعاونة الكفار والمتمحض كفرهم على المسلمين فان ما ذكر يؤدي الى فساد ما في الارض من الناس والدواب والحرث ومنه اظهار المعاصي والاهانة بالدين فان الاخلال بالشرائع والاعراض عنها مما يوجب القتل والاختلاط ويخل بنظام العالم لا أن ذلك افساد لان الافساد جعل الشئ فاسدا وصنيعهم لم يكن كذلك فقوله تعالى لا تفسدوا في الارض مجاز باعتبار المآل أي لا تفعلوا ما يؤدي الى الفساد وليس معنى الافساد هنا الاتيان بالفساد ليصح حمل الكلام على الحقيقة نبه على ذلك السعد التفتازاني (قالوا انما نحن مصلحون) جواب لاذا ورد للناصح على سبيل المبالغة والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك فان شأننا ليس الا الاصلاح وان حالنا متمحضة عن شوائب الفساد لان انما تفيد قصر ما دخله على ما بعده مثل انما زيد منطلق وانما ينطلق زيد وانما قالوا ذلك لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا * قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا انهم هم المفسدون) أي بما ذكر (ولكن لا يشعرون) أي لا يفطنون بمعنى لا يعلمون أنهم هم المفسدون بذلك أي لانهم يظنون أن الذي هم عليه من ابطان الكفر صلاح وقيل لا يعلمون ما أعد الله لهم

من العذاب ووجه الابلغية فى ذلك تصديره بألا المنبهة على تحقيق مابعدها فان همزة الاستفهام التى للانكار اذا دخلت على النفى أفادت تحقيقا وبان المقررة للنسبة وتعريف الخبر وتوسط ضمير الفصل والاستدراك بلا يشعرون (واذا قيل لهم آمنوا) هذا من تمام النصح والارشاد فان كمال الايمان بمجموع أمرين الاعراض عما لا ينبغى وهو المقصود بقوله لا تفسدوا والاتيان بما ينبغى وهو المطلوب بقوله آمنوا (كما آمن الناس) أى كايمان الناس الكاملين فى الانسانية الموافق باطنهم فيه لظاهرهم العاملين بقضية العقل فاللام فى الناس للجنس فان اسم الجنس كما يستعمل لمسماه مطلقا يستعمل لما يستجمع المعانى المخصوصة به والمقصودة منه أو للعهد والمراد به الرسول ومن معه أو عبد الله بن سلام وغيره من مؤمنى أهل الكتاب وقرأ هشام والكسائى قيل باشمام القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء ولورش فى الهمزة من آمنوا وآمن المد والتوسط والقصر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أى الجهال فاللام فى السفهاء للعهد وهم من تقدم أو لجنس السفهاء باسرهم وانما سفهوهم لاعتقاد فساد رأيهم أو لتحقير شأنهم فان أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم ان فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه * قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) أنهم سفهاء بما فعلوه من ابطان غير ما أظهروه ووجه الابلغية فى تجهيلهم أن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله فانه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر (فان قيل) كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء (أجيب) بأن هذا القول كانوا يقولونه فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك والسفه خفة وسخافة رأى يقتضيهما نقصان العقل والعلم يقابله (فان قيل) لم عبر فى هذه الآية بلا يعلمون وفى التى قبلها بلا يشعرون (أجيب) بأن التعبير بلا يعلمون أكثر مطابقة لذكر السفه لان السفه جهل فطابقه العلم ولان أمر الايمان أخروى يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يعلمون وأمر البغى والفساد دنيوى فهو كالمحسوس لا يحتاج الى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يشعرون ويشعر مضارع شعر يقال شعرت كذا أى حسست به أو أدركته أى فطنت له وقد استعمل بالمعنى الاول فى قوله وما يشعرون وفى الثانى بقوله لا يشعرون كما يعلم مما قررته فى الآيتين وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى السفهاء ألا بتحقيق الهمزتين وكذا كل همزتين وقعتا فى كلمتين اتفقتا أو اختلفتا والباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الثانية واوا خالصة (واذا لقوا الذين آمنوا) اللقاء المصادفة وهى الاجتماع من غير مواعدة يقال لقيته ولاقيته اذا صادفته واستقبلته وأصل لقوا لقيوا حذفت الضمة للاستثقال ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو (قالوا آمنا) أى كايمانكم (واذا خلوا) منهم ورجعوا (الى شياطينهم) أى الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم وهم المظهرون كفرهم واضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم (قالوا انا معكم) أى فى الدين والاعتقاد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ومماثلى الشياطين

بالجملة الاسمية المؤكدة بان لانهم قصدوا بالاولى دعوى احداث الايمان وقصدوا بالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه ولانه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق ورغبة فيما خاطبوا به المؤمنين ولا توقع رواج ادّعاء الكمال فى الايمان على المؤمنين من المهاجرين والانصار بخلاف ما قالوه مع الكفار (انما نحن مستهزؤن) باصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أى نسخر بهم باظهارنا الاسلام لان المستهزئ بالشئ المستخف به مصرّ على خلافه فهذا تأكيد لما قبله أو بدل منه لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر أو استئناف فكان الشياطين قالوا لهم لما قالوا انا معكم ان صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدّعون الايمان فأجابوا بذلك *(تنبيه)* بين سبحانه وتعالى بهذه الآية معاملة المنافقين مع المؤمنين والكفار وروى الواحدى وغيره ولكن بسند ضعيف ان ابن أبىّ وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة فقال لقومه انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم فأخذ بيد أبى بكر رضى الله تعالى عنه وقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر رضى الله تعالى عنه فقال مرحبا بسيد بنى عدىّ الفاروق القوىّ فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علىّ رضى الله تعالى عنه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه أى زوج بنته عند العامّة وعند العرب كل من كان من قبل المرأة وكل منهما صحيح هنا سيد بنى هاشم ماخلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وما صدّر به قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا فسوق لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير (الله يستهزئ بهم) أى يجازيهم على استهزائهم سمى جزاء الاستهزاء باسمه كما سمى جزاء السيئة بسيئة اما لمقابلة اللفظ باللفظ أو لكونه مماثلا له فى القدر ومثل هذا يسمى مشاكلة أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء والغرض منه أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكونون كالمستهزئ بهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ أما فى الدنيا فباجراء أحكام الاسلام عليهم واستدراجهم بالامهال والزيادة فى النعمة مع التمادى فى الطغيان وأمّا فى الآخرة فبأن يفتح لهم وهم فى النار بابا الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون وانما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أنه تعالى تولى مجازاتهم ولم يحوج المؤمنين أن يعارضوهم وأنّ استهزاءهم لا يبالى به لحقارتهم (ويمدّهم فى طغيانهم) أى فى ضلالتهم (يعمهون) يترددون متحيرين والطغيان بالضم والكسر تجاوز الحدّ فى العصيان والغلوّ فى الكفر وأصله تجاوز الشئ عن مكانه قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم قال البيضاوى والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير فى الامر يقال رجل عامه وعمه وأرض عمهاء لا منار لها اهـ وظاهر كلامه اختصاص العمه بالبصيرة والعمى بالبصر وهو ما ذكره ابن عطية فبينهما تباين وقال الامام وغيره العمه فى البصيرة والعمى عام فيهما وفى البصر فبينهما عموم مطلق وأمال الدورى عن الكسائى ألف طغيانهم امالة محضة وفتحها الباقون (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اختاروها عليه واستبدلوها به وأصل الشراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب

من الاعيان فان كان أحد العوضين ناضا تعين من حيث انه لا يطلب لعينه أن يكون ثمنا وبذله اشتراء والا فالثمن ما دخلت عليه الباء فبازائه مشتر وآخذه بائع ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشئ طمعا في غيره والمعنى انهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين الضلالة التي ذهبوا اليها واختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى وأمال ألف الهدى حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا فيها والتجارة التصرف بالبيع والشراء والربح الفضل على رأس المال واسناده الى التجارة وهو لاربابها على سبيل الاتساع لتلبسها بالفاعل أو لمشابهتها اياه من حيث انها سبب للربح والخسران واتفق القراء على ادغام التاء في التاء وكذا كل مثلين الاول منهما ساكن (وما كانوا مهتدين) لطرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد أضاعوا الامرين لان رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به الى ادراك الحق ونيل الكمال فبقوا خاسرين آيسين عن الربح فاقدين للاصل (مثلهم) أي شبههم وصفتهم في نفاقهم (كمثل الذي) بمعنى الذين بدليل سياق الآية ونظيره والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وقوله تعالى وخضتم كالذي خاضوا أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج الذي (استوقد) أي أوقد (نارا) في ظلمة لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل وهو بيان تصوير تلك الحقيقة وابرازها في معرض المشاهد المحسوس زيادة في التوضيح والتقرير فانه أوقع في القلب وأقمع للخصم قال البيضاوي والاستيقاد طلب الوقود والسعي في تحصيله وهو سطوع النار وارتفاع لهبها اه والاكثر على أن استوقد هنا بمعنى أوقد كما قدرته لا بمعنى طلب الوقود (فلما أضاءت) أي أنارت النار وأضاء لازم ومتعد يقال أضاء الشئ بنفسه وأضاءه غيره (ما حوله) أي المستوقد فأبصروا واستدفأ وأمن مما يخافه (ذهب الله بنورهم) أي أطفأه وهذا جواب لما واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بفعله أو لان الاطفاء حصل بسبب خفي أو أمر سماوي كريح أو مطر أو للمبالغة ولذلك عدى الفعل بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه وأمسكه وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ الى النور فانه لو قيل ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نورا والغرض ازالة النور عنهم رأسا ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده بقوله تعالى (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين فذكر الظلمة التي هي عدم النور وانطماسه بالكلية وكيف جمع الظلمة وكيف نكرها وكيف أتبعها بما يدل على أنها ظلمة خالصة وهو قوله لا يبصرون وظلماتهم ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم أو ظلمة الضلال وظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمدي أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة والآية وهي قوله مثلهم الخ مثل ضربه الله لايمان المنافقين من

حيث انه يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الاموال والاولاد ومشاركة المسلمين فى المغانم والاحكام بالنار الموقدة للاستضاءة ولذهاب أثره وانطماس نوره باهلاكهم وافشاء حالهم باطفاء الله تعالى اياها واذهاب نورها هذا هو الوارد أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وقيل مثل ضربه الله لمن آتاه ضربا من الهدى واضاعه ولم يتوصل به الى نعيم الابد فبقى متحيرا متحسرا تقريرا وتوبيخا لما تضمنه قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى الخ ويدخل تحت عموم ما تضمنته الآية هؤلاء المنافقون فانهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر واظهاره حين خلوا الى شياطينهم ومن آثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة أو ارتد عن دينه بعد ما آمن وقرأ ورش بترقيق راء يبصرون هم (صم) عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول وأصل الصمم صلابة من اجتماع الاجزاء ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة سمى به فقدان حاسة السمع لان سببه أن يكون باطن الصماخ مجتمعا لا تجويف فيه يشتمل على هواء يسمع الصوت بتوجه (بكم) خرس عن الخير فلا يقولونه والخرس فى الاصل عدم القدرة على النطق (عمى) عن طريق الهدى فلا يرونه والعمى فى الاصل عدم البصر عما من شأن أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة (فهم لا يرجعون) أى لا يعودون الى الهدى الذى باعوه وضيعوه أو عن الضلالة التى اشتروها (أو) مثلهم (كصيب) فهو معطوف على الذى استوقد أى كمثل أصحاب صيب لقوله يجعلون أصابعهم فى آذانهم وأو فى الاصل للتساوى للشك ثم اتسع فيها فأطلق للتساوى من غير شك مثل جالس الحسن أو ابن سيرين وقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا فانه يفيد التساوى فى حسن المجالسة فى المثال الاول ووجوب العصيان فى الثانى ومن ذلك قوله أو كصيب من السماء ومعناه بقرينة السياق أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين وأنهما سواء فى صحة التشبيه بهما وأنت مخير فى التمثيل بهما أو بأيهما شئت وان كان الثانى أبلغ كما قاله الزمخشرى قال لانه أدل على فرط الحيرة وشدة الامر وفظاعته والصيب أصله صيوب من صاب يصوب وهو النزول يقال للمطر وللسحاب والآية تحتملهما أى ينزل (من السماء) ذلك فان قدرت الصيب بالمطر فالمراد بالسماء السحاب وان قدرته بالسحاب فالمراد السماء بعينها والسماء كل ما علاك وأظلك وهى من أسماء الاجناس فيكون واحدا وجمعا (فيه) أى الصيب وقيل السماء (ظلمات) جمع ظلمة فان أريد بالصيب المطر فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وان أريد به السحاب فظلماته سواده وتكاثفه مع ظلمة الليل (ورعد) وهو صوت يسمع من السحاب قال البيضاوى والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها اذا ساقها الريح من الارتعاد (وبرق) وهو ما يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا هذا ما جرى عليه الجوهرى وغيره وهو المناسب هنا وان أطلق الرعد على الملك أيضا فهو مشترك بين الصوت المذكور والملك الثابت فى الاحاديث ففى بعضها أنه ملك موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه الى حيث شاء الله وصوته ما يسمع وفى بعضها أنه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه وفى بعضها أنه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادى الابل بحدائه

وفى بعضها أنه ملك مسمى به وهو الذى تسمعون صوته (يجعلون) أى أصحاب الصيب (أصابعهم) أى أناملها وانما أطلق الاصابع موضع الانامل للمبالغة لما فى ذلك من الاشعار بدخول أصابعهم فوق المعتاد فرارا من شدة الصوت (فى آذانهم) وقوله (من الصواعق) متعلق بيجعلون أى من أجلها يجعلون وهو جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت من يسمعها أو يغشى عليه ويقال لكل عذاب مهلك صاعقة وقيل الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء روى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله تعالى عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وأمال الدورى عن الكسائى الالف التى بعد الذال فى آذانهم امالة محضة والباقون بالفتح * وقوله تعالى (حذر الموت) نصب على العلة كقول الشاعر

واغفر (أى استر) عوراء الكريم ادخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

قال البيضاوى والموت زوال الحياة زاد فى الطوالع عما من شأنه الحياة وفيه تساهل اذ يلزم منه أن يكون الجنين قبل حلول الحياة فيه ميتا والاظهر كما فى شرح المواقف أن يقال عدم الحياة عما اتصف بها بالفعل فبينهما تقابل العدم والملكة على التفسيرين وقيل عرض يضادها فبينهما تقابل التضاد لقوله تعالى خلق الموت والحياة فجعل الموت مخلوقا والعدم لا يخلق ورد بأن الخلق بمعنى التقدير لا بمعنى الايجاد والاعدام مقدرة ولو سلم بأنه بمعنى الايجاد فالمعنى خلق أسباب الموت والحياة وبذلك علم أن القول الاول هو المعتمد وكلام أئمة اللغة طافح به وحاصله ان الموت مفارقة الروح الجسد وما ورد فى الاحاديث من أنه جسم حيث قيل فى بعضها انه كبش وفى بعضها انه على صورة كبش لا يمر على أحد الا مات فمؤول بانه لم يقصد بالموت فيها حقيقته بل قصد انه يصور بصورة كبش كما فى خبر الشيخين وغيرهما انه يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار الخ (والله محيط بالكافرين) علما وقدرة فلا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط لا يخلصهم الخداع والحيل وقيل مهلكهم دليله قوله تعالى الا أن يحاط بكم أى تهلكوا والجملة اعتراضية لا محل لها قال أبو حيان لانها دخلت بين هاتين الجملتين وهما يجعلون أصابعهم ويكاد البرق وهما من قصة واحدة ويميل ورش الالف بعد الكاف بين بين وكذا الكافرين حيث جاء وقرأ أبو عمرو والدورى عن الكسائى بالامالة المحضة فيهما حيث جاء والباقون بالفتح (يكاد البرق) يقرب لان كاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لحصول سببه لكنه لم يوجد اما لفقد شرط أو لعروض مانع وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلا مضارعا تنبيها على أنه المقصود بالقرب (يخطف أبصارهم) يختلسها والخطف الاخذ بسرعة (كلما أضاء لهم مشوا فيه) أى ضوئه (واذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين فالله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات من صفتها أن السارى لا يمكنه المشى فيها ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم فى آذانهم من هوله وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده فهذا مثل

ضرب به الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه فالمطر القرآن لانه حياة القلوب كما أن المطر حياة الابدان والظلمات ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة والكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب اليه ولانزعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم وانما قال الله تعالى مع الاضاءة كلما ومع الاظلام اذا لانهم حراص على المشى كلما صادفوا منه فرصة مما يحبون انتهزوها ولا كذلك التوقف فيما يكرهون ومعنى قاموا وقفوا كما مر ومنه قامت السوق اذا ركدت أى سكنت ويقال قامت السوق بمعنى نفقت فهو من الاضداد (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بمعنى أسماعهم (وأبصارهم) الظاهرة كما ذهب بالباطنة أى ولو شاء أن يذهب بسمعهم بشدة صوت الرعد وأبصارهم بلمعان البرق لذهب بهما فحذف المفعول وهو أن يذهب لدلالة الجواب وهو لذهب عليه ولقد تكاثر حذف المفعول فى شاء وأراد اذا وقعا فى حيز الشرط كما هنا لدلالة الجواب على ذلك المحذوف حتى لا يكاد يذكر الا فى الشئ المستغرب كقول القائل

فلو شئت ان أبكى دما لبكيته * عليك ولكن ساحة الصبر أوسع

وأتى فيه بالمفعول لان بكاء الدم مستغرب ونصب دما لتضمنه معنى الصب ولو من حروف الشرط قال البيضاوى وظاهرها الدلالة على انتفاء الاول لانتفاء الثانى ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه اه وهذا مذهب ابن الحاجب وأما مذهب الجمهور وهو الاصح فانها فى الاصل لانتفاء الثانى لانتفاء الاول فمعنى لو جئتنى أكرمتك أن انتفاء الاكرام لانتفاء المجئ وقيل انها لمجرد الربط كان ومن ثم قال التفتازانى ان لو هنا لمجرد الشرط بمنزلة ان لا بمعناها الاصلى وفائدة هذه الجملة الشرطية ابداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه وهو أنه تعالى أمهل المنافقين فيما هم فيه ليتمادوا فى الغى والفساد ليكون عذابهم أشد وللتنبيه على أن تأثير الاسباب فى مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى وقوله تعالى (ان الله على كل شئ) أى يشاؤه (قدير) كالتصريح بما ذكر والتقرير له والشئ يختص بالموجود فلا يطلق على المعدوم (فان قيل) لو اختص الشئ بالموجود لما تعلقت به القدرة لانها الصفة المؤثرة على وفق الارادة وتأثيرها الايجاد وايجاد الموجود محال فالذى تعلقت به القدرة معدوم وهو شئ فالمعدوم شئ (أجيب) بأن المحال ايجاد الموجود بوجود سابق وهو غير لازم واللازم ايجاد موجود هو أثر ذلك الايجاد وليس بمحال والقدرة هو التمكن من ايجاد الشئ وقيل صفة تقتضى التمكن وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز عنه والقادر هو الذى ان شاء فعل وان شاء لم يفعل والقدير الفعال لما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير البارى تعالى واشتقاق القدير من القدرة لان القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته وفى ذلك دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور الله تعالى خلافا لابى على وأبى

هاشم لانه شئ وكل شئ مقدور واحتج بعض الفرق بأن هذه الآية تدل على أن الله تعالى ليس شئ قال لانها تدل على ان كل شئ مقدور لله تعالى والله سبحانه وتعالى ليس بمقدور له فوجب أن لا يكون شيأ واحتج أيضا على ذلك بقوله تعالى ليس كمثله شئ قال لو كان هو تعالى شيأ فهو تعالى مثل مثل نفسه فكان يكذب قوله تعالى ليس كمثله شئ فوجب أن لا يكون شيأ حتى لا يناقض هذه الآية واعلم أن هذا الخلاف فى الاسم لانه لا واسطة بين الموجود والمعدوم واحتج أصحابنا بوجهين الاول قوله تعالى قل أى شئ أكبر شهادة قل الله والثانى قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه والمستثنى داخل فى المستثنى منه فوجب أن يكون شيأ (واجيب) عن قوله ان هذه الآية تدل على أن الله تعالى قادر على نفسه بأن تخصيص العام جائز فى الجملة وأيضا تخصيص العام جائز بدليل العقل (فان قيل) اذا كان اللفظ موضوعا للكل ثم انه تبين انه غير صادق فى الكل كان هذا كذبا وذلك يوجب الطعن فى القرآن (أجيب) بأن لفظ الكل كما أنه مستعمل فى المجموع فقد يستعمل مجازا فى الاكثر فاذا كان ذلك مجازا مشهورا فى اللغة لم يكن استعمال اللفظ فيه كذبا ورقق ورش الراء من قدير وصلا ووقفا وباقى القراء بالترقيق وقفا لا وصلا * ولما عدّ سبحانه وتعالى فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم أقبل تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) تحريكا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة وتفخيما لشأنها وجبرا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد اما لعظمته كقول الداعى يارب ويا الله وهو أقرب اليه من حبل الوريد أو لغفلته وقلة فهمه أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه ولفظ الناس يعم الموجودين وقت النزول لفظا ومن سيوجد تنزيلا للمعدوم منزلة الموجود لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين ثابت الى قيام الساعة الا ما خصه الدليل وان قال الامام الرازى الاقرب أنه لا يتناوله لان يا أيها الناس صرف خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز وتناوله له لدليل منفصل وهو ما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن أحكامه ثابتة فى حق من سيوجد الى قيام الساعة (فان قيل) روى عن عقبة والحسن وابن عباس رضى الله تعالى عنهم أن كل شئ نزل فيه يا أيها الناس فمكى ويا أيها الذين آمنوا فمدنى فكيف تكون هذه السورة مكية وقد نزلت بالمدينة (أجيب) بأن المراد بقولهم السورة مكية أو مدنية ان غالبها ذلك والاولى أن يقال ان ذلك أكثرى لا كلى وأن سورة البقرة والنساء والحجرات مدنيات باتفاق وقد قال تعالى فى كل منها يا أيها الناس وسورة الحج مكية سوى ما استثنى وفيها من غيره يا أيها الذين آمنوا اركعوا ولا يختص ذلك الخطاب بالكفار ولا بأمرهم بالعبادة فان المأمور به هو المشترك بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الايمان بما يجب تقديمه من المعرفة والاقرار بالصانع فان من لوازم وجوب الشئ وجوب ما لا يتم الا به وكما ان الحدث لا يمنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة بل يجب رفع الكفر والاشتغال بالعبادة ومن المؤمنين ازديادهم

وثباتهم عليها وانما قال الله تعالى ربكم تنبيها على أن الموجب للعبادة هي الربوبية وقوله تعالى (الذى خلقكم) أى أنشأكم ولم تكونوا شيأ صفة جرت عليه للتعظيم والتعليل ويحتمل التقييد ان خص الخطاب بالمشركين وأريد بالرب أعم من الرب الحقيقي والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق ايجاد الشئ على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل اذا قدرها وسواها بالقياس وقرأ أبو عمرو وخلقكم بادغام القاف فى الكاف بخلف عنه (و) خلق (الذين من قبلكم) وهذا متناول لكل ما يتقدم الانسان بالذات أو الزمان كتقدم الجزء على الكل والواحد على الاثنين وهو منصوب عطف على الضمير المنصوب فى خلقكم كما علم من التقدير والجملة أخرجت مخرج المقرر عندهم امّا لاعترافهم به كما قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنّ الله أو لتمكنهم من العلم به بادنى نظر وقوله تعالى (لعلكم تتقون) اما حال من الضمير فى اعبدوا كأنه قال اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا فى سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين لجوار الله تعالى نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبرّى من كل شئ سوى الله الى الله وان العابد ينبغى أن لا يغترّ بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا يرجون رحمته ويخافون عذابه واما من مفعول خلقكم والمعطوف عليه على معنى أنه خلقكم ومن قبلكم فى صورة من ترجى منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعى اليه وغلب تعالى المخاطبين بقوله لعلكم على الغائبين فى اللفظ والمعنى على ارادتهم جميعا ولعل فى الاصل للترجى وفى كلامه تعالى للتحقيق والآية تدل على أنّ الطريق الى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته والعلم باستحقاقه للعبادة النظر فى صنعه والاستدلال بافعاله وأنّ العبد لا يستحق بعبادته عليه تعالى ثوابا فانها لما وجبت عليه شكرا لما عدّده عليه من النعم السابقة فهو كاجير أخذ الاجر قبل العمل وقوله تعالى (الذى جعل) أى خلق (لكم الارض فراشا) أى بساطا تفرش صفة ثانية أو منصوب بتقدير أمدح أو مرفوع خبر مبتدا محذوف ومعنى جعلها فراشا أن جعل بعض جوانبها بارزا عن الماء مع ما فى طبع الماء من الاحاطة بها وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لان يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط وذلك لا يستدعى كونها مسطحة لانّ كرية شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الفراش عليها فليس فى ذلك الا أنّ الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفاريش وسواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة (و) جعل لكم (السماء بناء) أى قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يقع على الواحد وعلى المتعدد كالدينار والدرهم وقيل جمع سماءة والبناء مصدر سمى به المبنىّ بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه بنى على امرأته لانهم كانوا اذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا وقوله تعالى (وأنزل من السماء ماء) معطوف على جعل والمراد بها امّا السحاب فان ما علاك سماء وامّا الفلك فانّ المطر يبتدئ امّا من السماء الى السحاب ومنه الى الارض كما دلت عليه الظواهر من الآيات كقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء وقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض وعن خالد بن معدان قال المطر ماء يخرج من

تحت العرش فينزل من سماء الى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا فيجتمع فى موضع فتجىء السحاب السود فتدخله فتشربه فيسوقها الله حيث شاء واما من أسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من أعماق الارض الى جوّ الهواء فتنعقد سحابا ماطرا (فأخرج به من) أنواع (الثمرات رزقا لكم) تأكلونه وتعلفون منه دوابكم وخروجها بقدرة الله تعالى ومشيئته ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سببا فى اخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان بأن أجرى عادته بافاضة صورها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما أو أبدع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو تعالى قادر على أن يوجد الاشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد ولكن له فى انشائها مرتقيا من حال الى حال صنائع وحكم يجدد فيها لاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ايجادها دفعة * (تنبيه) * من الاولى للابتداء ومن الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات لان ثمرات جمع قلة منكر واكتناف المنكرين لها أعنى ماء ورزقا كأنه تعالى قال وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهذا التبعيض هو الموافق للواقع اذ لم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر كل الثمرات ولا جعل بالمطر كل المرزوق ويصح أن تكون من الثانية للتبيين ورزقا مفعول وهو المبين بمعنى المرزوق كقول القائل أنفقت من الدراهم ألفا فان من الدراهم بيان لقوله عقبه ألفا (فان قيل) المحل محل جمع الكثرة فكيف أتى بجمع القلة (أجيب) بأن الجموع يتناوب بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وأوقع جمع القلة موقع جمع الكثرة بدليل ذكر كم وكقوله تعالى ثلاثة قروء فأوقع جمع الكثرة موضع جمع القلة لان مميز الثلاثة لا يكون الا جمع قلة أو لان الثمرات لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة (فلا تجعلوا لله أندادا) أى شركاء فى العبادة (فان قيل) لم سمى ما يعبده المشركون من دون الله أندادا مع انهم ما زعموا أنها تساويه فى ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه فى افعاله (أجيب) بأنهم لما تركوا عبادته الى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد انها ذوات واجبة بالذات قادرة على أنها تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير فتهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أندادا لمن يمتنع أن يكون له ند ولذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا تقسمت الامور

أدين أى أطيع من دان أى انقاد اذا تقسمت أى تفرقت

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل البصير
ألم تعلم بأن الله أفنى * رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم * فيربو منهم الطفل الصغير

وقوله تعالى (وأنتم تعلمون) حال من ضمير فلا تجعلوا ومفعول تعلمون متروك أى وحالكم انكم من أهل العلم والنظر واصابة الرأى فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم الى اثبات موجد للممكنات منفرد بوجود الذات متعال عن مشابهة المخلوقات أو مقدر وهو ان الانداد لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء وعلى

كون وأنتم تعلمون حالا فالمقصود منه التوبيخ سواء أجعل مفعول تعلمون متروكا أو مقدرا وان كان التوبيخ فى الاول اكد كما صرح به الكشاف لا تقييد الحكم وقصره وهو النهى عن جعلهم لله أندادا بحال علمهم فان العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء فى التكليف *(تنبيه)* قال البيضاوى واعلم أن مضمون الآيتين أى يا أيها الناس اعبدوا ربكم والذى جعل لكم الى آخرهما هو الامر بعبادة الله والنهى عن الاشراك به تعالى والاشارة الى ما هو العلة والمقتضى وبيانه انه تعالى رتب الامر بالعبادة على صفة الربوبية اشعارا بأنها العلة لوجوبها ثم بين ربوبيته بأنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون اليه فى معايشهم من المقلة والمظلة أى الارض والسماء والمطاعم والملابس فان الثمرة أعم من المطعوم أى فتعم الثمرات الملابس كالمطاعم والرزق أعم من المأكول والمشروب ثم لما كانت هذه أمورا لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهى عن الاشراك به ولعله سبحانه وتعالى أراد من الآية الاخيرة مع مادل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام الاشارة الى تفصيل خلق الانسان وما أفاض عليه من المعانى والصفات على طريقة التمثيل فمثل البدن بالارض والنفس بالسماء والعقل بالماء وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بوساطة استعمال العقل للحواس وازدواج أى اقتران القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولدة من ازدواج أى اقتران القوى السماوية الفاعلة والارضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار فان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حد مطلعا اه هذا روى عن الحسن مرفوعا مرسلا وظهر الآية ما ظهر من معانيها لاهل العلم الظاهر وبطنها ما تضمنته من الاسرار التى أطلع الله عليها الخواص وقيل ظاهرها تلاوتها وباطنها فهمها والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الاشراف على معرفتها * ولما قرر سبحانه وتعالى وحدانيته وبين الطريق الموصل الى العلم بها ذكر عقبه ما هو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التى غلبت فصاحة كل بليغ مع كثرتهم وافراطهم فى المضادة وتهالكهم على المغالبة بقوله تعالى (وان كنتم فى ريب) أى شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد من القرآن انه من عند الله (فأتوا بسورة) وانما قال تعالى مما نزلنا لان نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع على ما يرى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريبهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فكان الواجب تحديهم على هذا الوجه ازالة للشبهة والزاما للحجة فان أهل الشعر والخطابة يأتون بأشعارهم وخطبهم على قدر الحاجة شيأ فشيأ ولما كان القرآن منزلا كذلك طعنوا فيه بأنه مثل كلامهم فقيل لهم ان ارتبتم فى نزوله منجما فأتوا بنجم منه لانهم اذا عجزوا عن نجم منه فعجزهم عن كله أولى وأضاف العبد الى نفسه تنويها بذكره وتنبيها على أنه مختص به منقاد لحكمه والسورة من القرآن الطائفة منه المترجمة التى لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات والحكمة فى تقطيع القرآن سورا افراد الانواع وتلاحق الاشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارئ وتسهيل الحفظ والترغيب فيه فان القارئ اذا ختم سورة فرج ذلك عنه بعض كربه

كالمسافر اذا علم انه قطع ميلا أو طوى بريدا والحافظ اذا حفظ سورة اعتقد أنه أخذ من القرآن
حظا تاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده وابتهج به الى غير ذلك من الفوائد
وقوله تعالى (من مثله) صفة سورة أى بسورة كائنة من مثله والضمير لما نزلنا ومن للتبعيض
أو للتبيين وزائدة عند الاخفش أى بسورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم وقيل الضمير
لعبدنا ومن للابتداء أى بسورة كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرا أميا لم يقرا الكتب ولم يتعلم
العلوم والوجه الاول أولى لانه المطابق لقوله تعالى فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله ولسائر
آيات التحدى ولان الكلام فى المنزل لا فى المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب
والنظم اذ المعنى وان ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بقرآن من مثله ولان مخاطبة
الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جنسهم أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم ليأت
بنحو ما أتى به عبدنا آخر مثله ولانه معجز فى نفسه لا بالنسبة اليه لقوله تعالى قل لئن اجتمعت
الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولان عود الضمير الى عبدنا يوهم امكان
صدوره ممن لم يكن على صفته ولا يلائمه قوله تعالى (وادعوا شهداءكم من دون الله) فانه تعالى
أمر أن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم سواء كان مثله أم لا والشهداء جمع شهيد
بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة ومنه قيل للمقتول فى سبيل الله شهيد لانه حضر ما كان
يرجوه أو الملائكة حضروه ومعنى دون أدنى مكان من الشئ ومنه تدوين الكتب لانه أدنى
البعض من البعض ودونك هذا أى خذه من أدنى مكان منك ثم استعير للرتب فقيل عمرو دون
زيد أى فى الشرف ومنه الشئ الدون ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد الى آخر وتخطى
أمر الى آخر وان خلى عن الرتبة قال تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين الى ولاية الكافرين ومن متعلقة بادعوا فهى لابتداء الغاية
والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من انسكم وجنكم وادعوا آلهتكم
التى تعبدونها غير الله وتزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة أى استعينوا بهم فى الاتيان بما ذكر
(ان كنتم صادقين) فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه وان آلهتكم تشهد
لكم بذلك وجواب هذا الشرط محذوف تقديره فافعلوا أى ما ذكر من الاتيان بسورة دل
عليه قوله تعالى (فان لم تفعلوا) ذلك والصدق الاخبار المطابق وقيل مع اعتقاد المخبر أنه
كذلك عن دلالة أو امارة لانه تعالى كذب المنافقين فى قولهم انك لرسول الله لما لم يعتقدوا
مطابقته ورد هذا القول بصرف التكذيب الى قولهم نشهد لان الشهادة اخبار عما علمه
وهم ما كانوا عالمين به وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة أى لا يقع منكم ذلك أبدا لاعجاز
القرآن (فاتقوا النار التى وقودها) أى ما تتقد به (الناس والحجارة) التى نحتوها واتخذوها
أربابا من دون الله طمعا فى شفاعتها والانتفاع بها ويدل لذلك قوله تعالى انكم وما تعبدون من
دون الله حصب جهنم عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكانزون بما كنزوه أو بحجارة
الكبريت كما رواه الطبرانى عن ابن مسعود والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما وعليه أكثر المفسرين وان قال البيضاوى انه تخصيص بغير دليل لان مثل هذا التفسير الوارد عن الصحابى فيما يتعلق بأمر الآخرة له حكم المرفوع وأيضا حجارة الكبريت أشد حرا وأكثر التهابا وتزيد على غيرها من الاحجار سرعة الايقاد ونتن الريح وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالابدان وقيل جميع الحجارة * (تنبيه) * تفعلوا مجزوم بلم لا بان لان لم واجبة الاعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول ولانها لما صيرته ماضيا صارت كالجزء منه وحرف الشرط كالداخل على المجموع وكأنه قال فان تركتم الفعل ولذلك ساغ اجتماعهما وحاصله ان ان تقتضى الاستقبال ولم تقتضى المضى فرجحت لم لماذكر فيكون المعنى على المضى دون الاستقبال وقيل ان ان بمعنى اذ ولا اشكال حينئذ وقيل كل منهما على حقيقته والمعنى ان تبين فى المستقبل عدم فعلكم فى الماضى ولن تفعلوا فى المستقبل فاتقوا النار ولن كلا فى نفى المستقبل غير انه أبلغ وهو حرف بسيط ثنائى الوضع وقيل أصله لا ان حذفت الهمزة منها لكثرتها فى الكلام ثم ألف لا لالتقاء الساكنين ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى فى سورة التحريم نارا وقودها الناس والحجارة وسمعوه صح تعريف النار ووقوع الجملة صلة فان الصلة يجب أن تكون معلومة وهى معلومة هنا من سورة التحريم حيث وقعت صفة (فان قيل) الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف كالصلة والا لكانت خبرا ولهذا قالوا ان الصفات قبل العلم بها اخبار كما ان الاخبار بعد العلم بها أوصاف فيما تى فى الصفة فى آية التحريم ماذكر فى الصلة * (أجيب) * بأن الصلة والصفة يجب كونهما معلومين للمخاطب لا لكل سامع ومافى التحريم خطاب للمؤمنين وقد علموا ذلك لسماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم ولما سمع الكفار ذلك الخطاب أدركوا منه نارا موصوفة بتلك الجملة فجعلت فيما خوطبوا به (أعدت) أى هيئت (للكافرين) وجعلت عدة لعذابهم وفى ذلك دليل على ان النار مخلوقة معدة لهم الآن والجملة استئناف أو حال من النار باضمار قد والعامل فى الحال اتقوا وهى حال لازمة فلا يشكل بأن النار أعدت للكافرين اتقوها أم لا * (تنبيه) * قال البيضاوى فى الآيتين أى آية ان كنتم فى ريب وآية فان لم تفعلوا مايدل على النبوة من وجوه الاول مافيهما أى فى مجموعهما من التحدى والتحريض على الجد وبذل الوسع فى المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الاتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن العزيز ثم انهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا للمعارضة والتجؤا الى جلاء الوطن وبذل المهج لان قوله من التحدى راجع للآية الاولى والباقى راجع الى الثانية والثانى تضمنهما أى مجموعهما الاخبار عن الغيب على ماهو به فانهم لو عارضوه بشئ لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه فى كل عصر لان ذلك راجع للآية الثانية والثالث انه عليه الصلاة والسلام لوشك فى أمره أى نفسه لما دعاهم الى المعارضة بهذه المبالغة مخافة أن يعارض فتذهب حجته وهذا راجع الى الآية الاولى * ثم عطف سبحانه وتعالى حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه على عادة ماجرت به العادة الالهية من أن يشفع الترغيب

بالترهيب تنشط الاكتساب ماينجي وتثبيطا عن اقتراف ماردى بقوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الطاعات (أن لهم جنات) أى حدائق ذات شجر ومساكن وانما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة أن يبشر الذين آمنوا ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة تفخيما لشأنهم وايذانا بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنؤا بما أعد لهم والبشارة الخبر الصدق السار أولا فانه يظهر أثر السرور فى البشرة لان النفس اذا سرت انتشر الدم انتشار الماء فى الشجرة ولذلك قال الفقهاء البشارة هو الخبر الاول حتى لو قال الرجل لعبيده من يبشرنى بقدوم ولدى فهو حر فأخبروه فرادى عتق أولهم ولو قال من أخبرنى عتقوا جميعا (فان قيل) ما الجواب عن قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم *(أجيب)* بان ذلك ورد على سبيل التهكم كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم وعطف سبحانه وتعالى العمل على الايمان مرتبا للحكم عليهما اشعارا بأن السبب فى استحقاق هذه البشارة مجموع الامرين والجمع بين الوصفين فان الايمان الذى هو عبارة عن التيقن والتصديق أس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا نفع تام بأس لا بناء عليه ولذلك قلما ذكرا مفردين وفى عطف العمل على الايمان دليل على أن الصالحات خارجة عن مسمى الايمان اذ الاصل أن الشئ لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه وجمع سبحانه وتعالى الجنة لان الجنان على ما ذكره ابن عباس سبع جنة الفردوس وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفى كل واحدة من هذه السبع مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الاعمال والعمال واللام فى الصالحات للجنس لا للاستغراق اذ لا يكاد المؤمن أن يعمل جميع الصالحات واللام فى لهم تدل على استحقاقهم اياها لاجل ما ترتب عليه من الايمان والعمل الصالح لا لذاته فانه لا يكافئ النعم السابقة فضلا عن أن يقتضى ثوابا وجزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده ولا على الاطلاق بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ولعله سبحانه وتعالى لم يقيدها هنا استغناء بهذه الآية وأشباهها (تجرى من تحتها) أى من تحت أشجارها ومساكنها (الانهار) كما تراها جارية تحت الاشجار النابتة على شواطئها وعن مسروق أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود قال الجوهرى الاخدود شق مستطيل فى الارض واللام فى الانهار للجنس كما فى قولك لفلان بستان فيه الماء الجارى قال البيضاوى أو للعهد والمعهود هى الانهار المذكورة فى قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن الآية اه قال التفتازانى انما يصح هذا لو ثبت سبق قوله تعالى أنهار من ماء غير آسن فى الذكر اه والنهر بالفتح والسكون المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والمراد بالانهار ماؤها على حذف مضاف أو تسمية للماء باسم مجراه مجازا واسناد الجرى اليها مجاز كما فى قوله تعالى وأخرجت الارض أثقالها (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أى اطعموا من تلك الجنان ثمرة ومن صلة (قالوا هذا الذى رزقنا) أى أطعمنا (من قبل) أى من قبل هذا فى الدنيا جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس اليه

أوّل ما يرى فانّ الطبائع مائلة الى المألوف مستنفرة من غيره أى هذا من نوعه لتشابه ما يؤتون به
فى الصورة كما قال تعالى (وأتوا به متشابها) أى فى اللون والصورة مختلفا فى الطعم وذلك
أبلغ فى باب الاعجاز والداعى لهم الى ذلك فرط استغرابهم وافتخارهم بما وجدوا من التفاوت
العظيم فى اللذة والتشابه البليغ فى الصورة وقيل فى الجثة لانّ طعامها متشابه الصورة كما
حكى عن الحسن انّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الاولى فيقول
ذلك فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف أو كما روى أنه عليه الصلاة والسلام
قال والذى نفس محمد بيده انّ الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فماهى واصلة الى فيه
حتى يبدل الله مكانها مثلها وعن مسروق نخل الجنة نضيد من أصلها الى فرعها وثمرها أمثال
القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى والعنقود اثناعشر ذراعا (فان قيل) على الاوّل
التشابه هو التماثل فى الصفة وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس ليس
فى الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء *(أجيب)* بأنّ التشابه بينهما حاصل فى الصورة التى هى
مناط الاسم دون المقدار والطعم وهو كاف فى اطلاق التشابه وللآية كما قال البيضاوى محمل
آخر وهو أنّ مستلذات أهل الجنة فى مقابلة ما رزقوا فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة
فى اللذة بحسب تفاوتها فيحتمل أن يكون المراد من هذا الذى رزقنا انه ثوابه ومن تشابههما
تماثلهما فى الشرف والرتبة وعلوّ الطبقة فيكون هذا فى الوعد نظير قوله تعالى ذوقوا ما كنتم
تعملون فى الوعيد (ولهم فيها) أى الجنات (أزواج) من الحور العين والآدميات (مطهرة)
مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهنّ كالحيض والدرن أى الوسخ ودنس الطبع
وسوء الخلق فانّ التطهير يستعمل فى الاجسام والاخلاق والافعال ومعنى تطهيرهنّ مما ذكر
كما قال التفتازانى انها منزهة عن ذلك مبرأة عنه بحيث لا يعرض لهنّ لا التطهر الشرعى بمعنى
ازالة النجس الحسى أو الحكمى كما فى الغسل عن الحيض والزوج يقال للذكر والانثى قال تعالى
وأصلحنا له زوجه وهو فى الاصل لما له قرين من جنسه كزوج الخف (فان قيل) فائدة المطعوم
هو التقوّى ودفع ضرر الجوع وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع وهذه الفوائد مستغنى
عنها فى الجنة *(أجيب)* بأنّ مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها انما تشارك نظائرها
الدنيوية فى بعض الصفات والاعتبارات وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل
ولا تشاركها فى تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدتها (وهم فيها خالدون)
أى دائمون أحياء لا يموتون ولا يخرجون والاصل فى الخلود الثبات المديد دام أو لم يدم اذ لو كان
وضعه للدوام لكان التقييد بالتأبيد فى قوله تعالى خالدين فيها أبدا تأكيدا لا تأسيسا والاصل
خلافه لكن المراد به الدوام فى الآية عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنن (فان قيل)
الابدان مركبة من أجزاء متضادّة الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية الى الانفكاك
والانحلال فكيف يعقل خلودها فى الجنات *(أجيب)* بأنه تعالى يعيدها بحيث لا تعتريها
الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلا متقاومة فى الكيفية متساوية فى القوّة لا يقوى شئ منها على

احالة الآخرمتعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد في بعض المعادن ولما كان معظم اللذات الحسية مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح على ما دل عليه الاستقراء وكان مآل ذلك كله الثبات والدوام وأن كل نعمة جليلة اذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بالمساكن والمطاعم والمناكح فبشر بالاول بقوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار وبالثانى بقوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا الآية وبالثالث بقوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة ومثل ما أعدلهم فى الآخرة بأحسن ما يستلذ منها وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل على كمالهم فى التنعم والسرور * ولما ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله تعالى وان يسلبهم الذباب وقوله تعالى كمثل العنكبوت قالت اليهود ضرب المثل بذلك مما يستحيا منه لخسته فليس من عند الله تعالى فنزل ردا عليهم (ان الله لا يستحيى) أى لا يترك (أن يضرب مثلا ما بعوضة) وهى صغيرة البق ترك من يستحيى أن يمثل بها لحقارتها وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل باضمار من منصوب بافضاء الفعل اليه بعد حذف من عند سيبويه ويجوز كما فى الكشاف نصبه بافضاء الفعل اليه بنفسه فان استحيا يتعدى بنفسه أيضا يقال استحييت منه واستحييته وما امّا ابهامية تزيد النكرة قبلها ابهاما واما مزيدة لتأكيد معنى مضمون الجملة قبلها كالتى فى قوله تعالى فبما رحمة من الله ولا يراد بالمزيد اللغو الضائع فان القرآن كله هدى وبيان بل المراد بالمزيد ما لم يوضع لمعنى يراد منه وانما وضعت لان تذكر مع غيرها فتفيده وثاقة وقوة وهو زيادة فى الهدى غير قادح فى القرآن وبعوضة عطف بيان أو بدل من مثلا أو مفعول ثان ليضرب بمعنى يجعل والحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم وهو الوسط بين الوقاحة التى هى الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها وبين الخجل الذى هو انحصار النفس عن الفعل مطلقا فاذا وصف به البارى سبحانه وتعالى كما جاء فى الحديث ان الله يستحيى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه ان الله حيى كريم يستحيى اذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا فالمراد به الترك كما قدرته اللازم للانقباض كما ان المراد من رحمته وغضبه اصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما وتحتمل الآية خاصة أن يكون مجىء الحياء فيها للمشاكلة وهو أن يذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ولو تقديرا كما هنا وهو قول الكفرة اما يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ولما كان التمثيل يصار اليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وابرازه فى صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فان المعنى الصرف انما يدركه العقل مع منازعة من الوهم لان من طبعه ميل الحس وحب المحاكاة فشاعت الامثال فى الكتب الالهية وفشت فى عبارات البلغاء واشارات الحكماء فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم وان كان الممثل أعظم من كل عظيم كما مثل سبحانه وتعالى فى الانجيل غل الصدر بالنخالة والقلوب القاسية بالحصاة ومخالطة السفهاء باثارة الزنابير ونبه على ما حكاه الفخر الرازى فى الاول لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل

فى صدوركم وفى الثانى قلوبكم كالحصاة التى لا تطبخها النار ولا يلينها الماء ولا ينسفها الريح وفى الثالث لا تثيروا الزنابير فتلدغكم فكذلك لا تخالطوا السفهاء فيشتموكم وجاء فى كلام العرب اسمع من قراد لان العرب تزعم أنه يسمع صوت اخفاف الابل من مسيرة يوم فيتحرك لها وقيل من مسيرة سبع ليال وأعز من مخ البعوض يضرب لمن يكلف الامور الشاقة (فما فوقها) أى ما زاد على البعوضة فى الجثة كالذباب والعنكبوت والمعنى أنه لا يستحيى من ضرب المثل بالبعوضة فضلا عما هو أكبر منه أو المعنى الذى جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها فانه عليه الصلاة والسلام ضرب جناحها مثلا للدنيا بقوله فى خبر الترمذى لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ونظيره فى احتمال الفوقية للجثة وللمعنى ما روى البخارى وغيره ان رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى الالم كالسقوط على الطنب وما زاد عليها فى القلة كقرصة النملة والطنب حبل الخباء والفسطاط بيت من شعر (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه) أى ضرب المثل بذلك (الحق) أى الواقع موقعه (من ربهم) لان الحق هو الثابت الذى لا يسوغ انكاره وهو يعم الاعيان الثابتة والافعال الصائبة والاقوال الصادقة من قولهم حق اذا ثبت ومنه ثوب محقق أى محكم النسج وأما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شئ فزيد ذاهب أى هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لا الخبر لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فأدخلوا الفاء على الخبر وعوضوا المبتدأ عن جملة الشرط لفظا (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا) يحتمل وجهين أن تكون ما استفهامية وذا بمعنى الذى وما بعده صلته والمجموع خبرما وأن تكون ما مع ذا اسما واحدا بمعنى أى شئ (أراد الله بهذا) فهو منصوب المحل على المفعولية لاراد فماوذا كما فى الكشاف فى حكم ما وحده لو قلت ما أراد الله وكان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه وهو الذين آمنوا ويقابل قسيمه وهو يعلمون أنه الحق لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على كمال جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية عن عدم علمهم ليكون كالبرهان عليه والارادة صفة ذاتية قديمة زائدة على العلم ترجح أحد مقدوريه على الآخر وتخصصه بوجه دون وجه بخلاف القدرة فانها لا تخصص الفعل ببعض الوجوه بل هى موجدة للفعل مطلقا وقوله تعالى (مثلا) نصب على الحال من اسم الاشارة والعامل فيه اسم الاشارة أو التمييز والمعنى أى فائدة فى ذلك فقال تعالى (يضل به كثيرا) بأن يكذبوا به (ويهدى به كثيرا) بأن يصدقوا به وكثرة كل واحد من القبيلين بالنظر الى أنفسهم لا بالقياس أى لا بالنظر الى مقابليهم فان المهتدين قليلون بالاضافة الى أهل الضلال كما قال تعالى وقليل من عبادى الشكور ويحتمل أن تكون كثرة الضالين من حيث العدد وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما قال المتنبى فى مدح على بن يسار

ساطلب

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * قليل اذا عدّوا كثير اذا شدوا

وقال * ان الكرام كثير (أي كرما) في البلاد وان * قلوا (أي عددا) كما غيرهم قل (بضم القاف وكسرها أي قليل كرما) وان كثروا * أي عددا (وما يضل به الا الفاسقين) أي الخارجين عن حدّ الايمان بالكفر كقوله تعالى ان المنافقين هم الفاسقون وتخصيص الاضلال بهم مرتبا على صفة الفسق يدل على انه الذي أعدهم للاضلال وأدى بهم الى الضلال بالمثل وسبب ضلالتهم به ان كفرهم وعدولهم عن الحق واصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل الى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت به ضلالتهم فانكروا المثل واستهزؤا به وأما الفاسق في الشرع فهو الخارج عن أمر الله بارتكاب كبيرة أو اصرار على صغيرة ولم تغلب طاعاته على معاصيه ولا يخرجه ذلك عن الايمان الا اذا اعتقد حل المعصية سواء كانت كبيرة أم صغيرة قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة جعلوا الفاسق قسما ثالثا نازلا بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركة كل واحد منهما في بعض الاحكام * ثم بين سبحانه وتعالى صفة الفاسقين بقوله (الذين ينقضون عهد الله) وهو اما المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسله وعليه يدل قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم واما المأخوذ بالرسل على الامم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدّق بالمعجزات صدّقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه وعليه يدل قوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الآية وقيل عهود الله ثلاثة عهد أخذه بواسطة العقل على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته وعهد أخذه بواسطة الملك على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه وعهد أخذه بواسطة الرسل على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه وقوله تعالى (من بعد ميثاقه) أي توكيده يحتمل عود الضمير للعهد فهو من اضافة المصدر الى المفعول أو لله فهو من اضافة المصدر الى الفاعل قال البيضاوي ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر (واعترض) بأن النحويين لم يذكروا مفعالا في صيغ المصادر وأصله أن يكون وصفا كطعام ومقدام (وأجيب) بحمل ذلك على أنه اسم واقع موقع المصدر كما يشير اليه قوله بمعنى المصدر (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) وهو الرحم لانهم قطعوا رحم النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاداة معه ويحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام والكتب في التصديق وترك الجماعات وما أمر فيه برفض خير أو تعاطي شر فانه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل والامر هو القول الطالب للفعل وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء وأن يوصل بدل من الهاء وقرأ ورش بتغليظ اللام وصلا واذا وقف رقق وغلظ وأدغم خلف النون في الياء بغير غنة (ويفسدون في الارض) بالمعاصي وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه (أولئك هم الخاسرون) بفوات التوبة والمصير الى العقوبة باهمال

العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الابدية واستبدال الانكار والطعن فى الآيات بالايمان بها والنظر فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتروا النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب * ثم وبخ سبحانه وتعالى الكفار بقوله (كيف تكفرون بالله) أى أخبرونى على أى حال تكفرون (وكنتم أمواتا) أى نطفا فى أصلاب آبائكم لا احساس لكم (فأحياكم) فى الارحام ثم فى الدنيا بخلق الارواح ونفخها فيكم وانما عطفه بالفاء لانه متصل بما عطف عليه غير متراخ عنه بخلاف البواقى وقرأ الكسائى بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) للبعث يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور قال التفتازانى ولم لا يجوز أن يراد مطلق الاحياء بعد الاماتة على ما يعم الاحياء فى القبور والنشور ولا بعد فيه لشدة ارتباط الاحياءين واتصالهما فى الانقطاع عن أمر الدنيا (ثم اليه ترجعون) تردون بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم أو تنشرون اليه من قبوركم للحساب فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه (فان قيل) ان علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم اليه يرجعون (أجيب) بأن تمكنهم من العلم بما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم فى ازاحة العذر سيما فى الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما وهو انه تعالى لما قدر على احيائهم أولا قدر على أن يحييهم ثانيا فان بدء الخلق ليس بأهون عليه من اعادته (فان قيل) كيف تعد الاماتة من النعم المقتضية للشكر (أجيب) بأنها لما كانت وصلة للحياة الدائمة التى هى الحقيقية كما قال تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان يعنى الحياة كانت من النعم العظيمة مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها كما أن الواقع حالا هو العلم بها لا كل واحدة من الجمل فان بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح حالا ويصح أن يكون الخطاب مع الكفار والمؤمنين فانه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الايمان وأوعدهم على الكفر أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة واستبعد صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة فان عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم وأن يكون مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم وتبعيد الكفر عنهم على معنى كيف يتصور الكفر منكم وكنتم أمواتا أى جهالا فأحياكم بما أفادكم من العلم والايمان ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم اليه ترجعون فينبئكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والحياة حقيقة فى القوة الحاسة أو ما يقتضيها وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لانها من طلائعها ومقدماتها وفيما يخص الانسان من الفضائل كالعلم والعقل والايمان من حيث انه كمالها وغايتها والموت بازائها يقال على ما يقابلها فى كل مرتبة مثال ما يقابل الحقيقة قوله تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ومثال ما يقابل المجاز الاول قوله تعالى اعلموا أن الله يحيى الارض بعد موتها ومثال ما يقابل المجاز الثانى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس واذا وصف بها البارى تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا

أومعنى قائم بذاته تعالى * ثم أومأ الى مشيئته وقدرته فقال (هو الذى خلق لكم مافى الارض) أى لاجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستنفاعكم بها فى مصالح أبدانكم بوسط كالادوية المركبة أوغير وسط كالثمرة والادوية المفردة وفى دينكم بالاستدلال على موجدكم ففى ذلك نعمة على عباده سبحانه وتعالى ومانعم كل مافى الارض لاالارض الاان أريد بالارض جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو وقوله تعالى (جميعا) حال من الموصول الثانى وهوما وهى حال مؤكدة لما لاتحاده مافى العموم وهذا أقرب من جعله حالا من ضمير لكم لان سياق الآيات انماهو فى تعداد النعم لافى تعداد المنعم عليهم ولان المنة بتعداد النعم أظهر من المنة بتعداد المنعم عليهم لان مقدار النعم يصل الى كل أحد (ثم استوى الى السماء) أى قصد الى خلقها بارادته وأصل الاستواء طلب السواء واطلاقه على الاعتدال لمافيه من تسوية وضع الاجزاء ولايمكن حمله على الله تعالى لانه من خواص الاجسام وقيل استوى استولى كما قيل

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

والمراد بالسماء هذه الاجرام العلوية أوجهات العلو ليطابق قوله تعالى (فسواهن سبع سموات) فجمع الضمير العائد الى السماء لارادة الجنس وقيل لان السماء جمع سماءة أى جعلهن مستويات لاشقوق فيهن ولاتفاوت قال البيضاوى وثم لعله لتفاوت مابين الخلقين أى فى القدر والعظم وفضل خلق السماء على خلق الارض كقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا لاللتراخى فى الوقت فانه يخالف ظاهر قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها فانه يدل على تأخر دحو الارض المتقدم على خلق مافيها عن خلق السماء وتسويتها اه (وأجيب) بأنه لايدل على ذلك لان تقدم خلق جرم الارض على خلق جرم السماء لاينافى تأخر دحوها عنه وهو بسطها ورده التفتازانى بأنه ليس على ماينبغى لان ثم تدل على تأخر خلق السماء عن خلق مافى الارض من عجائب الصنع حتى أسباب اللذات والآلام وأنواع الحيوانات حتى الهوام لاعن مجرد خلق جرم الارض قال وسنذكر فى حم السجدة مايدل على تأخر خلق السماء عن خلق الارض ودحوها جميعا حتى قيل انه خلق الارض ومافيها فى أربعة أيام ثم خلق السماء ومافيها فى يومين وكثر ذلك فى الروايات فلا يفيد حمل ثم على تراخى الرتبة اه والاوجه كما قاله بعض المفسرين الموافق لظاهر ماهنا وماسيأتى فى فصلت تأويله مع الايضاح أن يقال ان خلق جرم الارض مقدم على خلق جرم السماء وخلق وصفها أعنى دحوها مقدم على خلق وصف السماء أعنى تسويتها سبعا فرجع الاشارة فى قوله تعالى بعد ذلك جرم السماء لاوصفها وبذلك علم أن جعل ثم للتراخى فى الوقت لايخالف ماذكر خلافا لما زعمه البيضاوى (فان قيل) أليس أن أصحاب الارصاد أثبتوا بالبراهين تسعة أفلاك وهى كرة القمر فكرة عطارد فكرة الزهرة فكرة الشمس فكرة المريخ فكرة المشترى فكرة زحل فالفلك الذى فيه الكواكب الثابتة فالفلك الاعظم وهو متحرك كل يوم وليلة على التقريب دورة واحدة (وأجيب) بأن ماذكروه ليس مستندا الى دليل شرعى فلا ينبغى اعتباره قال البيضاوى

وان صح فليس فى الآية نفى الزائد مع أنه ان ضم اليها العرش والكرسى لم يبق خلاف وقوله
تعالى (وهو بكل شئ عليم) أى مجملا ومفصلا فيه تعليل كأنه قال ولكونه عالما بكيفية الاشياء
كلها خلق ما خلق على هذا النمط الاكمل والوجه الانفع واستدلال بأن من كان فعله على هذا
النسق العجيب والترتيب الانيق كان عليما فان اتقان الافعال واحكامها وتخصيصها بالوجه
الاحسن الانفع لا يتصور الا من عالم حكيم رحيم أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ذلك ابتداء
وهو أعظم منكم قادر على اعادتكم وقرأ حمزة والكسائى ثم استوى وفسواهن بالامالة وورش
بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى وهو بسكون الهاء
والباقون بضمها (و) اذكر يا محمد (اذ قال ربك للملائكة) وقيل اذ زائدة أى وقال ربك وكل
ما ورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وهو اما أن يقدر اذكر وهو الاولى أو تكون اذ مزيدة
واذ واذا ظرفا توقيت الا أن اذ للماضى واذا للمستقبل وقد يوضع أحدهما موضع الآخر
قال المبرد اذا جاء اذ مع المستقبل كان معناه ماضيا كقوله تعالى واذ يمكر يعنى واذ مكروا
واذا جاء اذا مع الماضى كان معناه مستقبلا كقوله تعالى اذا جاء نصر الله أى سيجئ وقرأ أبو
عمرو بادغام اللام فى الراء بخلاف عنه والباقون بالاظهار والملائكة جمع ملك أصله ملأك
والتاء لتأنيث الجمع وهو مقلوب مألك من الالوكة وهى الرسالة لانهم وسايط بين الله تعالى وبين
الناس فهم رسل الله أو كالرسل اليهم لتوسط الانبياء بينهم وبين الناس واختلف العقلاء
فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المسلمين الى أنها
أجسام لطيفة شفافة ويعبرون عنها بنورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة والجن
قادرة على ذلك واستدلوا على ذلك بأن الرسل كانوا يرونهم أجساما لطيفة متشكلة بأشكال
مختلفة وزعم الحكماء يعنى الفلاسفة أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة
وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة أى المتصفة بفضائل العلم والعمل بخلاف
الشريرة فانها عندهم الشياطين البشرية الناطقة * قوله البشرية وما بعده صفة للنفوس
المفارقة للابدان يعنى ما دامت فى الابدان تسمى النفوس فاذا فارقتها كانت الملائكة والمقول
له الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص وقيل ملائكة الارض وذلك أن الله
تعالى خلق السماء والارض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن
الجن فى الارض فمكثوا فيها دهرا طويلا ثم ظهر فيهم الحسد والبغى فأفسدوا
فيها فبعث الله تعالى اليهم جندا من الملائكة يقال له الجن وهم خزان الجنان اشتق
لهم اسم من الجنة رأسهم ابليس فكان رئيسهم ومن أشدهم وأكثرهم علما فهبطوا الى
الارض وطرد والجن الى شعوب الجبال وبطون الاودية وجزائر البحور وسكنوا الارض
وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى الله تعالى ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا
وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارة فى الارض وتارة فى السماء وتارة فى الجنة
فدخله العجب وقال ما أعطانى الله تعالى هذا الملك الا لانى أكرم الملائكة عليه فقال الله

تعالى له ولجنده (انى جاعل فى الارض خليفة) وجاعل من جعل الذى له مفعولان وهما فى الارض خليفة أعمل فيهما لانه بمعنى الاستقبال ومعتمد على مسند اليه ويجوز أن يكون بمعنى خالق فيتعدى لمفعول واحد وهو خليفة والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه أى جاعله بدلا منكم ورافعكم الى فكرهوا ذلك لانهم كانوا أهون الملائكة عبادة والهاء فيه للمبالغة والمراد به آدم صلى الله عليه وسلم لانه كان خليفة الله فى أرضه وكذا كل نبى استخلفه الله فى عمارة الارض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى الى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أى فى صورة رجل ألا ترى أن الانبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار أرسل اليهم الملائكة ومن كان من الانبياء أعلى رتبة كلمه بلا واسطة كما كلم موسى صلاة الله وسلامه عليه فى الميقات ومحمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقيل انه خليفة من سكن الارض قبله وقيل المراد آدم وذريته لانهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا وافراد اللفظ اما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه أو على تأويل من يخلف وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول بأن بشر تعالى بوجوده سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه واظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضى ايجاد ما يغلب خيره فان ترك الخير الكثير لاجل الشر القليل شر كثير الى غير ذلك (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصى (ويسفك الدماء) أى يريقها بالقتل كما فعل بنو الجان تعجبوا من أن يستخلف لعمارة الارض واصلاحها من يفسد فيها وقصدهم استكشاف ما خفى عليهم من الحكمة التى بهرت تلك المفاسد وألغتها وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن فى بنى آدم على وجه الغيبة فانهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وانما عرفوا ذلك باخبار من الله تعالى أو تلق من اللوح أو استنباط عما ركز فى عقولهم ان العصمة من خواصهم أو قياس لاحد الثقلين على الآخر والا فهم ما كانوا يعلمون الغيب (ونحن نسبح) متلبسين (بحمدك) أى نقول سبحان الله وبحمده وهذه صلاة ماعدا الآدميين وعليها يرزقون قال تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده أى يقول سبحان الله وبحمده روى عن أبى ذر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده وقيل ونحن نصلى بأمرك قال ابن عباس كل ما فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة (ونقدس لك) ننزهك عما لا يليق بك فاللام صلة والجملة حال مقررة لجهة الاشكال كقولك أتحسن الى أعدائك وأنا الصديق المحتاج والمعنى أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك والمقصود منه الاستفسار عما رجحهم مع ما هو متوقع منهم على الملائكة المعصومين فى الاستخلاف لا العجب والتفاخر وقيل نقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح

وسفك الدماء الذى هو أعظم الافعال الذميمة بتطهر النفس عن الآثام (قال) تعالى (انى أعلم ما لا تعلمون) من المصلحة فى استخلاف آدم وان ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم وقيل انى أعلم أن فيكم من يعصينى وهو ابليس وجنوده وقيل انى أعلم أنهم مذنبون وأنا أغفر لهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد (وعلم آدم الاسماء) أى أسماء المسميات (كلها) حتى القصعة والمغرفة وقيل علمه اسم ما كان وما يكون الى يوم القيامة وقيل صيغة كل شئ قال أهل التأويل ان الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا فى البلدان واختص كل فرقة منهم بلغة وذلك اما بخلق علم ضرورى بها فيه أو ألقى فى قلبه علمها أو بارسال ملك أو بخطاب الله له أو بخلق الاصوات فى الاجسام المسميات والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا ولذلك يقال علمته فلم يتعلم وآدم اسم أعجمى كسائر الانبياء الا صالحا وشعيبا ولوطا ومحمدا بل قيل ان آدم أيضا عربى وعلى هذا فاشتقاقه من الادمة بضم الهمزة وسكون الدال بمعنى السمرة أو الادمة بفتح الهمزة والدال بمعنى الاسوة أى القدوة أو من أديم الارض أى ظاهر وجهها روى الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله قبض قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها وهو بفتح الحاء المهملة ما غلظ من الارض وصلب أى وعجنت بالمياه المختلفة فخلق منها آدم ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا فلذلك يأتى بنوه مختلفين فى الالوان والاخلاق والهيآت وأما على الاول فلا اشتقاق له لان ذلك انما يأتى فى الاسماء العربية والاعجمى لا اشتقاق له وكنيته أبو محمد وأبو البشر والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباعدة مستعدا لادراك أنواع المدركات والمعقولات والمحسوسات والمخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الاشياء وخواصها واسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها وقرأ ورش فى الهمزة من آدم بالمد والتوسط والقصر حيث جاء وقوله تعالى (ثم عرضهم على الملائكة) الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا فى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء اذ التقدير أسماء المسميات كما مر تقريره فحذف المضاف اليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام فى الاسماء كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا لان العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الاسماء اذ العرض لا يصح فيها لانها من المسموعات والعرض يختص بالمحسوسات بالعين تقول عرضت الجند عرض العين اذا مررتهم عليك ونظرت ما حالهم (فان قيل) لم قال عرضهم ولم يقل عرضها (أجيب) بان الاسماء اذا جمعت جمع من يعقل ومن لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل كما يكنى عن الذكور والاناث بلفظ الذكور وقال مقاتل خلق الله كل شئ الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة والكناية راجعة الى الشخوص فلذلك قال عرضهم على الملائكة (فقال) لهم سبحانه وتعالى تبكيتا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة (أنبئونى) أى أخبرونى (بأسماء هؤلاء) المسميات (ان كنتم صادقين) انى لا أخلق خلقا الا كنتم أفضل وأعلم منه وذلك ان الملائكة قالوا لما قال انى جاعل فى الارض خليفة ليخلق ربنا

مايشاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منا وان كان فنحن أعلم منه لانا خلقنا قبله ورأينا مالم يره فاظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وجواب الشرط دل عليه ماقبله (قالوا) أى الملائكة اقراراً بالعجز واشعاراً بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً وأنه قد بان لهم ماخفى عليهم من فضل الانسان والحكمة فى خلقه واظهار الشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما التبس عليهم (سبحانك) تنزيهاً عن الاعتراض عليك (لا علم لنا الا ما علمتنا) اياه وفى هذا مراعاة للادب بتفويض العلم كله اليه سبحانه وتعالى وتصدير الكلام بسبحان اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال فانه تعالى منزه عن أن يفعل مايخرج عن الحكمة ولذلك جعل مفتاح التوبة فقال موسى عليه الصلاة والسلام سبحانك تبت اليك وقال يونس عليه الصلاة والسلام سبحانك انى كنت من الظالمين * (تنبيه) * اجتمع فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين أربع مدات الاولى أنبئونى والثانية بأسماء والثالثة والرابعة هؤلاء ان فالاول مبدل والثانى مد متصل والثالث مد منفصل والرابع مخير لا متصل قطعاً ولا منفصل قطعاً عند من يقول باسقاط احدى الهمزتين فأما الاول فلورش فيه المد والتوسط والقصر وأما الثانى فبالمد للجميع لانه متصل وأما الثالث ففيه المد والقصر كما تقدم لانه منفصل وأما الرابع وهو أولاء ان ففيه همزتان مكسورتان من كلمتين فقالون والبزى يسهلان الاولى مع المد والقصر وورش وقنبل يسهلان الثانية ويجعلانها حرف مد وأبو عمرو يسقط الاولى والثانية فمن قال باسقاط الاولى مد وقصر ومن قال باسقاط الثانية فبالمد فقط وباقى القراء يحققون الهمزتين وهم على مراتبهم فى المد (انك أنت العليم) الذى لايخفى عليه خافية (الحكيم) المحكم لمبدعاته الذى لا يفعل الا مافيه حكمة بالغة وأنت ضمير فصل وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت وان لم يجز مررت بأنت اذ التابع يسوغ فيه مالا يسوغ فى المتبوع وقيل مبتدأ خبره مابعده والجملة خبران (قال) تعالى (يا آدم أنبئهم) أى أخبر الملائكة (بأسمائهم) أى المسميات فسمى آدم كل شئ باسمه وذكر الحكمة التى لاجلها خلق (فلما أنبأهم بأسمائهم قال) الله تعالى لهم موبخاً (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض) أى ماغاب فيهما (وأعلم ماتبدون) أى تظهرون من قولكم أتجعل فيها الخ (وماكنتم تكتمون) أى تسرون من قولكم لن يخلق أكرم عليه منا ولا اعلم وقيل ماأظهروا من الطاعة وأسره ابليس من المعصية والهمزة فى ألم أقل للانكار بمعنى النفى دخلت على حرف الجحد فأفادت الاثبات والتقرير * (تنبيه) * هذه الآيات وهى آية وعلم آدم وآية سبحانك وآية قال يا آدم تدل على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على العبادة والا لاظهر فضل آدم بها وان العلم بما يستخلف فيه شرط فى الخلافة بل العمدة فيها وان التعليم يصح اسناده الى الله تعالى وان لم يصح اطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به وان اللغات توقيفية فان الاسماء تدل على الالفاظ بخصوص أو عموم وتعليمها ظاهر فى القائها على المتعلم مبيناً له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع والاصل ينفى أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم من الملائكة والجن فيكون من الله وان مفهوم الحكمة زائد على مفهوم

العـالم لتغاير المتعاطفـين والاتـكرر وقوله انك أنت العليم الحكيم وان علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة وان آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لانه أعلم منهم والاعلم أفضل لقوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وان الانبياء أفضل من الملائكة وان كانوا رسلا كما ذهب اليه أهل السنة وانه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها لانه أخبر عن علمه تعالى بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة قبل الاخبار (و) اذكر (اذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) لما أنبأهم بالاسماء وعلمهم مالم يعلموا أمرهم بالسجود له اعترافا بفضله وأداء لحقه واعتذارا عما قالوا فيه أو أمرهم به قبل أن يسوى خلقه لقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين امتحانا لهم واظهارا لفضله وقضية الاول تأخر الامر به عن تسوية خلقه بدليل تأخيره عن انبائهم وتعليمهم المستلزمين لتسوية خلقه وعلى الثانى اقتصر بعض المفسرين وهو الظاهر وأجيب عن دليل الاول بأن الواو فى قوله واذ قلنا لاتقتضى الترتيب والسجود فى الاصل تذلل مع تطامن وفى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة والمأمور به اما المعنى الشرعى فالمسجود له فى الحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبلة سجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله فمعنى اسجدوا له أى اليه وكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون انموذجا أى مثالا للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ومجمعا لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة للملائكة الى استيفاء ماقدر لهم من الكمالات ووصلة الى ظهور ماتباينوا فيه من المراتب والدرجات أمرهم بالسجود تذللا لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكرا لما أنعم عليهم بواسطته واما المعنى اللغوى وهو التواضع لآدم تحية وتعظيما له كسجود اخوة يوسف له فى قوله تعالى وخروا له سجدا ولم يكن فيه وضع الجبهة بالارض انما كان الانحناء فلما جاء الاسلام بطل ذلك بالسلام والكلام فى ان المأمورين بالسجود الملائكة كلهم أو طائفة منهم مثل مامر (فسجدوا) أى الملائكة (الا ابليس أبى واستكبر) أى امتنع عما أمر به استكبارا من أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه أو يعظمه أو يتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه وقال أنا خير منه والاباء امتناع واختيار والتكبر ان يرى الرجل نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكبر مما عنده يتكبر بذلك ويتزين بالباطل (وكان من الكافرين) أى فى علم الله أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى اياه بالسجود لآدم اعتقادا بأنه أفضل منه والافضل لايحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى أنا خير منه جوابا لقوله تعالى مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين لابترك الواجب وهو السجود وحده والآية تدل على ان آدم أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له وان ابليس كان من الملائكة والا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم ولايرد على ذلك قوله تعالى الا ابليس كان من الجن لجواز أن يقال كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا (فان قيل) له ذرية والملائكة لاذرية لهم (أجيب) بأن ابن عباس روى أن من الملائكة نوعا يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم ابليس

قوله لتغاير المتعاطفين ليس هنا متعاطفان ولذا لم يذكره البيضاوى اهـ مصححه

وقيل

وقيل ان الله تعالى لما أخرجه من الملائكة جعل له ذرية وان من الملائكة من ليس بمعصوم وان كان الغالب فيهم العصمة كما ان من الانس معصومين وهم الانبياء والغالب فى الانس عدم العصمة ولمن زعم انه لم يكن من الملائكة أن يقول انه كان جنيا نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغمورا بالالوف منهم فغلبوا عليه لقوله تعالى الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه وهو أصل الجن كما ان آدم أصل الانس ولانه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور قال البغوى والاول أصح لان خطاب السجود كان مع الملائكة وقوله تعالى كان من الجن أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة وقال سعيد بن جبير من الذين يعملون فى الجنة وقال قوم من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلى الجنة وقيل ان الجن أيضا كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم فاذا علم ان الاكابر وهم الملائكة مأمورون بالتذلل لاحد والتوسل به علم أيضا ان الاصاغر وهم الجن مأمورون به أيضا والضمير فى فسجدوا راجع للقبيلين فكأنه قال فسجد المأمورون بالسجود الا ابليس * (تنبيه) * من فوائد الآية استقباح الاستكبار وانه يفضى بصاحبه الى الكفر والحث على الائتمار لامره وترك الخوض فيما لا ينبغى فى سر نفسه وان الامر للوجوب وان الذى علم الله من حاله انه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة

اذ العبرة بالخواتيم وان كان بحكم الوقت الحاضر مؤمنا (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذ الجنة مسكنا لتستقر فيها لانها الاستقرار ولبث ولفظة أنت تأكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه وانما لم يخاطبهما أولا بأن يقول اسكنا تنبيها على أنه المقصود بالحكم وهو الامر بالسكنى التى هى الاصل بالنسبة الى ما عطف عليها من الاكل وغيره والمعطوف عليه تبع له حتى فى الوجود اذ لم يكن له من يؤنسه فى الجنة فخلقت حواء بالمد من ضلعه الاقصر من جانبه الايسر وهو نائم فلما استيقظ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله فقال من أنت قالت زوجتك خلقنى الله لك أسكن اليك وتسكن الى وسميت حواء لانها خلقت من حى خلقها الله من غير أن يحس بها آدم ولا وجد لخلقها ألما ولو وجد له ألما لما عطف رجل على امرأة قط وانما صح العطف على المستكن مع أن المعطوف لا يباشر فعل الامر لانه وقع تابعا ويغتفر فى التابع ما لا يغتفر فى المتبوع والجنة دار الثواب لان الالام للعهد ولا معهود غيرها ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال ان الجنة بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحانا لآدم وحمل الاهباط على الانتقال منه الى أرض الهند كما فى قوله تعالى اهبطوا مصرا (وكلا منها) أكلا (رغدا) أى واسعا لا حجر فيه فرغدا صفة مصدر محذوف وقيل مصدر فى موضع الحال (حيث) أى أى مكان من الجنة (شئتما) وسع الامر عليهما ازالة للعلة والعذر فى التناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التى لا تنحصر وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء فى الشين بخلاف عنه وأبدل السوسى الهمزة وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط (ولا تقربا هذه الشجرة) بالاكل منها وهى شجرة الحنطة أو الكافور أو شجرة

قوله وترك الخوض فيما لا ينبغى فى سر نفسه الذى فى البيضاوى وترك الخوض فى سره وفى زاده عليه قوله وترك الخوض مجرور بالعطف على الائتمار أى ومن فوائدها الحث على الامتثال لامره تعالى مع ترك الخوض فى سر أمره بأن لا يستكشف سره ولا يطلب وجهه وحكمته كامتثال الملائكة اه

العنب أو التين أو شجرة من أكل منها أحدث والاولى كما قال البيضاوى أن لا نعين من غير دليل قاطع أو ظاهر كما لم تعين فى الآية لعدم توقف ما هو المقصود على التعيين (فتكونا) أى فتصيرا (من الظالمين) أى العاصين *(تنبيه)* فى هذه الآية مبالغتان الاولى تعليق النهى بالقرب الذى هو من مقدمات التناول مبالغة فى تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيها على أن القرب من الشئ يورث داعية وميلا يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع كما روى أبو داود حبك الشئ يعمى ويصم أى يخفى عليك معايبه ويصم أذنيك عن سماع مساويه فينبغى أن لا يحوم حول ما حرم عليهما مخافة أن يقعا فيه الثانية جعل قربانهما الى الشجرة سببا لان يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصى (فأزلهما الشيطان) أى ابليس سمى به لبعده عن الخير والرحمة وقرأ حمزة بألف بعد الزاى وتخفيف اللام أى نحاهما والباقون بغير ألف بعد الزاى وتشديد اللام أى أذهبهما (عنها) أى الجنة وازلاله قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته اياهما بقوله انى لكما لمن الناصحين واختلف فى أنه تمثل لهما فقال لهما ذلك أو ألقاه اليهما على طريق الوسوسة وكيف توصل الى ازلالهما بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل انه منع من الدخول بعد خروجه الاول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ولم يمنع أن يدخل لوسوسة ابتلاء لآدم وحواء فلما دخل وقف بين يدى آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه ابليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح فقالا له ما يبكيك فقال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة وكان آدم لما رأى ما فى الجنة من النعيم قال لو أن خلدا فاغتنم الشيطان ذلك منه فأتاه الشيطان من قبل الخلد فوقع قوله فى أنفسهما واغتما ومضى ابليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله انه لهما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم ناولت حواء آدم حتى أكلها وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر حتى سكر فأدته اليه فأكل وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية حتى دخلت به وكانت صديقة لابليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها ابليس أن تدخله الجنة فى فيها فأدخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم فى ذلك كما قال البيضاوى عند الله (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة والنعيم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال الله تعالى لآدم أليس فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يا رب وعزتك ولكن ما ظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا كدا فاهبطا من الجنة وكانا يأكلان فيها رغدا فعلم من صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى اذا بلغ حصد ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه

ماشاء الله قال ابراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الاكلة حزنا طويلا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله عز وجل يا آدم ما حملك على ما صنعت قال يارب زينته لى حواء قال فانى أعقبتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها ودميتها فى الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك فلما أكلا منها سقطت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله تعالى (وقلنا اهبطوا) خطاب لآدم وحواء لقوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما أصل الانس فكأنهما الانس كلهم أوهما وابليس أخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة أو دخلها مسارقة أومن السماء لامن الباب على الخلاف المتقدم وقيل هما وابليس والحية فهبط آدم بسرنديب بأرض الهند على جبل يقال له نود وحواء بجدة وابليس بالابلة وقيل بيسان بالبصرة على أميال والحية باصبهان وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير والمعنى متعادين فان كان الخطاب لآدم وحواء فقط فالمراد ببعضكم بعض الذرية أى بعض ذريتكم لبعض عدو من ظلم بعضهم بعضا وان كان الخطاب لهما ولابليس والحية فالمراد العداوة بين المؤمنين من ذرية آدم والحية وبين ابليس قال الله عز وجل ان الشيطان لكما عدو مبين وروى عكرمة عن ابن عباس انه كان يأمر بقتل الحيات وقال من تركهن خشية أو مخافة تأثر فليس منا وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة فى الحديث ما سالمناهن منذ حاربناهن وروى أنه نهى عن ذوات البيوت وروى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن بالمدينة جنا قد أسلموا فان رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان (ولكم فى الارض مستقر) أى موضع قرار (ومتاع) ما تتمتعون به من نباتها (الى حين) أى وقت انقضاء آجالكم (فتلقى آدم من ربه كلمات) أى استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها وهى ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا اله الا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال آدم يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ فى الروح من روحك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال يارب ان تبت وأصلحت أراجعى أنت الى الجنة قال نعم رواه الحاكم وصححه وقول آدم أراجعى بتخفيف الياء اسم فاعل أضيف الى المفعول وأنت فاعل لاعتماده على الاستفهام أو مبتدأ خبره ما قبله وقرأ ابن كثير بنصب الميم من آدم ورفع التاء من كلمات على أنها تلقته والباقون برفع الميم وكسر التاء والكسر هنا علامة النصب لانه جمع مؤنث سالم فينصب بالكسرة (فتاب عليه) أى قبل توبته وانما رتب تاب عليه بالفاء على تلقى الكلمات لتضمن تلقى الكلمات معنى التوبة وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود اليه ورد المظالم ان كانت واكتفى بذكر آدم لان حواء كانت تبعا له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر القرآن والسنن (انه هو التواب) الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر اعانتهم على التوبة واذا وصف بها البارئ

أريد بها الرجوع من العقوبة الى المغفرة (الرحيم) البالغ فى الرحمة وفى الجمع بين التوبة والرحمة وعد للتائب بالاحسان مع العفو (قلنا اهبطوا منها) أى من الجنة (جميعا) كرر للتأكيد أو لاختلاف المقصود فان الاول دل على هبوطهم الى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اهتدى لهذا نجا ومن ضله هلك وقيل الهبوط الاول من الجنة الى السماء الدنيا والهبوط الثانى من السماء الدنيا الى الارض (فاما) فيه ادغام ان الشرطية فى ما المزيدة (يأتينكم) يا ذرية آدم (منى هدى) أى رشد وبيان شريعة وقيل كتاب ورسول (فمن تبع هداى) بأن آمن بى وعمل بطاعتى وكرر لفظ الهدى ولم يضمر اما لاظهار شأنه وتخامته خصوصا مع اضافته اليه أولانه أراد بالثانى أعم من الاول وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل أى فمن تبع ما أتاه راعيا فيه ما يشهد به العقل (فلا خوف عليهم) فضلا من أن يحل بهم مكروه (ولا هم يحزنون) بفوات محبوب عنهم وهو النظر الى وجهه تعالى فيحزنوا عليه بل يتنعمون بالنظر الى وجهه تعالى فانه المقصود الاعظم فالخوف على الواقع نفى عنهم العقاب فأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه وقيل لا خوف عليهم فى الدنيا ولا هم يحزنون فى الآخرة وأمال الدورى عن الكسائى ألف هداى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وانما جىء بحرف الشك واتيان الهدى واقع كائن لانه محتمل فى نفسه غير واجب عقلا (والذين كفروا) أى جحدوا (وكذبوا بآياتنا) أى كتبنا (أولئك أصحاب النار) يوم القيامة (هم فيها خالدون) ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها والآية فى الاصل العلامة الظاهرة وتقال للمصنوعات من حيث انها تدل على الصانع وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل * (تنبيه) * فى هذه الآيات دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها فى جهة عالية وأن التوبة مقبولة وأن متبع الهدى مأمون العاقبة وأن عذاب النار دائم وأن الكافر فيه مخلد وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى هم فيها خالدون واستدل بعض الخوارج كالحشوية وهم قوم جوزوا الخطاب بما لا يفهم بها على عدم عصمة الانبياء بوجوه الاول ان آدم عليه السلام كان نبيا وارتكب المنهى والمرتكب له عاص والثانى انه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين والثالث أنه أسند اليه العصيان والغى وقال وعصى آدم ربه فغوى والرابع أنه تعالى لقنه التوبة وهى الرجوع عن الذنب والندم عليه والخامس اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله له بقوله وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين والخاسر من يكون ذا كبيرة والسادس أنه لولم يذنب ما جرى عليه ما جرى (وأجيب) عن ذلك بوجوه الاول أنه لم يكن نبيا حينئذ والمدعى مطالب بالدليل ولا دليل * الثانى أن النهى للتنزيه وانما سمى ظالما وخاسرا لانه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الاولى وانما أجرى الله تعالى عليه ما جرى معاتبة على ترك الاولى ووفاء بما قاله تعالى للملائكة قبل خلق آدم انى جاعل فى الارض خليفة ولا يكون خليفة فى الارض الا بالاهباط اليها وأمر بالتوبة تلافيا لما فاته الثالث أنه فعله ناسيا لقوله تعالى فنسى

ولم نجد له عزما ولكن عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان اذ رفع الاثم بالنسيان من خصائص هذه الامة كما ثبت فى الاخبار الصحيحة كخبر الشيخين رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وروى الترمذى وصححه أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل رواه الحاكم بلفظ أشد الناس بلاء الانبياء ثم العلماء ثم الصالحون * الرابع أنه عليه الصلاة والسلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه فانه ظن أن النهى للتنزيه أو الاشارة الى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بالاشارة الاشارة الى النوع لا الى شجرة معينة كما روى أبو داود وغيره أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريرا وذهبا بيده وقال هذان حرام على ذكور أمتى حل لاناثها (فان قيل) المجتهد ان أخطأ لا يؤاخذ (أجيب) بأنه انما عوتب على ذلك تعظيما لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده وقرأ ورش بامالة ألف النار بين بين وقرأ أبو عمرو والدورى عن الكسائى بالامالة المحضة والباقون بالفتح (يابنى اسرائيل) أى أولاد يعقوب واسرائيل لقبه ومعنى اسرا بالعبرانية عبد وايل الله فمعناه عبد الله وقيل صفوة الله صلى الله وسلم عليه (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) أى بالتفكر فيها والقيام بشكرها والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان وتقييد النعمة بهم لان الانسان غيور حسود بالطبع فاذا نظر الى ما أنعم الله على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط وان نظر الى ما أنعم به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر لله وقيل أراد بها ما أنعم على آبائهم من فلق البحر وانجائهم من فرعون باغراقه وتظليل الغمام عليهم فى التيه وانزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم التى لا تحصى قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (وأوفوا بعهدى) أى بامتثال أمرى ومنه ما عهدت اليكم من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (أوف بعهدكم) أى الذى عهدته اليكم من الثواب عليه بدخول الجنة * (تنبيه) * للوفاء بالعهد درجات كثيرة فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتى الشهادتين ومن الله تعالى حقن الدماء والمال وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلا عن غيره ومن الله تعالى الفوز بالغنى الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن أوفوا بعهدى فى اتباع محمد أوف بعهدكم فى رفع الآصار أى الاثقال والاغلال وعن غير ابن عباس أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر الى الوسايط (واياى فارهبون) فيما تأتون وتذرون وخصوصا فى نقض العهد والرهبة خوف مع تحرز * (تنبيه) * الآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى ان لا يخاف أحدا الا الله (وآمنوا بما أنزلت) من القرآن وقوله تعالى (مصدقا) حال مؤكدة مما أنزلت أو من ضميره المحذوف (لما معكم) من التوراة بموافقته له ولغيره من الكتب الالهية فى القصص ونعت النبى صلى الله عليه وسلم والمواعيد والدعاء الى التوحيد والامر بالعبادة والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وفيما يخالفها من جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الاعصار فى المصالح من حيث ان كل واحد منها

حق بالاضافة الى زمانهما مراعى فيهما صلاح من خوطب بهما حتى لو نزل المتقدم فى أيام المتأخر لنزل على وفقه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الامام أحمد وغيره لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى وفى ذلك تنبيه على أن اتباع تلك الكتب الالهية لا ينافى الايمان بالقرآن بل يوجبه ولذلك عرّض بقوله (ولا تكونوا أوّل كافر به) أى بالقرآن بل يجب أن تكونوا أوّل مؤمن به لانكم أهل نظر فى معجزاته والعلم بشأنه (فان قيل) كيف نهوا عن التقدم فى الكفر وقد سبقهم مشركو العرب (أجيب) بأن المراد به التعريض بما يجب عليهم لمقتضى حالهم لا الدلالة على مانطق الظاهر كقولك لمن أساء اما أنا فلست بجاهل أو ولا تكونوا أوّل كافر من أهل الكتاب لان خلفكم تبع لكم فاثمهم عليكم أو ومن كفر بما معه فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة *(تنبيه)* أوّل كافر به وقع خبرا عن ضمير الجمع بتقدير أوّل فريق أو فوج أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أوّل كافر به كقولك كسانا حلة أى كل واحد منا (ولا تشتروا) تستبدلوا (بآياتى) التى فى كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا من الدنيا أى لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم وذلك ان رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل سنة شيأ معلوما من زروعهم وضروعهم ونقودهم فخافوا أنهم ان بينوا صفة النبى صلى الله عليه وسلم وتابعوه أن يفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه فاختاروا الدنيا على الآخرة فنهوا عن ذلك فان حظوظ الدنيا وان جلت قليلة مسترذلة بالاضافة الى ما يفوت من حظوظ الآخرة (واياى فاتقون) خافون فى ذلك دون غيرى (ولا تلبسوا) أى تخلطوا (الحق) الذى أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) الذى تخترعونه وتكتبونه بأيديكم من تغيير صفته (و) لا (تكتموا الحق) أى لا تكتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انكم لابسون الحق بالباطل كاتمون فانه أقبح اذ الجاهل يعذر (وأقيموا الصلاة) أى الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها (وآتوا الزكاة) أى أدوا زكاة أموالكم المفروضة أمرهم بفروع الاسلام بعدما أمرهم بأصوله وفيه دليل على ان الكفار مخاطبون بها والزكاة مأخوذة من زكا الزرع اذا نما وكثر أو من الزكاة بمعنى الطهارة وكلا المعنيين موجود فى الزكاة فان اخراجها يستجلب بركة فى المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم ويطهر المال من الخبث والنفس من البخل (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى جماعتهم فان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ أى الفرد بسبع وعشرين لما فيها من تظاهر أى تعاون النفوس وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود لان صلاتهم لم يكن فيها ركوع أى صلوا مع الذين فى صلاتهم ركوع وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الشاعر

لا تذل الضعيف (وروى لا تهين الفقير) علك (أى لعلك) ان * تركع يوما والدهر قد رفعه

فتركع من الركوع بمعنى الانحناء والميل واراد به الانحطاط من الرتبة *ونزل فى علماء اليهود

وكانوا يقولون لاقربائهم المسلمين سرا اثبتوا على دين محمد صلى الله عليه وسلم فانه حق ولا يتبعونه (أتأمرون الناس بالبر) أى بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك تقريع مع توبيخ وتعجيب والبر شرعا التوسع فى الخير من البر بالفتح وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ولذلك قيل البر ثلاثة بر فى عبادة الله وبر فى معاملة الاقارب وبر فى معاملة الاجانب (وتنسون أنفسكم) أى تتركونها من البر كالمنسيات وقيل كانوا يامرون بالصدقة ولا يتصدقون (وأنتم تتلون الكتاب) أى التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) سوء فعلكم فيصدكم عنه أو فلا عقل لكم يمنعكم عما تعملون من عدم موافقة عاقبته لكم والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه بسوء صنيعه وخبث نفسه وان فعله فعل الجاهل بالشرع أو الاحمق الخالى عن العقل فان الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعظا غير متعظ نفسه والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لها ليقوم نفسه ثم يقوم غيره لا منع الفاسق عن الوعظ فان الاخلال بأحد الامرين المأمور بهما لا يوجب الاخلال بالآخر ولكن روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة اسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب وعن اسامة رضى الله تعالى عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه أى فتنقطع أمعاؤه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أى فلان ماشأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وانهاكم عن المنكر وآتيه وقال شعبة عن الاعمش فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه (واستعينوا) أى اطلبوا المعونة على أموركم (بالصبر) أى الحبس للنفس على ما تكره (والصلاة) أفردها بالذكر تعظيما لشأنها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف للعبادة واظهار الخشوع بالجوارح واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الاطيبين وهما الاكل والجماع روى الامام أحمد وغيره ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة أى لجأ اليها وحزبه بالحاء المهملة وزاى وباء موحدة أهمه ونزل به وقيل الخطاب لليهود فهو متصل بما قبله كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والاعراض عن المال أمروا بالصبر وهو الصوم ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر لانه يكسر الشهوة ويزهد فى الدنيا والصلاة لانها تورث الخشوع وتنفى الكبر وترغب فى الآخرة وقيل الواو بمعنى على أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ويحتمل أن يراد بالصلاة الدعاء (وانها) أى الصلاة رد الكناية اليها لان الصبر داخل فيها لاستجماعها ضروبا من الصبر كما قال تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه

ولم يقل يرضوهما لان رضا الرسول داخل فى رضا الله عز وجل أو لانها أعم كما فى قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ردّ الكناية الى الفضة لانها أعم وقيل ردّ الكناية الى كل منهما وأن كل خصلة منهما كما قال تعالى كلتا الجنتين آتت أكلها أى كل واحدة منهما وقيل معناه واستعينوا بالصبر وانه لكبير والصلاة وانها لكبيرة فحذف أحدهما اختصارا وقال الحسين بن الفضل ردّ الكناية الى الاستعانة (لكبيرة) أى ثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم اليه (الا على الخاشعين) أى الساكنين الى الطاعة والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات للرحمن والخضوع اللين والانقياد ولذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب (الذين يظنون) أى يستيقنون واطلق الظنّ على العلم لتضمنه معنى التوقع (أنهم ملاقوا ربهم) بالبعث (وأنهم اليه راجعون) فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم وانما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم لان نفوسهم مرتاضة بامثالها متوقعة فى مقابلتها ما يستحقر لاجله مشاقها وتستلذ بسببه متاعبها ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عينى فى الصلاة (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بالشكر عليها بطاعتى كرره للتوكيد وتذكير التفضل الذى هو أجل النعم خصوصا وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخل بحقوقها وعطف على نعمتى (وأنى فضلتكم) أى آباكم الذين كانوا فى عصر موسى صلى الله عليه وسلم وبعده قبل أن يغيروا (على العالمين) أى عالمى زمانهم بما منحهم الله من العلم والايمان والعمل وجعلهم أنبياء وملوكا مقسطين وذلك التفضيل وان كان فى حق الآباء ولكن يحصل به الشرف فى الابناء واستدل بذلك على ان الاصلح لا يجب على الله لان تفضيلهم لو وجب عليه لم يجز جعله منة عليهم لان من أتى بما وجب عليه لا منة له به على أحد (واتقوا) خافوا (يوما) أى ما فيه من الحساب والعقاب وهو يوم القيامة (لا تجزى) أى لا تقضى (نفس عن نفس) فيه (شيأ) أى حقا لزمها * (تنبيه) * قول البيضاوى وايراده أى شيأ منكرا مع تنكير النفسين للتعميم والاقناط الكلى تبع فيه صاحب الكشاف وهو جار على مذهب المعتزلة من أنهم ينكرون الشفاعة للعصاة وسيأتى الجواب عن مذهبهم (ولا تقبل) بالتاء على التأنيث كما قرأ به ابن كثير وأبو عمرو بالياء على التذكير كما قرأ به الباقون (منها شفاعة) أى من النفس الثانية لقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أى فداء (ولا هم ينصرون) أى يمنعون من عذاب الله اذ الضمير فى الجملتين للنفوس العاصية ويصح رجوعه للنفس الاولى لانها المحدث عنها فى قوله تعالى لا تجزى نفس عن نفس والثانية مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة وتذكير ضمير ولا هم ينصرون مع أن الضمير راجع للنفوس وكان المناسب هنّ بالتأنيث لانه بمعنى العباد أو الاناس كما تقول ثلاثة انفس بالتاء مع تأنيث النفس لتأويل النفوس بالاشخاص أو الرجال والنصرة أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضرر وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لاهل الكبائر وأجاب أهل السنة عن ذلك باجوبة * منها ان الآية مخصوصة بالكفار للآيات والاحاديث الواردة فى الشفاعة ويؤيد هذا أنّ الخطاب معهم وعلى هذا يتمشى قول البيضاوى المارّ

ويكون المراد حينئذ أنه ليس لها شفاعة فتقبل كما قال تعالى حاكيا عنهم فما لنا من شافعين * ومنها ان الآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم * ومنها أنها لا تشفع الا باذن الله (و) اذكروا (اذ نجيناكم) أى آباءكم الخطاب به وبما بعده للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما أنعم على آبائهم تذكيرا لهم بنعمة الله ليؤمنوا (من آل فرعون) أى أتباعه وأهل دينه والمشهور ان اصل آل أهل لان تصغيره أهيل وقال الكسائى وغيره أصله أول من آل يؤول اى رجع قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها وتصغيره أويل (فان قيل) يرد الاول اختلاف أهل وآل معنى اذ الاهل القرابة والآل من يؤول اليك بقرابة أو رأى أو مذهب ولان الالف لم يثبت ابدالها من الهاء (أجيب) بأن القائل بالاول جرى على القول بان اللفظتين بمعنى أو أراد بالاهل أحد معانى آل وأبدل الواو من الهاء لتقاربهما مخرجا وخص بالاضافة الى أولى القدر والشرف كالانبياء والملوك وانما قيل آل فرعون لتصوره بصورة الاشراف أو لشرفه فى قومه عندهم وفرعون هو الوليد بن مصعب بن ريان وكان من القبط من العمالقة وعمر أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) يولونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أى أشده والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل واحد منهم (يذبحون أبناءكم) المولودين (ويستحيون نساءكم) أى يتركونهن احياء هذا بيان ليسومونكم ولذلك لم يعطف وذلك ان فرعون لعنه الله رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطى بها ولم تتعرض لبنى اسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد فى بنى اسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل وجمع القوابل فقال لهن لا يسقطن على أيديكن غلام من بنى اسرائيل الا قتل ولا جارية الا تركت ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل انه قتل فى طلب موسى اثنى عشر ألف صبى وقال وهب بلغنى أنه ذبح فى طلب موسى تسعين ألفا قالوا وأسرع الموت فى مشيخة بنى اسرائيل فدخل رؤس القبط على فرعون وقالوا ان الموت قد وقع فى بنى اسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هرون فى السنة التى لا يذبحون فيها وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها (وفى ذلكم بلاء) ان أشير به الى صنيعهم فهو محنة أو الى الانجاء فهو نعمة فان البلاء يكون بمعنى الشدة وبمعنى النعمة ويجوز أن يشار بذلكم الى الامرين فان الله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر قال تعالى ونبلوكم أى نختبركم بالشر والخير فتنة (من ربكم) أى بتسليطهم عليكم أو ببعثة موسى وتوفيقه لتخليصكم أو بهما وقوله تعالى (عظيم) صفة بلاء وفى الآية تنبيه على أن مايصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى فعليه أن يشكر عند مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين (و) اذكروا (اذ فرقنا) فلقنا (بكم) أى بسببكم (البحر) حتى دخلتموه هاربين من عدوكم وذلك أن فرعون لما دنا هلاكه أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يسرى ببنى اسرائيل من مصر ليلا فأمر موسى

قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج الى الصبح وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه الصلاة والسلام اثنين وسبعين انسانا ما بين رجل وامرأة فساروا وموسى على ساقتهم وهرون على مقدمتهم ثم علم بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني اسرائيل حتى يصيح الديك قال ابن مسعود رضي الله عنه فوالله ما صاح ديك في تلك الليلة ثم خرج فرعون في طلبهم وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات قال محمد بن كعب وكان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات وكان فرعون في الدهم وقيل كان فرعون في سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب ومائة ألف أصحاب الاعمدة فسارت بنو اسرائيل حتى وصلوا الى البحر والماء في غاية الزيادة ونظروا فاذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس فبقوا متحيرين وقالوا يا موسى كيف تصنع وأين ما وعدتنا هذا فرعون خلفنا ان أدركنا قتلنا والبحر امامنا ان دخلناه غرقنا قال الله تعالى فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال موسى كلا ان معي ربي سيهدين فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فاوحى الله تعالى اليه أن كنه فضربه وقال انفلق يا أبا خالد باذن الله فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو اسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط قد قتل اخواننا فأوحى الله تعالى الى جبال الماء أن تشبكي فصارت شبكا كالطاقات يرى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى (فأنجيناكم) أي من آل فرعون (وأغرقنا آل فرعون) وذلك أن فرعون لما وصل البحر فرآه منفلقا قال لقومه انظروا الى البحر انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيدي الذين أبقوا ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه وقيل قالوا له ان كنت ربا فادخل البحر كما دخل يعني موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل على فرس أنثى فتقدمهم وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها وهم لا يرونه ولا يملك فرعون من أمره شيأ وهو لا يرى فرس جبريل واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويسوقهم حتى لا يشذ رجل منهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو بحر قلزم طرف من بحر فارس قال قتادة بحر من وراء مصر يقال له اساف وذلك بمرأى من بني اسرائيل فذلك قوله تعالى (وأنتم تنظرون) الى مصارعهم أو اطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التي قذفها البحر الى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني اسرائيل ومن

الايات

الآيات الملجئة الى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى الكليم ثم انهم اتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فهم بمعزل من الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع ان ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل القرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة يدركها الاذكياء (واذ وعدنا موسى) بغير ألف بين الواو والعين كما قرأه أبو عمرو والباقون بألف بين الواو والعين لانه تعالى وعد موسى الوحي ووعده موسى ربه المجيء للميقات الى الطور وقيل هذا من المفاعلة التي تكون من الواحد كعاقبت اللص وطارقت النعل وأمال حمزة ألف موسى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (أربعين ليلة) أن يعطيه عند انقضائها التوراة ليتعلموا بها وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لانها غرر الشهور وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء وخلق الله تعالى الليل قبل النهار قال الله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقول البيضاوي ان ذلك الوعد لما عادوا الى مصر بعد هلاك فرعون تبع في ذلك الكشاف ولم يعرف ذلك لغيرهما وانما كانوا بالشأم لان اتيان موسى للميقات كان بطور سينا وهو بالشأم لا بمصر وقد قال البهاء بن عقيل في تفسيره لم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين بأنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها (فان قيل) قوله تعالى فأخرجناهم من جنات الى قوله تعالى وأورثناها بني اسرائيل يقتضي أنهم عادوا اليها (أجيب) بأن المعنى أن الله تعالى أورثهم وملكهم اياها ولم يردهم اليها وجعل مساكنهم الشأم (ثم اتخذتم) قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم اتخذتم باظهار الذال قبل التاء والباقون بادغام الذال في التاء (العجل) الذي صاغه لكم السامري الها ومعبودا (من بعده) أي بعد ذهابه الى ميقاتنا وذلك أن بني اسرائيل لما أمنوا من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتمون اليها فوعد الله تعالى موسى أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه اني ذاهب لميقات ربي آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون واستخلف أخاه هرون فلما أتاه الوعد جاءه جبريل على فرس يقال له فرس الحياة لا يصيب شيأ الا حيي ليذهب بموسى الى ميقات ربه فلما رآه السامري وكان رجلا صائغا من قبيلة يقال لها سامرة ورأى موضع قدم الفرس يخضر من ذلك وكان منافقا يظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر ألقي في روعه انه اذا ألقي في شيء غيره وكانت بنو اسرائيل قد استعاروا حليا كثيرا من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل عرس لهم فأهلك الله تعالى فرعون وقومه فبقيت تلك الحلي في أيدي بني اسرائيل قال السدي فأمرهم هرون أن يلقوها في حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا فلما اجتمعت الحلي صاغها السامري عجلا من ذهب في ثلاثة أيام مرصعا بالجواهر كأحسن ما يكون ثم ألقى فيه القبضة التي أخذها من تراب حافر فرس جبريل فصار يخور ويمشي فقال السامري هذا الهكم واله موسى فنسي أي فتركه ههنا وخرج يطلبه وكانت بنو اسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة قال تعالى

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في محله فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ورأوا العجل وسمعوا قول السامري عكف منهم ثمانية آلاف رجل على العجل يعبدونه وقيل كلهم عبدوه الاهرون مع اثنى عشر ألف رجل قال البغوي وهو الاصح وقال الحسن كلهم عبدوه الاهرون ولذلك قال تعالى (وأنتم ظالمون) أي باتخاذه لوضعكم العبادة في غير محلها (ثم عفونا) محونا (عنكم) ذنوبكم حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفى اذا درس (من بعد ذلك) أي الاتخاذ (لعلكم تشكرون) أي لكي تشكروا نعمتنا عليكم * (تنبيه) * انما قدرت لعل بكي أخذا مما قيل ان لعل في القرآن بمعنى كي غير قوله تعالى في الشعراء لعلكم تخلدون فانها بمعنى كان أي كأنكم تخلدون (و) اذكروا (اذ آتينا موسى الكتاب) أي التوراة وقوله تعالى (والفرقان) عطف تفسير أي الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل أراد بالفرقان معجزات موسى كانفلاق البحر الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى وبين الكفر والايمان (لعلكم تهتدون) أي لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات من الضلال (و) اذكروا (اذ قال موسى لقومه) الذين عبدوا العجل (ياقوم انكم ظلمتم) قرأ ورش بتغليظ اللام والباقون بالترقيق (أنفسكم باتخاذكم العجل) الها قالوا فأي شيء نصنع قال (فتوبوا) أي ارجعوا عن عبادة العجل (الى بارئكم) أي خالقكم وقرأ أبو عمرو باسكان الهمزة وروى عن الدوري باختلاس الحركة وروى عن السوسي ابدالها ياء ساكنة وأمال الدوري عن الكسائي الالف بعد الباء الموحدة واذا وقف حمزة على بارئكم سهل الهمزة بين بين قالوا كيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) أي ليقتل منكم البرئ من عبادة العجل من عبده وقيل المراد بالقتل قطع الشهوة كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها ورد هذا جماعة باجماع المفسرين على أن المراد هنا القتل الحقيقي (ذلكم) أي القتل (خير لكم عند بارئكم) من حيث انه طهرة عن الشرك ووصلة الى الحياة الابدية والبهجة السرمدية فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لامر الله فجلسوا بالافنية محتبين وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه الى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته وأصلت القوم عليهم الخناجر فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه فلم يمكنه المضي لامر الله فقالوا ياموسى كيف نفعل فأرسل الله عليهم ضبابة تشبه سحابة تغشى الارض كالدخان وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتتلون الى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وبكيا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو اسرائيل البقية البقية فكشف الله تعالى السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن ألوف من القتلى روى عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال عدد القتلى سبعون ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقي مكفرا عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى (فتاب عليكم) أي فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم أي فتجاوز عنكم وقبل توبتكم * (تنبيه) * ذكر البارئ في قوله تعالى

فتوبوا الى بارئكم وترتيب الامر بالقتل عليه اشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم الى عبادة البقر التي هي مثلهم في الغباوة وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن يسترد منه ما أنعم به عليه ولذلك أمروا بفك تركيب ذواتهم بالقتل (انه هو التواب) أى الذى يكثر قبول التوبة من المذنبين (الرحيم) أى البالغ فى الانعام على خلقه

(واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا ذلك فخرج موسى الى طور سينا لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال لهم افعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام فغشى الجبل كله فدخل فى الغمام وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجدا وكان موسى اذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى انى أنا الله لا اله الا أنا أخرجتكم من أرض بيد شديدة فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل عليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة عيانا وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية فقالوا جهرة ليعلم أن المراد منه العيان روى عن السوسى امالة الالف بعد الراء فى نرى وترقيق اللام من اسم الله وروى عنه تفخيم اللام مع الامالة وله وجه ثالث كالجماعة وهو عدم الامالة مع تفخيم اللام (فان قيل) كيف تمال الالف وهى تسقط عند التقاء الساكنين (أجيب) بأنه لولا امالتها ما أميلت الراء لان القارئ اذا أراد أن يميل الالف لا يتمكن من الامالة الا بامالة ما قبله (فأخذتكم الصاعقة) أى الصيحة فمتم وقيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وذلك لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه تعالى يشبه الاجسام فطلبوا رؤيته رؤية الاجسام فى الجهات والاحياز المقابلة للرائى وهى محال بل المراد أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية وذلك للمؤمنين فى الآخرة ولافراد من الانبياء فى بعض الاحوال فى الدنيا (وأنتم تنظرون) أى ينظر بعضكم الى بعض حين أخذكم الموت وقيل تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع ويقول ماذا أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعدما ماتوا ليلة ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون كما قال تعالى (ثم بعثناكم) أى أحييناكم والبعث اثارة الشئ عن محله يقال بعثت البعير فانبعث وبعثت النائم فانبعث (من بعد موتكم) بسبب الصاعقة قال قتادة أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا وقيد البعث بعد الموت لانه قد يكون عن اغماء أو نوم كقوله تعالى فضربنا على آذانهم فى الكهف الى أن قال ثم بعثناهم أى من النوم (لعلكم تشكرون) نعمة البعث أو ما كفرتموه من النعم المتتابعة (وظللنا عليكم الغمام) فى التيه يقيكم حر الشمس

والغمام من الغم وأصله التغطية والستر سمى السحاب غماما لانه يغطى وجه الشمس وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه كن يسترهم فشكوا الى موسى صلى الله وسلم عليه فارسل الله غماما أبيض رقيقا أطيب من غمام المطر وجعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل اذا لم يكن قمر يسيرون فى ضوئه وكانت ثيابهم لاتتسخ ولاتبلى وغلظ ورش اللام المفتوحة بعد الظاء (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) فى التيه والا كثرون على أن المن هو الترنجبين قال مجاهد هو شىء كالصمغ كان يقع على الاشجار طعمه كالشهد وكان يقع كل ليلة على أشجارهم مثل الثلج لكل انسان منهم صاع فقالوا ياموسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأنزل الله عليهم السلوى جمع سلواة وهو الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر جمع سماناة وهو الطير المعروف وقيل هو طائر يشبهه بعث الله سحابة فطرت السمانى فى عرض ميل وطول رمح فى السماء بعضه على بعض فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح من طلوع الفجر الى طلوع الشمس فكان كل واحد منهم يأخذ مايكفيه يوما وليلة واذا كان يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم مايكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت وقرأ السلوى حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح و بين اللفظين (فان قيل) لم قدم فى الآية المن على السلوى مع أنه غذاء والمن حلواء والعادة تقديم الغذاء على الحلواء (أجيب) بأن نزول المن من السماء أمر مخالف للعادة فقدم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة وأيضا هو مقدم فى النزول عليهم (كلوا) على ارادة القول أى قلنا لهم كلوا (من طيبات) حلالات (مارزقناكم) ولاتدخروا الغد فكفروا النعمة وادخروا فقطع الله ذلك عنهم ودود وفسد ما ادخروه وقوله تعالى (وماظلمونا) أى بذلك فيه اختصار وأصله فظلموا بأن كفروا بهذه النعم وماظلمونا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لان وباله عليهم روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا بنو اسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر (واذ قلنا) لهم بعد خروجهم من التيه (ادخلوا هذه القرية) أى بيت المقدس كما قاله مجاهد أو أريحاء بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة كما قاله ابن عباس وهى قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق قال ابن الاثير وهى قرية بالغور قريبة من بيت المقدس وقيل البلقاء وقيل الرملة والاردن وفلسطين وقيل الشام سميت القرية قرية لانها تجمع أهلها ومنه المقراة للحوض لانها تجمع الماء (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أى واسعا لاحجر فيه (وادخلوا الباب) أى بابا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب (سجدا) أى متطامنين منحنين أو ساجدين السجود الشرعى لله شكرا على اخراجكم من التيه (وقولوا) مسئلتنا (حطة) أى أن تحط عنا خطايانا قال قتادة أمروا بالاستغفار وقال ابن عباس بلا اله الا الله لانها تحط الذنوب وقيل معناه أمرنا حطة أى شأننا أن نحط فى هذه القرية ونقيم فيها حتى ندخل الباب سجدا مع التواضع (نغفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم وقرأ نافع بياء مضمومة على التذكير مع فتح الفاء وقرأ ابن عامر تغفر بتاء مضمومة

على التأنيث مع فتح الفاء أيضا وقرأ الباقون بالنون مفتوحة مع كسر الفاء وقرأ الكسائى خطاياكم بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وسنزيد المحسنين) بالطاعة ثوابا جعل الله تعالى امتثال قوله وقولوا حطة توبة للمسىء وسبب زيادة الثواب للمحسنين (فان قيل) كيف عطف وسنزيد مع أنه مرفوع على نغفر مع أنه مجزوم جوابا للامر (أجيب) بأنه أخرجه عن صورة الجواب الى الوعد ايهاما بأن المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله فكيف اذا فعله وانه يفعل لا محالة وسبب اخراج ماذكر عن صورة الجواب الى الوعد أن الزيادة اذا كانت من وعد الله كانت أعظم مما اذا كانت مسببة عن فعلهم (فبدل الذين ظلموا) منهم (قولا غير الذى قيل لهم) فقالوا حبة فى شعرة ودخلوا يزحفون على استاههم مخالفة فى الفعل كما بدلوا القول روى معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على استاههم وقالوا حبة فى شعرة وفى رواية فى شعيرة وقوله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا) فيه وضع الظاهر موضع المضمر مبالغة فى تقبيح أمرهم واشعارا بأن انزال الرجز عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه أو على أنفسهم بأنهم تركوا ما يوجب نجاتها الى ما يوجب هلاكها (رجزا) أى عذابا مقدرا (من السماء) وقيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا وقيل أربعة وعشرون ألفا (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة (واذ استسقى موسى) طلب السقيا (لقومه) وذلك أنهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل فأوحى الله اليه كما قال (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت من آس الجنة بالمد أى شجرها وهو المرسين وروى عن ابن عباس أنها كانت من عوسج طولها عشرة أذرع على طول موسى وكان لها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا واسمها عليق وقال مقاتل اسمها نبعة حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى واللام فى الحجر للعهد على ما روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه كان له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين تسيل كل عين فى جدول الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا أو حجرا أهبطه آدم من الجنة ودفع الى شعيب فأعطاه لموسى مع العصا أو الحجر الذى فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل ومر به على ملا من بنى اسرائيل وهو حجر خفيف مربع كرأس الرجل رخام أو كذان وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الادرة وهى بضم الهمزة كبر الانثيين فلما وقف أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة أو للجنس قال البيضاوى وهذا أظهر فى الحجة ويدل له قول وهب لم يكن حجرا معينا بل كان موسى يضرب أى حجر كان فينفجر عيونا لكل سبط عين ثم تسيل كل عين فى جدول الى السبط الذى أمر أن يسقيهم وكان بنو اسرائيل اثنى عشر سبطا ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا الى أرض لا حجارة فيها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضرب به بعصاه اذا نزل فينفجر ويضرب به اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه لا تقرع

الحجارة وكلما انقطع لعلهم يعتبرون وقوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) متعلق بمحذوف أى فضربه فانفجرت أى سالت قال أبو عمرو بن العلاء انبجست عرقت وانفجرت سالت وقال عطاء كان يضرب به موسى اثنى عشرة ضربة فيظهر على كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق ثم تنفجر الانهار ثم تسيل (قد علم كل أناس) أى سبط منهم (مشربهم) أى عينهم التى يشربون منها لايدخل سبط على غيره فى شربه وقلنا لهم (كلوا واشربوا من رزق الله) أى كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله الذى يأتيكم بلا مشقة (ولا تعثوا) أى لا تعتدوا (فى الارض مفسدين) أى حال افسادكم وانما قيده لانه وان غلب فى الفساد قد يكون منه ماليس بفساد كمقابلة الظالم المعتدى بفعله ومنه ما يتضمن اصلاحا راجحا على الفساد كقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة * (تنبيه) * من أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله تعالى وقلة تدبره فى عجائب صنعه فانه لما أمكن أن يكون من الاحجار ما يحلق الشعر كالنورة ويجذب الحديد كالمغناطيس وينفر الخل كالكهربان فانه اذا وضع فى اناء لا يحصل الخل فى ذلك الاناء لم يمتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الارض أو لجذب الهواء من الجوانب الاربعة ويصيره ماء بقوة التدبير ونحو ذلك (و) اذكروا (اذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك أنهم سئموا من أكل المن والسلوى وانما عبر عنهما بطعام واحد لعدم تبدلهما كقول العرب طعام مائدة الامير واحد يريدون أنه لا يتغير ألوانه أو لان العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح دون العذب أو لانهم كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصيرا واحدا أو لانهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد أو ضرب واحد لانهما معا طعام أهل التلذذ وهم كانوا أهل فلاحة أى أهل زراعات فاشتاقوا الى أصلهم الردىء وعادتهم الخبيثة ولذا قالوا (فادع لنا ربك) أى فسل لاجلنا ربك (يخرج لنا) يظهر لنا ويوجد وجزمه بأنه جواب فادع فان دعوة موسى تسبب الاجابة وقوله تعالى (مما تنبت الارض) من الاسناد المجازى واقامة القابل وهى الارض لانها قابلة للنبات مقام الفاعل ومن فى قولهم مما تنبت للتبعيض ومن فى قولهم (من بقلها) للبيان والبقل ما تنبته الارض من الخضر وهو ماليس له ساق والمراد به أطايبه التى تؤكل كالكرفس والنعناع والكراث (وقثائها وفومها) وهو الخبز كما قاله ابن عباس ومنه فوموا لنا أى اخبزوا أو الحنطة كما قاله عطاء أو الثوم كما قاله الكلبى (وعدسها وبصلها قال) أى الله أو موسى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى أخس وأردأ وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد فى الشرف والرفعة فقيل بعيد الهمة بعيد المحل (بالذى هو خير) أى أشرف وهو المن والسلوى فانه خير فى اللذة والنفع وعدم الحاجة الى السعى أى أتأخذون هذا بدل هذا والهمزة للانكار فأبوا أن يرجعوا فدعا موسى ربه فقال تعالى (اهبطوا) اى انزلوا فان هبط يستعمل متعديا بنفسه كما هنا فيكون بمعنى النزول ويستعمل متعديا بمن فيكون بمعنى الخروج من مكان الى آخر مساوله أو أعلى منه (مصرا) من الامصار والمصر البلد العظيم

لا العلم بفتح اللام وقيل أراد به العلم وهي مصر موسى وفرعون قال البيضاوي ويؤيده أي القول بأن المراد بمصر العلم انه غير منون في مصحف ابن مسعود أي وهي قراءة شاذة وانما صرفه على هذا مع أن فيه العلمية والتأنيث لسكون وسطه كما في هند ودعد لمعادلة أحد سببي منع الصرف بخفة الاسم لسكون وسطه أو على تأويل مصر بالمكان فذكره فيبقى فيه سبب واحد فانصرف (فان لكم) فيه (ماسألتم) من نبات الارض (وضربت عليهم) أي أحيطت احاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط (الذلة) أي الذل والهوان وقيل الجزية (والمسكنة) أي الفقر وسمي الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة وفعل بهم ذلك مجازاة لهم على كفران النعمة ولذلك تجد اليهود في غالب الامر أذلاء مساكين اما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم وقيل الذلة فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود وقرأ حمزة والكسائي عليهم بضم الهاء والميم وصلا وفي الوقف حمزة على أصله والكسائي بكسرها وأبو عمرو بكسر الهاء والميم وقفا ووصلا وباقي القراء بكسر الهاء وضم الميم وصلا وفي الوقف بكسر الهاء وسكون الميم (وباؤا) رجعوا (بغضب من الله) ولا يقال باء الا بشر وأصل البوء المساواة وقال أبو عبيدة احتملوه وأقروا به ومنه الدعاء أبوء بنعمتك وأبوء بذنبي أي أقر وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما مر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم) أي بسبب أنهم (كانوا يكفرون بآيات الله) بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة ويكفرون بالانجيل والقرآن وبالمعجزات التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر واظلال الغمام وانزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر (ويقتلون النبيين بغير الحق) أي ظلما فانهم قتلوا اشعياء وزكريا ويحيى وغيرهم روي ان اليهود قتلوا سبعين نبيا في أول النهار وقامت سوق بقلهم آخر النهار (فان قيل) لم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون الا بغير الحق (أجيب) بأنه ذكره وصفا للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وتارة بغير الحق وهو مثل قوله تعالى قل رب احكم بالحق ذكر الحق وصفا للحكم لا ان حكمه ينقسم الى الجور والحق أو أنه بغير الحق عندهم اذ لم يروا منهم ما يعتقد به جواز قتلهم (فان قيل) ان الله تعالى قد أخبر بقتل الانبياء ونصر الرسل فكيف الجمع (أجيب) بأن المحل مختلف اذ الرسول غير النبي وبأن المراد بالنصر الغلبة باظهار الحجة لا العصمة من القتل وانما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار اليه تعالى بقوله (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه الى الكفر بالآيات وقتل النبيين فان صغار الذنوب أسباب تؤدي الى ارتكاب كبارها كما ان صغار الطاعات أسباب مؤدية الى تحري كبارها وكرر الاشارة للدلالة على ان ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع وعلى هذا انما جوزت الاشارة بالمفرد الى شيئين فصاعدا على تأويل ما ذكر والذي حسن ذلك ان تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع وقرأ النبيئين

نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على أصله فى الهمز بالمد والتوسط والقصر (ان الذين آمنوا) بالانبياء من قبل (والذين هادوا) أى اليهود سموا به لقولهم انا هدنا اليك أى ملنا اليك وقيل لانهم هادوا أى تابوا من عبادة العجل وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال أبو عمرو بن العلاء لانهم يتهوّدون أى يتحرّكون عند قراءة التوراة ويقولون ان السموات والارض تحركت حين آتى الله موسى التوراة (والنصارى) جمع نصرانى كندامى والياء فى نصرانى للمبالغة سموا بذلك لانهم نصروا المسيح قال الحواريون نحن أنصار الله (فان قيل) هذا ليس جاريا على قواعد الاشتقاق فانه يقال للواحد ناصر وفاعل لا يجمع على فعالى (أجيب) بأن ذلك كاف فى الاشتقاق وان لم يجمع المفرد على فعالى أو لانهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها على الاول أو من اسمها على الثانى (والصابئين) هم طائفة من النصارى وقيل من اليهود وقيل قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هم عبدة الملائكة أو الكواكب وقرأ نافع وحده بالياء اما لانه خفف الهمزة أو لانه من صبا اذا مال لانهم مالوا عن سائر الاديان الى دينهم أو من الحق الى الباطل والباقون بالهمزة بعد الباء الموحدة (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه وبالمبدا والمعاد عاملا بمقتضى شرعه وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة ايمانا خالصا ودخل الاسلام دخولا صادقا (فلهم أجرهم) أى ثواب أعمالهم (عند ربهم) بأن يدخلهم الجنة (ولا خوف عليهم) فى الدنيا (ولا هم يحزنون) فى الآخرة أو حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب *(تنبيه)* روعى فى ضمير آمن وعمل لفظ من وفيما بعده معناها ومن مبتدأ خبره فلهم أجرهم والجملة خبر ان أو بدل من اسم ان وخبرها فلهم أجرهم والفاء لتضمن المسند اليه معنى الشرط وقد منع سيبويه دخولها فى خبر ان من حيث انها لا تدخل الشرطية ورد بقوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) أى عهدكم باتباع موسى والعمل بما فى التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أى الجبل حتى أعطيتم الميثاق روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم لانها كانت شريعة ثقيلة وأبوا قبولها فامر الله تعالى جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم وكان على قدر عسكرهم وكان فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رؤسهم مقدار قامة رجل كالظلة وقال لهم ان لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم وقال عطاء عن ابن عباس رفع الله فوق رؤسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم وقيل لهم فان قبلتم والا رضختكم بهذا الجبل أو أغرقتكم فى هذا البحر أو أحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لا مهرب لهم من ذلك قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون الا على انصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا (خذوا) هو على ارادة القول أى وقلنا خذوا

(ما آتيناكم) من الكتاب (بقوّة) بجد وعزيمة (واذكروا ما فيه) بالعمل به أو تفكروا فيه فانه تذكر بالقلب كما ان الدرس ذكره باللسان أو ادرسوه ولا تنسوه (لعلكم تتقون) لكى تتقوا النار أو المعاصى (ثم توليتم) أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (من بعد ذلك) أى بعد أخذه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بتوفيقكم للتوبة أو بالامهال وتأخير العذاب عنكم أو بارسال محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم الى الحق ويهديكم اليه (لكنتم من الخاسرين) أى من المغبونين بالانهماك فى المعاصى أو بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة *(تنبيه)* لو فى الاصل لامتناع الشئ لامتناع غيره فاذا دخل على لا أفاد اثباتا وهو امتناع الشئ لثبوت غيره والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسدّه وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف (ولقد علمتم) اللام موطئة للقسم أى عرفتم (الذين اعتدوا) تجاوزوا الحدّ (منكم فى السبت) بصيد السمك وذلك انهم كانوا زمن داود عليه الصلاة والسلام بأرض يقال لها ايلة حرم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت فكان اذا دخل السبت لم يبق حوت فى البحر الا حضر هنالك وأخرج خرطومه حتى لا يرى الماء من كثرتها فاذا مضى تفرّقت ولزمت قعر البحر فذلك قوله تعالى اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ثم ان الشيطان وسوس اليهم وقال انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه اليها الانهار فاذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الانهار فأقبل الموج بالحيتان الى الحياض فلا تقدر على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها فاذا كان يوم الاحد أخذوها فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرؤا على الذنب وقالوا ما نرى السبت الا قد أحل لنا فأكلوا وملحوا وباعوا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لا نساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار (فقلنا لهم) لاصرارهم على المعصية (كونوا قردة خاسئين) أى مبعدين فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم فلما أبطأوا تسوّروا على الحائط فاذا هم جميعا قردة لها اذناب يتعاوون قال قتادة صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث ممسوخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا وقال مجاهد ما مسخت صورتهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار كما فى قوله تعالى كمثل الحمار يحمل اسفارا رواه عنه ابن جرير وردّه وقال انه مخالف لظاهر القرآن والاحاديث والآثار واجماع المفسرين وقوله تعالى كونوا ليس بأمر اذ لا قدرة لهم عليه وانما المراد به سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراد بهم (فجعلناها) أى تلك العقوبة (نكالا) أى عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا ومنه النكول عن اليمين وهو الامتناع (لما بين يديها وما خلفها) أى للامم التى فى زمانها وبعدها أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد

عنها أو لأهل تلك القرية وما حواليها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) الله من قومهم أو لكل متق سمعها وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم (و) اذكر (اذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم) قرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدورى اختلاس الحركة والباقون بالحركة الكاملة والحركة ضمة (أن تذبحوا بقرة) أول هذه القصة قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وانما فكت عنه وقدمت عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالامر والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة الى الامتثال وقصته أنه كان فيهم رجل غنى وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله الى قرية أخرى فألقاه ببابها ثم أصبح يطلب ديته وجاء بناس الى موسى يدعى عليهم القتل فسألهم فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى قال الكلبى وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى ليدعو الله ليبين لهم بدعائه فدعا فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ويضربوا القتيل ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله فقال موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى أتستهزئ بنا نحن نسأل عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك استبعادا لما قاله واستخفافا به قرأ حمزة بسكون الزاى فى الوصل واذا وقف قال هزا بنصب الزاى من غير همز وروى عنه الادغام وهو أن يشدد الزاى وقرأ حفص هزوا بضم الزاى بعدها واو مفتوحة وقفا ووصلا والباقون بضم الزاى بعدها همزة مفتوحة (قال أعوذ) أى امتنع (بالله) من (أن أكون من الجاهلين) لان الهزء فى مثل ذلك جهل وسفه نفى عن نفسه مارمى به على طريقة البرهان وأخرج ذلك فى صورة الاستعاذة استفظاعا له فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله استوصفوه ولو أنهم عمدوا الى أدنى بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكان تحته حكمة وذلك أنه كان فى بنى اسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها الى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ومات الرجل فسارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن كان بارا بوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه فقالت له أمه يوما ان أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع الله اله ابراهيم واسمعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها انك اذا نظرت اليها يخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تلك البقرة تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك باله ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب فأقبلت تسعى اليه حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها فتكلمت البقرة باذن الله وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فان ذلك أهون عليك فقال الفتى ان أمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت البقرة باله بنى اسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك بأمك فسار الفتى

بها الى أمه فقالت له انك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا فقال الملك له بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضا والدتي فقال الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال الفتى لو أعطيتني وزنها ذهبا لم آخذه الا برضا أمي فردها الى أمه وأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضا مني فانطلق بها الى السوق وأتى الملك فقال استأمرت أمك فقال الفتى انها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على ان استأمرها فقال الملك اني أعطيك اثني عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع الى أمه وأخبرها بذلك فقالت ان الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا فقال الملك له اذهب الى أمك وقل لها امسكي هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني اسرائيل فلا تبيعوها الا بملء مسكها أي جلدها ذهبا دنانير فأمسكوها وقدر الله تعالى على بني اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وصف لهم تلك البقرة مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه تعالى ورحمة فذلك قوله عز وجل (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أي ما سنها وكان من حقه أن يقولوا أي بقرة هي أو كيف هي لان لفظ ما يسأل به عن الجنس غالبا لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله (قال) موسى (انه) أي ربي (يقول انها بقرة لا فارض) أي مسنة وسميت فارضا لانها فرضت سنها أي قطعته وبلغت آخره (ولا بكر) أي صغيرة (عوان) أي نصف أي وسط قال الشاعر

* نواعم بين أبكار وعون * جمع عوان (بين ذلك) أي بين ما ذكر من الفارض والبكر (فان قيل) بين يقتضي شيئين فصاعدا فمن أين جاز دخوله على ذلك (أجيب) بأنه في معنى شيئين حيث وقع مشارا به الى ما ذكر كما تقرر وعود هذه الكنايات واجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب بالامر ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من جانب البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم ويلزمه النسخ قبل الفعل فان التخصيص ابطال التخيير الثابت بالنص والحق جواز تأخير البيان عن الوقت المذكور والنسخ قبل الفعل ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لاجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وتقريعهم بالتمادي وزجرهم عن المراجعة بقوله (فافعلوا ما تؤمرون) به من ذبحها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال) موسى (انه) أي ربي (يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) أي شديد الصفرة ولذلك تؤكد به الصفرة فيقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وعن الحسن سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالات صفر قال البيضاوي ولعله عبر بالصفرة عن السواد لانه من مقدماته قال البغوي والاول أصح لانه لا يقال أسود فاقع انما يقال أصفر

فاقع وأسود حالك وأخضر ناضر (تسر الناظرين) اليها أى يعجبهم حسنها وصفاء لونها والسرور أصله لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى أسائمة أم عاملة وعلى هذا فليس تكرارا للسؤال الاول (ان البقر) أى جنسه المنعوت كما ذكر (تشابه) أى التبس واشتبه أمره (علينا) لكثرته فلم يهتدوا الى المقصود *(تنبيه)* لم يقل تشابهت علينا لان المراد الجنس كما مر أو لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى أعجاز نخل منقعر (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى وصفها وفى الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بارادة الله تعالى وان الامر قد ينفك عن الارادة والا لم يكن للشرط بعد الامر معنى والمعتزلة والكرامية على حدوث الارادة لانها وقعت شرطا والشرط أمر يحدث فى المستقبل (وأجيب) بأن تعليق الاهتداء بالمشيئة التى هى الارادة باعتبار تعلق المشيئة بالاهتداء وهذا التعلق هو الحادث ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث به تعالى لان التعلق أمر اعتبارى (قال) موسى (انه) أى ربى (يقول انها بقرة لا ذلول) أى غير مذللة بالعمل (تثير الارض) أى تقلبها للزراعة والجملة صفة ذلول داخلة فى النفى (ولا تسقى الحرث) أى الارض المهيأة للزراعة ولا الثانية مزيدة لتأكيد الاولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قال لا ذلول مثيرة وساقية (مسلمة) من العيوب واثارة العمل (لاشية) أى لا لون (فيها) سوى لون جميع جلدها قال مجاهد لا بياض فيها ولا سواد (قالوا الآن جئت) أى نطقت (بالحق) أى بالبيان التام الشافى الذى لا اشكال فيه فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مسكها أى جلدها ذهبا كما قال له الملك وقوله تعالى (فذبحوها) فيه اختصار والتقدير فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها (وما كادوا) أى ما قاربوا (يفعلون) لتطويلهم وكثرة مراجعتهم أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها ولا ينافى قوله وما كادوا يفعلون قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما اذ المعنى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم ففعلوا كالمضطر الملجأ الى الفعل (واذ قتلتم نفسا) خطاب للجمع لوجود القتل فيهم (فادارأتم) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الدال أى تخاصمتم وتدافعتم (فيها) أى فى شأنها اذ المتخاصمان يدفع بعضهم بعضا أو تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه الى صاحبه (والله مخرج) أى مظهر (ما كنتم تكتمون) فان القاتل كان يكتم القتل وقوله تعالى (فقلنا اضربوه) أى القتيل عطف على ادارأتم وما بينهما اعتراض والضمير للنفس وتذكير الضمير على تأويل الشخص أو القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة واختلفوا فى ذلك البعض فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو مالان من العظام وقال مجاهد وسعيد بن جبير بعجب الذنب لانه أول ما يخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق وقال الضحاك بلسانها قال الحسين بن الفضل لانه آلة الكلام وقال عكرمة والكلبى بفخذها الايمن وقيل بعضو منها لا بعينه ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث وقتل وفى الخبر ما ورث

قاتل

قاتل بعد صاحب البقرة وفيه اضمار تقديره فضرب فحيي قال تعالى (كذلك) الاحياء (يحيي الله الموتى) والخطاب مع من حضر حياة القتيل أو نزول الآية (ويريكم آياته) دلائل قدرته (لعلكم تعقلون) لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على احياء نفس قدر على احياء الانفس كلها فتؤمنون قال البيضاوي ولعله تعالى انما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ماشرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل أى توكل أبي اليتيم والشفقة على الاولاد وأن من حق الطالب أن يقدم قربة والمتقرب أن يتحرى الاحسن ويغالى بثمنه كما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ضحى بنجيبة أى من الابل بثلثمائة دينار وأن المؤثر فى الحقيقة هو الله تعالى اذلا يتصور حياة ميت من غيره تعالى والاسباب أمارات لاأثر لها وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى اماتته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى القوة الشهوية حين زال عنها أثر الصبا أى عدم التكليف وهو نظير لابكر ولم يلحقها ضعف الكبر أى وهو نظير لافارض وكانت معجبة رائقة المنظر أى وهو نظير تسر الناظرين غير مذللة فى طلب الدنيا أى وهو نظير لاذلول تثير الارض مسلمة من دنسها الاشية أى لاعلامة بها من قبائحها بحيث يصل أثره أى الذبح الى نفسه فتحيا حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع أى لان العقل يأمر بالخير والوهم يأمر بالشهوات (ثم قست قلوبكم) أيها اليهود أى ضلت عن قبول الحق لان القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر وقساوة القلب مثل فى بعده عن الاعتبار وثم لاستبعاد القسوة عن الاحياء لا للتراخى فى الزمان بل للاستبعاد مجازا القرينة ماقبلها بمعنى أنه يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة (من بعد ذلك) المذكور من احياء القتيل وماقبله من الآيات فان ذلك مما يوجب لين القلب (فهى كالحجارة) فى قسوتها قرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بكسرها (أو أشد قسوة) من الحجارة وقيل أو بمعنى الواو كقوله تعالى مائة ألف أو يزيدون وانما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لان الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة لاتلين قط ثم فضل الحجارة على القلب القاسى فقال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) أى من بعض الحجارة وقيل أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للاسباط (وان منها لما يشقق) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الشين (فيخرج منه الماء) أى عيونا دون الانهار (وان منها لما يهبط) أن ينزل من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لاتتأثر ولاتلين ولاتخشع يامعشر اليهود (فان قيل) الحجر جماد لايفهم فكيف يخشى (أجيب) بأن الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه قال البغوى ومذهب أهل السنة أن لله تعالى علما فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غيره فلها صلاة وتسبيح كما قال جل ذكره وان من شىء الا يسبح بحمده وقال تعالى والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه وقال تعالى ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر الآية فيجب على المرء الايمان به ويكل علمه الى الله سبحانه وتعالى روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على

شجر والكفار يطلعونه فقال الجبل انزل عنى فانى أخاف أن تؤخذ على فيعاقبنى الله بذلك فقال له جبل حراالى يارسول الله وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لاعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث وانى لاعرفه الآن وروى عن على أنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فرحنا فى نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجر ولاجبل الاقال السلام عليك يارسول الله وروى عن جابر أنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا خطب استند الى جذع نخلة من سوارى المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتنقها فسكتت وقال مجاهد لاينزل حجر من أعلى الى أسفل الامن خشية الله ويشهد لذلك قوله تعالى لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله (وما الله بغافل) أى بساه (عما تعملون) وعيد وتهديد وقيل بتارك عقوبة ماتعملون بل يجازيكم به وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (أفتطمعون) أى أفترجون أيها المؤمنون (أن يؤمنوا) أى اليهود (لكم) أى لاجل دعوتكم أو يصدقوكم بما تخبرونهم به (وقد كان فريق) أى طائفة (منهم) أى أحبارهم (يسمعون كلام الله) أى التوراة (ثم يحرفونه) يغيرونه كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وقيل هؤلاء من السبعين المختارين الذين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه الصلاة والسلام بالطور ثم قالوا سمعنا الله يقول فى آخره ان استطعتم أن تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا (من بعد ما عقلوه) أى فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة (وهم يعلمون) أنهم مفترون والهمزة للانكار أى لاتطمعوا فى ايمانهم فلهم سابقة فى الكفر (واذا لقوا) أى منافقو اليهود (الذين آمنوا قالوا آمنا) بأنكم على الحق وان رسولكم هو المبشر به فى التوراة (واذا خلا) أى رجع (بعضهم الى بعض قالوا) أى رؤساؤهم الذين لم ينافقوا ككعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا لمن نافق (أتحدثونهم) أى المؤمنين (بما فتح الله عليكم) بما بين لكم فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم) أى ليخاصموكم (به عند ربكم) أى بما أنزل ربكم فى كتابه ويقيموا عليكم الحجة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه جعلوا محاجتهم بكتاب الله محاجة عند الله كما يقال عند الله كذا ويراد به أنه فى كتابه وحكمه وقيل بين يدى رسول ربكم وقيل عند ربكم فى الآخرة وقوله تعالى (أفلا تعقلون) اما من تمام كلام اللائمين وهم خلص اليهود وتقديره أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم فيحجونكم واما من خطاب الله للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأنه لامطمع لكم فى ايمانهم (أولا يعلمون) أى اللائمون أو المنافقون أو كلاهما (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) من اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان واخفاء ما فتح الله عليهم واظهارغيره وغير ذلك فيرعووا عن ذلك (ومنهم) أى اليهود (أميون) أى عوام جهلة (لايعلمون الكتاب) أى لايعرفون التوراة أو الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها وقوله تعالى (الا أمانى) استثناء منقطع أى لكن أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتقدوها

(وان هم) أى ماهم (الا) قوم (يظنون) ظنا لا علم لهم وقد يطلق الظن بازاء العلم على كل رأى واعتقاد من غير قاطع وان جزم به صاحبه كاعتقاد المقلد وكالزائغ عن الحق بسبب شبهة قامت عنده (فويل) أى وادفى جهنم كما رواه الترمذى قال سعيد بن المسيب لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت من شدة حره وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو شدة العذاب (للذين يكتبون الكتاب) أى المحرف من التأويلات الزائغة وقوله تعالى (بأيديهم) تأكيد كقولك كتبته بيمينى (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وآية الرجم وغيرها وكتبوها على خلاف ما أنزل الله فكانت صفته صلى الله عليه وسلم فى التوراة أكحل العينين ربعة جعد الشعر حسن الوجه فكتبوها طويلا أزرق العينين سبط الشعر وغيروا آية الرجم بالجلد والتحميم أى تسويد الوجه (فويل لهم مما كتبت أيديهم) من المحرف (وويل لهم مما يكسبون) من الرشا (وقالوا) أى اليهود لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم النار (لن تمسنا) أى تصيبنا (النار الا أياما معدودة) محصورة قليلة روى ان بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادتنا العجل أربعين يوما وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب مكان كل ألف سنة يوما واحدا ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام (فان قيل) لم وصف الايام مع انها جمع بالمفرد (أجيب) بأنها فى معنى الجماعة فتكون مفردا تقديرا ولان جمع القلة كما قاله الرضى فى حكم المفرد فيوصف بالمفرد كما هنا ويوصف المفرد به كما فى قوله تعالى نطفة أمشاج وقيل الامشاج مفرد وعلى هذا فلا اشكال ثم كذبهم الله تعالى بقوله (قل) لهم يا محمد (أتخذتم) حذف منه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (عند الله عهدا) أى ميثاقا منه بذلك وقوله تعالى (فلن يخلف الله عهده) جواب شرط مقدر أى ان اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده وفيه دليل على ان الخلف فى خبر الله تعالى محال (أم تقولون على الله مالا تعلمون) أم اما منقطعة بمعنى بل أتقولون على التقرير والتقريع واما معادلة بهمزة الاستفهام بمعنى أى الامرين كائن على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه من مساس النار لهم فان بلى وبل حرفا استدراك ومعناه نفى الخبر الماضى واثبات الخبر المستقبل أى بل تمسكم وتخلدون فيها (من كسب سيئة) أى قبيحة (واحاطت به خطيئته) وقرأ نافع وحده خطيآته بالجمع أى استولت عليه وشملت جميع أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شئ من جوانبه وهذا انما يصح فى شأن الكافر لان غيره وان لم يكن له سوى تصديق قلبه واقرار لسانه لم تحط الخطيئة به ولذلك فسرها السلف بالكفر وقيل السيئة الكبيرة والاحاطة أن يصر عليها لان من أذنب ذنبا ولم يقلع عنه استجره الى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه حتى تستولى عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلا الى المعاصى مستحسنا اياها معتقدا أن لا لذة سواها مبغضا لمن يمنعه عنها مكذبا لمن ينصحه فيها كما قال تعالى ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله الآية والفرق بين السيئة

والخطيئة ان السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لانها من الخطا والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على التهكم كقوله تعالى فبشره بعذاب أليم (فأولئك أصحاب النار) أى ملازموها فى الآخرة كما أنهم ملازمو أسبابها فى الدنيا (هم فيها خالدون) أى دائمون روعى فيه معنى من والآية كما ترى لاحجة فيها على خلود صاحب الكبيرة لانها فى الكافر كما مر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده لترجى رحمته ويخشى عذابه *(تنبيه)* عطف العمل على الايمان يدل على خروجه عن مسماه (و) اذكر (اذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) فى التوراة وقلنا لهم (لاتعبدون الا الله) هذا اخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولايضار كاتب ولاشهيد وهو أبلغ من صريح النهى لمافيه من ايهام ان المنهى مسارع الى الانتهاء فهو مخبر عنه وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وبالوالدين احسانا) أى برا بهما وعطفا عليهما ونزولا عند أمرهما فيما لايخالف أمر الله تعالى قال البيضاوى وهذا متعلق بمضمر تقديره وتحسنون أو أحسنوا انتهى ويلزمه ان احسانا فى الآية منصوب على المصدر المؤكد لعامله المحذوف مع ان حذف عامل المؤكد ممنوع أو نادر وقوله تعالى (وذى القربى) أى القرابة (واليتامى والمساكين) عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم وهو الطفل الذى لاأب له كنديم وندامى وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه (وقولوا للناس حسنا) من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم وقيل هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق وقرأ حمزة والكسائى بفتح الحاء والسين والباقون بضم الحاء وسكون السين مصدر وصف به مبالغة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قال البيضاوى يريد أى الله بهما مافرض عليهم فى ملتهم (ثم توليتم) فى هذا التفات عن الغيبة قال البيضاوى ولعل الخطاب مع الموجودين منهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبلهم على التغليب أى أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه (الاقليلا منكم) أى وهو من اقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم (وأنتم) قوم (معرضون) أى عادتكم الاعراض عن المواثيق والتولية كاعراض آبائكم (و) اذكروا (اذ أخذنا ميثاقكم) وقلنا (لاتسفكون دماءكم) أى تريقونها بقتل بعضكم بعضا (ولاتخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايخرج بعضكم بعضا من داره وانما جعل غير الرجل نفسه لاتصاله به نسبا أو دينا وقيل لاتفعلوا مايرديكم ويصرفكم عن الحياة الابدية فانه القتل فى الحقيقة ولاتقترفوا ماتمنعون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق وقبلتم (وأنتم تشهدون) على أنفسكم هذا توكيد كقولك أقر فلان شاهدا على نفسه وقيل أنتم أيها الموجودون تشهدون على اقرار أسلافكم فيكون اسناد الاقرار اليهم مجازا (ثم أنتم) يا (هؤلاء تقتلون أنفسكم) فيه استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والاقرار والشهادة عليه أى ثم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم

تظاهرون)

تظاهرون) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أى تتعاونون (عليهم بالاثم) أى المعصية (والعدوان) أى الظلم (وان يأتوكم أسارى) قرأ حمزة بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعد السين والباقون بضم الهمزة وفتح السين والف بعدها (تفدوهم) قرأ عاصم والكسائى بضم التاء وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح التاء وسكون الفاء ولا ألف بعدها أى تنقذوهم من الاسر بالمال أو غيره وقوله تعالى (وهو) أى الشأن (محرم عليكم اخراجهم) متعلق بقوله تعالى وتخرجون فريقا منكم من ديارهم وما بينهما اعتراض ومعنى الآية قال السدى ان الله أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه فى بنى اسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حالفوا الاوس وحالفت النضير الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم فاذا أسروا فدوهم وكانوا اذا سئلوا لم تقاتلونهم وتفدونهم قالوا أمرنا بالفداء فيقال فلم تقاتلونهم فيقولون حياء أن يستذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى بقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب) وهو الفداء (وتكفرون ببعض) وهو ترك القتل والاخراج والمظاهرة (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاخزى) أى هوان وعذاب (فى الحياة الدنيا) فكان خزى قريظة القتل والسبى وخزى بنى النضير الجلاء والنفى عن منازلهم الى أذرعات وأريحاء من الشام (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) أى عذاب جهنم وانما رد من فعل منهم ذلك الى أشد العذاب لان عصيانه أشد (وما الله بغافل عما تعملون) قرأ نافع وابن كثير وشعبة بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (أولئك الذين اشتروا) اى استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة) بأن آثروها عليها (فلا يخفف عنهم العذاب) فى الدنيا بنقصان الجزية والتعذيب فى الآخرة (ولا هم ينصرون) أى بدفعها عنهم (ولقد آتينا) أى أعطينا (موسى الكتاب) أى التوراة جملة واحدة (وقفينا من بعده بالرسل) أى أتبعناهم رسولا فى اثر رسول كقوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى يقال قفاه اذا اتبعه اياه (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى المعجزات الواضحات كاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل وعيسى بالعبرانية ايشوع ومريم بمعنى الخادم (وأيدناه) أى قويناه (بروح القدس) قرأ ابن كثير باسكان الدال حيث جاء والباقون بضمها وهذا من اضافة الموصوف الى الصفة أى الروح المقدسة وهو جبريل وصف به لطهارته وتأييده به أن أمر أن يسير معه حيث سار حتى يصعد به الى السماء وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أولانه لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث أى الحيض وقيل اسم الله الاعظم الذى كان يحيى به الموتى * ولما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما تقص علينا من الانبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى ان كنت صادقا فقال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يا معشر اليهود (رسول بما لا تهوى) أى تحب (أنفسكم) من الحق

وقوله تعالى (استكبرتم) أى تكبرتم عن اتباعه جواب كلما وهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ (ففريقا) أى طائفة (كذبتم) كموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام والفاء السببية الاستكبار للتكذيب أو التفصيل (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى عليهما السلام (فان قيل) هلا قال وفريقا قتلتم (أجيب) بأنه انما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضارا لها فى النفوس فان الامر فظيع ومراعاة للفواصل قال الزمخشرى أوان يراد وفريقا تقتلونهم بعد أى الآن لانكم درتم حول قتل محمد لولا انى أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة وقال صلى الله عليه وسلم عند موته مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى (وقالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء (قلوبنا غلف) جمع أغلف أى مغشاة بأغطية لا يتوصل اليها ماجئت به ولا تفقهه مستعار من الاغلف الذى لم يختن كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل أصل غلف بالسكون غلف بالضم خفف والمعنى انها أوعية العلم لا تسمع علما الا وعته ولا تعى ما تقول أى فما تقوله ليس بعلم أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره ثم رد الله تعالى عليهم أن تكون قلوبهم كذلك بقوله تعالى (بل) للاضراب (لعنهم الله بكفرهم) أى بسبب كفرهم والمعنى انها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم كما قال تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم أوهم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك (فقليلا ما يؤمنون) ما مزيدة لتأكيد القلة أى ايمانهم ايمان قليل جدا وهو ايمانهم ببعض الكتاب وقيل أراد بالقلة العدم (ولما جاءهم كتاب من عند الله) هو القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم وهو التوراة لا يخالفه (وكانوا) أى اليهود (من قبل) أى من قبل مجيئه (يستفتحون) أى يستنصرون (على الذين كفروا) أى مشركى العرب اذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته ونعته فى التوراة ويقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم) أى اليهود (ما عرفوا) من الحق وهو بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (كفروا به) حسدا أو خوفا على الرياسة وجواب لما الاولى دل عليه جواب لما الثانية (فلعنة الله) أى عذابه وطرده (على الكافرين) أى عليهم وانما أتى بالمظهر للدلالة على انهم لعنوا لكفرهم فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للعموم ويدخلون فيه دخولا أوليا وقصديا لانهم المقصودون بالذات وتناول الكلام لغيرهم على سبيل التبع فهو كما اذا ظلمك انسان فقلت ألا لعنة الله على الظالمين كان ذلك الظالم أوليا أو مقصودا فى الدعاء والباقون تبعا (بئس ما اشتروا) أى باعوا (به أنفسهم) أى حظها من الثواب وما نكرة بمعنى شيئا مميزة لفاعل بئس المستكن أى بئس الشئ شيئا اشتروا به أنفسهم والمخصوص بالذم (أن يكفروا) أى كفرهم (بما أنزل الله) من القرآن (بغيا) أى حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة يكفروا كما قال البيضاوى دون اشتروا وان قاله الزمخشرى لفصل المخصوص بين بغيا الذى هو العلة وبين المعلول وهو اشتروا وحسدوه على (أن ينزل الله من فضله) أى الوحى (على من يشاء) للرسالة

(من

(من عباده) وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون نون ينزل وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فباؤا) اى رجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب واختلف فى معنى ذلك فقال ابن عباس ومجاهد الغضب الاول بتضييعهم التوراة وتبديلهم والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال السدى الاول كفرهم بعبادة العجل والثانى الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة الاول بكفرهم بعيسى والانجيل والثانى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وللكافرين عذاب مهين) أى ذو اهانة بخلاف عذاب العاصى فانه طهرة لذنوبه (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) من القرآن وغيره فيعم سائر الكتب المنزلة (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى التوراة يكفينا ذلك (ويكفرون) الواو للحال (بما وراءه) أى بما سواه من الكتب كقوله تعالى فمن ابتغى وراء ذلك أى سواه وقال أبو عبيدة بما بعده أى من القرآن وقوله تعالى (وهو) أى ما وراءه (الحق) حال وقوله (مصدقا لما معهم) أى من التوراة حال ثانية مؤكدة تتضمن ردّ مقالهم فانهم كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ثم اعترض الله تعالى عليهم بقتل الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة بقوله تعالى (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلون) أى قتلتم (أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) بالتوراة والتوراة لا تسوغه بل نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما فعل آباؤهم لرضاهم به وعزمهم عليه قرأ نافع وحده أنبياء الله بالهمز فى كل القرآن والباقون بالبدل وليس لورش الا المدّ فقط لانه متصل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى الآيات التسع فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كالعصا واليد وفلق البحر (ثم اتخذتم العجل) أى الها (من بعده) أى من بعد ذهابه الى الميقات وقوله تعالى (وأنتم ظالمون) أى باتخاذه حال أى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته أو بالاخلال بآيات الله أو اعتراض أى وأنتم عادتكم الظلم (واذ أخذنا ميثاقكم) على العمل بما فى التوراة (و) قد (رفعنا فوقكم الطور) أى الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى بجد واجتهاد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك وقيل سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب قال أهل المعانى انهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا بالآذان وتلقوه بالعصيان نسب ذلك الى القول اتساعا (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى خالط حبه قلوبهم كما يتداخل الشراب اعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كقوله تعالى انما يأكلون فى بطونهم نارا * (فائدة) * قال البغوى فى القصص ان موسى عليه السلام أمر أن يبرد العجل بالمبرد ثم يذر فى النهر وأمر بالشرب منه فمن بقى فى قلبه شئ من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه (بكفرهم) أى بسبب كفرهم وذلك انهم كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن من قلوبهم ما سوّل لهم السامرى (قل) لهم يا محمد (بئسما) أى شيأ (يأمركم به ايمانكم) بالتوراة عبادة العجل واضافة الامر الى ايمانهم تهكم كما قال قوم شعيب أصلواتك تأمرك وكذلك اضافة الايمان اليهم فى قوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) بعبادة العجل (قل) لهم (ان

كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) أى خاصة (من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) فى قولكم وذلك ان اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ولن يدخل الجنة الا من كان هودا وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد ذلك لان من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق اليها وتمنى سرعة الوصول الى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب كما روى عن المبشرين بالجنة رضى الله تعالى عنهم فقد كان على رضى الله تعالى عنه يطوف بين الصفين فى غلالة فقال له ابنه الحسن ماهكذا نرى المحاربين فقال له يا بنى لا يبالى أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت وعن حذيفة انه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال حبيب أى الموت جاء على فاقة أى وقت حاجتى اليه وقيل بل أراد بالحبيب لقاء الله لا أفلح من ندم يعنى على التمنى أراد به أنه كان يتمنى الموت وماندم على التمنى حين جاء الموت وقال عمار بصفين الآن ألاقى الاحبة محمدا وحزبه وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن اليه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو تمنوا الموت لغص كل انسان منهم بريقه فمات مكانه ومابقى على وجه الارض يهودى الامات *(تنبيه)* خالصة نصبها على الحال من الدار أو من الضمير فى خبر كان العائد الى الدار وتعلق بتمنوا الشرطان على ان الاول قيد فى الثانى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر والعصيان ولما كانت اليد العاملة مختصة بالانسان آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه عبر بها عن النفس تارة كما هنا وعن القدرة أخرى كما فى قوله تعالى يد الله فوق أيديهم وهذه الجملة اخبار بالغيب وكان أخبر به كقوله تعالى ولن تفعلوا (فان قلت) من أعلمك أنهم لم يتمنوا (اجيب) بأنهم لو تمنوا النقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الاسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل ذلك (فان قيل) التمنى من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا (أجيب) بأن التمنى ليس من أعمال القلوب انما هو قول الانسان بلسانه ليت لى كذا فاذا قاله قالوا تمنى وليت كلمة تمن ومحال أن يقع التحدى بما فى الضمائر والقلوب ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت فى قلوبنا ولم ينقل انهم قالوا ذلك (فان قيل) لم يقولوه لانهم علموا أنهم لا يصدقون (أجيب) بأنه كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له الا الكذب الصرف ولم يبالوا فكيف يمتنعون من أن يقولوا ان التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين فى قولهم واخبارهم عن ضمائرهم وكان الرجل يخبر عن نفسه بالايمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذبا لانه أمر خفى لا سبيل الى الاطلاع عليه (والله عليم بالظالمين) أى الكافرين فيجازيهم فى ذلك فيه تهديد لهم وتنبيه على انهم ظالمون فى دعوى ماليس لهم ونفيه عمن هو لهم (ولتجدنهم) اللام لام القسم والنون تأكيد القسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد

أى اليهود (أحرص الناس على حياة) هو من وجد بمعنى علم المتعدى الى مفعولين ومفعولاه هم أحرص (فان قيل) لم قال على حياة بالتنكير (أجيب) بأنه أريد حياة مخصوصة هى فرد من افرادها وهى الحياة المتطاولة (و) أحرص (من الذين أشركوا) أى المنكرين البعث عليها لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لانكارهم له (فان قيل) ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس (أجيب) ببلى ولكنهم أفردوا بالذكر لان حرصهم شديد وفيه توبيخ عظيم لان الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ومايعرفون الا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لانها جنتهم فاذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ (يود) يتمنى (أحدهم لو يعمر ألف سنة) لو مصدرية بمعنى أن وهى بصلتها فى تأويل مصدر مفعول يود يقول الله تعالى اليهود أحرص الناس على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك لان تحية المجوس فيما بينهم عش ألف سنة (وماهو) أى أحدهم (بمزحزحه) أى مبعده (من العذاب) أى النار وقوله تعالى (أن يعمر) فاعل مزحزحه أى تعميره (والله بصير بما يعملون) فيجازيهم به * وسأل عبد الله بن صوريا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه فقال جبريل فقال ذاك عدونا عادانا مرارا وأشدها انه لما نزل على نبينا أخبرنا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر وأخبرنا بالحين الذى يجىء فيه فلما كان وقته بعثنا رجلا من بنى اسرائيل فى طلبه ليقتله فانطلق حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وقال ان كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه والا فبم تقتلونه وكبر بختنصر وقوى فنزل (قل) لهم (من كان عدوا لجبريل) روى انه كان لعمر رضى الله تعالى عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود وكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وانا لنطمع فيك فقال والله ما أحبكم لحبكم ولا أسألكم لانى شاك فى دينى وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على اسرارنا وانه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام أى السلامة فقال عمر وما منزلتهما من الله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال لئن كان كما تقولون فليسا بعدوين أى لقرب منزلتهما عند الله ولانتم أكفر من الحمير أى لان الكفر نتيجة الجهل والبلادة والحمار مثل فيهما ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله تعالى ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقال عليه الصلاة والسلام لقد وافقك ربك يا عمر قال عمر لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر وقال مقاتل قالت اليهود ان جبريل عدونا لانه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ومعنى جبريل عبد الله فجبر هو الله وايل هو العبد وقرأ حمزة والكسائى بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء مكسورة ممدودة أى بعدها ياء انطقية وقرأ شعبة كذلك الا انه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء والباقون بكسر الجيم والراء من غير همز بعد الراء الا أن ابن كثير فتح الجيم ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة (فانه) أى جبريل (نزله) أى القرآن ونحو هذا الاضمار أعنى اضمار مالا

قوله وكسر الراء كذا فى الاصول التى بايدينا والصواب حذفه اه مصححه

يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شئ من صفاته (على قلبك) يا محمد وقوله تعالى (باذن الله) أى بأمره حال من فاعل نزل (مصدقا) أى موافقا (لما بين يديه) لما قبله من الكتب (وهدى) من الضلالة (وبشرى) بالجنة (للمؤمنين) هذه أحوال من مفعول نزل وجواب الشرط فانه نزله والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الانصاف أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته اياك لنزوله عليك بالوحى لانه نزل كتابا مصدقا للكتب المتقدمة فحذف الجواب وأقيم علته مقامه أو من عاداه فالسبب فى عداوته انه نزل عليك وقيل الجواب محذوف مثل فليمت غيظا أو فهو عدو لى وأنا عدوه كما قال تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) والمراد بمعاداة الله مخالفته عنادا أو معاداة المقربين من عباده وصدر الكلام بذكره تعالى تفخيما لشأنهم كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه (فان قيل) لم أفرد الملكين بالذكر مع دخولهما فى الملائكة (أجيب) بأن ذلك لفضلهما فكأنهما من جنس آخر وهو مما ذكر أن التغاير فى الوصف ينزل منزلة التغاير فى الذات وبان المحاجة كانت فيهما والواو فيهما بمعنى أو يعنى من كان عدوا لاحد هؤلاء لان الكافر بالواحد كافر بالكل وقدم جبريل لشرفه وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لان عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب قرأ أبو عمرو وحفص ميكال بغير همز ولا ياء بين الالف واللام وقرأ نافع بهمزة بعد الالف ولا ياء بعد الهمزة والباقون بهمزة بعد الالف وياء وهم على مراتبهم فى المد* ونزل فى ابن صوريا لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشئ نعرفه وما أنزل عليك من آية أى زائدة فنتبعك (ولقد أنزلنا اليك) يا محمد (آيات بينات) واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والاحكام (وما يكفر بها الا الفاسقون) أى المتمردون من الكفرة والفسق اذا استعمل فى نوع من المعاصى دل على أعظميته كأنه متجاوز عن حده (أوكلما عاهدوا عهدا) الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا الله عهدا على الايمان بالنبى أو ان خرج النبى أن لا يعاونوا عليه المشركين وقوله تعالى (نبذه) أى طرحه (فريق منهم) أى اليهود بنقضه جواب كلما وهو محل الاستفهام الانكارى وانما قال فريق لان بعضهم لم ينقض وقوله تعالى (بل) للانتقال (أكثرهم لا يؤمنون) رد لما يتوهم ان الفريق هم الاقلون وقوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) هو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) من التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله) أى التوراة لان كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه ونبذ لما فيها من وجوب الايمان بالرسل المؤيدين بالآيات وقيل كتاب الله هو القرآن نبذوه بعدما ألزمهم تلقيه بالقبول وقوله تعالى (وراء ظهورهم) أى لم يعملوا بما فيها من الآيات بالرسل وغيره مثل لاعراضهم عنه بالكلية بالاعراض عما يرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات اليه (كأنهم لا يعلمون) ما فيها من أنه نبى حق أو فيه شك يعنى ان علمهم بذلك رصين ولكنهم كابروا وعاندوا وعن سفيان

ادرجوه فى الديباج والحرير وحلوه بالذهب ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه وقوله تعالى (واتبعوا) عطف على نبذ (ماتتلو) أى ماتلت (الشياطين) والعرب تضع المستقبل موضع الماضى والماضى موضع المستقبل وقيل ما كانت تتلو أى تقرأ (على) عهد (ملك سليمان) من السحر وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوه وقالوا للناس انما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما علماء بنى اسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام وأما سفلاؤهم فقالوا هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم وبقيت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان هذا قول الكلبى وقال السدى كانت الشياطين تسترق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الارض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون فى كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا فى بنى اسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس وجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال لا أسمع أن أحدا يقول ان الشياطين تعلم الغيب الاضربت عنقه فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثل شيطان على صورة انسان فأتى نفرا من بنى اسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى وذهب معهم فأراهم المكان وأقام ناحية فقالوا ادن فقال لا ولكنى ههنا فان لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى الا احترق فحفروا وأخرجوا تلك الكتب قال الشيطان ان سليمان كان يضبط الجن والانس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرا وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر فى اليهود فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيبا لمن زعم ذلك واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان (وما كفر سليمان) أى لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدل على أنه كفر اذا استحله أو احتيج فيه الى تقدم اعتقاد مكفر هذا مذهب الشافعى وعند أحمد يكفر مطلقا (ولكن الشياطين) هم الذين (كفروا) باستعمال السحر وتدوينه وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بكسر النون من ولكن مخففة ورفع نون الشياطين والباقون بنصب النون من ولكن مشددة ونصب نون الشياطين (يعلمون الناس السحر) يقصدون به اغواءهم واضلالهم والجملة حال من ضمير كفروا * (تنبيه) * السحر لغة صرف الشئ عن وجهه يقال ماسحرك عن كذا أى ماصرفك عنه واصطلاحا مزاولة النفوس الخبيثة لاقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة * واختلف فيه هل هو تخييل أو حقيقة قال بالاول المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى وقال بالثانى أهل السنة ويدل لذلك الكتاب والسنة الصحيحة والساحر قد يأتى بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرق به بين المرء وزوجه ويحرم تعليمه أو تعلمه قال امام الحرمين ولا يظهر السحر الا على يد فاسق ولا تظهر

الكرامة على يد فاسق ويحرم أيضا تعليم أو تعلم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل والحصى والشعير والشعبذة ويحرم اعطاء العوض أو أخذه عنها بالنص الصريح فى حلوان الكاهن والباقى بمعناه والكاهن من يخبر بواسطة النجم عن المغيبات فى المستقبل بخلاف العراف فانه الذى يخبر عن المغيبات الواقعة كعين السارق ومكان المسروق والضالة قال فى الروضة ولا يغتر بجهالة من يتعاطى الرمل وان نسب الى علم وأما الحديث الصحيح كان نبى من الانبياء يخط فمن وافق خطه فذاك فمعناه من علمتم موافقته له فلا بأس ونحن لا نعلم الموافقة فلا يجوز لنا ذلك وقول البيضاوى وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات كالادوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز لما فيه من الدقة لانه أى السحر فى الاصل أى اللغة لما خفى سببه مردود بل هو مذموم أى حرام كما صرح به النووى فى الروضة وغيرها وقوله تعالى (وما أنزل على الملكين) عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين وقيل عطف على ما تتلوا أى واتبعوا ما أنزل أى ما الهماه وتعلماه من السحر فالانزال بمعنى الالهام والتعليم قال البيضاوى وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزا بينه وبين المعجزة قال وما روى أى فى كتب السير أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت الى السماء بما تعلمت منهما فمحكى عن اليهود ولعله من رموز الاوائل وحله أى الرمز أو ما روى لا يخفى على ذوى البصائر اه قال شيخنا شيخ الاسلام زكريا بأن يقال عبر عن العقل والنفس المطمئنة بالملكين وعن النفس الامارة بالسوء بالزهرة وعن مفارقتها بالموت بالصعود الى السماء وقيل هما رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما وقيل ما أنزل نفى معطوف على ما كفر تكذيبا لليهود فى هذه القصة وقد طول البغوى فى هذه القصة واعتمد ما رده البيضاوى وقال شيخنا المذكور عن شيخه ابن حجران لها طرقا تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد وابن حبان والبيهقى وغيرهم وموقوفة على على وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة والبيضاوى لما استبعد ما روى ولم يطلع عليه قال ولعله الخ وقوله تعالى (ببابل) ظرف أو حال من الملكين أو الضمير فى أنزل وهى بلد فى سواد العراق وقوله تعالى (هاروت وماروت) بدل أو عطف بيان للملكين ومنع صرفهما للعلمية والعجمة ومن جعل ما فيما أنزل نافية أبدل هاروت وماروت من الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض (وما يعلمان) أى الملكان (من أحد) أى أحدا ومن صلة (حتى) ينصحاه و(يقولا) له (انما نحن فتنة) أى ابتلاء من الله تعالى للناس ليمتحنهم بتعليمه وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم فتنت الذهب والفضة اذا أذبتهما بالنار لتميز الجيد من الردىء وانما وحد الفتنة لانها مصدر والمصادر لا تثنى ولا تجمع (فلا تكفر) بتعلمه اى فلا تتعلمه معتقدا حله فتكفر على ما تقدم فان أبى الا التعليم علماه قيل انهما يقولان انما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات قال عطاء والسدى فان أبى الا التعليم قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فيخرج منه نور ساطع فى السماء فتلك المعرفة وينزل شىء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه

وذلك غضب الله تعالى وعلى القول بأنهما رجلان فلا يعلمانه حتى يقولا له إنما نحن فتنة فلا تكفر
مثلنا (فيتعلمون منهما) الضمير لما دل عليه من أحد أى فيتعلم الناس من الملكين (ما) أى
سحرا (يفرقون به بين المرء وزوجه) بأن يبغض كلا منهما فى الآخر بسبب حيلة أو تمويه كالنفث
فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله تعالى عنده الفراق ابتلاء منه لا أن السحر له أثر فى نفسه
بدليل قوله تعالى (وما هم) أى السحرة (بضارين به) أى السحر (من أحد) أى أحدا ومن صلة
(إلا بإذن الله) أى إرادته لأن الأسباب غير مؤثرة بالذات بل بإرادته تعالى (ويتعلمون ما يضرهم)
فى الآخرة (ولا ينفعهم) وهو السحر لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا
(ولقد) اللام لام القسم (علموا) أى اليهود (لمن) اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ومن
موصولة (اشتراه) أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى (ما له فى الآخرة من خلاق)
أى نصيب فى الجنة (ولبئس ما) أى شيئا (شروا) أى باعوا (به أنفسهم) أى الشارين أى حظها
من الآخرة أن يتعلموه حيث أوجب لهم النار (لو كانوا يعلمون) حقيقة ما يصيرون إليه من
العذاب ما تعلموه (وقيل) معناه لو كانوا يعملون بعلمهم فإن من لم يعمل بما علم كان كمن لم يعلم
(ولو أنهم) أى اليهود (آمنوا) بالنبى والقرآن (واتقوا) عقاب الله بترك معاصيه كنبذ كتاب الله
تعالى واتباع السحر وجواب لو محذوف أى لأثيبوا دل عليه (لمثوبة) أى ثواب وهو مبتدأ
واللام فيه للقسم وقوله تعالى (من عند الله خير) خبره أى خير مما اشتروا به أنفسهم
(لو كانوا يعلمون) أن ثواب الله تعالى خير لما آثروه عليه فجهلهم الله تعالى لترك التدبر والعمل بالعلم
(يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا) للنبى صلى الله عليه وسلم (راعنا) أمر من المراعاة وكانوا يقولون
ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين وكانت كلمة يتسابون بها
عبرانية أو سريانية وهو راعنا قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن فكانوا يأتون
ويقولون يا محمد راعنا وهم يعنون به تلك المسبة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها
وكان يعرف لغتهم فقال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها
من أحد منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه فقالوا أولستم تقولونها
فأنزل الله تعالى النهى عن ذلك لكى لا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأمر بما هو فى معناها وهو قوله تعالى (وقولوا انظرنا) أى انظر إلينا وقيل اسمع منا قاله مجاهد
وقيل لا تعجل علينا قاله ابن زيد (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود حيث قالوا
سمعنا وعصينا أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه من قولكم راعنا
(وللكافرين) أى الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه (عذاب أليم) أى مؤلم وهو
النار * ونزل فى تكذيب جمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم
الخير (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) وقوله تعالى (ولا المشركين) أى من العرب عطف
على أهل الكتاب ومن للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون كقوله
تعالى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين والمودة محبة الشئ مع تمنيه ولذلك

تستعمل فى كل منهما (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فسر الخير بالوحى والمعنى أنهم
يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم من شئ منه وفسر بالعلم والنصرة والمراد به ما يعم ذلك كما
قاله البيضاوى ومن الاولى مزيدة للاستغراق ومن الثانية لابتداء الغاية (والله يختص برحمته)
أى بنبوته كما قاله على رضى الله تعالى عنه ومجاهد او بالاسلام كما قاله ابن عباس ومقاتل (من يشاء)
ولا يشاء الا ما تقتضيه الحكمة ولا يجب عليه شئ وليس لأحد عليه حق (والله ذو الفضل) وهو
ابتداء احسانه بلا علة وقوله تعالى (العظيم) فيه اشعار بأن ايتاء النبوة والاسلام من الفضل
العظيم ويدل للاول قوله تعالى ان فضله كان عليك كبيرا * ولما طعن الكفار فى النسخ وقالوا ان
محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ما يقوله الا من تلقاء نفسه يقول اليوم قولا
ويرجع عنه غدا كما أخبر الله تعالى بقوله واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما
أنت مفتر نزل (ما ننسخ من آية) فبين وجه الحكمة فى النسخ بهذه الآية والنسخ فى اللغة
شيآن أحدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب الى كتاب
فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لانه نسخ من اللوح المحفوظ والثانى بمعنى الرفع يقال
نسخت الشمس الظل أى ذهبت به وأبطلته فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخا وبعضه منسوخا
وهو المراد من الآية وهذا على وجوه أحدها أن تثبت التلاوة ويفسخ الحكم كآية الوصية
للاقارب وآية عدة الوفاة بالحول والثانى أن ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم والثالث
أن يرفع الحكم والتلاوة كما روى أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤا سورة فلم يذكروا منها
الا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فاخبروه فقال صلى الله عليه وسلم
تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها وقيل كانت سورة الاحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها
تلاوة وحكما ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس
الى الكعبة والوصية للاقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول الى أربعة أشهر
وعشر ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرته للاثنين قال البغوى والنسخ انما يعترض على الاوامر
والنواهى دون الاخبار اه والنسخ اصطلاحا رفع تعلق حكم شرعى بدليل شرعى ويفارق
التخصيص بأن التخصيص لا يرد الا على متعدد وبأنه غير مشروط بالنص بخلاف الفسخ فيهما
وبأنه يفيد عدم ارادة المخرج فى الاصل والنسخ يفيد ارادة المنسوخ فى الاصل لكن غير مستمر
وقرأ ابن عامر ننسخ بضم النون الاولى وكسر السين من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها
والباقون بفتح النون والسين وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية (أو ننسأها)
أى نؤخرها فلا نزل حكمها ولا نرفع تلاوتها أو نؤخرها فى اللوح المحفوظ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
بفتح النون الاولى وفتح السين وهمزة ساكنة بعد السين ولم يبدل هذه الهمزة أحد من السبعة
وقرأ الباقون بضم النون وكسر السين ولا همزة بعد السين أى ننسها أى نمحها من قلبك وقال ابن
عباس رضى الله تعالى عنهما نتركها لا ننسخها قال الله تعالى نسوا الله فنسيهم أى تركوه فتركهم
وجواب الشرط (نأت بخير منها) أى بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لاجركم وان كان

كلام الله كله خيرا (أو مثلها) فى التكليف والثواب والمنفعة وتكون الحكمة فى تبديلها بمثلها الاختبار (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) فيقدر على النسخ والاتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الانزال اذ الاصل اختصاص ان ومايتضمنها بالامور المحتملة وذلك لان الاحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلا من الله ورحمة وذلك يختلف باختلاف الاعصار والاشخاص كأسباب المعاش فان النافع فى عصر قد يضر فى غيره واحتج بها من منع النسخ بلا بدل أو ببدل أثقل ومن منع نسخ الكتاب بالسنة فان الناسخ هو المأتى به بدلا والسنة ليست كذلك قال البيضاوى والكل ضعيف اذ قد يكون عدم الحكم والاثقل أصلح والنسخ قد يعرف بغيره والسنة ما أتى به الله واستدل بهذه الآية المعتزلة على حدوث القرآن فان التغير والتفاوت من لوازم الحدوث وأجاب أهل السنة بأنهما من عوارض الامور المتعلق بها المعنى القائم بالذات القديم لامن عوارض هذا المعنى وقوله تعالى (ألم تعلم) هنا وفيما مر خطاب لمنكرى النسخ فالهمزة للانكار وقيل خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته فالهمزة للتقرير (أن الله له ملك السموات والارض) يفعل فيهما مايشاء ويحكم مايريد فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب مايصلحكم وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهذا كالدليل على قوله ان الله على كل شئ قدير أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف (ومالكم من دون الله) أى غيره (من ولى) أى ولى يحفظكم ومن صلة (ولانصير) يمنع عنكم عذابه وفرق بين الولى والنصير بأن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور فبينهما عموم وخصوص من وجه * ونزل لما سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يوسعها لهم وأن يجعل الصفا ذهبا (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى) أى سأله قومه (من قبل) أى من قولهم له أرنا الله جهرة وقيل قالوا له لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا أو ائتنا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا وتفجر لنا أنهارا حتى نتبعك وقال عبد الله بن أمية لن نؤمن لك حتى تأتى بكتاب فيه من الله رب العالمين الى ابن أمية اعلم انى أرسلت محمدا الى الناس وأم اما معادلة للهمزة فى ألم تعلم أى ألم تعلموا أنه مالك الامور قادر على الاشياء كلها يأمر وينهى كما أراد وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه الصلاة والسلام واما منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة وترك الاقتراح عليه (ومن يتبدل الكفر بالايمان) أى يأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقتراح غيرها (فقد ضل سواء السبيل) أى أخطأ الطريق الحق والسواء فى الاصل الوسط وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار قد عند الضاد حيث جاء وأدغمها الباقون ونزل فى نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى قد عاهدت الله أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ماعشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة وأما انا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن

اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه بذلك فقال أصبتما الخير وأفلحتما (ود) أى تمنى (كثير من أهل الكتاب) من اليهود (لو يردونكم) أى يردوكم يامعشر المؤمنين فلو مصدرية بمعنى ان فان لو تنوب عن ان فى المعنى دون اللفظ (من بعد ايمانكم كفارا) مرتدين وقوله (حسدا) مفعول له كائنا (من عند) أى من تلقاء (أنفسهم) أى لم يأمرهم الله بذلك وانما حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة (من بعد ما تبين لهم) فى التوراة (الحق) فى شأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم (فاعفوا) عنهم أى اتركوهم (واصفحوا) أى أعرضوا عنهم فلا تجازوهم وكان هذا قبل آية القتال ولهذا قال تعالى (حتى يأتى الله بأمره) فيهم من القتال وقد أذن فى قتالهم وضرب الجزية عليهم وروى عن ابن عباس وابن مسعود أن هذا منسوخ بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية وابى النسخ جماعة من المفسرين والفقهاء واحتجوا بان الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقا وانما أمر به الى غاية ومابعد الغاية يخالف ماقبلها وماهذا سبيله لا يكون من باب النسخ بل يكون الاول قد انقضت مدته والآخر يحتاج الى حكم آخر (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على الانتقام من الكفار وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على قوله فاعفوا كأنه تعالى أمرهم بالصبر والمخالفة واللجأ اليه بالعبادة والبر (وما تقدموا لانفسكم من خير) أى طاعة كصلاة وصدقة (تجدوه) أى ثوابه (عند الله) فيجازيكم به (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع عنده عمل عامل (وقالوا) أى كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة الا من كان هودا) جمع هائد كعائذ وعوذ (أو نصارى) قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا اليهود ولا دين الا دين اليهودية وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا النصارى ولا دين الا دين النصرانية فجمع الله بين القولين ثقة بأن السامع يرد الى كل فريق قوله وأمنا من الالباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ونحوه (تلك) أى القولة (أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله تعالى بغير حق (قل) لهم يا محمد (هاتوا برهانكم) أى حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة (ان كنتم صادقين) فى دعواكم اذ كل قول لا دليل عليه فهو غير صحيح وهذا متصل بقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وتلك أمانيهم اعتراض وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أى انقاد لامره وخص الوجه لانه أشرف الاعضاء الظاهرة فغيره أولى (وهو محسن) فى عمله وقيل مخلص وقيل مؤمن (فله أجره) أى ثواب عمله ثابتا (عند ربه) لا يضيع ولا ينقص والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ويصح أن يكون قوله من اسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم فلا يحسن الوقف عليه ويصح أن يكون قوله فله أجره عند ربه كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى الآخرة * ولما قدم نصارى نجران

على النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بعيسى والانجيل وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بموسى والتوراة أنزل الله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ) أى يعتدّ به وكفروا بعيسى والانجيل (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) أى يعتدّ به وكفروا بموسى والتوراة (وهم) أى الفريقان (يتلون الكتاب) أى المنزل عليهم وفى كتاب اليهود تصديق عيسى وفى كتاب النصارى تصديق موسى والجملة حال وأل فى الكتاب للجنس أى قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب (كذلك) أى كما قال هؤلاء (قال الذين لا يعلمون) كعبدة الاصنام والمعطلة وهم الذين لا يثبتون الصانع وقوله تعالى (مثل قولهم) بيان لمعنى ذلك أى قال كل ذى دين ليسوا على شئ وبخهم الله تعالى على المكابرة والتشبه بالجهال (فان قيل) لم وبخهم وقد صدقوا فان كلا الدينين بعد النسخ ليس بشئ (أجيب) بأنهم لم يقصدوا ذلك وانما قصد به كل فريق ابطال دين الآخر من أصله والكفر بنبيه وكتابه كما مرّ مع ان ما لم ينسخ حق واجب القبول والعمل به * (تنبيه) * اذا وقف حمزة وهشام على شئ فلهما أربعة وجوه السكون والروم والادغام والروم معه وسكن حمزة قبل الهمزة بخلاف عن خلاد فى الوصل وأدغم أبو عمرو الكاف فى القاف بخلاف عنه (فالله يحكم بينهم) أى بين الفرق الثلاثة وهم اليهود والنصارى والذين لا يعلمون (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه وعن الحسن حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار وقرأ أبو عمرو يحكم بسكون الميم عند الباء والاخفاء بخلاف عنه (ومن أظلم) أى لا أحد أظلم (ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) بالصلاة والتسبيح (وسعى فى خرابها) بالهدم أو التعطيل هذا عام لكل من خرب مسجدا أو سعى فى تعطيله وان نزل فى أهل الروم الذين خربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير فكان خرابا الى أن بناه المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أو فى المشركين لما صدّوا النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيت (فان قيل) قد قال مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام (أجيب) بأنه لا يمنع أن يجئ الحكم عاما وان كان السبب خاصا كما تقول لمن آذى صالحا ومن أظلم ممن آذى الصالحين وكما قال الله تعالى ويل لكل همزة لمزة والمنزول فيه الاخنس بن شريق (أولئك) أى المانعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أى مساجد الله (الا خائفين) أى على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها أو يخربوها أو يمنع النبى صلى الله عليه وسلم عنها وقال قتادة لا يوجد نصرانى فى بيت المقدس الا انهمك ضربا وأبلغ اليه فى العقوبة وروى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان وقيل ان هذا خبر بمعنى الامر أى أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمنا واختلف فى جواز دخول الكافر المسجد فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق

الشافعي بين المسجد الحرام وغيره فمنع من الاول وجوّز في الثاني بشرط اذن المسلم والحاجة وغلظ ورش اللام من أظلم بعد الظاء (لهم في الدنيا خزي) أي هوان بالقتل والسبي والجزية (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) بكفرهم وظلمهم وهو النار * ونزل لما عيرت اليهود المؤمنين في نسخ القبلة وقالوا ليست لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هذا وتارة هذا كما قاله عكرمة أو في صلاة النافلة على الراحلة في السفر حيثما توجهت به راحلته كما قاله ابن عمر (ولله المشرق والمغرب) أي ناحيتا الارض أي له الارض كلها لا يختص به مكان دون مكان فان منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام والاقصى فقد جعلت لكم الارض كلها مسجدا (فأينما تولوا) وجوهكم أي جهة وهو الصدر في الصلاة (فثم) أي هنالك (وجه الله) أي قبلته كما قاله مجاهد وقال الكلبي فثم الله يعلم ويرى والوجه صلة كقوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه أي الا هو (ان الله واسع) أي غني يعطي من السعة يسع فضله كل شئ (عليم) بتدبير خلقه * ونزل لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله (وقالوا اتخذ الله ولدا) فقال الله تعالى ردا عليهم (سبحانه) تنزيها له عن ذلك فانه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء وقرأ ابن عامر قالوا بغير واو قبل القاف والباقون بالواو قبل القاف (بل له ما في السموات والارض) ملكا وخلقا ومن جملة ذلك العزير والمسيح والملائكة والملكية تنافي الولادة وعبر بما تغليبا لما لا يعقل لكثرته (كل له قانتون) أي منقادون كل بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفي ذلك تغليب للعاقل لشرفه والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه الاول قوله سبحانه والثاني قوله بل له ما في السموات والارض والثالث كل له قانتون واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه لانه تعالى نفى الولد باثبات الملك وذلك يقتضي تنافيهما (بديع السموات والارض) أي موجدهما لا على مثال سبق وهذا وجه رابع يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان الوالد عنصر الولد المنفصل بانفصال مادته عنه والله سبحانه وتعالى مبدع الاشياء كلها فاعل على الاطلاق منزه عن الصفات فلا يكون والدا (واذا قضى أمرا) أي أراد ايجاد شئ وأصل القضاء اتمام الشئ قولا كان كقوله تعالى وقضى ربك أو فعلا كقوله تعالى فقضاهن سبع سموات وأطلق على تعليق الارادة الالهية بوجود الشئ من حيث انه يوجبه (فانما يقول له كن فيكون) وهذا مجاز من الكلام وتمثيل وانما المعنى أن ما قضاه من الامور وأراد كونه فانما يكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الاباء وفيه تقرير لمعنى الابداع دائما وهذا وجه خامس يشعر بفساد ما قالوه أيضا لان اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة وفعله تعالى مستغن عن ذلك وقرأ ابن عامر بنصب النون من يكون جوابا للامر والباقون بالرفع على معنى فهو يكون (فان قيل) المعدوم لا يخاطب (أجيب) بأنه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود فصح خطابه (وقال الذين لا يعلمون) للنبي صلى الله عليه وسلم وهم اليهود كما قاله ابن عباس أو النصارى كما قاله مجاهد أو مشركو العرب كما قاله

قتادة ونفى عنهم العلم لانهم لم يعملوا به (لولا) أى هلا (يكلمنا الله) كما يكلم الملائكة أو يوحى الينا بأنك رسوله (أو تأتينا آية) أى علامة مما اقترحناه على صدقك (كذلك) أى كما قال هؤلاء (قال الذين من قبلهم) من كفار الامم الماضية لانبيائهم (مثل قولهم) من التعنت وطلب الآيات فقالوا أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء (تشابهت قلوبهم) أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى الكفر والعناد وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) الحقائق ولا يعتريهم شبهة ولا عناد وفيه اشارة الى أنهم قالوا ذلك لا لخفاء فى الآيات أو لطلب مزيد يقين وانما قالوه عتوا وعنادا (انا أرسلناك) يا محمد (بالحق) أى القرآن كما قاله ابن عباس كما قال تعالى بل كذبوا بالحق لما جاءهم أو الاسلام وشرائعه كما قاله ابن كيسان قال تعالى وقل جاء الحق (بشيرا) أى مبشرا من أجاب الى ذلك بالجنة (ونذيرا) أى منذرا من لم يجب اليه بالنار أى انما أرسلناك لان تبشر وتنذر لا لتجبر الناس على الايمان وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم ويضيق صدره لاصرارهم وتصميمهم على الكفر (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) أى النار وهم الكفار مالهم لم يؤمنوا بعد أن بينت وبلغت جهدك فى دعوتهم كقوله تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقرأ نافع تسأل بفتح التاء وسكون اللام على النهى قال عطاء عن ابن عباس وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت هذه الآية فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله تعالى لكن الخبر ضعيف والمختار انها نازلت فى كفار أهل الكتاب وقرأ الباقون بضم التاء واللام على النفى أى ولست بمسؤل عنهم كما قال تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أى دينهم أى لن ترضى عنك اليهود الا باليهودية ولا النصارى الا بالنصرانية وفى هذا مبالغة فى اقناطه صلى الله عليه وسلم عن اسلامهم وذلك انهم كانوا يسألونه الهدنة ويطمعونه انه ان أمهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية فانهم اذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته قال البيضاوى ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولذلك قال (قل) تعليما للجواب (ان هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) أى هو الذى يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما يدعون الى اتباعه ما هو بهدى انما هو أهواء ألا ترى الى قوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (اتبعت أهواءهم) أى آراءهم الزائغة التى يدعونك اليها الخطاب معه صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمته كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك (بعد الذى جاءك من العلم) أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة (مالك من الله من ولى) يحفظك (ولا نصير) يمنعك منه * ونزل فى جماعة من أهل الكتاب قدموا من الحبشة وأسلموا (الذين آتيناهم الكتاب) وهو مبتدأ (يتلونه حق تلاوته) أى يقرفونه كما أنزل لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والجملة حال مقدرة وحق نصب على المصدر والخبر (أولئك يؤمنون به) أى بكتابهم دون المحرفين (ومن يكفر به) أى بالكتاب المؤتى بأن يحرفه (فأولئك

هم الخاسرون) لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما صدر قصة بني اسرائيل بالامر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر عن اضاعتها والخوف من الساعة وأحوالها فى قوله تعالى يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا به هدى الخ كرر ذلك بقوله تعالى (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) أي عالمي زمانهم (واتقوا) أي خافوا (يوما لا تجزى) أي لا تغني (نفس عن نفس) فيه (شيأ ولا يقبل منها عدل) أي فداء (ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) أي يمنعون من عذاب الله وختم بالمكرر الكلام معهم مبالغة فى النصح * (تنبيه) * اتفق القراء على قراءة يقبل هنا بالياء على التذكير (و) اذكر (اذ ابتلى) أي اختبر (ابراهيم ربه بكلمات) أي بأوامر ونواه وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لانه عالم بهم ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا * واختلفوا فى الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال عكرمة عن ابن عباس هي ثلاثون من شرائع الاسلام عشر فى براءة التائبون العابدون الخ وعشر فى الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الخ وعشر فى المؤمنين الى قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وفى سأل سائل الى قوله تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال طاوس عن ابن عباس ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء هي الفطرة خمس فى الرأس أي الشامل للوجه قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس فى الجسد تقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء وفى الخبر ان ابراهيم أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الاظافر وأول من رأى الشيب فلما رآه قال يارب ماهذا قال الوقار قال يارب زدني وقارا وقال قتادة هي مناسك الحج أي فرائضه وسننه كالطواف والسعي والرمي والاحرام والتعريف وغيرهن وقال الحسن ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لا يزول وبالنار فصبر عليها وبالختان وبذبح ولده وبالهجرة فصبر عليها وقال مجاهد هي الآيات التي بعدها فى قوله تعالى انى جاعلك للناس اماما الى آخر القصة وقرأ ابن عامر ابراهام بفتح الهاء وألف بعدها جميع مافى هذه السورة وهي خمسة عشر حرفا وفى النساء ثلاثة أحرف وهي الاخيرة وفى الانعام الحرف الاخير وفى التوبة الحرفان الاخيران وفى ابراهيم حرف وفى النحل حرفان وفى مريم ثلاثة أحرف وفى العنكبوت حرف وفى الشورى حرف وفى الذاريات حرف وفى النجم حرف وفى الحديد حرف وفى الممتحنة الحرف الاول فذلك ثلاثة وثلاثون حرفا وقرأ ابن ذكوان فى البقرة خاصة بالوجهين وابراهيم اسم أعجمي ولذلك كان غير منصرف وهو ابن آزر كما فى سورة الانعام وكان مولده بالسوس من أرض الاهواز وقيل بابل وقيل حران ولكن نقله أبوه الى بابل أرض نمروذ بن كنعان والضمير فى ربه لابراهيم وحسن لتقدمه لفظا وان تأخر رتبة لان الشرط تقدمه لفظا أو رتبة (فأتمهن) أي أداهن تامات وقام بهن حق القيام لقوله وابراهيم الذى وفى (قال انى جاعلك للناس اماما) يقتدى بك فى الخير وجاعل من جعل الذى له مفعولان والامام اسم من يؤتم به وامامة ابراهيم عامة مؤبدة اذ لم يبعث من بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا

باتباعه (قال) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ومن ذريتى) أى أولادى اجعل أئمة يقتدى بهم فى الخير (قال) الله تعالى (لا ينال) أى لا يصيب (عهدى) بالامامة (الظالمين) منهم ففى ذلك اجابة الى مطلوبه وتنبيه على انه قد يكون من ذريته ظلمة وانهم لا ينالون الامامة لانها امامة من الله تعالى وعهد والظالم لا يصلح لها وانما ينالها البررة والاتقياء منهم وفيه دليل على عصمة الانبياء من الكبائر قبل النبوة وأن الفاسق لا يصلح للامامة وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره ولا يقدم للصلاة وقرأ حفص وحمزة عهدى بسكون الياء وفتحها الباقون ومن سكن الياء أسقطها فى الوصل لفظا لالتقاء الساكنين (و) اذكر (اذ جعلنا البيت) أى الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا وأدغم أبو عمرو وهشام ذال اذ فى الجيم وأظهرها الباقون (مثابة) أى مرجعا (للناس) من الحجاج والعمار وغيرهم يثوبون اليه من كل جانب (وأمنا) أى مأمنا لهم من الظلم وايذاء المشركين والاغارة الواقعة فى غيره قال تعالى أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم كان الجانى يأوى اليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهذا على طريق الحكم لا على وجه الخبر فقط فلا ينافى ذلك الوقوع قال القاضى أبو يعلى وصف البيت بالامن والمراد جميع الحرم كما قال تعالى هديا بالغ الكعبة والمراد الحرم كله لانه لا يذبح فى الكعبة ولا فى المسجد الحرام (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وهذا أمر استحباب ومقامه الحجر وهو بفتح الحاء والجيم الذى فيه أثر قدميه كان يقوم عليه عند بناء البيت أو عند دعاء الناس الى الحج وهو موضعه اليوم روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وعن ابن عباس انه قال قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وافقت الله تعالى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث فقلت يا رسول الله لو اتخذت مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر لو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله الله تعالى آية الحجاب قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن وقلت لهن ان انتهيتن أو ليبدلن الله تعالى لرسوله خيرا منكن فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وفى الخبر الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسهما من أيدى المشركين لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب وقيل المراد باتخذوا الخ الامر بركعتى الطواف لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وللشافعى فى وجوبهما قولان أرجحهما عدم الوجوب وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب الى الله تعالى * (تنبيه) * من فى من مقام ابراهيم للتبعيض (وقيل) بمعنى فى وقيل زائدة وقرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء بلفظ الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مقام ابراهيم مصلى والباقون بكسرها بلفظ الامر (وعهدنا) أى أمرنا (الى ابراهيم واسمعيل) قيل سمى به لان ابراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول اسمع يا ايل وايل هو الله فلما رزق الولد سماه به (أن) أى بأن (طهرا بيتى)

من الاوثان والانجاس ومالايليق به أواخلصاه (للطائفين) حوله (والعاكفين) المقيمين عنده اوالمعتكفين فيه (والركع السجود) جمع راكع وساجدوهم المصلون وقرأنافع وهشام وحفص بيتى بفتح الياء والباقون بالسكون (و) اذكر (اذقال ابراهيم رب اجعل) هذا أى مكة أوالحرم (بلدا آمنا) أى ذا آمن كقوله تعالى فى عيشة راضية أوآمنا أهله كقول القائل ليل نائم (وارزق أهله من الثمرات) انما دعا بذلك لانه كان بوادغير ذى زرع وفى القصص ان الطائف كانت من مدائن الشام باردن فلما دعا ابراهيم هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه الصلاة والسلام حتى قطعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الآن فمنها أكثر ثمرات مكة وقوله تعالى (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله قاس ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه الرزق على الامامة حيث قيده بالمؤمن كما قيدت به (قال) تعالى (و) أرزق (من كفر) لان الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الامامة والتقدم فى الدين (فأمتعه) فى الدنيا بالرزق وقرأ ابن عامر بسكون الميم وتخفيف التاء والباقون بفتح الميم وتشديد التاء وأما الهمزة بعد الالف فالجميع اتفقوا على ضمها (قليلا) أى مدة حياته والكفر وان لم يكن سبب التمتع لكنه سبب تقليله بأن يجعله مقصورا بحظوظ الدنيا غير متوصل به الى نيل الثواب ولذلك عطف عليه (ثم اضطره) أى ألجئه فى الآخرة (الى عذاب النار) فلا يجد عنها محيصا (وبئس المصير) أى المرجع والمخصوص بالذم محذوف وهو العذاب قال مجاهد وجد عند المقام أنا الله ذو بكة أى صاحبها صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر وحرمتها يوم خلقت السموات والارض وحففتها بسبعة املاك حنفاء يأتيها رزقها مباركا لاهلها فى اللحم والماء (و) اذكر (اذيرفع ابراهيم القواعد) أى الاسس والجدر (من البيت) حكاية حال ماضية كأنه قال اذ كان يرفع (فان قلت) وأى فرق بين العبارتين (أجيب) بأن فى ابهام القواعد وتبيينها بعد الابهام ماليس فى اضافتها لما فى الايضاح بعد الابهام من تفخيم شأن المبين وقوله تعالى (واسمعيل) عطف على ابراهيم يقولان يا (ربنا تقبل منا) بناءنا (انك أنت السميع) للقول فتسمع دعاءنا (العليم) بالفعل فتعلم بناءنا روت الرواة ان الله تعالى خلق موضع البيت قبل الارض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الارض من تحتها فلما أهبط الله تعالى آدم الى الارض استوحش فشكا الى الله تعالى فأنزل الله تعالى البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم انى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى حول عرشى وأنزل الحجر الاسود وكان أبيض فاسود من لمس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند الى مكة ماشيا وقيض الله تعالى له ملكا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك قال ابن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى الى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون اليه وبعث جبريل حتى خبأ الحجر الاسود فى

جبل

جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا الى زمن ابراهيم ثم ان الله تعالى أمر ابراهيم بعد ما ولد له اسمعيل واسحق ببناء بيت يذكر فيه اسمه تعالى فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه قال ابن عباس فبعث الله له سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وابراهيم يمشي في ظلها الى ان وافت به مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها ابراهيم أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل أرسل الله تعالى جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فبنى ابراهيم واسمعيل البيت فكان ابراهيم يبنيه واسمعيل يناوله الحجارة ولما كان له مدخل في البناء عطف عليه وقيل كانا يبنيان في طرفين أو على التناوب قال ابن عباس بنى البيت من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشأم والجودي وهو جبل بالجزيرة وبنيا قواعده من جبل حرا وهو جبل بمكة فلما انتهى ابراهيم الى موضع الحجر الاسود قال لاسمعيل ائتني بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتني بأحسن من هذا فمضى اسمعيل يطلبه فصاح أبو قبيس يا ابراهيم ان لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الاسود فوضعه مكانه وقيل أول من بنى الكعبة آدم ثم اندرس من الطوفان ثم أظهره الله تعالى لابراهيم حتى بناه وقيل بنته الملائكة قبل آدم وقد بنى الى يومنا هذا سبع مرّات المرّة الاولى هل كان البانى الملائكة أو آدم ثم ابراهيم ثم العمالقة ثم جرهم ثم قريش وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا البناء وكان ينقل معهم الحجارة ثم ابن الزبير في خلافته ثم الحجاج الثقفي وهو الموجود اليوم (ربنا واجعلنا مسلمين) أي منقادين مخلصين خاضعين (لك) والمراد طلب الزيادة في الاخلاص والاذعان (و) اجعل (من ذريتنا) أي أولادنا (أمة) أي جماعة (مسلمة) خاضعة منقادة (لك) ومن للتبعيض أي واجعل بعض ذريتنا وانما خصا الذرية بالدعاء لانهم أحق بالشفقة ولان أولاد الانبياء اذا صلحوا صلح بهم الاتباع الا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء اذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم وخصا بعضهم لتقدم قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين فعلما ان في ذريتهما ظلمة وأن الحكمة الالهية لا تقتضى اتفاق الناس كلهم على الاخلاص والاقبال الكلى على الله تعالى فانه مما يشوش المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى الذين صرفوا أنفسهم الى الدنيا لخربت الدنيا ويصح أن تكون من للتبيين كقوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم قدم على المبين وفصل به بين العاطف وهو واو ومن والمعطوف وهو أمة كما في قوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن وقيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (و أرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع ديننا واعلام حجنا والنسك في الاصل غاية العبادة وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن المعتاد كالصيد والتمتع باللباس وغيره والناسك العابد فأجاب الله تعالى دعاءهما وبعث لهما جبريل عليه السلام فأراهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا ابراهيم قال نعم فسمى الوقت عرفة والموضع عرفات وقرأ ابن كثير والسوسى أرنا بسكون الراء وقرأ الدورى عن أبي عمرو باختلاس حركة الراء والباقون بالحركة الكاملة (وتب علينا) سألاه التوبة مع عصمتهما هضما بالانفسهما

وارشاد الذرية تهما أولما سلف منهما سهوا قبل النبوة (انك أنت التواب) لمن تاب (الرحيم) به (ربنا وابعث فيهم) أى الامة المسلمة من ذرية ابراهيم واسمعيل (رسولا منهم) أى من أنفسهم روى انه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان فبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم اذلم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم اذلم يأت نبى من ولد اسمعيل الا النبى صلى الله عليه وسلم والكل من ولد اسحق فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام انى عند الله مكتوب خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول أمرى انا دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت له قصور الشأم وأراد بدعوة ابراهيم هذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل الانبياء من بنى اسرائيل الا عشرة نوح وهود وشعيب وصالح ولوط وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين (يتلو) أى يقرأ (عليهم آياتك) القرآن ويبلغهم ما يوحى اليه من دلائل التوحيد والنبوة (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ما تكمل به نفوسهم من المعارف والاحكام وقال ابن قتيبة هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقال أبو بكر بن دريد كل كلمة وعظتك أودعتك الى مكرمة أونهتك عن قبيح فهى حكمة وقيل هى فهم القرآن وقيل الفقه فى الدين وقيل السنة (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك وقيل يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة اذا شهدوا هم للانبياء بالتبليغ والتعديل (انك أنت العزيز) الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد وقيل هو الذى لا يوجد مثله وقيل هو المنيع الذى لا تناله الايدى ولا يصل اليه شئ (الحكيم) فى صنعه (ومن) أى لا (يرغب) أحد (عن ملة ابراهيم) فيتركها الظهورها ووضوحها (الا من سفه نفسه) أى جهل أنها مخلوقة لله تعالى يجب عليه عبادته وذلك ان عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما ان الله عز وجل قال فى التوراة انى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية قاله البيضاوى وغيره قال الاسيوطى لم أقف على ذلك فى شئ من كتب الحديث ولا التفاسير المسندة والمثبت مقدم على غيره وقد جاء من عرف نفسه فقد عرف ربه وفى الاخبار ان الله أوحى الى داود عليه الصلاة والسلام اعرف نفسك واعرفنى فقال يارب كيف اعرف نفسى وأعرفك فأوحى الله تعالى اليه اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفنى بالقوة والبقاء وهذا معنى من عرف نفسه فقد عرف ربه (ولقد اصطفيناه) أى اخترناه (فى الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) الذين لهم الدرجات العلا وفى هذا حجة وبيان لخطا من رغب عن ملته لان من جمع الكرامة عند الله فى الدارين وكان مشهودا له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عنه الا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر * (تنبيه) * قال الحسين بن الفضل فى الآية تقديم وتأخير تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وانه لمن الصالحين وقوله تعالى (اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) اما ظرف

لاصطفيناه أى اخترناه فى ذلك الوقت وامّا منصوب باضمار اذكر كأنه قال اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وانه نال ما نال بالمبادرة الى الاذعان واخلاص السر حين دعاه ربه فكأنه قال له كما قال عطاء أسلم نفسك الى الله عز وجل وفوض أمرك اليه قال أسلمت أى فوضت قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار (ووصى بها) أى بالملة المتقدم ذكرها أو بأسلمت على تأويل الكلمة أو الجملة وقيل بكلمة الاخلاص وهى لا اله الا الله وقرأ نافع وابن عامر وأوصى بسكون الواو الثانية وهمزة مفتوحة بين الواوين والباقون بواوين مفتوحتين ولا همزة بينهما وهذا أبلغ قال الزجاج لانّ أوصى يصدق بالمرة الواحدة ووصى لا يكون الا لمرات كثيرة وأمال ورش بين بين وحمزة والكسائى محضة والباقون بالفتح وقوله تعالى (ابراهيم بنيه) قال مقاتل وهم أربعة اسمعيل واسحق ومدين ومدان وقد ذكر غير مقاتل انهم ثمانية وقيل أربعة عشر (و) وصى بها أيضا (يعقوب) بنيه وهم اثنا عشر روبيل وشمعون ولاوا ويهوذا ويشيخور وزبويلون ودان ويفتونى وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف وسمى بذلك لانه والعيص كانا توأمين فتقدم عيص فى الخروج من بطن أمّه وخرج يعقوب عقبه وقوله تعالى (يا بنىّ) على اضمار القول عند البصريين متعلق بوصى عند الكوفيين (انّ الله اصطفى لكم الدين) أى دين الاسلام الذى هو صفوة الاديان لقوله تعالى (فلا تموتنّ الا وأنتم مسلمون) نهى عن ترك الاسلام وأمر بالثبات عليه الى مصادفة الموت وعن الفضيل بن عياض انه قال الا وأنتم مسلمون أى محسنون بربكم الظن لما روى جابر رضى الله عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتنّ أحد الا وهو يحسن الظن بربه * ولما قالت اليهود للنبىّ صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية نزل (أم كنتم شهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ما كنتم حاضرين وقول الاسيوطى لم أقف على ذلك فيه ما مرّ (اذ حضر يعقوب الموت) أى حين احتضر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الهمزة الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (قال لبنيه ما تعبدون من بعدى) أى بعد موتى أى أىّ شئ تعبدونه أراد به تقريرهم على التوحيد والاسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات فليس الاستفهام على حقيقته قال عطاء انّ الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الموت والحياة فلما خير يعقوب قال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك به فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى (قالوا نعبد الهك واله آبائك) وقوله تعالى (ابراهيم واسمعيل واسحق) عطف بيان لآبائك وجعل اسمعيل وهو عمه من جملة آبائه تغليبا للاب اسحق والجد ابراهيم أو لان العم أب والخالة أم لانخراطهما فى سلك واحد وهو الاخوة لا تفاوت بينهما ومنه قوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنو النخلة وقال فى العباس هذا بقية آبائى وقال ردوا علىّ أبى فانى أخشى ان تفعل بى قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن

مسعود وقوله تعالى (الها واحدا) بدل من اله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وقوله تعالى (ونحن له مسلمون) حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيه للانكار أى لم يحضروه وقت موته فكيف ينسبون اليه ما لا يليق به أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شهداء وقيل الخطاب للمؤمنين بمعنى ما شهدتم ذلك وانما حصل لكم العلم به من طريق الوحى وقوله تعالى (تلك) مبتدأ والاشارة الى الامة المذكورة التى هى ابراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون وأنث لتأنيث خبره وهو (أمة قد خلت) أى سلفت وقوله تعالى (لها ما كسبت) أى من العمل جزاؤه استئناف (ولكم) الخطاب لليهود (ما كسبتم) والمعنى ان أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما ان أولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم الا ما كسبتم وذلك انهم افتخروا بأوائلهم ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) كما لا يسئلون عن عملكم والجملة تأكيد لما قبلها (وقالوا) أى أهل الكتاب (كونوا هودا أو نصارى) أى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى فأو للتفصيل قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى رؤس يهود المدينة وفى نصارى نجران وذلك انهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الانبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بعيسى والانجيل وبمحمد والقرآن وقالت النصارى نبينا عيسى أفضل الانبياء وكتابنا الانجيل أفضل الكتب وديننا أفضل الاديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقال كل من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين الا ذلك وقوله تعالى (تهتدوا) جواب الامر وهو كونوا قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (بل) نتبع (ملة ابراهيم) وقال الكسائى هو نصب على الاغراء كأنه يقول اتبعوا ملة ابراهيم وقيل معناه بل نكون على ملة ابراهيم فحذف على فصار منصوبا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المضاف اليه كقولك رأيت وجه هند قائمة لكن هذا جزء حقيقة وملة كالجزء والحنيف المائل عن كل دين باطل الى دين الحق وقوله تعالى (وما كان من المشركين) تعريض لاهل الكتاب وغيرهم لان كلا منهم يدعى اتباع ابراهيم وهو على الشرك (قولوا آمنا بالله) خطاب للمؤمنين وقول الكشاف ويجوز أن يكون خطابا للكافرين أى قولوا لتكونوا على الحق والا فأنتم على الباطل وكذلك قوله تعالى قل بل ملة ابراهيم يجوز أن يكون على تأويل اتبعوا ملة ابراهيم أو كونوا أهل ملته يرده قوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به (وما أنزل الينا) أى من القرآن وانما قدم ذكره لانه أول الكتب بالنسبة الينا أو لانه سبب للايمان بغيره (وما أنزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) جمع سبط وهو الحافد وكان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد حفدة يعقوب أو أبناؤه وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق (فان قيل) الصحف انما أنزلت على ابراهيم (أجيب) بأنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها كانت أيضا منزلة

اليهم

اليهم كما أن القرآن منزل الينا (وما أوتى موسى) من التوراة (و) ما أوتى (عيسى) من الانجيل (فان قيل) لم أفرد التوراة والانجيل بحكم أبلغ وهو الايتاء لانه أبلغ من الانزال لكونه مقصودا منه ولم يقل والاسباط وموسى وعيسى (أجيب) بأن أمرهما بالاضافة الى موسى وعيسى مغاير لما سبق والنزاع وقع فيهما فلهذا أفردا بالذكر (وما أوتى) أى أعطى (النبيون) أى المذكورون (من ربهم) من الكتب والآيات وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء ولورش فى الهمز المد والتوسط والقصر (لا نفرق بين أحد منهم) كاليهود والنصارى فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بجميعهم (فان قيل) كيف صح اضافة بين الى أحد وهو مفرد (أجيب) بأنه فى معنى الجماعة وعلله السعد التفتازانى بأنه اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث قال ويشترط أن يكون استعماله مع كلمة كل أو فى كلام غير موجب (ونحن له) أى لله (مسلمون) أى مذعنون أى مخلصون روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية وقوله تعالى (فان آمنوا) أى اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) من باب التعجيز والتبكيت كقوله تعالى فأتوا بسورة من مثله لان دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الاسلام قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه واما ان مثل صلة أى آمنوا بما آمنتم به كقوله تعالى ليس كمثله شئ أى ليس كهو شئ وكما فى قوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله أى عليه وقيل الباء صلة كما فى قوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا (وان تولوا) أى أعرضوا عن الايمان به (فانما هم فى شقاق) أى فى خلاف ومنازعة معكم يقال شاق مشاقة اذا خالف كان كل واحد من المتخالفين يحرص على كل ما يشق على صاحبه (فسيكفيكهم الله) يا محمد شقاقهم فى ذلك تسلية وتسكين للمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصر على من عاداهم وقد كفاه اياهم بقتل بنى قريظة ونفى بنى النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى وقوله تعالى (وهو السميع العليم) اما من تمام الوعد بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم اخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة واما وعيد للمعرضين بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه ولا مانع من حمل الكلام على الوعد والوعيد معا (صبغة الله) أى دينه الذى فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه كالصبغ للثوب أو للمشاكلة فان النصارى كانوا اذا ولد لهم ولد وأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم أصفر يقال له المعمودية ويقولون هو طهير لهم مكان الختان فاذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالايمان صبغة لا مثل صبغتكم وطهرنا به تطهيرا لا مثل تطهيركم أو يقول المسلمون صبغنا الله بالايمان صبغة ولا نصبغ صبغتكم وهو مصدر موكد لآمنا ونصبه بفعل مقدر أى صبغنا الله تعالى وقيل نصب على البدل من ملة ابراهيم وقيل نصب على الاغراء (ومن) أى لا أحد (أحسن

من الله صبغة) أى لا صبغة أحسن من صبغته أى لا دين احسن من دينه وصبغة تمييز وقوله تعالى (ونحن له عابدون) عطف على آمنا بالله قال الزمخشرى وهذا العطف يرد قول من زعم ان صبغة الله بدل من ملة ابراهيم أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم واخراج الكلام عن التئامه واتساقه وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه والقول ما قالت حذام اه نعم ان قدر قولوا فى ونحن له عابدون معطوفا على الزموا بتقدير الاغراء أو اتبعوا ملة ابراهيم بتقدير البدل لم يلزم ما قاله * ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الاول وقبلتنا أقدم ولم تكن الانبياء من العرب لانهم عبدة الاوثان ولو كان محمد نبيا لكان منا لانا أهل الكتاب نزل (قل) لهم (أتحاجوننا) أى تجادلوننا أو تخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب دونكم ويقولون لو أنزل الله على أحد لانزل علينا وترون انكم أحق بالنبوة منا (وهو ربنا وربكم) نشترك جميعا فى أننا عباده وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده هم فوضى فى ذلك لا يختص به عجمى دون عربى اذا كان أهلا للكرامة (ولنا أعمالنا) نجازى بها (ولكم أعمالكم) تجازون بها أى كما ان لكم أعمالا يعتبرها الله فى اعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك فالعمل هو أساس الامر وبه العبرة (ونحن له مخلصون) فى الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل اخلاصه لكرامته بالنبوة والهمزة للانكار والجمل الثلاث أحوال وقرأ أبو عمرو بادغام النون فى اللام بخلاف عنه وله فيه الروم والاشمام وقوله تعالى (أم يقولون) قرأه ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائى بالتاء والباقون بالياء على الغيبة فعلى القراءة الثانية أم منقطعة والهمزة للانكار وعلى القراءة الاولى يحتمل أن تكون معادلة للهمزة فى أتحاجوننا بمعنى أى الامرين تأتون المحاجة وادعاء اليهودية والنصرانية على الانبياء فى قولكم (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل) لهم يا محمد (أأنتم أعلم أم الله) الله أعلم وقد نفى الله تعالى الامرين عن ابرهيم بقوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما واحتج تعالى على ذلك بقوله تعالى وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده والمذكورون معه تبع له فهم اتباعه فى الدين وفاقا (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن كتم) اى أخفى عن الناس (شهادة عنده) كائنة (من الله) أى شهادة الله تعالى لابراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية وهم أهل الكتاب لانهم كتموا هذه الشهادة وكتموا شهادة الله تعالى لمحمد بالنبوة فى كتبهم وغيرها ومن للابتداء كما فى قوله تعالى براءة من الله ورسوله أى شهادة كائنة من الله فمن الله صفة لشهادة وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وقوله تعالى (تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) تكرير للمبالغة فى التحذير والزجر عما استحكم فى الطبائع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم وقيل الخطاب فيما سبق لهم وفى هذه الآية لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة فى الاول الانبياء وفى الثانى أسلاف اليهود والنصارى (سيقول السفهاء) أى الجهال الذين خفت

أحلامهم

أحلامهم (من الناس) وهم اليهود لكراهتهم التوجه الى الكعبة وأنهم لايرون النسخ (ماولاهم) أى اى شئ صرف النبى والمؤمنين (عن قبلتهم التى كانوا عليها) وهى بيت المقدس وقيل هم المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء وقيل المشركون قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق الى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع الى دينكم والاتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الاخبار بالغيب (فان قيل) مافائدة الاخبار بذلك قبل وقوعه (أجيب) بأن فائدته توطين النفس واعداد الجواب فان مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب اذا وقع وقبل الرمى يراش السهم والقبلة فى الاصل الحالة التى عليها الانسان مأخوذة من الاستقبال وصارت عرفا للمكان المتوجه نحوه للصلاة قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (لله المشرق والمغرب) أى الجهات كلها ملكا والخلق عبيده لايختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع اقامة غيره مقامه وانما العبرة بامتثال أمره لابخصوص المكان فيأمر بالتوجه الى أى جهة شاء لا اعتراض عليه (يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط) أى طريق (مستقيم) وهو ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من توجيههم تارة الى بيت المقدس وأخرى الى الكعبة وقوله تعالى (وكذلك) الكاف فيه للتشبيه أى كما اخترنا ابراهيم وذريته واصطفيناهم (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) أى خيارا عدولا قال تعالى قال أوسطهم أى خيرهم وأعدلهم وخير الاشياء أوسطها الافراطها ولاتفريطها لان الافراط المجاوزة لما لاينبغى والتفريط التقصير عما ينبغى كالجود بين الاسراف والبخل والشجاعة بين التهور وهو الوقوع فى الشئ بقلة مبالاة وبين الجبن لان الافراد يتسارع اليها الخلل والاوساط محمية محفوظة روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد العصر فما ترك شيأ الى يوم القيامة الا ذكره فى مقامه ذلك حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل وأطراف الحيطان فقال اما انه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها الا كما بقى من يومكم هذا ألا وان هذه الامة توفى سبعين أمة هى أخيرها وأكرمها على الله عزوجل وقوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) أى يوم القيامة ان رسلهم بلغتهم (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أى يزكيكم و يشهد بعدالتكم علة للجعل أى لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى مابخل على أحد ولاظلم بل اوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والاعراض عن الآيات فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين قبلكم وبعدكم روى أن الله تعالى يجمع الاولين والآخرين فى صعيد واحد ثم يقول لكفار الامم ألم يأتكم نذير فينكرون و يقولون ماجاءنا من بشير ولانذير فيطالب الله تعالى الانبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الامم من أين علموا أنهم قد بلغوا وانما أتوا بعدنا فتسأل هذه الامة فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد

قوله وقيل المشركون قالوا الخ كذا فى الاصول وفى الكشاف وقيل المشركون قالوا رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها والله ليرجعن الى دينهم اه

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فان قيل) هلا قيل لكم شهيد اذ شهادته لهم لا عليهم (أجيب) بأن الشهيد لما كان كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى والله على كل شيء شهيد (فان قيل) لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرا (أجيب) بأن الغرض في الاول اثبات شهادتهم على الامم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم (وما جعلنا) أي صيرنا لك (القبلة) الآن وقوله تعالى (التي كنت عليها) ليس بصفة للقبلة انما هو ثاني مفعولي جعل اى وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها أولا وهي الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم يصلي اليها فلما هاجر أمر بالصلاة الى صخرة بيت المقدس تألفا لليهود فصلى اليها ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول الى الكعبة (الا لنعلم من يتبع الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) أي يرجع الى الكفر شكا في الدين وظنا أن النبي في حيرة من أمره وفي الحديث ان القبلة لما حولت ارتد قوم من المسلمين الى اليهودية وقالوا رجع محمد الى دين آبائه (فان قيل) كيف قال الله تعالى لنعلم وهو عالم بالاشياء كلها (أجيب) بأنه أراد به علم ظهور وهو العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فانه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب انما يتعلق بما يوجد ومعناه أي لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب ونظيره قوله تعالى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وقيل ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وانما أسند علمهم الى ذاته تعالى لانهم خواصه وأهل الزلفى عنده وقيل معناه ليتميز التابع من الناكص كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التميز التابع لان بالعلم يقع التميز فالعلم سبب والتميز مسبب فأطلق السبب وهو العلم على المسبب وهو التميز *(تنبيه)* العلم في الآية اما بمعنى المعرفة فيتعدى الى مفعول واحد وهو من يتبع واما معلق لما في من من معنى الاستفهام واما أن يكون مفعوله الثاني ممن ينقلب أي لنعلم من يتبع الرسول مميزا ممن ينقلب (فان قيل) على الاول كيف يكون العلم بمعنى المعرفة والله تعالى لا يوصف بها لانها تقتضي سبق جهل والله تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأن ذلك لشيوعها فيما تقتضي أن يكون مسبوقا بالعدم وليس العلم الذي بمعنى المعرفة كذلك اذ المراد به الادراك الذي لا يتعدى الى مفعولين بل قال الولي العراقي قد وقع اطلاق المعرفة على الله تعالى في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة أو كلام أهل اللغة وقوله تعالى (وان) هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي وانها (كانت) أي التولية (لكبيرة) شاقة على الناس (الا على الذين هدى الله) منهم وهم الثابتون على الايمان (وما كان الله ليضيع ايمانكم) أي ثباتكم على الايمان وانكم لم تزلزلوا ولم ترتابوا بل شكر سعيكم وأعد لكم الثواب العظيم أو صلاتكم الى بيت المقدس بل يثيبكم عليه لان سبب نزولها ان حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس ان كانت هدى فقد تحولتم عنها وان كانت ضلالة فقد دنتم الله بها ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة فقال المسلمون ان الهدى ما أمر الله تعالى به والضلالة ما نهى الله تعالى عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة

من المسلمين أسعد بن زرارة من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله لقد صرفك الله الى قبلة ابراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فأنزل الله تعالى هذه الآية (ان الله بالناس لرؤف رحيم) فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاتهم (فان قيل) لم قدم الرؤف على الرحيم مع أنه أبلغ (أجيب) بأنه قدم محافظة على الفواصل وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي لرؤف بقصر الهمزة والباقون بعدها ولورش في الهمزة المد والتوسط والقصر على أصله (قد) للتحقيق (نرى تقلب) أي تردد (وجهك في السماء) أي في جهتها متطلعا الى الوحي ومتشوقا الى الامر باستقبال الكعبة وهذه الآية وان كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى فانها رأس القصة وأمر القبلة أول مانسخ من أمور الشرع وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة الى الكعبة فلما هاجر الى المدينة أمره الله تعالى أن يصلي الى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب الى تصديق اليهود اياه اذا صلى الى قبلتهم مع مايجدونه من نعته في التوراة وكان يحب أن يوجه الى الكعبة لانها كانت قبلة ابراهيم أبيه صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد كان يحب ذلك من أجل أن اليهود كانوا يقولون يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا فقال لجبريل عليه السلام وددت لو حولني الله تعالى الى الكعبة فانها قبلة أبي ابراهيم فقال جبريل انما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله بمكان فعرج جبريل وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر الى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل فنزل قوله تعالى (فلنولينك) أي فلنحولنك (قبلة) أي الى قبلة (ترضاها) أي تحبها وتهواها الاغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله تعالى وحكمته (فول) أي اصرف (وجهك شطر) أي نحو (المسجد الحرام) أي الكعبة أي استقبل عينها بصدرك في الصلاة وان كنت بعيدا عنها وقول البيضاوي والبعيد يكفيه مراعاة الجهة فان في استقبال عينها حرجا عليه وجه ضعيف والحرام المحرم فيه القتال وممنوع من الظلمة أن يتعرضوه وقوله تعالى (وحيث ماكنتم) من بحر أو بر شرق أو غرب خطاب للامة (فولوا وجوهكم) في الصلاة (شطره) وكان تحويل القبلة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين وقول البيضاوي وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين فيه تحريف فان ظاهره أنه صلى الله عليه وسلم كان اماما في قصة بني سلمة وانه تحول في الصلاة وليس كذلك فقد روى البخاري عن ابن عمر أنه قال بينما الناس يصلون في صلاة الصبح اذ أتاهم آت أي من بني سلمة فقال ان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشأم فاستداروا الى الكعبة ولما تحولت القبلة قالت اليهود وماهو الاشئ يبتدعه محمد من تلقاء نفسه فتارة يصلي الى بيت المقدس وتارة الى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون

صاحبنا الذى ننتظره فأنزل الله تعالى (وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه) أى التولى الى الكعبة (الحق) أى الثابت (من ربهم) لما فى كتبهم من نعت النبى صلى الله عليه وسلم من أنه يحوّل اليها وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب للمؤمنين أى وما أنا بغافل عن جزائكم وثوابكم والباقون بالياء على الغيب أى عما يعمل اليهود أى فأجازيهم فى الدنيا والآخرة ففى الآية وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ولما قالت اليهود والنصارى ائتنا بآية على أن الكعبة قبلة نزل (ولئن) اللام موطئة للقسم (أتيت الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى (بكل آية) أى برهان وحجة على أن التوجه الى الكعبة هو الحق وقوله تعالى (ما تبعوا قبلتك) جواب للقسم المضمر والمعنى ان تركهم اتباعك ليس على شبهة تزيلها بايراد الحجة انما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم لما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق *(تنبيه)* كان مقتضى الظاهر ما يتبعون لكن أتى بالماضى لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله وقوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) قطع لاطماعهم فانهم قالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا منهم له وطمعا فى رجوعه (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) أى انهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون فى شأن القبلة فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا ترجى موافقتهم لك لتصلب كل حزب فيما هو فيه (فان قيل) كيف قال تعالى وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة (أجيب) بأن كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد فى البطلان قبلة واحدة وقوله تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم) خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الامة أو على سبيل الفرض والتقدير (من بعد ما جاءك) بين لك (من العلم) بالوحى فى القبلة (انك اذا) ان اتبعتهم (لمن الظالمين) أى من المرتكبين الظلم الفاحش وفى هذا لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من ترك الدليل بعد انارته وتتبع الهوى وتهييج للثبات على الحق وقد أكد سبحانه وتعالى التهديد فى ذلك وبالغ فيه قال البيضاوى من سبعة أوجه الاول الاتيان باللام الموطئة للقسم الثانى القسم المضمر الثالث حرف التحقيق أى التأكيد وهى ان الرابع تركيبه من جملة اسمية الخامس الاتيان باللام فى الخبر أى وهو من الظلمين السادس جعله من الظالمين اى تعريف الظالمين الدال على المعروفين ولم يقل انك ظالم فان فى الاندراج معهم ايهاما بحصول أنواع الظلم لان أل فى الظالمين للاستغراق السابع التقييد بمجىء العلم تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتضائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستفظاعا لظهور الذنب عن الانبياء (الذين آتيناهم الكتاب) أى علماؤهم (يعرفونه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم لسبق ذكره بلفظ الرسول مرتين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى وان لم يسبق ذكره ممنوع وقيل القرآن وقيل التحويل ويدل للاول قوله تعالى (كما يعرفون أبناءهم) أى من بين الصبيان قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه كيف هذه المعرفة قال عبد الله يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم اشد من معرفتى بابنى فقال عمر وكيف

ذلك قال لست أشك فى محمد انه نبى وأما ولدى فلعل والدته خانت فقال عمر وفقك الله تعالى يا ابن سلام فقد صدقت (فان قيل) لم خص الابناء من الاولاد (أجيب) بأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم الصق (وان فريقا منهم) أى أهل الكتاب (ليكتمون الحق) أى صفته صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة (وهم يعلمون) ولا يظهرونه عنادا وقوله تعالى (الحق من ربك) كلام مستأنف والحق اما مبتدأ خبره من ربك والمعنى انه الحق اى ما ثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لا مالم يثبت كالذى عليه أهل الكتاب واما خبر مبتدأ محذوف أى هذا الحق ومن ربك حال أو خبر بعد خبر والمعنى أن ما جاءك من العلم أو ما يكتمونه هو الحق لا ما يزعمون (فلا تكونن من الممترين) أى من الشاكين فى أنه من ربك أو فى كتمانهم الحق عالمين به أى فلا تكونن من هذا النوع وهو أبلغ من لا تمتر وليس فيه نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لانه غير متوقع منه بل اما لتحقيق الامر وانه بحيث لا يشك فيه ناظر واما ان المراد به أمته (ولكل) اى أمة من الامم (وجهة) أى قبلة أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة (هو موليها) وجهه فى صلاته وقرأ ابن عامر وحده مولاها بفتح اللام وألف بعدها أى هو مولى تلك الجهة قد وليها والباقون بكسر اللام وياء بعدها وعلى هذا أحد المفعولين محذوف أى هو موليها وجهه كما مر تقديره أو الله تعالى موليها اياه (فاستبقوا الخيرات) أى بادروا الى الطاعات وقبولها من أمر القبلة وغيره مما تنالوا به سعادة الدارين (أين ما تكونوا) أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على الاحياء والجمع * (تنبيه) * رقق ورش الراء المفتوحة بعد الياء الساكنة واتفق المصاحف على قطع أين من ما هنا (ومن حيث خرجت) أى من أى مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام) اذا صليت (وانه) أى هذا الامر (للحق من ربك) وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) قرأه أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) * (تنبيه) * ما مقطوعة من حيث فى موضعى هذه السورة وكرر سبحانه وتعالى التولى لشطر المسجد الحرام ثلاث مرات لتأكيد أمر القبلة وتشديده لان النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان فكرر عليهم ليثبتوا ويقوموا ويجدوا ولانه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر لانه تعالى علق بكل آية فائدة ففى الاولى ان أهل الكتاب يعلمون ان أمر محمد وأمر القبلة حق لمشاهدتهم له فى التوراة والانجيل وفى الثانية انه تعالى شهد انه حق وشهادة الله تعالى مغايرة لعلم أهل الكتاب وفى الثالثة بيان العلة وهى قطع حجة اليهود أو لان الاحوال ثلاثة أولها أن يكون الانسان فى المسجد الحرام وثانيها أن يخرج عنه ويكون فى البلد وثالثها أن يخرج عن البلد فالآية الاولى محمولة على الاول والثانية على الثانى والثالثة على الثالث وقوله تعالى (لئلا يكون للناس) أى اليهود والمشركين (عليكم حجة) أى مجادلة فى التولى علة لقوله فولوا والمعنى ان التولية عن الصخرة الى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة قبلته الكعبة وان محمدا يجحد ديننا ويتبعنا

فى قبلتنا ويدفع احتجاج المشركين بأنه يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته وقرأ ورش بابدال الهمزة من لئلا ياء مفتوحة وقفا ووصلا وحمزة يبدلها واوقفا لا وصلا والباقون بهمزة مفتوحة وصلا ووقفا وقوله تعالى (الا الذين ظلموا منهم) بدل واستثناء متصل أى لئلا يكون لاحد من الناس حجة الا المعاندين منهم فانهم يقولون ما تحول الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بدا له فرجع الى دين آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم (فلا تخشوهم) أى فلا تخافوا مطاعنهم فى قبلتكم فانهم لا يضرونكم (واخشونى) بامتثال أمرى فلا تخالفوا ما أمرتكم به *(تنبيه)* الياء هنا ثابتة فى الرسم وهى فى القراءة ثابتة وقفا ووصلا (فان قيل) أى حجة تكون لغير الذين ظلموا لو لم تحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين (أجيب) بانهم كانوا يقولون ماله لا يتحول الى قبلة أبيه ابراهيم كما هو مذكور فى نعته فى التوراة (فان قيل) كيف أطلق الحجة على قول المعاندين (أجيب) بأن المراد بالحجة ما يتمسك به حقا كان أو باطلا كما قال تعالى حجتهم داحضة وقوله تعالى (ولاتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) أى الى الحق علة لمحذوف أى وأمرتكم بذلك لاتمامى النعمة عليكم وارادتى اهتداءكم أو عطف على علة مقدرة كأنه قيل واخشونى لاوفقكم ولاتم نعمتى عليكم قال الكشاف وقيل هو معطوف على لئلا يكون وجرى عليه البيضاوى والسيوطى قال البيضاوى تبعا للكشاف وفى الحديث تمام النعمة دخول الجنة أى ورؤية الله تعالى وعن على رضى الله تعالى عنه تمام النعمة الموت على الاسلام قال شيخنا القاضى زكريا روى الحديث الترمذى وذكره مع الاثر بعده ربما يرجح العطف على المقدر وقوله تعالى (كما أرسلنا) اما متعلق بما قبله وهو أتم أى ولاتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى أمر الآخرة اتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم واما متعلق بما بعده وهو فاذكرونى أذكركم أى كما ذكرتكم بالارسال فاذكرونى (يتلو عليكم آياتنا) أى القرآن (ويزكيكم) أى يطهركم من الشرك (ويعلمكم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى ما فيه الاحكام *(تنبيه)* قدم هنا يزكيكم على يعلمكم باعتبار القصد وأخر فى دعوة ابراهيم يزكيكم على يعلمكم باعتبار الفعل (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) أى بالتفكر والنظر اذ لا طريق لمعرفته سوى الوحى (فاذكرونى) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) قال ابن عباس بعونتى وقال سعيد بن جبير بمغفرتى وقيل اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء كما قال تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى الحديث عن الله تعالى انا عند ظن عبدى بى وانا معه اذا ذكرنى فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملئه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقول يا ابن آدم ان ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وان ذكرتنى فى ملا ذكرتك فى ملا خير منه وان دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا وان مشيت الى هرولت اليك وان سألتنى أعطيتك وان لم تسألنى غضبت عليك وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

يقول

يقول الله عزوجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه وفى رواية جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أى الاعمال أفضل قال ان تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد (واشكروالى) نعمتى بالطاعة (ولاتكفرون) بجحد النعم وعصيان الامر فان من أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) على الطاعة والبلاء وعلى المعاصى وحظوظ النفس (والصلوة) خصها بالذكر لانها أم العبادات لاشتمالها على فعل القلب وغيره ومناجاة رب العالمين (ان الله مع الصابرين) بالنصر واجابة الدعوة (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لاتشعرون) أى لاتعلمون كيف حالهم فى حياتهم قال البيضاوى وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات وانما هى أمر لايدرك بالعقل بل بالوحى اه وهذا ما عليه أكثر المفسرين قال ابن عادل ويحتمل ان حياتهم بالجسد وان لم تشاهد وأيد بان حياة الروح ثابتة لجميع الاموات بالاتفاق فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره ولم تكن له مزية اه وقد يرد بان الشهداء فضلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك وفى الحديث أرواحهم فى حواصل طيور خضر تسرح فى أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى قناديل تحت العرش وعن الحسن ان الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح أى الاستراحة أى التلذذ والتنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الوجع والغم وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله ومزيد السرور والكرامة والارواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت دراكة كما عليه جمهور الصحابة والتابعين ونطقت به الآيات والسنن (ولنبلونكم) أى ولنختبرنكم ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم واللام لجواب القسم تقديره والله لنبلونكم والابتلاء اظهار المطيع من العاصى لا ليعلم شيأ لم يكن عالما به (بشئ) أى بقليل (من الخوف) أى خوف العدو (والجوع) أى القحط وانما قلله بالنسبة لما وقاهم عنه فيخفف عنهم ويريهم أن رحمته لاتفارقهم أو بالنسبة الى ما يصيب به معانديهم فى الآخرة وانما أخبرهم قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم (ونقص من الاموال) بالخسران والهلاك (والانفس) بالقتل والموت وقيل بالمرض والشيب (والثمرات) بالجوائح وعن الشافعى رضى الله تعالى عنه الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ومن الثمرات موت الاولاد وعن أبى سنان قال دفنت ولدى سنانا وأبو طلحة الخولانى على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأخرجنى فقال الا أبشرك حدثنى الضحاك بن عروب عن أبى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكته أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد وقوله تعالى (وبشر الصابرين) أى على

مايصيبهم من المكروه عطف كما قال التفتازانى على ولنبلونكم عطف المضمون على المضمون أى الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر ثم بينهم بقوله (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله) عبيدا وملكا (وانا اليه راجعون) فى الآخرة والمصيبة تعم مايصيب الانسان من مكروه لقوله صلى الله عليه وسلم كل شئ يؤذى المؤمن فهو له مصيبة وعن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن مصيبة تصيب عبدا فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم أوجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها الا آجره الله تعالى فى مصيبته واخلف عليه خيرا منها قالت فلما توفى أبو سلمة استرجعت الله لى فقلت اللهم أوجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها قالت فأخلف لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية من استرجع عند المصيبة جبر الله تعالى مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وقال سعيد بن جبير ما اعطى أحد ما أعطيت هذه الامة يعنى الاسترجاع ولو أعطيها أحد لاعطى يعقوب فى قصة فقد يوسف ألا تسمع الى قوله يا أسفا على يوسف وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل باللسان مع القلب بأن يتصور ما خلق لاجله فانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيرى ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه ويستسلم لربه والمبشر به محذوف دل عليه (أولئك عليهم صلوات) أى مغفرة (من ربهم ورحمة) أى لطف واحسان والصلاة فى الاصل من الآدمى أى ومن الجن تضرع ودعاء ومن الملائكة استغفار ومن الله تعالى رحمة مقرونة بتعظيم وجمع الصلاة للتنبيه على كثرتها كالتثنية فى لبيك بمعنى لا انقطاع لمغفرته (وأولئك هم المهتدون) الى الصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه نعم العدلان ونعمت العلاوة والعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد وردأخبار فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين منها أنه صلى الله عليه وسلم قال من يرد الله به خيرا يصب منه ومنها انه صلى الله عليه وسلم قال مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ومنها أن امرأة جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم وبها لمم فقالت يارسول الله ادع الله تعالى أن يشفينى فقال ان شئت دعوت الله أن يشفيك وان شئت فاصبرى ولا حساب عليك قالت بل أصبر ولا حساب على ومنها أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن أشد الناس بلاء قال الانبياء والامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلبا ابتلى على قدر ذلك وان كان فى دينه رقة هون عليه فمازال كذلك حتى يمشى على الارض ماله ذنب ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أعظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وماعليه من خطيئة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المؤمن كمثل الزرع لايزال الريح يثنيه ولايزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لاتهتز حتى تستحصد ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال عجبا للمؤمن ان أصابه خير حمد الله وشكر وان أصابته مصيبة حمد الله وصبر فالمؤمن يؤجر فى كل أمره

(ان الصفا والمروة) هما علما جبلين بمكة فى طرفى المسعى قال القرطبى وذكر الصفا لان آدم وقف عليه وأنث المروة لان حواء وقفت عليها (من شعائر الله) أى أعلام دينه جمع شعيرة وهى العلامة أى من أعلام مناسكه ومتعبداته (فمن حج البيت أو اعتمر) أى تلبس بالحج أو العمرة والحج لغة القصد والاعتمار الزيارة فغلبا شرعا على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين (فلا جناح) أى لا اثم (عليه أن يطوف) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الطاء (بهما) أى بأن يسعى بينهما سبعا (فان قيل) كيف قيل انهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح عليه أن يطوف بهما (أجيب) بأنه كان على الصفا اساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فمسخا حجرين فلما طالت المدة عبدا من دون الله فكان أهل الجاهلية اذا سعوا مسحوهما فلما جاء الاسلام وكسرت الاوثان كره المسلمون الطواف بينهما لاجل فعل الجاهلية فأذن الله تعالى فيه وأخبر أنه من شعائر الله والاجماع على أن السعى بين الصفا والمروة مشروع فى الحج والعمرة وانما الخلاف فى وجوبه فعن أحمد أنه سنة وبه قال أنس وابن عباس لقوله تعالى فلا جناح عليه فانه يفهم منه التخيير قال البيضاوى وهو ضعيف لان نفى الجناح يدل على الجواز الداخل فى معنى الوجوب فلا يدفعه وعن أبى حنيفة انه واجب يجبر بدم وعن مالك والشافعى انه ركن لقوله صلى الله عليه وسلم اسعوا فان الله تعالى كتب عليكم السعى رواه البيهقى وغيره وقال صلى الله عليه وسلم ابدؤا بما بدأ الله به يعنى الصفا رواه مسلم (ومن تطوع خيرا) أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة أو طواف ونصب خيرا على أنه صفة مصدر محذوف أى تطوعا أو بحذف الجار وايصال الفعل اليه أى بخير وقرأ حمزة والكسائى يطوع بالياء على التذكير وتشديد الطاء والواو وسكون العين وأصله يتطوع فأدغم مثل يطوف والباقون بالتاء على الحضور وتخفيف الطاء وفتح العين (فان الله شاكر) لعمله بالاثابة عليه (عليم) بنيته * (تنبيه) * الشكر من الله أن يعطى العبد فوق ما يستحقه فانه يشكر اليسير ويعطى الكثير * ونزل فى علماء اليهود (ان الذين يكتمون) الناس كأحبار اليهود (ما أنزلنا من البينات) كآية الرجم ونعت محمد صلى الله عليه وسلم (والهدى) أى ما يهدى الى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والايمان به (من بعد ما بيناه) أوضحناه (للناس فى الكتاب) أى التوراة أى لم ندع فيه موضع اشكال ولا اشتباه على أحد منهم فعمدوا الى ذلك المبين الواضح فكتموه ولبسوا على الناس (أولئك يلعنهم الله) وأصل اللعن الطرد والبعد (ويلعنهم اللاعنون) أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون اللهم العنهم * (تنبيهان) * أحدهما اختلف فى هؤلاء اللاعنين فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم جميع الخلائق الا الجن والانس وقال عطاء هم الجن والانس وقال الحسن هم جميع عباد الله وقال مجاهد البهائم تلعن عصاة بنى ادم اذا أمسك المطر وتقول هذا من شؤم ذنوب بنى آدم * ثانيهما هذه الآية توجب اظهار علوم الدين منصوصة ومستنبطة وتدل على امتناع أخذ الاجرة على ذلك وقد روى الاعرج عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال انكم تقولون أكثر أبو هريرة عن النبى صلى

الله عليه وسلم وايم الله لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحدا بشئ أبدا وتلا ان الذين يكتمون الآية (الا الذين تابوا) أى رجعوا عن الكتمان وسائر ما يجب ان يتاب منه (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم (وبينوا) ما بينه الله تعالى فى كتابهم فكتموه (فأولئك أتوب عليهم) أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التواب) أى الرجاع لقلوب عبادى المنصرفة عنى الى (الرحيم) بهم بعد اقبالهم على (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أى من لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله و) لعنة (الملائكة و) لعنة (الناس أجمعين) لعنهم الله أحياء ثم لعنهم أمواتا وقال أبو العالية هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم تلعنه الناس فان قيل قد قال الله تعالى والناس أجمعين وفى الناس المسلم والكافر وأهل دينه لا يلعنونه (أجيب) بأجوبة منها ان المراد منهم من يعتد بلعنه وهم المؤمنون قاله ابن مسعود وعلى هذا فيكون من العام الذى أريد به الخاص ومنها أنهم يلعنونه فى القيامة قال تعالى يلعن بعضكم بعضا وقال كلما دخلت أمة لعنت أختها ومنها أن اللعنة من الاكثر يطلق عليها اللعنة جميع الناس تغليبا لحكم الاكثر على الاقل ومنها أنهم يلعنون الظالمين والكافرين ومن لعن الظالمين أو الكافرين وهم منهم فقد لعن نفسه ومعنى لعنة الله لهم تبرؤه منهم وطردهم وتبعيدهم من الرحمة والثواب أو دعاؤه عليهم بذلك (خالدين فيها) أى اللعنة أو النار المدلول بها عليها (لا يخفف عنهم العذاب) طرفة عين (ولا هم ينظرون) من الانظار أى لا يمهلون ولا يؤجلون أو لا ينظرون ليعتذروا كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون أو لا ينظر اليهم نظر رحمة * ولما قال كفار قريش يا محمد صف لنا ربك وانسبه لنا نزل (والهكم اله واحد) وسورة الاخلاص والواحد هو الذى لا نظير له ولا شريك وقوله تعالى (لا اله الا هو) تقرير للوحدانية ودفع لان يتوهم أن فى الوجود الها ولكن لا يستحق منهم العبادة وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) كالدليل على الوحدانية فانه لما كان مولى النعم كلها أصولها بقوله الرحمن فانه مولى جلائل النعم وفروعها بقوله الرحيم فانه مولى لطائف النعم ودقائقها وما سواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه فلم يستحق العبادة أحد غيره وهما خبران آخران لقوله الهكم أو لمبتدا محذوف وعن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فى هاتين الآيتين اسم الله الاعظم والهكم اله واحد الخ والله لا اله الا هو الحى القيوم * ولما سمع المشركون هذه الآية وكان لهم حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فائت بآية نعرف بها صدقك فنزل (ان فى خلق السموات والارض) الى آخر الآية (فان قيل) لم جمع السموات وأفرد الارض (أجاب) البيضاوى بأن السموات طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الارضين اه وهذا انما يأتى على قول بعض الحكماء ان المراد بالارضين الاقاليم والاولى ما أجاب به البغوى من أن كلا منها جنس آخر والارضون كلها من جنس واحد وهو التراب أى فهى طبقات كالسموات والآية فى السموات سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة وما يرى فيهما من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك والآية فى الارض

صدها

مدهاوبسطها وسعتها ومايرى فيهما من الاشجار والانهار والجبال والبحار والجواهر والنبات وغير ذلك (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما فى المجىء والذهاب يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أى بعده قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة قال عطاء أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والنقصان والليل جمع ليلة والليالى جمع الجمع والنهار جمع نهر وقدم الليل على النهار فى الذكر لانه أقدم قال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار (والفلك) أى السفن (التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) من التجارة والحمل والآية فيها تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقورة لاترسب تحت الماء* (تنبيه)* انث الفلك لانه بمعنى السفينة لان واحد السفن وجمعه سواء اذ لو كانت بمعنى المركب لذكرها مع أنها فى اللغة تذكر وتؤنث قال تعالى اذ أبق الى الفلك المشحون وضمة الجمع غير ضمة الواحد تقديرا اذهى فى الجمع كالضمة فى حمر وفى الواحد كالضمة فى قفل قال البيضاوى والقصد به أى الفلك الى الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه أى البحر والاطلاع على عجائبه ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر فى غالب الامر اه فجعل الآية فى البحر لافى السفن والاولى جعل الآية فيهما وقوله لان منشأهما البحر هو قول الحكماء والاشارة على خلافه وهو الذى دلت عليه الاخبار قال شيخنا القاضى زكريا وحاصله أن السحاب من شجرة مثمرة فى الجنة والمطر من بحر تحت العرش (وما أنزل الله من السماء من ماء) أى مطر *(تنبيه)* من الاولى للابتداء والثانية للبيان قال البغوى قيل أراد بالسماء السحاب يخلق الله الماء فى السحاب ثم من السحاب ينزل وقيل أراد بالسماء المعروفة يخلق الله الماء فى السماء ثم ينزل من السماء الى السحاب ثم من السحاب ينزل الى الارض اه وفيه مامر (فأحيا به الارض) بالنبات (بعد موتها) أى يبسها وجدوبتها (وبث) أى فرق ونشر بالماء (فيها) فى الارض (من كل دابة) فان قيل هل بث عطف على انزل أو أحيا (أجيب) بأنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لان قوله فأحيا به الارض عطف على أنزل فاتصل به وصارا جميعا كالشئ الواحد فكأنه قيل وما أنزل فى الارض من ماء وبث فيها من كل دابة ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الارض وبث فيها من كل دابة لان الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا أى المطر (وتصريف الرياح) الى قبول ودبور وجنوب وشمال فالقبول الصبا وهى التى تهب من مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار والدبور تقابلها والشمال التى تهب من جانب القطب والجنوب تقابلها قال ابن عباس أعظم جنود الله الريح والماء وسميت الريح ريحا لانها تريح النفوس قال شريح القاضى ماهبت ريح الالشفاء سقيم أولسقم صحيح (فائدة) البشارة فى ثلاث من الرياح فى الصبا والشمال والجنوب اما الدبور فهى الريح العقيم لابشارة فيها وقيل الرياح ثمانية أربعة للرحمة وهى المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات وأربعة للعذاب وهى العقيم والصرصر فى البر والعاصف والقاصف فى البحر وقرأ حمزة والكسائى الريح بالتوحيد والباقون بالجمع (فائدة أخرى) كل ريح فى القرآن ليس فيها ألف ولام اتفق القراء على توحيدها

ومافيهاألف ولام كماهنا اختلفوا فى جمعها وتوحيدها الا الحرف الاول فى سورة الروم الرياح مبشرات اتفقوا على جمعها والريح تذكر وتؤنث (والسحاب) أى الغيم (المسخر) أى المذلل بأمر الله يسير حيث شاء الله (بين السماء والارض) بلا علاقة لا ينزل ولا يرتفع مع ان الطبع يقتضى أحدهما حتى يأتى أمر الله وقيل تسخير السحاب تقليبه فى الجو بمشيئة الله واشتقاقه من السحب لان بعضه يجر بعضا (لآيات) أى دلالات واضحات على وحدانية الله تعالى (لقوم يعقلون) أى ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لانها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة وقول البيضاوى وعن النبى صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أى لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها قال الولى العراقى لم أقف عليه وقال السيوطى لم يرد فى هذه الآية ولا بهذا اللفظ ثم قال عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أنزل على الليلة ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها قيل للاوزاعى ماغاية التفكر فيهن قال يقرأهن وهو يعقلهن انتهى ولا ينافى هذا أنه ورد أيضا فى هذه الآية ومن حفظ حجة على من لم يحفظ قال البيضاوى وفى الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه انتهى ولا ينافى هذا قول الشافعى رضى الله تعالى عنه لان يلقى العبد ربه بكل ذنب ماعدا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام لانه محمول على التوغل فيه فيصير فلسفيا (ومن الناس) وهم المشركون (من يتخذ من دون الله) أى غيره (أندادا) أى أصناما يعبدونها (يحبونهم) بالتعظيم والخضوع (كحب الله) أى كحبهم له كما قال الزجاج يحبون الاصنام كما يحبون الله لانهم أشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أصنامهم فى المحبة أو يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله (والذين آمنوا أشد حبا لله) أى أثبت وأدوم على حبه لانهم لا يختارون على الله ماسواه والمشركون محبتهم لاغراض فاسدة موهومة تزول بادنى سبب ولذلك كانوا اذا اتخذوا صنما أحسن منه طرحوا الاول واختاروا الثانى وربما يأكلونه كما أكلت باهلة الهها من حيس عند المجاعة ويعرضون عن معبودهم فى وقت البلاء ويقبلون على الله كما أخبر الله تعالى عنهم فقال فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين والمؤمن لا يعرض عن الله تعالى فى السراء والضراء والشدة والرخاء وقيل انما قال الله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله لان الله أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى يحبهم ويحبونه فمحبة العبد لله طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه ومحبة الله للعبد ارادة اكرامه واستعماله فى الطاعة وصونه عن المعاصى (ولو يرى الذين ظلموا) أى باتخاذ الانداد (اذ يرون) أى يبصرون (العذاب) يوم القيامة واذ بمعنى اذا أو أجرى المستقبل وهو يرى مجرى الماضى لان اذ موضوعة للماضى والمعنى هنا على الاستقبال لتحققه كقوله تعالى ونادى أصحاب الجنة (ان) أى بان (القوة) أى القدرة والغلبة (لله) وقوله تعالى (جميعا) حال (وان الله شديد العذاب) وجواب لو محذوف والتقدير لو يعلمون ان القدرة لله جميعا اذ عاينوا العذاب لندموا أشد الندم والفاعل ضمير السامع أو الذين ظلموا ويرى بمعنى يعلم وأن ومابعدها سدت مسد المفعولين

وقرأ نافع وحده بالتاء على الخطاب أى ولو ترى يا محمد ذلك لرأيت أمرا عظيما وامال السوسى الالف المنقلبة بعد الراء فى الوصل بخلاف عنه وغلظ ورش اللام بعد الظاء وقرأ ابن عامر يرون بضم الياء والباقون بفتحها (اذ) بدل من اذ قبله (تبرأ الذين اتبعوا) وهم الرؤساء (من الذين اتبعوا) وهم الاتباع أى ينكر الرؤسا اضلال الاتباع يوم القيامة حين يجمع الله القادة والاتباع (و) قد (رأوا العذاب) أى رائين له فالواو للحال وقد مضمرة كما قدرتها وقيل عطف على تبرأ وقوله تعالى (وتقطعت) عطف على تبرأ وقوله تعالى (بهم) بمعنى عنهم (الاسباب) أى الوصل التى كانت بينهم فى الدنيا من القرابات والصدقات وصارت مخالفتهم عداوة (وقال الذين اتبعوا) أى الاتباع (لو أن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى الرؤساء (كما تبرؤا منا) اليوم ولو للتمنى ولذلك أجيب بالفاء (كذلك) أى مثل ذلك الاراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم) أى السيئة وقوله تعالى (حسرات) أن تنقلب ندمات (عليهم) ثالث مفاعيل يرى ان كان من رؤية القلب والا فحال وقوله تعالى (وما هم بخارجين من النار) أصله وما يخرجون لان المناسب ان تعطف جملة فعلية على جملة فعلية لكن عدل به الى هذه العبارة للمبالغة فى الخلود والاقناط عن الخلاص والرجوع الى الدنيا * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا) فقال البيضاوى نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس أى لا على وجه التورع كما تفعله الصوفية وما قاله قول مرجوح كما قاله شيخنا القاضى زكريا والمشهور انها نزلت فيهم آية المائدة وهى يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وأما هذه الآية فانها نزلت فى الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ومن ثم عبر هنا بيا أيها الناس وثم بيا أيها الذين آمنوا * (تنبيه) * حلالا مفعول كلوا أو حال وقوله تعالى (طيبا) اما صفة مؤكدة واما طاهرا من كل شبهة وهو ما يستطيبه الشرع قال الكشاف ومن للتبعيض لان كل ما فى الارض ليس بمأكول هذا ان جعلنا حلالا حالا فان جعلناه مفعولا فمن للابتداء كما قاله السعد التفتازانى لان من التبعيضية فى موضع المفعول أى كلوا بعض ما فى الارض (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرقه كما قاله الزجاج أو المحقرات من الذنوب كما قاله أبو عبيدة فقد خلوا فى حرام أو شبهة أو تحريم حلال أو تحليل حرام وقرأ ابن عامر وقنبل وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه لكم عدو مبين) أى بين العداوة أو مظهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الموالاة لمن يغويه وقد أظهر عداوته بامتناعه من السجود لآدم ثم بين سبحانه وتعالى عداوته بأنه لا يأمر بخير قط بقوله (انما يأمركم بالسوء) أى القبيح شرعا (والفحشاء) أى ما تجاوز الحد فى القبح من العظائم وعن ابن عباس أن السوء من الذنوب ما لا حد فيه والفحشاء من المعاصى ما يجب به حد وقال السدى الفحشاء هى الزنا وقيل البخل قال البيضاوى واستعير الامر لتزيينه وبعثه لهم تسفيه الرأيهم وتحقير الشأنهم انتهى قال شيخنا القاضى زكريا ولا حاجة الى صرف الامر عن ظاهره لان حقيقته طلب الفعل

ولاريب أن الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد اغواءه (و) يأمركم ايضا (ان تقولوا على الله مالا تعلمون) كتحليل المحرمات وتحريم الطيبات واتخاذ الانداد وقوله تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) من التوحيد وتحليل الطيبات متصل بما قبله وهو نازل فى مشركى العرب وكفار قريش والضمير فى لهم عائد على الناس المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا عدل عن الخطاب عنهم للنداء على ضلالتهم كأنه التفت الى العقلاء وقال لهم انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون وقيل مستأنف والهاء والميم فى لهم كناية عن غير مذكور روى عن ابن عباس أنه قال دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى الاسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله تعالى هذه الآية (قالوا) لا نتبعه (بل نتبع ما ألفينا) أى وجدنا وأدركنا أو علمنا وألفى تتعدى الى مفعولين وهما قوله (عليه آباءنا) من عبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب فانهم كانوا خيرا واعلم منا قال الله تعالى (أولو كان) أى أيتبعونهم ولو كان (آباؤهم لا يعقلون شيأ) أى من أمر الدين لا شيأ مطلقا فانهم كانوا يعقلون أمر الدنيا فلفظه عام ومعناه الخصوص (ولا يهتدون) الى الحق والهمزة للانكار والواو للحال أو العطف وجواب لو محذوف أى لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون فى أمر الدين ولا يهتدون الى الحق لاتبعوهم (ومثل) أى صفة (الذين كفروا) ومن يدعوهم الى الهدى (كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) أى صوتا ولا يفهم معناه والنعيق التصويت يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن قال الاخطل

فانعق بضأنك ياجرير فانما * منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

وأما نغق الغراب فبالغين المعجمة والمعنى أنهم فى سماع الموعظة وعدم تدبرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه (وقيل) معنى الآية مثل الذين كفروا فى دعاء الاصنام التى لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم ولا ينتفع من نعيقه بشئ غير أنه فى عناء من الدعاء والنداء كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة الا العناء والدعاء كما قال تعالى وان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ثم وصف سبحانه وتعالى الكفار بصفات ذم فقال (صم) أى هم صم عن سماع الحق تقول العرب لمن يسمع ولا يعقل ما يقال له انه أصم (بكم) عن الخير لا يقولونه (عمى) عن الهدى لا يبصرونه (فهم لا يعقلون) الموعظة لاضلال نظرهم (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات) أى حلالات (ما رزقناكم) روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه الى السماء يارب يارب أشعث أغبر مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك * ولما وسع الله تعالى الامر على الناس كافة وأباح لهم ما فى الارض سوى ما حرم عليهم أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال (واشكروا لله) على ما رزقكم وأحل لكم (ان كنتم اياه تعبدون) أى ان صح

انكم تخصونه بالعبادة وتقرّون انه مولى النعم فان عبادته لاتتم الا بالشكر فالمعلق بفعل العبادة هو الامر بالشكر لاتمامه وهو يعدم عند عدمه روى البيهقى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انى والجن والانس فى نبا عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى * ثم بين سبحانه وتعالى المحرمات بقوله (انما حرّم عليكم الميتة) أى أكلها اذ الكلام فيه وكذا ما بعدها وهى التى ماتت من غير ذكاة شرعية وألحق بها بالسنة ما أبين من حى وخص منها السمك والجراد والحرمة المضافة الى العين تفيد عرفا حرمة التصرّف فيها مطلقا الا ما خصه الدليل كالتصرّف فى المدبوغ (والدم) أى المسفوح كما قال تعالى فى سورة الانعام أودما مسفوحا روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال وهو فى حكم المرفوع بل رفعه ابن ماجه وغيره لكن بسند ضعيف (ولحم الخنزير) أى جميع أجزائه وعبر عن ذلك باللحم لانه معظم المقصود منه وغيره تبع له (وما أهلّ به لغير الله) أى ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم (فمن اضطرّ) أى ألجأته الضرورة الى أكل شئ مما ذكر فأكله (غير باغ) أى خارج على المسلمين وقيل مجاوز للمقدار الذى أحلّ له (ولا عاد) أى متعد على المسلمين بقطع الطريق وقيل لا يقصر فيما أبيح له فيدعه وقال سهل بن عبد الله غير باغ مفارق للجماعة ولا عاد مبتدع مخالف للسنة فلم يرخص للمبتدع فى تناول المحرّم عند الضرورة وقال مسروق من اضطرّ الى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار واختلف العلماء فى قدر ما يحل للمضطرّ أكله من الميتة على قولين أحدهما أن يأكل مقدار ما يمسك رمقه وهو قول ابى حنيفة والراجح عند الشافعى والقول الآخر يجوز أن يأكل حتى يشبع وبه قال مالك (فلا اثم) أى لا حرج (عليه) فى أكل ما ذكر وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون فمن اضطرّ فى الوصل والباقون بضمها * (فائدة) * قال البغوى غير نصب على الحال وقيل على الاستثناء واذا رأيت غير تصلح فى موضعها الا فهى حال واذا صلح فى موضعها الا فهى استثناء (انّ الله غفور) لمن أكل فى حال الاضطرار (رحيم) حيث رخص للعباد فى ذلك (فان قيل) انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من محرّم لم يذكر (أجيب) بأنّ المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحله الكفار لا مطلقا وقصر ما ذكر على حال الاختيار كأنه قيل انما حرّم عليكم هذه الاشياء ما لم تضطرّوا اليها * (تنبيه) * ألحق بالباغى والعادى كل عاص بسفره كالآبق والمكاس فلا يحل لهم أكل شئ من ذلك ما لم يتوبوا وعليه الشافعى * ونزل فى علماء اليهود ورؤسائهم الذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبىّ المبعوث منهم فلما بعث صلى الله عليه وسلم من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم فعمدوا الى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فغيروها ثم أخرجوها اليهم فاذا نظرت السفلة الى النعت المغير وجدوه مخالفا لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يتبعونه (انّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ويشترون به) أى بالمكتوم (ثمنا) أى عوضا (قليلا) أى يسيرا أى المآكل التى

يصيبونها من سفلتهم (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم يقال أكل فلان فى بطنه وأكل فى بعض بطنه (الا النار) أى ما يؤديهم الى النار وهو الرشوة وثمن الدين ولما كان يفضى بهم الى النار لانها عقوبة عليهم فكأنهم أكلوا النار وقيل معناه انه يصير نارا فى بطونهم (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أى لا يكلمهم بالرحمة وبما يبشرهم انما يكلمهم بالتوبيخ أو يكون عليهم غضبان كما يقال فلان لا يكلم فلانا اذا كان عليه غضبان لما ثبت بالنصوص انه تعالى يسألهم والسؤال كلام فحمل نفى الكلام على الغضب فهو كناية ويجوز ابقاء الكلام على ظاهره ويحمل نصوص السؤال على أنه يقع بألسنة الملائكة (ولا يزكيهم) أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وهو النار (أولئك الذين اشتروا) أى استبدلوا (الضلالة بالهدى) فأخذوها بدله فى الدنيا (و) استبدلوا (العذاب بالمغفرة) أى المعدة لهم فى الآخرة لولم يكتموا الحق للمطامع والاغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) أى ما أشد صبرهم وهو تعجب للمؤمن من ارتكاب موجباتها من غير مبالاة والا فأى صبر لهم كما قال الحسن والله ما لهم عليها من صبر ولكن ما أجرأهم على العمل الذى يقربهم الى النار وقال الكسائى فما أصبرهم على عمل أهل النار أى ما أدومهم عليه روى عن الكسائى أنه قال قال لى قاضى اليمن بمكة اختصم الى رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال ما أصبرك على عذاب الله تعالى (ذلك) أى الذى ذكر من أكلهم النار وما بعده (بأن) أى بسبب أن (الله نزل الكتاب) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بنزل فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان وقوله تعالى (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) اللام فيه اما للجنس واختلافهم ايمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعضها واما للعهد وحينئذ الاشارة اما الى التوراة واختلافهم حيث آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها بكتمه واما الى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحر وتقول وكلام علمه بشر وأساطير الاولين (لفى شقاق) أى خلاف (بعيد) عن الحق واختلف فى المخاطب بقوله تعالى (ليس البر) أى وهو كل فعل مرضى (أن تولوا وجوهكم) أى فى الصلاة (قبل المشرق والمغرب) على قولين أحدهما أنهم المسلمون والثانى أهل الكتابين فعلى الاول معناه ليس البر كله فى الصلاة ولكن البر ما فى هذه الآية قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وعلى الثانى ليس البر صلاة اليهود الى المغرب وصلاة النصارى الى المشرق فانهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت وادعى كل طائفة ان البر هو التوجه الى قبلته فرد الله تعالى عليهم وقال ليس البر ما أنتم عليه فانه منسوخ ولكن البر ما فى هذه الآية قاله قتادة والربيع ومقاتل وقال قوم هو عام لهم وللمسلمين أى ليس البر مقصورا بأمر القبلة وقرأ حفص وحمزة بنصب البر على انه خبر مقدم والباقون برفعه وقوله تعالى (ولكن البر من آمن) على تأويل حذف المضاف أى بر من آمن أو بتأويل البر بمعنى ذى البر أى ولكن البر الذى ينبغى أن يهتم به بر من آمن أو ولكن ذا البر من آمن (بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب) أى الكتب ان أريد به الجنس والا فالقرآن (والنبيين) والتأويل الاول أولى لان السابق فى الآية انما هو نفى كون البر تولية الوجه والذى يستدرك انما هو من جنس

ما نفي وقرأ نافع وابن عامر بكسر نون ولكن مخففة ورفع راء البر والباقون بنصب النون مشددة ونصب الراء والنبيين تقدم أن نافعا يقرؤه بالهمز والباقون على البدل وورش على أصله من المد والتوسط والقصر (وآتى المال على) أى مع (حبه) له كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أى الصدقة أفضل أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش أى الحياة وتخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقيل الضمير لله أى على حب الله (ذوى القربى) أى القرابة قال صلى الله عليه وسلم الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة (واليتامى) جمع يتيم وتقدم تعريفه (والمساكين) جمع مسكين وهو من له مال أو كسب يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه بخلاف الفقير فانه من لا مال له ولا كسب يقع موقعا من كفايته وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله تعالى فى سورة براءة (وابن السبيل) أى المسافر يقال للمسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل قال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (والسائلين) أى الطالبين الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على ظهر فرسه رواه الامام أحمد وفى رواية ردوا السائل ولو بظلف محرق (وفى الرقاب) أى فكها معاونة المكاتبين وقيل فرض الاسراء وقيل ابتياع الرقاب لعتقها (وأقام الصلوة) المفروضة (وآتى الزكوة) المفروضة (فان قيل) قد ذكر ايتاء المال فى هذه الوجوه ثم ثنى بايتاء الزكاة فقد دل ذلك على أن فى المال حقا سوى الزكاة (أجيب) بأن المتقدم فى التطوع وان قال الشعبى ان فى المال حقا سوى الزكاة وتلا هذه الآية ففى الحديث نسخت الزكاة كل صدقة رواه الدارقطنى والبيهقى أى نسخت الزكاة وجوب كل صدقة وروى ليس فى المال حق سوى الزكاة (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) فيما بينهم وبين الله عز وجل وفيما بينهم وبين الناس اذا وعدوا أنجزوا واذا حلفوا أو نذروا وفوا واذا قالوا صدقوا واذا ائتمنوا أدوا * (تنبيه) * الموفون عطف على من آمن وقيل رفع على المبتدا والخبر أى وهم الموفون وقوله تعالى (والصابرين فى البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى المرض (وحين البأس) أى وقت شدة القتال فى سبيل الله تعالى نصب على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على الشدائد ومواطن القتال على سائر الاعمال وروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال كنا اذا احمى البأس أى اشتد الحرب ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون أحد أقرب الى العدو منه (أولئك) الموصوفون بما ذكر (الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) الله التاركون للكفر وسائر الرذائل قال البيضاوى رحمه الله تعالى والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا فانها بكثرتها وتشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس وقد أشير الى الاول بقوله تعالى من آمن الى والنبيين والى الثانى بقوله تعالى وآتى المال الى وفى الرقاب والى الثالث بقوله تعالى وأقام الصلاة الى آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه

واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق والبه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان * ونزل فى حيين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الاسلام بقليل فكان بينهما قتلى وجراحات يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وكان لاحد الحيين طول على الآخر فى الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور فأقسموا لنقتلن بالعبد الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم ضعفى جراحات أولئك فرفعوا أمرهم الى النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم القصاص) وهو المساواة والمماثلة (فى القتلى) وصفا وفعلا (الحر) يقتل (بالحر) ولا يقتل بالعبد (و) يقتل (العبد بالعبد و) يقتل (الانثى بالانثى) وبينت السنة أن الذكر يقتل بالانثى وان المماثلة تعتبر فى الدين فلا يقتل مسلم ولو عبدا بكافر وللائمة فى ذلك خلاف وأدلة مذكورة فى الفقه وكلهم على هدى من ربهم (فمن عفى له) أى من القاتلين (من) أى دم (أخيه) المقتول (شئ) بأن ترك القصاص منه وتنكير شئ يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ولو من بعض الورثة وفى ذكر أخيه تعطف الى العفو وايذان بأن القتل لا يقطع اخوة الايمان ومن مبتدا شرطية أو موصولة والخبر (فاتباع) أى فعلى العافى اتباع للقاتل (بالمعروف) بأن يطالبه بالدية بلا عنف وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما وهو أحد قولى الشافعى والثانى وهو الاصح عنده الواجب القصاص عينا والدية بدل عنه فلو عفا ولم يسمها فلا شئ (فان قيل) ان عفا يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله فمن عفى له (أجيب) بأن عفا يتعدى بعن الى الجانى والى الذنب فيقال عفوت عن فلان وعن ذنبه قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها فاذا تعدى الى الذنب والجانى معا قيل عفوت لفلان عما جنى كما تقول غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه وعلى هذا ما فى الآية كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية (وأداء) أى وعلى القاتل أداء الدية (اليه) أى العافى وهو الوارث (باحسان) أى بلا مطل ولا بخس (ذلك) الحكم المذكور فى العفو والدية (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل والنفع لان أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرم العفو وأخذ الدية وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية وخيرت هذه الامة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيرا (فمن اعتدى) أى ظلم القاتل بأن قتله (بعد ذلك) أى العفو على الدية أو مجانا (فله عذاب أليم) أى مؤلم فى الآخرة بالنار أو فى الدنيا بالقتل أو أخذ الدية ان عفى عنها وقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) كلام فى غاية الفصاحة والبلاغة حيث جعل الشئ محل ضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة قال الزمخشرى وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التشاجر فلما جاء الاسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لان القاصد للقتل اذا علم أنه ان قتل يقتل يمتنع فيكون فيه بقاؤه وبقاء من

بهم بقتله وفى المثل القتل أنفى للقتل وقيل فى المثل القتل قلل القتل وقيل المراد بالحياة الحياة الاخروية فان القاتل اذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة هذا بالنسبة للآدمى وأما بالنسبة لله تعالى فان تاب فكذلك والا فهو تحت المشيئة ثم نادى ذوى العقول الكاملة بقوله (يا أولى الالباب) للتأمل فى حكمة القصاص من استبقاء الارواح وحفظ النفوس ثم بين سبحانه وتعالى مشروعية ذلك بقوله (لعلكم تتقون) القتل مخافة القود أو تعملون عمل أهل التقوى فى المحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له وهو خطاب له فضل اختصاص بالائمة (كتب) أى فرض (عليكم اذا حضر أحدكم الموت) أى حضرت أسبابه وظهرت أماراته (ان ترك خيرا) أى مالا نظيره قوله تعالى وما تنفقوا من خير وقيل مالا كثيرا لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رجلا أراد الوصية فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف فقالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا الشئ يسير فاتركه لعيالك وعن على رضى الله تعالى عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا والخير هو المال الكثير وقوله تعالى (الوصية) مرفوع بكتب وذكر فعلها للفاصل ولانها بمعنى أن يوصى ولذلك ذكر الراجع فى قوله فمن بدله بعد ما سمعه والعامل فى اذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها وجواب ان أى فليوص (للوالدين والاقربين بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث لما روى عن سعد بن مالك رضى الله تعالى عنه قال جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى فقلت يا رسول الله أوصى بمالى كله قال لا قلت فالشطر قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم أى يسألون الناس الصدقة بأكفهم وقوله تعالى (حقا) مصدر قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وغيره مؤكد لمضمون الجملة قبله أى حق ذلك حقا ورده أبو حيان بأن قوله تعالى على المتقين متعلق بحقا أو صفة له وكل منهما يخرجه عن التأكيد اما الاول فلان المصدر المؤكد لا يعمل انما يعمل المصدر الذى ينحل الى حرف مصدرى والفعل أو المصدر الذى هو بدل من اللفظ بالفعل وأما الثانى فلان حقا مصدر مخصص بالصفة فلا يكون مؤكدا وقيل حقا نعت لمصدر كتب أو أوصى أى كتبا أو ايصاء حقا وقيل حال من مصدر أحدهما معرفا وقيل نصب على المفعولية أى جعل الوصية حقا (على المتقين) الله وهذا منسوخ بآية المواريث وبقوله صلى الله عليه وسلم ان الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث بناء على الاصح من أن الكتاب ينسخ بالسنة وان لم تتواتر وبذلك ظهر ما فى قول بعضهم ان الكتاب لا ينسخ بالسنة وان الحديث من الآحاد (فمن بدله) أى غيره من الاوصياء والشهود (بعدما سمعه) أى وصل اليه علمه وتحقق عنده (فانما اثمه) أى الايصاء المبدل (على الذين يبدلونه) والميت برئ منه وفى هذا اقامة الظاهر مقام المضمر (ان الله سميع) لما أوصى به الموصى (عليم) بفعل الوصى فيجازيه عليه وفى هذا وعيد للمبدل بغير حق (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم كقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله أى علمتم وقرأ حمزة بامالة الالف بعد الخاء من خاف حيث جاء وقرأ شعبة وحمزة

والكسائى بفتح الواو من موص ونشديد الصاد والباقون بسكون الواو وتخفيف الصاد (جنفا) أى ميلا عن الحق بالخطأ فى الوصية (أو إثما) بأن تعمد الحيف فى الوصية (فأصلح بينهم) بين الوصى والموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع (فلا إثم عليه) فى هذا التبديل لانه تبديل باطل الى حق بخلاف الاول (ان الله غفور رحيم) فيه وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم (يا أيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم الصيام) هو لغة الامساك عما تنازع فيه النفس ومنه قوله تعالى فقولى انى نذرت للرحمن صوما أى صمتا لانه امساك عن الكلام وفى الشرع الامساك عن المفطرات مع النية فانها معظم ما تشتهيه النفس (كما كتب على الذين من قبلكم) من الانبياء والامم من لدن آدم الى عهدكم قال على رضى الله تعالى عنه أولهم آدم يعنى ان الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم لم يفرضها عليكم وحدكم وفى قوله تعالى كتب عليكم الخ توكيد للحكم وترغيب على الفعل وتطييب على النفس وفى موضع التشبيه فى كاف كما كتب قولان أحدهما أن التشبيه فى حكم الصوم وصفته لا فى عدده قال سعيد بن جبير كتب عليهم اذا نام أحدهم قبل أن يطعم أنه لم يحل له أن يطعم الى الليلة القابلة والنساء عليهم حرام ليلة الصيام وهو عليهم ثابت وقد أرخص لكم هذا فعلى هذا تكون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الآية فانها فرقت بين صوم أهل الكتاب وبين صوم المسلمين والثانى انه كصومهم فى عدد الايام لما روى أن رمضان كتب على أهل الانجيل فأصابهم موتان أى وهو بضم الميم موت يقع على الماشية فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده فجعلوه خمسين وقيل كان يقع فى الحر الشديد وكان يشق عليهم فى أسفارهم ويضرهم فى معايشهم فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه فى الربيع وقالوا نزيد عشرين يوما نكفر ما صنعنا قال السدى عن مشايخه وقيل زادوا فيه عشرة أيام أولا كفارة لما صنعوا فصار أربعين يوما ثم ان ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه ان هو شفى من وجعه أن يزيد فى صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه أسبوعا ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال أتموه خمسين يوما وعلى هذا تكون الآية محكمة لا منسوخة (لعلكم تتقون) بصومكم للمعاصى فان الصوم يكسر الشهوة التى هى مبدؤها كما قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة أى مؤن النكاح فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أى قاطع لشهوته أو لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين لان الصوم شعارهم وقوله تعالى (أياما) نصب بصوموا مقدرا لدلالة الصيام عليه لا بالصيام لوقوع الفصل بينهما (معدودات) أى قلائل كقوله تعالى دراهم معدودة وأصله ان المال القليل يقدر بالعدد ويحكر فيه والكثير يهال هيلا ويحثى حثيا أو موقتات بعدد معلوم وهى رمضان كما سيأتى وقلله تسهيلا على المكلفين وقيل هى عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر ثم نسخت بشهر رمضان (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضره الصوم ويعسر معه (أو على سفر) أى مسافرا

سفر قصر (فعدة من أيام أخر) أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر ان افطر فحذف الشرط وهو ان أفطر والمضاف وهو صوم والمضاف اليه وهو أيام المرض والسفر للعلم بها واختلفوا فى المرض الذى يبيح الفطر والاصح فيه ما قدرناه وذهب أهل الظاهر الى أن ما ينطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين فقد دخل عليه فى رمضان وهو يأكل فاعتل بوجع اصبعه وفى السفر الذى يباح فيه الفطر والاصح فيه أيضا ما قدرناه وهو مرحلتان وقال الاوزاعى أقله مرحلة وقال أبو حنيفة وأصحابه ثلاثة أيام (وعلى الذين يطيقونه) أى ان أفطروا (فدية) هى (طعام مسكين) أى قدر ما يأكله فى يوم وهو مد على الاصح من غالب قوت بلده وقال بعضهم نصف صاع من القمح أو صاع من غيره وقال بعضهم ما كان المفطر يتقوته يومه الذى أفطره وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية وحكمها فذهب أكثرهم الى أنها منسوخة وهو قول ابن عمر وسلمة ابن الاكوع وغيرهما وذلك انهم كانوا فى صدر الاسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا وانما خيرهم الله تعالى لانهم كانوا لم يتعودوا الصيام ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه قال ابن عباس الا الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على الولد فانها باقية بلا نسخ فى حقهما وذهب جماعة منهم الى أن لفظة لا مقدرة فى الآية أى وعلى الذين لا يطيقونه لكبر أو مرض لا يرجى برؤه فدية وهو قول سعيد بن جبير وجعل الآية محكمة وقرأ نافع وابن ذكوان بغير تنوين فى فدية وخفض الميم من طعام والباقون بتنوين فدية ورفع الميم من طعام وقرأ نافع وابن عامر مساكين بفتح الميم والسين وألف بعد السين وفتح النون والباقون بكسر الميم وسكون السين ولا ألف بعدها وكسر النون منونة (فمن تطوع خيرا) بالزيادة على القدر المذكور فى الفدية (فهو) أى التطوع (خير له) فيثيبكم الله عليه (وان تصوموا) أى أيها المطيقون مبتدأ خبره (خير لكم) أى من الافطار والفدية (ان كنتم تعلمون) أى ما فى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة وجواب ان كنتم محذوف دل عليه خير لكم أى فالصوم خير لكم وقوله تعالى (شهر رمضان) مبتدأ خبره ما بعده أو بدل من الصيام فى قوله كتب عليكم الصيام بدل اشتمال أو بدل كل من كل ان قدر مضاف أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان أو الشهر من الشهور ورمضان مصدر رمض اذا احترق فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع من الصرف للعلمية والالف والنون (فان قيل) اذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف اليه جميعا فما وجه ما جاء فى الاحاديث من نحو قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقوله صلى الله عليه وسلم بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له (أجيب) بأن ذلك على حذف المضاف لامن اللبس قال التفتازانى وجاز الحذف من الاعلام وان كان من قبيل حذف بعض الكلمة لانهم أجروا مثل هذا العلم مجرى المضاف والمضاف اليه حيث أعربوا الجزأين وانما سماه العرب بذلك اما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش واما لارتماض الذنوب فيه وقيل لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة

التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمضان الحر قال أئمة اللغة كان أسماء الشهور فى اللغة القديمة مؤتمر ناجر خوان وبصان حنين ورنه الاصم وعل ناتق عادل هواع برك فغيرت الى محرم صفر ربيع الاول ربيع الثانى جمادى الاولى جمادى الثانية رجب شعبان رمضان شوال ذى القعدة ذى الحجة على الترتيب وسمى المحرم لتحريم القتال فيه وصفر لخلو مكة عن أهلها الى الحروب والربيعان لارتباع الناس فيهما أى اقامتهم وجماديان لجمود الماء فيهما ورجب لترجيب العرب اياه أى تعظيمهم له وشعبان لتشعب القبائل فيه ورمضان لرمض الفصال فيه وشوال لشول اذناب اللواقح فيه وذو القعدة لقعودهم فيه عن الحرب وذو الحجة لحجهم فيه (الذى أنزل فيه القرآن) جملة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا ليلة القدر ثم نزل منجما الى الارض وقيل ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك ليلة القدر وقيل أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله تعالى كتب عليكم الصيام وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين والانجيل لثلاث عشرة والقرآن لاربع وعشرين رواه الامام أحمد وغيره *(فائدة)* قال ابن عادل يروى ان جبريل عليه السلام نزل على آدم اثنتى عشرة مرة وعلى ادريس أربع مرات وعلى ابراهيم اثنتين وأربعين مرة وعلى نوح خمسين مرة وعلى موسى أربعمائة مرة وعلى عيسى عشر مرات وعلى محمد صلى الله عليه وسلم أربعة وعشرين ألف مرة وقرأ ابن كثير القرآن بنقل حركة الهمزة الى الراء وتصير الراء مفتوحة وألف بعدها فى المعرف والمنكر حيث جاء وكذا يقرأ حمزة فى الوقف وقوله تعالى (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) حالان من القرآن أى أنزل وهو هداية للناس لاعجازه من الضلالة الى الحق وهو آيات واضحات مما يهدى الى الحق ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام (فان قيل) فما معنى قوله وبينات من الهدى بعد قوله هدى للناس (أجيب) بأنه تعالى ذكر اولا انه هدى ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله وفرق به الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال (فمن شهد) أى حضر (منكم الشهر فليصمه) وقوله تعالى (ومن كان مريضا أو على سفر) أى فأفطر (فعدة من أيام أخر) تقدم مثله وكرر لئلا يتوهم نسخه بتعميم من شهد (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ولذلك أباح لكم الفطر فى المرض والسفر واختلفوا هل الفطر فى السفر أفضل أو الصوم والاصح انه ان شق عليه الصوم فالفطر أفضل والا فالصوم وروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعروة بن الزبير وعلى بن الحسين انهم قالوا لا يجوز الصوم فى السفر ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم ليس من البر الصيام فى السفر وأجاب الاول عن الحديث بانه محمول على من يشق عليه الصوم فقول جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا هذا صائم فقال صلى الله عليه وسلم ليس من البر الصيام فى السفر والدليل على جواز

قوله قال أئمة اللغة الخ الاسماء المذكورة هى كذلك فى النسخ التى بأيدينا وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا كثيرا قال بعضهم وتوجد للشهور أسامى قد كان أوائلهم يدعونها بها وهى هذه المؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنين ورنى والاصم وعادل وناتق وواغل وهواع وبرك وقد توجد هذه الاسماء مخالفة لما أوردناه مختلفة الترتيب كما نظمها بعضهم بقوله
بمؤتمر وناجر بدأنا * وبالخوان يتبعه الصوان * وبالرنى وبائدة تليه * يعود أصم صم به السنان
وواغله وناطله جميعا * وعادله فهم غرر حسان * ورنة بعدها برك فتمت * شهور الحول يعقدها البنان *
وفى مروج الذهب أسماء أخرى فراجعه اه مصححه

الصوم في السفر قول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم وقوله تعالى

(ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) أي الله على نعمه علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بالقضاء وبمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في اباحة الفطر فقوله تعالى ولتكملوا العدة علة الامر بمراعاة العدة وقوله تعالى ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر وقوله تعالى ولعلكم تشكرون علة الترخيص من تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عدى نوع من اللف والنشر لطيف المسلك ومعنى التكبير تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه ولذلك عدى بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم وقيل تكبير عيد الفطر وقيل التكبير عند الاهلال وقرأ شعبة ولتكملوا بفتح الكاف وتشديد الميم والباقون بسكون الكاف وتخفيف الميم *(تنبيه)* ورد في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين أخبار منها ما رواه أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى مناد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة ومنها ما رواه أيضا انه صلى الله عليه وسلم قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومنها ما رواه سلمان قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة وشهر يزاد فيه الرزق من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء قالوا يا رسول الله ليس كلنا نجد ما يفطر الصائم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء ومن أسقى صائما سقاه الله عز وجل من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال خصلتين ترضون بهما ربكم وخصلتين لا غنى لكم عنهما فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا اله الا الله وتستغفرونه وأما اللتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك الصوم جنة وعن سهل بن سعد انه قال قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لايدخله الا الصائمون وعن ابن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصيام والقرآن يشفعان للعبد يقول الصيام رب انى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه و يقول القرآن رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه فيشفعان * وسأل جماعة النبى صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزل (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب) أى فقل لهم انى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم ونحوه قوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان) أى بانالته ماسأل تقرير للقرب ووعد للداعى بالاجابة وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء فيهما وصلا لا وقفا واختلف عن قالون فيهما والباقون بحذفها وصلا ووقفا (فان قيل) ماوجه قوله تعالى أجيب دعوة الداع وقوله ادعونى أستجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يجيب (أجيب) بأنهم اختلفوا فى معنى الآيتين فقيل معنى الدعاء هنا الطاعة ومعنى الاجابة الثواب وقيل معنى الآيتين خاص وان لفظهما عام تقديره أجيب دعوة الداع ان شئت كما قال تعالى فيكشف ماتدعون اليه ان شاء أو أجيب دعوة الداعى ان وافق القضاء أو أجيبه ان كانت الاجابة خيرا له أو أجيبه ان لم يسأل محالا وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجيب الله لاحدكم مالم يدع باثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا وما الاستعجال يارسول الله قال يقول قد دعوتك يارب فلا أراك تستجيب لى فيتحسر عند ذلك فيدع أى يترك الدعاء وقيل هو عام ومعنى قوله أجيب أى أسمع و يقال ليس فى الآية أكثر من اجابة الدعوة فاما اعطاء الامنية فليس بمذكور فيها وقد يجيب السيد عبده أو الوالد ولده ثم لايعطيه سؤله فالاجابة كائنة لامحالة عند حصول الدعوة وقيل معنى الآية أنه لايخيب دعاءه فان قدر له ماسأل أعطاه وان لم يقدر له ادخر الثواب له فى الآخرة أو كف عنه به سوأ لقوله صلى الله عليه وسلم ماعلى الارض رجل مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله اياها أو كف عنه من السوء مثلها مالم يدع باثم أو قطيعة رحم وقيل ان الله يجيب دعوة المؤمن فى الوقت ويؤخر اعطاء مراده ليدعوه فيسمع صوته و يعجل اعطاء من لا يحبه لانه يبغض صوته وقيل ان للدعاء آدابا وشرائط وهى أسباب الاجابة فمن استكملها كان من أهل الاجابة ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء فى الدعاء فلا يستحق الجواب (فليستجيبوا لى) اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى بمهماتهم وقوله تعالى (وليؤمنوا بى) أمر بالثبات والمداومة على الايمان (لعلهم) أى لكى (يرشدون) والرشد اصابة الحق (أحل لكم ليلة الصيام) أى الليلة التى تصبحون منها صائمين (الرفث الى نسائكم) الرفث كناية عن الجماع لانه لايكاد يخلو عن رفث وهو الافصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ الوطء والجماع فانه يجب أن يكنى عنه بلازم من لوازمه كالرفث وعدى بالى لتضمنه معنى الافضاء وكنى عن الجماع هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله وقد أفضى بعضكم الى بعض استهجانا لما وجد منهم قبل الاباحة ولذلك سماه فيما يأتى خيانة قال ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما ان الله تعالى حيي كريم يكني كل ماذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والافضاء والدخول فالرفث انما عني به الجماع وقال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجال من النساء قال أهل التفسير كان في ابتداء الامر اذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والنساء الى أوان العشاء الآخرة أو يرقد قبلها فاذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى الليلة القابلة ثم ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واقع أهله بعد ما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أعتذر الى الله واليك من نفسي هذه الخاطئة اني رجعت الى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فهل تجد لي من رخصة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما كنت جديرا بذلك يا عمر فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزل في عمر وأصحابه هذه الآية وفي تجويز المباشرة في جميع الليل دليل على جواز تأخير الغسل الى الفجر وصحة صوم المصبح جنبا (هن لباس) أي سكن (لكم وأنتم لباس) أي سكن (لهن) كما قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها وكما قيل لا يسكن شيء الى شيء كسكون أحد الزوجين الى الآخر وقيل سمي كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم وتعانقهما واجتماعهما في ثوب واحد حتى يصير كل واحد من الزوجين لصاحبه كالثوب الذي يلبسه قال الجعدي

اذا ما الضجيع ثنى عطفها * تثنت فكانت عليه لباسا

والضجيع المضاجع وما زائدة وثنى عطفها امال شقها وتثنت مالت والشاهد في قوله فكانت عليه لباسا وقيل أن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور كما جاء في الخبر من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أي تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب بالمجامعة بعد العشاء كما وقع ذلك لعمر وغيره وقال البراء لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله هذه الآية (فتاب عليكم) أي قبل توبتكم (وعفا عنكم) أي محا ذنوبكم ولم يمل أحد الف عفا لانه واوي (فالآن) أي اذا انسخ عنكم التحريم (باشروهن) أي جامعوهن حلالا وسمي الجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد منهما بصاحبه (وابتغوا) أي واطلبوا (ما كتب الله لكم) أي ما قسم لكم وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة أي لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل أو قصد العفة وقال مجاهد ابتغوا الولد فان لم تلد هذه فهذه وقال مقاتل وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم باباحة الاكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ وقيل وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم وقيل هو نهي عن العزل لانه في الحرائر فقوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) أي الصادق نزل في رجل من الانصار قال عكرمة اسمه أبو قيس وذلك انه ظل نهاره يعمل في أرض وهو صائم فلما أمسى رجع الى أهله بتمر فقال لامرأته قدمي الطعام وأرادت المرأة أن تطعمه شيأ سخنا فأخذت تعمل له في شيء وكان في ابتداء الاسلام

من صلى العشاء أونام قبلها حرم عليه الطعام والشراب فلما فرغت من طعامه اذ هو قد نام وكان قد أعيا وكل فايقظته فكره أن يعصى الله ورسوله وأبى أن يأكل فأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال يا أبا قيس مالك أمسيت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وقد شبه سبحانه وتعالى أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الافق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الابيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه ويصح أن تكون من للتبعيض فانما يبدو بعض الفجر وعلى كل منهما فهى مع مدخولها فى محل الحال والمعنى على التبعيض حال كون الخيط الابيض بعضا من الفجر وعلى البيان حال كونه هو الفجر (فان قيل) كيف التبس على عدى بن حاتم مع هذا البيان حتى قال عمدت الى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فجعلت أقوم من الليل فلا يتبين لى الاسود من الابيض فلما أصبحت غدوت الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك وقال ان كان وسادك اذا لعريضا وروى انك لعريض القفا انما ذلك بياض النهار من الليل (أجيب) بأنه غفل عن البيان ولذلك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه لانه مما يستدل به على بلادة الرجل وقلة فطنته وقال سهل بن سعد الساعدى نزلت ولم ينزل من الفجر فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيناله فأنزل الله تعالى بعد ذلك من الفجر (فان قيل) كيف جاز فعل ذلك فى رمضان مع تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد (أجيب) بأن ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان الى وقت الحاجة جائزا واكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم (ثم أتموا الصيام) من الفجر (الى الليل) أى الى دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم أى دخل وقت افطاره *(تنبيه)* انما قدرت فى الآية الكريمة من الفجر ليدل على عدم جواز النية فى النهار فى صوم رمضان كما هو مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ولان الى يكون المغيا بها ينقضى شيأ فشيأ والاتمام فعل الجزء الاخير فقط وهو لا ينقضى كذلك وفى الآية دليل على نفى الوصال لانه تعالى جعل الليل غاية الصوم وغاية الشئ منتهاه ومابعدها يخالف ما قبلها (ولا تباشروهن) أى نساءكم (وأنتم عاكفون) أى مقيمون (فى المساجد) بنية الاعتكاف والمراد بالمباشرة الوطء والآية نزلت فى نفر من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يعتكفون فى المسجد فاذا عرضت للرجل منهم الحاجة الى أهله خرج اليها فجامعها ثم اغتسل ثم يرجع الى المسجد فنهوا عن ذلك ليلا ونهارا حتى يفرغوا من اعتكافهم وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يختص بمسجد دون مسجد وأن يكون فى المسجد لا فى غيره اذ ذكر المساجد لا جائز أن يكون لجعلها شرطا فى منع مباشرة المعتكف لمنعه منها وان كان خارج المسجد ويمنع غيره أيضا منها

فيها فتعين كونها شرطا لصحة الاعتكاف وان الوطء محرم في الاعتكاف ويفسده لان النهي في العبادات يوجب الفساد اما مادون الجماع من المباشرات فان كان بشهوة فحرام ولا يبطل اعتكافه ان لم ينزل فان أنزل وكان بلا حائل فكالجماع والا فلا فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتكف أدنى الي رأسه فأرجله وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان (تلك) الاحكام المذكورة وهي قوله تعالى فالآن باشروهن الى قوله تعالى في المساجد (حدود الله) حدها العباده ليقفوا عندها (فلا تقربوها) نهى تعالى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يدانى الباطل فضلا أن يتخطى عنه وهذا أبلغ من قوله تعالى في آية أخرى فلا تعتدوها لكن في ذلك مأمورات وهي لا ينهى عن قربانها فالمراد منها اضدادها بناء على أن الامر بالشئ نهى عن ضده أو مستلزم له ليصح النهى عن قربانها ويجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه وعلى هذا فالنهى عن القربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام ان لكل ملك حمى وان حمى الله في أرضه محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه رواه الشيخان (كذلك) أي كما بين لكم ماذكر (يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أي لكي يتقوا مخالفة الاوامر والنواهي فينجوا من العذاب (ولا تأكلوا أموالكم بينكم) أي لا يأكل بعضكم مال بعض (بالباطل) أي الحرام شرعا كالغصب والسرقة وقوله تعالى (وتدلوا) مجزوم داخل في حكم النهي أو منصوب باضمار ان والادلاء الالقاء أي ولا تلقوا (بها) أي بحكومتها او بالاموال رشوة (الى الحكام لتأكلوا) بالتحاكم (فريقا) أي طائفة (من أموال الناس بالاثم) أي بما يوجب اثما كشهادة الزور واليمين الكاذبة أو متلبس بالاثم فالباء اما للسببية فتكون متعلقة بتأكلوا أو للمصاحبة فتتعلق بمحذوف وتكون مع مدخولها حالا من فاعل تأكلوا (وأنتم تعلمون) انكم مبطلون فان ارتكاب المعصية مع العلم أقبح روى ان عبدان الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا فارتدع عن اليمين وسلم الارض لعبدان فنزلت وهو دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ في باطن الامر وفيه خلاف ظاهر ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لخصمين اختصما اليه انما أنا بشر وأنتم تختصمون لدي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته أي أقوم وأقدر عليها من بعض فأقضي له على ما أسمع منه فمن قضيت له بشئ من أخيه فانما أقطع له قطعة من نار فبكيا وقال كل واحد منهما حقي لصاحبي فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه وسأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ويستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل (يسئلونك) يا محمد (عن الاهلة) جمع هلال مثل رداء وأردية والهلال اسم له أول الليلة الاولى والثانية والثالثة وبعدها يسمى قمرا وهنا سماه بأول حالاته لان الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته من قولهم استهل الصبي اذا صرخ حين يولد (قل) انهم

(هي مواقيت) جمع ميقات أي معالم (للناس) يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصيامهم وافطارهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وغير ذلك وقوله تعالى (والحج) عطف على الناس أي يعلمون بها وقته أداء وقضاء هذه هي الحكمة الظاهرة في ذلك ولهذا خالف بين الاهلة وبين الشمس فلو استمرت الاهلة على حالة لم يعرف حال ماذكر ولما كان الناس في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته ويدخل منه ويخرج أو يتخذ سلما فيه فيصعد منه وان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك برا الا أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وبنو عامر بن صعصعة وبنو نضر بن معاوية سموا حمسا لشدتهم في دينهم والحماسة الشدة والصلابة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتا لبعض الانصار فدخل رجل من الانصار يقال له رفاعة بن تابوت على أثره من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لم دخلت من الباب وأنت محرم قال رأيتك دخلت فدخلت على اثرك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أحمس فقال الرجل فان كنت أحمس فاني أحمس رضيت بهداك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر) أي ذا البر (من اتقى) الله بترك مخالفته ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انهم سألوا عن الحكمة في اختلال حال القمر وعن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها أوانه تعالى لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضا من افعالهم في الحج ذكره للاستطراد وانهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم وهو معرفة الحلال والحرام ويختص بعلم النبوة عقب بذكره جواب ماسألوه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن امثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو على أن المراد به التنبيه على تعكيسهم السؤال وتمثيلهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه والمعنى وليس البر أن تعكسوا في مسائلكم ولكن من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله (وأتوا البيوت من أبوابها) في الاحرام كغيره اذ ليس في العدول بر وباشروا الامور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله تعالى حكم وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه كما في السؤال من الاتهام بمقارنة الشك لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (واتقوا الله) في تغيير الاحكام (لعلكم تفلحون) لكي تفوزوا بالهدى والبر وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء حيث جاء معرفا كان أو منكرا وكسرها الباقون ولا خلاف في وليس البر هنا ان الراء مرفوعة للجميع وقرأ نافع وابن عامر ولكن بكسر النون مخففة ورفع الراء والباقون بفتح النون مشددة ونصب الراء ولما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه للعمرة وكانوا ألفا وأربعمائة فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون

عن البيت الحرام وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم فى الحرم والاحرام والشهر الحرام وكره المسلمون ذلك نزل (وقاتلوا) أى جاهدوا (فى سبيل الله) لاعلاء كلمته واعزاز دينه (الذين يقاتلونكم) من الكفار (ولا تعتدوا) عليهم بالابتداء بالقتال (ان الله لا يحب المعتدين) أى لا يريد بهم الخير لانه غاية المحبة اذ المحبة حقيقتها محال فى حقه تعالى لانها ميل النفس وسبب ذلك انهم كانوا امنعوا من قتال الكفار وأمروا بالصبر على أذاهم بقوله تعالى لتبلون فى أموالكم الآية ثم أمروا به اذا ابتدؤا به بهذه الآية ثم أبيح لهم ابتداؤه فى غير الاشهر الحرم بقوله تعالى فاذا انسلخ الاشهر الحرم الآية ثم أمروا به مطلقا من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى وجدتموهم فى حل أو حرم وقرأ أبو عمرو بادغام الثاء فى الثاء بخلاف عنه حيث جاء (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى من مكة وقد فعل ذلك بمن لم يسلم عام الفتح (والفتنة) أى الشرك منهم (أشد) أى أعظم (من القتل) لهم فى الحرم أو الاحرام الذى استعظمتموه أو المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها قيل لبعض الحكماء ما أشد من الموت قال الذى يتمنى فيه الموت وقال القائل

لقتل بحد السيف أهون موقعا * على النفس من قتل بحد فراق

وقيل الفتنة عذاب الآخرة كما قال تعالى ذوقوا فتنتكم (ولا تقاتلوهم) أى لا تبدؤهم (عند المسجد الحرام) أى فى الحرم (حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم) فيه (فاقتلوهم) فيه فانهم هم الذين هتكوا حرمته وقرأ حمزة والكسائى ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم بفتح التاء الفوقية من تقتلوهم والياء من يقتلوكم وسكون القاف ولا ألف بعد القاف وضم التاء فيهما والباقون بفتح التاء والياء وفتح القاف وبعد القاف ألف وكسر التاء وأما فان قاتلوكم فحذف حمزة والكسائى الالف وأثبتها الباقون والمعنى على قراءة حمزة والكسائى حتى يقتلوا بعضكم جعل وقوع القتل فى بعضهم كوقوعه فيهم كقول بعض العرب قتلنا بنى أسد أى بعضهم وقال بعضهم وان تقتلونا نقتلكم (كذلك) أى القتل والاخراج (جزاء الكافرين) أى يفعل بهم مثل ما فعلوا (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله غفور) يغفر لهم ما قد سلف (رحيم) بهم فلا يؤاخذ بذلك (وقاتلوهم حتى لا تكون) أى توجد (فتنة) أى شرك (ويكون الدين) أى العبادة (لله) وحده لا يعبدون سواه (فان انتهوا) عن الشرك فلا تعتدوا عليهم دل على هذا (فلا عدوان) أى اعتداء بقتل اوغيره (الا على الظالمين) أى فلا تعتدوا على المنتهين اذ لا يحسن أن يظلم الا من ظلم والفاء الاولى للتعقيب والثانية للجزاء وسمى جزاء الظالمين عدوانا للمشاكلة كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه (الشهر الحرام) أى المحرم مقابل (بالشهر الحرام) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج معتمرا فى ذى القعدة سنة ست وصده المشركون عن البيت بالحديبية ورجع فى العام القابل فى ذى القعدة وقضى عمرته سنة سبع واستعظم المسلمون قتالهم فى الشهر الحرام

نزلت هذه الآية أى هذا الشهر بذلك وهتكه بهتكه فلا تبالوا به وقوله تعالى (والحرمات قصاص) احتجاج عليه أى كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجرى فيها القصاص وانما جمعها لانه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام أى فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم ان قاتلوكم أى كما قال تعالى (فمن اعتدى عليكم) بالقتال فى الحرم أو الاحرام أو الشهر الحرام (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) سمى الجزاء باسم الاعتداء على ازدواج الكلام كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (واتقوا الله) فى الانتصار لانفسكم منهم ولا تعتدوا الى ما لم يرخص لكم (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصر فيحرسهم ويصلح شأنهم (وأنفقوا فى سبيل الله) أى طاعته سواء الجهاد وغيره (ولا تلقوا بأيديكم) أى بأنفسكم عبر بالايدى عن الانفس كقوله تعالى بما كسبت أيديكم أى بما كسبتم والباء زائدة (الى التهلكة) أى الهلاك بالامساك عن النفقة فى الجهاد أو الاسراف فيها حتى يفقر نفسه ويضيع عياله أو عن ترك الغزو الذى هو تقوية للعدو روى ان رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس ألقى بيده الى التهلكة فقال أبو أيوب الانصارى نحن أعلم بهذه الآية وانما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد وآثرناه على أهلنا وأولادنا وأموالنا فلما فشا الاسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا الى اهلينا واولادنا واموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة الاقامة فى الاهل والمال وترك الجهاد فما زال أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية فى زمن معاوية فتوفى هنالك ودفن فى أصل سورها وهم يستسقون به وروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلمانى الالقاء الى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى قال أبو قلابة هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليست لى توبة فييأس من رحمة الله وينهمك فى المعاصى فنهاهم الله تعالى عن ذلك كما قال تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون (وأحسنوا) أى بالنفقة وغيرها (ان الله يحب المحسنين) أى يثيبهم (وأتموا الحج والعمرة لله) أى أدوهما بحقوقهما وفى الآية حينئذ دليل على وجوبهما اذ الاصل فى الامر الوجوب وما روى عن جابر أنه قال يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج فقال لا معارض بما روى أن رجلا قال لعمر رضى الله تعالى عنه انى وجدت أى علمت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما جميعا فقال هديت لسنة نبيك ولا يقال انه فسر وجدانهما مكتوبين بقوله أهللت بهما لانه رتب الاهلال بهما على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الاهلال دون العكس وقيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم وقيل ان تفرد لكل واحد منهما سفرا وقيل أن تكون النفقة حلالا وقيل أن تخلصهما للعبادة ولا تشوبهما بشىء من التجارة والاغراض الدنيوية (فان أحصرتم) أى منعتم عن اتمامهما يقال حصره واحصره العدو اذا منعه قال

تعالى الذين أحصروا فى سبيل الله وقال القائل

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت * عليك ولا ان أحصرتك شغول

لكن الاشهر أن يقال فى العدو حصره وفى المرض أحصره والمراد هنا حصر العدو لقوله تعالى فاذا أمنتم ولنزول الآية فى الحديبية ولقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لاحصر الاحصر العدو وأما ما روى عنه عليه الصلاة والسلام من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل فمحمول على من شرطه لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجى واشترطى وقولى اللهم محلى حيث حبستنى ومحلى بكسر الحاء محل الحبس والحصر ويجوز أن يكون مصدرا ميميا (فما استيسر من الهدى) أى فان أردتم التحلل فعليكم ما استيسر أو فالواجب أو فأهدوا ما استيسر من الهدى وهو بدنة أو بقرة أو سبع من أحدهما أو شاة يذبحها حيث أحصر فى حل أو حرم عند الاكثر لانه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل وقيل لابد أن يبعث بها الى الحرم لقوله تعالى (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) أى لا تحلقوا حتى تعلموا ان الهدى المبعوث الى الحرم بلغ محله أى مكانه الذى يجب أن يذبح فيه وحمل الاولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما لكن يندب ارساله الى الحرم خروجا من خلاف أبى حنيفة واقتصاره تعالى على الهدى دليل عدم القضاء كما قاله الشافعى وذهب أبو حنيفة الى وجوب القضاء ولابد من نية التحلل عند الذبح أو الحلق أو التقصير بعده مع نية التحلل وبذلك يحصل التحلل والمحل بالكسر يطلق للمكان والزمان (فمن كان منكم مريضا) أى مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كقمل وصداع فحلق فى الاحرام (ففدية) أى فعليه فدية ان حلق ولو بعض شعر رأسه ثلاث شعرات فأكثر ولاء (من صيام) وهو ثلاثة أيام (أو صدقة) وهى ثلاثة آصع من غالب قوت البلد على ستة مساكين لكل واحد نصف صاع (او نسك) وهو بدنة أو بقرة أو سبع واحد منهما أو شاة وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لعلك اذاك هوام رأسك قال نعم يارسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك شاة وكان كعب يقول أنزلت فى هذه الآية وأو للتخيير وألحق بالمعذور من حلق لغير عذر لانه أولى بالكفارة وكذا من استمتع بغير الحلق كالطيب والدهن واللبس لعذر أو غيره (فاذا أمنتم) من العدو بان ذهب أو كنتم فى حال سعة وأمن (فمن تمتع بالعمرة) أى بسبب فراغه منها بمحظورات الاحرام (الى الحج) اى الاحرام به بأن يكون أحرم بها فى أشهره (فما استيسر) أى فعليه ما تيسر (من الهدى) وهو ما تقدم يذبحه بعد الاحرام بالحج ويجوز تقديمه على الاحرام به بعد الفراغ من العمرة (فمن لم يجد) أى الهدى لفقده أو فقد ثمنه (فصيام) أى فعليه صيام (ثلاثة أيام فى الحج) أى فى حال احرامه به ولا يجوز له أن يقدمه على الاحرام لانه عبادة بدنية فلا يجوز تقديمه على وقته ولا تأخيره عنه والافضل أن يحرم قبل السادس لكراهة صوم عرفة ولا يجب عليه أن يحرم قبل زمن يسع الصوم بل يستحب له لكن اذا أحرم وجب عليه الصوم ولا يجوز أن يصوم يوم النحر ولا أيام التشريق على أصح قولى الشافعى وهو ما عليه

الاكثر (وسبعة) من الايام (اذا رجعتم) الى وطنكم مكة أو غيرها وقيل اذا فرغتم من أعمال الحج وفيه التفات عن الغيبة وفائدة قوله تعالى (تلك عشرة) أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كقولك جالس الحسن وابن سيرين ألا ترى انه لو جالسهما جميعا أو واحدا منهما كان ممتثلا وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم فان أكثر العرب لم يحسنوا الحساب وفى أمثال العرب علمان خير من علم وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة فانه يطلق لهما وقوله تعالى (كاملة) صفة مؤكدة تفيد المبالغة فى محافظة العدد بأن لا يتهاونوا بها ولا ينقص من عددها كما تقول للرجل اذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزلة الله الله لا تقصر أو مبينة كمال العشرة فانه أول عدد كامل اذ به تنتهى الآحاد وتتم مراتبها وقيل كاملة فى وقوعها بدلا من الهدى بحيث لا يقصر ثواب الصوم عن ثواب الهدى (ذلك) أى الحكم المذكور من وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) وهم من مساكنهم دون مرحلتين من الحرم أقربهم منه والقريب من الشئ يقال انه حاضره قال تعالى واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر أى قريبة منه وفى ذكر الاهل اشعار باشتراط الاستيطان فلو أقام قبل أشهر الحج ولم يستوطن وتمتع فعليه ذلك وهو أصح قولى الشافعى والثانى لا والاهل كناية عن النفس وألحق بالمتمتع فيما ذكر بالسنة القارن وهو من يحرم بالعمرة والحج معا أو يدخل الحج عليها قبل الطواف (واتقوا الله) بالمحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصا فى الحج (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن خالفه ليكون علمكم بشديد عقابه لطفا لكم فى التقوى (الحج أشهر) أى وقته كقولك البرد شهران (معلومات) وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة الى طلوع الفجر من يوم النحر عندنا والعشر كله عند أبى حنيفة وذو الحجة كله عند مالك وعلى الاولين انما سمى شهرين وبعض شهر أشهرا اقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على مافوق الواحد كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما لحفصة وعائشة (فمن فرض) على نفسه (فيهن الحج) بالاحرام به عندنا أو بالتلبية أو بسوق الهدى عند أبى حنيفة وفيه دليل على أن من أحرم بالحج فى غير أشهر الحج لا ينعقد احرامه بالحج وهو قول ابن عباس وجماعة من الصحابة واليه ذهب الاوزاعى والشافعى وقال ينعقد احرامه عمرة لان الله تعالى خص هذه الاشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد فى غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة كما أنه تعالى علق الصلاة بالمواقيت ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لم ينعقد احرامه عن الفرض وانما انعقد عمرة لان الاحرام شديد التعلق وذهب جماعة الى أنه ينعقد احرامه بالحج وهو قول مالك والثورى وأبى حنيفة أما العمرة فجميع السنة وقت لها الا أن يكون عليه بقية من أعمال الحج كالرمى (فلا رفث) أى جماع فيه كما قال ابن عباس وجماعة من الصحابة وقيل الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وان يعرض لها بالفحش من الكلام وقيل هو الفحش والقول القبيح (ولا فسوق) أى ولا خروج عن حدود الشرع بالسيآت وارتكاب المحظورات وقيل هو السباب والتنابز بالالقاب (ولا جدال) أى خصام مع الخدم

والرفقة

والرفث وغيرهما (في الحج) أي في أيامه فنفي الثلاث على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون وما كان منها مستقبحا في نفسه ففي الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة والتطريب بقراءة القرآن وهو مد الصوت وتحسينه بحيث يخرج الحروف عن هيآتها فانه يقبح في كل كلام لكنه في قراءة القرآن أقبح وقرأ ابن كثير وابو عمرو برفع الثاء من رفث والقاف من فسوق والتنوين فيهما على معنى لا يكون رفث ولا فسوق والباقون بنصبهما ولا خلاف في ولا جدال فالجميع بالنصب ولا تنوين على معنى الاخبار كأنه قيل ولا شك ولا خلاف في الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء فرد الى وقت واحد ورد الوقوف الى عرفة فأخبر الله تعالى انه قد ارتفع الخلاف في الحج واستدل على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم ولدته أمه فانه لم يذكر الجدال (وما تفعلوا من خير) كصدقة (يعلمه الله) فيه حث على الخير حيث عقب به النهي عن الشر وان يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أي وتزودوا لمعادكم التقوى فانها خير زاد روى البخاري وغيره ان أهل اليمن كانوا يخرجون الى الحج بغير زاد ويقولون نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يطعمنا فيكونون كلا على الناس فيسألونهم وربما يفضي الحال بهم الى النهب والغصب فقال الله جل ذكره وتزودوا أي ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم قال أهل التفسير الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها فان خير الزاد التقوى أي ما يتقى به سؤال الناس وغيره (واتقون يا أولي الالباب) أي يا ذوي العقول فان قضية اللب خشية الله تعالى وتقواه وحثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه وهو مقتضى العقل العري عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الالباب بهذا الخطاب (ليس عليكم جناح) في (أن تبتغوا) أي تطلبوا (فضلا) أي رزقا (من ربكم) بالتجارة في الحج نزلت ردعا الناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج واذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ويسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج وروى البخاري انه كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز اسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وابيح لهم وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه قيل له هل كنتم تكرهون التجارة في الحج فقال وهل كانت معايشنا الا من التجارة في الحج وعكاظ سوق لقيس ومجنة وهي بفتح الميم أشهر من كسرها وبفتح الجيم وتشديد النون سوق لكنانة بمر الظهران وذو المجاز وهو بفتح الميم وبالزاي سوق لهذيل (فاذا أفضتم) دفعتم (من عرفات) وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول كما حذفوه من دفعوا من موضع كذا أي دفعوا أنفسهم واختلفوا في المعنى الذي لاجله سمي الموقف عرفات واليوم عرفة فقال عطاء كان جبريل عليه السلام يري ابراهيم

عليه الصلاة والسلام المناسك ويقول عرفت فيقول عرفت فسمى المكان لذلك عرفات واليوم عرفة وقال الضحاك كان آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط وقع فى الهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة فتعارفا فسمى المكان واليوم بماذكر وقال السدى لما أذن ابراهيم فى الناس بالحج وأجابوا بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله تعالى ان يخرج الى عرفات ونعتها له فلما بلغ الجمرة الاولى استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار ووقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان انه لا يطيعه ذهب فانطلق ابراهيم حتى اتى ذا المجاز فلما نظر اليه لم يعرفه فجاز فسمى ذا المجاز ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت فسمى المكان واليوم بما ذكر (فان قيل) هلا منعت الصرف وفيها السببان العلمية والتانيث (أجيب) بأن التانيث لا يخلو اما أن يكون بالتاء التى فى لفظها واما بتاء مقدرة كما فى سعاد فالتى فى لفظها ليست للتأنيث وانما هى مع الالف التى قبلها علامة جمع التأنيث ولا يصح تقدير التاء فيها الان هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا تقدر تاء التأنيث فى بنت لان التاء التى فيها هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها وفى الآية دليل على وجوب الوقوف بعرفة لان اذا تدل على ان المذكور بعدها محقق لا بدّ منه فكأنه قيل بعدا فاضتكم من عرفات التى لا بدّ منها اذكروا الله والافاضة من عرفات لا تكون الا بعد الوقوف بها فوجب أن يكون الوقوف بها واجبا وعن النبى صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج (فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات وقيل بصلاة المغرب والعشاء (عند المشعر الحرام) وهو جبل فى آخر المزدلفة يقال له قزح وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم وقف به يذكر الله تعالى ويدعو حتى أسفر جدا رواه مسلم وقال جابر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيأ ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان واقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام استقبل القبلة فدعا وكبر وهلل ووحد ولم يزل واقفا حتى أصبح جدا وقوله تعالى عند المشعر الحرام معناه مما يلى المشعر الحرام قريبا منه وذلك للفضل كالقرب من جبل الرحمة والا فالمزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ويسمى مشعرا من الشعار وهى العلامة لانه من معالم الحج ووصف بالحرام لحرمته وتسمى المزدلفة جمعا لانه يجمع فيها بين صلاتى المغرب والعشاء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه نظر الى الناس ليلة جمع فقال لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون وقيل سميت جمعا لان آدم اجتمع فيها مع حوّاء عليهما الصلاة والسلام وازدلف اليها أى دنا منها وقيل وصفت بفعل أهلها لانهم يزدلفون الى الله تعالى أى يتقربون بالوقوف فيها (واذكروه كما هداكم) لمعالم دينه ومناسك حجه والكاف للتعليل (وان كنتم من قبله) أى الهدى (لمن الضالين) أى الجاهلين بالايمان والطاعة وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة وقيل ان هى النافية واللام بمعنى الا كقوله تعالى وان نظنك لمن الكاذبين أى ما نظنك الا من

الكاذبين

الكاذبين (ثم أفيضوا) ياقريش (من حيث أفاض الناس) وذلك أنهم وحلفاءهم ومن دان بدينهم وهم الحمس كانوا يقفون بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم ويقولون نحن أهل الله وقطان حرمه ولانخرج منه فأمروا أن يساووهم وثم للترتيب فى الذكر وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره فمن فرض فيهن الحج فلارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وقيل لتفاوت مابين الافاضتين أى لتراخى الثانية عن الاولى رتبة اذ الاولى هى الصواب والثانية خطأ كما فى قولك أحسن الى الناس ثم لاتحسن الى غير كريم فانك تأتى بثم لتفاوت مابين الاحسان الى الكريم والى غيره وبعد مابينهما وقيل ثم بمعنى الواو كما فى قوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا (واستغفروا الله) من ذنوبكم فى تغييرالمناسك وغيره (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفرو ينعم عليه (فاذا قضيتم) أى أديتم (مناسككم) أى عبادات حجكم كان رميتم جمرة العقبة وطفتم واستقررتم بمنى وأدغم أبو عمرو الكاف فى الكاف بخلاف عنه ولم يدغم مثلين من كلمة فى القرآن الاهنا وفى سورة المدثر وهو قوله تعالى ماسلككم فى سقر (فاذكروا الله) بالتكبير والتحميد والثناء عليه (كذكركم أباءكم) وذلك ان العرب كانت اذا فرغت من الحج وقفت بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدون فضائل ابائهم ويذكرون محاسن أيامهم فأمرهم الله تعالى بذكره وقال فاذكرونى فانا الذى فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت اليكم واليهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك ان الصبى أول مايتكلم يلهج بذكر أبيه لايذكر غيره فقال الله تعالى فاذكروا الله لاغير كذكر الصبى أباه (أو أشد ذكرا) من ذكركم اباءهم ونصب أشد على الحال المنصوب باذكروا اذلو تأخر عنه لكان صفة له (فمن الناس من يقول ربنا آتنا) نصيبنا (فى الدنيا) وهم المشركون كانوا لايسألون الله تعالى فى الحج الا الدنيا يقولون اللهم اعطنا غنما وابلا وبقرا وعبيدا وكان الرجل يقوم فيقول اللهم ان أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة كثير المال فأعطنى مثل ما أعطيته (وماله فى الآخرة من خلاق) أى نصيب لان همه مقصور على الدنيا (ومنهم) أى الناس (من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) بعدم دخولها وهم المؤمنون واختلفوا فى معنى الحسنتين فقال على رضى الله تعالى عنه الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة والحسنة فى الآخرة الجنة يدل له قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة وروى عنه أيضا أنه قال الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة وفى الآخرة الحوراء وعذاب النار المرأة السوء وقال الحسن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة والحسنة فى الآخرة الجنة وقال السدى الحسنة فى الدنيا الرزق الحلال والحسنة فى الآخرة المغفرة والثواب وأدغم أبو عمرو اللام فى الراء بخلاف عنه (أولئك) الداعون بالحسنتين (لهم نصيب) أى ثواب (مما كسبوا) أى من جنس ما كسبوا من الاعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا كقوله تعالى مما خطاياهم أغرقوا ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعا وان لكل فريق نصيبا من جنس ما كسبوا (والله سريع الحساب)

أى اذا حاسب فحسابه سريع لايحتاج الى عقد يد ولا وعى صدر ولا روية فكر قال الحسن أسرع من لمح البصر وفى الحديث يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (واذكروا الله) أى كبروه أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فى أيام معدودات) أى ايام التشريق الثلاثة وسميت معدودات لقلتهن كقوله تعالى دراهم معدودة والايام المعلومات عشر ذى الحجة آخرهن يوم النحر والتكبير فى الايام المعدودات عقب كل صلاة ولو فائتة ونافلة مشروع فى حق الحاج وغيره لكن غير الحاج يكبر من صبح يوم عرفة الى عقب عصر آخر أيام التشريق للاتباع رواه الحاكم وصحح اسناده وأما الحاج فيكبر من ظهر يوم النحر لانها اول صلاته بمنى ولا يسن التكبير عقب صلاة عيد الفطر لعدم وروده (فمن تعجل) أى استعجل بالنفر من منى (فى يومين) أى فى ثانى أيام التشريق بعد رمى جماره بعد الزوال عند الشافعى وأصحابه قال فى الكشاف وعند أبى حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (فلا اثم عليه) بالتعجيل (ومن تأخر) حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره بعد زواله عندنا وقال فى الكشاف يجوز تقديم الرمى على الزوال عند أبى حنيفة (فلا اثم عليه) بذلك أى هم مخيرون فى ذلك (فان قيل) أليس التأخير أفضل (أجيب) بأن التخيير يقع بين الفاضل والافضل كما خير المسافر بين الصوم والافطار وان كان الصوم أفضل عند عدم المشقة وقيل ان أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل آثما ومنهم من جعل المتأخر آثما فورد القرآن بنفى الاثم عنهما جميعا وذلك التخيير ونفى الاثم عن المتعجل والمتأخر (لمن اتقى) الله تعالى فى حجه لانه الحاج على الحقيقة عند الله تعالى وقال النبى صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (واتقوا الله) فى مجامع أموركم ليعبأ بكم (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم (ومن الناس من يعجبك قوله) أى يعظم فى نفسك ومنه الشئ العجيب الذى يعظم فى النفس وهو الاخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة واسمه أبى وسمى الاخنس لانه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان منافقا حلو المنظر حلو الكلام للنبى صلى الله عليه وسلم يحلف انه مؤمن به ومحب له ويقول يعلم الله انى صادق وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه وقوله تعالى (فى الحياة الدنيا) متعلق بالقول أى يعجبك ما يقوله فى أمور الدنيا وأسباب المعاش أو فى معنى الدنيا لان ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظا من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما يراد بالايمان الحقيقى والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه اذا فى الدنيا لا فى الآخرة أو يعجبك قوله فى الحياة الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الدهشة واللكنة أو لانه لا يؤذن له فى الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه (ويشهد الله على ما فى قلبه) أنه موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) أى شديد الخصومة لك ولاتباعك لعداوته لك وقال الحسن ألد الخصام أى كاذب القول وقال قتادة شديد القسوة فى المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة وفى الحديث ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم (واذا تولى)

أى انصرف عنك بعد الانة القول وحلاوة المنطق (سعى) أى مشى (فى الارض ليفسد فيها) قال ابن جرير بقطع الرحم وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك ان الاخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فاحرق زرعهم وأهلك مواشيهم وقيل واذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الارض باهلاك الحرث والنسل وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل وحكى الزجاج عن قوم ان الحرث النساء والنسل الاولاد قال وهذا ليس بمنكر لان المرأة تسمى حرثا أى ويدل له قوله تعالى فاتوا حرثكم أنى شئتم (والله لا يحب الفساد) أى لا يرضى به لان المحبة وهى ميل القلب محالة فى حقه تعالى فهى مستعملة فى حقه تعالى فى معنى الرضا (واذا قيل له اتق الله) فى فعلك (أخذته العزة) أى حملته الانفة والحمية على العمل (بالاثم) الذى يؤمر باتقائه (فحسبه) أى كافيه (جهنم) جزاء وعذابا وهى علم لدار العقاب وهو فى الاصل مرادف للنار وسميت بذلك لبعد قعرها وأصلها من الجهم وهو الكراهة والغلظ فالنون زائدة وقيل معرب نقل من العجمية الى العربية وتصرف فيه وأصله كهنام أبدلت الكاف جيما وأسقطت الالف وقوله تعالى (ولبئس المهاد) جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به تقديره جهنم والمهاد الفراش (ومن الناس من يشرى) أى يبيع (نفسه) أى يبذلها فى الجهاد أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل (ابتغاء مرضاة الله) أى طلب رضاه وقال أكثر المفسرين نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون فى رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم انى شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فاقام بمكة ما شاء الله ثم خرج الى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك أبا يحيى فقال وما ذاك فقال أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه هذه الآية فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشترى لا بمعنى يبيع ويبذل وقيل نزلت فى الزبير والمقداد بن الاسود وذلك ان كفار قريش بعثوا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة انا قد أسلمنا فابعث الينا نفرا من علماء أصحابك يعلمونا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو هريرة عشرة ومن جملتهم خبيب فقتلوهم وأسروا خبيبا قال آسره والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب والله وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وانه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ان كان الا رزقا رزقه الله خبيبا ثم أرادوا قتله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال دعونى أصلى ركعتين فتركوه حتى صلاهما ثم قال لولا أخشى أن تحسبوا ان مابى من جزع لزدت اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم انشأ يقول

ولست أبالى حين أقتل مسلما * على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم صلبوه حيا فقال اللهم انك تعلم انه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى ثم قام عقبة بن الحرث فقتله فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال أيكم ينزل خبيبا عن خشبته

وله الجنة فقال الزبير أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد فخرجا يسيران بالليل ويكمنان بالنهار حتى وصلا اليه ليلا واذا حول الخشبة أربعون من المشركين نيام فأنزله الزبير وحمله على فرسه وسارا فانتبه الكفار فلم يجدوه فأخبروا قريشا فركب منهم سبعون فلما لحقوهما قذف الزبير خبيبا فابتلعته الارض فسمي بليع الارض ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال انا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الاسود فان شئتم ناضلتكم وان شئتم نازلتكم وان شئتم انصرفتم فانصرفوا الى مكة وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يا محمد ان الملائكة لتتباهى بهذين من أصحابك فنزلت فيهما هذه الآية (والله رؤف بالعباد) حيث أرشدهم لما فيه رضاه ونزل في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم) أي الاسلام وقوله تعالى (كافة) حال من السلم لانها تؤنث كما تؤنث الحرب كما قال القائل

أبا خراشة أما أنت ذا نفر * فان قومي لم تأكلهم الضبع
في السلم تأخذ منا ما رضيت به * والحرب تكفيك من أنفاسها جزع

أي ادخلوا في جميع شرائعه وذلك انهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحوم الابل وألبانها بعد ما أسلموا فأمروا أن يدخلوا في جميع شرائعه (ولا تتبعوا خطوات) أي طرق (الشيطان) أي تزيينه من تحريم السبت ولحوم الابل وألبانها وقرأ نافع وابن كثير والكسائي السلم بفتح السين والباقون بكسرها وتقدم الكلام في خطوات لابن عامر وقنبل وحفص والكسائي بضم الطاء (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) أي ملتم عن الدخول في جميعه (من بعد ما جاءتكم البينات) أي الحجج الظاهرة انه حق (فاعلموا ان الله عزيز) لا يعجزه شيء عن انتقامه منكم (حكيم) في صنعه *(تنبيه)* قول البيضاوي حكيم لا ينتقم الا بحق تبع فيه الزمخشري وهو مذهب المعتزلة فانهم يقولون لا ينتقم الا بقدر ما يستحقه العاصي ومذهب أهل السنة انه ينتقم ويعاقب من شاء بما شاء وان كان مطيعا اذ هو متصرف في ملكه يفعل ما يشاء بمن شاء وان لم يقع منه الانتقام الا ممن أساء وروي أن قارئا قرأ غفور رحيم بدل عزيز حكيم فسمعه اعرابي لم يقرأ القرآن فأنكره وقال ان كان هذا كلام الله فلا يذكر الغفران عند الزلل لانه اغراء عليه قوله تعالى (هل ينظرون) استفهام في معنى النفي أي ما ينتظرون (الا أن يأتيهم الله) أي أمره أو بأسه كقوله تعالى أو يأتي أمر ربك أي عذابه وقوله تعالى فجاءهم بأسنا أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى ان الله عزيز حكيم (في ظلل) جمع ظلة وهي ما أظلك (من الغمام) أي من السحاب الابيض سمي غماما لانه يغم أي يستر وانما يأتيهم العذاب فيه لانه مظنة الرحمة وهي نزول المطر فاذا جاء منه العذاب كان افظع لان الشر اذا جاء من حيث لا يحتسب كان اصعب فكيف اذا جاء من حيث يحتسب الخير (و) تأتيهم (الملائكة) فانهم الواسطة في اتيان أمره أو الآتون على الحقيقة ببأسه قال البغوي والاولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الانسان بظاهرها ويكل علمها الى الله تعالى ويعتقد أن الله تعالى منزه عن

مهمات الحوادث وعلى ذلك مضت ائمة السلف وعلماء السنة انتهى وأما أئمة الخلف فانهم يؤولون هذه الآية بنحو ما أولناه به وأمثالها بحسب المقام وهو احكم ومذهب السلف اسلم وكان مكحول ومالك والليث وأحمد يقولون فى هذا وامثاله أمروها كما جاءت بلا كيف (وقضى الامر) أى تم أمر هلاكهم وفرغ منهم ووضع الماضى موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه (والى الله ترجع الامور) فى الآخرة فيجازيهم وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم وقوله تعالى (سل) أمر للرسول أو لكل أحد (بنى اسرائيل) توبيخا (كم آتيناهم) كم استفهامية معلقة سل عن المفعول الثانى وهى ثانى مفعولى آتيناهم ومميزها (من آية) أى معجزة (بينة) أى ظاهرة فى الدلالة على صدق من جاء بها كقلب العصا حية وابراء الاكمه والابرص وفلق البحر وانزال المن والسلوى فبدلوها كفرا (ومن يبدل نعمة الله) أى ما أنعم به عليه من الآيات لانها سبب الهداية التى هى أجل النعم كفرا (من بعد ما جاءته) أى وصلته وتمكن من معرفتها (فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد عقوبة لانه ارتكب أشد جريمة وهى التبديل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى اذ ما من شئ الا وهو فاعله وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلق الله فيها من الامور البهيمية والاشياء الشهية مزين بالعرض واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى مشركى العرب أبى جهل وأصحابه وكانوا يتنعمون بما بسط لهم فى الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد (ويسخرون من الذين آمنوا) أى يستهزؤن بالفقراء من المؤمنين قال ابن عباس أراد بالذين آمنوا عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وخبابا وأمثالهم وقال قتادة نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتنعمون فى الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ويقولون انظروا الى هؤلاء الذين يزعم محمد انه يغلب بهم وقال عطاء نزلت فى رؤساء اليهود من بنى قريظة والنضير وقينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بنى قريظة والنضير بغير قتال (والذين اتقوا) أى الشرك وهم هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لانهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل السافلين أو حالهم غالبة لحالهم لانهم فى كرامة وهم فى هوان أو هم غالبون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما تطاول هؤلاء عليهم فى الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون روى عن اسامة بن زيد انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء واذا أهل الجد محبوسون الا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به الى النار وروى عن سهل بن سعد الساعدى انه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك فى هذا قال رجل من أشراف الناس هذا والله حرى ان خطب أن ينكح وان شفع أن يشفع قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك فى هذا فقال يا رسول

الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى أى حقيق ان خطب أن لا ينكح وان شفع ان لا يشفع وان قال أن لا يسمع لقوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من ملء الارض من مثل هذا (والله يرزق من يشاء) فى الدارين (بغير حساب) أى رزقا واسعا بغير تقدير فى الدنيا للكافر استدراجا كما وسع على قارون وللمؤمن ابتلاء كما وسع على عبد الرحمن بن عوف وفى الآخرة للمؤمن خاصة تفضلا (كان الناس أمة واحدة) أى متفقين على الحق روى عن أبى العالية عن كعب قال كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية أمة واحدة مسلمين ولم يكونوا أمة واحدة قط غير ذلك اليوم ثم اختلفوا بعد آدم وقال الكلبى هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاة نوح وقال قتادة وعكرمة كان الناس من وقت آدم الى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا فى زمن نوح وقال مجاهد أراد آدم وحده كان أمة واحدة سمى الواحد بلفظ الجمع لانه أصل النسل وأبو البشر ثم خلق الله حواء ونشر منهما الناس فكانوا مسلمين الى أن قتل قابيل وهابيل فاختلفوا وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كان الناس على عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمة واحدة كافرين كلهم فبعث الله ابراهيم وغيره من النبيين عليهم السلام كما قال تعالى (فبعث الله النبيين) أى اختلفوا فبعث الله وانما حذف لدلالة فيما اختلفوا فيه عليه وجملة الانبياء كما رواه الامام أحمد مرفوعا فى حديث ورد عن كعب مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور منهم فى القرآن باسمه العلم الموضوع له ثمانية وعشرون نبيا وهم آدم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ويوسف ولوط وموسى وهرون وشعيب وزكريا ويحيى وعيسى وداود وسليمان والياس واليسع وذو الكفل وأيوب ويونس ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين وذو القرنين وعزير ولقمان على القول بنبوة الثلاثة (مبشرين) من آمن وأطاع بالجنة (ومنذرين) من كفر وعصى بالنار (وأنزل معهم الكتاب) المراد به الجنس فهو بمعنى الكتب لكنه تعالى لم ينزل مع كل واحد كتابا يخصه فان أكثرهم لم يكن له كتاب يخصه وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وقوله تعالى (بالحق) حال من الكتاب أى متلبسا بالحق شاهدا به (ليحكم بين الناس) أى الله أو الكتاب أو النبى المبعوث ورجح الثانى التفتازانى وقال لا بد فى عوده الى الله من تكلف فى المعنى أى ليظهر حكمه والى النبى من تكلف فى اللفظ حيث لم يقل ليحكموا ورجح أبو حيان الاول وهو الظاهر قال والمعنى أنه أنزل الكتاب ليفصل به بين الناس ونسبة الحكم الى الكتاب مجاز كما أن اسناد النطق اليه فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق كذلك (فيما اختلفوا فيه) من الدين (وما اختلف فيه) أى الدين (الا الذين أوتوه) أى الكتاب المنزل لازالة الخلاف أى عكسوا الامر فجعلوا ما أنزل مزيلا للاختلاف سببا لاستحكام الخلاف فآمن بعض وكفر بعض (من بعد ما جاءتهم البينات) أى الحجج الظاهرة على التوحيد

ومن

ومن متعلقة باختلف وهى ومابعدها مقدم على الاستثناء فى المعنى (بغيا) من الكافرين (بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) وقوله تعالى (من الحق) بيان لما اختلفوا فيه أى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف (باذنه) أى بارادته قال ابن دريد فى هذه الآية اختلفوا فى القبلة فنهم من يصلى الى المشرق ومنهم من يصلى الى المغرب ومنهم من يصلى الى بيت المقدس فهدانا الله للكعبة واختلفوا فى الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا فى الايام فأخذت اليهود السبت والنصارى الاحد فهدانا الله للجمعة واختلفوا فى ابراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله للحق من ذلك واختلفوا فى عيسى فجعله النصارى الها فهدانا الله للحق فيه (والله يهدى من يشاء) هدايته (الى صراط مستقيم) هو طريق الحق لا يضل سالكه (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل) أى شبه (الذين خلوا من قبلكم) من المؤمنين من المحن فتصبروا كما صبروا واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال قتادة نزلت فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الاذى كما قال تعالى وبلغت القلوب الحناجر وقال عطاء لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد عليهم الامر لانهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فأنزل الله تعالى هذه الآية تطمينا لقلوبهم وقيل نزلت فى حرب أحد واختلف فى معنى أم فقال الفراء الميم صلة أى أحسبتم وقال الزجاج هى بمعنى بل أى بل حسبتم ولما بمعنى لم أى ولم يأتكم وقوله تعالى (مستهم البأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى المرض والجزع جملة مستأنفة مبينة لما قبلها (وزلزلوا) أى أزعجوا ازعاجا شديدا بما أصابهم من الشدائد (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) لتناهى الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر (متى) يأتى (نصر الله) الذى وعدناه استطالة لتأخره فأجيبوا من قبل الله (ألا ان نصر الله قريب) اتيانه وفى هذا اشارة الى أن الوصول الى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الشيخان وغيرهما حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وفى رواية لهم حجبت أى جعلت المكاره حجابا دون الجنة فمن خرقه دخلها والشهوات حجابا دون النار فمن اقتحمه دخلها وقرأ نافع يقول بالرفع على أنها حكاية حال ماضية وفائدتها تصور تلك الحال العجيبة واستحضار صورتها فى مشاهدة السامع ليتعجب منها وقرأ الباقون بالنصب (يسئلونك) يا محمد (ماذا) أى الذى (ينفقون) به والسائل كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عمرو بن الجموح الانصارى وكان شيخا فانيا ذا مال عظيم فقال يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزل (قل) لهم (ما أنفقتم من خير) أى مال قل أو كثيرا (فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى هم أولى به سأل عن المنفق فأجيب ببيان المصرف لانه أهم فان اعتداد النفقة باعتباره ولانه كان فى سؤال

عمرو وان لم يكن مذكورا فى الآية واقتصر فى بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما انفقتم من خير (وما تفعلوا من خير) انفاق وغيره (فان الله به عليم) فيجازيكم به *(تنبيه)* ليس فى الآية ما ينافى فرض الزكاة لينسخ به كما قيل لان الزكاة لا تعطى للوالدين ولا للاقربين من الاولاد وأولاد الاولاد فالآية محمولة على الانفاق على من ذكر تطوعا أو على الانفاق على الفقراء من الوالدين والاولاد وأولاد الاولاد وذلك ليس بمنسوخ (كتب) أى فرض (عليكم القتال) للكفار (وهو كره) أى مكروه (لكم) طبعا للمشقة (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم) وهو جميع ما كلفتم به فانه الموجب لسعادتكم فلعل لكم فى القتال وان كرهتموه خيرا لان فيه اما الظفر والغنيمة واما الشهادة والاجر (وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم) وهو جميع ما نهيتم عنه فان النفس تحبه وتهواه وهو يهوى بها الى الردى ففى ترك القتال وان أحببتموه شر لان فيه الذل والفقر وحرمان الاجر وانما ذكر عسى لان النفس اذا ارتاضت ينعكس الامر عليها (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأنتم لا تعلمون) ذلك فبادروا الى ما يأمركم به (يسئلونك) يا محمد (عن الشهر الحرام) المحرم روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة ليترصد عير القريش فيهم عمرو ابن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذى يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس الى معايشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الاسارى وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة وهى أول غنيمة فى الاسلام والسائلون هم المشركون كتبوا اليه تشنيعا وتعييرا وقيل أصحاب السرية قالوا يا رسول الله انا قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا الى هلال رجب فلا ندرى أفى رجب أصبناه أم فى جمادى فأنزل الله تعالى هذه الآية وأكثر الاقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله تعالى (قتال فيه) بدل اشتمال من الشهر (قل) لهم (قتال فيه كبير) أى عظيم وزرا وقد تم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال (وصد) فهو مبتدأ أى منع الناس (عن سبيل الله) أى دينه (وكفر به) أى الله (و) صد عن (المسجد الحرام) أى مكة (واخراج أهله منه) وهم النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وخبر المبتدا وما عطف عليه (أكبر) أى أعظم وزرا (عند الله) مما فعلته السرية من قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام خطأ أو بناء على الظن ومما تقرر علم أن والمسجد الحرام معطوف على سبيل الله وقول البيضاوى ولا يحسن عطفه على سبيل الله لان عطف قوله تعالى وكفر به على وصد مانع منه مجاب عنه بأن الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لا فصل بالاجنبى بين سبيل الله وما عطف عليه ويصح أيضا أن يكون معطوفا على الهاء من به اذ يجوز العطف بدون اعادة الجار كما جرى

عليه ابن مالك وان كان مذهب البصريين خلافه وجرى عليه البيضاوى (والفتنة) أى الشرك منكم (أكبر من القتل) لكم فيه فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس الى مؤمنى مكة اذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر واخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت (ولا يزالون) أى الكفار (يقاتلونكم) أيها المؤمنون (حتى يردوكم عن دينكم) الى الكفر فى ذلك اخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى للتعليل لا للغاية كما قيل لانه أفيد من حيث ان فيه ذكر الحامل على المقاتلة بخلاف الغاية أى يقاتلونكم كى يردوكم وقوله تعالى (ان استطاعوا) فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه ان ظفرت بى فلا تبق على وهو واثق بأنه لا يظفر به (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى الصالحة (فى الدنيا والآخرة) فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها والتقييد بالموت يفيد أنه لو رجع الى الاسلام لم يبطل عمله كما هو مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه خلافا لابى حنيفة رضى الله تعالى عنه حيث قال ان الردة تحبط الاعمال مطلقا لقوله تعالى ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله (وأجيب) بأنه محمول على المقيد عملا بالدليلين فلا يجب عليه أن يعيد الحج الذى أتى به قبل الردة وكذا غيره لكن يبطل ثوابه كما نص عليه الشافعى رضى الله تعالى عنه وان خالف فيه بعض المتأخرين (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) كسائر الكفرة ولما ظن السرية أنهم ان سلموا من الاثم فلا يحصل لهم أجر أنزل الله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هاجروا) أى فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم (وجاهدوا) المشركين (فى سبيل الله) لاعلاء دينه وكرر سبحانه وتعالى الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد وكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء (أولئك يرجون رحمة الله) أى ثوابه أثبت لهم الرجاء اشعارا بان العمل غير موجب ولا قاطع فى الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم (والله غفور) للمؤمنين لما فعلوه خطأ وقلة احتياط (رحيم) بهم بأن يجزل لهم الاجر والثواب (يسئلونك عن الخمر والميسر) روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا كان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال يومئذ ثم ان عمر ومعاذا فى نفر من الصحابة قالوا أفتنا فى الخمر يا رسول الله فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم ان عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا فحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلى بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا الى آخر السورة بحذف لا فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فحرم السكر فى أوقات الصلاة فتركها قوم وقالوا لا خير فى شئ يحول بيننا وبين الصلاة وتركها قوم فى أوقات الصلاة وشربوها فى غير وقتها حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحو اذا جاء وقت الظهر ثم ان عتبان بن مالك صنع طعاما ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبى وقاص رضى الله

تعالى عنه وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى اشتدت فيهم ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الاشعار فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للانصار وفخر لقومه فأخذ رجل من الانصار لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا له الانصارى فقال عمر اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله تعالى عنه انتهينا يارب قال القفال الحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب ان القوم كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم به كثيرا فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم فاستعمل فى التحريم هذا التدريج والرفق وسمى عصير العنب والتمر اذا اشتد وغلا خمرا لانه يخمر العقل كما سمى سكرا لانه يسكره أى يحجزه وهو حرام مطلقا وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء وقال أبو حنيفة نقيع الزبيب والتمر اذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه مادون السكر وسمى القمار ميسرا لانه أخذ مال الغير بيسر والمعنى يسئلونك عن تعاطيهما القوله تعالى (قل) لهم (فيهما) أى فى تعاطيهما (اثم كبير) أى عظيم لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة والباقون بالباء الموحدة (ومنافع للناس) باللذات والفرح ومصادقة الفتيان وتشجيع الجبان وتوفر المروأة وتقوية الطبيعة فى الخمر واصابة المال بلا كد فى الميسر (واثمهما) أى ما ينشأ عنهما من المفاسد (أكبر) أى أعظم (من نفعهما) المتوقع منهما ولذا قيل ان هذا هو المحرم للخمر فان المفسدة اذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل والظاهر أن المحرم لها آية المائدة كما مر (ويسئلونك) يا محمد (ماذا ينفقون) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى (قل) لهم (العفو) قرأ أبو عمرو برفع الواو بتقدير هو والباقون بنصبها بتقدير انفقوا واختلفوا فى معنى العفو وهو نقيض الجهد فقيل ان ينفق ما لا يبلغ انفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع كما قال الشاعر

خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وسورة الغضب شدته وحدته وقال قتادة وعطاء والسدى هو ما فضل عن الحاجة وكانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية وقال مجاهد معناه التصدق عن ظهر غنى روى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض الغنائم فقال خذها منى صدقة فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم حتى كرر مرارا فقال هاتها مغضبا فأخذها فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه ثم قال يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول قال ابن الاثير والظهر قد يزاد فى مثل هذا اشباعا للكلام وتمكينا كأن صدقته مستندة الى ظهر قوى من المال وقال عمرو بن دينار الوسط من غير اسراف ولا اقتار كما قال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (كذلك) كما بين لكم ما ذكر (يبين الله لكم الآيات) قال الزجاج انما قال كذلك على

الواحد

الواحد وهو يخاطب جماعة لان الجماعة معناها القبيل كأنه قيل كذلك أيها القبيل وقيل
هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لان خطابه يشتمل على خطاب الامة كقوله تعالى يا أيها النبي
اذا طلقتم النساء (لعلكم تتفكرون في) زوال (الدنيا) وفنائها فتزهدوا فيها (و) في اقبال
(الآخرة) وبقائها فترغبوا فيها (ويسئلونك) يا محمد (عن اليتامى) وقدمنا أنهم جمع يتيم
وان اليتيم طفل لا أب له قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما نزل قوله تعالى ولا تقربوا مال
اليتيم الا بالتي هي أحسن وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية تحرج المسلمون
من اموال اليتامى تحرجا شديدا فان واكلوهم يأثموا وان عزلوا مالهم من مالهم وصنعوا لهم
طعاما وحدهم فحرج فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى
(قل اصلاح لهم) أي اليتامى في أموالهم بتنميتها ومداخلتكم معهم (خير) من مجانبتكم
(وان تخالطوهم) أي تخلطوا نفقتهم بنفقتكم (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم في الدين ومن
شأن الاخ أن يخالط أخاه أي فلكم ذلك وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة (والله يعلم المفسد)
لاموالهم بمخالطته (من المصلح) بها فيجازي كلا منهما ففي ذلك وعيد ووعد لمن خالطهم لافساد
واصلاح (ولو شاء الله لاعنتكم) أي لضيق عليكم بتحريم المخالطة وما أباح لكم مخالطتهم
وأصل العنت الشدة والمشقة ومعناه كلفكم في كل شئ ما يشق عليكم (ان الله عزيز) غالب
على أمره يقدر على الاعنات وغيره (حكيم) يحكم بما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة
(ولا تنكحوا) أي لا تتزوجوا أيها المسلمون (المشركات) أي الكافرات (حتى يؤمن) روى
أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين
سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت
يا مرثد ألا تخلو فقال لها ويحك يا عناق ان الاسلام قد حال بيننا وبينك فقالت هل لك أن تتزوج
بي فقال نعم ولكن استأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع اليه قال يا رسول الله أيحل لي
أن أتزوج بها فأنزلت هذه الآية هذا ما أورده الواحدي وغيره ولكن الذي رواه أبو داود
وغيره انه سبب في نزول آية النور الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة الآية والآية وان كانت
شاملة للكتابيات لكنها مخصوصة بغيرهن بقوله والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وقد تزوج
عثمان بنصرانية فأسلمت وتزوج حذيفة بيهودية وطلحة بن عبيد الله بنصرانية (فان قيل)
كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر الا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال أبو الحسن بن
فارس لانه يقول القرآن كلام غير الله ومن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله
انتهى وقال تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله سبحانه
عما يشركون (ولامة مؤمنة خير من) أي من حرة (مشركة ولو أعجبتكم) لجمالها ومالها
نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة يا خنساء قد ذكرت في الملا
الاعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوج بها وقال السدي نزلت في عبد الله بن رواحة
كان له أمة فأعتقها وتزوج بها فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه

حرة مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) أى ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا وهذا على عمومه باجماع (ولعبد مؤمن خير من) أى من حر (مشرك ولو أعجبكم) لماله وجماله وقيل المراد بالامة والعبد المرأة والرجل حرين كانا أو رقيقين لان الناس عبيد الله واماؤه (أولئك) أى أهل الشرك (يدعون الى النار) أى الى الكفر المؤدى الى النار فلا تليق مصاهرتهم وموالاتهم (والله يدعو) أى أولياؤه المؤمنون فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه تفخيما لشأنهم أو يدعو على لسان رسله وهذا كما قال أبو حيان أبلغ فى التباعد من المشركين اجراء للفظ على ظاهره والاول ذكر لطلب المعادلة بين المشركين والمؤمنين (الى الجنة والمغفرة) أى العمل الصالح الموصل اليها فهم الاحقاء بالمواصلة (باذنه) أى بأمر الله ورضاه على التفسير الاول أو بقضائه وارادته على التفسير الثانى فتجب اجابته بتزويج أوليائه (ويبين) أى الله (آياته للناس لعلهم يتذكرون) أى لكى يتذكروا فيتعظوا (ويسئلونك) يا محمد (عن المحيض) أى الحيض أو مكانه ماذا يفعل بالنساء فيه روى ان أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيض ولم يؤاكلوهن كفعل اليهود فان اليهود كانت اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيت واستمر ذلك الى أن سأل أبو الدحداح فى نفر النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الله تعالى (قل) لهم (هو) أى الحيض أو مكانه (أذى) قذر أو محله قذر (فان قيل) لماذا ذكر الله تعالى يسئلونك بغير واو ثلاثا ثم بها ثلاثا (أجيب) بأن السؤالات الاول كانت فى أوقات متفرقة والثلاثة الاخيرة كانت فى وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع وهو واو العطف وهى الجمع فى الحكم لا الزمان (واعترض) هذا الجواب بأنه كان يجب على هذا أن تدخل الواو على اثنين من الثلاثة الاخيرة لان العطف يكون فى الثانية والثالثة منها (وأجيب) بأنهم لما سألوا عما كانوا ينفقون فأجيبوا بمصرف النفقة أعادوا سؤالهم بالواو وما ينفقون فأجيبوا بالعفو ولما كان السؤال الثانى عن مخالطة اليتامى فى النفقة وهو مناسب لما قبله عطف بالواو ولما كان الثالث سؤالا عن اعتزال الحيض كما تعتزل اليتامى فناسب ما قبله فى الاعتزال عطف بالواو ولا كذلك الثلاثة الاول اذ لا تعلق بينها (فاعتزلوا النساء) أى اتركوا وطأهن (فى المحيض) أى وقته أو مكانه لان ذلك هو الاقتصاد بين افراط اليهود وتفريط النصارى فانهم كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض وما استدل به البيضاوى من قوله صلى الله عليه وسلم انما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن اذا حضن ولم نأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم قال شيخنا القاضى زكريا لم أره بهذا اللفظ فى بعض التفاسير لغيره وقوله تعالى (ولا تقربوهن) أى بالجماع (حتى يطهرن) تأكيد للحكم وبيان لغايته وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحا قراءة شعبة وحمزة والكسائى بتشديد الطاء والهاء أى يتطهرن بمعنى يغتسلن والباقون بسكون الطاء وضم الهاء مخففة والتزاما قوله تعالى (فاذا تطهرن فأتوهن) أى للجماع فانه يقتضى تأخر جواز الاتيان عن الغسل وقال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ان طهرت لاكثر الحيض وهو

عنده عشرة أيام جاز قربانها قبل الغسل (من حيث أمركم الله) بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تعدوه الى غيره أما الملامسة فيما عدا ما بين السرة والركبة والمضاجعة معها قبل الغسل ولو قبل انقطاع الحيض فجائز قالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان يأمرنى صلى الله عليه وسلم فأتزر فيباشرنى وأنا حائض وكان يخرج رأسه الى وهو معتكف فأغسله وأنا حائض وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت حضت وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الخميلة فانسللت فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتى فلبستها فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفست قلت نعم فدعانى فأدخلنى معه فى الخميلة (ان الله يحب) أى يثيب ويكرم (التوابين) من الذنوب (ويحب المتطهرين) أى المتنزهين عن الفواحش والاقذار كمجامعة الحائض والاتيان فى غير القبل (نساؤكم حرث لكم) أى مزرع ومنبت للولد كالارض للنبات (فأتوا حرثكم) أى محله وهو القبل (أنى) أى كيف (شئتم) من قيام وقعود واضطجاع واقبال وادبار روى الشيخان ان اليهود كانوا يقولون من جامع امرأته من دبرها أى من خلفها فى قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (وقدموا لانفسكم) من الاعمال الصالحة كالتسمية عند الجماع وطلب الولد أى ما يدخر لكم من الثواب (واتقوا الله) فى أمره ونهيه (واعلموا أنكم ملاقوه) بالبعث فتزودوا ما لا تفتضحون به فانه يجازيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) بالكرامة والنعيم الدائم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصحهم ويبشر من صدقه وامتثل أمره منهم وقوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض فى حديث الافك لافترائه على عائشة رضى الله تعالى عنها أو فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنه أى زوج أخته بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته فالعرضة كل ما يعرض فيمنع عن الشئ أى لا تجعلوا الحلف بالله سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم الى صلة رحم أو بر فيقول حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه فى ترك البر كما قال تعالى (أن تبروا) أى مخافة أن لا تبروا فهو فى موضع نصب مفعول من أجله وعند الكوفيين لئلا تبروا كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أى لئلا تضلوا وقال أبو اسحق فى موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف أى أن تبروا وتتقوا خير لكم وقيل التقدير فى أن تبروا فلما حذف حرف الجر نصب وقيل هو فى موضع جر بالحرف المحذوف (وتتقوا وتصلحوا بين الناس) فتكره اليمين على ذلك ويسن فيه الحنث ويكفر لما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بيمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير بخلافها على فعل البر ونحوه فهى طاعة (والله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوالكم (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (فى أيمانكم) واللغو كل مطروح من الكلام لا يعتد به واختلف أهل العلم فى اللغو فى اليمين المذكورة فى الآية فقال قوم هو ما سبق الى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لغو اليمين كقول الانسان

لا والله وبلى والله ورفعه بعضهم وبهذا قال الشافعى رضى الله عنه وقال قوم هو أن يحلف على شئ يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه وقال زيد بن أسلم هو دعاء الرجل على نفسه كقول الانسان أعمى الله بصرى اذا لم أفعل كذا وكذا فهذا اللغو لا يؤاخذ الله به قال تعالى ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وقال تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى قصدتمه من الايمان اذا حنثتم (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربصا للتوبة * (تنبيه) * اليمين لا ينعقد الا بالله العظيم أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فاليمين بالله كأن يقول والذى أعبده والذى نفسى بيده وبأسمائه كأن يقول والله والرحمن وبصفاته كأن يقول وعزة الله وعظمة الله وجلال الله فاذا حلف بشئ من ذلك على أمر مستقبل ثم حنث وجبت عليه الكفارة وسيأتى بيانها ان شاء الله تعالى فى سورة المائدة واذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن وهو عالم به حالة ما حلف فهى اليمين الغموس وهى من الكبائر ويجب بها الكفارة كما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال بعض العلماء لا كفارة فيها كأكثر الكبائر وأما الحلف بغير ما ذكر كالحلف بالكعبة وبيت الله ونبى الله أو بأبيه ونحوه فلا يكون يمينا ولا تجب به الكفارة اذا حنث وهو يمين مكروه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر وهو يسير فى ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت (للذين يؤلون من نسائهم) أى يحلفون أن لا يجامعوهن والايلاء الحلف وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدى بمن قال قتادة كان الايلاء طلاقا لاهل الجاهلية وقال سعيد بن المسيب كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية كان الرجل لا يحب المرأة ولا يريد أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها أبدا لا أيما ولا ذات بعل وكانوا عليه فى ابتداء الاسلام فضرب الله لهم أجلا فى الاسلام كما قال تعالى (تربص) أى انتظار (أربعة أشهر) أى للمولى حق التثبت فى هذه المدة فلا يطالب بفيئة ولا طلاق ولذا قال الشافعى رضى الله تعالى عنه لا ايلاء الا فى أكثر من أربعة أشهر ويؤيده (فان فاؤا) أى رجعوا فى المدة أو بعدها عن اليمين الى الوطء لان الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الايلاء وحصول التربص فلا بد أن يكون مدخول الفاء واقعا بعدهما (فان الله غفور) لهم ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف (رحيم) بهم (وان عزموا الطلاق) أى صمموا عليه بأن لم يفيؤا فليوقعوه (فان الله سميع) لقولهم (عليم) بعزمهم أى ليس لهم بعد تربص ما ذكر الا الفيئة أو الطلاق ففيه دليل على أنها لا تطلق بمضى المدة ما لم يطلقها زوجها لانه شرط فيه العزم وقال فان الله سميع فدل على أنه يقتضى مسموعا والقول هو الذى يسمع وقال بعض العلماء اذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طلقة بائنة وهو قول ابن عباس وأصحاب الرأى وقال سعيد بن المسيب والزهرى يقع عليه طلقة واحدة رجعية ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون موليا بل حالفا اذا وطئها قبل مضى تلك المدة وجبت عليه كفارة يمين ان كان الحلف بالله ولا يختص الايلاء بالحلف

بالله تعالى فلو قال لزوجته ان وطئتك فعبدى حر او ضرتك طالق أو لله على عتق رقبة أو صوم أو صلاة فهو مول لان المولى من يلزمه أمر يمتنع بسببه من الوطء (والمطلقات يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن) عن النكاح (ثلاثة قروء) تمضى من حين الطلاق جمع قرء بفتح القاف وضمها وهو يطلق للحيض لقوله عليه الصلاة والسلام كما رواه أبوداود وغيره دعى الصلاة أيام اقرائك وللطهر الفاصل بين حيضتين وهو المراد فى الآية لانه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قال به بعض العلماء لقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن أى وقت عدتهن والطلاق المشروع لا يكون فى الحيض وأما ما رواه أبوداود والترمذى وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان فلا يقاوم ما رواه البخارى فى قصة ابن عمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى امر الله تعالى ان تطلق لها النساء أى بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن (فان قيل) ما معنى ذكر الانفس فهلا قيل يتربصن ثلاثة قروء (أجيب) بأن فى ذكر الانفس تهييجا لهن على التربص وزيادة بعث لان فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن وذلك أن نفس النساء طوامح أى نواظر الى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص وكان القياس فى جمع قرء ان يذكر بصيغة القلة التى هى الاقراء ولكنهم يتوسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر ألا ترى الى قوله بأنفسهن وما هى الانفوس كثيرة قال البيضاوى ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الاقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناء الكثرة ووجوب ذلك فى المدخول بهن أما غيرهن فلا عدة لهن لقوله تعالى وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها وفى غير الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة اشهر والحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن كما فى سورة الطلاق والاماء فعدتهن قرآن بالسنة (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) من الولد ان كانت حاملا ومن الحيض ان كانت حائضا (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) قال البيضاوى ليس المراد تقييد نفى الحل بايمانهن بل التنبيه على أنه ينافى الايمان أى كماله وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغى له أن يفعل (وبعولتهن) أى أزواج المطلقات والبعولة جمع بعل والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤولة ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به مبالغة كما فى رجل عدل أو أقيم مقام المضاف المحذوف أى وأهل بعولتهن (أحق بردهن) أى بمراجعتهن (فى ذلك) أى فى زمن التربص (فان قيل) كيف جعلوا أحق بالرجعة فكان للنساء حقا فيها (أجيب) بأن أفعل ههنا بمعنى الفاعل فان غير البعل لا حق له فى الرد فكأنه قيل وبعولتهن حقيقون بردهن وقيل انه على بابه للتفضيل أى أحق منهن بأنفسهن لو أبين الرد أو من آبائهن وسمى الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته وأصل البعل السيد والمالك (ان أرادوا) أى البعولة (اصلاحا) بالرجعة لا اضرار المرأة وليس المراد من هذا الاشتراط قصد الاصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرار والصارف عن اعتبار مفهوم هذا الشرط الاجماع

(ولهن) على الازواج (مثل الذى) لهم (عليهن) من الحقوق (بالمعروف) شرعا من حسن العشرة وترك الضرر ونحو ذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه ما فى معنى ذلك انى أحب أن أتزين لامرأتى كما تحب أن تتزين لى لهذه الآية وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم (فان قيل) ما المراد بالمماثلة (أجيب) بأن المراد أن لهن حقوقا على الرجال مثل حقوقهم عليهن فى الوجوب واستحقاق المطالبة عليها الا فى الجنس اذ ليس الواجب على كل منهما من جنس ما وجب على الآخر فلو غسلت ثيابه أو خبزت له لم يلزمه أن يفعل مثل ذلك ولكن يقابلها بما يليق بالرجال (وللرجال عليهن درجة) أى فضيلة فى الحق لان المرأة تنال من الرجل من اللذة مثل ما ينال الرجل وله الفضيلة بقيامه عليها وانفاقه فى مصالحها ولان حقوقهم فى أنفسهن بالوطء والتمتع وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار وقيل بصلاحيته للامارة والقضاء والشهادة وقيل بالجهاد وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالعقل (والله عزيز) فى ملكه قادر على الانتقام ممن خالف الاحكام (حكيم) فيما دبره لخلقه يشرعها لحكم ومصالح (الطلاق) أى التطليق كالسلام بمعنى التسليم اى الذى يراجع به (مرتان) أى اثنتان روى عن عروة بن الزبير قال كان الناس فى الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد كان الرجل يطلق امرأته فاذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها كذلك ثم راجعها بقصد مضارتها فنزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل أين الثالثة فقال صلى الله عليه وسلم أو تسريح باحسان (فامساك) أى فعليكم امساكهن اذا راجعتموهن بعد الطلقة الثانية (بمعروف) وهو كل ما يعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) بالطلقة الثالثة أو بأن لا يراجعها حتى تبين منه *(تنبيه)* اختلف العلماء فيما اذا كان أحد الزوجين رقيقا فذهب الاكثر ومنهم الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحر يملك على زوجته الامة ثلاث طلقات والعبد لا يملك على زوجته الحرة الا طلقتين وذهب الاقل ومنهم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه الى ان الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق كالعدة فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلقات ولا يملك الحر على زوجته الامة الا طلقتين (ولا يحل لكم) أيها الازواج (أن تأخذوا مما آتيتموهن) من المهور (شيأ) اذا طلقتموهن روى أنها نزلت فى جميلة أخت عبد الله بن أبى ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فشكته الى أبيها فقال ارجعى الى زوجك فانى أكره للمرأة ان لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها فلما رأت أباها لم يشكها رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل خلفه فجاء فقال له مالك ولاهلك فقال والذى بعثك بالحق نبيا ما على وجه الارض أحب الى منها غيرك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولين فقالت هو من أكرم الناس حبا لزوجته ولكن لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شئ والله لا أعيبه فى دين ولا خلق ولكن أكره الكفر فى الاسلام ما أطيقه بغضا أى أكره ان أقيم عنده ان أقع فيما يقتضى الكفر بغضا فيه ويحتمل أن تريد كفران العشرة انى رفعت

جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال ثابت قد أعطيتها حديقة فقل لها فلترد ها على وأخلى سبيلها فقال لها اتردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل وفى رواية اقبل الحديقة وطلقها تطليقة (الا أن يخافا) أى الزوجان (أن لا يقيما حدود الله) أى لا يأتيا بما حده لهما من الحقوق وقرأ حمزة يخافا بضم الياء بالبناء للمفعول فان مع صلتها بدل اشتمال من الضمير فى يخافا والباقون بفتحها بالبناء للفاعل (فان خفتم) أيها الائمة والحكام (أن لا يقيما حدود الله) أى ما حده من الاحكام (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) نفسها من المال ليطلقها أى لا حرج على الزوج فى أخذه ولا على الزوجة فى بذله وهذا هو الاصل والا فيجوز على عوض وان لم يخافا *(تنبيه)* علم مما تقرر أن الخطاب فى الاول للزوجين وثانيا للائمة والحكام ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره ويجوز أن يكون الخطاب كله للائمة والحكام ولا ينافى ذلك قوله تعالى ان تأخذوا مما آتيتموهن شيأ لانهم الذين يأمرون بالاخذ والايتاء عند الترافع اليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون (تلك) أى الاحكام المذكورة (حدود الله) وهى ما منع الشرع من المجاوزة عنه (فلا تعتدوها) أى فلا تتعدوها بالمخالفة وقوله تعالى (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) تعقيب للنهى بالوعيد مبالغة فى التهديد *(تنبيه)* ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق ولا بجميع ما ساق الزوج اليها فضلا عن الزائد ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقى أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس أى ضرر فحرام عليها رائحة الجنة وما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجميلة أتردين عليه حديقته فقالت أردها وأزيد عليها فقال عليه الصلاة والسلام أما الزائد فلا فالجمهور استكرهوا الخلع ولكن نفذوه فان المنع عن العقد لا يدل على فساده وانه يصح بلفظ المفاداة فانه سماه افتداء (فان طلقها) أى الزوج بعد الثنتين (فلا تحل له من بعد) أى بعد الطلقة الثالثة (حتى تنكح) أى تتزوج (زوجا غيره) أى المطلق والنكاح يتناول العقد والوطء وتعلق بظاهر الآية من اقتصر على العقد كابن المسيب والجمهور على أنه لا بد من الاصابة لما روى الشيخان ان امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقنى وان عبد الرحمن بن الزبير أى بفتح الزاى وكسر الباء تزوجنى وانما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين أن ترجعى الى رفاعة لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك فالآية مطلقة قيدتها السنة ويحتمل أن يفسر النكاح بالاصابة ويكون العقد مستفادا من لفظ الزوج والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفى قليل انتشار شبهت تلك اللذة بالعسل وصغرت ولحقتها الهاء لان الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهرى وروى انها لبثت ما شاء الله ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت ان زوجى قد مسنى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم كذبت فى قولك الاول فلن أصدقك فى الآخر فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر فقالت يا خليفة رسول الله ارجع الى زوجى الاول

فان زوجى الآخر مسنى وطلقنى فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتيتيه وقال لك ما قال فلا ترجعى اليه فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له مثل ذلك فقال لها عمر لئن رجعت اليه لارجمنك والحكمة فى التحليل الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الاكثر وجوزه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه مع الكراهة وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له رواه الترمذى والنسائى وصححه وعن عمر رضى الله تعالى عنه لا أوتى بمحلل ولا محلل له الا رجمتهما *(تنبيه)* شملت الآية الكريمة ما اذا طلق الزوج زوجته الامة ثلاثا ثم ملكها فانه لا يحل له أن يطأها بملك اليمين حتى تنكح زوجا غيره (فان طلقها) الزوج الثانى بعد ما أصابها (فلا جناح عليهما) أى المرأة والزوج الاول (أن يتراجعا) الى النكاح بعقد جديد بعد انقضاء العدة (ان ظنا) أى ان كان فى ظنهما (أن يقيما حدود الله) أى ما حدده الله وشرعه من حقوق الزوجية هذا هو الاصل والا فهو ليس بشرط للجواز ولم يقل ان علما أنهما يقيمان لان اليقين مغيب عنهما لا يعلمه الا الله قال فى الكشاف ومن فسر الظن هنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى لانك لا تقول علمت أن يقوم زيد ولكن علمت أنه يقوم ولان الانسان لا يعلم ما فى الغد وانما يظن ظنا (وتلك) أى الاحكام المذكورة (حدود الله يبينها لقوم يعلمون) أى يتدبرون ما أمرهم الله تعالى به ويفهمونه ويعملون بمقتضى العلم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى قاربن انقضاء عدتهن ولم يرد انقضاء العدة حقيقة لان العدة اذا انقضت لم يكن للزوج امساكها فالبلوغ ههنا بلوغ مقاربة وفى قوله تعالى بعد ذلك فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين يقال بلغ المدينة اذا قرب منها واذا دخلها (فامسكوهن) بان تراجعوهن (بمعروف) من غير ضرار وقيل بأن يشهد على رجعتها وان يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيكن أملك بأنفسهن (ولا تمسكوهن) بالرجعة وقوله تعالى (ضرارا) مفعول له (لتعتدوا) أى لا تقصدوا بالمراجعة المضارة بتطويل الحبس نزلت هذه الآية فى رجل من الانصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى اذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها بقصد مضارتها (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى أضر بها بتعريضها الى عذاب الله وقرأ أبو الحرث الليث بادغام اللام من يفعل فى الذال حيث جاء والباقون بالاظهار (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أى مهزوأ بها بمخالفتها لان كل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقيل كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول كنت ألعب فنزلت وروى عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال ثلاث جدهن جد وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة (واذكروا نعمت الله عليكم) التى من جملتها الاسلام والايمان وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وما أنزل عليكم من الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة أفردهما بالذكر اظهارا لشرفهما وذكرهما مقابلتها بالشكر والقيام بحقوقها (يعظكم به) أى بما أنزل عليكم ليدعوكم به الى دينه (واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شئ عليم) لا يخفى عليه شئ ففى ذلك تأكيد وتهديد (واذا

طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى انقضت عدّتهن (فلا تعضلوهن) أى تمنعوهن من (أن ينكحن أزواجهن) أى المطلقين لهن وعن الشافعى رضى الله تعالى عنه دل سياق الكلامين أى وهما أمسكوهن الخ وفلا تعضلوهن على افتراق البلوغين فالمراد بالاول المقاربة وبالثانى الوصول كما تقرر والعضل الحبس والتضييق ومن العضل بهذا المعنى عضلت الدجاجة اذا علقت بيضتها فلم تخرج *(فائدة)* رسمت التاء فى نعمت بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء ويميلها الكسائى فى الوقف ووقف الباقون بالتاء على الرسم والمخاطب بذلك الاولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته ان ترجع الى الزوج الاول ففى الآية دليل على أن المرأة لا تزوج نفسها اذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولى فائدة ولا يعارض ذلك باسناد النكاح اليهن لانه انما أسند اليهن لتوقف النكاح على اذنهن وقيل الخطاب للاولياء والازواج وقيل للناس كلهم أى لا يوجد فيما بينكم هذا الامر فانه ان وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له وقوله تعالى (اذا تراضوا بينهم) أى الازواج والنساء ظرف لان ينكحن أو لا تعضلوهن وقوله تعالى (بالمعروف) أى بما يعرفه الشرع ويستحسنه من كونه بعقد حلال حال من ضمير تراضوا أو صفة مصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفء غير منهى عنه (ذلك) أى النهى عن العضل (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) لانه المتعظ أو المنتفع به (فان قيل) لم ان الخطاب فى قوله ذلك يوعظ به (أجيب) بأنه يجوز أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد كما فى قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ونحوه (ذلكم) أى ترك العضل (أزكى) أى انفع (لكم وأطهر) لكم ولهن من دنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما (والله يعلم) ما فيه المصلحة (وأنتم لا تعلمون) ذلك لقصور علمكم وقوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن وهو أمر استحباب لا أمر ايجاب لانه لا يجب عليهن الارضاع اذا كان يوجد من يرضع الولد لقوله تعالى فى سورة الطلاق فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن فان رغبت الام فى الارضاع فهى أولى من غيرها أما اذا لم يوجد من يرضعه فيجب عليها ارضاعه والوالدات يعم المطلقات وغيرهن وقيل يختص بالمطلقات اذ الكلام فيهن (حولين) أى عامين (كاملين) صفة مؤكدة كما فى قوله تعالى تلك عشرة كاملة لان العرب قد تسمى بعض الحول حولا وبعض الشهر شهرا كما قال الله تعالى الحج أشهر معلومات وانما هو شهران وبعض الثالث وقال تعالى فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه وانما يتعجل فى يوم وبعض يوم وقال قتادة فرض الله على الوالدات ارضاع حولين كاملين ثم أنزل التخفيف فقال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أى هذا منتهى الرضاع وليس فيما دون ذلك حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح المولود وما يعيش به (وعلى المولود له) اى الوالد (رزقهن) أى اطعام الوالدات (وكسوتهن) أجرة لهن على الارضاع اذا كن مطلقات واختلف فى استئجار الام للارضاع فجوزه الشافعى ومنعه أبو حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة نكاح

(فان قيل) لم قال تعالى المولود له دون الوالد (أجيب) بأنه تعالى انما ذكر ذلك ليعلم ان الوالدات انما ولدن لهم لان الاولاد للآباء ولذلك ينتسبون اليهم لا الى الامهات وأنشد للمأمون ابن الرشيد

فانما أمهات الناس أوعية * مستودعات وللآباء ابناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن اذا أرضعن ولدهم الا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ وقوله تعالى (بالمعروف) يفسره ما يعقبه وهو قوله تعالى (لا تكلف نفس الا وسعها) أى طاقتها فلا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه (لا تضار والدة بولدها) أى بسببه بأن تكره على ارضاعه أو تكلف فوق طاقتها (ولا) يضار (مولود له بولده) أى بسببه بأن يكلف فوق طاقته واضافة الولد الى كل منهما للاستعطاف وللتنبيه على أن الولد حقيق بأن يتفقا على استصلاحه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وتضار بضم الراء بدل من قوله لا تكلف والباقون بفتحها (وعلى الوارث) أى وارث الاب وهو الولد أى على الولى فى مال الولد (مثل ذلك) أى الذى كان على الاب للوالدة من الرزق والكسوة وقيل هو وارث الولد الذى لو مات الولد لورثه وقيل الباقى من الابوين أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اللهم متعنا باسماعنا وأبصارنا واجعلها الوارث أى الباقى منا والمعنى واجعل كلا منهما فى لزومه لنا مدة الحياة كأنه باق بعد الموت (فان أرادا) أى الوالدان (فصالا) أى فطاما له صادرا (عن تراض) أى اتفاق (منهما وتشاور) بينهما فتظهر مصلحة الولد فيه (فلا جناح عليهما) فى ذلك زاد على الحولين أو نقص وهذه توسعة بعد التحديد وانما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الولد حذرا أن يقدم أحدهما على ما يضر به لغرض أو غيره (وان أردتم) خطاب للاولياء (ان تسترضعوا) مراضع غير الوالدات (أولادكم) يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها اياه فحذف المفعول الاول للاستغناء عنه كما يقال استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته وكذلك حكم كل مفعولين يكون أحدهما عبارة عن الاول هذا ما جرى عليه الزمخشرى من أن استرضع يتعدى لمفعولين بنفسه والجمهور على أنه انما يتعدى الى الثانى بحرف الجر وتقديره هنا لاولادكم (فلا جناح عليكم) فى ذلك (اذا سلمتم) اليهن (ما آتيتم) أى أردتم ايتاءه لهن من الاجرة كقوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وانما قدر ذلك لان ما تحقق ايتاؤه لا يتصور تسليمه فى المستقبل وقوله تعالى (بالمعروف) صلة سلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الاولى والاصلح للطفل وقرأ ابن كثير بقصر همزة أتيتم من أتى اليه احسانا اذا فعله ومنه قوله تعالى انه كان وعده مأتيا أى مفعولا والباقون بالمد وهم على مراتبهم وقوله تعالى (واتقوا الله) مبالغة فى المحافظة على ما شرع فى أمر الاطفال والمراضع ثم حثهم على ذلك وهددهم بقوله تعالى (واعلموا ان الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شئ منه (والذين يتوفون) أى يموتون (منكم ويذرون) أى يتركون (أزواجا يتربصن)

أى

أى يتظرن (بأنفسهن) وهو خبر بمعنى الامر وهو أمر ايجاب أى يجب عليهن ان يتربصن بعدهم عن النكاح (أربعة أشهر وعشرا) أى عشرة أيام وكان القياس تذكير العدد بأن يؤتى فيه بالتاء ولكن لما حذف المعدود جاز فيه ذلك كما فى قوله تعالى ان لبثتم الا عشرا ثم ان لبثتم الا يوما لان قوله فى سورة طه ان لبثتم الا يوما بعد قوله ان لبثتم الا عشرا يدل على ان المراد بالعشر الايام وان ذكر بما يدل على الليالى لانهم اختلفوا فى مدة اللبث فقال بعضهم عشر وبعضهم يوم فدل على ان المقابل باليوم انما هو أيام الليالى وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان واتبعه ستا من شوال قال البيضاوى ولعل المقتضى لهذا التقدير أى بهذه المدة ان الجنين فى غالب الامر يتحرك لثلاثة أشهر ان كان ذكرا ولاربعة ان كان أنثى فاعتبر أقصى الاجلين وزيد عليه العشر استظهارا اذ ربما تضعف حركته فى المبادى فلا يحس بها أى بالحركة اه وهذا فى غير الحوامل أما هن فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق وفى غير الاماء فانهن على النصف من ذلك بالسنة وعن على وابن عباس رضى الله تعالى عنهم ان الحامل تمتد بأقصى الاجلين احتياطا وحكى عن أبى الاسود الدؤلى انه كان يمشى خلف جنازة فقال له رجل من المتوفى بكسر الفاء فقال الله وكان أحد الاسباب الباعثة لعلى رضى الله تعالى عنه على ان امره أن يضع كتابا فى النحو لكن يجوز الكسر على معنى أنه مستوف أجله ويدل له قوله تعالى والذين يتوفون بفتح الياء على قراءة شاذة نقلت عن على أى يستوفون آجالهم (فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح) أى لا حرج (عليكم) أيها الاولياء (فيما فعلن فى أنفسهن) أى من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة دون العقد فان العقد الى الولى وقيل المخاطب بذلك الائمة أو المسلمون جميعا (بالمعروف) أى بالوجه الذى لا ينكره الشرع ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكر فعلى المخاطب أن يكفهن فان قصر فعليه الجناح (والله بما تعملون خبير) عالم بباطنه كظاهره فيجازيكم عليه (ولا جناح) أى لا حرج (عليكم فيما عرضتم به) والتعريض فى الكلام ما يفهم منه السامع مراده بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لاسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا * وحسبك بالتسليم منى تقاضيا * ويسمى التلويح لانه يلوح منه ما يريده والفرق بينه وبين الكناية ان الكناية هى الدلالة على الشئ بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وهو بكسر النون حمائل السيف وكثير الرماد للمضياف (من خطبة النساء) المعتدات للوفاة والخطبة بالضم والكسر اسم الهيئة غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة للنكاح والتعريض بالخطبة مباح فى عدة الوفاة وهو أن يقول رب راغب فيك من يجد مثلك انك لجميلة وانك لصالحة وانك لعلى كريمة وانى فيك لراغب وان من غرضى ان أتزوج وان جمع الله بينى وبينك بالحلال أعجبنى ولان تزوجتك لاحسنن اليك ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه من غير أن يصرح بالنكاح فلا يقول انكحينى والمرأة تجيبه بمثله ان رغبت فيه وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته قالت دخل على أبو جعفر محمد بن على وانا فى عدتى

فقال قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدي على وقدمي في الاسلام فقلت قد غفر الله لك أتخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك فقال أو قد فعلت انما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعي قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها فلم يزل يذكر لها منزلته من الله تعالى وهو متحامل على يديه حتى أثر الحصير في يده من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة وأما عدة الفرقة في الحياة فيحل لغير صاحب العدة التعريض في غير رجعية لعدم سلطنة الزوج عليها أما التصريح فحرام اجماعا وأما الرجعية فلا يحل التعريض لها لانها في حكم الزوجة أما صاحب العدة فيحل له التعريض والتصريح ان حل له نكاحها والا فلا (أو أكننتم) أي أضمرتم (في أنفسكم) من نكاحهن فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا قال السدي هو ان يدخل فيسلم ويهدي ان شاء ولا يتكلم بشيء (علم الله أنكم ستذكرونهن) بالخطبة ولا تصبرون عنهن فأباح لكم التعريض وفيه نوع توبيخ (ولكن لا تواعدوهن سرا) أي نكاحا فالسر كناية عن النكاح الذي هو الوطء لانه مما يسر قال الاعشى

ولا تقربن جارة ان سرها * عليك حرام فانكحن أو تأبدا

وقال امرؤ القيس

الا زعمت بسباسة اليوم انني * كبرت وأن لا يحسن السر امثالي

ثم عبر بالسر الذي هو كناية عن الوطء عن عقد النكاح لان العقد سبب في الوطء وقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنية وهو يعرض بالنكاح ويقول لها دعيني فاذا وفيتي عدتك أظهرت نكاحك قاله الحسن وقيل هو أن يصف نفسه لها بكثرة الجماع كان يقول آتيك الاربعة والخمسة ونحو ذلك (فان قيل) أين المستدرك بقوله ولكن لا تواعدوهن سرا (أجيب) بأنه محذوف لدلالة ستذكرونهن عليه تقديره علم الله انكم ستذكرونهن فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا (الا أن تقولوا قولا معروفا) أي ما عرف شرعا من التعريض فلكم ذلك (فان قيل) أين المستثنى منه (أجيب) بأنه محذوف أي لا تواعدوهن مواعدة الا مواعدة معروفة غير منكرة أو الا مواعدة بقول معروف قال في الكشاف ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من سرا لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وقال البيضاوي وقيل انه استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه الى قولك لا تواعدوهن الا التعريض وهو أي التعريض غير موعود أي بل منجز سرا أي في السر على أن المواعدة في السر عبارة عن المواعدة بما يستقبح لان مسارتهن في الغالب مما يستحيا من المجاهرة به (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي على عقده وفي ذلك مبالغة في النهي عن عقد النكاح في العدة لان العزم يتقدم على العقد فاذا نهى عما يتقدمه فهو أولى بالنهي كما في قوله تعالى ولا تقربوا الزنا (حتى يبلغ الكتاب) أي المكتوب (أجله) بأن ينتهي ما فرض فيه من العدة (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) من العزم وغيره (فاحذروه) اى

خافوا

ـخـفوا عقابه (واعلموا أن الله غفور) لمن عزم ولم يفعل خوفا من الله (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء مالم تمسوهن) أى تجامعوهن (أو) لم (تفرضوا لهن فريضة) أى مهرا وما مصدرية ظرفية أى لا تبعة عليكم فى الطلاق زمن عدم المسيس والفرض باثم ولا مهر والتبعة بكسر الباء ما يتبع المال أو البدن من نوائب الحقوق وهو من تبعت الرجل بحق وقرأ حمزة والكسائى بضم التاء وألف بعد الميم والباقون بفتح التاء ولا ألف بعد الميم وقوله تعالى (ومتعوهن) عطف على مقدر لانه طلب فلا يعطف على لا جناح لانه خبر أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى ايجاب المتعة جبر ايحاش الطلاق ويسن ان لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ما قيمته ذلك واذا تراضيا بشىء فذاك وان تنازعا فى قدرها قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها كما قال تعالى (على الموسع) أى الغنى منكم (قدره) أى ما يطيقه ويليق به (وعلى المقتر) أى ضيق الرزق (قدره) أى ما يطيقه ويليق به ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لانصارى طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسها أمتعتها قال لم يكن عندى شىء قال متعها بقلنسوتك ومفهوم الآية يقتضى تخصيص ايجاب المتعة للمفوضة التى لم يمسها الزوج وألحق بها الشافعى رضى الله تعالى عنه الممسوسة المفوضة وغيرها قياسا وهو مقدم على المفهوم وقرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بفتح الدال والباقون بسكونها وقوله تعالى (متاعا) تأكيد لمتعوهن بمعنى تمتيعا وقوله تعالى (بالمعروف) أى شرعا صفة متاعا وقوله تعالى (حقا) صفة ثانية لمتاعا أى متاعا واجبا عليهم أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (على المحسنين) أى المطيعين الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال أو الى المطلقات بالتمتيع وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال عليه الصلاة والسلام من قتل قتيلا فله سلبه ترغيبا وتحريضا * ولما ذكر الله تعالى حكم المفوضة اتبعها حكم قسيمها بقوله تعالى (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) يجب لهن ويرجع لكم النصف وهو دليل على أن الجناح المنفى ثم تبعة المهر وان لا متعة مع التشطير لانه قسيمها (الا) لكن (أن يعفون) أى الزوجات فلا يأخذن شيأ (فان قيل) أى فرق بين قولك الرجال يعفون والنساء يعفون (أجيب) بأن الواو فى الاول ضميرهم والنون علم الرفع والواو فى الثانى لام الفعل والنون ضميرهن والفعل مبنى لا أثر فى لفظه للعامل وهو فى محل النصب (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وهو الزوج المالك لعقده وحله كما يعود اليه بالتشطير فيترك لها الكل وقيل هو الولى اذا كانت المرأة محجورة وهو قول قديم للشافعى وهو مروى عن ابن عباس وقوله تعالى (وان تعفوا) مبتدأ خبره (أقرب للتقوى) والخطاب للرجال والنساء جميعا لان المذكر والمؤنث اذا اجتمعا كانت الغلبة للمذكر أى وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى أن يتفضل بعضكم على بعض باعطاء الرجل تمام الصداق أو بترك المرأة نصيبها حثهما جميعا على الاحسان (ان الله بما تعملون بصير) لا يضيع فضلكم واحسانكم بل يجازيكم به (حافظوا على الصلوات) الخمس بأدائها فى أوقاتها ولعل الامر

بالصلاة انما وقع فى تضاعيف أحكام الاولاد والازواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها (والصلاة الوسطى) أى الوسطى بين الصلوات أو الفضلى من قولهم للافضل الاوسط وانما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وهى صلاة العصر على الراجح لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها واجتماع الملائكة قال صلى الله عليه وسلم يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار وقيل صلاة الصبح لانها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الجزء المشترك بينهما ولانها مشهودة تشهدها الملائكة الحفظة نص عليها الشافعى رحمه الله تعالى لكن رجح الاصحاب الاول عملا بقوله حيث صح الحديث فهو مذهبى وقيل صلاة الظهر لانها وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لانه صلى الله عليه وسلم سئل أى الاعمال أفضل فقال أحمزها وهو بحاء مهملة وزاى أقواها وأشدها وقيل صلاة المغرب لانها متوسطة بالعدد لان عددها بين عددى الركعتين والاربع وقيل صلاة العشاء لانها بين جهريتين واقعتين طرفى النهار لا يقصران وهما المغرب والصبح وقال بعضهم هى احدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد فى المحافظة على أداء جميعها كما أخفى ليلة القدر فى شهر رمضان وساعة اجابة الدعوة فى يوم الجمعة وأخفى اسمه الاعظم فى الاسماء ليحافظوا على جميعها (وقوموا لله) فى الصلاة (قانتين) أى مطيعين لقوله صلى الله عليه وسلم كل قنوت فى القرآن فهو طاعة أو ساكتين لحديث زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام رواه الشيخان وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح (فان خفتم) من عدو أو سبع أو سيل أو نحو ذلك (فرجالا) جمع راجل أى مشاة صلوا (أو ركبانا) جمع راكب أى كيف أمكن مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ويومئ بالركوع والسجود ويجعل السجود أخفض من الركوع والصلاة فى حال الخوف على أقسام وهذه صلاة شدة الخوف وسيأتى بقية الاقسام ان شاء الله تعالى فى سورة النساء ولا ينتقص عدد الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة وفى الآية دليل على وجوب الصلاة حال المقاتلة واليه ذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه لا يصلى حال المشى والمقاتلة مالم يمكن الوقوف وقال سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه اذا كنت فى القتال وضرب الناس بعضهم بعضا فقل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر واذكر الله فتلك صلاتك (فاذا أمنتم) من الخوف (فاذكروا الله) أى صلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها (كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها والكاف بمعنى مثل وما موصولة أو مصدرية (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم) قرأ نافع وابن كثير وشعبة والكسائى وصية بالرفع أى فعليهم وصية والباقون بالنصب أى فليوصوا وصية وقوله تعالى (متاعا) نصب على المصدر أى متعوهن متاعا أى ما يتمتعن به من النفقة والكسوة (الى) تمام (الحول) من

موتهم الواجب عليهن تربصه وقوله تعالى (غير اخراج) نصب على الحال أى غير مخرجات من مسكنهن نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الطائف يقال له الحكم بن الحرث هاجر الى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبى صلى الله عليه وسلم والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط امرأته شيأ وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الاسلام حولا وكان يحرم على الوارث اخراجها من البيت قبل تمام الحول وكان نفقتها وسكناها واجبة فى مال زوجها تلك السنة مالم تخرج ولم يكن لها الميراث فان خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصى بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالربع والثمن ونسخ عدة الحول بآية أربعة أشهر وعشرا السابقة (فان قيل) كيف نسخت الآية السابقة المتأخرة (أجيب) بأنها متقدمة فى التلاوة متأخرة فى النزول كما فى قوله تعالى سيقول السفهاء مع قوله قد نرى تقلب وجهك فى السماء (فان خرجن) من قبل أنفسهن قبل الحول من غير اخراج الورثة (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) شرعا كالتزين وترك الاحداد وقطع النفقة عنها خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى الى أن نسخه بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز) فى ملكه (حكيم) فى صنعه لا يسئل عما يفعل (وللمطلقات متاع) أى يعطينه (بالمعروف) بقدر الامكان وقوله تعالى (حقا) نصب بفعله المقدر (على المتقين) الله (فان قيل) لم كرر الله تعالى ذلك (أجيب) بأن ذلك لحكمة وهى أن الآية السابقة فى غير الممسوسة وهذه أعم منها فتشمل الممسوسة أيضا (كذلك) أى كما بين لكم ما سبق من أحكام الطلاق والعدد (يبين الله لكم آياته) وعد سبحانه وتعالى انه سيبين لعباده من الدلائل والاحكام ما يحتاجون اليه معاشا ومعادا (لعلكم تعقلون) أى تتدبرون فتستعملون العقل فيها وقوله تعالى (ألم تر) استفهام تعجيب وتشويق الى استماع ما بعده لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ وقد يخاطب به من لم ير ولم يسمع وهذا هنا أولى فانه صار مثلا فى التعجب أى ينته علمك (الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف) أربعة أو ثمانية أو عشرة أو ثلاثون أو أربعون أو سبعون ألفا وقوله تعالى (حذر الموت) مفعول له هم قوم من بنى اسرائيل كانوا فى قرية يقال لها داوردان جهة واسط وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى فى القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانيا لنخرجن الى أرض لا وباء بها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا ثم أحياهم الله تعالى كما قال تعالى (فقال لهم الله موتوا) أى فماتوا (ثم أحياهم) ليعتبروا ويتيقنوا ان لا مفر من قضاء الله وقدره وقيل قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام أو أكثر

ثم أحياهم بدعاء نبيهم حزقيل بكسر المهملة والقاف وسكون الزاى ثالث خلفاء بنى اسرائيل بعد موسى وكان يقال له ابن العجوز لان أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد بعدما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها قال الحسن ومقاتل هوذو الكفل وسمى حزقيل ذا الكفل لانه كفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل قال اذهبوا فانى ان قتلت كان خيرا من أن تقتلوا معى جميعا فلما جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الانبياء السبعين قال لهم ذهبوا وما أدرى أين هم ومنع الله حزقيل من اليهود فلما مر حزقيل على تلك الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم فبكى وقال يارب كنت فى قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحدى لاقوم لى فأوحى الله تعالى اليه ان نادأيتها العظام ان الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمعت العظام من أعلى الوادى وأدناه حتى التزق بعضها ببعض كل عظم جسد التزق بجسده فصارت أجسادا من عظام لالحم ولادم ثم أوحى الله تعالى اليه ان نادأيتها الاجسام ان الله يأمرك أن تكتسى لحما فاكتست لحما ثم أوحى الله اليه ان نادأيتها الاجساد ان الله يأمرك أن تقومى فبعثوا احياء ورجعوا الى بلادهم وقال مجاهد انهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا اله الا أنت فرجعوا الى قومهم وعاشوا دهرا عليهم أثر الموت لايلبسون ثوبا الا عاد كالكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم ولو جاءت آجالهم مابعثوا واستمر ذلك فى أسباطهم قال ابن عباس وأثر ذلك ليوجد اليوم فى ذلك السبط من اليهود وفائدة هذه القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء فان الموت اذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى (ان الله لذو فضل على الناس) أى عامة فليذكر كل أحد ماله عليه من الفضل (ولكن أكثر الناس لايشكرون) كما ينبغى اما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره *(تنبيه)* انما كرر الناس ولم يضمر ليكون أنص على العموم لئلا يدعى مدع أن المراد بالناس الاول أهل زمان فيخص بالثانى أكثرهم (وقاتلوا فى سبيل الله) أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا (واعلموا أن الله سميع) لاقوالكم فيسمع مايقوله المتخلفون والسابقون (عليم) بأحوالكم فيعلم ماتضمرونه فيجازيكم (من ذا الذى يقرض الله) الذى تفرد بالعظمة بانفاق ماله فى سبيل الله ومن استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء وذا خبره والذى صفة ذا أو بدل واقراض الله مثل لتقديم العمل الذى يطلب ثوابه فهو اسم لكل مايعطيه الانسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ماوعد لهم من الثواب قرضا لانهم يعملون لطلب ثوابه وأصل القرض فى اللغة القطع سمى القرض به لانه يقطع من ماله شيأ يعطيه ليرجع اليه مثله وقيل فى الآية اختصار معناه من ذا الذى يقرض عباد الله المحتاجين من خلقه كقوله تعالى ان الذين يؤذون الله أى عباد الله كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يقول يوم القيامة ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى (قرضا حسنا)

أى جامعا لطيب النفس واخلاص النية وقيل لايمن به ولا يؤذى ولما كانت النفس مجبولة على الشح بما عندها الالفائدة رغبها سبحانه وتعالى فى ذلك بقوله (فيضاعفه) أى جزاءه (له) فى الدنيا والآخرة وأول هذه المضاعفة ان الزائد ضعف ليس كسرا كان صلى الله عليه وسلم لا يقترض قرضا الاوفى عليه زيادة وقال خياركم أحسنكم قضاء وقد أنبأ سبحانه وتعالى ان اقتراضه بما هو فوق ذلك لانه ينمى القرض بمثله وأمثاله بقوله (أضعافا كثيرة) من عشر الى أكثر من سبعمائة كما سيأتى روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الانصارى يارسول الله ان الله ليريد منا القرض قال نعم يا أبا الدحداح قال ارنى يدك يارسول الله فناوله يده قال فانى قد أقرضت ربى حائطى وحائطه فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد اقرضت ربى عز وجل وقرأ ابن عامر وعاصم فيضاعفه بنصب الفاء على جواب الاستفهام حملا على المعنى فان من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فى معنى أيقرض الله أحد والباقون برفعها واسقط الالف وشدد العين ابن كثير وابن عامر والباقون باثبات الالف وتخفيف العين ولما رغب سبحانه وتعالى فى اقراضه أتبعه جملة حالية من ضمير يضاعف مرهبة مرغبة فقال (والله يقبض) أى يمسك الرزق عمن يشاء ابتلاء (ويبسط) أى يوسعه لمن يشاء امتحانا بحسب ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى وقرأ قنبل وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحمزة بالسين بخلاف عن ابن ذكوان وخلاد والباقون بالصاد والرسم بالصاد (واليه ترجعون) أى فيجازيكم على ما قدمتم (ألم تر الى الملا من بنى اسرائيل) أى الى قصتهم والملأ من القوم اشرافهم وأصل الملا الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والابل والخيل والجيش ومن للتبعيض (من بعد) موت (موسى) ومن للابتداء (اذ قالوا لنبى لهم) أكثر المفسرين على أنه شمويل قال مقاتل هو من نسل هرون وقيل هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه الصلاة والسلام وقيل هو شمعون وانما سمى بذلك لان أمه دعت الله أن يرزقها غلاما فاستجاب دعاءها فسمته شمعون تقول سمع الله دعائى والسين تصير شينا بالعبرانية وسبب سؤال بنى اسرائيل نبيهم ذلك انه لما مات موسى عليه الصلاة والسلام وخلف فى بنى اسرائيل الخلوف وعظمت الخطايا سلط الله عليهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بنى اسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من ابناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقى بنو اسرائيل منهم بلاء كثيرا وشدة ولم يكن لهم حينئذ نبى يدبر امرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم الا امرأة حبلى فحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى اسرائيل فى ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته شمعون تقول سمع الله دعائى فكبر الغلام فاسلمته لتعليم التوراة فى بيت المقدس فكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاه جبريل فقال له اذهب الى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم

كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة فان كنت صادقا (ابعث) أى أقم (لنا ملكا نقاتل) معه (فى سبيل الله) فتنتظم به كلمتنا ونرجع اليه ويكون ذلك آية من نبوتك وانما كان قوام بنى اسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم فكان الملك هو الذى يسير بالجموع والنبى يقيم له أمره ويشير عليه برشده ويأتيه بالخبر من ربه ولما قالوا له ذلك (قال) لهم (هل عسيتم) قرأ نافع بكسر السين والباقون بفتحها وقوله تعالى (ان كتب) أى فرض (عليكم القتال) مع ذلك الملك (أن لا تقاتلوا) خبر عسى والاستفهام لتقرير المتوقع بها بمعنى التثبت للمتوقع وان كان الشائع من التقرير هو الحمل على الاقرار (قالوا وما لنا ان لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) بسبيهم وقتلهم أى أى غرض لنا فى ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الاخراج عن الاوطان والافراد عن الاولاد (فلما كتب عليهم القتال تولوا) عنه وجبنوا وضيعوا أمر الله (الا قليلا منهم) وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الفرقة على ما سيأتى ان شاء الله تعالى وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم فى ترك الجهاد * (تنبيه) * هذه الاقاصيص ليس المراد منها حديثا عن الماضين وانما هو اعلام بما يستقبل الآتون كما قال القائل اياك أعنى واسمعى ياجاره فلذلك لا يسمع القرآن من لم يأخذ بجملته خطابا لهذه الامة بكل ما قص له من أقاصيص الاولين ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم ربه أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له ان صاحبكم الذى يكون ملكا يكون طوله طول هذه العصا وانظر القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل ونش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى اسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم وكان طالوت واسمه بالعبرانية شاول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب سمى طالوت لطوله وكان أطول من كل أحد أى فى زمانه برأسه ومنكبه وكان رجلا دباغا يعمل الاديم قاله وهب وقال السدى كان سقاء يستقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه وقال وهب بل ضلت حمر لابى طالوت فارسله وغلاما له فى طلبها فمرا ببيت شمويل فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبى فسألناه على أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فدخلا عليه فبينماهما عنده يذكران له شأن الحمر اذ نش الدهن الذى فى القرن فقام شمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه فدهنه بدهن القدس ثم قال له أنت ملك بنى اسرائيل الذى أمرنى الله أن أملكه عليهم فقال طالوت أما علمت أن سبطى أدنى اسباط بنى اسرائيل وبيتى أدنى بيوتهم قال بلى قال فبأى آية قال بآية أنك ترجع وقد وجدت الحمر فكان كذلك ثم أخبرهم نبيهم بذلك كما قال تعالى (وقال لهم نبيهم) الذى تقدم ذكره (ان الله قد بعث لكم) أى لاجل سؤالكم (طالوت ملكا) وهو اسم أعجمى كجالوت وداود وانما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته (قالوا أنى) أى كيف (يكون له الملك علينا) أى من أين يكون له ذلك (ونحن) أى والحال انا نحن (أحق) أى أولى (بالملك منه) وانما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام وسبط

المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ولم يكن طالوت من أحدهما انما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبا عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق جهارا فغضب الله عليهم ونزع الملك والنبوة منهم وكانوا يسمون سبط الاثم فلما قال لهم نبيهم ذلك أنكروا لانه لم يكن من سبط المملكة ومع ذلك قالوا هو دباغ (ولم) أي والحال انه لم (يؤت سعة من المال) يستعين بها على اقامة الملك ولما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك بأمور حكاها الله تعالى عن نبيهم بقوله تعالى (قال) أي نبيهم (ان الله اصطفاه) أي اختاره للملك (عليكم) والعمدة في الفلك اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم هذا الامر الاول والثاني قوله (وزاده) عليكم (بسطة) أي سعة (في العلم) الذي يحصل به نظام المملكة ويتمكن به من معرفة الامور السياسية (و) في (الجسم) الذي به يتمكن من الظفر عن بارزه من الشجعان وقصده من سائر الاقران ويكون أعظم خطرا في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد زاده الله في العلم فكان أعلم بني اسرائيل يومئذ والجسم فكان أجملهم وأتمهم خلقا كان الرجل القائم يمد يده فيتناول رأس طالوت والثالث قوله (والله يؤتي ملكه) أي الذي هو له وليس لغيره فيه شيء (من يشاء) فانه تعالى مالك الملك على الاطلاق فله أن يؤتيه من يشاء سواء كان غنيا أم فقيرا كما آتاكموه بعد ان كنتم مستعبدين عند آل فرعون والرابع قوله (والله واسع) أي واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه (عليم) بمن يليق بالملك من النسيب وغيره (وقال لهم نبيهم) لما أذعنوا لذلك وطلبوا منه آية تدل على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم (ان آية) أي علامة (ملكه أن يأتيكم التابوت) أي الصندوق وكان فيه صور الانبياء عليهم الصلاة والسلام أنزله الله تعالى على آدم صلى الله عليه وسلم وكان من عود الشمشار بمعجمتين أولاهما مكسورة وبينهما ميم ساكنة خشب تعمل منه الامشاط مموها بالذهب نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين فكان عند آدم الى أن مات ثم عند شيث ثم توارثه أولاد آدم الى أن بلغ ابراهيم ثم كان عند اسمعيل لانه كان أكبر ولده ثم عند يعقوب ثم كان في بني اسرائيل الى أن وصل الى موسى ثم تداوله أنبياء بني اسرائيل ثم استمر عند بني اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا في شيء تكلم أو حكم بينهم واذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوهم كما قال تعالى (فيه سكينة) أي طمأنينة لقلوبكم (من ربكم) ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا اليه وسكنوا قاله قتادة والكلبي فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة أصحاب جالوت فغلبوهم على التابوت وأخذوه وقال علي هي صورة لها رأس ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد هي شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الانبياء وقال وهب هي روح من الله تتكلم اذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون ولما كان الكليم وأخوه عليهما الصلاة والسلام أعظم أنبيائهم قال (و) فيه (بقية مما ترك آل موسى

وآل هرون) وآلهما أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما وقيل أبناؤهما وقيل أنبياء بنى اسرائيل لانهم أبناء عم موسى وهرون والبقية هى رضاض الالواح أى فتاتها وعصا موسى وثيابه ونعلاه وعمامة هرون وقفيز من المن الذى كان ينزل عليهم وقوله تعالى (تحمله الملائكة) حال من فاعل يأتيكم (ان فى ذلك لآية لكم) على ملكه وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) يحتمل أن يكون من كلام نبيهم وأن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى فحملته الملائكة بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت فاقروا بملكه وقيل رفعه الله تعالى بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون اليه فلما رأوه لم يشكوا فى النصر به وافاقروا بملكه وتسارعوا الى الجهاد فقال طالوت لاحاجة لى فى كل ما أرى لايخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ولا أبتغى الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع عليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت صيفا فى حر شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان المياه لاتحملنا فادعوا الله أن يجرى لنا نهرا كما قال تعالى (فلما فصل) أى خرج (طالوت) أى الذى ملكوه (بالجنود) من بيت المقدس أى التى اختارها والجنود جمع جند وهم اتباع يكونون نجدة للمستتبع (قال ان الله مبتليكم) أى مختبركم ليظهر منكم المطيع والعاصى وهو أعلم (بنهر) قال ابن عباس والسدى هو نهر فلسطين وقال قتادة نهر بين الاردن وفلسطين عذب (فمن شرب منه) أى من مائه فليس منى أى من أتباعى (ومن لم يطعمه) أى يذقه (فانه منى) أى من أتباعى وانما علم ذلك بالوحى ان كان نبيا كما قيل أو باخبار النبى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (الا من اغترف غرفة بيده) أى فاكتفى بها ولم يزد عليها فانه منى استثناء من قوله تعالى فمن شرب وانما قدمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قدم الصابئون على خبران فى قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والمعنى الرخصة فى القليل دون الكثير وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو غرفة بفتح الغين والباقون بضمها *(فائدة)* قال أبو عمرو بن العلاء سمعت أعرابيا ينشد وقد كنت خرجت الى ظاهر البصرة متفرجا لما نالنى من طلب الحجاج

صبر النفس عند كل ملم * ان فى الصبر حيلة المحتال
لاتضيقن فى الامور فقد تكشف لأواؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال *
قد يصاب الجبان فى آخر الصف وينجو مقارع الابطال

فقلت ماوراءك يا أعرابى قال مات الحجاج فلم أدر بأيهما أفرح أبموت الحجاج أم بقوله فرجة لانى كنت أطلب شاهدا لاختيار القراءة فى سورة البقرة غرفة بالضم (فشربوا منه) لما وافوه بكثرة وقوله تعالى (الا قليلا منهم) أى فاقتصر على الغرفة نصب على الاستثناء روى ان من اغترف غرفة كما أمر الله قوى قلبه وصح ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه واروته والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على

شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو واختلفوا فى عدد الذين لم يشربوا فقال البغوى الصحيح انهم ثلثمائة وبضعة عشر أى عدد أهل بدر وقال السدى كانوا أربعة آلاف ويؤيد الاول ماروى عن البراء أنه قال كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتحدث ان عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه الابضعة عشر وثلثمائة ويروى ثلثمائة وثلاثة عشر وفى هذا ايذان بأن أعظم الجيوش جيش يكون فيه من أهل الورع بعدد التابعين من أصحاب طالوت الذين كان بعددهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهم ثلثمائة وثلاثة عشر عدد المرسلين من كثرة عدد النبيين ولما كان قصص بنى اسرائيل مثلا لهذه الامة كان مبتلى هذه الامة بالنهر فابتلاهم بنهر الدنيا الجارى خلالها وفى افراد اليد ايذان بان الاخذ من الدنيا انما يكون بيد لا بيدين لاشتمال اليدين على جانبى الخير والشر (فلما جاوزه) أى النهر (هو) أى طالوت (والذين آمنوا معه) أى وهم الذين اقتصروا على الغرفة (قالوا) أى الذين شربوا (لا طاقة) أى لا قوة (لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى بقتالهم وجبنوا ولم يجاوزوه * ولما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بهذا القول نبه على أنه لا ينبغى أن يصدر ممن يظن أن أجله مقدر لا يزيد بالجبن والاحجام ولا ينقص بالجراءة والاقدام وانه يلقى الله تعالى فيجازيه على عمله وان النصر من الله لا بالقوة والعدد فقال (قال الذين يظنون) أى يوقنون (أنهم ملاقوا الله) بالبعث وهم الذين جاوزوه (كم من فئة) أى جماعة وهى جمع لا واحد له من لفظه وجمعه فئات وفئون فى الرفع وفئين فى النصب والخفض وكم يحتمل أن تكون خبرية بمعنى كثير ومن مبينة وأن تكون استفهامية ومن مؤكدة والاول أولى بقرينة المقام (قليلة) كما كان فى هذه الامة فى يوم بدر (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أى بارادته وتيسيره ثم انظر الى هذا الحال العجيب وهو انه لما ندبهم انتدب جيش لا يحصون فاشترط عليهم الشاب الفارغ من بناء دار وبناء بامرأة فلم يكن الموجود بالشرط الا ثمانين ألفا ثم امتحنوا بالنصر فلم يثبت منهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر وهم دون الثلث من ثمن العشر من المتصفين بالشرط من الذين هم دون الدون من المنتدبين الذين هم دون الدون من السائلين فى بعث الملك الخارجين معه كما قال القائل

ألم تعلم بأنى صيرفى * أحك الاصدقاء على محكى
فمنهم بهرج لا خير فيه * ومنهم من أجوزه بشك
وأنت الخالص الذهب المصفى * بتزكيتى ومثلى من يزكى

ثم بين سبحانه وتعالى أن ملاك كل ذلك الصبر بقوله (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فلا يخذل من كان معه (ولما برزوا) أى ظهروا وهم على ماهم عليه من الضعف والقلة (لجالوت) اسم للشمن ملوك الكنعانيين بالشأم فى زمن بنى اسرائيل جبار من العمالقة من أولاد عمليق ابن عاد (وجنوده) على ماهم فيه من القوة والكثرة لجؤا الى الله بالدعاء كما نبه على ذلك بقوله (قالوا ربنا أفرغ) أى اصبب (علينا صبرا وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا على الجهاد (وانصرنا

على القوم الكافرين) وفى الدعاء ترتيب بليغ اذ سألوا أولا افراغ الصبر فى قلوبهم الذى هو ملاك الامر ثم ثبات القدم فى مداحض الحرب المسبب عنه ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالبا (فهزموهم باذن الله) أى بارادته (وقتل داود جالوت) قال أهل التفسير عبر النهر مع طالوت فيمن عبر ايشا أبو داود فى ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم فأرسل جالوت الى طالوت ان ابرز الى أو أبرز من يقاتلنى فان قتلنى فلكم ملكى وان قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته ملكى فهابوا لقاء جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله تعالى فدعا فى ذلك فأوحى الله تعالى اليه ان فى ولد ايشا من يقتل الله تعالى به جالوت وكان داود أصغرهم يرعى الغنم فأوحى الله تعالى الى نبيهم انه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأناصفك ملكى قال نعم قال آنست من نفسك أن تقوى به قال نعم أنا أرعى فيجىء الاسد فيأخذ شاة فاقوم اليه وأفتح لحييه عنها وأشقهما الى قفاه فمر داود فى الطريق فكلمه ثلاثة أحجار وقالت له انك تقتل جالوت بنا فحملها فى مخلاته فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة وكان من أشد الناس وأقواهم كان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلثمائة رطل حديد انتدب له داود وأخذ مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت فلما نظر الى داود ألقى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز لى قال نعم وكان جالوت على فرس ابلق عليه السلاح التام فقال اتيتنى بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب قال نعم أنت شر من الكلب قال لا جرم لأقسمن لحمك بين سباع الارض وطير السماء قال داود أو يقسم الله لحمك فقال داود باسم اله ابراهيم وأخرج حجرا ثم أخرج الآخر وقال باسم اله اسحق ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال بسم اله يعقوب ووضعه فى مقلاعه فصارت كلها حجرا واحدا ودور المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله تعالى الجيش وخر جالوت قتيلا فأخذه داود يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت وفرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين فجاء داود الى طالوت وقال انجز لى ما وعدتنى فزوجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس الى داود وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك فهرب فسلط عليه العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم ان طالوت ركب يوما فوجد داود يمشى فى البرية فقال اليوم أقتله فركض على أثره فاشتد داود وكان اذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى الى العنكبوت فنسجت عليه بيتا فلما انتهى طالوت الى الغار ونظر الى بناء العنكبوت فقال لو كان دخل ههنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى وانطلق داود الى الجبل مع المتعبدين فتعبد فيه الى أن قتل طالوت وكان ملك طالوت الى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو اسرائيل بداود وأعطوه خزائن طالوت وملكوه على أنفسهم قال الكلبى والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) أى النبوة بعد موت شمويل

وطالوت

وطالوت ولم يجتمعا لاحد قبله بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط وقيل الملك والحكمة العلم والعمل (وعلمه مما يشاء) كصنعة الدروع كان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل الا من عمل يده ومنطق الطير والصوت الطيب والالحان ولم يعط الله تعالى أحدا من خلقه مثل صوته كان اذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذ باعناقها وتظله الطير ويركد الماء الجارى ويسكن الريح والسلسلة كان لا يمسها ذو عاهة الا برأ وكانوا يتحاكمون اليها بعده الى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده اليها فتناولها ومن كان كاذبا لم ينلها وكان ذلك الى أن ظهر فيهم المكر والخديعة فأودع بعض ملوكهم رجلا جوهرة ثمينة فلما طلبها منه أنكرها فتحاكما الى السلسلة فعمد الذى عنده الجوهرة الى عكازة فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقام صاحب الجوهرة فتناول السلسلة بيده ثم قام المنكر وقال لصاحب الجوهرة خذ عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فقال الرجل اللهم ان كنت تعلم ان الوديعة التى يدعيها قد وصلت اليه فقرب منى السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة (ولولا دفع الله الناس بعضهم) بدل بعض من الناس (ببعض) أى ولولا دفع الله بجنود المسلمين الكفار (لفسدت الارض) بغلبة المشركين وقتل المسلمين وتخريب المساجد أو لفسدت الارض بشؤم الكفر فيكون المعنى ولولا دفع الله بالمؤمنين والابرار عن الكفار والفجار لهلكت الارض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر وقد روى ان الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر الآية وروى عن ابن عباس أنه قال يدفع الله تعالى بمن يصلى عمن لا يصلى وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يزكى عمن لا يزكى وعن جابر بن عبد الله ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم وعن ابن مسعود ان لله عز وجل فى الخلق ثلثمائة قلوبهم على قلب آدم ولله فى الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى ولله فى الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم ولله فى الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل ولله فى الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ولله فى الخلق واحد قلبه على قلب اسرافيل فاذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة واذا مات واحد من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة واذا مات واحد من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة واذا مات واحد من السبعة أبدل الله مكانه من الاربعين واذا مات واحد من الاربعين أبدل الله مكانه من الثلثمائة واذا مات واحد من الثلثمائة أبدل الله مكانه من العامة فبهم يحيى ويميت قال لانهم يسألون الله اكثار الامم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فينقصمون ويستسقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الارض ويدعون فيدفع الله أنواع البلاء (ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى كلهم أولا بالايجاد وثانيا بالدفاع فهو يكف من ظلم الظلمة اما بعضهم ببعض أو بالصالحين ويسبغ عليهم غير ذلك من أنواب نعمه ظاهرة وباطنة (تلك) أى هذه الآيات التى قصصناها عليك من حديث الاولين وتمليك طالوت واتيان

التابوت وانهزام الجبابرة على يد صبى وهو داود وقتل داود جالوت (آيات الله) الذى جلت عظمته وعمت قدرته وقوته (نتلوها) أى نقصها (عليك) يا محمد (بالحق) أى بالوجه المطابق الذى لا يشك فيه أهل الكتاب لانهم يجدونه فى كتبهم كذلك وأرباب التواريخ (وانك) أى والحال انك (لمن المرسلين) بما دلت هذه الآيات عليه من علمك بها من غير معلم من البشر ثم باعجازها الباقى على مدى الدهر ولما تقدم فى هذه السورة ذكر رسل كثيرة وختم هذه الآيات بانه صلى الله عليه وسلم منهم تشوقت النفس الى معرفة أحوالهم فى الفضل هل هم فيه سواء أو هم متفاضلون فأشار الى علو مقادير الكل فى قوله (تلك الرسل) بأداة البعد اعلاما ببعد مراتبهم وعلو منازلهم وانها بالمحل الذى لا ينال والمقام الذى لا يطال *(تنبيه)* تلك مبتدأ والرسل صفة أى الرسل التى ذكرت قصصها فى السورة أو التى ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جماعة الرسل واللام للاستغراق والخبر (فضلنا بعضهم على بعض) بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره لما أوجب ذلك من تفضيلهم فى الحسنات بعد ان فضلنا الجميع بالرسالة ولما كان أكثر السورة فى بنى اسرائيل وأكثر ذلك فى اتباع موسى عليه الصلاة والسلام ذكر وصفه مع وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال (منهم من كلم الله) بلا واسطة وهو موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم كلم موسى ليلة الحيرة وهى بفتح الحاء تحيره فى معرفة طريقه من مسيره من مدين الى مصر وفى الطور ومحمدا ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبين المتكلمين بون عظيم ومنهم أيضا آدم كما ورد فى الحديث (ورفع بعضهم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (درجات) على غيره بعموم الدعوة وختم النبوة به والاتباع الكثيرة فى الازمان الطويلة وبنسخ جميع الشرائع وبكونه رحمة للعالمين وبتفضيل أمته على سائر الامم وبالمجزات المتكاثرة المستمرة وأظهرها القرآن الذى عجز أهل السموات والارض عن الاتيان بسورة من مثله والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الغالبة للحصر ولو لم يؤت الا القرآن وحده كفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الانبياء لانه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وبانشقاق القمر باشارته وحنين الجذع بمفارقته وتسليم الحجر عليه وكلام البهائم والشهادة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من نبى من الانبياء الا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة وروى عنه أنه قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وروى عنه أنه قال فضلت على الانبياء بست أوتيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) من احياء الموتى وغيره (وأيدناه) أى قويناه (بروح القدس) وهو جبريل

يسير معه حيث سار وخص عيسى صلى الله عليه وسلم باسمه لافراط اليهود فى تحقيره والنصارى
فى تعظيمه حيث قالوا هو ابن الله وأبهم محمدا صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى بعضهم حيث لم يقل
ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم لما فى الابهام من تفخيم فضله واعلاء قدره مالا يخفى لما فيه من
الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس ويقال للرجل من فعل هذا فيقول
أحدكم أو بعضكم يراد به الذى تعورف واشتهر فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه وسئل
الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه ولو قال
ولو شئت لذكرت نفسى لم يفخم أمره (ولو شاء الله) أى الذى له جميع الامر هدى الناس جميعا
باتفاقهم على دين واحد (ما اقتتل الذين من بعدهم) أى بعد الرسل أى ما اقتتلت أممهم (من بعد
ماجاءتهم البينات) أى المعجزات الواضحات على أيدى رسلهم لاختلافهم فى الدين وتضليل
بعضهم بعضا (ولكن اختلفوا) لمشيئته تعالى ذلك (فمنهم) أى فتسبب عن اختلافهم ان كان
منهم (من آمن) أى ثبت على ايمانه (ومنهم من كفر) كالنصارى بعد المسيح * ولما كان من
الناس من أعمى الله قلبه فنسب أفعال المختارين من الخلق اليهم استقلالا قال الله تعالى معلما
أن الكل بخلقه تأكيدا لما مضى من ذلك ومعيدا ذكر الاسم الاعظم (ولو شاء الله ما اقتتلوا)
بعد اختلافهم بالايمان والكفر (ولكن الله يفعل ما يريد) فيوفق من يشاء فضلا منه ويخذل
من يشاء عدلا منه والآية دليل على أن الانبياء متفاوتة الاقدام وانه يجوز تفضيل بعضهم على
بعض ولكن بنص لان اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل لا بالاعتقاد وان الحوادث بيد الله لقوله
تعالى يفعل ما يريد تابعة لمشيئته تعالى خيرا كان أو شرا ايمانا أو كفرا * ولما كان الاختلاف على
الانبياء سببا للجهاد الذى هو حظيرة الدين وكان عماد الجهاد النفقة أتبع ذلك قوله رجوعا الى
أول السورة من هنا الى آخرها وأتى التأكيد بلفظ الامر لما تقدم الحث عليه من أمر النفقة
(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) أى مما أوجبت عليكم انفاقه من الزكاة قاله السدى
وقال غيره أراد به صدقة التطوع والنفقة فى الخير أى فلا تبخلوا بالانفاق فانه لاداء أدوأ من
البخل قال تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وصرف الامر بالتبعيض الى الحلال
الطيب يمنع احتجاج المعتزلة بها فى أن الرزق لا يكون الا حلالا لكونه مأمورا به واتبعه بما
يرغب ويرهب من حلول يوم التناد الذى تنقطع فيه الاسباب التى أقامها سبحانه وتعالى فى هذه
الدار فقال (من قبل أن يأتى يوم) موصوف بأنه (لا بيع فيه) أى فداء (ولا خلة) أى صداقة
تنفع (ولا شفاعة) بغير اذنه والمعنى أنه لا يفدى فيه أسير بمال ولا يراعى الصداقة من مساو
ولا الشفاعة من كبير لعدم ارادة الله تعالى لشئ من ذلك ولا يكون الا ما يريد وقرأ ابن كثير وأبو
عمرو بالنصب فى بيع وخلة وشفاعة ولا تنوين على الاصل والباقون بالرفع والتنوين على أنها فى
تقدير جواب هل فيه بيع أو خلة أو شفاعة * ولما حث سبحانه وتعالى على الانفاق ختم الآية
بذم الكافرين بكونهم لم يتحلوا بهذه الصفة لتخليصهم من الايمان وبعدهم منه وتكذيبهم بذلك
اليوم فهم لا يتقون لخوفه وارهابه فقال بدل ولا نصرة لكافر (والكافرون) أى المعلوم

كفرهم فى ذلك اليوم (هم) المختصون بأنهم (الظالمون) أى الكاملون فى الظلم لا غيرهم وقوله سبحانه (الله لا اله الا هو) مبتدا وخبر والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غير (الحى) أى الدائم البقاء (القيوم) أى الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم (لا تأخذه سنة) وهى ما يتقدم النوم من الفتور الذى يسمى النعاس قال ابن الرقاع العاملى

وسنان أقصده (أى أصابه) النعاس فرنقت * فى عينه سنة وليس بنائم

أى لا يأخذه نعاس (ولا نوم) وهو حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الابخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس (فان قيل) تقديم السنة على النوم قياس المبالغة عكسه (أجيب) بأن هذا ذكر على ترتيب الوجود اذ وجود السنة سابق على وجود النوم فهو على طريقة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة قصدا الى الاحاطة والاحصاء ولانه لما عبر بالاخذ الذى هو بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان وجملة لا تأخذه سنة ولا نوم نفى للتشبيه بينه وبين خلقه وتأكيد لكونه حيا قيوما فان من أخذه نعاس أو نوم كان مآفة مخل بالحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير ولذلك ترك العاطف فيه وفى الجمل التى بعده من قوله ما فى السموات وما فى الارض الخ وقوله تعالى (له) أى بيده وفى تصرفه واختصاصه (ما فى السموات وما فى الارض) أى ملكا وخلقا تقريرا لقيوميته واحتجاج على تفرده فى الالوهية والمراد بما فيهما ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما كالكواكب والنبات والمعادن او خارجا عنهما متمكنا فيهما كالملائكة والانس والجن وقوله تعالى (من ذا الذى) أى لا أحد (يشفع عنده الا باذنه) له بيان لكبرياء شأنه وانه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة وتواضعا فضلا أن يدفعه عنادا ومخاصمة (يعلم ما بين أيديهم) أى الخلق من أمر الدنيا (وما خلفهم) أى من أمر الآخرة قاله مجاهد وقال الكلبى ما بين أيديهم يعنى الآخرة لانهم يقدمون عليها وما خلفهم الدنيا لانهم يخلفونها وراء ظهورهم وقيل ما بين أيديهم ما قدموا من خير وشر وما خلفهم ما هم فاعلوه (ولا يحيطون بشئ) أى قليل ولا كثير (من علمه) أى لا يعلمون شيأ من معلوماته (الا بما شاء) أن يعلمهم به منها باخبار الرسل (وسع كرسيه السموات والارض) اختلف فى الكرسى فقال الحسن هو العرش نفسه وقال أبو هريرة هو موضع أمام العرش والاحاديث تدل عليه ومعنى وسع أن سعته مثل سعة السموات والارض وفى الاخبار ان السموات والارض فى جنب الكرسى كحلقة فى فلاة والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة ويروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان السموات السبع فى الكرسى كدراهم سبعة القيت فى ترس وقال على ومقاتل كل قائمة من الكرسى طولها مثل السموات السبع والارضين السبع وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم فى الصخرة التى تحت الارض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام ملك على صورة أبى البشر آدم عليه الصلاة والسلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الانعام وهو الثور

قوله ان ما بين حملة الخ كذا فى الاصول التى بأيدينا باثبات ما ونصب سبعين ولعله على حذف ان حراسنا أسدا اه مصححه

يسأل للانعام الرزق من السنة الى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل وملك على صورة سيد السباع وهو الاسد يسأل الرزق للسباع من السنة الى السنة وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل للطير الرزق من السنة الى السنة وفى بعض الاخبار ان ما بين حملة العرش وحملة الكرسى سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش وقيل المراد بالكرسى علمه وقيل ملكه وقيل تصوير لعظمته وتمثيل مجرد (ولا يؤده) أى لا يثقله ولا يشق عليه (حفظهما) أى السموات والارض (وهو العلى) أى الرفيع فوق خلقه المتعالى عن الاشباه والانداد (العظيم) أى الكبير الذى لا شئ أعظم منه المستحقر بالاضافة اليه كل ما سواه وهذه الآية تسمى آية الكرسى مشتملة على أمهات المسائل الالهية فانها دالة على أنه موجود واحد فى الالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره اذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الاشباح ولا يعتريه ما يعترى الارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع ذو البطش الشديد الذى لا يشفع عنده الا من أذن له عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة اذ المقدور كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه لا يؤده شاق ولا يشغله شان عن شان متعال عما يدركه وهم عظيم فلا يحيط به فهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان أعظم آية فى القرآن آية الكرسى رواه مسلم وروى النسائى وابن حبان وغيرهما انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت أى فاذا مات دخل الجنة وروى البيهقى فى شعبه أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يواظب عليها الا صديق أو عابد وروى البيهقى أيضا ان من قرأها اذا أخذ مضجعه امنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والابيات حوله وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم سأله أى آية من كتاب الله أعظم قال قلت الله لا اله الا هو الحى القيوم قال فضرب فى صدرى ثم قال ليهنك العلم أبا المنذر والذى نفسى بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش وعن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حين يصبح آية الكرسى وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ فى يومه ذلك حتى يمسى فان قرأهما حين يمسى حفظ فى ليلته تلك حتى يصبح وروى ما قرئت آية الكرسى فى دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة يا على علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها وتذاكر الصحابة أفضل ما فى القرآن فقال لهم على رضى الله تعالى عنه أين أنتم عن آية الكرسى ثم قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الايام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسى (لا اكراه فى الدين) أى على الدخول فيه أى فمن أعطى الجزية لم يكره على الاسلام فهو عام مخصوص بأهل الكتاب لما روى أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا قبل المبعث ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الانصارى يا رسول الله

أيدخل بعض النار وأنا أنظر فنزلت وقيل عام منسوخ فكان هذا فى الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود (قد تبين الرشد من الغى) أى ظهر بالآيات البينات أن الايمان رشد يوصل الى السعادة الابدية وان الكفر غى يؤدى الى الشقاوة السرمدية والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه الى الايمان طلبا للفوز بالسعادة والنجاة فلم يحتج الى الاكراه والالجاء (فمن يكفر بالطاغوت) أى فمن اختار الكفر بالشيطان أو الاصنام (ويؤمن بالله) أى بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم فى الدين (لا انفصام) أى لا انقطاع (لها) قال التفتازانى شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى والايمان بالتمسك بالعروة الوثقى المأخوذة من الحبل المحكم المأمون انقطاعها ثم ذكر المشبه به وأراد المشبه وقال الزمخشرى وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به اه والوثقى تأنيث الاوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذى يتوصل به الى رضا الله تعالى (والله سميع) لما يقال (عليم) بالنيات والافعال وقيل سميع لدعائك اياهم الى الاسلام عليم بحرصك على ايمانهم (الله ولى) أى ناصر ومعين (الذين آمنوا) أى أرادوا أن يؤمنوا لقوله تعالى (يخرجهم) أى بلطفه وتأييده (من الظلمات) أى الكفر (الى النور) أى الايمان أو أنهم الثابتون على الايمان بأن يخرجهم من الشبهة فى الدين ان وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من أجلها حتى يخرجوا منها الى نور اليقين وعن ابن عباس أنهم قوم كانوا كفروا بعيسى وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) أى الشيطان وقال مقاتل هو كعب بن الاشرف وحيى بن أخطب وسائر رؤس الضلالة (يخرجونهم) أى يدعونهم (من النور) الذى منحوه بالفطرة (الى الظلمات) أى الكفر (فان قيل) كيف يخرجونهم من النور وهم كفار لم يكونوا فى نور قط (أجيب) بأن الطبرانى روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به أو أنه تعالى ذكر الاخراج فى مقابلة يخرجهم من الظلمات فهو على العموم فى حق جميع الكفار كما يقول الرجل لأبيه أخرجتنى من مالك ولم يكن فيه كما قال تعالى اخبارا عن يوسف عليه الصلاة والسلام انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ولم يكن قط فى ملتهم وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الاسلام واسناد الاخراج الى الطاغوت باعتبار السبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وارادته به والطاغوت يكون مذكرا ومؤنثا وواحدا وجمعا قال تعالى فى المذكر والواحد يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وقال تعالى فى المؤنث والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وقال فى الجمع يخرجونهم من النور الى الظلمات وقوله تعالى (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وعيد وتحذير قال البيضاوى ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم ولما كان النمروذ المحاج للخليل ممن أخرجته الشياطين من النور الى الظلمات ذكره عقب ذلك فقال (ألم تر) أى تعلم بما نخبرك به علما هو عندك كالمشاهدة لما لك من كمال البصيرة وبما أودعناه فيك من المعانى المنيرة

(الى الذى) وهو نمروذ (حاج) جادل وخاصم (ابراهيم فى ربه) وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الارض وادّعى الربوبية (ان) أى لان (آتاه الله الملك) فطغى أى كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه فأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك وقال مجاهد ملك الارض مشرقها ومغربها أربعة نفر مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان صلى الله عليه وسلم وذو القرنين وأما الكافران فنمروذ بن كنعان و بختنصر لم يملكها غيرهم وفى الآية دليل على أن الله تعالى يعطى الكافر الملك ففيها حجة على من منع ايتاء الملك للكافر من المعتزلة وأول الملك بالمال والخدم الذى يتسلط به على غلبة الناس لا الملك الحقيقى وبهذا أول الزمخشرى (اذ قال ابراهيم ربى الذى) قرأ حمزة ربى بسكون الياء والباقون بنصبها (يحيى ويميت) أى يخلق الموت والحياة فى الاجساد وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمروذ من ربك فقال له ابراهيم ذلك واختلفوا فى وقت هذه المناظرة فقال مقاتل لما كسر ابراهيم الاصنام سجنه نمروذ ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له من ربك الذى تدعونا اليه وقال آخرون كان هذا بعد القائه فى النار وذلك ان الناس قحطوا على عهد نمروذ وكان الناس يمتارون من عنده فكان اذا أتاه الرجل فى طلب الطعام سأله من ربك فان قال أنت باع منه الطعام فأتاه ابراهيم فقال له من ربك فقال له ذلك (قال أنا أحيي وأميت) قرأ نافع بمد الالف من أنا فيصير مدا منفصلا والباقون بالقصر قال أكثر المفسرين دعا نمروذ برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل احياء فانتقل ابراهيم الى حجة أخرى لا عجزا بل لما رآه من غباوته فان حجته لازمة لانه أراد بالاحياء احياء الميت فكان له أن يقول فأحى من أمت ان كنت صادقا لكنه انتقل الى حجة أوضح من الاولى ذكرها الله تعالى بقوله (قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس) وهو الذى أوجدها (من المشرق) أى فى كل يوم قبل أن توجد أنت بدهور (فأت بها) أنت (من المغرب) ان كنت صادقا فيما تدعيه ولو يوما واحدا وفى ذلك اشعار بأن الله تعالى لا بد وأن يأتى بالشمس من المغرب ليكون فى ذلك اظهار تصريفه لها حيث شاء يطلعها من حيث غربت كما يطلع الروح من حيث قبضت ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة وطلوع الارواح من أبدانها (فبهت الذى كفر) تحير ودهش وانقطعت حجته ولم يعط ابراهيم طعاما فرجع فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله اذا دخل عليهم فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته الى متاعه ففتحته فاذا هو أجود طعام رأته فأخذته وصنعت له منه وقربته له فقال لها من أين هذا قالت من الطعام الذى جئت به فعرف ان الله تعالى رزقه فحمد الله تعالى (فان قيل) كيف بهت نمروذ وكان يمكنه ان يعارض ابراهيم فيقول له سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب (أجيب) بأن الله تعالى صرفه عن ذلك اظهارا للحجة عليه أو معجزة لابراهيم عليه الصلاة والسلام أو أنه خاف ان لو سأل ذلك دعا ابراهيم ربه فكانت زيادة فى فضيحته وانقطاعه ثم بعث الله تعالى الى نمروذ بن كنعان ملكا أن آمن بى واتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ثم أتاه الثالثة فأبى عليه فقال له ذلك الملك فاجمع جموعك الى ثلاثة أيام

فجمع الجبار جموعه فأمر الله تعالى الملك ففتح عليه بابا من البعوض فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق الا العظام ونمروذ كما هو لم يصبه من ذلك شئ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله تعالى أربعمائة سنة كملكه ثم أماته الله وهو الذى بنى صرحا طويلا ليصعد منه الى السماء ليقاتل أهلها فأرسل الله تعالى عليه الريح فهدمته وستأتى قصته فى غافر ان شاء الله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) بالكفر الى محجة الاحتجاج (أو كالذى مر على قرية) فيه حذف تقديره أو رأيت مثل الذى فحذف لدلالة ألم تر عليه لان كلتيهما كلمة تعجب وتخصيصه بحرف التشبيه لان المنكرين للاحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعى الربوبية وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر الى الذى حاج أو الى الذى مر والمار عزير بن شرحيا أو الخضر أو الكافر بالبعث ويؤيده هذا انتظامه مع نمروذ فى سلك وكلمة الاستبعاد التى هى أنى يحيى وأكثر المفسرين على الاول والقرية بيت المقدس حين خربها بختنصر وقتل بنى اسرائيل حتى أفناهم ثم أمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه فى بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان فى بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده صغيرهم وكبيرهم من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشأم وقيل هى القرية التى خرج منها الالوف وقيل غيرهما (وهى خاوية) أى ساقطة (على عروشها) أى سقوفها بأن سقط السقف أولا ثم سقطت الجدران عليه لما أخربها بختنصر (قال أنى) أى كيف (يحيى هذه الله بعد موتها) أى بما صارت اليه من الخراب وذهاب الاهل فيعيدها الى ما كانت عليه عامرة آهلة وهذا اعتراف بالعجز عن معرفة طريق الاحياء واستعظام لقدرة المحيى ان كان القائل مؤمنا واستبعاد ان كان كافرا (فأماته الله) وألبثه (مائة عام) ميتا (ثم بعثه) بالاحياء ليريه كيفية ذلك (قال كم لبثت) أى مكثت أى لما أحياه الله بعث اليه ملكا فسأله كم لبثت وعن ابن عباس ان عزيرا كان عبدا صالحا حكيما خرج ذات يوم الى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف انتهى الى خربة حين قامت الظهيرة فأصابه الحر فدخل الخربة وهو على حمار له فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل فى ظل تلك الخربة وأخرج قصعة كانت معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزا يابسا معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل فيأكله ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه الى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى ساقطة على عروشها ورأى عظاما بالية فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فلم يشك ان الله يحييها ولكن قالها تعجبا فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام فلما أتت عليه مائة عام وكان فيما بين ذلك فى بنى اسرائيل أمور واحداث فبعث الله الى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك يرى

ويه‍قل فاستوى جالسا فقال له الملك كم لبثت (قال لبثت يوما) وذلك ان الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال (أو بعض يوم) أي بل بعض يوم (قال) أي الله أو الملك له (بل لبثت مائة عام) قرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة في كم لبثت وفي قال لبثت وفي بل لبثت والباقون بالادغام ثم قال له الله أو الملك (فانظر الى طعامك) وكان تينا أو عنبا (وشرابك) وكان عصيرا أو لبنا (لم يتسنه) أي لم يتغير بمرور الزمان فكان التين أو العنب كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر أو اللبن قد حلب من ساعته قال الكسائي أي كأنه لم يأت عليه السنون وانما أفرد الضمير لان الطعام والشراب كالجنس الواحد (فان قيل) اذا كان المار كافرا فكيف يسوغ ان يكلمه الله (أجاب الزمخشري) بأن الكلام كان بعد البعث ولم يك اذ ذاك كافرا وقال أبو حيان لا نص في الآية ان الله كلمه شفاها وقرأ حمزة والكسائي لم يتسن باسقاط الهاء اذا وصلها بما بعدها والباقون باثباتها وفي الوقف ثابتة للجميع (وانظر الى حمارك) كيف هو فرآه ميتا وعظامه بيض وكان له حمار قد ربطه وقيل رآه حيا مكانه كما ربطه حفظ بلا ماء ولا علف كما حفظ الطعام والشراب من التغير وقوله تعالى (ولنجعلك آية للناس) معطوف على محذوف تقديره فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية وقيل الواو زائدة مقحمة أي لنجعلك عبرة ودلالة على البعث بعد الموت (وانظر الى العظام كيف ننشرها) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالراء ومعناه نحييها والباقون بالزاي ومعناه نرفعها من الارض ونردها الى أماكنها من الجسد وفي الآية تقديم وتأخير وتقديرها وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشرها ولنجعلك آية للناس واختلفوا في معنى الآية فقال الاكثرون انه أراد به عظام حماره وهذا يؤيد كون حماره كان ميتا قال السدي ان الله أحيا عزيرا ثم قال له انظر الى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث الله ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل الذي ذهبت به الطيور والسباع فاجتمعت فركب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حمارا من عظام ليس فيه لحم ولا دم ثم كسا العظام لحما ودما كما قال تعالى (ثم نكسوها لحما) فصار حمارا لا روح فيه ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه فقام الحمار ونهق باذن الله تعالى وقال الاقلون أراد به عظام هذا الرجل فأحيا الله عينيه ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال انظر الى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئته يوم ربطه وهذا يؤيد كون حماره كان حيا وذلك من أعظم الآيات أن يعيش مائة عام من غير علف ولا ماء قال الضحاك وقتادة وتقدير الآية أي على هذا وانظر الى حمارك وانظر الى عظامك كيف ننشرها روي أن عزيرا لما أحياه الله تعالى ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم فخرج عزير عنهم وهي بنت عشرين سنة فقال لها عزير يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير وبكت وقالت ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا فقال فاني أنا عزير فقالت سبحان الله فان عزيرا فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال ان الله أماتني مائة سنة ثم

بعثني قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يردّ على بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح يده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها فقال قومى باذن الله تعالى فاطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت الى بنى اسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن العزير شيخ ابن مائة سنة وثمان عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فى المجلس قال الضحاك عاد الى قريته شابا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية فقالت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فردّ على بصرى واطلق رجلى وزعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه فنهض الناس واقبلوا عليه ونظروا اليه وقال ابنه كان لابى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فاذا هو عزير فقال بنو اسرائيل فانه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير فقرأ لهم التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك وقالوا هو ابن الله وسيأتى الكلام على ذلك فى سورة براءة ان شاء الله تعالى (فلما تبين له) ذلك بالمشاهدة وفاعل تبين مضمر تقديره فلما تبين له ان الله على كل شئ قدير (قال أعلم ان الله على كل شئ قدير) فحذف من الاول لدلالة الثانى عليه كما فى قولهم ضربنى وضربت زيدا وقرأ حمزة والكسائى بوصل الهمزة قبل العين وسكون الميم والباقون بقطع الهمزة ورفع الميم (و) اذكر (اذ قال ابراهيم رب أرنى) أى أبصرنى قرأ ابن كثير والسوسى بسكون الراء من أرنى وقرأ الدورى باختلاس الكسرة والباقون بكسرة كاملة (كيف تحيى الموتى) قال الحسن وقتادة والضحاك كان سبب هذا السؤال من ابراهيم عليه السلام أنه مرّ على دابة ميتة قال ابن جرير كانت جيفة حمار فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر فكانت اذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها وما وقع منها يصير فى البحر واذا انحسر البحر جاءت السباع فأكلت منها وما وقع منها يصير ترابا فاذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها وما سقط قطعته الريح فى الهواء فلما رأى ذلك ابراهيم تعجب منها وقال يارب قد علمت انك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر فأرنى كيف تحييها فازداد يقينا فعاتبه الله بقوله (قال أولم تؤمن) بقدرتى على الاحياء سأله مع علمه بايمانه بذلك ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه (قال بلى) يارب آمنت (ولكن ليطمئن قلبى) أى ليسكن قلبى الى المعاينة والمشاهدة أراد أن يصير له بعد علم اليقين عين اليقين فان العيان يفيد فى المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم ولولبثت فى السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعى فقال أبو سليمان الخطابى ليس فيه اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما يقول اذا لم أشك فى قدرة الله تعالى على احياء الموتى فابراهيم أولى بأن لايشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله ولولبثت فى السجن طول مالبث يوسف وقيل سبب سؤاله أنه لما قال له نمروذ أنا أحيى وأميت قال له ان احياء الله بردّ الروح الى بدنها فقال نمروذ هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم وانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه فى الجواب ان سئل عنه مرة

أخرى (فان قيل) بم تعلقت اللام فى ليطمئن (أجيب) بأنها تعلقت بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك ارادة طمأنينة القلب (وقيل) بل كان قصده بالسؤال رؤية المحيي ولكنه طلبها تلويحا فأجيب بالمنع منها تلويحا وموسى عليه الصلاة والسلام لما سألها تصريحا أجيب بالمنع تصريحا قال تعالى (فخذ أربعة من الطير) قال مجاهد وابن جرير أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا وانما خص الطير لانه أقرب الى الانسان شبها كتدوير الرأس والمشى على رجلين واجمع لخواص الحيوان لان فيها ما يتكلم وما يهتدى للطريق كالقطاة وللمياه كالهدهد وفى هذا ايماء الى أن احياء النفس بالحياة الابدية انما يأتى باماتة حب الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاوس والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الامل المتصف بهما الغراب والترفع والمسارعة الى الهوى الموسوم بهما الحمام ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وروى بدلها البطة وبدل الغراب الغرنوق (فصرهن) أى فأمسكهن واضممهن (اليك) قرأ حمزة بكسر الصاد والباقون بضمها (فان قيل) ما معنى أمره بضم الطير الى نفسه بعد أن يأخذها (أجيب) بأنه ليتأملها ويعرف أشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الاحياء ولا يتوهم أنها غير تلك ولذلك قال يأتينك سعيا وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها وان يمسك رؤسها ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال كما قال تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) واختلفوا فى عدد الاجزاء والجبال فقال ابن عباس وقتادة أمره الله تعالى أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة أجبل على كل جبل جزء من كل طائر وقال السدى وابن جريج جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤسهن ثم دعاهن تعالين باذن الله فجعل كل قطرة من دم طائر تصير الى القطرة الاخرى وكل ريشة الى الريشة الاخرى وكل عظم يصير الى العظم الآخر وابراهيم ينظر حتى صارت جثثا بغير رؤس ثم أقبلن الى رؤسهن سعيا فالتقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) أى سريعا وقيل مشيا لانها لو طارت لربما توهم متوهم انها غير تلك الطير وان أرجلها غير سليمة قال البيضاوى وفى ذلك اشارة الى أن من أراد احياء نفسه بالحياة الابدية فعليه ان يقبل على القوى البدنية كالشهوة والغضب فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها فتطاوعه مسرعات متى دعاهن بداعية العقل أو الشرع وكفى لك شاهدا على فضل ابراهيم ويمنه أى بركته حيث سلك مسلك الضراعة فى الدعاء وحسن الادب فى السؤال انه تعالى أراه ما أراد ان يريه فى الحال على أيسر الوجوه وأراه عزيرا بعد ان أماته مائة عام (واعلم ان الله عزيز) لا يعجز عما يريد (حكيم) ذو حكمة بالغة فى كل ما يفعله (مثل الذين ينفقون) أى يبذلون (أموالهم) بطيب النفس (فى سبيل الله) الذى له الكمال كله أى فى طاعته كمثل زراع ومثل ما ينفقون (كمثل حبة) مما زرعه فلا بد من حذف كما تقرر أو يقال مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة (أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) والمنبت هو الله سبحانه وتعالى ولكن الحبة لما كانت سببا أسند اليها الانبات كما يسند الى الارض والى الماء وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم

باظهار تاء التأنيث عند السين والباقون بالادغام ومعنى انباتها سبع سنابل أن يخرج منها ساق يتشعب منه سبع شعب لكل واحدة سنبلة وهذا التمثيل تصوير الاضعاف كأنها مصورة بين عيني الناظر (فان قيل) كيف صح هذا التمثيل ولم نر سنبلة فيها مائة حبة (أجيب) بأن ذلك موجود فى الدخن والذرة وغيرهما وربما فرخت ساق البرة فى الارض القوية المغلة فبلغ حبها هذا المبلغ وعلى تقدير عدم وجوده هو غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا يجوز ضرب المثل به وتأول ذلك الضحاك فقال كل سنبلة أنبتت مائة حبة (فان قيل) هلا قال الله تعالى سبع سنبلات لانه جمع قلة كما قال الله تعالى وسبع سنبلات خضر (أجيب) بما تقدم فى قوله تعالى ثلاثة قروء (والله يضاعف لمن يشاء) بفضله تلك المضاعفة أو يضاعف على هذا ويزيد لمن شاء ما بين سبعين الى سبعمائة الى ما شاء من الاضعاف مما لا يعلمه الا الله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ومن أجل ذلك تتفاوت الاعمال فى مقادير الثواب (والله واسع) أى غنى يعطى عن سعة (عليم) بنية المنفق وقدر انفاقه وبمن يستحق المضاعفة (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) أى فى طاعته قال الكلبى نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان عندى ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسى وعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت وأما عثمان فجهز المسلمين فى غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وألف دينار قال عبد الرحمن بن سمرة جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم وقال يارب عثمان رضيت عنه فارض عنه (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا) أى على المنفق عليه بقولهم مثلا قد أحسنت اليه وجبرت حاله فيعتدون عليه النعمة فحذر الله عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لانه من العباد تعيير وتكدير ومن الله افضال وتذكير وكان السلف يقولون اذا صنعتم صنيعة فانسوها والعرب يتمدحون بترك المن ويذمون عليه فمن الاول قول القائل

زاد معروفك عندى عظما * أنه عندك مستور حقير

تتناساه كأن لم تأته * وهو فى العالم مشهور كبير

ومن الثانى قول القائل

وان امرأ أسدى الى صنيعة * وذكرنيها مرة للئيم

وقيل طعم الآلاء أحلى من المن وهى أمر من الآلاء مع المن ويطلق المن أيضا على النعمة يقال لفلان على منة أى نعمة وأنشد ابن الانبارى

فمن علينا بالسلام فانما * كلامك ياقوت ودر منظم

وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا الآية (ولا أذى) له كأن يذكر ذلك الى من لا يحب وقوفه عليه أو يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه وثم للتفاوت بين الانفاق وترك المن

والاذى

والاذى (لهم أجرهم) أى ثواب انفاقهم (عند ربهم ولا خوف عليهم) أى فلا يخافون فقد اجورهم (ولاهم يحزنون) فى الآخرة بسبب ان لا يوجد (قول معروف) أى كلام حسن ورد على السائل جميل لان القول الجميل وان كان يرد السائل يفرح قلبه ويروح روحه وقيل عدة حسنة (ومغفرة) أى بأن يستر عليه خلته ولا يهتك ستره ويتجاوز عنه اذا وجد منه ما يثقل عليه عند رده (خير من صدقة) يدفعها اليه (يتبعها أذى) أى من وتعيير السائل أو قول يؤذيه (فان قيل) لم لم يعد ذكر المن فيقول يتبعها من أو أذى (أجيب) بأن الاذى يشمل المن وغيره كما تقرر وانما نص عليه فيما مر لكثرة وقوعه من المتصدقين وعسر تحفظهم منه ولذلك قدم على الاذى قال بعضهم الآية واردة فى صدقة التطوع لان الواجب لا يحل منعه ويحتمل أن يراد بها الواجب فانه قد يعدل به عن سائل الى سائل وعن نفر الى نفر وانما صح الابتداء بالنكرة وهى قول لاختصاصها بالصفة وهى معروف وأما المعطوف وهو مغفرة فلا يحتاج الى مخصص لتبعيتها (والله غنى) عن صدقة العباد وانما أمرهم ليثيبهم عليها (حليم) بتأخير العقوبة عن المان والمؤذى بصدقته (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) أى أجورها لان الصدقة وقعت فلا يصح ان تبطل (بالمن والاذى) (فان قيل) ظاهر هذا اللفظ أن مجموع المن والاذى يبطلان الاجر فيلزم انه لو وجد أحدهما دون الآخر لا يبطل الاجر (أجيب) بأن الشرط أن لا يوجد واحد منهما دون الآخر لان قوله تعالى ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى يقتضى أن لا يقع هذا ولا هذا أى فتبطل بكل واحد منهما ابطالا (كالذى) أى كابطال أجر نفقة الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى مرائيا لهم ليروا نفقته ويقولون انه كريم سخى (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) وهو المنافق لان الكافر معلن بكفره غير مراء (فمثله) أى هذا المرائى فى انفاقه (كمثل صفوان) وهو الحجر الاملس (عليه) أى استقر عليه (تراب) والتراب معروف وهو اسم جنس لا يثنى ولا يجمع وقال المبرد هو جمع واحده ترابة وفائدة هذا الخلاف أنه لو قال لزوجته أنت طالق عدد التراب أنه يقع عليه طلقة على الاول وهو الاصح وثلاث على الثانى (فأصابه وابل) وهو المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) أى أملس نقيا من التراب وقوله تعالى (لا يقدرون على شئ مما كسبوا) استئناف لبيان مثل المنافق المنفق رياء أى لا يجدون له ثوابا فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شئ من التراب الذى كان عليه لاذهاب المطر له (فان قيل) كيف قال تعالى لا يقدرون بعد قوله كالذى ينفق (أجيب) بأنه تعالى أراد بالذى ينفق الجنس أو الفريق الذى ينفق ولان من والذى يتعاقبان فكأنه قيل كمن ينفق وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقول الله تعالى لهم يوم يجازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن الله تعالى اذا كان يوم القيامة ينزل الى العباد أى أمره ليقضى بينهم وكل أمة جاثية وأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول

الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال بلى قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وأناء النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ويؤتى بصاحب المال فيقول الله ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له فيماذا قتلت فيقول يارب أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جرىء وقد قيل ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى فقال يا أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة (والله لا يهدى القوم الكافرين) الى الخير والرشاد وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الانفاق صفة الكفار ولا بد أن تجتنبوا عنها (ومثل نفقات) (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) أى طلب (مرضاة الله) أى رضاه (وتثبيتا من أنفسهم) أى تثبيتا بالنظر فى اصلاح العمل واخلاصه بالجمل على الحلم والصبر على جميع مشاق التكاليف فان من راض نفسه يحملها على بذل المال الذى هو شقيق الروح فان بذله أشق شئ على النفس لان النفس اذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها بما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها فيسهل عليه حملها على سائر العبادات ومتى تركها وهى مطبوعة على النقائص زاد طمعها فى اتباع الشهوات فمن للتبعيض مفعول به مثلها فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه (فان قيل) ما معنى التبعيض (أجيب) بأن معناه ان من بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فهو الذى ثبتها كلها أو تصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لانه اذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله تعالى علم ان تصديقه وايمانه بالثواب من أصل نفسه ومن اخلاص قلبه فمن على هذا الابتداء الغاية كقوله تعالى حسدا من عند أنفسهم (كمثل جنة) أى بستان (بربوة) وهى المكان المرتفع الذى تجرى فيه الانهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو هو على الماء وانما جعلها بربوة لان النبات عليها أحسن وأزكى وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضمها (أصابها وابل) أى مطر شديد كثير (فآتت) أى أعطت (أكلها) أى ثمرتها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بسكون الكاف والباقون بضمها (ضعفين) أى مثلى ما يثمر غيرها بسبب الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثاله لان الضعف قدر الشئ ومثله معه فيكون الضعفان أربعة واستظهره البقاعى وقال أبو حيان يحتمل انه للتكثير أى ضعفا بعد ضعف أى اضعافا كثيرة لان النفقة لا تضاعف بحسنة فقط بل بعشر وسبعمائة وأزيد ونصبه على الحال أى مضاعفا (فان لم يصبها وابل فطل) أى مطر خفيف يصيبها ويكفيها لارتفاعها والمعنى تثمر وتزكو كثر المطر أو قل فكذلك نفقات من ذكر تزكو عند الله كثرت أو قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به ففيه وعد ووعيد (أيود أحدكم) أى أيحب حبا شديدا (أن تكون له جنة) أى بستان (من نخيل) جمع نخلة وهى الشجرة القائمة على ساق

ثمرها من اعلاها فى كلها نفع حتى فى خشبها مثلها كمثل المؤمن الذى ينتفع به كله (وأعناب) جمع عنب وهو شجر الكرم لا يختص ثمره بجهة العلو اختصاص النخلة بل يتفرع علوا وسفلا ويمنة ويسرة مثله كمثل المؤمن المتقى الذى يكرم بتقواه فى كل جهة * ولما كانت الجنان لا تقوم ولا تدوم الا بالماء قال تعالى (تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت هذه الاشجار (له فيها) أى الجنة ثمر مع ثمر النخل والعنب (من كل الثمرات) فهى محتوية على سائر أنواع الاشجار وانما خص النخل والعنب بالذكر لشرفهما او كثرة منافعهما او حسن منظرهما (وأصابه) أى والحال انه أصابه (الكبر) أى كبر السن فصار لا يقدر على الاكتساب (وله ذرية ضعفاء) بالصغر كما ضعف هو بالكبر (فأصابها) أى الجنة (اعصار) وهو الريح العاصف الذى يرتفع الى السماء كأنها عمود وتسميها العامة الزوبعة وجمعه أعاصر والاعصار من بين سائر الرياح مذكر ولهذا رجع اليه الضمير مذكرا فى قوله (فيه نار فاحترقت) تلك الجنة ففقدها أحوج ما كان اليها وبقى هو وأولاده عجزة متحيرين لا حيلة لهم وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائى يقول عمله فى حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بها فاذا كبر وضعف وصار له أولاد ضعفاء صغار اصاب جنته اعصار فيه نار فاحترقت أحوج ما يكون اليها وضعف عن اصلاحها لكبره وضعفت أولاده عن اصلاحها ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لا حيلة لهم كذلك يبطل الله تعالى عمل المنافق والمرائى فى الآخرة حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا اقالة والاستفهام بمعنى النفى وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ضرب لرجل عمل بالطاعات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله (كذلك) أى مثل هذا البيان (يبين الله) أى الذى له الكمال كله (لكم الآيات لعلكم) أى لكى (تتفكرون) فيها فتعتبرون بها * ولما ذكر سبحانه وتعالى ان الانفاق على قسمين وبين كل قسم وضرب له مثلا ذكر كيفية الانفاق بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انفقوا) أى زكوا (من طيبات) أى جياد (ما كسبتم) من المال والتجارة والصناعة وفيه دلالة على اباحة الكسب وانه ينقسم الى طيب وخبيث وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه وقال صلى الله عليه وسلم ما أكل أحد طعاما قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وكان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده والزكاة واجبة فى مال التجارة فبعد الحول تقوم العروض فيخرج من قيمتها عشرين دينارا أو مائتى درهم فضة فيزكيها قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى يعد للبيع (ومما) أى ومن طيبات ما (أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار والمعادن فحذف المضاف وهو طيبات من الثانى لتقدم ذكره وفى هذا أمر باخراج العشر من الثمار والحبوب واتفق أهل العلم على ايجاب العشر فى النخيل والكروم وفيما يقتات من الحبوب ان كان مسقيا بماء السماء أو من نهر يجرى الماء فيه من غير مؤنة وان كان مسقيا بساقية أو نضح ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وفيما يسقى بالنضح نصف العشر

وعنه صلى الله عليه وسلم ليس فى حب ولا ثمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق وقال قوم الآية فى صدقة التطوع قال صلى الله عليه وسلم مامن مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو طير أو بهيمة الا كانت له به صدقة (ولا تيمموا) أى لا تقصدوا (الخبيث) أى الردىء (منه) اى المذكور (تنفقون) فى الزكاة حال من ضمير تيمموا (ولستم بآخذيه) أى الخبيث (الا أن تغمضوا) أى تسامحوا (فيه) بالحياء مع الكراهة مجاز من أغمض بصره اذا غضه وروى عن البراء قال لو أهدى ذلك لكم ما أخذتموه الا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى مالا ترضون لانفسكم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كانوا يتصدقون بحشف التمر وشواره فنهوا عن ذلك هذا اذا كان المال كله أو بعضه جيدا فان كان كل ماله رديا فلا بأس باعطاء الردىء (واعلموا أن الله غنى) عن انفاقكم وانما يأمركم به لانتفاعكم (حميد) أى يجازى المحسن أفضل الجزاء على انه لم يزل محمودا ولا يزال عذب أو أثاب (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم به ان تصدقتم ويقال وعدته خيرا ووعدته شرا قال تعالى فى الخير وعدكم الله مغانم كثيرة وقال فى الشر النار وعدها الله الذين كفروا فاذا لم يذكر الخير والشر قلت فى الخير وعدته وفى الشر أوعدته والفقر سوء الحال وقلة مافى اليد وأصله من كسر الفقار ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك مالك فانك اذا تصدقت افتقرت (ويأمركم بالفحشاء) أى بالبخل ومنع الزكاة قال الكلبى كل فحشاء فى القرآن فهو الزنا الا فى هذا الموضع (والله يعدكم مغفرة منه) لما وقع منكم من تقصير وفيه اشعار بأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره لماله من الاحاطة بصفات الكمال ولما جبل عليه الانسان من النقص (وفضلا) بالزيادة فى الدارين وكل نعمة منه فضل ثم أكد ذلك بقوله تعالى (والله واسع) فضله (عليم) بالمنفق وغيره وفيه اشارة الى أنه لا يضيع شيأ وان دق وعن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال يا ابن آدم أنفق أنفق عليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم ينقص مافى يمينه قال وعرشه على الماء وبيده الاخرى القسط يرفع ويخفض وعن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك (يؤتى الحكمة) أى العلم النافع المؤدى الى العمل وقال السدى هى النبوة وقال ابن عباس وقتادة علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثال ذلك وقال الضحاك هى القرآن والفهم فيه وقال فى القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن وقال مجاهد هى القرآن والعلم والفقه وقوله تعالى (من يشاء) مفعول أول أخر للاهتمام بالمفعول الثانى وهو الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) لمصيره الى السعادة الابدية (وما يذكر) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى ما يتعظ بما قص من الآيات أى ما يتفكر فان المتفكر كالمتذكر لما أودع الله تعالى فى قلبه من العلوم بالقوة (الا أولوا الالباب) أى أصحاب العقول الخالصة من

شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى (وما أنفقتم) أى أديتم (من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا أو علانية زكاة أو صدقة تطوع (أو نذرتم من نذر) بشرط أو بغير شرط فوفيتم به (فان الله يعلمه) فيجازيكم به (فان قيل) لم وحد الضمير فى يعلمه وقد تقدم شيآن النفقة والنذر (أجيب) بأن العطف بأو وهى لاحد الشيئين تقول زيدا أو عمرا أكرمته ولا يجوز أكرمتهما بل يجوز أن يراعى الاول نحو زيدا وهند منطلق والثانى نحو زيدا وهند منطلقة والآية من هذا ومن مراعاة الاول واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ولا يجوز أن يقال منطلقان ولهذا أول النحاة قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما كما سيأتى ان شاء الله تعالى (وما للظالمين) بمنع الزكاة والنذر أو بوضع الانفاق فى غير محله من معاصى الله تعالى (من أنصار) أى من ينصرهم من الله ويمنعهم من عذابه فهو على طريق التوزيع والمقابلة أى لا ناصر لظالم قط فسقط ما يقال ان نفى الانصار لا يوجب نفى الناصر (ان تبدوا) أى تظهروا (الصدقات) أى النوافل (فنعما هى) أى فنعم شيأ ابداؤها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون والباقون بكسرها وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس كسرة العين والباقون بالكسرة الكاملة (وان تخفوها) أى تسروها (وتؤتوها الفقراء) أى تعطوها لهم فى السر (فهو خير لكم) أى أفضل من ابدائها وايتاؤها للفقراء أفضل من ايتائها للاغنياء سئل صلى الله عليه وسلم هل صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية فنزلت هذه الآية وفى الحديث صدقة السر تطفئ غضب الرب وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل قلبه متعلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا فى الله تعالى فاجتمعا على ذلك وتفرقا ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه نعم ان كان ممن يقتدى به فالاظهار فى حقه أفضل أما صدقة الفرض فالافضل اظهارها كالصلاة المكتوبة فى الجماعة أفضل والنافلة فى البيت أفضل وليقتدى به ولئلا يتهم ولا يجوز دفع شئ منها للاغنياء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا * (تنبيه) * الصدقة تطلق على الفرض والنفل قال تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وقال عليه الصلاة والسلام نفقة المرء على عياله صدقة والزكاة لا تطلق الا على الفرض (ونكفر عنكم من سيآتكم) أى بعضها وقيل من صلة وقرأ ابن عامر وحفص بالياء التحتية والباقون بالنون وقرأ نافع وحمزة والكسائى بجزم الراء بالعطف على محل فهو والباقون بالرفع على الاستئناف وقوله تعالى (والله بما تعملون خبير) فيه ترغيب فى الاسرار لانه عالم بباطن الشئ كظاهره لا يخفى عليه شئ منه * ولما منع النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين من التصدق على فقراء المشركين كى تحملهم الحاجة ليسلموا نزل (ليس عليك هداهم) أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين فتمنعهم الصدقة ليدخلوا فى الاسلام حاجة منهم اليها وانما عليك الارشاد

والحث على المحاسن والنهى عن القبائح كالمن والاذى وانفاق الخبيث وقوله تعالى (ولكن الله يهدى من يشاء) أى هداية التوفيق صريح بأن الهداية من الله وبمشيئته وانما تخص بقوم دون قوم أما هدى البيان فكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطوهم بعد نزول الآية (وما تنفقوا من خير) أى من مال وقوله تعالى (فلانفسكم) خبر لمبتدا محذوف أى فهى لانفسكم لان ثوابه لها فلا تمنوا به على غيركم ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ولا تنفقوا الخبيث وقوله تعالى (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) عطف على ما قبله أى وليس نفقتكم الا ابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده فما لكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله الى الله تعالى (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) ثوابه اضعافا مضاعفة فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن انفاقه وأن يكون على أحسن الوجوه وأجلها والجملتان تأكيد للاولى وهى وما تنفقوا من خير فلانفسكم أو ما يخلف المنفق استجابة لقوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا رواه البخارى (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيأ تفضلا من الله تعالى عليكم وهذا فى صدقة التطوع أباح الله تعالى ان توضع فى أهل الاسلام وأهل الذمة وقيل جحت اسماء بنت أبى بكر فاتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت وروى النسائى والحاكم ان ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم فنزلت وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه أشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك وأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها الا فى المسلمين أهل السهمان المذكورين فى سورة التوبة لكن جوز أبو حنيفة رحمه الله صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وقوله تعالى (للفقراء) خبر مبتدا محذوف أى صدقاتكم للفقراء أو متعلق بفعل مقدر كاجعلوا ما تنفقون للفقراء (الذين احصروا فى سبيل الله) أى حبسوا أنفسهم على الجهاد وهم فقراء المهاجرين كانوا نحوا من أربعمائة لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر كانوا يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المشهورون بأصحاب الصفة فحث الله عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به اذا أمسى (لا يستطيعون ضربا) أى سفرا (فى الارض) للتجارة والمعاش لشغلهم عنه بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (اغنياء من التعفف) أى لاجل تعففهم عن السؤال وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها (تعرفهم) أيها المخاطب (بسيماهم) أى بعلامتهم من التخشع والتواضع وصفرة الوجوه ورثاثة الحالة (لا يسألون الناس) شيأ فيلحفون (الحافا) أى لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم الحاف ومثل ذلك قول الشاعر

لا يفزع الارنب أهوالها * ولا ترى الضب بها ينجحر

أى ليس فيها أرنب فيفزع لهولها ولا ضب فينجحر وليس المعنى انه ينفى الفزع عن الارنب والانجحار عن الضب والالحاف الالحاح وهو اللزوم وأن لا يفارق الا بشئ يعطاه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى اعطانى من فضل ما عنده وقيل انهم ان سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا

قال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيى الحليم المتعفف ويبغض البذى السائل الملحف وقال صلى الله عليه وسلم لان يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيكف بها وجهه خيرله من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أومنعوه وقال صلى الله عليه وسلم من سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خدوش قيل يارسول الله ومايغنيه قال خمسون درهما أوقيمتها (وماتنفقوا من خير) أى مال (فان الله به عليم) فيجازيكم وفى هذا ترغيب فى الانفاق (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) أى يعمون الاوقات والاحوال بالصدقة لحرصهم على الخير نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية وفى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كانت عنده أربعة دراهم لايملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وقال الاوزاعى نزلت فى الذين يربطون الخيل للجهاد فانها تعلف ليلا ونهارا سرا وعلانية روى انه صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة وقوله تعالى (فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) خبر الذين ينفقون والفاء للسببية (فان قيل) أى فرق بين قوله هنا فلهم أجرهم وفيما مر لهم أجرهم (أجيب) بأن الموصول ثم لم يضمن معنى الشرط وضمنه هنا (الذين يأكلون الربوا) أى يأخذونه وهو لغة الزيادة وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أومع تأخير فى البدلين أوأحدهما وهو ثلاثة أنواع ربا الفضل وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر وربا اليد وهو البيع مع تأخير قبضهما أوقبض أحدهما وربا النساء وهو البيع الى أجل وانماذكر الاكل لانه أعظم منافع المال كقوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فنبه بالاكل على ماسواه من وجوه الاتلافات ولان نفس الربا الذى هو الزيادة لايؤكل وانما يصرف فى المأكول وقال صلى الله عليه وسلم لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل له فعلمنا ان الحرمة غير مختصة بالاكل * ولما كان بين الصدقة والربا مناسبة من جهة التضاد لان الصدقة عبارة عن تنقيص المال بأمر الله بذلك والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا كالمتضادين ذكر عقب الصدقة ويرسم بالواو والالف بعد الواو وانما رسم على لغة من يفخم وهو يميل الالف أى يخرج الواو كما كتبت الصلاة والزكاة وقيل لان أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ولغتهم الربو بالواو الساكنة فعلموهم الخط على لغتهم وزيدت الالف بعدها تشبيها بواو الجمع (لايقومون) اذا بعثوا من قبورهم (الا) أى قياما (كما يقوم الذى يتخبطه) أى يصرعه (الشيطان) وقوله تعالى (من المس) أى الجنون متعلق بيتخبطه من جهة الجنون فيكون فى موضع نصب قاله أبو البقاء والمعنى ان آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كالمصروع تلك سيماه يعرف بها عند أهل الموقف (فان قيل) لم نسب هذا للشيطان (أجيب) بأنه وارد على ماتزعم العرب ان الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتى تطأ الناس

وتضرب الارض بقوائمها ويقال للرجل الذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه انه يخبط خبط عشواء وتخبطه الشيطان اذا مسه بخبل اوجنون لانه كالضرب على غير استواء فى الادهاش (ذلك) أى الذى نزل بهم (بأنهم) أى بسبب انهم (قالوا انما البيع مثل الربوا) فى الجواز (فان قيل) ما الحكمة فى قلب القصة ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق لان حل البيع متفق عليه وهم أرادوا قياس الربا عليه فكان نظم الكلام أن يقال انما الربا مثل البيع (أجيب) بأن هذا من عكس التشبيه مبالغة اذ به صار المشبه مشبها به وبالعكس وشان المشبه به أن يكون أقوى من المشبه أو بأنهم لم يكن مقصودهم أن يتمسكوا بنظم القياس بل كان غرضهم ان البيع والربا متماثلان فى جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والآخر بالحرمة وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز وقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربوا) انكار لتسويتهم وابطال القياس لمعارضته النص *(تنبيه)* أظهر قولى الشافعى ان هذه الآية عامة فى كل بيع الا ما خص بالسنة وانه صلى الله عليه وسلم نهى عن بيوع والثانى انها مجملة والسنة مبينة لها وتظهر فائدة الخلاف فى الاستدلال بها فى مسائل الخلاف فعلى الاول يستدل بها وعلى الثانى لا يستدل (فمن جاءه) أى بلغه (موعظة) أى وعظ (من ربه) وزجر بالنهى عن الربا (فانتهى) أى فاتبع النهى وامتنع من أكله (فله ما سلف) أى ما مضى قبل النهى فلا يسترد منه ما أخذه من الربا وقيل ما مضى من ذنبه قبل النهى مغفور له (وأمره الى الله) بعد النهى ان شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وان شاء خذله حتى يعود وقيل أمره الى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس له من أمر نفسه شىء (ومن عاد) الى تحليل الربا مشبها له بالبيع فى الحل (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لانهم كفروا بذلك وورد انه صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور وأنه صلى الله عليه وسلم قال الربا سبعون بابا أهونها عند الله عز وجل كالذى ينكح أمه (يمحق الله الربوا) أى يذهب بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه وعن ابن مسعود الربا وان كثر فالى قل (ويربى الصدقات) أى يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم فلوه وروى الامام أحمد ما نقص مال من صدقة (والله لا يحب كل كفار) أى مصر على تحليل المحرمات كمن يحلل الربا (أثيم) منهمك فى ارتكابه (ان الذين آمنوا) بالله وبرسوله وبما جاءهم عنه (وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) وانما عطفهما على ما يعمهما لشرفهما (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من آت (ولا هم يحزنون) على فائت وتقدم مثل هذه الآية ولكن جرت عادة الله سبحانه وتعالى فى القرآن مهما ذكر وعيدا ذكر بعده وعدا فلما بالغ هنا فى وعيد الربا أتبعه بهذا الوعد (فان قيل) ان الانسان اذا بلغ عارفا بالله وقبل وجوب الصلاة والزكاة عليه مات فهو من أهل الثواب بالاتفاق فدل على ان استحقاق الثواب لا يتوقف على حصول العمل (أجيب) بأنه تعالى انما ذكر هذه الخصال لا لاجل ان استحقاق الثواب مشروط بهذا بل لاجل ان لكل

منهما أثرا في جلب الثواب كما قال تعالى في ضد هذا والذين لا يدعون مع الله الها آخر ثم قال تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما ومعلوم ان من ادعى أن مع الله الها آخر لا يحتاج في استحقاقه العذاب الى عمل آخر وانما جمع الله تعالى الزنا وقتل النفس مع دعاء غير الله تعالى الها ليبيان ان كل واحد من هذه الخصال يوجب العقوبة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربوا) أي اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا الذي أخذتم بعضه قبل التحريم (ان كنتم مؤمنين) أي بقلوبكم أو ان ان بمعنى اذ فان دليل الايمان امتثال ما أمرتم به روي انها نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهي بربا كان له قبل (فان لم تفعلوا) أي تذروا ما بقي من الربا (فأذنوا) أي اعلموا من أذن بالشئ اذا علم به أي فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) لكم (فان قيل) هذا حكمهم ان تابوا فما حكمهم ان لم يتوبوا (أجيب) بأن مقتضى ذلك انهم يقاتلون ان لم يرجعوا قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعاني حرب الله تعالى النار وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم السيف وقرأ شعبة وحمزة فآذنوا بفتح الهمزة ومدها وكسر الذال أي فأعلموا بها غيركم وهو من الاذن وهو الاستماع لانه من طريق العلم والباقون بسكون الهمزة وفتح الذال (وان تبتم) أي تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه (فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون) بطلب الزيادة (ولا تظلمون) بالنقصان عن رأس المال (فان قيل) هلا قال تعالى بحرب الله ورسوله (أجيب) بأن هذا أبلغ لان المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله صلى الله عليه وسلم * ولما نزلت هذه الآية قال المرابون بل نتوب الى الله فانه لا ثبات لنا بحرب من الله ورسوله فرضوا برأس المال فشكا من عليه الدين العسرة وقالوا لمن لهم الدين اخرونا الى أن ندرك الغلات فأبوا أن يؤخروا فأنزل الله تعالى (وان كان ذو عسرة فنظرة) له أي عليكم تأخيره (الى ميسرة) أي وقت يسره * (تنبيه) * في كان هذه وجهان أظهرهما انها تامة بمعنى حدث ووجد أي وان حدث ذو عسرة فتكتفي بفاعلها كسائر الافعال والثاني انها ناقصة وخبرها محذوف قال أبو البقاء تقديره وان كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك وقدره بعضهم وان كان ذو عسرة غريما وقرأ نافع بضم السين والباقون بفتحها (وأن تصدقوا) أي بالابراء وقرأ عاصم بتخفيف الصاد والباقون بالتشديد على ادغام التاء في الاصل والتخفيف على حذفها (خير لكم) أي أكثر ثوابا من الانظار وهذا مما فضل المندوب فيه الواجب فان الابراء مندوب اليه والانظار واجب فيحرم حبس المعسر وهل القول قوله في اعساره أولا بد من بينة تشهد بذلك ينظر ان كان الدين عن عوض كالبيع والقرض فلا بد من بينة وان كان عن غير عوض كالضمان والاتلاف والصداق فالقول قول المعسر بيمينه وعلى الغريم البينة الا أن يعرف له مال فلا بد من بينة (ان كنتم تعلمون) فضل التصدق على الانظار فافعلوا وقيل المراد بالتصدق الانظار نفسه ورده هذا كما قال الامام بأن الانظار قد علم مما قبل فلا بد من حمله على فائدة جديدة قال عليه الصلاة والسلام لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة وروى من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله من كرب يوم القيامة

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تلقت روح رجل كان قبلكم فقالوا له هل عملت خيرا قط قال لا قالوا تذكر قال الا انى رجل كنت أداين الناس فكنت آمر فتيانى بأن ينظروا الموسر ويتجاوزوا عن المعسر قال الله تعالى تجاوزوا عنه وقال صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله (واتقوا يوما ترجعون) أى تصيرون (فيه الى الله) هو يوم القيامة أى فتأهبوا لمصيركم اليه وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم (ثم توفى) فيه (كل نفس) جزاء (ما كسبت) أى عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) بنقص حسنة أو زيادة سيئة *(فائدة)* قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم احدا وعشرين يوما وقال ابن جريج تسع ليال وقال سعيد بن جبير سبع ليال ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول وقيل ثلاث ساعات وقال الشعبى عن ابن عباس آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا ولما منع الله من الربا أذن فى السلم والقرض بما يعمهما فقال (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) كسلم وقرض (الى أجل مسمى) أى معلوم ولذا قال بعض العلماء لا لذة ولا منفعة يتوصل اليها بالطريق الحرام الا والله سبحانه وتعالى وضع لتحصيل مثل تلك اللذة طريقا حلالا وسبيلا مشروعا (فان قيل) المداينة مفاعلة وحقيقتها أن يحصل من كل واحد منهما دين وذلك هو بيع الدين بالدين وهو باطل بالاتفاق (أجيب) بأن المراد من تداينتم تعاملتم والتقدير تعاملتم بما فيه دين (فان قيل) هلا اكتفى بقوله اذا تداينتم الى أجل وأى حاجة الى ذكر الدين (أجيب) بأنه ذكر ليرجع الضمير اليه فى قوله (فاكتبوه) اذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن وائلا يتوهم من التداين المجازاة ولانه أبين لتنويع الدين الى مؤجل وحال وفائدة قوله مسمى ليعلم أن من حق الاجل أن يكون معلوما كالتوقيت بالسنة والاشهر والايام ولو قال الى الحصاد أو الدراس أو رجوع الحاج لم يجز للجهل بوقت الاجل وانما أمر بكتابة الدين لان ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود (فان قيل) ان كلمة اذا لا تفيد العموم والمراد من الآية العموم لان المعنى كلما تداينتم بدين فاكتبوه فلم عدل عن كلما وقال اذا تداينتم (أجيب) بأن كلمة اذا وان كانت لا تقتضى العموم الا أنها لا تمنع من العموم وههنا قام الدليل على أن المراد هو العموم واختلفوا فى هذه الكتابة فقال بعضهم هى واجبة والاكثرون على أنه أمر استحباب فان ترك فلا بأس كقوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وقال بعضهم كانت كتابة الدين والاشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله تعالى فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ثم بين كيفية الكتابة فقال تعالى (وليكتب) أى كتاب الدين (بينكم كاتب بالعدل) أى بالحق فى كتابته لا يزيد فى المال أو الاجل ولا ينقص وهو فى الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء مكتوبه موثوقا به معدلا بالشرع

مع أن ظاهره أمر للكاتب (ولا يأب) أى لا يمتنع (كاتب) من (أن يكتب) اذا دعى اليها (كما علمه) أى فضله (الله) بالكتابة فلا يبخل بها بل ينفع الناس بها كما نفعه الله بتعليمها كقوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك والكاف متعلقة بيأب (فليكتب) تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن الاباءة تأكيدا (وليملل الذى عليه الحق) أى وليكن المملل على الكاتب من عليه الحق لانه المقر المشهود عليه والاملال والاملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن فالاملال ههنا وهو لغة الحجاز والاملاء قوله تعالى فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وهى لغة تميم (وليتق الله ربه) أى كل من المملى والكاتب (ولا يبخس) أى لا ينقص (منه) أى من الحق أو مما أملى عليه (شيأ فان كان الذى عليه الحق سفيها) أى مبذرا (أو ضعيفا) أى صغيرا أو كبيرا اختل عقله لكبره (أو لا يستطيع أن يمل هو) لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك (فليملل وليه) أى متولى أمره من والد ووصى وقيم ووكيل ومترجم (بالعدل) وفى هذا دليل على جريان النيابة فى الاقرار قال البيضاوى ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل أى دون المترجم ودونهما فيما لم يتعاطياه (واستشهدوا) أى وأشهدوا (شهيدين) أى شاهدين (من رجالكم) أى البالغين الاحرار المسلمين دون الصبيان والعبيد والكفار وأجاز ابن سيرين شهادة العبيد وأبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض (فان لم يكونا) أى الشاهدان (رجلين فرجل) أى فليشهد أو فالمستشهد رجل (وامرأتان) وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الاموال حتى تثبت برجل وامرأتين واختلفوا فى غير الاموال فذهبت جماعة الى أنه تجوز شهادتهن مع الرجال فى غير العقوبات وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب جماعة الى أن غير المال لا يثبت الا برجلين عدلين وذهب الشافعى الى أن ما يطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها تثبت بشهادة رجل وامرأتين وشهادة أربع نسوة واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة فى العقوبات (ممن ترضون من الشهداء) أى من كان مرضيا لدينه وأمانته *(تنبيه)* شروط قبول الشهادة سبعة الاسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروأة وانتفاء التهمة فمتى فقد شرط منها لم تصح تلك الشهادة وانما اشترط التعدد فى النساء لاجل (أن تضل) أى تنسى (احداهما) أى الشهادة لنقص عقلهن وضبطهن (فتذكر) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون الذال وتخفيف الكاف والباقون بفتح الذال وتشديد الكاف وقرأ حمزة برفع الراء والباقون بالنصب (احداهما) أى الذاكرة (الاخرى) أى الناسية قال الزمخشرى ومن بدع التفاسير فتذكر أى فتجعل احداهما الاخرى ذكرا يعنى انهما اذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر وقرأ حمزة وحده ان تضل احداهما على الشرط فتذكر بالرفع والتشديد كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه وجملة الاذكار محل العلة أى لتذكر ان ضلت ودخلت على الضلال لان الضلال سبب الاذكار وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر (ولا يأب) أى ولا يمتنع (الشهداء اذا ما) أى اذا (دعوا) لاداء الشهادة والتحمل فما مزيدة وسموا شهداء على هذا الثانى تنزيلا لما يشارف منزلة الواقع (ولا تسأموا)

أى تملوا من (أن تكتبوه) أى ماشهدتم عليه من الحق لكثرة وقوعه أو تكسلوا من أن تكتبوه فكنى عن السآمة التى تكون بعد الشروع للكثرة بالكسل الذى يكون ابتداء لكونها من لوازمه لان الكسل صفة المنافق قال تعالى واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى وقال صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت (صغيرا) كان ذلك الحق (أو كبيرا) قليلا أو كثيرا وقوله تعالى (الى أجله) أى وقت حلوله الذى أقر به المديون حال من الهاء فى تكتبوه (ذلكم) أى الكتب (أقسط) أى أعدل (عند الله وأقوم للشهادة) أى أعون على اقامتها لانه يذكرها *(تنبيه)* يجوز على مذهب سيبويه أن يكون أقسط وأقوم مبنيين من أقسط وأقام وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذى قسط وأقوم من قويم أو هما مبنيان من أقسط وأقام لامن قسط وقام لان قسط بمعنى جار والمعنى هنا على العدل والفعل منه أقسط فلزم أن يكون أقسط فى الآية من المزيد لقصد الزيادة فى المقسط قال تعالى ان الله يحب المقسطين لامن المجرد لان معناه الزيادة فى القاسط وهو الجائر قال تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وكذا أقوم معناه أشد اقامة لا قياما وبناؤهما من ذلك على غير قياس والقياس أن يكون البناء من المجرد لامن المزيد ويجوز أن يكون بناؤهما من قاسط بمعنى ذى قسط أى عدل وبمعنى قويم أى ذى استقامة على طريقة النسب كلابن وتامر فيكون أفعل لافعل له وانما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده (وأدنى) أى وأقرب الى (أن لا ترتابوا) أى تشكوا فى قدر الحق وجنسه والشهود والاجل ونحو ذلك (الا أن تكون تجارة حاضرة) وهى تعم المبايعة بدين أو عين (تديرونها بينكم) أى تتعاطونها يدا بيد (فليس عليكم جناح) أى لا بأس اذا تبايعتم يدا بيد (أن لا تكتبوها) فهو استثناء من الامر بالكتابة لبعده حينئذ عن التنازع والنسيان وقرأ عاصم بنصب التاء فيهما على أن تجارة هى الخبر والاسم مضمر تقديره الا أن تكون التجارة تجارة حاضرة والباقون بالرفع فيهما على ان تجارة هى الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة (وأشهدوا) أى ندبا (اذا تبايعتم) عليه سواء كان ناجزا أو كالئا فانه أدفع للاختلاف فهو تعميم بعد تخصيص احتياطا فى جميع المبتاعات ويجوز أن يراد هذا التبايع الذى هو التجارة الحاضرة على أن الاشهاد كاف فيه دون الكتابة وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) أصله يضارر وأدغمت احدى الراءين فى الاخرى ونصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين واختلفوا فمنهم من قال أصله يضارر بكسر الراء الاولى وجعل الفعل للكاتب والشهيد ومعناه نهيهما عن ترك الاجابة وعن التحريف والتغيير فى الكتابة والشهادة ومنهم من قال أصله يضارر بفتح الراء على الفعل المجهول وجعلوا الكاتب والشاهد مفعولين ومعناه النهى عن الضرار بهما مثل أن يعجلا عن مهم ويكلفا الخروج عما حد لهما ولا يعطى الكاتب جعله ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كان والمنهى حينئذ المتبايعان فالآية محتملة للبناء للفاعل وللبناء للمفعول فتحمل عليهما معا أو على كل منهما والاولى أولى (وان تفعلوا) مانهيتم عنه من الضرار (فانه فسوق بكم) أى معصية وخروج عن الامر (واتقوا الله)

فى مخالفة أمره ونهيه (ويعلمكم الله) أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شئ عليم) كرّر لفظ الله فى الجمل الثلاث لاستقلالها فانّ الاولى حث على التقوى والثانية وعد بانعامه والثالثة تعظيم لشأنه عزوجل ولانه أدخل فى التعظيم من الضمير وهذا آخر آية الدين وقد حث سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط فى أمر الاموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد قال تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية قال القفال رحمه الله تعالى ويدل على ذلك انّ ألفاظ القرآن جارية فى الاكثر على الاختصار وفى هذه الآية بسط شديد ألا ترى انه قال اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لانّ العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعا فليكتب وهذا اعادة للامر الاول ثم قال خامسا وليملل الذى عليه الحق وفى قوله تعالى وليكتب بينكم كاتب بالعدل كفاية عن قوله وليملل الذى عليه الحق لانّ الكاتب بالعدل انما يكتب ما على عليه ثم قال سادسا وليتق الله ربه وهذا تأكيد ثم قال سابعا ولا يبخس منه شيأ وهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله وهو أيضا تأكيد لما مضى ثم قال تاسعا ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله والاعراض عن مساخط الله تعالى من الربا وغيره والمواظبة على تقوى الله (وان كنتم على سفر) أى مسافرين وتداينتم فعلى بمعنى فى لئلا يتوهم ان المعنى على نية سفر (ولم تجدوا كاتبا فرهن) أى فعليكم رهن (مقبوضة) تستوثقون بها وبينت السنة جواز الرهن فى الحضر ومع وجود الكاتب فقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لاهله فالتقييد بما ذكر لانّ التوثق به أشد وعن مجاهد والضحاك انهما لم يجوزاه الا فى السفر أخذا بظاهر الآية وأفاد قوله تعالى مقبوضة اشتراط القبض أى فى لزوم الرهن لا فى صحته والاكتفاء به من المرتهن ووكيله ولا يشترط القبض عند مالك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء ولا ألف بعدها والباقون بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون (فان أمن بعضكم) اى الدائن (بعضا) أى المديون واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤدّ الذى اؤتمن) أى المدين (أمانته) أى دينه سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرأ ورش فليوديّ بابدال الهمزة واوا واذا وصل السوسى وورش الذى ائتمن أبدلا الهمزة ياء وفى الابتداء بهمزة مضمومة للجميع (وليتق الله ربه) فى الخيانة وانكار الحق وفيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة الامر الظاهرة فى الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الامر بأداء الدين (ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود اذا دعيتم لاقامتها أو المديونون وعلى هذا فشهادتهم اقرارهم على أنفسهم (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) فان قيل هلا اقتصر على قوله فانه آثم وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده (أجيب) بأن كتمان الشهادة

هو أن يضمرها ولا يتكلم بها فلما كان أى الكتمان انما مقترفا أى مختلطا بالقلب أسند اليه لانه محل كتمان الشهادة واسناد الفعل الى الجارحة التى يعمل بها أبلغ ألا ترى انك تقول اذا أردت التوكيد هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى ولان القلب هو رئيس الاعضاء والمضغة التى ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل فقد تمكن الاثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط وليعلم ان القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه واللسان ترجمان عنه ولان أفعال القلوب أعظم من سائر أفعال الجوارح وهى لها كالاصول التى تتشعب منها ألا ترى ان أصل الحسنات والسيآت الايمان والكفر وهما من أفعال القلوب واذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بانه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أكبر الكبائر الاشراك بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة *(تنبيه)* آثم خبران وقلبه رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل فانه يأثم قلبه ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبران وقوله تعالى (والله بما تعملون عليم) تهديد لانه لا يخفى عليه منه شئ (لله ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا قال الجلال السيوطى وعبيدا ولعل ذكره بعدملكا لئلا يتوهم ان ما لما لا يعقل (وان تبدوا) أى تظهروا (ما فى أنفسكم) من السوء والعزم عليه (أو تخفوه) أى تسروه (يحاسبكم) أى يجزكم (به الله) يوم القيامة والآية حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض (فيغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه وهذا صريح فى نفى وجوبه وقرأ ابن عامر وعاصم برفع الراء من يغفر ورفع الباء من يعذب على الاستئناف والباقون بجزمهما عطفا على جواب الشرط وادغم الراء المجزومة فى اللام السوسى واختلف عن الدورى وقول الزمخشرى ومدغم الراء فى اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشا وراويه عن أبى عمرو يعنى السوسى مخطئ مرتين لانه يلحن وينسب اللحن الى أعلم الناس بالعربية مايؤذن بجهل عظيم والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فى قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا الا أهل النحو مردود لانه مبنى على القول بأن الراء انما تدغم فى الراء لتكرره القائت بادغامها فى اللام ورد بأن ذلك قراءة أبى عمرو وهى متواترة مع أن القول بامتناع ادغام الراء فى اللام انما هو مذهب البصريين وأما الكوفيون بل وبعض البصريين كأبى عمرو فقائلون بالجواز كما نقله عنهم أبو حيان ونقل أبو عمرو والكسائى وأبو جعفر صحة ادغام صارلى وصارلك عن العرب ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ووجه الجعبرى ادغام الراء فى اللام بتقارب مخرجيهما على رأى سيبويه وتشاركهما على رأى الفراء وتجانسهما فى الجهر والانفتاح والاستفال (والله على كل شئ قدير) فيقدر على جزائكم ومحاسبتكم وقوله تعالى (آمن) أى صدق (الرسول) أى محمد صلى الله عليه وسلم (بما أنزل اليه من ربه) أى من القرآن فيه شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة ايمانه والاعتداد به وانه جازم فى أمره غير شاك فيه وقوله تعالى (والمؤمنون) عطف على الرسول

(كل) من الرسول والمؤمنين واختلف فى تنوين كل فقيل تنوين عوض من المضاف اليه وقيل تنوين التمكين قال الشيخ خالد الوقاد وهو الاصح (آمن بالله وملائكته) وقرأ (وكتبه) حمزة والكسائى بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على التوحيد على أن المراد به الجنس والباقون بضم الكاف والتاء على الجمع (ورسله) يقولون (لا نفرق بين أحد) أى جمع (من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى فأحد اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث فحيث أضيف بين اليه أو أعيد ضمير جمع اليه أو نحو ذلك فالمراد به جمع من الجنس الذى يدل الكلام عليه ويجوز أن يقدر القول مفردا باعتبار كل وانما احتيج الى التقدير لاجل قوله تعالى لا نفرق ولو قال تعالى لا يفرقون لم يحتج الى ذلك (وقالوا سمعنا) أى ما أمرنا به سماع قبول (وأطعنا) أمرك نسألك (غفرانك ربنا واليك المصير) أى المرجع بعد الموت وهو اقرار منهم بالبعث روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه انه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لله ما فى السموات وما فى الارض وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله الآية قال فاشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب وقالوا أى رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقرأها القوم وذلت ألسنتهم أنزل الله تعالى فى اثرها آمن الرسول الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى بقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أى ما تسعه قدرتها وان شق فضلا ورحمة (لها ما كسبت) من الخير أى ثوابه (وعليها ما اكتسبت) من الشر أى وزره فلا ينتفع بطاعتها غيرها ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا بما لم يكتسبه مما وسوست به نفسه كما يفيده تقديم الخبر وهو لها وعليها من الحصر وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به (فان قيل) لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب (أجيب) بأن فى الاكتساب اعتمالا أى اضطرابا فى العمل مبالغة واجتهادا فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة اليه وامارة به كانت أشد حبا واجتهادا فى تحصيله وأعملت فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال قولوا (ربنا لا تؤاخذنا) أى لا تعاقبنا (ان نسينا أو أخطأنا) أى بما أدى بنا الى النسيان أو الخطا من تفريط وقلة مبالاة لان المؤاخذة انما هى بالمقدور والنسيان والخطا ليس بمقدورين ويجوز أن يراد نفس النسيان والخطا أى لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا قال الكلبى كان بنو اسرائيل اذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطؤا عجلت لهم العقوبة فحرم عليهم شئ من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه

(فان قيل) النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما (أجيب) بأن المراد
بذكرهما ماهما مسببان عنه من التفريط والاغفال ألا ترى الى قوله وما أنسانيه الا الشيطان
والشيطان لا يقدر على فعل النسيان وانما يوسوس فتكون وسوسته سببا للتفريط الذى منه
النسيان ويجوز أن يدعو الانسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته
وذكره بلفظ الدعاء على معنى التحدث بنعمة الله فيه قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث
(ربنا ولا تحمل علينا اصرا) أى لا تكلفنا أمرا يثقل علينا حمله (كما حملته على الذين من قبلنا)
أى بنى اسرائيل من قتل النفس فى التوبة واخراج ربع المال فى الزكاة وقطع موضع النجاسة
من الجلد والثوب وغير ذلك قاله الكشاف قال البيضاوى وخمسين صلاة فى اليوم والليلة
ونسبها غيره من المفسرين الى اليهود ولا تنافى بينهما اذ المراد من بنى اسرائيل هم اليهود ومنهم فلا ٢
يرد على هذا ما قيل ان بنى اسرائيل لم يفرض عليهم خمسون صلاة بل ولا خمس صلوات مع أن من
حفظ حجة على من لم يحفظ (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة) أى قوة (لنا به) من البلاء والعقوبة ومن
التكاليف التى لا تفى به الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق والا لما سئل
التخلص منه والتشديد ههنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان لا للمبالغة (واعف عنا) أى امح
ذنوبنا (واغفر لنا) أى استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة بها (وارحمنا) وتعطف بنا
وتفضل علينا فاننا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك الا برحمتك (أنت مولانا) أى سيدنا
ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) باقامة الحجة والغلبة فى قتالهم فان من حق
المولى أن ينصر مواليه على الاعداء أو المراد بالكافرين عامة الكفر روى سعيد بن جبير عن
ابن عباس فى قوله تعالى غفرانك ربنا قال الله تعالى قد غفرت لكم وفى قوله لا تؤاخذنا
ان نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا اصرا قال لا أحمل عليكم ولا تحملنا
ما لا طاقة لنا به قال لا أحملكم واعف عنا الخ قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم
ونصرتكم على القوم الكافرين وكان معاذ اذا ختم سورة البقرة قال آمين وروى مسلم وغيره
انه صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات قيل له عقب كل كلمة قد فعلت وعن عبد الله انه قال
لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به الى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة اليها
ينتهى ما يعرج به من الارض فيقبض منها واليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال
اذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا
أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيأ
المقحمات وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنزل الله تعالى آيتين أولهما آمن الرسول من
كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة
أجزأتاه عن قيام الليل والكتابة باليد تمثيل وتصوير لاثباتهما وتقديرهما بألفى سنة تصوير
لتقدمهما الان مثل هذا يقال لطول الزمان لا للتحديد وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أوتيت
خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال

من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه أى عن قيام الليل أو عن كل ما يسوءه وهذا يرد قول من استنكر أن يقال سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه الصلاة والسلام السورة التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال السحرة أى انهم مع حذقهم لا يوفقون لتعليمها أو التأمل فى معانيها أو العمل بما فيها وسموا بطلة لانهماكهم فى الباطل أو لبطالتهم عن أمر الدين والفسطاط الخيمة أو المدينة الجامعة سميت به السورة لاشتمالها على معظم أصول الدين وفروعه والارشاد الى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه انه رمى الجمرة ثم قال من ههنا والذى لا اله الا هو رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف والممتحنة والمجادلة وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والارض بألفى عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فلا يقربها شيطان انتهى

قوله فلا يقرآن الخ كذا فى النسخ التى هى بأيدينا وفى الجمل ان الله عز وجل كتب كتابا قبل ان يخلق الخلق بألفى عام فأنزل منه هذه الثلاث آيات التى ختم بهن سورة البقرة من قرأهن فى نفسه لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال انتهى

(سورة آل عمران مدنية)

باتفاق وآياتها مائتان أو الا آية وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفا وخمسمائة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذى له صفات الكمال فاستحق التفرد بالالوهية (الرحمن) الذى سرت رحمته خلال الوجود فشملت كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) لمن توكل عليه بالعطف اليه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه فى أول سورة البقرة (الله لا اله الا هو) لم يقطع أحد من القراء السبعة هذه الهمزة التى فى الله فى الوصل واذا وقف على الم يبدأ بالهمزة وكل من القراء مد على الميم ووصل فى الوصل وانما فتح الميم لالتقاء الساكنين كما هو مذهب سيبويه وجمهور النحاة (فان قيل) أصل التقاء الساكنين الكسر فلم عدل عنه (أجيب) بأنهم لو كسروا لكان ذلك مفضيا الى ترقيق لام الجلالة والمقصود تفخيمها للتعظيم فأوثر الفتح لذلك كما حركوها فى نحو من الله وأيضا فقبل الميم ياء وهى أخت الكسرة وقبل هذه الياء كسرة فلو كسرنا الميم الاخيرة لالتقاء الساكنين لتوالى ثلاث متجانسات فحركوها بالفتح وأما سقوط الهمزة فواضح وبسقوطها التقى الساكنان وقيل ان هذه الفتحة ليست لالتقاء الساكنين بل هى حركة نقل أى نقلت حركة الهمزة التى قبل لام التعريف على الميم الساكنة نحو قد افلح فى قراءة ورش وهذا مذهب الفراء وجرى عليه الزمخشرى وأطال الكلام فيه ورده أبو حيان بما يطول ذكره وقوله تعالى الله مبتدأ وما بعده خبره وقوله تعالى (الحى القيوم) نعت له والحى هو الفعال الدراك والقيوم هو القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان اسم الله الاعظم فى ثلاث سور فى البقرة الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى آل عمران الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه

للحى القيوم ونقل البندنيجى عن أكثر العلماء ان الاسم الاعظم هو الله قال الكلبى والربيع ابن أنس وغيرهما نزلت هذه الآية فى وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفى الاربعة عشر ثلاثة نفر يؤل اليهم أمرهم العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد صاحب رحلهم واسمه الايهم وأبو حارثة بن علقمة حبرهم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات والحرث بن كعب يقول من وراءهم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم يصلوا الى المشرق فكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الاسلام ثلاثة أشياء دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير قالوا ان لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا فى عيسى فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون ان ربنا قيم على كل شئ يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا قال ألستم تعلمون ان الله لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علمه الله قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال وكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها (نزل عليك) يا محمد (الكتاب) أى القرآن متلبسا (بالحق) أى بالصدق فى اخباره أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو فى موضع الحال أى محقا (مصدقا لما بين يديه) أى قبله من الكتب (فان قيل) كيف سمى ما مضى بأنه بين يديه (أجيب) بأن تلك الاخبار لغاية ظهورها وكونها موجودة سماها بهذا الاسم (وأنزل التوراة) جملة على موسى عليه الصلاة والسلام (والانجيل) جملة على عيسى عليه الصلاة والسلام (من قبل) أى قبل تنزيل القرآن واختلف الناس فى هذين اللفظين هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف أولا يدخلانهما لكونهما أعجميين فلا يناسب كونهما مشتقين ورجح هذا الزمخشرى وقال قالوا ان هذين اللفظين اسمان عبرانيان لهذين الكتابين الشريفين وقوله تعالى (هدى) حال بمعنى هاديين من الضلالة ولم يثنه لانه مصدر (للناس) أى على العموم ان قلنا متعبدون بشرع من قبلنا وهو رأى والا فالمراد بالناس قومهما وانما عبر فى التوراة والانجيل بأنزل وفى القرآن بنزل المقتضى للتكرير لانهما أنزلا دفعة واحدة بخلافه وقيل ان القرآن أنزل من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا جملة واحدة ومن سماء الدنيا منجما فى ثلاث وعشرين سنة فحيث عبر فيه بأنزل أريد الاول أو بنزل أريد الثانى (فان قيل) يرد الاول بقوله تعالى هو الذى أنزل عليك الكتاب وبقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وبقوله

وبقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وبقوله تعالى وبالحق أنزلناه وبرد الثانى بقوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أجيب) بأن القول بذلك جرى على الغالب (وأنزل الفرقان) أى الكتب الفارقة بين الحق والباطل وذكره بعد الكتب الثلاثة ليعم ماعداها فكأنه قال وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل ولم يجمع لانه مصدر بمعنى الفرق كالغفران والكفران وقيل القرآن وكرر ذكره بما هو نعت له مدحا وتعظيما واظهارا لفضله من حيث انه يشاركهما فى كونه وحيا منزلا ويتميز بأنه معجز يفرق به بين المحق والمبطل وقيل أراد الكتاب الرابع وهو الزبور كما قال تعالى وآتينا داود زبورا قال الزمخشرى وهو ظاهر ولما قرر سبحانه جميع ما يتعلق بمعرفة الاله أتبع ذلك بالوعيد زجرا للمعرضين عن هذه الدلائل الباهرة فقال (ان الذين كفروا بآيات الله) من القرآن وغيره (لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم (والله عزيز) أى غالب على أمره فلا يمنعه شئ من انجاز وعده ووعيده (ذو انتقام) ممن عصاه والنقمة عقوبة المجرم أى يعاقبه عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها أحد (ان الله لا يخفى عليه شئ) كائن (فى الارض ولا فى السماء) لعلمه بما يقع فى العالم من كلى وجزئى (فان قيل) لم خصهما بالذكر مع انه عالم بجميع الاشياء (أجيب) بأنه تعالى انما خصهما به لان البصر لا يتجاوزهما (فان قيل) لم قدم الارض على السماء (أجيب) بأنها انما قدمت ترقيا من الادنى الى الاعلى وهذه الآية كالدليل على كونه حيا وقوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) أى من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد وحسن وقبح وتمام ونقص وغير ذلك كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه تعالى عالم باتقان فعله فى خلق الجنين وتصويره وفى هذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله واستدلوا على ذلك بأمور منها العلم فانه كان يخبر عن الغيوب ويقول لهذا انك أكلت فى دارك كذا ويقول لذاك انك صنعت فى دارك كذا ومنها القدرة وهى أن عيسى كان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا فكأنه تعالى يقول كيف يكون ولد الله وقد صوره فى الرحم والمصور لا يكون أب المصور ثم انه تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجرا للنصارى عن قولهم التثليث فقال (لا اله الا هو العزيز) فى ملكه وفيه اشارة الى كمال القدرة فقدرته تعالى أكمل من قدرة عيسى على الاماتة والاحياء (الحكيم) فى صنعه وفيه اشارة الى كمال العلم فعلمه أكمل من علم عيسى بالغيوب وأن علم عيسى ببعض الصور وقدرته على بعض الصور لا يدل على كونه الها بل على ان الله أكرمه بذلك اظهارا لمعجزته وعجزه عن الاحياء فى بعض الصور يوجب قطعا عدم الالهية لان الاله هو الذى يكون قادرا على كل الممكنات عالما بجميع الجزئيات والكليات قال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه الملك أو قال يبعث اليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد وقال وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق

عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم أربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب شقى أم سعيد فيكتبان فيقول أى رب ذكرا وأنثى فيكتبان فيكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص (هو الذى أنزل عليك) يا محمد (الكتاب) أى القرآن (منه آيات محكمات) أحكمت عبارتها بأن حفظت عن الاحتمال والاشتباه فهى واضحات الدلالة (هن أم الكتاب) أى أصله المعتمد عليه فى الاحكام ويحمل المتشابهات عليها وترد اليها ولم يقل أمهات الكتاب لان الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة وكلام الله واحد وقيل كل آية منهن أم الكتاب كما قال تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية أى كل واحد منهما آية وقوله تعالى (وأخر) نعت لمحذوف تقديره وآيات أخر (متشابهات) أى محتملات لا يتضح مقصودها الاجمال أو مخالفة ظاهر الا بالفحص والنظر (فان قيل) لم جعل بعضه متشابها وهلا كان كله محكما (أجيب) بأن فى المتشابه من الابتلاء حكمة عظيمة وهى التمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه وليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا فى تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات الدرجات العلى عند الله (فان قيل) لم فرق هنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل كل القرآن محكما فى موضع آخر فقال الر كتاب أحكمت آياته وجعل كله متشابها فى موضع آخر فقال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (أجيب) بأنه حيث جعل الكل محكما فمعناه ان آياته حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ وحيث جعل الكل متشابها فمعناه ان آياته يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ *(تنبيه)* أخر جمع أخرى وانما لم ينصرف لانه وصف معدول عن الاخريات ففيه الوصف والعدل وهما علتان تمنعان الصرف (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق كالمبتدعة (فيتبعون ما تشابه منه) أى فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل (ابتغاء الفتنة) أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه (وابتغاء تأويله) أى وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه (وما يعلم تأويله) أى الذى يجب أن يحمل عليه (الا الله والراسخون فى العلم) أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه وسئل مالك بن أنس عن الراسخين فى العلم قال العالم العامل بما علم المتبع وقال غيره هو من وجد فى علمه أربعة أشياء التقوى بينه وبين الله تعالى والتواضع بينه وبين الخلق والزهد بينه وبين الدنيا والمجاهدة بينه وبين نفسه *(تنبيه)* اختلف العلماء فى نظم هذه الآية فقال قوم الواو فى قوله والراسخون واو العطف أى ان تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم

(يقولون آمنا به) وهذا قول مجاهد والربيع وعلى هذا يكون قوله يقولون حالا معناه والراسخون فى العلم قائلين آمنا به وذهب الاكثرون الى أن الواو فى قوله والراسخون واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله وما يعلم تأويله الا الله وهو قول أبى بن كعب وعائشة وغيرهما وقالوا لا يعلم تأويل المتشابه الا الله ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحدا من خلقه كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال وعدد الزبانية ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها والخلق متعبدون فى المتشابه بالايمان به وفى المحكم بالايمان به والعمل وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن الى أن قالوا آمنا به قال فى الكشاف والاول هو الاوجه اه ووجهه شيخنا القاضى زكريا بقوله لان المتشابه على الثانى يصير الخطاب به كالخطاب بالمهملات اه ومع هذا فالوجه هو الثانى لانه أشبه بظاهر الآية ويدل له وجوه أحدها انه ذم طالب المتشابه بقوله تعالى فأما الذين فى قلوبهم زيغ الآية وثانيها انه مدح الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا به وقال فى أول البقرة فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التفصيل لما كان لهم فى الايمان به مدح لان كل من عرف شيأ على سبيل التفصيل فلا بد أن يؤمن به وثالثها لو كان قوله والراسخون معطوفا لصار قوله يقولون آمنا به ابتداء وهو بعيد عن الفصاحة وكان الاولى أن يقال وهم يقولون أو يقال ويقولون (فان قيل) فى تصحيحه وجهان الاول أن يقولون خبر مبتدا والتقدير هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا الثانى أن يكون يقولون حالا من الراسخون (أجيب) بأن الاول مدفوع بأن تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه الى اضمار أولى والثانى أن ذا الحال هو الذى تقدم ذكره وهم الراسخون فوجب أن يكون قوله آمنا به حالا من الراسخون لا من الله وذلك ترك للظاهر ورابعها قوله تعالى (كل) أى من المحكم والمتشابه (من عند ربنا) معناه أنهم آمنوا بما عرفوا تفصيله وبما لم يعرفوا تفصيله ولو كانوا عالمين بالتفصيل فى الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة وخامسها نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير لا يسع أحدا جهله وتفسير تعرفه العرب بألسنتها وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله تعالى وسئل مالك بن أنس رضى الله تعالى عنهما عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فقال الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة (فان قيل) ما الفائدة فى لفظ عند ولو قال كل من ربنا لحصل المقصود (أجيب) بأن الايمان بالمتشابه يحتاج فيه الى مزيد التأكيد (فان قيل) لم حذف المضاف اليه من كل (أجيب) بأن دلالته على المضاف اليه قوية فالامن من اللبس بعد الحذف حاصل (وما يذكر) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى ما يتعظ بما فى القرآن (الا أولو الالباب) أى أصحاب العقول *(تنبيه)* وجه اتصال هذه الآية وأولها هو الذى أنزل عليك الكتاب بما قبلها وأولها هو الذى يصوركم فى الارحام انه لما بين أنه قيوم وهو القائم بمصالح الخلق والمصالح قسمان جسمانى وروحانى

فالجسمانى أشرفها تعديل البنية على أحسن شكل وهو المراد بقوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام وأما الروحانى فأشرفها العلم وهو المراد بقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب ولما حكى سبحانه وتعالى عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون آمنا به حكى أنهم يقولون (ربنا لاتزغ) أى لاتمل (قلوبنا) عن طريق الحق الى اتباع المتشابه بتأويل لاترتضيه (بعد اذ هديتنا) ووفقتنا لدينك والايمان بالمحكم والمتشابه قال عليه الصلاة والسلام قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه أى القلب على الحق وان شاء أزاغه عنه رواه الشيخان وغيرهما وقيل لاتبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا وعلى هذا اقتصر الزمخشرى ووجه بأن ماذكر كناية أو مجاز اذ لا تحسن من الله الازاغة ليستدل نفيها وهذا بناء على مذهبه من الاعتزال وأما مذهب أهل السنة فالزيغ والهداية خلق الله تعالى وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم يامقلب القلوب والابصار ثبت قلوبنا على دينك وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا وبطنا (وهب لنا) أى أعطنا (من لدنك) أى من عندك (رحمة) أى توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الايمان والهدى أو مغفرة للذنوب (انك أنت الوهاب) لكل سؤل وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى وأنه متفضل بما ينعم على عباده لايجب عليه شئ ما (ربنا انك جامع الناس) أى تجمعهم (ليوم) أى فى يوم (لاريب) أى لاشك (فيه) أى فى وقوعه ومافيه من الحشر والجزاء وهو يوم القيامة فتجازيهم بأعمالهم كما وعدت وقوله تعالى (ان الله لايخلف الميعاد) أى موعده بالبعث يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى وأن يكون من كلام الراسخين فيكون فيه التفات عن الخطاب وكأنهم لما طلبوا من ربهم الصون عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة قالوا ليس الغرض من هذا السؤال مايتعلق بمصالح الدنيا فانها منقضية وانما الغرض الاعظم منه مايتعلق بالآخرة فانا نعلم انك جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ووعدك حق فمن زاغ قلبه بقى هنالك فى العذاب أبد الآباد ومن وفقته وهديته ورحمته بقى هنالك فى السعادة والكرامة أبد الآباد * (تنبيه) * احتج الوعيدية بهذه الآية على القطع بوقوع وعيد الفساق قالوا لان الوعيد داخل تحت لفظ الوعد لقوله تعالى قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا والوعد والميعاد واحد وقد أخبر فى هذه الآية أنه لايخلف الميعاد وأجيب بأنا لانسلم القول بالقطع بوقوع وعيد الفساق مطلقا بل ذلك مشروط بعدم العفو كما هو مشروط بعدم التوبة بالاتفاق فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل سلمنا أنه توعدهم ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد ويكون قوله فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا كقوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وكقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم فيكون من باب التهكم وذكر الواحدى فى البسيط أنه يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الاولياء دون وعيد الاعداء لان خلف الوعيد كرم عند العرب لانهم يمدحون بذلك كما قال القائل

اذا وعد السراء أنجز وعده * وان وعد الضراء فالعفو مانعه

وقال الآخر أيضا

وانى وان أوعدته أو وعدته * لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

ولما حكى الله سبحانه وتعالى دعاء المؤمنين وتضرعهم حكى كيفية حال الكافرين وشدة عقابهم بقوله تعالى (ان الذين كفروا) وهو عام فى الكفرة وقيل المراد بهم وفد نجران أو اليهود أو مشركو العرب (لن تغنى) أى لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ) أى من عذابه وقيل من رحمته أو من طاعته على معنى البدلية قاله البيضاوى أى على أن من للبدل والمعنى لن تغنى عنهم من رحمة الله أو من طاعته شيأ أى بدل رحمته وطاعته قال أبو حيان واثبات البدلية جمهور النحاة تأباه (وأولئك هم وقود النار) أى حطبها وفى ذلك كمال العذاب لان كماله أن يزول عنه ما ينتفع به ثم يجتمع عليه الاسباب المؤلمة فالاول هو المراد بقوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فان المرء عند الشدة يفزع الى المال والولد لانهما أقرب الامور التى يفزع اليها فى دفع النوائب فبين تعالى أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا واذا تعذر عليه الانتفاع بالمال والولد وهما أقرب الطرق فما عداه بالتعذر أولى ونظيره يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وأما الثانى من أسباب كمال العذاب وهو اجتماع الاسباب المؤلمة فهو المراد بقوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا هو النهاية فى العذاب فانه لا عذاب أعظم من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها فى الحطب اليابس وقوله تعالى (كدأب آل فرعون) اما استئناف مرفوع المحل خبر لمبتدا مضمر تقديره دأبهم فى ذلك كدأب آل فرعون واما متصل بما قبله أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد النار بهم كما توقد النار با آل فرعون وقوله تعالى (والذين من قبلهم) عطف على آل فرعون فيكون فى محل جر وقيل استئناف فيكون فى محل رفع على الابتداء والخبر وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم) وعلى الاول تكون هذه الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى (والله شديد العقاب) فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة * ولما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق قينقاع وقال يا معشر اليهود احذروا من الله تعالى أن ينزل بكم مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يا محمد لا يغرنك انك لقيت أقواما أغمارا أى جهالا جمع غمر لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة وانا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس نزل (قل) يا محمد (للذين كفروا ستغلبون) فى الدنيا بالقتل والاسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك بقتل قريظة واجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم (وتحشرون) فى الآخرة (الى جهنم وبئس المهاد) أى الفراش والمخصوص بالذم محذوف أى بئس المهاد جهنم وفى هذه الآية اخبار عن أمر يحصل فى المستقبل وقد وقع خبره على موافقته فكان هذا اخبارا بالغيب فكان معجزة ولهذا المانزلت هذه الآية قال لهم صلى الله عليه وسلم ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم وقرأ حمزة والكسائى بالياء فيهما على

الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (فان قيل) أى فرق بين القراءتين من جهة المعنى (أجيب) بأن معنى قراءة التاء الامر بأن يخبرهم بما سيجرى عليهم من الغلبة والحشر الى جهنم فهو اخبار بما سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذى يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الامر بأن يحكى لهم ما أخبره به من وعيد بلفظه كأنه قال أد اليهم هذا القول الذى هو قولى لك سيغلبون ويحشرون (قد كان لكم آية) أى عبرة ودلالة على صدق ما أقول لكم انكم ستغلبون (فان قيل) لم لم يقل قد كانت لان الآية مؤنثة (أجيب) بأنه انما ذكر الفعل للفصل بينه وبين الاسم المؤنث بلكم فان الفصل مسوغ لذلك مع المؤنث الحقيقى كقوله

ان امرأ غره منكن واحدة * بعدى وبعدك فى الدنيا المغرور

قال الفراء وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه والخطاب لمشركى قريش وقيل لليهود وقيل للمؤمنين (فى فئتين) أى فرقتين (التقتا) يوم بدر (فئة) مؤمنة (تقاتل فى سبيل الله) أى طاعته وهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الانصار وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان فرس للمقداد بن عمرو وفرس لمرثد بن أبى مرثد وأكثرهم رجالة وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف (و) فئة (أخرى كافرة) تقاتل فى سبيل الشيطان وهم مشركو مكة وقوله تعالى (يرونهم مثليهم) قرأه نافع بالتاء على الخطاب أى ترى المؤمنون المشركين مثلى المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويوقنوا بالنصر الذى وعدهم به فى قوله ان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين والباقون بالياء على الغيبة أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين وكانوا تسعمائة وخمسين أو مثلى عدد المسلمين وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر (فان قيل) هذا مناقض لقوله تعالى فى سورة الانفال ويقللكم فى أعينهم (أجيب) بأنه قللهم أولا حتى اجترؤا عليهم فلما لاقوهم كثروا امدادا من الله تعالى للمؤمنين فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين (رأى) أى فى رأى (العين) أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات وقد نصرهم الله تعالى مع قلتهم (والله يؤيد) أى يقوى (بنصره من يشاء) نصره كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو (ان فى ذلك) المذكور (لعبرة) أى عظة (لاولى الابصار) أى لذوى البصائر أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون (زين للناس حب الشهوات) أى ما تشتهيه النفس وتدعو اليه والمزين هو الله تعالى للابتلاء كقوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أولانه من أسباب التعيش وبقاء النوع الانسانى أولانه يكون وسيلة الى السعادة الاخروية اذا كان على وجه يرتضيه الله وقيل الشيطان هو المزين وذهب اليه المعتزلة واستدلوا بقول الحسن الشيطان والله زينها لانا لا نعلم أحدا أذم لها من خالقها وانما سميت شهوات مبالغة وايماء الى أنهم انهمكوا فى محبتها حتى أحبوا شهواتها كقوله تعالى

أحببت حب الخير والشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية ثم بين ذلك بقوله تعالى (من النساء) انما بدأ بهن لانهن حبائل الشيطان (والبنين والقناطير) جمع قنطار وهو المال الكثير قيل مل ء مسك ثور أى مل ء جلده وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه القنطار مائة ألف دينار وقال ابن عباس والضحاك ألف ومائتا مثقال (المقنطرة) أى المجمعة وقال السدى المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير وقال الفراء المضعفة فالقناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة (من الذهب والفضة) قيل سمى الذهب ذهبا لانه يذهب ولا يبقى والفضة فضة لانها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) أى الحسان وقال سعيد بن جبير هى الراعية يقال أسام الخيل وسومها والخيل جمع لا واحد له من لفظه واحدها فرس كالقوم والنساء (والانعام) جمع النعم وهى الابل والبقر والغنم جمع لا واحد له من لفظه (والحرث) أى الزرع (ذلك) أى ما ذكر من النساء وما بعده (متاع الحياة الدنيا) أى يتمتع به فيها ثم يفنى (والله عنده حسن المآب) أى المرجع وهو الجنة فينبغى الرغبة فيما عنده من اللذات الحقيقية الابدية دون غيره من الشهوات الناقصة الفانية (فان قيل) المآب قسمان الجنة وهى فى غاية الحسن والنار وهى خالية عن الحسن كما قال تعالى ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا (أجيب) بأن المقصود بالذات هو الجنة وأما النار فقصودة بالعرض والمقصود بالآية الترهيب فى الدنيا والترغيب فى الآخرة (قل) يا محمد لقومك (أؤنبئكم) أأخبركم (بخير من ذلكم) أى المذكور من الشهوات وهذا استفهام تقريرى * (تنبيه) * هنا همزتان مختلفتان من كلمة الاولى مفتوحة والثانية مضمومة قرأ قالون بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية وأدخل بينهما ألفا وورش يسهل الثانية من غير ادخال ألف وينقل حركة الهمزة الاولى الى اللام من قل فتصير اللام مفتوحة والثانية مضمومة وابن كثير كورش الا أنه لا ينقل الحركة الا فى لفظ القرآن وقرآن وأبو عمرو يسهل الثانية ويدخل بينهما ألفا كقالون وله وجه آخر وهو عدم ادخال ألف بينهما والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) أى مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم كما تقول هل أدلك على رجل عالم عندى رجل عالم من صفته كيت وكيت ويجوز أن تتعلق اللام بخير وترتفع جنات على هو جنات (وأزواج مطهرة) من الحيض وغيره مما يستقذر من النساء وقوله تعالى (ورضوان من الله) قرأه شعبة بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان الكسر لغة الحجاز والضم لغة تميم وقيل بالكسر اسم وبالضم مصدر وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا * (تنبيه) * قد نبه سبحانه وتعالى فى هذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله لقوله

تعالى ورضوان من الله أكبر وأوسطها الجنة ونعيمها (والله بصير) أى عالم (بالعباد) أى بأعمالهم فيجازى كلا منهم بعمله أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعدّ لهم جنات وقوله تعالى (الذين) نعت للذين اتقوا أو للعباد أو بدل من الذين قبله (يقولون) يا (ربنا اننا آمنا) أى صدّقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) * (تنبيه) * فى ترتيب سؤال المغفرة وما عطف عليها وسيلة على مجرّد الايمان دليل على أنّ مجرّد الايمان كاف فى استحقاق المغفرة أو الاستعداد لاسبابها أو أسباب ما عطف عليها وقوله تعالى (الصابرين) أى على الطاعة وعن المعصية وعلى البأساء والضرّاء نعت (والصادقين) أى فى ايمانهم وأقوالهم قال قتادة هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا فى السرّ والعلانية (والقانتين) أى المطيعين لله (والمنفقين) أى المتصدقين (والمستغفرين بالاسحار) أى أواخر الليل كأن يقولوا اللهمّ اغفر لنا خصت بالذكر لانها وقت الغفلة ولذة النوم وفى هذا كما قال البيضاوى حصر لمقامات السالك على أحسن الترتيب أى الذكرى فان معاملته مع الله امّا توسل وامّا طلب والتوسل امّا بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما وامّا بالبدن وهو امّا قولى وهو الصدق وامّا فعلى وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة وامّا بالمال وهو الانفاق فى سبيل الخير وامّا الطلب فالاستغفار لانّ المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها انتهى وتوسيط الواو بين الصابرين وما بعده للدلالة على استقلال كل واحدة منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بالصفات وتخصيص الاسحار لان الدعاء فيها أقرب من الدعاء فى غيرها الى الاجابة لانّ العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والعقل أجمع لمعانى الالفاظ التى ينطق بها لاسيما للمتهجد قيل انهم كانوا يصلون الى السحر ثم يستغفرون ويدعون وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى اذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار فذا نهارهم وهذا ليلهم وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى سماء الدنيا أى أمره كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له وحكى عن الحسن أن لقمان قال لابنه يا بنىّ لا تكن أعجز من هذا الديك يصوّت فى الاسحار وأنت نائم على فراشك وعن زيد بن أسلم أنه قال هم الذين يصلون الصبح فى جماعة وعبر بالسحر لقربه من الصبح (شهد الله) أى بين لخلقه بالدلائل وانزال الآيات (أنه لا اله) أى لا معبود بحق فى الوجود (الا هو) قال الكلبى قدم حبران من أحبار الشأم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا له وأنت أحمد قال أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شئ فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال لهما سلا قالا أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله هذه الآية فأسلم الرجلان وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خلق الله الارواح قبل الاجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الله الارزاق قبل الارواح بأربعة آلاف سنة

فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال
شهد الله أنه لا اله الا هو (و) شهد بذلك (الملائكة) أى أقروا بذلك (و) شهد بذلك (أولوا العلم) أى
بالايمان بذلك والاحتجاج عليه (فان قيل) ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم الله تعالى هذا التعظيم
حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله (أجيب) بأن المراد بهم أنهم
الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد
من الانبياء والمؤمنين وفيه دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وقوله تعالى (قائما) أى
بتدبير مصنوعاته حال من الله وانما جاز افراده تعالى بها لعدم اللبس وان اختلف فى جاءنى زيد
وعمرو راكبا فقد منعه الزمخشرى وتبعه البيضاوى وجوزه أبو حيان وقال يحمل على الاقرب
كما فى الوصف فى نحو جاءنى زيد وعمرو الطويل أو حال من هو والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد
(بالقسط) أى بالعدل وقوله تعالى (لا اله الا هو) كرر للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة
التوحيد والحكم به بعد اقامة الحجة وليبنى عليه قوله تعالى (العزيز) أى فى ملكه (الحكيم)
أى فى صنعه فيعلم انه الموصوف بهما وقدم العزيز لان العزة تلائم الوحدانية والحكمة تلائم
القيام بالقسط فاتى بهما لتقرير الامرين على ترتيب ذكرهما ورفعهما على البدل من الضمير
الاول أو الثانى أو على الخبر المحذوف وعن أبى غالب القطان قال أتيت الكوفة فى تجارة
فنزلت قريبا من الاعمش وكنت أختلف اليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر الى البصرة
فقام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية أى شهد الله الى آخرها ثم قال الاعمش وأنا أشهد بما شهد
الله به واستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة ان الدين عند الله الاسلام قالها مرارا
قلت لقد سمع فيها فصليت معه وودعته ثم قلت انى سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال والله
لا أحدثك بها الى سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد
مضت السنة فقال حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء
بصاحبها يوم القيامة فيقول الله ان لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا
عبدى الجنة روى هذا الحديث الطبرانى والبيهقى لكن بسند ضعيف وقوله تعالى (ان الدين)
أى المرضى (عند الله) هو (الاسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للاولى أى لا دين مرضى عند الله
سوى الاسلام وهو الشرع المبعوث به الرسل كما قال تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا وقال تعالى
ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وقرأ الكسائى بفتح همزة
ان قيل على أنه بدل من أنه الخ بدل اشتمال وضعفه أبو حيان لان فيه فصلا بين البدل والمبدل منه
بأجنبى قال والصواب انه معمول للحكيم باسقاط الجار أى الحكيم بأن الدين والباقون بكسرها
على الاستئناف (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) أى من اليهود والنصارى وقيل من أرباب
الكتب المتقدمة فى دين الاسلام فقال قوم انه حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون
مطلقا أو فى التوحيد فثلثت النصارى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالوا كنا أحق بأن تكون
النبوة فينا من قريش لانهم أميون ونحن أهل الكتاب (الا من بعد ما جاءهم العلم)

بالتوحيد انه الحق الذى لامحيد عنه (بغيا) أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب الا حسدا (بينهم) وطلبا للرياسة وقيل هو اختلاف فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءهم العلم ببيان بعثته فى كتبهم حيث آمن به بعض وكفر به بعض وقيل هو اختلافهم فى الايمان بالانبياء فنهم من آمن بموسى ومنهم من آمن بعيسى ولم يؤمن ببقية الانبياء وقوله تعالى (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) أى المجازاة له وعيد لمن كفر منهم (فان حاجوك) أى جادلك الذين كفروا يا محمد فى الدين (فقل) لهم (أسلمت وجهى لله) أى أخلصت نفسى وجملتى لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده ولا أدعو الها معه يعنى أن دينى دين التوحيد وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وما جئت بشئ مبتدع حتى تجادلونى فيه وخص الوجه بالذكر لشرفه فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة وقوله تعالى (ومن اتبعن) عطف على التاء فى أسلمت وحسن للفاصل ويجوز كما قال فى الكشاف أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه اى نظرا الى أن المشاركة بين المتعاطفين فى مطلق الاسلام أى الاخلاص لا فيه بقيد وجهه حتى يمتنع ذلك لاختلاف وجهيهما (وقل للذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود والنصارى (والاميين) أى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب (أأسلمتم) أى فهل أسلمتم كما أسلمت أنا فقد أتاكم من البينات ما يوجب الاسلام ويقتضى حصوله لامحالة أم أنتم بعد على الكفر وهذا كقولك ان لخصت له المسئلة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا الا سلكته هل فهمتها وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الانصاف لان المنصف اذا انجلت له الحجة لم يتوقف اذعانا للحق وكذلك فى هل فهمتها توبيخ بالبلادة وقيل المراد بالاستفهام هنا الامر أى أسلموا كما قال تعالى فهل أنتم منتهون أى انتهوا (فان أسلموا فقد اهتدوا) أى نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال الى الهدى ومن الظلمة الى النور فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال أهل الكتاب أسلمنا فقال لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا فقال عز وجل (وان تولوا) أى عن الاسلام لم يضروك (فانما عليك البلاغ) أى فانك رسول منبه ما عليك الا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى وقد بلغت وليس اليك الهداية (والله بصير بالعباد) أى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن فيجازى كلا منهم بعمله وهذا قبل الامر بالقتال (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط) أى بالعدل (من الناس) وهم اليهود قتل أولهم الانبياء وقتلوا أتباعهم ومن فى عصره صلى الله عليه وسلم كفروا به وقصدوا قتله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لكن الله تعالى عصمهم وعن أبى عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر وروى أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فنهاهم مائة وسبعون من عبادهم فقتلوهم من يومهم وخبر ان (فبشرهم) أى أعلمهم (بعذاب أليم) أى مؤلم وذكر البشارة تهكم بهم (فان قيل) لم أدخل الفاء فى خبر ان مع أنه

لايقال ان زيدا فقائم (أجيب) بأن الموصول متضمن معنى الشرط فكأنه قيل الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم (أولئك الذين حبطت أعمالهم) أى ماعملوه من خير كصدقة وصلة رحم (فى الدنيا والآخرة) فلا يعتد بها العدم شرطها (ومالهم من ناصرين) أى مانعين عنهم العذاب (ألم تر) أى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أى حظا (من الكتاب) أى التوراة أو جنس الكتب السماوية ومن للتبعيض أو البيان قال البيضاوى وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير انتهى أما التعظيم فظاهر وهو ما اقتصر عليه الزمخشرى وأما التحقير ففيه نظر اذ النصيب المراد به الكتاب أو بعضه لاحقارة فيه وقد يقال ان تحقيره بالنسبة اليهم حيث لم يعملوا به (يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) الداعى هو محمد صلى الله عليه وسلم وكتاب الله القرآن أو التوراة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس أى موضع صاحب دراسة كتبهم على جماعة من اليهود فدعاهم الى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث ابن زيد على أى دين أنت قال دين ابراهيم فقالا له ان ابراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلموا الى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما الى النبى صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان بن أوفى وعدى بن عمرو جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة قالوا قد أنصفتنا قال فمن أعلمكم بالتوراة قالوا رجل يقال له عبد الله بن صوريا فأرسلوا اليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ من التوراة فيها الرجم مكتوب فقال له اقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن سلام يارسول الله قد جاوزها وقام فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود ان المحصن والمحصنة اذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وان كانت حبلى تتربص حتى تضع مافى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضب اليهود وانصرفوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية (ثم يتولى فريق منهم) وأتى بثم لاستبعاد توليهم مع علمهم بأن الرجوع الى كتاب الله تعالى واجب لا للتراخى فى الزمان اذ لاتراخى فيه وقوله تعالى (وهم معرضون) أى عن قبول حكمه جملة حالية من فريق وانما ساغ لتخصيصه بالصفة (ذلك) اشارة الى ماذكر من التولى والاعراض (بأنهم قالوا) أى بسبب قولهم (لن تمسنا النار الا أياما معدودات) أى قالوا ذلك بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد المائل والطمع الفارغ عن حصول المطموع فيه وهو الخروج من النار بعد أيام قليلة وهى أربعون يوما مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول عنهم (وغرهم فى دينهم) والغرور هو الاطماع فيما لا يحصل منه شئ (ما كانوا يفترون) أى من أن النار لن تمسهم الا أياما قلائل وان آباءهم الانبياء يشفعون لهم

أو انه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده الا تحلة القسم *(تنبيه)* فى دينهم متعلق بغرهم ولا يصح تعلقه بيفترون خلافا للسيوطى لان ما قبل الموصول لا يتعلق بما بعده (فكيف) حالهم أو فكيف صنعهم (اذا جمعناهم ليوم) أى فى يوم (لاريب) أى لاشك (فيه) وهو يوم القيامة وفى ذلك استعظام لما يحيق بهم فى الآخرة روى أن أول راية أى علم ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤس الاشهاد ثم يؤمر بهم الى النار (ووفيت كل نفس) أى من أهل الكتاب وغيرهم جزاء (ما كسبت) أى عملت من خير أو شر وفى ذلك دليل على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار وان دخلها لان توفية ايمانه وعمله لا يكون فى النار ولا قبل دخولها فاذا هى بعد الخلاص ان دخلها (وهم لا يظلمون) أى بنقص حسنة أو زيادة سيئة *(تنبيه)* ذكر ضمير وهم لا يظلمون وجمعه باعتبار معنى كل نفس لانه فى معنى كل انسان ولما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود هيهات هيهات من اين لمحمد ملك فارس والروم أولم يكف محمدا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم فأنزل الله سبحانه وتعالى (قل اللهم) أى يا ألله والميم عوض عن ياء النداء ولذلك لا يجتمعان والتعويض من خصائص هذا الاسم كما اختص بدخولها عليه مع لام التعريف وقطع همزته وكما اختص بدخول تا القسم عليه وأمّا قولهم ترب الكعبة فنادر (مالك الملك) أى مالك العباد وما ملكوا قال الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وان عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم كما تكونوا يولى عليكم (تؤتى) أى تعطى (الملك) أى فى الدنيا (من تشاء) من خلقك (وتنزع الملك ممن تشاء) منهم وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم الى قوم وقال الكلبى تؤتى الملك لمحمد وأصحابه وتنزعه من أبى جهل وصناديد قريش وقيل تؤتيه لآدم وذريته وتنزعه من ابليس وجنوده (وتعز من تشاء) من خلقك وقيل محمدا وأصحابه حتى دخلوا مكة فى عشرة آلاف ظاهرين عليها (وتذل من تشاء) منهم وقيل أبا جهل وأصحابه حزت رؤسهم وألقوا فى القليب وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز من تشاء بالقناعة وتذل من تشاء بالحرص والطمع وقيل تعز من تشاء بالتهجد وتذل من تشاء بتركه (بيدك) أى بقدرتك (الخير) أى والشر واقتصر على الاول لمسارعة الادب فى الخطاب أو اكتفى بذكر أحد المقابلين كما فى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد أو لان الكلام وقع فيه اذ روى البيهقى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق وقطع لكل عشر أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون فظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء وأخذ المعول منه فضربها ضربة فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أى المدينة فكأنها مصباح فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها

أنياب الكلاب أى فى بياضها وصفرتها وانضمام بعضها الى بعض واللابتان حرتان يكتنفانها والحرة كل أرض ذات حجارة سوداء كأنها محترقة من الحر ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها أى الاراضى التى أضاءت فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم أيها المؤمنون ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب أى المدينة قصور الحيرة وأنها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق أى الخوف فنزلت ونبه أيضا على أن الشر بيده بقوله (انك على كل شئ قدير) والشر شئ ثم عقب ذلك ببيان قدرته على تعاقب الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله فقال (تولج) أى تدخل (الليل فى النهار) حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات (وتولج) أى تدخل (النهار فى الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر (وتخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (وتخرج الميت من الحى) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر وقال الحسن وعطاء تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن فالمؤمن حى الفؤاد والكافر ميت الفؤاد قال الله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وقال الزجاج تخرج النبات الغض الطرى من الحب اليابس وتخرج الحب اليابس من النبات الحى النامى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة الميت بسكون الياء والباقون بكسر الياء مشددة (وترزق من تشاء بغير حساب) أى رزقا واسعا عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران شهد الله الى قوله ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم مالك الملك الى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله عزوجل حجاب قلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك قال الله عزوجل بى حلفت لا يقرأ كن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه ولأسكننه حظيرة قدسى ولأنظرن اليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين مرة ولأقضين له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ولأعيذنه من كل عدو وحاسد ولانصرنه منه (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) يوالونهم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالاخبار يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الاسلام أو غير ذلك من الاسباب التى يتصادق بها ويتعاشر وقوله تعالى (من دون) أى غير (المؤمنين) اشارة الى أنهم الاحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الايمان (ومن يفعل ذلك) أى يوالى الكفرة (فليس من الله) أى من ولاية الله (فى شئ) يصح أن يسمى ولاية شرعية فان ولاية المتعادين لا يجتمعان لما بينهما من التضاد كما قال القائل

فليس أخى من ودنى رأى عينه ٭ ولكن أخى من ودنى فى المغايب

تودعدوى ثم تزعم أننى * صديقك ليس النوك عنك بعازب

بعين مهملة وزاى أى بغائب والنوك بضم النون الحمق والجنون ثم استثنى فقال (الا أن تتقوا منهم تقاة) أى الا أن تخافوا منهم مخافة فلكم موالاتهم باللسان دون القلب كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام كن وسطا أى فى معاشرتهم ومخالفتهم وامش جانبا أى من موافقتهم فيما يأمرون ويذرون وهذا قبل عزة الاسلام ويجرى فى بلد ليس قويا فيها قال معاذ بن جبل ومجاهد كانت التقية فى بدء الاسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين وأما اليوم فقد أعز الله الاسلام فليس ينبغى لاهل الاسلام أن يتقوا من عدوهم (ويحذركم الله) أى يخوفكم (نفسه) أن يغضب عليكم ان واليتموهم (والى الله المصير) أى المرجع فيجازيكم فلا تتعرضوا للسخط بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه فلا يبالى عنده بما يحذر من الكفرة (قل) لهم يا محمد (ان تخفوا ما فى صدوركم) أى قلوبكم من موالاة الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله (أو تبدوه) أى تظهروه (يعلمه الله) ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به وقال الكلبى ان تسروا ما فى قلوبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من التكذيب أو تظهروه بحربه وقتاله يعلمه الله (و) هو الذى (يعلم ما فى السموات وما فى الارض) لا يخفى عليه منه شئ قط فلا يخفى عليه سركم وعلانيتكم (والله على كل شئ قدير) فهو قادر على عقوبتكم ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه وهذا بيان لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه لان نفسه متصفة بعلم ذاتى يحيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها فلا تعصوه اذ ما من معصية الا وهو مطلع عليها لا محالة قادر على العقاب بها ولو علم بعض عبيد السلطان انه أراد الاطلاع على أحواله بأن يوكل من يتجسس عن مواطن أموره لاخذ حذره منه كل الحذر فما بال من علم أن العالم الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن اللهم انا نعوذ بك من اغترارنا بسترك ونسألك اليقظة من سنة الغفلة (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) نصب يوم بمضمر نحو اذكر وقوله تعالى (وما عملت) أى عملته (من سوء) مبتدأ خبره (تود لو أن بينها) أى النفس (وبينه) أى السوء (أمدا بعيدا) أى غاية فى نهاية البعد فلا يصل اليها وكرر سبحانه وتعالى (ويحذركم الله نفسه) قال البيضاوى للتأكيد والتذكير وقال التفتازانى الاحسن ما قيل ان ذكره أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر وقوله تعالى (والله رؤف بالعباد) اشارة الى أنه تعالى انما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة اصلاحهم وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائى رؤف بقصر الهمزة والباقون بالمد وورش على أصله فى المد والتوسط والقصر ونزل فى اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه (قل) لهم يا محمد (ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقف النبى صلى الله عليه وسلم على قريش وهم فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وهم يسجدون لها فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسمعيل فقال له قريش انما نعبدها

حبا

حب الله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى قل لهم يا محمد ان كنتم تحبون الله وتعبدون الاصنام لتقربكم اليه فاتبعونى يحببكم الله فأنا رسوله اليكم وحجته عليكم أى اتبعوا شرعتى وسنتى يحببكم الله فحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وايثار طاعته وابتغاء مرضاته وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم فذلك قوله تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور) لمن اتبعنى ما سلف من ذنبه قبل ذلك (رحيم) به وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عملهم فمن ادّعى محبته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب وكتاب الله يكذبه واذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصعق فلا تشك أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته الالانه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله وادّعائه ثم صفق وطرب ونعر وصعق عند تصورها وربما رأيت المنىّ قد ملأ ازار ذلك المحب عند صعقته وحمقى العامة حواليه قد ملؤا أذقانهم بالدموع لما رأوه من حاله * ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أبى لاصحابه ان محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى نزل قوله تعالى (قل) لهم (أطيعوا الله والرسول) فيما يأمركم به من التوحيد (فان تولوا) أى أعرضوا عن الطاعة (فان الله لا يحب الكافرين) أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم وانما أتى بالظاهر ولم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على ان التولى كفر وأنه من هذه الحيثية ينفى محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين ولما أوجب الله سبحانه وتعالى طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضا على الطاعة فقال تعالى ان الله اصطفى) أى اختار (آدم ونوحا وآل ابراهيم) وهم اسمعيل واسحق وأولادهما الرسل وقد دخل فى آل ابراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وآل عمران) موسى وهرون ابنا عمران ابن يصهر (على العالمين) بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ولذلك قووا على مالم يقو عليه غيرهم وبهذه الآية استدل على فضل الرسل على الملائكة وقيل آل عمران عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة وقيل آل ابراهيم وآل عمران أنفسهما وقوله تعالى (ذرية) بدل من آل ابراهيم وآل عمران (بعضها من) ولد (بعض) منهم وقيل بعضها من بعض فى الدين والذرية تقع على الواحد والجمع والذكر والانثى (والله سميع) لاقوال الناس (عليم) بأحوالهم فيصطفى من كان منهم مستقيم القول والحال واذكر (اذ قالت امرأت عمران) وهى حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان رئيس بنى اسرائيل وليس هو عمران أبا موسى وهرون اذ كان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة كما مرّ وكان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وأحبارهم وملوكهم (فائدة) رسمت امرأة بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ووقف الكسائى بالفتح والامالة واذا وقف حمزة سهل الهمزة وروى أن حنة كانت عاقرا عجوزا فبينما هى فى ظل شجرة اذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته فقالت اللهم ان لك علىّ نذرا شكرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت

المقدس فيكون من خدمه فحملت فلما أحست بالحمل قالت يا (رب انى نذرت) أن أجعل (لك ما فى بطنى محررا) أى عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس وكان هذا النذر مشروعا فى عهدهم فى الغلمان فقال لها زوجها ويحك ماصنعت أرأيت ان كان مافى بطنك أنثى لاتصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم من ذلك وهلك عمران وحنة حامل بمريم (فتقبل منى ماندرته (انك أنت السميع) لقولى (العليم) بنيتى (فلما وضعتها) أى ولدتها جارية والضمير لما فى بطنها وانما أنث على المعنى لان مافى بطنها كان أنثى فى علم الله أوعلى تأويل النفس أو النسمة ولم يكن يحرر الا الغلمان وكانت ترجو أن يكون غلاما ولذلك نذرت تحريره (قالت) معتذرة يا (رب انى وضعتها أنثى) * فان قيل كيف جاز انتصاب أنثى حالا من الضمير فى وضعتها وهو كقوله وضعت الانثى أنثى (أجيب) بأن الاصل وضعته أنثى وانما أنث لتأنيث الحال لان الحال وصاحبها بالذات واحد وأما على تأويل النفس أو النسمة فهو ظاهر كأنها قالت انى وضعت النفس أو النسمة أنثى (والله أعلم) أى عالم (بما وضعت) قرا ابن عامر وشعبة بسكون العين وضم التاء فيكون من كلامها قالته تسلية لنفسها أى ولعل لله فيه سرا أوحكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر وقرأ الباقون بفتح العين وسكون التاء فيكون من كلام الله تعالى تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ماوهب لها منه ومعناه والله أعلم بالانثى التى وضعت وماعلق به من عظائم الامور وأن يجعلها وولدها آية للعالمين وهى جاهلة بذلك لاتعلم منه شيأ فلذلك تحسرت وقرأ أبو عمرو والله أعلم بسكون الميم واخفائها عند الباء بخلاف عنه والباقون بالاظهار وقوله تعالى (وليس الذكر كالانثى) بيان لما فى قوله والله أعلم بما وضعت من التعظيم للموضوع والرفع منه ومعناه وليس الذكر الذى طلبت كالانثى التى وهبت لها واللام فيهما للعهد أما معهود لام الانثى ففى قولها انى وضعتها أنثى وأما معهود لام الذكر ففى قولها محررا ويجوز أن يكون معنى قولها وليس الذكر كالانثى أى وليس الذكر والانثى سيين فيما نذرت لما يعترى الانثى من الحيض والنفاس فتكون اللام للجنس وقوله تعالى (وانى سميتها مريم) عطف على انى وضعتها أنثى وما بينهما جملتان معترضتان كقوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وانما ذكرت ذلك لربها تقربا اليه وطلبا لان يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة *(تنبيه)* فى قوله تعالى حكاية عنها سميتها مريم دليل على ان الاسم والمسمى والتسمية امور متغايرة أومعنى سميتها مريم جعلت اسم المولود مريم (وانى أعيذها) أى أجيرها (بك) أى بحفظك (وذريتها) أى أولادها (من الشيطان الرجيم) أى المطرود روى الشيخان مامن مولود يولد الامسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا الا مريم وابنها ولا يبعد كما قال الطيبى اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الانبياء لجواز أن يمكن الله تعالى الشيطان من مسهم مع عصمتهم من الاغواء ولا يمتنع كما قال التفتازانى أن يمس الشيطان المولود حين يولد بحيث يصرخ كما نرى وتسمع وليست تلك المسة للاغواء ليدفع أنه لا يتصور فى حق المولود حيث يولد وحينئذ فقول البيضاوى معناه ان الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود أى

لايمسه

لا يمسه فيه اخراج الحديث عن ظاهره وتبع فيه الزمخشرى وهو ماسلكه المعتزلة حيث أنكروا هذا الحديث وقدحوا فى صحته لان الشيطان انما يدعو الى الشر من له تمييز وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم يطعنه الشيطان فى جنبيه باصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعنه فطعنه فى الحجاب (فتقبلها ربها) أى قبل مريم من أمها ورضى بها فى النذر مكان الذكر (بقبول حسن) وهو اختصاصه لها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم يقبل قبلها أنثى (وأنبتها نباتا حسنا) أى أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام (وكفلها زكريا) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتشديد الفاء وقصروا زكريا غير عاصم فى رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أى جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها فلا بد من تقدير مضاف فى الآية وهو مصالح لان كفالة البدن لا معنى لها وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدوا زكريا مرفوعا على الفاعلية روى أن حنة لما ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد الاقصى ووضعتها عند الاحبار وقالت دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها بنت امامهم الاعظم فى العلم والصلاح فقال زكريا أنا أحق بها لان خالتها عندى فقالت الاحبار لا تقل ذلك فانها لو تركت لاحق الناس بها لتركت لامها التى ولدتها لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه وكانوا تسعة وعشرين رجلا فانطلقوا الى نهر الاردن وألقوا فيه أقلامهم على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها فثبت قلم زكريا فأخذها وضمها الى خالتها أم يحيى حتى اذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها غرفة فى المسجد وجعل بابها فى وسطه لا يرقى اليه الا بالسلم ولا يصعد اليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء كما قال تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) أى الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد ويقال أيضا للمسجد محراب قال المبرد لا يكون المحراب الا أن يرتقى اليه بدرج (وجد عندها رزقا) قال الربيع بن أنس كان زكريا اذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها غرفتها وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فاذا وجد عندها ذلك (قال يا مريم أنى لك هذا) أى من أين لك هذا الرزق الآتى فى غير أوانه والابواب مغلقة عليك (قالت) وهى صغيرة (هو من عند الله) يأتينى به من الجنة قيل تكلمت فى المهد وهى صغيرة كما تكلم ابنها عيسى وهو صغير فى المهد ولم ترضع ثديا قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة وفى هذا دليل وأى دليل على كرامة الاولياء وليس ذلك معجزة لزكريا كما زعمه جماعة لان ذلك مدفوع باشتباه الامر عليه حتى قال لها أنى لك هذا ولو كان معجزة له لادعاها وقطع بها لان النبى شأنه ذلك ويدل عليها غير ذلك كقصة أصحاب الكهف ولبثهم فى الكهف سنين عددا بلا طعام ولا شراب وقصة آصف من اتيانه بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف ورؤية عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو على المنبر جيشه بنهاوند حين قال يا سارية الجبل وسماع سارية ذلك وكان بينهما مسافة شهر وشرب خالد رضى الله عنه السم من غير أن يضره وبالجملة فكرامات الاولياء حق ثابتة بالكتاب والسنة

وليس بعجب انكارها من أهل البدع والاهواء اذا لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شئ فوقعوا فى أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات يمزقونهم ويسمونهم بالجهلة المتصوفة ولم يعرفوا ان مبنى هذا الامر على صفاء العقيدة ونقاء السريرة واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة وانما العجب من بعض فقهاء أهل السنة حيث قال فيما روى عن ابراهيم بن أدهم انهم رأوه بالبصرة يوم التروية وفى ذلك اليوم بمكة ان من اعتقد جواز ذلك يكفر والانصاف ماذكره الامام النسفى حين سئل عما يحكى أن الكعبة كانت تزور بعض الاولياء هل يجوز القول به فقال نقض العادة على سبيل الكرامة لاهل الولاية جائز عند أهل السنة وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاع فى زمن قحط فأهدت له فاطمة رضى الله تعالى عنها رغيفين وبضعة لحم فى طبق مغطى آثرته به فرجع بذلك اليها وقال هلمى يا بنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزا ولحما فبهتت وعلمت ان ذلك نزل من عند الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال لها عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى اسرائيل ثم جمع صلى الله عليه وسلم عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت فاطمة على جيرانها فهذه كرامة لفاطمة رضى الله تعالى عنها وفى هذه الرواية دليل على ان قوله تعالى (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى رزقا واسعا بلا تبعة من كلام مريم رضى الله تعالى عنها ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى * ولما رأى زكريا كرامة مريم ومنزلتها عند الله قال ان الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب قادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا فى غير حينه على الكبر فطمع فى الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد قال الله عز وجل (هنالك دعا زكريا ربه) أى فى ذلك المكان أو الوقت قال الزمخشرى قد تستعار هنا وثم وحيث للزمان أى لمشابهة الزمان للمكان فى الظرفية فاستعير له فدخل زكريا المحراب وناجى ربه فى جوف الليل (قال) يا (رب هب لى) أى اعطنى (من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) كما وهبتها لحنة العجوز العاقر أى ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا والذرية يكون واحدا وجمعا ذكرا وأنثى وهو هنا واحد بدليل قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى وانما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية (انك سميع) أى مجيب (الدعاء) لمن دعاك فلا تردنى خائبا (فنادته الملائكة) أى جنسهم كقولهم فلان يركب الخيل فان المنادى كان هو جبريل وحده وقرأ حمزة والكسائى فناداه بالامالة والتذكير والباقون بالتاء (وهو قائم يصلى فى المحراب) أى المسجد وذلك ان زكريا كان هو الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخلون حتى يأذن لهم فى الدخول فبينما هو قائم يصلى فى المحراب والناس ينتظرون أن يؤذن لهم فى الدخول فاذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل وقرأ (ان الله يبشرك بيحيى) ابن عامر وحمزة بكسر الهمزة على ارادة القول أولان النداء نوع من القول والباقون بالفتح على بأن وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء من يبشرك وسكون الباء الموحدة وضم الشين

مخففة والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين المشددة واختلفوا
في أنه لم سمي يحيى قال ابن عباس لان الله أحيا به عقر أمه وقال قتادة لان الله أحيا قلبه بالايمان
وقيل لان الله تعالى أحيا قلبه بالطاعة حتى انه لم يهم بمعصية وهو اسم أعجمي منع صرفه للتعريف
والعجمة كموسى وعيسى وقيل عربي ومنع صرفه للتعريف ووزن الفعل كيحيى وجمعه يحيون
كموسون وعيسون (مصدقا بكلمة) كائنة (من الله) أي بعيسى أنه روح الله وسمي كلمة لانه خلق
بكلمة كن وقيل لان الله أخبر الانبياء بكلامه في كتابه أنه يخلق نبيا بلا أب فسماه بكلمة لحصول
ذلك الوعد وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ثم قتل
يحيى قبل أن يرفع عيسى عليهما الصلاة والسلام وقول البيضاوي وكان يحيى وعيسى ابني خالة
من الاب فيه تجوز اذ يحيى ابن خالة أم عيسى لا ابن خالته وعيسى ابن بنت خالة يحيى لا ابن خالته
(وسيدا) أي يسود قومه فيصير متبوعا وقال الضحاك السيد الحسن الخلق وقال سعيد بن
جبير السيد الذي يطيع ربه وقال سعيد بن المسيب السيد الفقيه العالم (وحصورا) أي مبالغا
في حبس النفس عن الشهوات والملاهي روي أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه للعب فقال
ما للعب خلقت وقال سعيد بن المسيب الحصور هو المعسر الذي لا مال له فيكون الحصور بمعنى
المحصور كأنه ممنوع من النساء وقيل كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليكون
أغض لبصره وقيل هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه واختار قوم هذا القول لوجهين
أحدهما أن الكلام خرج مخرج الثناء وهذا أقرب الى استحقاق الثناء والثاني انه أبعد من
الحاق الآفة بالانبياء (ونبيا) ناشئا (من الصالحين) لانه كان من أصلاب الانبياء أو كائنا من
جملة الصالحين فمن على هذا للتبعيض كقوله تعالى وانه في الآخرة لمن الصالحين (قال رب أنى)
أي كيف (يكون لي غلام) أي ابن (وقد بلغني الكبر) أي أدركني كبر السن وأثر في وكان عمره
مائة وعشرين سنة وقيل تسعا وتسعين سنة (وامرأتي عاقر) أي لا تلد من العقر وهو القطع لانها
ذات عقر من الاولاد وكانت بنت ثمان وتسعين سنة (فان قيل) كيف قال زكريا بعد ما وعده الله
تعالى أن يكون له غلام أنى يكون لي غلام أكان شاكا في وعد الله وفي قدرته (أجيب) بأنه قال
ذلك استبعادا من حيث العادة كما قالت مريم أو استعظاما وتعجبا أو استفهاما عن كيفية حدوثه
أي أتجعلني وامرأتي شابين أو ترزقنا ولدا على الكبر منا أو ترزقني امرأة أخرى وقيل ان زكريا
لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال يا زكريا ان الصوت الذي سمعت ليس هو من الله انما هو من
الشيطان ولو كان من الله لاوحاه اليك كما يوحي اليك في سائر الامور فقال ذلك دفعا للوسوسة
(قال) الامر (كذلك) أي من خلق غلام منكما (الله يفعل ما يشاء) لا يعجزه عنه شئ ولاظهار
هذه القدرة العظيمة ألهمه الله السؤال ليجاب بها ولما تاقت نفسه الى سرعة المبشر به (قال رب
اجعل لي آية) أي علامة أعرف بها حمل امرأتي لاتلقى النعمة اذا جاءت بالشكر (قال آيتك) عليه
(أن لا تكلم الناس) أي تمتنع من كلامهم (ثلاثة أيام) أي بلياليها كما في سورة مريم ثلاث ليال
(الا رمزا) أي اشارة بيد أو رأس والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام حينئذ ما دل

على ما فى الضمير وانما خص تكليم الناس ليعلمه انه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذلك قال (واذكر ربك كثيرا وسبح) أى صل (بالعشى) وهو من حين تزول الشمس الى أن تغيب (والابكار) وهو من طلوع الفجر الى وقت الضحى (فان قيل) لم حبس لسانه عن كلام الناس (أجيب) بانه انما فعل به ذلك ليخلص المدة المذكورة لذكر الله تعالى لا يشغل لسانه بغيره توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها التى طلب الآية من أجله كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له آيتك أن يحبس لسانك الا عن الشكر وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه وقال قتادة أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة اياه فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام (و) اذكر (اذ قالت الملائكة) أى جبريل قال لها شفاها (يا مريم ان الله اصطفاك) أى اختارك بان تقبلك من أمك ولم يقبل قبلك أنثى وفرغك للعبادة واغناك برزق الجنة عن الكسب وتكليمه اياها شفاها كرامة لها وقيل كان معجزة لزكريا وقيل كان ارهاصا أى تأسيسا لنبوة عيسى صلى الله عليه وسلم بطريق الخوارق قبل البعثة كاظلال الغمام لنبينا صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بطريق الشأم وانما حمل على هذا التأويل لانها ليست بنبية على الاصح بل حكى البيضاوى الاجماع على انه تعالى لم ينبئ امرأة لقوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا لكن نوزع فى دعوى الاجماع لان الخلاف ثابت فى نبوة نسوة خصوصا مريم اذ القول بنبوتها مشهور (وطهرك) أى من مسيس الرجال ومما يستقذر من النساء (واصطفاك) ثانيا (على نساء العالمين) بهدايتك وارسال الملائكة اليك وتخصيصك بالكرامات السنية كالولد من غير أب ولم يكن لاحد من النساء * (فائدة) * أفضل نساء العالمين مريم كما فى الآية اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة أمها ثم عائشة ثم آسية امرأة فرعون (فان قيل) روى الطبرانى خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون (أجيب) بأن خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة (يا مريم اقنتى لربك) أى أطيعه (واسجدى واركعى مع الراكعين) أى وصلى مع المصلين فى الجماعة أو وانظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (فان قيل) لم قدم السجود على الركوع (أجيب) باحتمال أنه كان كذلك فى تلك الشريعة وقيل بل كان السجود قبل الركوع فى الشرائع كلها أو للتنبيه على أن الواو لا تقتضى الترتيب (ذلك) أى ما قصصناه عليك يا محمد من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى (من أنباء الغيب نوحيه اليك) أى من الغيوب التى لم تعرفها الا بالوحى (وما كنت لديهم) أى عندهم (اذ يلقون أقلامهم) فى الماء أى سهامهم التى طرحوها فيه وعليها علامة على القرعة وقيل هى الاقلام التى كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركا بها ليعلموا (أيهم يكفل مريم) أى يحضنها ويربيها فأى متعلق بمحذوف دل عليه من التقدير (وما كنت لديهم اذ يختصمون) فى كفالتها فتعرف ذلك فتخبر به وانما عرفته

من جهة الوحى (فان قيل) لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم من غير شبهة وترك نفى استماع الانباء من حفاظها وهو موهوم (أجيب) بأنه كان معلوما عندهم علما يقينا انه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى مع علمهم بأنه لاسماع له ولا قراءة ومثل ذلك قوله تعالى وما كنت بجانب الغربى وما كنت بجانب الطور وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم واذكر (اذ قالت الملائكة) أى جبريل (يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أى بابن (اسمه المسيح عيسى بن مريم) وانما خاطبها بنسبته اليها تنبيها على أنها تلده بلا أب اذ عادة الابناء نسبتهم الى آبائهم لا الى أمهاتهم وبنسبته اليها فضلت واصطفيت على نساء العالمين (فان قيل) هذه ثلاثة أشياء الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة (أجيب) بأن الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قيل الذى يعرف به ويتميز عمن سواه مجموع هذه الثلاثة والمسيح لقب من الالقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك لقوله وجعلنى مباركا أينما كنت واشتقاقه من المسح لانه مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مسح الارض ولم يقم فى موضع أو لانه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن أو لان جبريل مسحه بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل أو لانه كان مسيح القدم لا أخمص له وقال ابن عباس سمى مسيحا لانه مامسح ذا عاهة الا برئ ويسمى الدجال مسيحا لانه ممسوح احدى العينين وعيسى معرب ايشوع وهو بالشين المعجمة السيد قال البيضاوى اشتقاقه من العيس وهو بياض تعلوه حمرة وهو تكلف لاطائل تحته وقوله تعالى (وجيها) أى ذا جاه حال مقدرة من كلمة وهى وان كانت نكرة لكنها موصوفة (فان قيل) لم ذكر ضمير الكلمة (أجيب) بأن المسمى بها مذكر (فى الدنيا) أى بالنبوة والتقدم على الناس (و) فى (الآخرة) بالشفاعة والدرجات العلى (ومن المقربين) عند الله تعالى لعلو درجته فى الجنة ورفعه الى السماء وصحبته للملائكة (ويكلم الناس فى المهد) أى صغيرا قبل أوان الكلام كما ذكر فى سورة مريم قال انى عبد الله آتانى الكتاب الآية وحكى عن مجاهد قال قالت مريم كنت اذا خلوت أنا وعيسى حدثنى وحدثته فاذا اشغلنى عنه انسان سبح فى بطنى وأنا أسمع والمهد ما يمهد للصبى من مضجعه وقوله تعالى (وكهلا) عطف على فى المهد أى ويكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الانبياء من غير تفاوت بين حال الطفولية وحال الكهولية التى يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الانبياء وقد رفع بعد كهولته وقيل انه رفع شابا وعلى هذا المراد كهلا بعد نزوله وذكر تعالى أحواله المختلفة المتنافية ارشادا الى أنه بمعزل عن الالوهية (فان قيل) فما فائدة البشارة بكلامه كهلا والناس فى ذلك سواء (أجيب) بأنه بشرها بأنه يبقى الى أن يتكهل وبعدم التفاوت بين الحالين كما مر وقوله تعالى (ومن الصالحين) أى من عباد الله الصالحين حال من كلمة أو من ضميرها الذى فى يكلم (فان قيل) لم ختم الصفات المذكورة بقوله ومن الصالحين بعد كونه وجيها فى الدنيا وفسرت بالنبوة ولاشك أن النبوة أرفع من منصب الصلاح بل كل واحدة من الصفات المذكورة أشرف من كونه صالحا (أجيب) بأنه لا يكون كذلك الا ويكون فى جميع الافعال والتروك مواظبا على المنهج الاصلح وذلك يتناول جميع

المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ولهذا قال نبى الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام بعد النبوة وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما عدد صفات عيسى عليه الصلاة والسلام أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات (قالت رب) أى ياسيدى فقولها لله عز وجل وقيل قالته لجبريل قاله البغوى وقال الزمخشرى ومن بدع التفاسير ان قولها رب نداء لجبريل بمعنى ياسيدى (أنى) أى كيف (يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى ولم يصبنى رجل بتزوج ولا غيره قالت ذلك تعجبا اذ لم تكن جرت العادة بأن يولد مولود بلا أب أو استفهاما عن أن يكون بتزوج أو بغيره (قال) الامر (كذلك) من خلق ولد منك بلا أب (الله يخلق ما يشاء) القائل جبريل أو الله وجبريل حكى لها وقوله تعالى (اذا قضى أمرا) أى أراد كون شئ (فانما يقول له كن) صرح وقرأ (فيكون) ابن عامر بفتح النون والباقون بضمها أى فهو يكون لانه تعالى كما يقدر أن يخلق الاشياء مدرجا بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك فنفخ جبريل فى جيب درعها فحملت وكان من أمرها ما ذكر فى سورة مريم وسيأتى ان شاء الله تعالى الكلام عليه هناك وقوله تعالى (ونعلمه الكتاب) أى الكتابة (والحكمة) أى العلم المقترن بالعمل (والتوراة والانجيل) كلام مستأنف ذكر تطييبا لقلبها وازاحة لما همها من خوف اللوم حين علمت أنها تلد من غير زوج وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان لفضلهما وقرأ نافع وعاصم بالياء والباقون بالنون (و) نجعله (رسولا الى بنى اسرائيل) اما فى الصبا أو بعد البلوغ وتخصيص بنى اسرائيل لخصوص بعثه اليهم وللرد على من زعم انه مبعوث الى غيرهم (فائدة) كان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام ولما بعث اليهم قال لهم انى رسول الله اليكم (أنى) أى بأنى (قد جئتكم بآية) أى علامة (من ربكم) تصدق قولى وانما قال بآية وقد أتى بآيات لان الكل دل على شئ واحد وهو صدقه فى الرسالة * ولما قال ذلك لبنى اسرائيل قالوا وما هى قال هى (انى) قرأ نافع وحده بكسر الهمزة على الاستئناف وفتح الياء من انى نافع وأبو عمرو وسكنها الباقون (أخلق) أى أصور (لكم من الطين كهيئة الطير) أى مثل صورته فيصير طيرا كسائر الطيور حيا طيارا والكاف اسم مفعول وقرأ ورش بالمد على الياء من هيئة والتوسط كما تقدم فى شئ (فانفخ فيه) الضمير للكاف أى فى ذلك المماثل للطير أى فى فيه (فيكون طيرا باذن الله) أى بارادته نبه بذلك على أن احياءه من الله تعالى لا منه وقرأ نافع بألف بعد الطاء بعدها همزة مكسورة ورقق ورش الراء على أصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء من غير ألف فقراءة الجمع نظرا الى أنه خلق طيرا كثيرا وقراءة المفرد نظرا الى أنه نوع واحد من الطير لانه لم يخلق غير الخفاش وانما خص الخفاش لانه أكمل الطير خلقا لان له اسنانا وللانثى ثديا وتحيض قال وهب كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله وليعلم ان الكمال لله عز وجل (وأبرئ) أى أشفى (الاكمه) وهو الذى ولد أعمى أو ممسوح العينين قال الزمخشرى ويقال لم يكن فى هذه الامة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسى صاحب التفسير ولعل هذا على التفسير

الثانى (والابرص) وهو الذى به برص وهو بياض شديد يقع الجلد ويذهب دمويته وانما خص هذين المرضين بالذكر لانهما أعييا الاطباء وكان الغالب فى زمن عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك قال وهب ربما اجتمع على عيسى من المرضى فى اليوم الواحد خمسون ألفا من أطاق منهم أن يبلغه أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى وما كانت مداواته الا بالدعاء وحده على شرط الايمان وانما قال ثانيا (وأحيى الموت باذن الله) وكرر باذن الله دفعا لتوهم الالوهية فان الاحياء ليس من جنس الافعال البشرية قال ابن عباس قد أحيا عيسى أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح عليه السلام فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته الى عيسى عليه السلام ان أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتى هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لاخته انطلقى بنا الى قبره فانطلقت معهم الى قبره فدعا الله سبحانه وتعالى فقام وخرج من قبره وبقى وولد له وأما ابن العجوز فمر به ميتا على عيسى يحمل على سرير فدعا الله تعالى عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع الى أهله فبقى وولد له وأما ابنة العاشر فكان رجلا يأخذ العشور ماتت له بنت بالامس فدعا الله تعالى فأحياها فبقيت وولد لها وأما سام بن نوح فان عيسى عليه السلام جاء الى قبره ودعا فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة وما كانوا يشيبون فى ذلك الزمان فقال قد قامت القيامة فقال لا ولكن قد دعوت الله تعالى فأحياك ثم قال له مت فقال بشرط أن يعيذنى الله تعالى من سكرات الموت فدعا الله تعالى ففعل به ما قال (وأنبئكم) أى أخبركم (بما تأكلون) بعلم أعاينه (وما تدخرون) أى تخبؤن (فى بيوتكم) حتى تأكلوه فكان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما أكل اليوم وبما ادخره للعشاء وقال السدى كان عيسى فى الكتاب يحدث الغلمان بما تصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا قال فينطلق الصبى الى أهله ويبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشئ فيقولون من أخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم فى بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا قال فما فى هذا البيت قالوا خنازير قال عيسى كذلك يكونوا ففتحوا عنهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك فى بنى اسرائيل فهمت به بنو اسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر وقال قتادة انما هذا فى المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا كالمن والسلوى وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبؤا لغد فخانوا وخبؤا فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وادخروا منها فمسخهم الله خنازير (ان فى ذلك) الذى ذكرته لكم (لآية لكم ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين للحق غير معاندين وقوله تعالى (ومصدقا) منصوب باضمار فعل يدل عليه قد جئتكم أى وجئتكم مصدقا (لما بين يدى) أى قبلى (من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فيها فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فأحل لهم أكل الشحوم والثروب وهو شحم رقيق يغشى الكرش والسمك ولحوم الابل والعمل فى السبت وقيل أحل الجميع فبعض بمعنى كل كقول لبيد

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

يعنى كل النفوس (فان قيل) كيف يكون مصدقا للتوارة والاحلال يدل على أن شرعه كان ناقضا لشرع موسى (أجيب) بانه لا تناقض كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بالتناقض والتكاذب فان النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الازمان وانما كرر (وجئتكم بآية من ربكم) للتأكيد وليبنى عليه (فاتقوا الله) أى فى مخالفة أمره أى جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والابراء والاحياء والانباء بالخفيات وبغيره من ولادتى من غير أب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك فهى فى الحقيقة آيات وانما وحدها لانها كلها جنس واحد فى الدلالة على رسالته (وأطيعون) فيما أدعوكم اليه من توحيد الله وطاعته ثم شرع فى الدعوة وأشار اليها بالقول المجمل فقال (ان الله ربى وربكم) لان جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه (فاعبدوه) أى لازموا طاعته التى هى الاتيان بالاوامر والانتهاء عن المناهى (هذا) الذى دعوتكم اليه (صراط) أى طريق (مستقيم) أى هو المشهود له بالاستقامة روى الامام أحمد وغيره ان رجلا قال يارسول الله مرنى بأمر فى الاسلام لا أسئل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم * ولما قال لهم ذلك كذبوه ولم يؤمنوا به كما قال تعالى (فلما أحس عيسى) أى علم (منهم) علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس (الكفر قال من أنصارى) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بالسكون أى أعوانى وقوله (الى الله) متعلق بمحذوف حال من الياء أى من أنصارى ذاهبا الى الله تعالى ملتجئا اليه تعالى لأنصر دينه وقيل الى هنا بمعنى مع أو فى أو اللام (قال الحواريون نحن أنصار الله) أى أعوان دينه واختلفوا فى الحواريين فقال السدى لما بعث الله تعالى عيسى الى بنى اسرائيل كذبوه وأخرجوه فخرج هو وأمه يسيحان فى الارض فنزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن اليهما وكان لملك المدينة جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه كئيبا قالت لا تسئلينى قالت اخبرينى لعل الله يفرج كربته قالت ان لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يوما أن يطعمه وجنوده ويسقيهم خمرا فان لم يفعل عاقبه واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة قالت فقولى له لا تهتم فانى آمر ابنى فيدعو الله فيكفى ذلك فقالت مريم لعيسى فى ذلك قال عيسى ان فعلت ذلك وقع شر قالت فلا تبال فانه قد أحسن الينا وأكرمنا قال عيسى قولى له اذا اقترب ذلك فأملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمنى ففعل ذلك فدعا الله عيسى فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال من أين هذا الخمر قال من أرض كذا قال فان خمرى من تلك الارض وليست مثل هذه قال هى من أرض أخرى فلما خلط على الملك شدد عليه قال فأنا أخبرك عندى غلام لا يسأل الله تعالى شيأ الا أعطاه اياه وانه دعا الله فجعل الماء خمرا فلما أحضره وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه فقال ان رجلا دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا ليجابه الى حتى يحيى ابنى فدعى بعيسى اليه فكلمه فى ذلك فقال عيسى لا أفعل فانه ان عاش وقع شر قال الملك لا عليك

قال عيسى ان احييته تتركني أنا وأمي نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى اذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه فمرّوا بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال ما تصنعون قالوا نصطاد السمك قالوا ومن أنت قال عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فقالوا (آمنا) أي صدقنا (بالله واشهد) يا عيسى (بأنا مسلمون) لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم (ربنا آمنا بما أنزلت) من الانجيل (واتبعنا الرسول) عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) لك بالوحدانية أو مع النبيين الذين يشهدون لاتباعهم أو مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فانهم شهداء على الناس وقال الحسن كانوا قصارين سموا بذلك لانهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها وعلى الاول سموا حواريين لبياض ثيابهم وقال عطاء سلمت مريم عيسى الى أعمال شتى فكان آخر ما دفعته الى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال يا عيسى انك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج في سفر لا أرجع الى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الالوان وقد علمت على كل واحد منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فيجب أن تكون فارغا منها عند قدومي وخرج فطبخ عيسى جبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال كوني باذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الحواري والثياب كلها في الجب فقال ما فعلت قال فرغت منها قال أين هي قال في الجب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت تلك الثياب فقال قم فانظر فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر الى أن أخرجها على الالوان التي أرادها فجعل الحواري يتعجب وعلم ان ذلك من الله تعالى فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن هو وأصحابه وهم الحواريون وقال الكلبي وعكرمة الحواريون الاصفياء وهم كانوا أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثني عشر من الحور وهو البياض الخالص وحواري الرجل صفوته وخالصته وقيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال القائل

فقل للحواريات يبكين غيرنا * ولا تبكنا الا الكلاب النوابح

قال الله تعالى (ومكروا) أي كفار بني اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر به وذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام بعد اخراج قومه اياه وأمه عاد اليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤا على الفتك به ووكلوا به من يقتله غيلة وهي بالكسر أن يخدع غيره فيذهب به الى موضع فاذا صار اليه قتله فذلك مكرهم اذ المكر من المخلوق الخبث والخديعة والحيلة وأما من الخالق وهو قوله تعالى (ومكر الله) أي بهم (والله خير الماكرين) أي أعلمهم به فقال الزجاج مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لانه في مقابلته كقوله تعالى الله يستهزئ بهم وهو خادعهم ومكر الله تعالى بهم في هذه الآية بأن ألقى شبهه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى حتى قتل روى أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى دعا عليهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير فلما رأى ذلك

يهوداراس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا اليه ليقتلوه فبعث الله تعالى اليه جبريل فأدخله فى خوخة فى سقفها كوة فرفعه الله تعالى الى السماء من تلك الكوة فأمر يهوداراس اليهود رجلا من أصحابه أن يدخل الخوخة ويقتله فلما دخل لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه فلما صلب جاءت أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله تعالى من الجنون يبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى فقال لهما على من تبكيان ان الله تعالى رفعنى ولم يصبنى الا الخير وان هذا شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى اهبط الى مريم فانه لم يبك عليك أحد بكاها ولم يحزن حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الارض دعاة الى الله عز وجل فأهبطه الله تعالى اليها فاشتعل حين أهبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم فى الارض دعاة ثم رفعه الله تعالى اليه وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تحدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه الصلاة والسلام اليهم وروى ان الله تعالى أرسل اليه سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت فقال لها ان القيامة تجمعنا وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون سنة وقالت أهل التواريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرسنة وولدته لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل فأوحى الله تعالى اليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين وقوله تعالى (اذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو لمضمر مثل اذكر (ياعيسى انى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومعناه انى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك الى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم أو قابضك من الارض من توفيت مالى أى قبضته أو متوفيك نائما كما قال تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل أى يميتكم اذ روى انه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت (ورافعك الىّ) أى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى اذ روى ان الله تعالى رفعه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وكان انسيا ملكيا سماويا أرضيا وقال محمد بن اسحق النصارى يزعمون ان الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه وقال الضحاك ان فى الآية تقديما وتأخيرا معناه انى رافعك الى (ومطهرك من الذين كفروا) أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ومتوفيك بعد انزالك من السماء روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وروى الشيخان حديث انه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية وفى حديث مسلم انه يمكث سبع سنين وفى حديث عند أبى داود والطيالسى أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون فيحمل على أن مجموع لبثه فى الارض قبل الرفع وبعده أربعون وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول

عيسى فى القرآن قال نعم قوله تعالى ويكلم الناس فى المهد وكهلا وهو لم يتكهل فى الدنيا وانما معناه كهلا بعد نزوله من السماء انتهى وهذا انما يأتى على القول بأنه رفع شابا وأما على القول بأنه رفع بعد ثلاث وثلاثين فلا دليل فيه اذ الكهولة من الثلاثين الى الاربعين (وجاعل الذين اتبعوك) أى صدقوا بنبوتك من النصارى ومن المسلمين لانه متبعوه فى أصل الاسلام وان اختلفت الشرائع (فوق الذين كفروا) بك من اليهود والنصارى أى يغلبونهم بالحجة والسيف (الى يوم القيامة) وقيل المراد بالذين اتبعوه النصارى وبالذين كفروا اليهود اذ لم تسمع غلبة اليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة وملك النصارى قائم الى قريب من قيام الساعة وعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء فى المحبة لا اتباع الدين (ثم الى مرجعكم) الضمير لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به وغلب المخاطب على الغائبين (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ثم بين الحكم بقوله (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) بالقتل والسبى والجزية والذلة (و) أعذبهم فى (الآخرة) بالنار (فان قيل) الحكم مرتب على الرجوع الى الله تعالى وذلك فى القيامة فكيف يصح فى تبيينه العذاب فى الدنيا (أجيب) بأن المقصود التأبيد من غير نظر الى الدنيا والآخرة كما فى قوله خالدين فيها مادامت السموات والارض (ومالهم من ناصرين) أى مانعين منه (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم) أى أجور أعمالهم وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون (والله لا يحب الظالمين) أى لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما سبق من خبر عيسى ومريم وامرأة عمران وهو مبتدأ خبره (نتلوه) أى نقصه (عليك) يا محمد وقوله تعالى (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف أو حال من الهاء (والذكر الحكيم) أى القرآن وصف بصفة من هو سببه أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه وقيل هو اللوح المحفوظ وهو معلق بالعرش من درة بيضاء * ولما قال وفد نجران للرسول صلى الله عليه وسلم مالك سببت صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول انه عبد قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت انسانا قط من غير أب نزل (ان مثل عيسى) أى شأنه وحالته الغريبة (عند الله كمثل آدم) أى كشأنه فى خلقه من غير أب وقوله تعالى (خلقه) أى آدم (من تراب) جملة مفسرة لماله شبه عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثم أب ولا أم فكذلك حال عيسى (فان قيل) كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب وآدم بغير أب وأم (أجيب) بأن مثله فى أحد الطرفين ولا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لان المماثلة مشاركة فى بعض الاوصاف ولانه شبه به فى أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران ولان الوجود من غير أب وأم اغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته اذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه وعن بعض العلماء انه أسر بالروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أبوين له قالوا كان يحيى الموتى قال فحز قيل أولى لان عيسى أحيا أربعة أنفس وحز قيل ثمانية آلاف فقالوا كان يبرئ

الاكمه والابرص قال نجرجيس أولى لامه طبخ وأحرق ثم قام سالما ومعنى خلق آدم من تراب أى صور جسده من تراب (ثم قال له كن) أى أنشأه بشرا بأن نفخ فيه الروح كقوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر وقوله تعالى (فيكون) حكاية حال ماضية أى فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ويجوز أن تكون ثم لتراخى الخبر لا لتراخى المخبر عنه وقوله تعالى (الحق من ربك) خبر مبتدا محذوف أى أمر عيسى وقوله تعالى (فلا تكن من الممترين) أى الشاكين خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممتريا (فمن حاجك) أى جادلك من النصارى (فيه) أى عيسى (من بعد ما جاءك من العلم) أى من البينات الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل) لهم (تعالوا) أى هلموا بالرأى والعزم (ندع) جزم فى جواب الامر وعلامة جزمه سقوط الواو (أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وانما قدمهم على النفس لان الرجل يخاطر بنفسه لاجلهم ويحارب دونهم فنجمعهم (ثم نبتهل) أى نتضرع فى الدعاء ونبالغ فيه (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) بأن نقول اللهم العن الكاذب بأمر عيسى فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا فخلا بعضهم ببعض وقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لنهلكن فان أبيتم الا الاقامة على دينكم وعلى ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنها وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران وهو اسم سريانى لرئيس النصارى وعالمهم وهو غير العاقب يا معشر النصارى انى لارى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الارض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وان نقرك على دينك ونثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا فقال انى أنابذكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألف فى صفر وألف فى رجب تؤديها للمسلمين وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذى نفسى بيده ان العذاب تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه

مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم على ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفى ذلك دليل على نبوّته صلى الله عليه وسلم وعلى فضل أهل الكساء رضى الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة أجمعين *(فائدة)* رسمت لعنة هنا بالتاء المجرورة ووقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائى عليها بالهاء والباقون بالتاء (ان هذا) أى الذى قص عليك من نبأ عيسى (لهو القصص) أى الخبر (الحق) الذى لا شك فيه وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء من لهو والباقون بالرفع حيث جاء وهو اما فصل بين اسم ان وخبرها واما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر ان (فان قيل) لم جاز دخول اللام على الفصل (أجيب) بأنه اذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أولى لانه أقرب الى المبتدا وأصلها أن تدخل على المبتدا (وما من اله الا الله) انما صرح فيه بمن المزيدة للاستغراق تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم (وان الله لهو العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه فلا أحد يساويه فى القدرة التامة والحكمة البالغة فلا يشاركه فى الالوهية (فان تولوا) أى اعرضوا عن الايمان (فان الله عليم بالمفسدين) فيجازيهم وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على ان التولى عن الحجج والاعراض عن التوحيد افساد للدين والاعتقاد المؤدى الى فساد النفس بل والى فساد العالم * ولما قدم وفد نجران المدينة والتقوا مع اليهود واختصموا فى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فزعمت النصارى انه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال النبى صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من ابراهيم ودينه بل كان ابراهيم حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود يا محمد ماتريد الا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى وقالت النصارى يا محمد ماتريد الا أن نقول فيك ماقالت اليهود فى عزير نزل (قل يا أهل الكتاب) وهو يعم أهل الكتابين وهم اليهود والنصارى (تعالوا الى كلمة) العرب تسمى كل قصة لها شرح كلمة ومنها سميت القصيدة كلمة وقوله تعالى (سواء) مصدر بمعنى مستو أمرها لا تختلف فيها الرسل والكتب (بيننا وبينكم) هو نعت الكلمة لان المصادر لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث فاذا فتحت السين مدت واذا كسرت أو ضمت قصرت كقوله تعالى مكانا سوى ثم فسر الكلمة بقوله (أن لا نعبد الا الله) أى نوحده بالعبادة ونخلص له فيها (ولا نشرك به شيأ) أى ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لان يعبد (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أى ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا نطيع الاحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لانهم بشر مثلنا روى الترمذى لما نزل قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يارسول الله قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذلك أى أخذكم بقولهم (فان تولوا) أى أعرضوا عن التوحيد (فقولوا) أنتم لهم (اشهدوا بأنا مسلمون) أى موحدون دونكم فقد لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو نحو ذلك

اعترف بأني الغالب وسلم لى الغلبة قال البيضاوى تنبيه انظر ماراعى أى الله سبحانه وتعالى فى هذه القصة من المبالغة والارشاد وحسن التدرج فى الحجاج فبين أولاً أحوال عيسى وما تعاور عليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح أى يزيل شبهتهم فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد اليهم بالارشاد وسلك طريقاً أسهل والزم بأن دعاهم الى ما وافق عليه عيسى والانجيل وسائر الانبياء والكتب ثم لما لم يجد أى ينفع ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغنى عنهم أعرض عن ذلك وقال اشهدوا بأنا مسلمون (يا أهل الكتاب) وقد مر انه يعم اهل الكتابين اليهود والنصارى (لم تحاجون) اى تخاصمون (فى ابراهيم) بزعمكم انه على دينكم (وما انزلت التوراة) على موسى (والانجيل) على عيسى (الا من بعده) اى بزمن طويل اذ كان بين ابراهيم وموسى الف سنة و بين موسى وعيسى ألفا سنة وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية وبعد نزول الانجيل حدثت النصرانية (أفلا تعقلون) بطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم) يا (هؤلاء) ها للتنبيه وأنتم مبتدا خبره (حاججتم) أى جادلتم (فيما لكم به علم) من أمر موسى وعيسى وزعمتم أنكم على دينهما (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) من شأن ابراهيم وليس له ذكر فى كتابكم (والله يعلم) ما حاججتم فيه (وأنتم لا تعلمون) أى جاهلون به ثم قال تعالى تبرئة لابراهيم (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً) أى مائلاً عن الاديان كلها الى الدين القيم (مسلماً) أى موحداً منقاداً لله تعالى وليس المراد انه كان على دين الاسلام والالاشترك الالزام لانهم يقولون ملة الاسلام حدثت بعد نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وكان ابراهيم قبله بمدة طويلة فكيف يكون على ملة الاسلام الحادثة بنزول القرآن فعلم أن المراد بكون ابراهيم مسلماً انه كان على ملة التوحيد لا على هذه الملة (وما كان من المشركين) كما لم يكن منكم أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لاشراكهم عزيرا والمسيح (ان أولى الناس) أى أحقهم (بابراهيم) من أمته (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) أى ناصرهم وحافظهم ولما دعا اليهود معاذا وحذيفة وعمارا الى دينهم نزل (ودت) أى تمنت (طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) عن دينكم ويردونكم الى الكفر (وما يضلون الا أنفسهم) أى أمثالهم أو ان أثم اضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه (وما يشعرون) بذلك (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) انها آيات الله عز وجل أو بالقرآن العزيز وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات انه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق) أى القرآن المشتمل على نعت محمد صلى الله عليه وسلم (بالباطل) أى بالتحريف والتزوير (وتكتمون الحق) أى نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انه حق (وقالت طائفة من أهل الكتاب) أى اليهود قالوا لجماعة منهم (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) أى القرآن أى أظهروا الايمان به (وجه النهار) أى أوله وانما سمى أوله وجها لانه أحسنه ولانه أول ما يرى

بعد

بعد الليل (واكفروا) به (آخره لعلهم) أى المؤمنين (يرجعون) عن دينهم اذا رأوكم رجعتم
واختلف فى هذه الطائفة فقال الحسن والسدى هى اثنا عشر من يهود خيبر وقيل قريظة
تواطؤا وقال بعضهم لبعض ادخلوا فى دين محمد أول النهار وقولوا انا نظرنا فى كتبنا وشاورنا
علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك فظهر لنا كذبه فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينه واتهموه
وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقال مجاهد ومقاتل والكلبى هم
كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف قالا لاصحابهما لما تحولت القبلة وشق ذلك على اليهود
آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا الى
قبلتكم آخر النهار وصلوا الى الصخرة لعلهم يقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون الى
قبلتنا (ولا تؤمنوا الا لمن تبع) أى وافق (دينكم) أى ولا تقروا عن تصديق قلب الا لاهل
دينكم أو لا تظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم فان رجوعهم أولى وأهم فأطلع
الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم * (تنبيه) * قال البغوى اللام فى لمن
صلة أى لا تصدقوا الا من تبع دينكم اليهودية كقوله تعالى عسى أن يكون ردف لكم أى ردفكم
(قل) يا محمد (ان الهدى هدى الله) الذى هو الاسلام وما عداه ضلال وقوله تعالى (أن يؤتى)
بمعنى الجحد أى ما يؤتى (أحد مثل ما أوتيتم) يا أمة محمد (أو يحاجوكم) أى الا أن يجادلكم
اليهود بالباطل فيقولوا نحن أفضل منكم وقوله تعالى (عند ربكم) أى عند فعل ربكم بكم
ذلك وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبى ومقاتل والحسن وهو حسن وقال الفراء ويجوز
أن تكون أو بمعنى حتى كما يقال تعلق به أو يعطيك حقك أى حتى يعطيك حقك ويكون معنى
الآية ما أعطى أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم أى يوم
القيامة وقال مجاهد قوله قل ان الهدى هدى الله كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل
بالكلام الاول اخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض أى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم
ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من المن
والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لانكم أصح دينا
منهم وقرأ ابن كثير وحده بهمزة واحدة وقال الزمخشرى ويجوز أن يكون هدى الله بدلا من
الهدى وأن يؤتى أحد خبر ان على معنى قل ان هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم
حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم قال ويجوز أن ينتصب
أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم كأنه قيل قل ان الهدى هدى
الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لان قولهم ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم انكار
لان يؤتى أحد مثل ما أوتوا قال تعالى (قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) من عباده (والله
واسع) أى كثير الفضل (عليم) بمن هو أهله (يختص برحمته) أى نبوته (من يشاء والله ذو الفضل
العظيم) ففى ذلك رد وابطال لمازعموه بالحجة الواضحة (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار)
أى بمال كثير (يؤده اليك) كعبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتى أوقية

ذهبا فأداه اليه (ومنهم من ان تأمنه بدينار لايؤده اليك) كفنحاص بن عازوراء استودعه رجل آخر من قريش دينارا فجحده (الامادمت عليه قائما) أى الا آن أودعته واسترجعته منه وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده اليك وان فارقته وأخرته نكل ولم يرده وقيل المأمون على الكثير النصارى لغلبة الامانة عليهم والخائنون فى القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم وقرأ حمزة وأبو عمرو وشعبة يؤده ولايؤده اليك باسكان الهاء فهو وصل بنية الوقف فهو سكون وقف بالنية لابالفعل وقالون باختلاس حركة الهاء وحفص والكسائى بالحركة الكاملة والالف فى قنطار ودينار بالامالة لابى عمرو والدورى عن الكسائى وورش بين بين والباقون بالفتح (ذلك) أى ترك الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لايؤده (بأنهم قالوا) أى بسبب قولهم (ليس علينا فى الاميين) أى العرب (سبيل) أى اثم لاستحلالهم ظلم من خالفهم ونسبوا ذلك الى الله تعالى قالوا ان يجعل الله لهم فى التوراة حرمة فكذبهم الله عز وجل بقوله عز من قائل (ويقولون على الله الكذب) أى فى نسبة ذلك اليه (وهم يعلمون) أنهم كاذبون وقال الحسن وابن جريج ومقاتل بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لانكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فكذبهم الله تعالى فى ذلك روى الطبرانى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية كذب أعداء الله مامن شئ فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى أى منسوخ متروك الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر أى والديون من الامانة لان المراد من الامانة الرضا بالذمة وقوله تعالى (بلى) اثبات لما نفوه أى بلى على اليهود فى الاميين سبيل ثم ابتدأ فقال (من أوفى بعهده) أى ولكن من أوفى بعهد الله الذى عهد اليه فى التوراة من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وأداء الامانة (واتقى) الله بترك المعاصى وفعل الطاعات (فان الله يحب المتقين) فيه وضع الظاهر موضع المضمر أى يحبهم بمعنى يثيبهم (فان قيل) فأين الضمير الراجع من الخبر الى من (أجيب) بأن عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير * ونزل فى أحبار من اليهود حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الامانة وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة (ان الذين يشترون) أى يستبدلون (بعهد الله) اليهم فى الايمان للنبى صلى الله عليه وسلم والوفاء بأداء الامانة (وايمانهم) أى حلفهم به تعالى كاذبا من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (ثمنا قليلا) من الدنيا (أولئك لاخلاق) أى لانصيب (لهم فى الآخرة ولايكلمهم الله) أى بما يسرهم أو بشئ أصلا وان الملائكة يسألونهم يوم القيامة (ولاينظر اليهم) أى ولايرحمهم (يوم القيامة ولايزكيهم) أى ولايثنى عليهم بالجميل ولايطهرهم من الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وقيل نزلت فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به وقيل نزلت فى جماعة من اليهود جاؤا الى كعب بن الاشرف فى سنة أصابتهم ممتارين فقال لهم اتعلمون ان هذا الرجل رسول الله قالوا نعم قال لقد هممت ان أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيرا كثيرا فقالوا لعله اشتبه علينا فرويدا حتى نلقاه فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته ثم رجعوا اليه

وقالوا لقد غلطنا وليس هو بالنعت الذى نعت لنا ففرح ومارهم وعن الاشعث بن قيس نزلت فىّ كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر وأرض فاختصمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال شاهداك أو يمينه فقلت اذا يحلف ولا يبالى فقال من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك هذه الآية وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات فقال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يارسول الله قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب وفى رواية المسبل ازاره وعن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولهم عذاب أليم رجل حلف على يمين على مال مسلم فاقتطعه ورجل حلف يمينا بعد صلاة العصر أنه أعطى بسلعته أكثر مما اعطى وهو كاذب ورجل منع فضل ماء فانّ الله تعالى يقول اليوم امنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل يداك (وان منهم) اى اهل الكتاب (لفريقا) اى طائفة ككعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وحيى بن اخطب (يلوون ألسنتهم بالكتاب) اى يفتلونها بقراءته عن المنزل الى ماحرفوه من نعت النبىّ صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك يقال لوى لسانه عن كذا اى غيره (لتحسبوه) اى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون (من الكتاب) الذى انزل الله (وماهو من الكتاب) قرأ ابن عامر وعاصم بفتح السين والباقون بكسرها وقوله تعالى (ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله) تأكيد لقوله وماهو من الكتاب وزيادة تشنيع عليهم به وبيان لانهم يزعمون ذلك تصريحا لا تعريضا اى ليس هو نازلا من عنده (فان قيل) نفى الله تعالى كون التحريف من عنده وهو فعل العبد فلا يكون فعل العبد مخلوقا لله تعالى والالما صح نفيه عنه تعالى (اجيب) بأنّ المنفى هو الانزال كما تقرر لا كون التحريف غير مخلوق لله تعالى بكسب العبد وقوله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) تأكيد ايضا وتسجيل عليهم بالكذب والتعمد فيه واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ما كان) أى ما ينبغى (لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم) اى الفهم للشريعة (والنبوّة) اى المنزلة الرفيعة بالانبياء (ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) فقال مقاتل والضحاك نزلت فى نصارى نجران كانوا يقولون ان عيسى امرهم ان يتخذوه ربا فقال تعالى ما كان لبشر اى عيسى ان يؤتيه الله الكتاب اى الانجيل وقال ابن عباس وعطاء ما كان لبشر أى محمد ان يؤتيه الله الكتاب اى القرآن وذلك ان ابا رافع القرظى من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتريد ان نعبدك ونتخذك ربا فقال معاذ الله ان نأمر بعبادة غير الله مابذلك بعثنى الله ولا بذلك امرنى فنزلت وقيل قال رجل يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض افلا نسجد لك قال ما ينبغى ان يسجد لاحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله والبشر جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم ويوضع موضع الجمع والواحد (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) أى علماء عاملين منسوب الى الرب بزيادة الف ونون تفخيما كما يقال رقبانى

وحيانى وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته وقيل الربانى هو الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره وقيل الربانيون فوق الاحبار والاحبار العلماء والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة لسياسة الناس وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء وحكى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال هو الذى يربى علمه بعمله وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس رضى الله تعالى عنهم اليوم مات ربانى هذه الامة (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى بسبب كونكم تعلمون الكتاب وبسبب كونكم دارسين له فان فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل فيكتفى بذلك دليلا على خيبة سعى من جهد نفسه وكد روحه فى جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة الى العمل فكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ويجوز أن يكون معناه تدرسونه على الناس كقوله تعالى لتقرأه على الناس وفيه ان من علم ودرس العلم ولم يعمل فليس من الله فى شئ وان السبب بينه وبين الله تعالى منقطع حيث لم يثبت النسبة اليه الا للمتمسكين بطاعته وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام مخففة والباقون بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة (ولا يأمركم) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بنصب الراء عطفا على يقول أى البشر والباقون برفع الراء على أنه استئناف أى الله (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) كما اتخذت الصابئة الملائكة واليهود عزيرا والنصارى عيسى وقوله تعالى (أيأمركم بالكفر) انكار والضمير فيه للبشر أولله على الوجهين السابقين وقوله تعالى (بعد اذ انتم مسلمون) دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون على أن يسجدوا له (و) اذكر (اذ) أى حين (أخذ الله ميثاق النبيين) أى عهدهم (لما آتيتكم من كتاب وحكمة) قرأ حمزة والكسائى بكسر اللام من لما فتكون متعلقة بأخذ والباقون بالفتح على الابتداء وتوكيد معنى القسم الذى فى أخذ الميثاق وما موصولة على الوجهين أى للذى آتيتكموه لتؤمنن به وقرأ نافع آتيناكم بالنون مفتوحة بعد الياء بعدها ألف والباقون بتاء مضمومة (ثم جاءكم) تقدم أن حمزة وابن ذكوان يميلان الالف محضة والباقون بالفتح (رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم أى ان أدركتموه وأممهم تبع لهم فى ذلك وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو اسرائيل أوسماهم نبيين تهكما لانهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لانا أهل كتاب والنبيون كانوا منا (قال) الله تعالى لهم (أأقررتم) بذلك قرأ قالون وابو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية والف بينها وبين الهمزة الاولى وابن كثير كذلك الا أنه لا يدخل الفا بينهما ولورش وجهان احدهما كابن كثير والثانى انه يبدل الثانية حرف مد ولهشام فى الهمزة التحقيق والتسهيل مع دخول الف بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين من غير دخول ألف بينهما (وأخذتم) اى قبلتم تقدم ان ابن كثير وحفصا يظهران الذال المعجمة عند التاء من اخذتم والباقون بالادغام (على ذلكم اصرى) اى عهدى سمى به لانه مما يؤصر اى يشد ويعقد ومنه الاصار الذى يعقد به (قالوا اقررنا قال فاشهدوا) على أنفسكم واتباعكم بذلك (وأنا معكم

من

من الشاهدين) عليكم وعليهم وهو توكيد وتحذير عظيم من الرجوع اذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض وقيل الخطاب للملائكة (فمن تولى) أى أعرض (بعد ذلك) أى الميثاق والتوكيد بالاقرار والشهادة (فأولئك هم الفاسقون) أى المتمردون من الكفرة روى أن أهل الكتاب اختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكل واحد من الفريقين ادعى انه اولى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من دين ابراهيم فقالوا ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزل (أفغير دين الله يبغون) وهذه الجملة معطوفة على الجملة المتقدمة وهى فأولئك هم الفاسقون والهمزة متوسطة بينهما للانكار ويجوز أن تعطف على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون وقدم المفعول الذى هو غير دين الله على فعله لانه اهم من حيث ان الانكار الذى معنى الهمزة متوجه الى المعبود الباطل وقرأ أبو عمرو وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب على تقدير وقل لهم (وله) سبحانه وتعالى (اسلم) اى خضع وانقاد (من فى السموات والارض طوعا) اى بالنظر فى الادلة واتباع الحجة والانصاف من نفسه (وكرها) بالسيف ومعاينة ما يلجئ الى الاسلام كنتق الجبل على بنى اسرائيل وادراك الغرق فرعون وقومه والاشراف على الموت لقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وقال الحسن اسلم اهل السموات طوعا وأهل الارض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبى وقيل هذا يوم الميثاق حين قال ألست بربكم قالوا بلى فقال بعضهم طوعا وبعضهم كرها قال قتادة المسلم اسلم طوعا فنفعه والكافر كرها فى وقت البأس فلم ينفعه قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وانتصب طوعا وكرها على الحال بمعنى طائعين ومكرهين (واليه ترجعون) قرأ حفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (قل) لهم يا محمد (آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) أى أولاده (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) بالتصديق والتكذيب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعمن تبعه بالايمان فلذلك وحد الضمير فى قل وجمعه فى آمنا وعلينا لان القرآن كما هو منزل عليه منزل على متابعيه بتوسط تبليغه اليهم أو بأن يتكلم عن نفسه بالجمع على طريقة الملوك اجلالا له (فان قيل) لم عدى أنزل فى هذه الآية بعلى وفيما تقدم من مثلها فى سورة البقرة بالى (أجيب) بأن الوحى ينزل من فوق وينتهى الى الرسل فعدى تارة بالى لانه ينتهى الى الرسل وتارة بعلى لانه من فوق وما قيل من أنه انما خص ماهنا بعلى وماهناك بالى لان ماهنا خطاب للنبى وكان واصلا اليه من الملا الاعلى بلا واسطة بشرية فناسب الاتيان بعلى المختصة بالعلو وماهناك خطاب للامة وقد وصل اليهم بواسطة النبى الذى هو من البشر فناسب الاتيان بالى المختصة بالاتصال قال الزمخشرى فيه تعسف ألا ترى الى قوله بما أنزل اليك وأنزلنا اليك الكتاب والى قوله تعالى آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا (فان قيل) لم قدم المنزل عليه على المنزل على سائر الرسل (أجيب) بأنه انما قدم لان المنزل عليه هو المعرف للمنزل على سائر الرسل ولانه أفضل الكتب

المنزلة (ونحن له مسلمون) أى موحدون مخلصون له فى العبادة لانجعل له شريكا فيها ونزل فيمن ارتد ولحق بالكفار وهم اثنا عشر رجلا ارتدوا عن الاسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحرث بن سويد الانصارى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله فهو مشتمل على الايمان بهذا التقدير وبهذا تميز مبين الاسلام والدين يشتمل على التصديق والاعمال الصالحة فالاسلام كذلك لانّ المبين لايخالف المبين وعلى هذا حمل الاسلام على الدين فى قوله تعالى انّ الدين عند الله الاسلام والدين هو الوضع الالهى السائق لكل خير (فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) لمصيره الى النار المؤبدة عليه وقوله تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم) لفظه استفهام ومعناه جحد أى لايهديهم الله لما علم من تصميمهم على كفرهم بأنهم كفروا بعد ايمانهم (و) بعد ما (شهدوا انّ الرسول حق و) قد (جاءهم البينات) أى الحجج الظاهرة على صدق النبىّ صلى الله عليه وسلم (والله لايهدى القوم الظالمين) أى الكافرين (أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فان الكافر يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق بعينه *(تنبيه)* دلت هذه الآية بمنطوقها على جواز لعن القوم المذكورين وبمفهومها على نفى جواز لعن غيرهم من الكفار الذين لم يكفروا بعد ايمانهم قال البيضاوى ولعلّ الفرق انهم أى هؤلاء مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مايوسون عن الرحمة بخلاف غيرهم أى فلا يلعن الكافر الاصلى المعين حيا ولاميتا مالايعلم موته على الكفر وكالاصلى المرتد وأمّا لعن الكافر على العموم فيجوز (خالدين فيها) أى اللعنة أو النار أو العقوبة المدلول باللعنة عليها (لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) أى يمهلون (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) عملهم تصديقا لتوبتهم (فانّ الله غفور) لهم يقبل توبتهم (رحيم) بهم يتفضل عليهم وذلك أنّ الحرث بن سويد لما ارتد ولحق بالكفار ندم فأرسل الى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى من توبة فأرسل اليه أخوه الجلاس بالآية فأقبل الى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته * ونزل فى اليهود (انّ الذين كفروا) بعيسى والانجيل (بعد ايمانهم) بموسى والتوراة (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالاصرار والعناد والطعن فيه والصدّ عن الايمان ونقض الميثاق (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أى الثابتون على الضلال (فان قيل) قد وعد الله تعالى قبول توبة من تاب فما معنى قوله تعالى لن تقبل توبتهم (أجيب) بأنّ محل القبول اذا كان قبل الغرغرة وهؤلاء توبتهم كانت بعدها وانهم لم يتوبوا أصلا فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها أو انّ توبتهم لاتكون الا نفاقا (انّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء) أى مقدار مايملؤها من (الارض) شرقها الى غربها (ذهبا) تغليظا فى شأنهم وابرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة (فان قيل) لم قال فى الآية الاولى لن تقبل بغير فاء وفى هذه بقوله فلن يقبل بالفاء (أجيب)

بان

بأن الفاء انما دخلت فى خبر ان لشبه الذين بالشرط وايذانا بتسبب امتناع الفدية على الموت على الكفر بخلافه فى الآية الاولى لادليل فيه على السبب كما تقول الذى جاءنى له درهم لم تجعل المجيء سببا لاستحقاق الدرهم بخلاف قولك فله درهم ونصب ذهبا على التمييز كقولهم عشرون درهما وقوله تعالى (ولو افتدى به) محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا لو تقرب به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا ما فى الارض جميعا ومثله معه والمثل يحذف كثيرا فى كلامهم كقوله ضربته ضرب زيد وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله (أولئك لهم عذاب أليم) أى مؤلم (ومالهم من ناصرين) أى مانعين عنهم العذاب ومن مزيدة للاستغراق روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله لاهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك ما فى الارض من شئ أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من ذلك وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى شيأ فأبيت الا أن تشرك بى (لن تنالوا البر) أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى هو كمال الخير أو لن تنالوا بر الله تعالى الذى هو الرحمة والرضا والجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) من أموالكم أو ما يعمها وغيرها كبذل الجاه فى معاونة الناس والبدن فى طاعة الله تعالى والنفس فى سبيله وقال الحسن لن تكونوا أبرارا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وكان السلف رحمهم الله اذا أحبوا شيأ جعلوه لله روى لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال يارسول الله ان أحب أموالى الى بيرحا وهو بفتح الباء الموحدة وكسرها وبفتح الراء وضمها مع المد والقصر ضيعة بالمدينة وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذاك مال رابح أو قال رائح وانى أرى أن تجعلها فى الاقربين فقال أبو طلحة افعل يارسول الله فقسمها فى أقاربه قوله صلى الله عليه وسلم بخ بخ كلمة تقال عند المدح والرضا بالشئ وتكرر للمبالغة وهى مبنية على السكون فان وصلت كسرت ونونت وربما شددت وقوله رابح أو رائح يقال لضيعة الانسان مال رائح بالياء أى يروح نفعه اليه ورابح بالباء الموحدة أى ذو ربح كقولك لابن وتامر أى ذو لبن وذو تمر وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة فكان زيدا وجد فى نفسه وقال انما أردت أن أتصدق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان الله قد قبلها منك وكتب عمر رضى الله تعالى عنه الى أبى موسى الاشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت أعجبته فقال ان الله تعالى قال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

فأعتقها وقال لولا انى لا أعود فى شئ جعلته لله لنكحتها (وما تنفقوا من شئ) أى من أى شئ تحبونه أو غيره ومن بيان لما (فان الله به عليم) فيجازيكم بحسبه * ولما قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تزعم أنك على ملة ابراهيم وكان ابراهيم لا يأكل لحوم الابل وألبانها وأنت تأكلها فلست أنت على ملته فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان ذلك حلالا لابراهيم فقالوا كل ما نحرمه اليوم كان حراما على نوح وابراهيم حتى انتهى الينا نزل (كل الطعام) أى المطعومات أو كل أنواع الطعام (كان حلا) أى حلالا أكله (لبنى اسرائيل) والحل مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع قال تعالى لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن (الا ما حرم اسرائيل) وهو يعقوب صلى الله عليه وسلم (على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أى ليس الامر على ما قالوا من حرمة لحوم الابل وألبانها على ابراهيم بل كان الكل حلالا له ولبنى اسرائيل وانما حرمها اسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة فليس فى التوراة حرمتها واختلفوا فى الطعام الذى حرمه اسرائيل على نفسه وفى سببه فقال مقاتل والكلبى كان ذلك الطعام لحمان الابل وألبانها وسبب ذلك انه مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان ذلك أحب اليه فحرمه وقال ابن عباس والضحاك هى العروق وسبب ذلك انه اشتكى عرق النسا وهو بفتح النون والقصر عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ وكان أصل وجعه أنه كان نذران وهبه الله اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة فقال يا يعقوب انك رجل قوى فهل لك فى الصراع فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا ثم قال له أما انى لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لانك كنت نذرت ان أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا فكان لا ينام بالليل من الوجع فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى أن لا يأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق فحرمه على نفسه وكان بنوه بعد ذلك يتتبعون العروق يخرجونها من اللحم وقال ابن عباس لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الاطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرمها يعقوب على نفسه ثم اختلفوا فى حال هذا الطعام المحرم على بنى اسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدى حرم الله عليهم فى التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها وقال الضحاك لم يكن شئ من ذلك حراما عليهم وانما حرموا على أنفسهم اتباعا لابيهم ثم أضافوا تحريمه الى الله عز وجل وأكذبهم الله تعالى فقال تعالى (قل) لهم يا محمد (فأتوا بالتوراة فاتلوها) ليتبين صدق قولكم (ان كنتم صادقين) فيه فبهتوا ولم يأتوا بها وفى اخباره صلى الله عليه وسلم عما فى التوراة دليل على نبوته قال الله تعالى (فمن افترى) أى ابتدع (على الله الكذب من بعد ذلك) أى ظهور الحجة بأن التحريم انما كان من جهة يعقوب لا على عهد ابراهيم (فأولئك هم الظالمون) أى المتجاوزون الحق الى الباطل وقوله تعالى (قل) أى لهم (صدق الله) تعريض بكذبهم أى ثبت ان الله صادق فى هذا كجميع ما أخبر به وأنتم الكاذبون (فاتبعوا ملة ابراهيم) أى ملة الاسلام التى أنا عليها التى هى فى الاصل ملة

ابراهيم

ابراهيم حتى تخلصوا من اليهودية التى وطئتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم الى تحريف كتاب الله تعالى لتسوية اغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ومن تبعه (حنيفا) أى مائلا عن كل دين الى دين الاسلام وقوله تعالى (وما كان من المشركين) فيه اشارة الى ان اتباع ابراهيم صلى الله عليه وسلم واجب فى التوحيد الصرف والاستقامة فى الدين والتجنب عن الافراط وهو تحريف التوراة وعن التفريط وهو ترك العمل وفيه اشارة الى التعريض بشرك اليهود * ولما قالت اليهود للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الانبياء وقال المسلمون بل الكعبة أفضل نزل (ان أول بيت وضع للناس) أى جعله الله متعبدا لهم وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والارض خلقه الله تعالى قبل الارض بألفى عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الارض تحته بناه الملائكة قبل خلق آدم ووضع بعده الاقصى وبينهما أربعون سنة كما فى حديث الصحيحين ولما أهبط آدم قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفى عام وقيل أول من بناه آدم فانطمس فى الطوفان ثم بناه ابراهيم وقيل كان فى موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح بضاد معجمة وحاء مهملة سمى بذلك لانه ضرح من الارض أى بعد ويطوف به الملائكة فلما أهبط أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع فى الطوفان الى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات قال البيضاوى وهذا القول لا يلائم ظاهر الآية وقيل أول من بناه ابراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم ثم العمالقة ثم قريش (للذى) أى للبيت الذى (ببكة) بالباء لغة فى مكة سميت بذلك لانها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها فلم يرمها جبار بسوء الاوقصه الله وسميت مكة بالميم لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه اذا امتص كل ما فيه من اللبن وتدعى أم رحم لان الرحمة تنزل بها وقوله تعالى (مباركا) حال من الذى أى ذا بركة لانه كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف عنده أوطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب (وهدى للعالمين) لانه قبلتهم ومتعبدهم ولان فيه آيات عجيبة كما قال تعالى (فيه آيات بينات) كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار فلا تعلو فوقه وأن ضوارى السباع تخالط الصيود فى الحرم ولا تتعرض لها واذا قصدت الجارحة صيدا فدخلت الحرم كفت عنه وأنه بلد صار اليه الانبياء والمرسلون والاولياء والابرار وان الصلاة فيه تضاعف بمائة ألف وان كل جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل وجملة فيه آيات بينات مفسرة لهدى أو حال كمباركا وهدى وقوله تعالى (مقام ابراهيم) مبتدأ حذف خبره أى منها مقام ابراهيم أو خبر مبتدا محذوف أى احدها أو بدل من آيات بدل بعض من كل وهو الحجر الذى قام عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالايدى ولعل الذى اندرس بعضه فانى رأيت أثر القدمين فيه وفى هذا دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام لان تأثير القدم فى الصخرة الصماء وغوصه فيها الى الكعبين والانه بعض الصخرة دون بعض وابقاءه دون سائر آيات الانبياء عليهم الصلاة والسلام وحفظه

مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين معجزة عظيمة واختلف في سبب هذا الاثر على قولين أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه وهذا هو المشهور والقول الثانى انه لما جاز ابراهيم من الشأم الى مكة قالت له امرأة اسمعيل انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الى شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه قال البيضاوى وقيل عطف بيان ورد هذا القول بأن آيات نكرة ومقام ابراهيم معرفة ولا يجوز التخالف فى عطف البيان باجماع البصريين والكوفيين وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) جملة ابتدائية أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لانه فى معنى أمن من دخله أى ومنها أمن من دخله وذلك بدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام رب اجعل هذا البلد آمنا وفى الاقتصار على ذكرهاتين الآيتين وطى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما ونحوه فى طى الذكر قول جرير

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم * من العبيد وثلث من مواليها

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة والامن من العذاب يوم القيامة قال عليه الصلاة والسلام من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا رواه أبو داود والدارقطنى وغيرهما وروى انه صلى الله عليه وسلم قال الحجون والبقيع يؤخذ باطرافهما وينثران فى الجنة والحجون مقبرة مكة والبقيع مقبرة المدينة وعند الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما لم يتعرض له الا انه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج فيقتل وكان عمر بن الخطاب يقول لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه وعند الامام الشافعى رحمه الله تعالى لا يلجأ الى الخروج بل يقتل للامر فى خبر الشيخين بقتل ابن خطل وقد كان ارتد وتعلق باستار الكعبة وأما قوله ومن دخله كان آمنا وخبر من دخل المسجد فهو آمن فمعناه جمعا بين الادلة ان من دخله بغير استحقاق قتل كان آمنا ومن دخله بعد استحقاق قتل قتل وأما اذا ارتكب الجريمة فى الحرم فيستوفى منه بالاتفاق (ولله على الناس حج البيت) أى قصده للزيارة على وجه مخصوص وهو أحد اركان الاسلام قال صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان وقرأ حفص وحمزة والكسائى بكسر الحاء وهى لغة نجد وقرأ الباقون بالفتح وهى لغة أهل الحجاز وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد وقوله تعالى (من استطاع اليه) أى الحج أو البيت (سبيلا) أى طريقا بدل من الناس مخصص له وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة رواه الحاكم وغيره (ومن كفر) أى بما فرضه الله من الحج أو كفر بالله (فان الله غنى عن العالمين) أى الانس والجن والملائكة وعن عباداتهم وقيل وضع كفر موضع لم يحج تأكيدا للوجوب وتشديدا على تاركه

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا رواه الترمذى وضعفه ونحوه فى التغليظ من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر *(تنبيه)* فى هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد على طلب الحج منها قوله تعالى ولله على الناس حج البيت أى انه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته ومنها انه ذكر الناس ثم انه أبدل منه من استطاع اليه سبيلا وفيه ضربان من التوكيد أحدهما ان الابدال تثنية للمراد وتكرير له والثانى أن الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال ايراد له فى صورتين مختلفتين ومنها ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ومنها قوله عن العالمين ولم يقل عنه وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لانه اذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولانه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير واجب وروى انه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل وهم المشركون واليهود والنصارى والصابئون والمجوس قالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فنزل ومن كفر الخ وعنه صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فانه قد هدم البيت مرتين و يرفع فى الثالثة وروى حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه حجوا هذا البيت قبل أن تنبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة الا نفقت اى ماتت (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح وانهم وان زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والانجيل فهم كافرون بهما (والله شهيد) أى والحال ان الله تعالى شهيد (على ما تعملون) فيجازيكم عليه (قل يا أهل الكتاب لم تصدون) أى تصرفون (عن سبيل الله) أى دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الاسلام (من آمن) بتكذيبكم النبى صلى الله عليه وسلم وكتمكم نعته وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون فى صدهم عن دين الله ويمنعون من أراد الدخول فيه جهدهم وقيل أتت اليهود الاوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العدوان والحروب ليعودوا لمثله وانما كرر الخطاب والاستفهام مبالغة فى التوبيخ ونفى العذر لهم واشعارا بأن كل واحد من الامرين مستقبح فى نفسه مستقل باستجلاب العذاب وقوله تعالى (تبغونها) أى السبيل (عوجا) حال من الواو أى باغين طالبين لها اعوجاجا أى ميلا عن القصد والاستقامة بأن تلبسوا على الناس وتوهموا ان فى دين الاسلام عوجا عن الحق بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوهما *(فائدة)* قال أبو عبيدة العوج بالكسر فى الدين والقول والعمل وبالفتح فى الجدار وكل شخص قائم (وأنتم شهداء) أى عالمون بأن الدين المرضى هو دين الاسلام كما فى كتابكم (وما الله بغافل عما تعملون) من الكفر

والتكذيب وانما يؤخركم لوقتكم فيجازيكم (فان قيل) لم ختمت الآية الاولى بقوله تعالى والله
شهيد على ماتعملون وهذه الآية بقوله تعالى وما الله بغافل عما تعملون (أجيب) بأنه لما كان
المنكر فى الآية الاولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله تعالى والله شهيد على ماتعملون
ولما كان فى هذه الآية صدهم المؤمنين عن الاسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال وما الله
بغافل عما تعملون * ولما مر شاس بن قيس اليهودى وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على
المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من الانصار من الاوس والخزرج فى مسجد لهم يتحدثون فغاظه
ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة وقال مالنا معهم اذا
اجتمعوا من قرار فأمر شابا من اليهود أن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وهو موضع بالمدينة
وينشدهم بعض ماقيل فيه من الاشعار وكان يوما اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه
للاوس ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح فبلغ ذلك
النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والانصار فقال أبدعوى الجاهلية
وانا بين أظهركم بعد اذ أكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف به بينكم
فعرف القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا
ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين نزل (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا
فريقا من الذين أوتوا الكتاب) أى شاسا وأصحابه (يردوكم بعد ايمانكم كافرين) قال جابر
مارأيت يوما قط أقبح أولا وأحسن آخرا مثل ذلك اليوم ثم قال الله تعالى على وجه التعجب
والتوبيخ (وكيف تكفرون) أى ولم تكفرون (وأنتم تتلى عليكم ايات الله وفيكم رسوله) محمد
صلى الله عليه وسلم والمعنى من أين يتطرق اليكم الكفر والحال ان آيات الله وهى القرآن المعجز
تتلى عليكم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم غضة طرية وبين أظهركم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم (ومن يعتصم بالله) أى ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ
اليه فى مجامع أموره (فقد هدى) أى فقد حصل له الهدى لامحالة كما تقول اذا جئت
فلانا فقد أفلحت كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فى قد ظاهر لان
المعتصم بالله متوقع للهدى كما ان قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده (الى صراط) أى طريق
(مستقيم) أى واضح (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى واجب تقواه وما يحق منها
وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم وقال ابن مسعود بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر
ويذكر فلا ينسى وروى مرفوعا لما نزلت هذه الآية قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم
يارسول الله من يقوى على هذا فنسخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال مقاتل ليس فى آل
عمران منسوخ الا هذه الآية (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) أى موحدون والمعنى لاتكونن على
حال سوى حالة الاسلام اذا أدرككم الموت فان النهى عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه
بالذات الى القيد تارة والى المقيد أخرى والى المجموع منهما وهو هنا الى القيد كما تقول
لن تستعين به على لقاء العدو لاتأتنى الا وأنت على حصان بكسر الحاء فلا تنهاه عن الاتيان

ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الاتيان فالنهي هنا متوجه الى القيد وحده وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته الآية فلو ان قطرة من الزقوم قطرت على الارض لامرّت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامهم وليس لهم طعام غيره (واعتصموا بحبل الله) أى بدينه وهو دين الاسلام استعار له الحبل من حيث ان التمسك به سبب للنجاة من الردى كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى أو بكتابه وهو القرآن لقوله صلى الله عليه وسلم القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم وقوله تعالى (جميعا) حال أى مجتمعين عليه (ولا تفرقوا) أى ولا تتفرقوا بعد الاسلام بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه (واذكروا نعمة الله) أى انعامه (عليكم) التي من جملتها الهداية والتوفيق للاسلام المؤدى الى التآلف (اذ كنتم أعداء) في الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة (فألف بين قلوبكم) بالاسلام وقذف فيها المحبة (فأصبحتم بنعمته اخوانا) متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد وهو الاخوة في الله وقيل هم الاوس والخزرج كانا أخوين لاب وأم فوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل وتطاولت الحروب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة الى أن أطفأ الله ذلك بالاسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (وكنتم على شفا) أى طرف (حفرة من النار) أى حفرة ليس بينكم وبين الوقوع فيها الا أن تموتوا كفارا (فأنقذكم منها) بالاسلام والضمير للحفرة أو النار أو الشفا وأنثه لتأنيث ما أضيف اليه كقول الشاعر * كما شرقت صدر القناة من الدم * (كذلك) أى مثل ذلك البيان البليغ (يبين الله لكم آياته) أى دلائله (لعلكم تهتدون) ارادة ان تزدادوا هدى (ولتكن منكم أمة) أى طائفة (يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فمن للتبعيض لان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ولانه لا يصلح له الا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الامر في اقامته وكيف يباشره فان الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة وعلى هذا فالمخاطب به الكل على الاصح ويسقط بفعل البعض الحرج عن الباقين وهكذا كل ما هو فرض كفاية فان تركوه أصلا أثموا جميعا وقيل من زائدة وقيل للتبيين بمعنى وكونوا أمة تأمرون بالمعروف كقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف (وأولئك) أى الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) أى الفائزون بكمال الفلاح روى الامام أحمد وغيره انه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر من خير الناس قال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر واتقاهم لله وأوصلهم للرحم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وروى انه صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى

بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وروى أن أبابكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال مثل المداهن فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذى فى أعلاها فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا مالك فقال تأذيتم بى ولابد لى من الماء فان أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وان تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم وعن حذيفة يأتى على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار أحب اليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعن سفيان الثورى اذا كان الرجل محببا فى جيرانه محمودا عند اخوانه فاعلم انه مداهن والامر بالمعروف تابع للمأمور به ان كان واجبا فواجب وان كان مندوبا فمندوب وأما النهى عن المنكر أى الحرام فواجب كله لان جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح والاظهر ان العاصى يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لانه يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا وانما يجب الامر والنهى على المكلف اذا لم يخش ضررا ويجب ان يدفع بالاخف فالاخف كدفع الصائل (فان قيل) الدعاء للخير عام فى التكاليف من الافعال والتروك فهو شامل للامر بالمعروف والنهى عن المنكر فما فائدة ذكر ذلك (أجيب) بأنه من عطف الخاص على العام ايذانا بفضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) عن دينهم (واختلفوا) فيه وهم اليهود والنصارى (من بعد ما جاءهم البينات) أى الآيات والحجج الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهى كلمة الحق وقيل هم مبتدعة هذه الامة وهم المشبهة والجبرية والحشوية وأشباههم وقوله تعالى (وأولئك لهم عذاب عظيم) وعيد للذين تفرقوا وتهديد للمتشبه بهم (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) هو يوم القيامة ونصب يوم بالظرف وهو لهم لما فيه من معنى الفعل أو باضمار اذكروا والبياض من النور والسواد من الظلمة فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون واسفاره واشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله (فأما الذين اسودت وجوههم) فهم الكافرون فيلقون فى النار ويقال لهم توبيخا (أكفرتم بعد ايمانكم) واختلفوا فى كيف كفروا بعد ايمانهم فقال أبى بن كعب أراد به الايمان يوم الميثاق حين قال لهم ألست بربكم قالوا بلى يقول أكفرتم بعد ايمانكم يوم الميثاق وعلى هذا هم جميع الكفرة وقال الحسن هم المنافقون تكلموا بالايمان بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم وعن عكرمة انهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد صلى

الله

الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به وقال قتادة هم أهل البدع وقال أبو أمامة هم الخوارج ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال كلاب أهل النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء وخير قتلى تحت أديم الارض الذين قتلهم هؤلاء فقال له أبو غالب أشئ تقوله برأيك أم شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة قال فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الاسلام فكفروا ثم قرأ هذه الآية ثم أخذ بيده فقال ان بأرضك منهم كثيرا فأعاذك الله تعالى منهم وقوله تعالى (فذوقوا العذاب) أمر اهانة (بما كنتم تكفرون) أي بسبب كفركم أو جزاء كفركم فالباء متعلقة بذوقوا على الاول وبمحذوف على الثاني (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) أي جنته عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة الا برحمته وفضله (فان قيل) كان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم (أجيب) بأن القصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى (هم فيها خالدون) بعد قوله ففي رحمة الله (أجيب) بأن فائدته انه أخرج مخرج الاستئناف والتأكيد كأنه قيل كيف يكونون فيها فقال هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون (تلك) أي هذه الآيات الواردة في الوعد والوعيد (آيات الله نتلوها عليك) يا محمد (بالحق) أي متلبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء (وما الله يريد ظلما للعالمين) اذ يستحيل الظلم منه تعالى لانه لا يجب عليه شئ بل هو المالك على الاطلاق كما قال تعالى (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا (والى الله ترجع) أي تصير (الامور) فيجازي كلا بما وعده وأوعد (كنتم) يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم في علم الله تعالى (خير أمة أخرجت) أي أظهرت (للناس) وقيل كنتم في الامم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به روى انه صلى الله عليه وسلم قال ألا وان هذه الامة توفي سبعين أمة هي خيرها وأكرمها على الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتي وروى انه صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الامة وقوله تعالى (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) استئناف بين به كونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وقوله تعالى (وتؤمنون بالله) يتضمن الايمان بكل ما يجب أن يؤمن به لان من آمن ببعض ما يجب الايمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بايمانه فكأنه غير مؤمن بالله (فان قيل) لم أخر تؤمنون بالله وحقه أن يقدم (أجيب) بأنه انما أخر لانه قصد بذكره الدلالة على انهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ايمانا بالله تعالى وتصديقا به واظهارا لدينه * (تنبيه) * استدل بهذه الآية على ان اجماع هذه الامة حجة لانها تقتضي كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر اذ اللام فيها للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كتحريم شئ هو في نفس الامر معروف كان أمرهم على خلاف ذلك (ولو آمن

أهل الكتاب) بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (لكان) الايمان (خيرا لهم) مما هم عليه لانهم انما آثروا دينهم على دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأكثرهم الفاسقون) أى المتمردون فى الكفر (لن يضروكم) أى اليهود يامعشر المسلمين بشئ (الا أذى) أى ضررا يسيرا كسب وطعن فى الدين وتهديد ونحو ذلك (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) عليكم بل لكم النصر عليهم وفى هذا تثبيت لمن أسلم منهم لانهم كانوا يؤذونهم بأنهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الاذى الى ضرر يبالى به مع أنه تعالى وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل (فان قيل) هلا جزم المعطوف فى قوله ثم لا ينصرون (أجيب) بأنه عدل به عن حكم الجزاء الى حكم الاخبار ابتداء كأنه قيل ثم أخبركم انهم لا ينصرون والفرق بين رفعه وجزمه فى المعنى أنه لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الادبار وحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر كما أخبر عن حال بنى قريظة والنضير ويهود خيبر (فان قيل) مامعنى التراخى فى ثم (أجيب) بأن معناه التراخى فى الرتبة لان الاخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الادبار (ضربت عليهم الذلة) أى هدر النفس والمال والاهل أو ذل التمسك بالباطل والجزية (أينما ثقفوا) أى حيثما وجدوا فلا عز لهم ولا اعتصام فى سائر أحوالهم (الا) فى حال اعتصامهم (بحبل من الله) أى بذمة الله أو كتابه (وحبل من الناس) أى بذمة المسلمين أو بدين الاسلام واتباع سبيل المؤمنين أى لا عز لهم قط الا هذه الواحدة وهى التجاؤهم الى الذمة لما قبلوه من الجزية او دين الاسلام (وباؤا) أى رجعوا (بغضب من الله) أى مستوجبين له (وضربت عليهم المسكنة) كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون فى المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة وفسر أكثر المفسرين المسكنة بالجزية وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه قال البيضاوى واليهود فى غالب الامر فقراء مساكين اه (ذلك) أى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب كائن (بأنهم) أى بسبب انهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك) أى الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى فان الاصرار على الصغائر يفضى الى الكبائر والاصرار على الكبائر يفضى الى الكفر والعياذ بالله تعالى (ليسوا) أى أهل الكتاب (سواء) أى مستوين وقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى مستقيمة ثابتة على الحق استئناف لبيان نفى الاستواء وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما أسلم عبد الله بن سلام قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد الا أشرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فانزل الله هذه الآية (يتلون آيات الله) أى يقرؤن كتاب الله (آناء الليل) أى فى ساعاته وقوله تعالى (وهم يسجدون) حال أى يصلون لان التلاوة لا تكون فى السجود واختلفوا فى معناها فقال

بعضهم هي قيام الليل وقال ابن مسعود هي صلاة العتمة لان أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخرها ثم خرج الى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما انه أي الشأن ليس من أهل الاديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم رواه الامام أحمد والنسائي وغيرهما وقوله غيركم بالنصب خبر ليس ومن أهل الاديان حال من أحد قاله التفتازاني * ثم وصف الله تعالى تلك الامة القائمة بصفات أخر فقال (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك) أي الموصوفون بما ذكر (من الصالحين) أي ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناه أي والامة الاخرى غير قائمة بل منحرفون عن الحق غير متعبدين بالليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون لليوم الآخر بغير صفته متباطؤن عن الخيرات فترك هذا اكتفاء بذكر أحد الفريقين (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) أي تعدموا ثوابه بل تجازون عليه وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء فيهما أي الامة القائمة والباقون بالتاء على الخطاب أي أيها الامة القائمة وقوله تعالى (والله عليم بالمتقين) بشارة لهم واشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل وان الفائز عند الله هو أهل التقوى (ان الذين كفروا لن تغني) أي تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) اى من عذابه (شيأ) وخص الاموال والاولاد بالذكر لان الانسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالاولاد (وأولئك أصحاب النار) أي ملازموها (هم فيها خالدون مثل) أي صفة (ما ينفقون) أي الكفار (في هذه الحياة الدنيا) في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ونحوها (كمثل ريح فيها صر) قال أكثر المفسرين فيها برد شديد وحكي عن ابن عباس أنها السموم الحارة التي تقتل وقيل فيها صر أي صوت (أصابت حرث) أي زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي (فأهلكته) عقوبة لهم لان الاهلاك عن سخط أشد وأبلغ والمعنى مثل اهلاك ما ينفقون كمثل اهلاك ريح الزرع فلم ينتفعوا به فكذلك نفقة هؤلاء ذاهبة لا ينتفعون بها (وما ظلمهم الله) بضياع نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر الموجب لضياعها ويجوز أن يعود الضمير لاصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم أي وما ظلمهم الله تعالى باهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) أي أصفياء تطلعونهم على سركم ثقة بهم شبهوا ببطانة الثوب كما شبهوا بالشعار قال عليه الصلاة والسلام الانصار شعار والناس دثار رواه الشيخان والشعار ما يلي الجسد والدثار فوقه وقوله تعالى (من دونكم) أي من دون المسلمين متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفة بطانة أي كائنة من دونكم أي غيركم من الكفار والمنافقين (لا يألونكم خبالا) أي لا يقصرون لكم في الفساد والالو التقصير وأصله أن يتعدى بالحرف وعدى الى مفعولين كقولهم لا آلوك نصحا على تضمين معنى المنع أو النقص والمعنى لا أمنعك نصحا ولا أنقصكه (ودوا) أي تمنوا (ما عنتم) أي عنتكم وهو شدة الضرر وما مصدرية أي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه (قد بدت) أي ظهرت (البغضاء من أفواههم) أي في كلامهم بالوقيعة فيكم واطلاع المشركين

على سركم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم وعن قتادة قد بدت البغضاء لاوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضا على ذلك (وما تخفى صدورهم) من العداوة والغيظ (أكبر) أى أعظم مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وجوب الاخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (ان كنتم تعقلون) ما بين لكم فلا توالوهم (فان قيل) كيف موقع هذه الجمل وهى لا يألونكم وودوا ما عنتم وقد بدت البغضاء وقد بينا لكم الآيات (أجيب) بأنها مستأنفات على وجه التعليل بمعنى ان كلا علة للنهى عن اتخاذهم بطانة (ها أنتم أولاء) ها تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين وأولاء اسم للمشار اليهم وهم المؤمنون وقوله تعالى (تحبونهم) أى هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للاسباب التى بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة (ولا يحبونكم) لمخالفتهم لكم فى الدين بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لاهل البغضاء (وتؤمنون بالكتاب كله) أى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم وفى هذا توبيخ شديد للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ونحو هذا قوله تعالى فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون (واذا لقوكم قالوا آمنا) أى نفاقا وتغريرا (واذا خلوا) أى خلا بعضهم ببعض (عضوا عليكم الانامل) أى أطراف الاصابع (من الغيظ) أى شدة الغضب لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ويعبر عن شدة الغضب بعض الانامل مجازا وان لم يكن ثم عض فيوصف المغتاظ والنادم بعض الانامل والبنان والابهام قال الحرث بن ظالم المرى

فأقتل أقواما لئاما أذلة * يعضون من غيظ رؤس الاباهم

(قل موتوا بغيظكم) أى ابقوا الى الممات بغيظكم فلن تروا ما يسركم وقوله تعالى (ان الله عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب ومنه ما يضمره هؤلاء يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم ان الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الانامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعى اياك على اسرارهم فانى عليم بالاخفى من ضمائرهم (ان تمسسكم) أى تصبكم أيها المؤمنون (حسنة) أى نعمة كنصر وغنيمة وخصب فى معاشكم وتتابع الناس فى دينكم (تسؤهم) أى تحزنهم (وان تصبكم سيئة) أى اساءة كهزيمة وجدب واختلاف يكون بينكم (يفرحوا بها) وجملة الشرط متصلة بالشرط قبل وما بينهما اعتراض والمعنى انهم متناهون فى عداوتكم فلم توالونهم فاجتنبوهم (فان قيل) كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة (أجيب) بأن المس مستعار بمعنى الاصابة فكان المعنى واحدا ألا ترى الى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك (وان تصبروا) على أذاهم (وتتقوا) الله فى موالاتهم وغيرها (لا يضركم كيدهم شيأ) بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين وهذا تعليم من الله تعالى وارشاد الى أنه يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقد قال الحكماء اذا أردت ان تكيد من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر الضاد وسكون الراء من ضاره يضيره والباقون بضم الضاد وضم الراء مشددة للاتباع

كضمة مدّ وهي ضمة الامر المضاعف وكل مجزوم من المضاعف المضموم العين فانه يجوز ضمه للاتباع كما يجوز فتحه للخفة وكسره لاجل تحريك الساكن (ان الله بما تعملون محيط) أي عالم فيجازيكم به (و) اذكر يا محمد (اذ غدوت من أهلك) أي من حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها (تبوّئ) أي تنزل (المؤمنين مقاعد) أي مراكز يقفون فيها (للقتال والله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوالكم روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الاربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن ابي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها واستشاره فقال عبد الله وأكثر الانصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدو قط الا أصاب منا ولا دخل علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس أي بكسر الباء وهو مكان لاماء فيه ولا طعام وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأي وقال بعض أصحابه اخرج بنا الى هؤلاء الاكلب لايرون انا قد جبنا عنهم وضعفنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني قد رأيت في منامي بقرا مذبحة حولي فأولتها خيرا ورأيت في ذباب سيفي ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا الى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته أي درعه فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا بئس ماصنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه وقالوا اصنع يا رسول الله مارأيت فقال لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ونزل في عدوة الوادي أي بالعين المهملة وهي جانبه وجعل ظهره وعسكره الى أحد وسوى صفوفهم وأجلس خمسين من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال انضحوا علينا بالنبل لا يأتون من ورائنا ولا تبرحوا غلبنا أو نصرنا (اذ) بدل من اذ قبله (همت طائفتان منكم) بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما جناحا العسكر (ان تفشلا) أي تجبنا عن القتال وترجعا روى أنه صلى الله عليه وسلم خرج في زهاء ألف رجل ووعدهم النصر ان صبروا وكان المشركون ثلاثة آلاف فلما بلغوا عند جبل أحد بالمدينة انعزل ابن أبي المنافق في ثلثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الانصاري وقال أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال ابن أبي لونعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزمخشري والظاهر أنها ما كانت الاهمة وحديث نفس وكما لاتخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها الى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه كما قال عمرو بن الاطنابة

أقول لها اذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدي أو تستريحي

(والله وليهما) أي ناصرهما فما لهما تفشلان (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي ليثقوا به دون

غيره فينصرهم كما نصرهم ببدر ونزل لما هزموا من أحد تذكرة لهم بنعمة الله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) وهو ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرا فسمى به وقوله تعالى (وأنتم أذلة) أى بقلة العدد والسلاح والمال حال من الضمير (فان قيل) قال الله تعالى وأنتم أذلة وقد قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (أجيب) بأنه بمعنى القلة وضعف الحال وقلة السلاح والمال كما مر فان نقيض ذلك العز وهو القوة والغلبة روى ان المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ولم يكن فيهم الا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالة وربما كان الجمع منهم يركبون جملا واحدا والكفار كانوا قريبا من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الاسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (فاتقوا الله) فى الثبات وعدم المخالفة (لعلكم تشكرون) أى بتقوا كم نعمه التى أنعم بها عليكم من نصرته وقوله تعالى (اذ تقول للمؤمنين) أى توعدهم تطمينا ظرف لنصركم وقوله تعالى (ألن يكفيكم أن يمدكم) أى يعينكم (ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) انكار أن لا يكفيهم ذلك وانما جىء بلن اشعارا بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى وقوله تعالى (بلى) ايجاب لما بعد لن أى بلى يكفيكم (فان قيل) قد قال تعالى فى سورة الانفال انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين فكيف قال هنا بثلاثة آلاف (أجيب) بأنه مدهم أولا بألف ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى (ان تصبروا) أى على لقاء العدو (وتتقوا) الله فى المخالفة (ويأتوكم) أى المشركون (من فورهم) أى من وقتهم (هذا) والفور العجلة والسرعة ومنه فارت القدر اشتد غليانها وسارع ما فيها الى الخروج (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أى معلمين وقد صبروا واتقوا وأنجز الله وعده بأن قاتل معهم الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر أو بيض أرسلوها بين أكتافهم وعن عروة بن الزبير كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وعن الضحاك معلمين بالصوف الابيض فى نواصى الدواب وأذنابها وعن مجاهد مجزوزة أذناب خيلهم قال أكثر المفسرين ان الملائكة لم تقاتل فى غير يوم بدر روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الابيض فى قلانسهم ومغافرهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو والباقون بفتحها (وما جعله الله) أى الامداد (الا بشرى) أى بشارة (لكم) أى بالنصر (ولتطمئن) أى ولتسكن (قلوبكم به) فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم (وما النصر الا من عند الله) لا من العدة والعدد وهو تنبيه على أنه لا حاجة فى نصرهم الى مدد الملائكة وانما أمدهم ووعدهم به بشارة لهم وربطا على قلوبهم من حيث ان نظر العامة الى الاسباب أكثر (العزيز) الذى لا يغالب (الحكيم) الذى ينصر ويخذل من يشاء بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة وقوله تعالى (ليقطع) متعلق بنصركم أى ليهلك (طرفا) أى طائفة (من الذين كفروا) بالقتل والاسر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم

(أو يكبتهم

(أو يكبتهم) أى يذلهم بالهزيمة والكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب (فينقلبوا) أى فيرجعوا (خائبين) أى لم ينالوا ما راموه وأو للتنويع لا للترديد * ونزل لما كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد وقال كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم (ليس لك من الامر شئ) بل الامر كله لله فاصبر انما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية وقال قوم نزلت فى أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بئر معونة فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدا شديدا وقنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين وقوله تعالى (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على قوله أو يكبتهم وليس لك من الامر شئ اعتراض والمعنى ان الله تعالى مالك أمرهم فاما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا (فانهم ظالمون) بالكفر وقيل ان أو يتوب عليهم بمعنى الى أن يتوب عليهم (ولله ما فى السموات وما فى الارض) ملكا وخلقا فله الامر كله والمقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولا من قوله ليس لك من الامر شئ والمعنى انما يكون ذلك لمن له الملك وليس هو لاحد الا لله تعالى (فان قيل) ظاهر ما ذكر يدل على أن ذلك ورد للمنع من أمر كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يفعله وذلك الفعل ان كان بأمر الله تعالى فكيف يمنعه منه وان كان بغير أمره فكيف يصح مع قوله تعالى وما ينطق عن الهوى (أجيب) بأن ذلك كان من باب ترك الافضل والاولى فلا جرم أرشده الله تعالى الى اختيار الاولى نظيره قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله فكأنه تعالى قال أولا ان كان ولا بد أن تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل ثم قال ثانيا وان تركته كان ذلك أولى * ثم أمره أمرا جازما بتركه فقال واصبر وما صبرك الا بالله (يغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه * ولما كان له فعل ذلك الا أن جانب المغفرة والرحمة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل التفضل والاحسان قال (والله غفور) لاوليائه (رحيم) بعباده فلا تبادر بالدعاء عليهم * ولما شرح سبحانه وتعالى عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم الى الاصلح فى أمر الدين والجهاد أتبع ذلك بما يدخل فى الامر والنهى والترغيب والتحذير فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا) وهو جمع ضعف * ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك وهو الوصف بقوله (مضاعفة) بأن تزيدوا فى المال عند حلول الاجل وتؤخروا الطلب والتخصيص بحسب الواقع اذ كان الرجل منهم يرابى الى أجل ثم يزيد فى الدين زيادة أخرى حتى يستغرق بالشئ الطفيف مال المديون والا فالربا حرام بلا مضاعفة بل هو من الكبائر مطلقا وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف قبلها (واتقوا الله) بترك ما نهيتم عنه

(لعلكم تفلحون) أى تفوزون ثم خوفهم فقال تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين) بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى أفعالهم كان أبو حنيفة رحمه الله يقول هذه أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه باجتناب محارمه وفى الآية تنبيه على ان النار بالذات للكفار وبالعرض للعصاة (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا فى الطاعة على عادته تعالى المستمرة فى القرآن قال محمد بن اسحق بن يسار هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد ولعل وعسى فى أمثال ذلك دليل على عزة التوصل الى ما جعل خبرا لهما ومن تأمل هذه الآيات وأمثالها لم يحدث نفسه بالاطماع الفارغة والتمنى على الله تعالى (وسارعوا) أى بادروا وأقبلوا (الى مغفرة من ربكم) أى الى ما تستحق به المغفرة كالاسلام والتوبة وأداء الفرائض والهجرة والجهاد والتكبيرة الاولى والاعمال الصالحات وقرأ نافع وابن عامر بغير واو قبل السين والباقون بواو قبلها (و) الى (جنة عرضها السموات والارض) أى عرضها كعرضهما كقوله تعالى عرضها كعرض السماء والارض وانما جمعت السماء وأفردت الارض لانها أنواع قيل بعض فضة وبعض غير ذلك والارض نوع واحد وذكر العرض للمبالغة فى وصف الجنة بالسعة لان العرض دون الطول كما دل عليه قوله تعالى بطائنها من استبرق على أن الظهارة أعظم يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها قال الزهرى انما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه الا الله تعالى وهذا على سبيل التمثيل لأنها كالسموات والارض لا غير بل معناه كعرض السموات السبع والارضين السبع عند ظنكم كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض أى عند ظنكم والافهما زائلتان وعن ابن عباس الجنة كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض وعنه أيضا ان لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وروى أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين تكون النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل فأين يكون النهار واذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا انه لمثلها فى التوراة ومعناه أنه حيث شاء الله وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفى السماء أم فى الارض فقال وأى أرض وسماء تسع الجنة قيل فأين هى قال فوق السموات السبع تحت العرش وقال قتادة كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وان جهنم تحت الارضين السبع (فان قيل) قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأراد بالذى وعدنا الجنة فاذا كانت الجنة فى السماء فكيف يكون عرضها ما ذكر (أجيب) بأن باب الجنة فى السماء وعرضها كما أخبر تعالى (أعدت) هيئت (للمتقين) الله بعمل الطاعات وترك المعاصى وفى ذلك دليل على ان الجنة مخلوقة الآن وقيل ان الجنة والنار يخلقان بعد قيام الساعة * ثم وصف الله تعالى المتقين بصفات فقال (الذين ينفقون) أى فى طاعة الله (فى السراء والضراء) أى فى العسر واليسر أو الاحوال كلها لان الانسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلون عن حال ما بانفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير كما يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة وعن

عائشة رضى الله تعالى عنها انها تصدقت بحبة عنب فأول ماذكر من أوصافهم الموجبة للجنة ذكر السخاء وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من العالم البخيل (والكاظمين الغيظ) أى الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء وروى من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وروى ليس الشديد بالصرعة لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب (والعافين عن الناس) أى التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته روى انه صلى الله عليه وسلم قال ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم الا من عفا وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان هؤلاء فى أمتى قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الامم التى مضت وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعا وهو ظاهر وأن يكون متصلا لما فى القلة من معنى العدم كأنه قيل ان هؤلاء فى أمتى لا يوجدون الا من عصم الله فانه يوجد فى أمتى وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) يجوز أن تكون اللام فيه للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون وأن تكون للعهد فتكون اشارة الى هؤلاء وقوله تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة) أى ذنبا قبيحا كالزنا (أو ظلموا أنفسهم) أى بما دون الزنا كالقبلة وقيل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك (ذكروا الله) أى ذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم (فاستغفروا لذنوبهم) بالندم والتوبة عطف على المتقين أو على الذين ينفقون واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال عطاء نزلت فى أبى سعيد التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها الى بيته وضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية وقال مقاتل والكلبى آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الانصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفى فى غزاة واستخلف الانصارى على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم فلما ارادت المرأة أن تأخذ منه دخل على اثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفى لم يستقبله الانصارى فسأل امرأته عن حاله فقالت لا أكثر الله فى الاخوان مثله ووصفت له الحال والانصارى يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفى حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا وقال الانصارى هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر ويحك اما علمت ان الله تعالى يغار للغازى ما لا يغار للمقيم ثم أتيا عمر فقال عمر مثل ذلك ثم أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال مثل مقالهما فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (ومن) أى لا احد (يغفر الذنوب الا الله) استفهام بمعنى النفى معترض بين المعطوفين والمراد به وصفه سبحانه وتعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول

التوبة (ولم يصروا على ما فعلوا) أى ولم يقيموا على قبيح فعلهم بل أقلعوا عنه مستغفرين روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة وروى لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وقوله تعالى (وهم يعلمون) حال من يصروا أى ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به وقوله تعالى (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار) اشارة الى الفريقين ويجوز أن يكون والذين مبتدأ وأولئك خبره وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة أى مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها * (تنبيه) * لا يلزم من اعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون كما لا يلزم من اعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم فقول الزمخشرى فى الكشاف وفى هذه الآيات بيان قاطع على أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات متقون وتائبون ومصرون وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين ومن خالف فى ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة اذا مات مصرا لا يدخل الجنة ونعوذ بالله من ذلك بل كل من مات على الاسلام يدخل الجنة وهو تحت المشيئة ان شاء الله عذبه وان شاء عفا عنه وقوله تعالى (ونعم أجر العاملين) المخصوص فيه بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك أى المغفرة والجنات روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد مؤمن أذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله الا غفر الله له وروى أى عبد أذنب ذنبا فقال يارب أذنبت ذنبا فاغفر لى فقال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنوب ويؤاخذ بها فغفر له فمكث ماشاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فقال يارب أذنبت ذنبا آخر فاغفر لى قال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به قد غفرت له فليعمل ماشاء أى ويستغفر فأغفر له وروى أنه تبارك وتعالى قال يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ابن آدم انك ان تلقنى بقراب الارض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بى شيأ ابن آدم انك ان تذنب ذنبا حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرنى أغفر لك وروى أن الله تبارك وتعالى قال من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى مالم يشرك بى شيأ قال ثابت البنانى بلغنى أن ابليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة الى آخرها وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه الصلاة والسلام ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى وعن شهر بن حوشب طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة جوزوا الصراط بعفوى وادخلوا الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم وعن رابعة البصرية انها كانت تنشد

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

ونزل فى هزيمة أحد (قد خلت) أى مضت (من قبلكم سنن) جمع سنة وهى الطريقة التى يكون عليها الانسان ويلازمها ومنه سنة الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى قد مضت من قبلكم

طرائق فى الكفار بامهالهم ثم أخذهم (فسيروا) أيها المؤمنون (فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) الرسل من الهلاك فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم (هذا) أى القرآن (بيان للناس) عامة (وهدى) من الضلالة (وموعظة للمتقين) خاصة (ولا تهنوا) أى تضعفوا عن قتال الكفار بما نالكم من القتل والجراح يوم أحد (ولا تحزنوا) على ما أصابكم وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقتل من الانصار سبعون رجلا (وأنتم الاعلون) أى وحالكم أنكم أعلى شأنا منهم فانكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم فى الجنة وانهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار أو لانكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم أو هى بشارة لهم بالعلو والغلبة أى وأنتم الاعلون فى العاقبة وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالنهى بمعنى لا تهنوا ان صح ايمانكم على أن صحة الايمان توجب قوة القلب والثقة بالله تعالى وقلة المبالاة بأعدائه أو متعلق بالاعلون أى ان كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة (ان يمسسكم قرح) جهد من جرح ونحوه يوم أحد (فقد مس القوم) الكفار (قرح مثله) يوم بدر ثم انهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى أن لا تضعفوا فانكم ترجون من الله مالا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بضم قاف قرح فى الموضعين والباقون بالفتح وهما لغتان بمعنى وقال الفراء القرح بالفتح الجرح وبالضم ألمه (وتلك الايام) تلك مبتدأ والايام صفته وقوله تعالى (نداولها) خبره ويصح أن تلك الايام مبتدأ وخبر كما تقول هى الايام تبلى كل جديد والمراد بالايام أوقات الظفر والغلبة أى نصرفها (بين الناس) قال البغوى فيوما عليهم ويوما لهم قال فى الكشاف كقوله وهو من أبيات الكتاب

فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نساء ويوما نسر

تقديره فيوما يكون الامر علينا أى بالاضرار ويوما لنا أى بالنفع فيكون يوما ظرفا ملائما لقوله ويوما نساء ويوما نسر قاله الشيخ سعد الدين أى أديل تارة للمسلمين على المشركين وهو يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين واديل تارة للكافرين على المسلمين وهو يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين روى انه صلى الله عليه وسلم جعل عبد الله ابن جبير على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا فقال ان رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم فهزموهم قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة الغنيمة فما تنتظرون فقال عبد الله ابن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك اذ يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا اثنا عشر رجلا فأصابوا منا سبعين وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة وسبعين أسيرا وسبعين

قتيلا فقال أبو سفيان أفي القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات ثم قال أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع الى أصحابه وهو يقول أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله ان الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال انكم ستجدون في القوم مثلة ثم أخذ يرتجز * اعل هبل اعل هبل * فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال * ان لنا العزى ولا عزى لكم * فقال النبي صلى الله عليه وسلم الا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول فقال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم وفي حديث ابن عباس قال أبو سفيان يوم بيوم وان الايام دول والحرب سجال فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار وانما كانت الدولة يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم (وليعلم الله الذين آمنوا) أي أخلصوا ايمانهم من غيرهم (فان قيل) ظاهر هذه الآية ان الله تعالى انما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم وذلك في حقه تعالى محال ونظير هذا الاشكال قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقوله لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم وقوله الا لنعلم من يتبع الرسول وقوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا فظاهر هذه الآيات يدل على أنه تعالى انما صار عالما بحدوث هذه الاشياء عند حدوثها وأجاب المتكلمون عنها بأن الدلائل العقلية دلت على انه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها فثبت أن التغير في العلم محال الا أن اطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور يقال هذا علم فلان والمراد معلومه وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم فالمراد تجدد المعلوم واذا عرف هذا فهذه الآية محتملة لوجوه أحدها ليظهر المخلص من المنافق والمؤمن من الكافر وثانيها ليعلم أولياء الله وأضاف الى نفسه تفخيما وثالثها ليحكم بالامتياز فأوقع العلم مكان الحكم بالامتياز لان الحكم لا يحصل الا بعد العلم ورابعها ليعلم ذلك واقعا كما كان يعلم أنه سيقع لان المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد (ويتخذ منكم شهداء) أي ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم المستشهدون يوم أحد أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الامم يوم القيامة بما وجد منهم من الثبات والصبر على الشدائد كما قال تعالى لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (والله لا يحب الظالمين) قال ابن عباس أي المشركين كقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم وهو اعتراض بين بعض التعاليل وبعض وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وانما يظفرهم احيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين (وليمحص الله الذين آمنوا) أي ليطهرهم من الذنوب بما أصابهم (ويمحق) أي يهلك (الكافرين) أي ان كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم وان كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم (أم) منقطعة مقدرة ببل ومعنى الهمزة فيها الانكار أي بل أ (حسبتم

أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) فى الشدائد وقد مر معنى يعلم * (تنبيه) * قال البيضاوى والفرق بين لما يعلم ولم أن فى لما توقع الفعل فيما يستقبل لكن قال أبو حيان لا أعلم أحدا من النحويين ذكره بل ذكروا انك اذا قلت لما يخرج زيد دل ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلا نفيه الى وقت الاخبار وأما أنها تدل على توقعه فى المستقبل فلا انتهى لكن قال الفراء لما التعريض الوجود بخلاف لم (ولقد كنتم تمنون) فيه حذف احدى التاءين فى الاصل أى تتمنون (الموت) أى الحرب فانها من أسباب الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج (من قبل أن تلقوه) أى تشاهدوه وتعرفوا شدته (فقد رأيتموه) أى الحرب أو الموت حتى قتل دونكم من قتل من اخوانكم (وأنتم تنظرون) أى بصراء تتأملون الحال كيف هم فلم انهزمتم (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) فسيخلو كما خلوا بالموت أو القتل ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لان الحمد لا يستوجبه الا الكامل والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه الا المستولى على الامر فى الكمال وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جل وعلا محمد وأحمد وفيه يقول حسان بن ثابت

وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقوله تعالى (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) انكار لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به (فان قيل) قوله تعالى أفان مات أو قتل شك وهو على الله محال (أجيب) بأن المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له فى ضعف الدين ووجود الارتداد قال ابن عباس وأصحاب المغازى لما رأى خالد بن الوليد الرماة يوم أحد اشتغلوا بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح فى خيله من المشركين ثم حمل على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزموهم وقتلوهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صخرة ليعلوها وكان قد ظاهر بين درعين فلم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والانوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها وأقبل عبد الله بن قمئة يريد قتل النبى صلى الله عليه وسلم فذب مصعب بن عمير وهو صاحب راية النبى صلى الله عليه وسلم عنه فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فرجع وقال انى قتلت محمدا وصاح صارخ ألا ان محمدا قد قتل فقيل ان ذلك الصارخ كان ابليس فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عباد الله الى عباد الله فاجتمع اليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد

ابن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته فقال ارم فداك أبي وأمي وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا فكان الرجل يمر ومعه جعبته من النبل فيقول انثرها لأبي طلحة وكان اذا رمى يشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر الى موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت كأحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لا نجوت لا نجوت فقال القوم يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه حتى اذا دنا منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك ان شاء الله فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث ابن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور وهو يقول قتلني محمد واحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس قال بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم أليس قال لي أقتلك فلو بزق علي بعد تلك المقالة لقتلني فلم يلبث الا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف قال ابن عباس اشتد غضب الله على من قتله نبي واشتد غضب الله على من رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وفشا في الناس أن محمدا قد قتل فقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم وقال أناس من أهل النفاق ان كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس ابن مالك بن النضر يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وقال عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار الي أن أمسك فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله تعالى هذه الآية (فان قيل) انه تعالى بين في آيات كثيرة انه عليه الصلاة والسلام لا يقتل فقال انك ميت وانهم ميتون وقال والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله واذا علم أنه لا يقتل فلم قال أو قتل (أجيب) بأن هذا ورد على سبيل الالزام فان موسى عليه الصلاة والسلام مات ولم ترجع أمته عن دينه والنصارى زعموا أن عيسى عليه الصلاة والسلام قتل ولم يرجعوا عن دينه فكذا ههنا (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ) بارتداده وانما يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) على نعمة الاسلام بالثبات عليه

كائن واضرابه (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أى بقضائه ومشيئته أو باذنه لملك الموت فى قبضه روحه وقوله تعالى (كتابا) مصدر أى كتب الله ذلك (مؤجلا) أى مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر فلم انهزمتم والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لا يقطع الحياة * ونزل فى الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا نؤته منها) ما نشاء مما قدرناه له كما قال تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وفى الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الآخرة نؤته منها) أى من ثوابها (وسنجزى الشاكرين) أى الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شئ عن الجهاد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها الا ما كتب له وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وقوله تعالى (وكأين) أصله أى دخلت الكاف عليها فصارت مركبة من كاف التشبيه ومن أى وحدث فيهما بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية ومثلها فى التركيب وافهام التكثير كذا فى قولهم عندى كذا كذا درهما واصله كاف التشبيه وذا الذى هو اسم اشارة فلما ركبا حدث فيهما معنى التكثير فكم الخبرية وكأين وكذا كلها بمعنى واحد والنون تنوين فى المعنى أثبت فى الخط على غير قياس قال البغوى لم يقع للتنوين صورة فى الخط الا فى هذا الحرف خاصة وقرأ ابن كثير بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة والباقون بهمزة بعد الكاف مفتوحة بعدها ياء مشددة ووقف أبو عمرو على الياء والباقون على النون وسهل حمزة الهمزة وحققها الباقون وقوله تعالى (من نبى) تمييز لكأين لانها مثل كم الخبرية وقوله تعالى (قتل) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم القاف وكسر التاء ولا ألف بين القاف والتاء والباقون بفتح القاف والتاء وألف بين القاف والتاء وقوله تعالى (معه) خبر مبتدؤه (ربيون) وهم جمع ربى وهو العالم المتقى منسوب الى الرب وانما كسرت راؤه تغييرا فى النسب وقيل لا تغيير فيه وهو منسوب الى الربة وهى الجماعة للمبالغة وقوله تعالى (كثير) صفة لربيون وان كان بلفظ الافراد لان معناه جمع (فما وهنوا) أى ضعفوا (لما أصابهم فى سبيل الله) من الجراح وقتل أنبيائهم وأصحابهم (وما ضعفوا) عن الجهاد (وما استكانوا) أى خضعوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل قتل نبيكم (والله يحب الصابرين) على الشدائد فيثيبهم ويعظم أجرهم (وما كان قولهم) عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم وكونهم ربانيين (الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا) أى تجاوزنا الحد وقولهم (فى أمرنا) ايذان بان ما أصابهم لسوء فعلهم وهضما لانفسهم (وثبت أقدامنا) أى بالقوة على الجهاد (وانصرنا على القوم الكافرين) أى فهلا قلتم وفعلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (فآتاهم الله ثواب الدنيا) أى بالنصر والغنيمة والعز وحسن الذكر (وحسن ثواب الآخرة) أى بالجنة والنعيم المقيم وخص ثوابها

بالحسن اشعارا بفضله وانه المعتدّ به عند الله (والله يحب المحسنين) أى فيكثر لهم الثواب (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) أى اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وقال على يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم ولو كان محمد نبيا لما قتل (يردّوكم على أعقابكم) أى الى الكفر (فتنقلبوا خاسرين) الدنيا والآخرة أمّا خسران الدنيا فلان أشق الاشياء على العقلاء فى الدنيا الانقياد الى العدوّ واظهار الحاجة اليه وأمّا خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع فى العقاب المخلد (بل الله مولاكم) أى ناصركم وحافظكم على دينكم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره (سنلقى) أى سنقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الخوف وذلك أن الكفار لما هزموا المسلمين فى أحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفرّوا منهم من غير سبب حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل ونادى يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال عليه الصلاة والسلام ان شاء الله وقيل انهم لما ذهبوا متوجهين الى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا وقالوا ما صنعنا شيأ قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقرأ ابن عامر والكسائى بضم العين والباقون بالسكون (بما أشركوا) أى بسبب اشراكهم (بالله ما لم ينزل به سلطانا) أى حجة على عبادته وهو الاصنام وهذا كقوله * ولا ترى الضبّ بها ينجحر * أى ليس بها ضب فلا ينجحر فكذلك هؤلاء ليس لهم حجة أصلا وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة بحدة اللسان (ومأواهم النار وبئس مثوى) أى مأوى (الظالمين) أى الكافرين هى (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظى لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة من أحد وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله هذه الآية لان النصر كان للمسلمين فى الابتداء كما قال تعالى (اذ تحسونهم) أى تقتلونهم من حسه اذا أبطل حسه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (باذنه) أى بارادته (حتى اذا فشلتم) أى جبنتم عن القتال (وتنازعتم) أى اختلفتم (فى الامر) أى أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمقام فى سفح الجبل للرمى حين انهزم المشركون فقال بعضكم نذهب فقد نصر أصحابنا وقال آخرون لا تخالفوا أمر النبىّ فاثبتوا مكانكم فثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة فى نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعنى بقوله تعالى وعصيتم أى أمر النبى وتركتم المركز لطلب الغنيمة (من بعد ما أراكم) أى الله (ما تحبون) من الظفر والغنيمة وانهزام العدوّ وجواب اذا محذوف دل عليه ما قبله أى منعكم نصره ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده الى وقت فشلكم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا سواء كانت الدولة للمسلمين أو عليهم فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا

والمسلمون

والمسلمون على آثارهم ثم اشتغل بعضهم بالغنيمة كما قال تعالى (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون المركز للغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا (فان قيل) فاذا كان البعض هو المخالف فكيف جاء العتاب عاما بقوله وعصيتم (أجيب) بأن اللفظ وان كان عاما فقد جاء المخصص بعده وهو قوله منكم وقوله تعالى (ثم صرفكم) أى ردكم بالهزيمة (عنهم) أى الكفار عطف على ماقبله والجملتان من قوله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة اعتراض بين المتعاطفين وقيل عطف على جواب اذا المقدر (ليبتليكم) أى ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره (ولقد عفا عنكم) ما ارتكبتموه من مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وميلكم الى الغنيمة تفضلا منه تعالى (فان قيل) ان ظاهر الآية يدل على أن الذنب من الصغائر لصحة العفو عنه من غير توبة لقيام الدليل على أن أصحاب الكبائر اذا لم يتوبوا لم يكونوا من أهل العفو والمغفرة (أجيب) بأن هذا الذنب لاشك أنه كبيرة لانهم خالفوا صريح نص الرسول صلى الله عليه وسلم وصارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين فلابد من اضمار توبتهم (والله) أى المتفضل المنعم (ذو فضل على المؤمنين) أى يتفضل عليهم بالعفو أو فى الاحوال كلها سواء أجعلت الدولة لهم أم عليهم اذ الابتلاء أيضا رحمة وقوله تعالى (اذ) العامل فيها مضمر أى اذكر اذ (تصعدون) أى تبعدون فى الارض هاربين (ولا تلوون) أى تعرجون (على أحد) أى لا يقف أحد لاحد ولا ينتظره (والرسول يدعوكم) أى يقول الى عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة (فى أخراكم) أى من ورائكم (فأثابكم) أى جازاكم (غما) بالهزيمة (بغم) أى بسبب غمكم الرسول بالمخالفة وقيل الباء بمعنى على أى مضاعفا على غم فوت الغنيمة والغموم كانت هناك كثيرة أحدها غمهم بما نالهم من العدو فى الانفس والاموال وثانيها غمهم بما وقع منهم من المعصية وخوف عقابها وثالثها غمهم بما وصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ورابعها غمهم بسبب التوبة التى صارت واجبة عليهم لانهم اذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم الا بترك الهزيمة والعود الى المحاربة بعد الانهزام وذلك من أشق الاشياء لان الانسان بعد انهزامه يضعف قلبه ويجبن فاذا أمر بالمعاودة فان فعل خاف القتل وان لم يفعل خاف عقاب الآخرة وخامسها غمهم حين سمعوا أن محمدا قد قتل وسادسها غمهم حين أشرف عليهم خالد بن الوليد بخيل المشركين وسابعها غمهم حين أشرف عليهم أبو سفيان وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى الى أصحاب الصخرة فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه وأراد أن يرميه فقال أنا رسول الله ففرحوا حين وجدوه وفرح صلى الله عليه وسلم حين رأى من يمتنع به فأقبلوا على المشركين يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون اليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم أن يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد فى الارض ثم بدت أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم واذا عرفت ذلك فلا يضر اختلاف المفسرين فان بعضهم

فسر هذين الغمين بغمين من هذه وبعضهم بخلافه وقال القفال وعندي أن الله تعالى ما أراد بقوله غما بغم اثنين وانما أراد مواصلة الغموم وطولها أي أن الله تعالى عاقبكم بغموم كثيرة مثل قتل اخوانكم وأقاربكم ونزول المشركين من فوق الجبل عليكم بحيث لم تأمنوا ان يهلك أكثركم فكأنه تعالى قال أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زجرا لكم عن الاقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى والغم التغطية ومنه غم الهلال اذا لم ير وقوله تعالى (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) أي من الغنيمة متعلق بعفا أو بأثابكم فلا زائدة (ولا ما أصابكم) أي من القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون) أي عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها (ثم أنزل عليكم) يا معشر المسلمين (من بعد الغم أمنة) أي أمنا والامن والامنة بمعنى واحد وقيل الامن يكون مع زوال سبب الخوف والامنة مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف ههنا قائما وقوله تعالى (نعاسا) بدل من أمنة وأمنة مفعول أو نعاسا هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة (يغشى طائفة منكم) وهم المؤمنون وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على التأنيث ردا الى الامنة والباقون بالياء على التذكير ردا الى النعاس (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) أي حملتهم على الهزيمة فلا رغبة لهم الا نجاؤها دون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يناموا فان الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فريقان أحدهما الجازمون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كانوا قاطعين بأن الله ينصر هذا الدين وان هذه الوقعة لا تؤدي الى الاستئصال فلا جرم كانوا آمنين وبلغ ذلك الأمن الى أن غشيهم النعاس فان النوم لا يجيء مع الخوف قال أبو طلحة غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحدا من القوم الا وهو يميل تحت حجفته من النعاس قال الزبير كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأرسل الله علينا النوم والله اني لأسمع قول معتب بن بشير والنعاس يغشاني ما أسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا والفريق الثاني هم المنافقون كانوا شاكين في نبوته صلى الله عليه وسلم وما حضروا الا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم قال ابن مسعود النعاس في القتال أمنة والنعاس في الصلاة من الشيطان وذلك لانه في القتال لا يكون الامن الوثوق بالله والفراغ من الدنيا ولا يكون في الصلاة الامن غاية البعد عن الله (فان قيل) ما فائدة هذا النعاس (أجيب) بأن له فوائد الاولى أن السهر يوجب الضعف والكلال والنوم يفيد عود القوة والنشاط والثانية أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله تعالى النوم على الباقين لئلا يشاهدوا قتل غيرهم فيشتد خوفهم والثالثة أن الاعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم فبقاؤهم في النوم مع السلامة في تلك المعركة من أدل الدلائل على أن الله تعالى يحفظهم ويعصمهم وذلك مما يزيل الخوف من قلوبهم ويورثهم الامن * (تنبيه) * قوله تعالى وطائفة مبتدأ والخبر قد أهمتهم أنفسهم (فان قيل) كيف جاز الابتداء بالنكرة (أجيب) بأنه جاز لاحد

أمرين أما للاعتماد على واو الحال وقد عده بعضهم مسوّغا وان كان الاكثر لم يذكروه وأنشد

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا * محياك أخفى ضوءه كل شارق

وأما لان الموضع موضع تفصيل فان المعنى يغشى طائفة وطائفة لم يغشاهم فهو كقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشق وشق عندنا لم يحوّل

وقوله تعالى (يظنون بالله غير الحق) أى أن لا ينصر الله محمدا صفة أخرى لطائفة وغير الحق نصب على المصدر أى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يحق أن يظن به (ظن) أى كظن (الجاهلية) حيث اعتقدوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل أولا ينصر وقوله تعالى (يقولون) أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدل من يظنون (هل لنا) أى ما لنا لفظه استفهام ومعناه جحد (من الامر) أى النصر الذى وعدناه (من شئ) أى شئ ومن صلة زيدت لاتأكيد وهو اما مبتدا خبره لنا واما فاعل لنا لاعتماده على الاستفهام ومن الامر حال من المبتدا أو الفاعل وهو شئ لكونه مرفوعا حقيقة لا مجرورا وقيل ان عبد الله بن أبى ابن سلول لما شاوره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الوقعة أشار اليه بان لا يخرج من المدينة ثم ان بعض الصحابة ألحوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يخرج اليهم فغضب ابن أبى من ذلك فقال عصانى وأطاع الولدان ثم لما كثر القتل فى بنى الخزرج ورجع ابن أبى فقيل له قتل بنو الخزرج فقال هل لنا من الامر من شئ يعنى أن محمدا لم يقبل قولى حين أمرته بأن لا يخرج من المدينة والمعنى هل لنا أمر يطاع فهو استفهام على سبيل الانكار (قل) لهم يا محمد (ان الامر كله لله) أى الغلبة الحقيقية لله ولاوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقرأ أبو عمرو برفع اللام بعد الكاف على أنه مبتدأ والخبر لله والباقون بالنصب على انه توكيد * (تنبيه) * هذه الآية تدل على أن جميع المحدثات خلق الله تعالى بقضائه وقدره لان المنافقين قالوا لو أن محمدا قبل منا رأينا ونصحنا لما وقع فى هذه المحنة فأجابهم الله تعالى بأن الامر كله لله وهذا انما ينتظم اذا كانت أفعال العباد بقضائه وقدره اذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب رافعا لشبهة المنافقين وقوله تعالى (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون) أى يظهرون (لك) حال من ضمير يقولون وقل ان الامر كله لله اعتراض بين الحال وذى الحال أى يقولون مظهرين انهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى (يقولون) بيان لما قبله (لو كان لنا من الامر شئ) أى كما وعد محمد وزعم أن الامر كله لله ولاوليائه أو لو كان الاختيار الينا لم نخرج كما كان رأى ابن أبى وغيره (ما قتلنا ههنا) أى لما غلبنا ولما قتل من قتل منا فى هذه المعركة (قل) لهم (لو كنتم فى بيوتكم) وفيكم من كتب الله تعالى عليه القتل (لبرز) أى خرج (الذين كتب) أى قضى (عليهم القتل) منكم (الى مضاجعهم) أى مصارعهم فيقتلوا ولم ينجهم قعودهم لان قضاء الله تعالى كائن لا محالة فانه قدر الامور ودبرها فى سابق قضائه لا معقب لحكمه وقرأ أبو عمرو وحفص وورش بضم الباء فى بيوتكم والباقون بالكسر وقوله تعالى (وليبتلى) أى ليختبر (الله ما فى صدوركم) أى قلوبكم من الاخلاص والنفاق

علة فعل محذوف تقديره فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد ليبتلى وقيل معطوف على علة محذوفة تقديره ليقضى الله أمره وليبتلى وقوله تعالى (وليمحص ما فى قلوبكم) فيه وجهان أحدهما ان هذه الواقعة تخرج ما فى قلوبكم من الوساوس والشبهات وتطهرها والثانى انها تصير كفارة لذنوبكم فيمحصكم من تبعات المعاصى والسيآت (فان قيل) قد سبق ذكر الابتلاء فى قوله تعالى ثم صرفكم عنهم ليبتليكم فلم أعاده (أجيب) بأنه أعيد اما لطول الكلام بينهما واما لان الابتلاء الاول هزيمة للمؤمنين والابتلاء الثانى بسائر الاحوال (والله عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب قبل اظهارها وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه تعالى غنى عن الابتلاء وانما يبتلى ليظهر للناس حال المؤمنين من حال المنافقين (ان الذين تولوا منكم) عن القتال (يوم التقى الجمعان) أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين أبو بكر وعمر وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص (انما استزلهم الشيطان) أى طلب منهم الزلل بوسوسته (ببعض ما كسبوا) من الذنوب بترك المركز والحرص على الغنيمة ومخالفة النبى صلى الله عليه وسلم فأطاعوه فمنعوا التأييد وقوة القلب حتى تولوا (ولقد عفى الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم (ان الله غفور) للذنوب (حليم) لا يعاجل بعقوبته المذنب كى يتوب (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) أى المنافقين وهم ابن أبى وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) أى فى شأنهم ومعنى اخوتهم اتفاقهم فى النفاق والكفر وقيل فى النسب (اذا ضربوا فى الارض) أى سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزا) أى غزاة جمع غاز فقتلوا (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) أى لا تقولوا كقولهم (ليجعل الله ذلك) القول فى عاقبة أمرهم (حسرة فى قلوبهم) أى لانهم اذا ألقوا تلك الشبهة على المؤمنين لم يلتفتوا اليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الحسرة فى قلوبهم وقيل ان اجتهادهم فى تكثير الشبهات والقاء الضلالات يعمى قلوبهم فيقعون عند ذلك فى الحسرة والخيبة وضيق الصدر وهو المراد بقوله تعالى ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا (فان قيل) كيف قيل اذا ضربوا مع قالوا (أجيب) بان ذلك على حكاية الحال الماضية قال التفتازانى معناه انك تقدر نفسك كأنك موجود فى ذلك الزمان الماضى أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن وهذا كقولك قالوا ذلك حين يضربون والمعنى حين ضربوا الا انك جئت بلفظ المضارع استحضارا لصورة ضربهم فى الارض وقوله تعالى (والله يحيى ويميت) رد لقولهم أى هو المؤثر فى الحياة والممات لا الاقامة والسفر فانه تعالى قد يحيى المسافر والمغازى ويميت المقيم والقاعد (والله بما تعملون بصير) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء على الغيبة ردا على الذين كفروا والباقون بتاء الخطاب ردا على قوله ولا تكونوا وهو خطاب للمؤمنين وفيه تهديد لهم على أن يماثلوهم (ولئن قتلتم) اللام هى الموطئة لقسم محذوف (فى سبيل الله) أى الجهاد (أو متم) أى أتاكم الموت فى سبيل الله وجواب القسم قوله تعالى (لمغفرة) كائنة (من الله) وحذف جواب الشرط

لسد جواب القسم مسده لكونه دالا عليه (ورحمة) أي من الله فحذف صفتها لدلالة الاولى عليها ولابد من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم (فان قيل) المغفرة هي الرحمة فلم كررها ونكرها (أجيب) بأنه انما نكرها ايذانا بأن أدنى خير وأقل شيء خير من الدنيا وما فيها وهو المراد بقوله (خير مما يجمعون) من الدنيا وأما التكرير فغيره مسلم لان المغفرة مترتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر (فان قيل) كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا (أجيب) بأن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم ان تلك الاموال خيرات فقيل المغفرة خير من هذه الاشياء التي تظنونها خيرات (ولئن متم أو قتلتم) على أي وجه اتفق هلاككم (لالى الله) لا غيره (تحشرون) في الآخرة فيجازيكم وقرأ نافع وحمزة متم بكسر الميم والباقون بالضم وقرأ حفص يحشرون بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ورسمت لا الى الله بألف بعد اللام (فان قيل) هنا ثلاثة مواضع فقدم الموت على القتل في الاول والاخير وقدم القتل على الموت في المتوسط فما الحكمة في ذلك (أجيب) بأن الاول لمناسبة ما قبله من قوله اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزا فرجع الموت لمن ضرب في الارض والقتل لمن غزا وأما الثاني فلانه محل تحريض على الجهاد فقدم الاهم الاشرف وأما الاخير فلان الموت أغلب (فبما رحمة) أي فبرحمة (من الله لنت لهم) فما مزيدة للتأكيد والجار والمجرور متقدم للدلالة على أن لينه صلى الله عليه وسلم ما كان الا برحمة من الله ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد ان خالفوه (ولو كنت فظا) أي سيء الخلق (غليظ القلب) أي جافيا (لانفضوا) أي تفرقوا (من حولك) أي عنك وذلك لان المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى الى الخلق وذلك لا يتم الا بميل قلوبهم اليه وسكون نفوسهم لديه وهذا المقصود لا يتم الا اذا كان رحيما بهم كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعفو عن سيآتهم ويخصهم بالبر والشفقة فلهذه الاسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وغلظ القلب ويكون كثير الميل الى اعانة الضعفاء كثير القيام باعانة الفقراء وحمل القفال هذه الآية على واقعة أحد قال فبما رحمة من الله لنت لهم يوم أحد حين عادوا اليك بعد الانهزام ولو كنت فظا غليظ القلب فشافهتهم بالملامة على ذلك الانهزام لانفضوا من حولك هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الانهزام فكان ذلك مما يطمع العدو فيك وفيهم (فاعف) أي تجاوز (عنهم) أي ما أتوه (واستغفر لهم) ذنبهم حتى أشفعك فيهم فاغفر لهم واختلفوا في معنى قوله تعالى (وشاورهم في الامر) على وجوه أحدها ان ذلك يقتضي شدة محبته لهم فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك اهانة لهم فيحصل سوء الخلق والفظاظة وثانيها انه عليه الصلاة والسلام وان كان أكمل الناس عقلا الا أن عقول الخلق غير متناهية فقد يخطر ببال انسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا قال عليه الصلاة والسلام أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم ما تشاور قوم قط الا هدوا لارشد أمورهم وثالثها قال الحسن

وسفيان بن عيينة انما أمر بذلك ليقتدى به غيره فى المشاورة وتصير سنة ورابعها انه عليه الصلاة والسلام شاورهم فى وقعة أحد فأشاروا عليه بالخروج وكان ميله أن لا يخرج فلما خرج وقع ماوقع فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقى فى قلبه منهم بسبب مشاورتهم شئ فأمر الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ليدل على انه لم يبق فى قلبه أثر من تلك الواقعة وخامسها أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأيا ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له وذكروا أيضا وجوها أخر وفى هذا القدر كفاية واتفقوا على ان كل مانزل فيه وحى من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور الامة فيه لان النص اذا جاء بطل الرأى (فاذا عزمت) أى قطعت الامر على امضاء ماتريد بعد المشاورة (فتوكل على الله) أى ثق به لا بالمشاورة فليس التوكل اهمال التدبير بالكلية بل بمراعاة الاسباب مع تفويض الامر الى الله تعالى (ان الله يحب المتوكلين) عليه فينصرهم ويهديهم الى الصلاح (ان ينصركم الله) أى يعنكم على عدوكم كيوم بدر (فلا غالب لكم) أى فلا يغلبكم أحد (وان يخذلكم) بترك نصركم كيوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى من بعد خذلانه أى لا أحد ينصركم وفى هذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على مايستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه لان ايمانهم يوجب ذلك ويقتضيه (وما كان لنبى أن يغل) أى ماصح لنبى أن يخون فى الغنائم فان النبوة تنافى الخيانة واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها وقال مقاتل نزلت فى غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيأ فهو له وان لا يقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم ان لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال لهم صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم وقال محمد بن اسحق بن يسار هذا فى الوحى يقول ما كان لنبى أن يكتم شيأ من الوحى رغبة أو رهبة أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفيه سب دينهم وسب آلهتهم فسألوا أن يترك ذلك فنزلت وروى انه صلى الله عليه وسلم غنم فى بعض الغزوات وجمع الغنائم وتأخرت القسمة لبعض الموانع فجاء قوم وقالوا ألا تقسم غنائمنا فقال عليه الصلاة والسلام لو كان لكم مثل أحد ذهبا ماحبست عليكم منه درهما أتحسبون انى أغلكم مغنمكم فنزلت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول والمعنى على هذا وماصح لنبى أن يوجد غالا أو ينسب الى الغلول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) قال أكثر المفسرين ان هذه الآية على ظاهرها قالوا وهى نظير قوله تعالى فى مانعى الزكاة يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم لا ألفين أحدكم يجئ على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك

من الله شيأ قد بلغتك قال المحققون وفائدته أنه اذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته وعن ابن عباس انه قال يمثل له ذلك الشئ فى قعر جهنم ثم يقال له انزل اليه فخذه فينزل اليه فاذا انتهى اليه حمله على ظهره فاذا بلغ موضعه وقع فى النار ثم يكلف ان ينزل اليه فيخرجه ففعل ذلك به وعن أبى هريرة قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد فقال الناس هنيأ له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذى نفسى بيده ان الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم تشتعل عليه نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شراك من النار أو شراكان من نار وقال أبو مسلم ليس المقصود من الآية ظاهرها بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل كقوله تعالى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السموات أو فى الارض يأت بها الله فانه ليس المقصود نفس هذا الظاهر بل المقصود اثبات ان الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء فكذا ههنا المقصود تشديد الوعيد والمعنى ان الله تعالى يحفظ عليه هذا المغلول ويقرره عليه يوم القيامة ويجازيه لانه تعالى لا يخفى عليه خافية وعن أبى حميد الساعدى قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أسد على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لى فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا اهدى لى فهلا جلس فى بيت أمه أو فى بيت أبيه فينظر أيهدى اليه أم لا فو الذى نفسى بيده لا يأخذ منها أحد شيأ الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤيت عفرة ابطه ثم قال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت (ثم توفى كل نفس) أى تعطى جزاء (ما كسبت) أى عملت وافيا الغال وغيره (فان قيل) هلا قيل ثم يوفى أى الغال ما كسب (أجيب) بأنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه فانه اذا كان كل كاسب مجزيا بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى (وهم لا يظلمون) شيأ فلا ينتقص ثواب مطيعهم ولا يزاد فى عقاب عاصيهم وقوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) الهمزة فيه للانكار والفاء للعطف على محذوف والتقدير أفمن اتقى فاتبع رضوان الله (كمن باء) أى رجع (بسخط من الله) بسبب المعاصى (ومأواه جهنم وبئس المصير) أى المرجع هى اى ليس مثله واختلف فى المراد من هذه الآية فقال الكلبى والضحاك أفمن اتبع رضوان الله فى ترك الغلول كمن باء بسخط من الله فى فعل الغلول وقال الزجاج لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه الى أن يحملوا على المشركين ففعله بعضهم وتركه آخرون فقوله أفمن اتبع رضوان الله هم الذين امتثلوا أمره كمن باء بسخط من الله هم الذين لم يقبلوا قوله وقيل أفمن اتبع رضوان الله وهم المهاجرون كمن باء بسخط من الله وهم المنافقون وقيل أفمن اتبع رضوان الله بالايمان به والعمل بطاعته كمن باء بسخط من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته قال القاضى وكل واحد من هذه الوجوه صحيح ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لان اللفظ عام فيجب أن يتناول الكل وان كانت الآية نزلت فى واقعة معينة لكن عموم اللفظ لا يبطل

بخصوص السبب * (تنبيه) * الفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الاولى ولا كذلك المرجع فانه قد يوافق المبدأ وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر وقوله تعالى (هم درجات) مبتدا وخبر أى الفريقان درجات ولابد من تأويل فى الاخبار بالدرجات عن هم لانها ليست اياهم فيجوز أن يكون جعلوا نفس الدرجات مبالغة والمعنى انهم متفاوتون فى الجزاء على كسبهم كما أن الدرجات متفاوتة فهو تشبيه بليغ بحذف الاداة أى هم مثل الدرجات فى التفاوت ويجوز أن يكون على حذف مضاف أى ذوو درجات أى أصحاب منازل ورتب فى الثواب والعقاب (عند الله) فلمن اتبع رضوانه الثواب ولمن باء بسخطه العقاب (والله بصير بما يعملون) أى عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها (لقد من الله على المؤمنين) أى انعم على من آمن مع النبى صلى الله عليه وسلم ووجه هذه المنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ما يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم الى ثوابه كقوله تعالى وما أرسلناك الارحمة للعالمين (فان قيل) لم خصهم بالنعمة مع أن البعثة عامة (أجيب) بأنهم هم المنتفعون بها كقوله تعالى هدى للمتقين (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أى من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على أحواله فى الصدق والامانة فكان ذلك أقرب لهم الى تصديقه والوثوق به ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا وقرئ شاذا من أنفسهم بفتح الفاء أى من اشرفهم لانه صلى الله عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم وقد خطب أبو طالب لما تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله تعالى عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر فقال الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسمعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش الارجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ولم أذكر فى التفسير قراءة شاذة الا هذه لكونها فى شرف الرسول صلى الله عليه وسلم وقراءة السيدة فاطمة رضى الله تعالى عنها (يتلو عليهم آياته) أى القرآن بعد ما كانوا جهالا لم يسمعوا الوحى (ويزكيهم) أى ويطهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد والاعمال (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة من بعد ما كانوا من أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم كما قال تعالى (وان كانوا من قبل) أى قبل بعثته صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين) أى بين ظاهر (أولما) أى حين (أصابتكم مصيبة) بأحد بقتل سبعين منكم (قد أصبتم مثليها) ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين (قلتم) متعجبين (أنى) أى من أين لنا (هذا) القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا والجملة الاخيرة محل الاستفهام الانكارى (قل) لهم (هو من عند أنفسكم) أى هو مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الامر بترك المركز فان الوعد كان مشروطا بالثبات فى المركز والمطاوعة فى الامر وعن على رضى الله تعالى عنه لاخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم روى عبيدة السلمانى عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم

الفداء من الاسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا أى الاسارى فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا لابل نأخذ منهم فداهم فنتقوى به على قتال أعدائنا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر وهذا معنى قوله قل هو من عند أنفسكم أى بأخذكم الفداء واختياركم للقتل (ان الله على كل شئ قدير) فيقدر على النصر وعلى منعه وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) أى جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) أى فهو كائن بقضائه وارادته ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدا بالشرط نحو الذى يأتينى فله درهم (وليعلم المؤمنين) وقد تقدم ان معنى وليعلم الله كذا أى يميز ويظهر للناس ما كان فى علمه (وليعلم الذين نافقوا) قال الواحدى يقال نافق الرجل فهو منافق اذا أظهر كلمة الايمان وأضمر خلافها قال أبو عبيدة مشتق من نافقاء اليربوع لان جحر اليربوع له بابان القاصعاء والنافقاء فان طلب من أيهما كان يخرج من الآخر فقيل للمنافق انه منافق وهو اسم اسلامى لانه صنع لنفسه طريقين اظهار الاسلام واضمار الكفر فمن أيهما طلب خرج من الآخر وقوله تعالى (وقيل لهم) عطف على نافقوا أى وليعلم الذين قيل لهم لما انصرفوا عن القتال وقالوا لم نلق أنفسنا فى القتل فرجعوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه وكانوا ثلثمائة من جملة الالف الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) الكفار (أو ادفعوا) عنا أى ان كان فى قلبكم حب الايمان فقاتلوا للدين وان لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم وقال السدى وابن جريج ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا لان الكثرة أحد اسباب الهيبة روى عن سهل بن سعد الساعدى وقد كف بصره لو أمكننى لبعت دارى ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم قيل وكيف وقد ذهب بصرك قال لقوله تعالى أو ادفعوا أراد أكثروا سوادهم واختلفوا فى القائل فقال الاصم انه الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى القتال وقيل أبو جابر الانصارى قال لهم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو (قالوا لو نعلم) أى نحسن (قتالا لاتبعناكم) فيه قال تعالى تكذيبا لهم (هم للكفر يومئذ) أى يوم اذ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم (أقرب منهم للايمان) أى لانقطاعهم وارتدادهم وكلامهم فان ذلك أول امارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم وقيل المعنى على حذف مضاف أى هم لاهل الكفر أقرب منهم لاهل الايمان بما أظهروه من خذلانهم للمؤمنين وكانوا قبل أقرب الى الايمان من حيث الظاهر * (تنبيه) * فضلوا هنا على أنفسهم باعتبار حالين ووقتين ولولا ذلك لم يجز تقول زيد قاعدا أفضل منه قائما أو زيد قاعدا اليوم أفضل منه قاعدا غدا ولو قلت زيد اليوم قاعدا أفضل منه اليوم قاعدا لم يجز (يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم) أى يظهرون خلاف ما يضمرون لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالايمان فهم وان كانوا يظهرون الايمان باللسان لكنهم يضمرون فى قلوبهم الكفر * (تنبيه) *

اضافة القول الى الافواه تصوير لنفاقهم فان ايمانهم موجود فى أفواههم فقط وبهذا انتفى كونه للتأكيد كما قيل به لتحصيل هذه الفائدة وقال ابن عادل والظاهر أن القول يطلق على اللسانى وعلى النفسانى فتقييده بأفواههم تقييد لاحد محمليه اللهم الا أن يقال اطلاقه على النفسانى مجاز (والله أعلم بما يكتمون) أى عالم بما فى ضمائرهم و بما يخلو به بعضهم الى بعض فانه يعلم ذلك مفصلا بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملا بامارات وجوزوا فى موضع (الذين قالوا) ألقاب الاعراب الثلاثة الرفع والنصب والجر فالرفع من ثلاثة أوجه أحدها أن يكون مرفوعا على خبر مبتدا محذوف تقديره هم الذين الثانى انه بدل من واو يكتمون الثالث انه مبتدأ والخبر قوله قل فادرؤا ولابد من حذف عائد تقديره قل لهم فادرؤا والنصب من ثلاثة أوجه أيضا أحدها النصب على الذم أى أذم الذين قالوا الثانى انه بدل من الذين نافقوا الثالث انه صفة لهم والجر من وجهين أحدهما انه بدل من الضمير فى بأفواههم والثانى انه بدل من الضمير فى قلوبهم كقول الفرزدق

على حالة لو أن فى القوم حاتما * على جوده لضن بالماء حاتم

بجر حاتم على انه بدل من الهاء فى جوده وضن مبنى للمفعول وهو بالماء أى ولو ان حاتما مستقرا فى القوم كائنا على جوده وهم بتلك الحالة لبخل بالماء (لاخوانهم) أى لاجل اخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو اخوانهم فى النسب أو فى سكنى الدار أو فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وقعدوا) حال مقدرة بقد أى قالوا قاعدين عن القتال (لو أطاعونا) فى القعود (ما قتلوا) كما لم نقتل واختلف فى قائل ذلك فقال أكثر المفسرين هو ابن أبى وأصحابه وقول الاصم هذا لا يجوز لان ابن أبى خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد يوم أحد وهذا القول واقع ممن تخلف فيه نظر لاحتمال أن المراد بالقعود القعود عن القتال لا عن الخروج الى القتال (قل) لهم (فادرؤا) أى ادفعوا (عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) فى أن القعود ينجى منه لانكم ان دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ولابد لكم أن يتعلق بكم بعضها وروى انه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا (فان قيل) ما وجه هذا الاستدلال فان التحرز عن القتل ممكن وأما التحرز عن الموت فغير ممكن (أجيب) بأن الكل بقضاء الله وقدره فلا فرق بين الموت والقتل وفى قوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت استهزاء بهم أى ان كنتم رجالا دفاعين لاسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا ونزل فى شهداء أحد كما رواه الحاكم وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الانصار (ولا تحسبن) أى ولا تظنن (الذين قتلوا فى سبيل الله) أى لاجل دينه والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (أمواتا بل) هم (أحياء عند ربهم) أى ذوو زلفى منه فليس المراد القرب المكانى لاستحالته ولا بمعنى فى علمه وحكمه لعدم مناسبة المقام له بل بمعنى القرب شرفا ورتبة قال البيضاوى وقيل نزلت فى شهداء بدر أى وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الانصار وستة من المهاجرين قال شيخنا القاضى زكريا وهو غلط انما نزل فيهم آية البقرة

(يرزقون) من ثمار الجنة روى ابن عباس انه عليه الصلاة والسلام قال أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل معلقة في ظل العرش وروى ان الله تعالى يطلع عليهم ويقول سلونى ماشئتم فيقولون يارب كيف نسئلك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا فلما رأوا أن لا يتركوا من أن يسألوا شيأ قالوا نسئلك أن ترد أرواحنا الى أجسادنا في الدنيا نقتل في سبيلك لما رأوا من النعيم كما قال تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الابدية والقرب من الله والتمتع بنعيم الجنة (ويستبشرون) أى ويفرحون (بالذين لم يلحقوا بهم) من اخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الايمان والجهاد لعلمهم أنهم اذا استشهدوا ولحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا فلذلك يستبشرون (من خلفهم) اى الذين من خلفهم زمانا أو رتبة وأبدل من الذين (أن) أى بأن (لا خوف عليهم) أى الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم (ولا هم يحزنون) في الآخرة والمعنى انهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة لا يكدرون بخوف وقوع محذور ولا بحزن فوات محبوب وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء واصابة فضلهم واحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لاخوانه لان الله تعالى مدحهم على ذلك (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) لما بين تعالى انهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بين هنا انهم يستبشرون لانفسهم بما رزقوا من النعيم ولذلك أعاد لفظ الاستبشار (فان قيل) أليس انه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار فلزم التكرار (أجيب) بأن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار وبأن المراد حصول الفرح بما حصل في الحال وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة والفرق بين النعمة والفضل أن النعمة هي الثواب والفضل هو التفضل الزائد (فان قيل) لم قال يستبشرون من غير عطف (أجيب) بأنه تأكيد للاول لانه قصد بالنعمة والفضل بيان متعلق الاستبشار الاول (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) لما ذكر ايصال الثواب العظيم الى الشهداء بين أن ذلك ليس مخصوصا بهم بل كل مؤمن يستحق شيأ من الاجر والثواب فان الله تعالى يوصل ثوابه اليه ولا يضيعه وقوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) أى دعاءه مبتدأ (من بعد ما أصابهم القرح) بأحد وخبر المبتدا (للذين أحسنوا منهم) بطاعته (واتقوا) مخالفته (أجر عظيم) هو الجنة روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال لا يخرجن معنا أحد الا من حضر يومنا بالامس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الاسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الاجر روى أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ثم ان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى وذلك لكثرة الجراحات فيهم وكان فيهم

من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة فمر برسول الله صلى الله عليه وسلم معبد الخزاعى بحمراء الاسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعبد يومئذ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا ان الله قد أعفاك فيهم ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى أباسفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط قال ويلك ما تقول قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت * (تنبيه) * من فى الذين أحسنوا منهم للتبيين مثلها فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة لان الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم وقوله تعالى (الذين) بدل من الذين قبله أو نعت (قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم) أى الجموع ليستأصلوكم (فاخشوهم) روى أن أباسفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال صلى الله عليه وسلم ان شاء الله فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع فلقى نعيم بن مسعود الاشجعى وقد قدم معتمرا فقال يا نعيم انى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر وان هذا عام جدب ولا يصلحنا الا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج اليه وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب الى من أن يكون من قبلى فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنى فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الابل أضعها فى يد سهل بن عمرو ويضمنها فقال له نعيم يا أبا يزيد أتضمن لى ذلك وأنطلق الى محمد وأثبطه قال نعم فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يجهزون لميعاد أبى سفيان فقال أين تريدون فقالوا واعدنا أبو سفيان بموسم بدر الصغرى أن نقتتل بها فقال بئس الرأى رأيتم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد الا شريدا فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ولم يلتفتوا الى ذلك القول كما قال تعالى (فزادهم) ذلك القول (ايمانا) أى تصديقا بالله ويقينا (وقالوا حسبنا الله) أى كافينا أمرهم (ونعم الوكيل) أى المفوض اليه الامر هو حتى وافوا بدرا الصغرى فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يرهبوا المسلمين فيقول المسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل وهذه هى الكلمة التى قالها ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه حين ألقى فى النار حتى بلغوا بدرا وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون اليها فى كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أباسفيان ثمان ليال ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات فباعوها واشتروا

أدماو زبيبا وأصابوا الدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى (فانقلبوا) أى انصرفوا (بنعمة من الله) أى بعافية لم يلقوا عدوًّا (وفضل) أى تجارة وربح وهو ما أصابوا فى السوق (لم يمسسهم سوء) أى لم يصبهم أذى ولا مكروه ورجع أبو سفيان الى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق قالوا انما خرجتم لتشربوا السويق *(تنبيه)* الناس الاول المثبطون والآخرون أبو سفيان وأصحابه (فان قيل) المثبط هو أبو نعيم فكيف قيل الناس (أجيب) بأنه من جنس الناس كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس البرود وماله الا فرس واحد وبرد واحد ولانه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يثبطون مثل تثبيطه بل قيل انهم كانوا جماعة فقد مرّ بأبى سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوهم (فان قيل) كيف زادهم القول ايمانا (أجيب) بأنهم لما سمعوا ذلك وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الاسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الايمان والايقان بتناصر الحجج ولان خروجهم على أثر التثبيط الى وجه العدو طاعة عظيمة والطاعات تزيد الايمان فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يا رسول الله ان الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول قم بنا نزدد ايمانا وعنه رضى الله تعالى عنه لو وزن ايمان أبى بكر رضى الله تعالى عنه بايمان هذه الامة لرجح به (واتبعوا رضوان الله) الذى هو مناط الفوز بخير الدارين بجراءتهم وخروجهم (والله ذو فضل عظيم) قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب فى الدين واظهار الجراءة على العدو بالحفظ على كل من يسوءهم واصابة النفع من ضمان الاجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل وفيه تحسير المتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به (انما ذلكم) أى المثبط أو أبو سفيان (الشيطان يخوف أولياءه) أى القاعدين عن الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم أو يخوفكم أولياءه وهم أبو سفيان وأصحابه ويدل على ذلك قوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون) فى مخالفة أمرى فجاهدوا مع رسولى (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضى ايثار خوف الله على خوف الناس وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه وقوعا سريعا حرصا عليه وهم المنافقون من المتخلفين أو قوم ارتدوا عن الاسلام أى لا تهتم لكفرهم (انهم لن يضرّوا الله شيأ) بفعلهم وانما يضرّون به أنفسهم وقرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع ما خلا قوله تعالى فى الانبياء لا يحزنهم الفزع الاكبر فانه على فتح الياء وضم الزاى فيه والباقون كذلك فى الكل من حزنه لغة فى أحزنه (يريد الله أن لا يجعل لهم حظا) أى نصيبا (فى الآخرة) أى الجنة فلذلك خذلهم وهو يدل على تمادى طغيانهم وموتهم على الكفر (ولهم) مع حرمان الثواب (عذاب عظيم) فى النار (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان) أى أخذوه بدله (لن يضروا الله) بكفرهم (شيأ ولهم عذاب أليم) أى مؤلم وكرر ذلك للتأكيد أو هو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق

من المتخلفين أو ارتدوا من الاحزاب * ونزل فى مشركى مكة كما قاله مقاتل أو فى قريظة أو النضير كما قاله عطاء (ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى) أى نمهل (لهم) بتطويل الاعمار (خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما) بكثرة المعاصى (ولهم عذاب مهين) أى ذو اهانة روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فأى الناس شر قال من طال عمره وساء عمله وقرأ حمزة ولا تحسبن الذين كفروا ولا تحسبن الذين يبخلون بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة (ما كان الله ليذر) أى ليترك (المؤمنين على ما أنتم عليه) أيها الناس من اختلاط المسلم بغيره (حتى يميز) أى يفصل (الخبيث) أى المنافق (من الطيب) واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال الكلبى قالت قريش يا محمد تزعم أن من خالفك فهو فى النار والله عليه غضبان وأن من اتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه راض فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن فنزلت وقال السدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على أمتى فى صورتها فى الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن ومن يكفر فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام طعنوا فى علمى لا تسألونى عن شئ فيما بينكم وبين الساعة الا أنبأتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال من أبى يا رسول الله قال حذافة فقام عمر رضى الله تعالى عنه فقال يا رسول الله رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله تعالى عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فنزلت (فان قيل) لمن الخطاب فى أنتم (أجيب) بأنه للمصدقين جميعا من أهل النفاق والاخلاص كأنه قيل ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التى أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعا حتى يميزهم منكم بالوحى الى نبيه واخباره بأحوالكم أو بالتكاليف الشاقة التى لا يصبر عليها ولا يذعن لها الا الخلص المخلصون منكم كبذل الاموال والانفس فى سبيل الله فيختبر بها بواطنكم ويستدل بها على عقائدكم ففعل ذلك يوم أحد حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة والكسائى يميز بضم الياء وفتح الميم وتشديد الياء بعد الميم مع كسرها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء بعد الميم (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) فتعرفوا المنافق من غيره قبل التميز (ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) فيوحى اليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها (فآمنوا بالله ورسله) أى بصفة الاخلاص أو بأن تعلموا أن الله وحده مطلع على الغيب وتعلموا أنهم عباد مجتبون لا يعلمون الا ما علمهم الله تعالى ولا يقولون الا ما يوحى اليهم روى أن الكفرة قالوا ان كان محمد صادقا فليخبرنا بمن يؤمن ومن يكفر فنزلت الآية (وان تؤمنوا) حق الايمان (وتتقوا) النفاق (فلكم أجر عظيم) أى لا يقادر قدره (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو) أى بخلهم (خيرا لهم بل هو) أى بخلهم (شر لهم) لاستجلاب

العقاب اليهم واختلفوا فى المراد بهذا البخل فقال اكثر العلماء المراد به منع الواجب واستدلوا بوجوه أحدها أن الآية دالة على الوعيد الشديد وذلك لا يليق الا بالواجب وثانيها ان الله تعالى ذم البخل والتطوع لا يذم على تركه وثالثها قال عليه الصلاة والسلام وأى داء أدوأ من البخل وتارك التطوع لا يليق به هذا الوصف وانفاق الواجب على أقسام منها انفاقه على نفسه وعلى أقاربه الذين تلزمه مؤنتهم ومنها الزكوات ومنها ما اذا احتاج المسلمون الى دفع عدو يقصد أنفسهم وأموالهم فيجب عليهم انفاق الاموال على من يدفعهم عنهم ومنها دفع ما يسد رمق المضطر (سيطوقون) أى سوف يطوقون (ما بخلوا به يوم القيامة) اختلفوا فى هذا الوعيد فقال ابن عباس وابن مسعود يجعل ما منعه من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه الى قدمه وتنقر رأسه تقول أنا مالك وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون الآية وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده أو والذى لا اله غيره أو كما حلف ما من رجل تكون له ابل أو بقر أو غنم لا يؤدى حقها الا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس وقال مجاهد معنى سيطوقون سيكلفون ان يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة أى يؤمرون بأداء ما منعوا فلا يمكنهم الاتيان به فيكون ذلك توبيخا وقيل ان هذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وأراد بالبخل كتمان العلم كما فى سورة النساء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ومعنى قوله على هذا سيطوقون أى يحملون وزره واثمه كقوله تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض) فى معناه وجهان أحدهما أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فهو الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله ونحوه قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والثانى وبه قال الاكثرون ان معناه أنه يفنى أهل السموات والارض ويفنى الاملاك ولا مالك لها الا الله فجرى هذا مجرى الوراثة قال ابن الانبارى يقال ورث فلان علم فلان اذا انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه وقال تعالى وورث سليمان داود لانه انفرد بذلك الامر بعد ان كان داود مشاركا له فيه (والله بما تعملون) من المنع والاعطاء (خبير) فيجازيكم به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن ومجاهد لما نزل قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود ان الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حيى بن أخطب وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن اسحق كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام والى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة

وان يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدارسهم فوجد ناسا كثيرا من اليهود قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص يا أبا بكر تزعم ان ربنا يستقرض من أموالنا وما يستقرض الا الفقير من الغنى فان كان ما تقول حقا فان الله اذن لفقير ونحن أغنياء وانه ينها كم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا الربا يعنى فى قوله فيضاعفه له أضعافا كثيرة فغضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله ان عدو الله قال قولا عظيما زعم ان الله فقير وهم أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله عز وجل ردا على فنحاص وتصديقا لابى بكر رضى الله تعالى عنه لقد سمع الله الآية وهذا لا يدل على أن غيره لم يقل ذلك لان الآية دالة على أن القائل جماعة لقوله تعالى الذين قالوا (سنكتب) أى نأمر بكتب (ما قالوا) من الافك والفرية فى صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ونحوه وانا له كاتبون أو سنحفظه فى علمنا لا نهمله لانه كلمة عظيمة اذ هو كفر بالله واستهزاء بالله والرسول ولذلك نظمه مع قتل الانبياء كما قال تعالى (وقتلهم) أى ونكتب قتلهم (الانبياء بغير حق) وفى نظمه به تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وان من اجترأ على قتل الانبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول (ويقول) أى الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة (ذوقوا عذاب الحريق) أى النار وهى بمعنى المحرق كما يقال عذاب أليم أى مؤلم وقرأ حمزة سيكتب بالياء المثناة تحت بعد السين مضمومة وفتح التاء بعد الكاف وضم اللام من قتلهم وبالياء فى ويقول والباقون بالنون بعد السين مفتوحة وضم التاء بعد الكاف ونصب اللام من قتلهم وبالنون فى ونقول ويقال لهم اذا القوا فى النار (ذلك) أى العذاب (بما قدمت أيديكم) من الافتراء وقتل الانبياء وغير ذلك من المعاصى وعبر بالايدى عن الانفس لان أكثر أعمالها بهن (وان الله ليس بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) فيعذبهم بغير ذنب (فان قيل) ظلام للمبالغة المقتضية للتكثير فهو أخص من ظالم ولا يلزم من نفى الاخص نفى الاعم (أجيب) بأنه لما قوبل بالعبيد وهم كثيرون ناسب أن يقابل الكثير بالكثير وبأنه اذا نفى الظلم الكثير ينتفى القليل لان الذى يظلم انما يظلم لانتفاعه بالظلم فاذا ترك كثيره مع زيادة نفعه فيمن يجوز عليه النفع والضر كان لقليله مع قلة نفعه أترك وبأن ظلام للنسب كما قدرته فى الآية الكريمة كما فى بزاز وعطار أى لا ينسب اليه ظلم البتة وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله (قالوا) لمحمد صلى الله عليه وسلم تزعم أن الله بعثك بالحق رسولا وأنزل عليك كتابا وأن نؤمن بك أى وقالوا (ان الله) قد (عهد الينا) أى أمرنا

وأوصانا فى كتبه (ان لا نؤمن لرسول) أى لا نصدق رسولا أنه قد جاء من عند الله (حتى يأتينا
بقربان تأكله النار) أى حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التى كانت لانبياء بنى اسرائيل فيكون
دليلا على صدقه والقربان كل ما يتقرب به العبد الى الله من نسيكة وعمل صالح وكانوا اذا
قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوى وحفيف فتأكل
ذلك القربان وتأكل الغنيمة ومعنى أكلها أن تحيل ذلك الى طبعها بالاحراق فيكون ذلك علامة
القبول واذا لم يتقبل بقى على حاله وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لان أكل النار القربان لم
يوجب الايمان الا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات فى ذلك سواء وقال السدى هذا الشرط
جاء فى التوراة ولكنه مع شرط آخر وهو أن الله تعالى أمر بنى اسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول
الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا
بهما فانهما يأتيان بغير قربان قال الله تعالى اقامة للحجة عليهم (قل) لهم يا محمد (قد جاءكم رسل
من قبلى بالبينات) أى بالمعجزات (وبالذى قلتم) من القربان كزكريا ويحيى فقتلتموهم (فلم
قتلتموهم) والخطاب لمن فى زمن نبينا وان كان الفعل لاجدادهم لرضاهم به (ان كنتم صادقين)
فى أنكم تؤمنون بالرسل عند الاتيان بذلك * ثم قال الله تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم من
تكذيب قومه واليهود (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات) أى المعجزات
(والزبر) أى الصحف كصحف ابراهيم (والكتاب) أى التوراة والانجيل (المنير) أى الواضح
فاصبر كما صبروا وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام
وقرأ ابن عامر وبالزبر بالباء الموحدة والباقون بغير باء بعد الواو وقرأ هشام وبالكتاب بالباء
الموحدة بعد الواو والباقون بغير باء وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) زيادة تأكيد
فى تسليته صلى الله عليه وسلم ومبالغة فى ازالة الحزن عن قلبه فان من علم أن عاقبته الى الموت
زالت عن قلبه الغموم والاحزان روى ان الله تعالى لما خلق آدم اشتكت الارض الى ربها لما
أخذ منها فوعدها ان يرد فيها ما أخذ منها فما من أحد الا يدفن فى التربة التى أخذ منها ولان بعد
هذه الدار دارا يتميز فيها المحسن من المسىء والمحق من المبطل ويجازى كل بما يستحقه
كما قال تعالى (وانما توفون أجوركم) أى جزاء أعمالكم (يوم القيامة) ان خيرا فخير
وان شرا فشر (فمن زحزح) أى بعد (عن النار وادخل الجنة فقد فاز) بالنجاة ونيل المراد
والفوز الظفر بالبغية بالنظر الى وجه الله تعالى الكريم (وما الحياة الدنيا) أى العيش فيها
(الا متاع الغرور) أى الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى روى أن الله تعالى يقول أعددت لعبادى
الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس
ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها
مائة عام لا يقطعها واقرؤا ان شئتم وظل ممدود ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها
واقرؤا ان شئتم فمن زحزح عن النار الآية وروى من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل
الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤتى الناس ما يحب أن يؤتى

اليه أى يفعل بهم مايحب أن يفعل به وقوله تعالى (لتبلون) جواب قسم محذوف تقديره والله لتبلون وحذف منه نون الرفع لتوالى النونات والواو ضمير الجمع وحذفت واو الرفع لالتقاء الساكنين أى لتختبرن (فى أموالكم) بالفرائض فيها والجوائح (و) فى (أنفسكم) بالعبادات والبلاء والاسر والجراح وغير ذلك (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا) أى مشركى العرب (أذى كثيرا) وذلك أنهم كانوا يقولون عزير ابن الله والمسيح ابن الله وثالث ثلاثة وكانوا يطعنون فى النبى صلى الله عليه وسلم بكل ما يقدرون عليه وهجاه كعب بن الاشرف وكانوا يحرضون الناس على مخالفته صلى الله عليه وسلم ويجمعون العساكر لمحاربته ويثبطون المسلمين عن نصرته (وان تصبروا) على ذلك (وتتقوا) الله (فان ذلك من عزم الامور) أى من صواب التدبير والرشد الذى ينبغى لكل عاقل أن يقدم عليه واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن جريج والكلبى ومقاتل نزلت فى أبى بكر وفنحاص وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر الى فنحاص اليهودى ليستمده وكتب اليه كتابا لا تفتاتن على بشئ حتى ترجع الى فجاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال احتاج ربك الى أن نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف فتذكر أبو بكر قول النبى صلى الله عليه وسلم وكف عنه فنزلت وقال الزهرى نزلت فى كعب بن الاشرف فانه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره ويسب المسلمين ويحرض المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فى شعره ويتشبب بنساء المسلمين * (تنبيه) * فى الآية تأويلان أحدهما المراد بالمصابرة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على الابتلاء فى النفس والمال وتحمل الاذى وترك المعارضة والمقابلة وذلك لانه أقرب الى دخول المخالف فى الدين كقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقال تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال تعالى ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم قال الواحدى وهذا قبل نزول آية السيف وقال القفال والذى عندى ان هذا ليس بمنسوخ والظاهر أنها نزلت عقب قصة أحد والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول عليه الصلاة والسلام من طريق الاقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم فى كثير من الاحوال والامر بالقتال لا ينافى الامر بالمصابرة التأويل الثانى ان المراد الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والانكار عليهم فالصبر عبارة عن احتمال المكروه والتقوى عبارة على الاحتراز عما لا ينبغى (و) اذكر (اذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) أى العهد عليهم فى التوراة أى على علمائهم (ليبيننه) أى الكتاب (للناس ولا يكتمونه) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بالياء فى الفعلين على الغيبة لان أهل الكتاب المخاطبين بذلك غيب والباقون بالتاء على الخطاب حكاية لمخاطبتهم (فنبذوه) أى طرحوا الميثاق (وراء ظهورهم) أى لم يعملوا به ولم يلتفتوا اليه ونقيض هذا جعله نصب عينيه (واشتروا به) أى أخذوا بدله (ثمنا قليلا) من حطام

الدنيا واعراضها من سفلتهم برياستهم فى العلم فكتموه خوف فوتها عليهم وقوله تعالى (فبئس مايشترون) العائد محذوف تقديره يشترونه قال قتادة رضى الله تعالى عنه هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم شيأ فليعلمه واياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشئ ثم تلا هذه الآية وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وقال أبو الحسن بن عمارة رضى الله تعالى عنه أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت ان رأيت أن تحدثنى فقال أما علمت أنى قد تركت الحديث فقلت اما أن تحدثنى واما أن أحدثك فقال حدثنى فقلت حدثنى الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثنى أربعين حديثا (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) أى فعلوا من اضلال الناس (ويحبون أن يحمدوا) بما أوتوا من علم التوراة و(بما لم يفعلوا) من التمسك بالحق وهم على ضلال وهذا أيضا من جملة أذاهم لانهم يفرحون بما أتوا به من أنواع الخبث والتلبيس على ضعفة المسلمين ويحبون أن يحمدوا بأنهم أهل البر والصدق والتقوى ولاشك أن الانسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الاحوال فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شئ مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوا وفرحوا بما فعلوا فاطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم أى لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى التخلف واستحمدوا به وقيل هم المنافقون فانهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون الى المسلمين بالايمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة ويجوز أن يكون شاملا لكل من يأتى بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه وقوله تعالى (فلا تحسبنهم) تأكيد (بمفازة) أى مكان ينجون فيه (من العذاب) فى الآخرة بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم (ولهم عذاب أليم) أى مؤلم فيها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة والباقون بالكسر ومفعولا تحسب الاولى دل عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتانية وعلى الفوقانية حذف الثانى فقط وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فلا يحسبنهم بالياء على الغيبة وضم الباء الموحدة والباقون بالتاء على الخطاب وفتح الباء الموحدة وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة كما تقدم (ولله ملك السموات والارض) فهو يملك أمرهما وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغير ذلك (والله على كل شئ قدير) ومنه تعذيب الكافرين وانجاء المؤمنين (ان فى خلق السموات والارض) وما فيهما من العجائب (واختلاف الليل والنهار) بالمجئ والذهاب والزيادة والنقصان (لآيات) أى دلالات واضحة على قدرته تعالى وباهر حكمته (لاولى الالباب)

لذوى العقول الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ولا ينظرون اليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر وفى النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها متدبرا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها أخبرينى بأعجب ما رأيت من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وأطالت ثم قالت كل أمره عجب أتانى ليلة فدخل فى لحافى حتى التصق جلده بجلدى ثم قال يا عائشة هل لك أن تأذنى الليلة فى عبادة ربى فقلت يا رسول الله انى لاحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام الى قربة من ماء فى البيت فتوضا ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الارض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لا أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والارض ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر الى السماء ثم يقول ان فى خلق السموات والارض وحكى ان الرجل من بنى اسرائيل كان اذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله فقالت أمه لعل فرطة فرطت منك فى مدتك فقال ما أذكر قالت لعلك نظرت مرة الى السماء ولم تعتبر قال لعل قالت فما أوتيت الا من ذلك وقوله تعالى (الذين) نعت لما قبله أو بدل (يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) أى مضطجعين أى يذكرونه دائما على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين لان الانسان قل أن يخلو من احدى هذه الحالات الثلاث وروى الطبرانى وغيره انه صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه هذا فى الصلاة يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب وعن عمران بن حصين قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب * (تنبيه) * قياما وقعودا حالان من فاعل يذكرون وعلى جنوبهم حال أيضا فيتعلق بمحذوف والمعنى يذكرونه قياما وقعودا ومضطجعين فعطف الحال المؤولة على الصريحة عكس الآية الاخرى وهى قوله دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما حيث عطف الصريحة على المؤولة (ويتفكرون فى خلق السموات والارض) وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله تعالى ويعرفون ان لهما مدبرا حكيما قال بعض العلماء الفكرة تذهب الغفلة وتحدث فى القلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات وما جليت القلوب بمثل الاحزان ولا استنارت بمثل الفكرة وروى عنه صلى الله عليه وسلم لا تفضلونى على يونس بن متى أى تفضيلا يؤدى الى تنقيصه والا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض قالوا وانما كان ذلك

التفكر فى أمر الله تعالى الذى هو عمل القلب لان أحدا لا يقدر أن يعمل بجوارحه فى اليوم مثل عمل أهل الارض وقال صلى الله عليه وسلم لا عبادة كالتفكر أى لانه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق لكن الحديث رواه البيهقى وغيره وضعفوه وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى السماء والنجوم فقال اشهد ان لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله تعالى اليه فغفر له رواه الثعلبى بسند فيه من لا يعرف قال البيضاوى وهذا دليل واضح على شرف علم اصول الدين وفضل أهله وقوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا) على ارادة القول أى يتفكرون قائلين ذلك وهذا اشارة الى الخلق بمعنى المخلوق من السموات والارض أو الى السموات والارض لانهما فى معنى المخلوق والمعنى ما خلقته عبثا وضائعا من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الابدية والسعادة السرمدية فى جوارك * (تنبيه) * نصب باطلا على الحال من هذا وهى حال لا يستغنى عنها لانها لو حذفت لاختل الكلام وهى كقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وقيل على اسقاط حرف الخفض وهو الباء والمعنى ما خلقتهما بباطل بل بحق وقدرة (سبحانك) أى تنزيها لك عن العبث وهو معترض بين قوله ربنا وبين قوله (فقنا عذاب النار) أى للاخلال بالنظر فى خلق السموات والارض والقيام بما يقتضيه قال أبو البقاء ودخلت الفاء لمعنى الجزاء والتقدير اذا نزهناك أو وحدناك فقنا قال ابن عادل ولا حاجة اليه بل التسبب فيها ظاهر تسبب عن قولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك طلبهم وقاية النار (ربنا انك من تدخل النار) أى للخلود فيها (فقد أخزيته) أى اهنته (وما للظالمين) أى للكافرين فيه وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بتخصيص الخزى بهم (من أنصار) أى انصار فمن زائدة زيدت لتأكيد النفى (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى) اى يدعو الناس (للايمان) أى اليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم (أن) أى بأن (آمنوا بربكم فآمنا) به (فان قيل) أى فائدة فى الجمع بين مناديا وينادى (أجيب) بأنه ذكر المبدأ مطلقا ثم مقيدا بالايمان تفخيما لشأن المنادى لانه لا منادى أعظم من مناد ينادى للايمان ونحوه قولك مررت بهاد يهدى للاسلام وذلك ان المنادى اذا أطلق ذهب الوهم الى مناد للحرب أو لاغاثة المكروب أو نحو ذلك وكذا الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك فاذا قلت ينادى للايمان ويهدى للاسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته ويقال دعاه لكذا والى كذا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى الكبائر منها (وكفر عنا سيآتنا) أى الصغائر منها أو يكون ذلك من باب التعميم والاستيعاب كقوله الرحمن الرحيم ولان الالحاح والمبالغة فى الدعاء أمر مطلوب (وتوفنا مع الابرار) أى مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم وهم الانبياء والصالحون وفيه تنبيه على انهم يحبون لقاء الله تعالى ومن أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه رواه الشيخان (ربنا وآتنا) أى اعطنا (ما وعدتنا) به (على) السنة (رسلك) من الرحمة والفضل وسؤالهم ذلك وان كان وعده تعالى لا يتخلف سؤال أن يجعلهم من مستحقيه

لانهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وتكرير ربنا مبالغة في التضرع وفي الآثار من حزبه أي اصابه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما أراد (ولا تخزنا) أي ولا تعذبنا ولا تفضحنا ولا تهنا (يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) أي الموعد باثابة المؤمن واجابة الداعي وعن ابن عباس الميعاد البعث بعد الموت (فاستجاب لهم ربهم) دعاءهم وهو أخص من أجاب لانه يفيد حصول جميع المطلوب لكثرة مبانيه لان كثرة المباني تدل على كثرة المعاني ويتعدى بنفسه وباللام (أني) أي بأني (لا أضيع عمل عامل منكم) وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) بيان عامل (بعضكم من بعض) أي يجمع ذكركم وأنثاكم أصل واحد فكل واحد منكم من الآخر أي الذكور من الاناث والاناث من الذكور وقيل المراد وصلة الاسلام وهذه الجملة وهي بعضكم من بعض معترضة بين عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى وما فصل به عمل عامل من قوله فالذين هاجروا الخ بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله تعالى عباده العاملين روى ان أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت يا رسول الله أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى (فالذين هاجروا) أي من مكة الى المدينة (وأخرجوا من ديارهم) تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم كأنه قال فالذين عملوا هذه الاعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين الى الله تعالى بدينهم من دار الفتنة واضطروا الى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤا (وأوذوا في سبيلي) أي ديني (وقاتلوا) الكفار (وقتلوا) في الجهاد وقرأ حمزة والكسائي بتقديم قتلوا وتأخير قاتلوا وشدد ابن كثير وابن عامر التاء من قتلوا للتكثير (لا كفرن عنهم سيئاتهم) أي استرها بالمغفرة (ولا دخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا) أي اثيبهم بذلك اثابة (من عند الله) أي تفضلا منه تعالى فهو مصدر مؤكد لما قبله لان قوله تعالى لا كفرن عنهم ولا دخلنهم في معنى لا ثيبنهم (والله عنده حسن الثواب) أي الجزاء * ولما كان المشركون في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون وقال بعض المؤمنين ان أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن في الجهد نزل (لا يغرنك تقلب) أي تصرف (الذين كفروا في البلاد) للتجارات وأنواع المكاسب والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره وقوله تعالى (متاع قليل) خبر مبتدا محذوف أي ذلك التقلب متاع قليل يتمتعون به في الدنيا يسيرا ويفنى فهو قليل في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع رواه مسلم وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربة وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من ادم حشوها ليف فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال ما يبكيك فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال أما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة (ثم مأواهم) أي مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) أي الفراش هي (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها نزلا من عند الله) وهو ما يعد للضيف ونصبه

على الحال من جنات لتخصيصها بالوصف والعامل فيهامعنى الظرف (وما) أى والذى (عند الله) من الثواب لكثرته ودوامه (خير للابرار) مما يتقلب فيه الكفار من متاع الدنيا القليل وسرعة زواله واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) فقال جابر وابن عباس وأنس نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك انه لما مات نعاه جبريل عليه الصلاة والسلام للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فقالوا ومن هو قال النجاشى فخرج الى البقيع وكشف له الى أرض الحبشة فابصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر عليه أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب (وما أنزل اليكم) اى القرآن (وما أنزل اليهم) اى التوراة والانجيل وقوله تعالى (خاشعين) حال من ضمير يؤمن مراعى فيه معنى من لانها فى معنى الجمع أى متواضعين (لله لا يشترون) أى لا يستبدلون (بآيات الله) التى عندهم فى التوراة والانجيل من نعت النبى صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) من الدنيا بأن يكتموها خوفا على الرياسة كما فعل غيرهم من اليهود (أولئك لهم اجرهم) أى ثواب أعمالهم (عند ربهم) وهو ما يختص بهم من الاجر وهو ما وعدوه فى قوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته (ان الله سريع الحساب) لنفوذ علمه فى كل شئ فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الاجر بحساب الخلق فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاق الطاعة وما يصيبكم من الشدائد وعن المعاصى (وصابروا) أى وغالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونوا أشد صبرا منكم (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو قال الله تعالى ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته الا لحاجة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة (واتقوا الله) فى جميع أحوالكم (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالجنة وتنجون من النار وقال بعض العلماء اصبروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الاعداء واتقوا اله الارض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء روى الطبرى لكن باسناد ضعيف من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس أى تغيب وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم فهو من الاحاديث الموضوعة على أبى بن كعب فى فضائل السور فليتنبه لذلك ويحذر منه وقد نبه أئمة الحديث قديما وحديثا على ذلك وعابوا على من أورده من المفسرين فى تفاسيرهم والله تعالى أعلم

﴿سورة النساء مدنية﴾

مائة وخمس أوست أوسبع وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا

(بسم الله) الظاهر الملك العلام (الرحمن) الذى عم عباده بالانعام (الرحيم) الذى خص أهل ولايته بدار السلام وقوله تعالى (يا أيها الناس) خطاب يعم المكلفين من أولاد آدم من الذكور والاناث الموجودين منهم فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم من العرب وغيرهم وقيل يختص بالعرب منهم لقوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام اذ المناشدة بالله وبالرحم عادة مختصة بهم فيقولون أنشدك بالله وبالرحم وأجيب بأن خصوص آخر الآية لا يمنع عموم أولها (اتقوا ربكم) أى عذابه بأن تطيعوه (الذى خلقكم من نفس واحدة) أى فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم وقوله تعالى (وخلق منها زوجها) معطوف على خلقكم أى خلقكم من شخص واحد هو آدم وخلق منها أمكم حواء بالمد من ضلع من اضلاعه اليسرى أو معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة انشاها وابتداها وخلق منها زوجها وانما حذف لدلالة المعنى عليه والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهى انه انشاها من تراب وخلق منها زوجها حواء وهو تقرير لخلقكم من نفس واحدة وقوله تعالى (وبث منهما) أى من آدم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) أى كثيرا بيان لكيفية تولدهم منهما والمعنى وبث أى نشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها اذ الحكمة تقتضى أن يكن أكثر اذ للرجل أن يزيد فى عصمته على واحدة بخلاف المرأة وذكر كثيرا حملا على الجمع ولا تكرار فى الآية لان خلقكم من نفس واحدة مغاير لخلق حواء منها لانها خلقت من ضلعه وهم من مائهما وليث الرجال والنساء لانه بين به أن خلقهم من نفس واحدة معناه من نفس آدم وحواء مع زيادة التصريح بالرجال والنساء (واتقوا الله الذى تساءلون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى السين أى تتساءلون (به) فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض أسألك بالله وأنشدك بالله (فان قيل) الذى يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقب الامر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو اليها أو يبعث عليها فكيف كان خلقه اياهم من نفس واحدة على التفصيل الذى ذكره موجبا للتقوى وداعيا اليها (أجيب) بأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على ذلك كان قادرا على كل شئ ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدى الى ان يتقى القادر عليه ويخشى عقابه ولانه يدل على النعمة السابقة عليهم فحقهم أن يتقوه فى كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف السين والباقون بتشديدها (و) اتقوا (الارحام) أى بأن تصلوها ولا تقطعوها وكانوا يتناشدون بالرحم وقد نبه سبحانه وتعالى اذ قرن الارحام باسمه على ان صلتها بمكان منه تعالى روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال الرحم معلقة

بالعرش

بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله تعالى ومن قطعني قطعه الله تعالى وقرأ غير حمزة بالنصب عطفا على الله تعالى فالعامل فيه اتقوا كما قدرته أو معطوف على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وأما حمزة فقرأه بالجر عطفا على الضمير المجرور وقول البيضاوي وهو ضعيف أى كما هو مذهب البصريين ممنوع والحق انه ليس بضعيف فقد جوزه الكوفيون وكيف يكون ضعيفا والقراءة به متواترة فيجب أن يضعف كلام البصريين ويرجع الى كلام رب العالمين وتعليلهم عدم الجواز بكونه كبعض كلمة لا يقتضى الحاقه به فى عدم جواز العطف اذ حذف الشئ مع القرينة جائز ومنه * رسم دار وقفت فى طلله * أى ورب رسم دار وقول الشاعر * اذهب فمابك والايام من عجب (ان الله كان عليكم رقيبا) أى حافظا لاعمالكم فيجازيكم بها أى لم يزل متصفا بذلك (وآتوا اليتامى) أى بعد البلوغ والرشد (أموالهم) وسموا يتامى بعد البلوغ مع أن اليتيم فى عرف الشرع صغير لا أب له على معنى انهم كانوا يتامى وان كان اليتم فى اللغة الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وقيل اليتم فى الاناس من قبل الآباء وفى البهائم من قبل الامهات وفى الطير من قبلهما والخطاب للاولياء والاوصياء روى ان رجلا كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال من عمه فمنعه فترافعا الى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع اليه ماله فقال النبى صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فانه يحل داره أى جنته وسيأتى تفسير الحوب الكبير فلما قبض الفتى ماله أنفقه فى سبيل الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم ثبت الاجر وبقى الوزر فقالوا يارسول الله قد عرفنا انه ثبت الاجر فكيف بقى الوزر وهو ينفق فى سبيل الله فقال ثبت الاجر للغلام وبقى الوزر على والده أى ولعله كان لا يخرج زكاته (ولا تتبدلوا الخبيث) أى الحرام (بالطيب) أى الحلال أى لا تأخذوه بدله كما تفعلون فى أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الردىء من مالكم مكانه قال الزمخشرى وهذا ليس بتبدل وانما هو تبديل قال التفتازانى لان معنى تبدلت هذا بذاك أنك أخذت هذا وتركت ذاك وكذا استبدلت لان معنى بدلت هذا بذاك أخذت ذاك وأعطيت هذا قال تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فاذا أعطى الردىء وأخذ الجيد فقد أعطى الخبيث وأخذ الطيب كما لو أخذ الخبيث وترك الطيب ليكون تبدل الخبيث بالطيب فالحاصل ان فى التبدل ما دخلته الباء متروك وما تعدى اليه الفعل بنفسه مأخوذ وفى التبديل بالعكس اه وقد أوضحت ذلك فى شرح المنهاج (ولا تأكلوا أموالهم الى) أى مع (أموالكم) كقوله تعالى من أنصارى الى الله أى مع الله أى لا تنفقوهما معا ولا تسووا بينهما فأكلكم أموالكم حلال لكم وأكلكم أموالهم حرام عليكم فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الاقل من أجرتكم ونفقتكم (فان قيل) قد حرم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم فلم ورد النهى عن أكله معها (أجيب) بأنهم كانوا يفعلون كذلك فأنكر عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم ولانهم اذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم مع ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذم

أحق (انه) أى أكلها (كان حوبا) أى ذنبا (كبيرا) أى عظيما ولما نزلت هذه الآية فى اليتامى وما كان فى أكل أموالهم من الحوب الكبير خاف الاولياء أن يلحقهم الحوب بترك العدل فى حقوق اليتامى وأخذوا يتحرجون من ولايتهم وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الازواج والثمان والست ولا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن نزل (وان خفتم) أى خشيتم (أن لا تقسطوا) أى تعدلوا (فى اليتامى) فتحرجتم من أمورهم فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء وقللوا عدد المنكوحات (فانكحوا ما طاب) أى حل (لكم من النساء) لان منهن ما حرم كاللاتى فى آية التحريم (مثنى وثلاث ورباع) أى تزوجوا اثنتين أوثلاثا وأربعا لان من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب لانه انما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنه لقبحه والقبح قائم فى كل ذنب وانما عبر عنهن بما ومن يعقل انما يعبر عنه بمن ذاهبا الى الصفة لانه انما يفرق بين من وما فى الذوات لا فى الصفات أو اجراهن مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنا وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الحوب فى حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات وقيل كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال فيتزوجها ضنا أى بخلا بها فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن (فان قيل) الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع حتى ان بعض الرافضة قال للشخص ان يتزوج بثمانية عشر (أجيب) بان الخطاب للجمع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى (فان قيل) لم جاء العطف بالواو دون أو حتى قال بعض الرافضة ان له أن يتزوج بتسعة (أجيب) بأنه لو عطف بأو لذهب معنى تجويز أنواع الجمع بين أنواع القسمة التى دلت عليها الواو (فان خفتم أن لا تعدلوا) بين هذه الاعداد أيضا بالقسم والنفقة (فواحدة) اى فانكحوا واحدة وذروا الجمع (أو ما ملكت ايمانكم) أى اقتصروا على ذلك سواء بين الواحدة من الازواج والعدد من السرارى لخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن * (تنبيه) * هذا فى حق الحر أما من فيه رق فلا يتزوج أكثر من ثنتين باجماع الصحابة وقد يعرض للحر عوارض لا يزاد فيها على واحدة كجنون أو سفه (ذلك) أى نكاح الاربعة فقط أو الواحدة أو التسرى (ادنى) أقرب الى (أن لا تعولوا) أى تجوروا يقال عال الحاكم فى حكمه اذا جار وروى ان اعرابيا حكم عليه حاكم فقال له اتعول على وقد ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تعولوا أن لا تجوروا وحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه انه فسر ان لا تعولوا بأن لا تكثر واعيالكم قال البغوى وما قاله أحد انما يقال من كثرة العيال أعال يعيل اعالة اذا كثرت عياله وقال الزمخشرى ووجهه أن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم كقولك مانهم يمونهم اذا أنفق عليهم لان من كثر عياله لزمه أن يعولهم ثم قال وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وان لا يظن

به تحريف تعدلوا الى تعولوا فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك سوأ وأنت تجد لها فى الخير محملا وكان الشافعى رحمه الله تعالى أعلى كعبا وأطول باعا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا اه (وآتوا) أى أعطوا (النساء صدقاتهن) جمع صدقة أى مهورهن (نحلة) أى عطية يقال نحله كذا نحلة أى اعطاه اياه عن طيب نفس بلا توقع عوض ونصبها على المصدر لان النحلة والايتاء بمعنى الاعطاء فكأنه قيل وأنحلوا النساء صدقاتهن نحلة قال الكلبى وجماعة والخطاب للاولياء وذلك ان ولى المرأة كان اذا زوجها فان كان معهم فى العشيرة فلم يعطها من مهرها شيأ وان زوجها غريبا حملوها اليه على بعير ولا يعطوها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق الى أهله (فان طبن لكم عن شئ منه) أى الصداق وقوله تعالى (نفسا) محول عن الفاعل أى ان طابت نفسهن لكم عن شئ من الصداق فوهبنه لكم (فكلوه) أى خذوه وأنفقوه (هنيأ) أى طيبا (مريأ) أى محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم فى الآخرة روى ان ناسا كانوا يتأثمون ان يرجع أحدهم فى شئ مما ساقه الى امرأته فقال الله تعالى ان طابت نفس واحدة من غير اكراه ولا خديعة فكلوه هنيأ مريأ قال الزمخشرى وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل فان طبن ولم يقل فان وهبن أوسمحن اعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة وعن الشعبى ان رجلا أتى مع امرأته شريحا فى عطية أعطتها اياه وهى تطلب أن ترجع فقال شريح رد عليها فقال الرجل أليس الله تعالى قد قال فان طبن لكم قال لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه وحكى ان رجلا من آل أبى معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا كان لها عليه فلبث شهرا ثم طلقها فخاصمته الى عبد الملك بن مروان فقال الرجل أعطتنى طيبة بها نفسها فقال عبد الملك فأين الآية التى بعدها ولا تأخذوا منه شيأ اردد عليها وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه كتب الى قضاته ان النساء يعطين رغبة ورهبة فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها (ولا تؤتوا) أيها الاولياء (السفهاء) أى المبذرين من الرجال والنساء (أموالكم) اى أموالهم وانما أضاف الاموال الى الاولياء لأنها فى تصرفهم وتحت ولايتهم وقيل نهى الى كل أحد أن يعمد الى ما خوله الله من المال فيعطيه امرأته وأولاده ثم ينظر الى ما فى أيديهم وانما سماهم سفهاء استخفافا بعقلهم واستهجانا لجعلهم قواما وهذا أوفق لقوله تعالى (التى جعل الله لكم قياما) أى تقوم بمصالحكم ومصالح أولادكم فيضعوها فى غير وجهها وعلى القول الاول يؤول بأن أموال السفهاء التى من جنس ما جعل الله لكم قياما وسمى الله ما به القيام قياما للمبالغة وقرأ نافع وابن عامر قيما بغير ألف بعد الياء والقيم جمع قيمة ما يقوم به الامتعة والباقون بالالف مصدر قام (وارزقوهم) أى أطعموهم (فيها واكسوهم) فيها وانما قال تعالى فيها لجعله الاموال ظروفا للرزق فيكون الانفاق من الربح لا من الاموال التى هى الظروف بأن يتجروا فيها و يحصلوا من ربحها ما يحتاجون اليه ولو قيل منها لكان الانفاق من نفس الاموال (وقولوا لهم قولا

معروفا) اى عدوهم عدة جميلة باعطائهم أموالهم اذا رشدوا وكل ماسكنت اليه النفس وأحبته لحسنه عقلا أوشرعا من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر وعن عطاء اذا ربحت أعطيتك واذا غنمت فى غزاتى جعلت لك حظا وقيل ان لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل له عافانا الله واياك بارك الله فيك وقيل لايختص ذلك بالاولياء بل هو أمر لكل أحد ان لايخرج ماله الى أحد من السفهاء قريب أو أجنبى رجل أو امرأة يعلم انه يضيعه فيما لاينبغى ويفسده (وابتلوا) أى اختبروا (اليتامى) فى دينهم وتصرفهم بأن تختبروا ولد التاجر بالبيع والشراء والمماكسة فيهما وولد الزراع بالزراعة والنفقة على القوام بها والمرأة فيما يتعلق بالغزل والقطن وصون الاطعمة عن الهرة ونحوها وحفظ متاع البيت وولد الامير ونحوه بالانفاق مدة فى خبز وماء ولحم ونحوها كل ذلك على العادة فى مثله ويشترط تكرار الاختبار مرتين أو أكثر بحيث يفيد غلبة الظن برشده ووقت الاختبار قبل البلوغ ولايصح عقده بل يمتحن فى المماكسة فاذا أراد العقد عقد الولى (حتى اذا بلغوا النكاح) أى صاروا أهلا له اما بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضى الله تعالى عنه عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورآنى بلغت رواه ابن حبان وأصله فى الصحيحين وابتداؤها من انفصال جميع الولد قيل عرض عليه صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة وهم أبناء أربع عشرة فلم يجزهم وعرضوا عليه وهم أبناء خمس عشرة فأجازهم واما بخروج المنى فى وقت امكانه وأقله تسع سنين قمرية تحديدية سواء أخرج فى نوم أم يقظة بجماع أو غيره وتزيد المرأة على هذين الامرين الحيض لوقت امكانه وأقله تسع سنين قمرية تقريبية فيغتفر فيها زمن لايسع حيضا وطهرا والولادة لانها يسبقها الانزال ويحكم بالبلوغ قبلها بستة أشهر وشئ وانبات شعر العانة الخشن دليل للبلوغ فى حق الكفار لافى حق المسلمين ولاعبرة بانبات شعر الابط واللحية (فان آنستم) أى أبصرتم (منهم رشدا) وهو صلاح الدين والمال أما صلاح الدين فلايرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة أو اصرار على صغيرة ويعتبر فى رشد الكافر دينه وأما صلاح المال فلا يضيعه بالقائه فى بحر أو بصرفه فى محرم او باحتمال الغبن الفاحش فى المعاملة ونحوها وليس صرفه فى الخير بتبذير ولاصرفه فى الثياب والاطعمة النفيسة وشراء الجوارى والاستمتاع بهن لان المال يتخذ لينتفع به نعم ان صرفه فى ذلك بطريق الاقتراض له حرم عليه (فادفعوا اليهم أموالهم) من غير تأخير (ولاتأكلوها) أيها الاولياء وقوله تعالى (اسرافا) أى بغير حق (وبدارا) حالان أى مسرفين ومبادرين الى انفاقها مخافة (أن يكبروا) رشداء فيلزمكم تسليمها اليهم (ومن كان) من الاولياء (غنيا فليستعفف) أى يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله (ومن كان فقيرا فليأكل) منه (بالمعروف) أى بقدر الاقل من حاجته وأجرة سعيه كما مر ولفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف مشعر بان الولى له حق فى مال الصبى وروى النسائى وغيره أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف

(تنبيه)

(تنبيه) ايراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهى للاغنياء منهم أن لا يأخذوا لانفسهم من أموال اليتامى شيأ وللفقراء منهم أن لا يأخذوا منها شيأ بغير المعروف كما أن قوله ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا يدل على أنه نهى للفريقين عن أكلها اسرافا ومبادرة لكبرهم (فاذا دفعتم اليهم) أى اليتامى (أموالهم فأشهدوا) ندبا (عليهم) بانهم قبضوها فان الاشهاد أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة فيحتاجون الى البينة وهذا يدل على ان القيم لا يصدق فى دعواه الدفع ولو أبا الا ببينة وهو مذهب الشافعى ومالك خلافا لابى حنيفة (وكفى بالله حسيبا) أى حافظا لاعمال خلقه ومحاسبتهم (للرجال) أى الذكور (نصيب) أى حظ (مما ترك الوالدان والاقربون) أى المتوفون (وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه) أى المال (أو كثر) جعله الله (نصيبا مفروضا) أى مقطوعا بتسليمه اليهم روى أن أوس بن ثابت الانصارى رضى الله تعالى عنه توفى وترك امرأته أم كحة بضم الكاف والحاء المشددة وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابناعم الميت ووصياه سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيأ وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار وان كان الصغير ذكرا انما كانوا يورثون الرجال ويقولون لا نعطى الا من قاتل وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيخ وهو بالضاد والخاء المعجمتين موضع بالمدينة قيل لعله المسجد الذى كان يسكنه أصحاب الصفة لانهم كانوا يرضخون فيه النوى فشكت اليه فقالت يارسول الله ان أوس بن ثابت مات وترك على ثلاث بنات وأنا امرأته وليس عندى ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته شيأ وهن فى حجرى لا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا فنزلت هذه الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقربا من مال أوس شيأ فان الله جعل لبناته نصيبا مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فأنزل الله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم فأعطى صلى الله عليه وسلم أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم وهذا دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب (واذا حضر القسمة) للميراث (أولو القربى) أى ذوو القرابة ممن لا يرث (واليتامى والمساكين فارزقوهم) أى أعطوهم (منه) أى المقسوم شيأ قبل القسمة تطييبا لقلوبهم وتصدقا عليهم وهو أمر ندب للبلغ من الورثة وقيل أمر وجوب واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قوم هى منسوخة بآية المواريث كالوصية وعن سعيد بن جبير ان ناسا يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون بها الناس (وقولوا لهم قولا معروفا) وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم وعن الحسن والنخعى أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين يعنيان الذهب والورق فاذا قسم الذهب والورق وصارت القسمة الى الارضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولا معروفا كانوا يقولون بورك فيكم (وليخش) أى وليخف على اليتامى (الذين لو تركوا) أى قاربوا أن

يتركوا (من خلفهم) أى بعد موتهم (ذرية ضعافا) أى أولادا صغارا (خافوا عليهم) أى الضياع (فليتقوا الله) فى أمر اليتامى وغيرهم وليأتوا اليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم (وليقولوا) أى للمريض (قولا سديدا) أى عدلا وصوابا بأن يأمروه أن يتصدق بدون ثلثه ويترك الباقى لورثته ولا يتركهم عالة وذلك انه كان اذا احضر أحدهم الموت يقول له من بحضرته انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيأ قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلانا كذا وفلانا كذا حتى يأتى على عامة ماله فنهاهم الله عز وجل وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أى بغير حق (انما يأكلون فى بطونهم نارا) أى ملء بطونهم يقال أكل فلان فى بطنه وفى بعض بطنه قال الشاعر * كلوا فى بعض بطنكم تعفوا * ومعنى يأكلون نارا يأكلون ما يجر الى النار فكأنه نار فى الحقيقة روى أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس انه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة أسرى بى قوما لهم مشافر كمشافر الابل احداهما قالصة على منخريه والاخرى على بطنه وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها فقلت يا جبريل من هؤلاء قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما (وسيصلون سعيرا) أى نارا شديدة يحترقون فيها وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الياء والباقون بالفتح (يوصيكم الله) أى يأمركم (فى أولادكم) أى فى شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة وهذا اجمال تفصيله (للذكر) منهم (مثل حظ) أى نصيب (الانثيين) اذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف فان كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان وانما فضل الذكر على الانثى لاختصاصه بلزوم ما لا يلزم الانثى من الجهاد وتحمل الدية وغيرهما وله حاجتان حاجة لنفسه وحاجة لزوجته والانثى حاجة واحدة لنفسها بل هى غالبا مستغنية بالتزويج عن الانفاق من مالها ولكن لما علم الله تعالى احتياجها الى النفقة وان الرغبة تقل فيها اذا لم يكن لها مال جعل لها حظا من الارث وابطل حرمان الجاهلية لها (فان قيل) هلا قيل للانثيين مثل حظ الذكر أو للانثى نصف حظ الذكر (أجيب) بأنه انما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك ولان قوله للذكر مثل حظ الانثيين قصد الى بيان فضل الذكر وقولك للانثيين مثل حظ الذكر قصد الى بيان نقص الانثى وما كان قصدا الى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد الى بيان نقص غيره عنه ولانهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان وكان فى ابتداء الاسلام بالمحالفة قال تعالى والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ثم صارت الوراثة بالهجرة قال الله تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ ثم نسخ ذلك كله بالآية الكريمة واختلف فى سبب نزولها فعن جابر انه قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث انما يرثنى كلالة فنزلت وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك

امرأة وبنتين وأخافأخذ الاخ المال فأتت امرأة سعد الى النبى صلى الله عليه وسلم بابنتى سعد فقالت يارسول الله ان هاتين ابنتا سعد وان سعدا قتل يوم أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما ولا ينكحان الا ولهما مال فقال صلى الله عليه وسلم ارجعى فلعل الله سيقضى فى ذلك فنزلت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقى فهولك فهذا أول ميراث قسم فى الاسلام وكأنه قيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الاناث ولا يضاررن فى حظهن حتى يحرمن مع ادلائهن مع القرابة مثل مايدلون به (فان قيل) حظ الانثيين الثلثان فكأنه قيل للذكر الثلثان (أجيب) بأن المراد حالة الاجتماع كما مرّ أما فى حالة الانفراد فالابن يأخذ المال كله والبنتان يأخذان الثلثين والدليل على ان الفرض حكم الاجتماع أنه اتبعه حكم الانفراد بقوله تعالى (فان كنّ) أى ان كان الاولاد (نساء) خلصا ليس معهن ذكر وأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات وقوله تعالى (فوق اثنتين) خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فان قيل) قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الاولاد لا لبيان حظ الانثيين فكيف صح أن يردف قوله فان كن نساء وهو لبيان حظ الاناث (أجيب) بأنه وان كان مسوقا لبيان حظ الذكر الا أنه لما علم منه حظ الانثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للامرين جميعا فلذلك صح أن يقال فان كنّ نساء (فلهن ثلثا ماترك) أى المتوفى منكم ويدل عليه المعنى (وان كانت) أى المولودة (واحدة فلها النصف) وقرأ نافع واحدة بالرفع على كان التامة والباقون بالنصب على كان الناقصة واختلف فى ميراث الانثيين فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه حكمهما حكم الواحدة لانه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الباقون حكمهما حكم مافوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الانثيين اذا كان معه انثى وهو الثلثان اقتضى ذلك ان فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يراد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى فان كنّ نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك ان البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالاولى والاحرى أن تستحقه مع أخت مثلها ويؤيده أيضا ان البنتين أمس رحما من الاختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله فلهما الثلثان مما ترك وقيل فوق صلة وقيل لدفع توهم زيادة النصيب بزيادة العدد لما فهم استحقاق البنتين من جعل الثلث للواحدة مع الذكر (ولأبويه) أى الميت وقوله تعالى (لكل واحد منهما السدس مما ترك) بدل بعض من كل فالسدس مبتدأ ولأبويه خبر وفائدة البدل دفع توهم أن يكون للأب ضعف ما للأم أخذا من قوله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين وبهذا اندفع كما قال التفتازانى ان البدل ينبغى أن يكون بحيث لو أسقط استقام الكلام معنى وهنا لو قيل لابويه السدس لم يستقم هذا (ان كان له) أى الميت (ولد) ذكرا أو غيره والحق بالولد ولد الابن وبالاب الجد (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه) أى فقط بقرينة المقام (فلامه الثلث) مما ترك وانما لم يذكر حصة الاب لانه لما فرض ان الوارث أبواه فقط وعين نصيب الام علم ان الباقى للاب وكأنه قال فلهما ماترك اثلاثا ولو كان معهما أحد الزوجين كان لها ثلث مابقى بعد فرضه كما قال الجمهور

لا ثلث المال كما قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنه فانه يفضى الى تفضيل الانثى على الذكر المساوى لها فى الجهة والقرب وهو كما قال البيضاوى خلاف وضع الشرع (فان كان له اخوة) أى اثنان فصاعدا ذكورا وأناثا كما عليه الجمهور (فلامه السدس) والباقى للاب ولاشئ للاخوة وقال ابن عباس لا يحجب الام من الثلث الى السدس الا ثلاثة اخوة ذكورا أخذا بظاهر اللفظ واطلاق اللفظ يدل على أن الاخوة يردونها من الثلث الى السدس وان كانوا لا يرثون مع الاب شيأ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنهم يأخذون السدس الذى يحجبوا عنه الام وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل فلامه بكسر الهمزة فرارا من ضمة الى كسرة لثقله فى الموضعين والباقون بضمها وقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أى هذه الانصباء للورثة من بعد وصية أو وفاء دين وانما عبر بأو دون الواو للدلالة على أنهما متساويان فى الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومفردين (فان قيل) لم قدمت الوصية فى الذكر على الدين مع انها متأخرة فى حكم الشرع عنه (أجيب) بأنها لما كانت شاقة على الورثة لكونها مأخوذة بلا عوض وهى مستحبة لكل مكلف بخلاف الدين فانه لا يكون على كل مكلف فقدمت لذلك وقرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة يوصى بفتح الصاد ووافقهم حفص على فتح الصاد فى الحرف الثانى والباقون بكسر الصاد فيهما وقوله تعالى (آباؤكم وابناؤكم) مبتدأ خبره (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أى لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم فى عاجلكم وآجلكم فمنكم من يظن ان الاب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن ان الابن أنفع له فيكون الاب أنفع له وانما العالم بذلك هو الله تعالى وقد دبر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه وقال ابن عباس أطوعكم لله من الآباء والابناء أرفعكم درجة يوم القيامة والله يشفع المؤمنين بعضهم فى بعض فان كان الوالد أرفع درجة فى الجنة رفع اليه ولده وان كان الولد أرفع درجة من الآخر فى الجنة سأل الله أن يرفع اليه فيرفع بشفاعته (فريضة) أى ما قدر من المواريث فرض فريضة (من الله ان الله كان عليما) بامور عباده (حكيما) فيما قضى وقدر أى لم يزل متصفا بذلك (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد) ذكرا وغيره منكم أو من غيركم (فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) وولد الابن فى ذلك كالولد اجماعا (ولهن) أى الزوجات تعددن أولا (الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد) منهن أو من غيرهن (فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) وولد الابن كالولد فى ذلك اجماعا فقد فرض للرجل بحق العقد الصحيح ضعف ما للمرأة كما فى النسب وهكذا قياس كل رجل وامرأة وارثين اشتركا فى الجهة والقرب من الميت ولا يستثنى من ذلك الا أولاد الام والمعتق والمعتقة (وان كان رجل) أى الميت (يورث) أى منه من ورث صفة رجل وخبر كان (كلالة) أو يورث خبر كان وكلالة حال من الضمير فى يورث واختلفوا فى الكلالة فذهب أكثر الصحابة الى أنها من لا ولد له ولا والد قال الشعبى سئل أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن الكلالة فقال انى سأقول فيها برأيى فان كان

صوابا فمن الله وان كان خطأ فمنى ومن الشيطان أراه ماخلا الوالد والولد فلما استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال انى لأستحيى من الله ان أرد شيأ قاله أبو بكر وذهب طاوس ان الكلالة من لا ولد له وهى احدى الروايتين عن ابن عباس وأحد القولين عن عبد الله بن عمر وسأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألنى وما أعضل بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ ما أعضلت بهم الكلالة وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ثلاث لأن يكون النبى بينهن لنا أحب الينا من الدنيا وما فيها الكلالة والخلافة وأبواب الربا وقال سعيد بن أبى طلحة خطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال انى لا أدع بعدى شيأ أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شئ ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ فيه حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء وانى ان أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن وقوله ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله تعالى أنزل فى الكلالة آيتين احداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والاخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها وفيها من البيان ما ليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها وقوله تعالى (أو امرأة) عطف على رجل أى أو امرأة تورث كلالة (وله) أى الرجل (أخ أو أخت) واكتفى بحكم الرجل عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه ويصح أن يعود الضمير على الموروث الكلالة فيشمل الرجل والمرأة فلكل واحد منهما السدس وقد أجمعوا على أن المراد به الاخ والاخت من الام (فان كانوا) أى الاخت والاخوات من الام (أكثر من ذلك) أى من واحد (فهم شركاء فى الثلث) يستوى فيه ذكورهم واناثهم لان الادلاء بمحض الانوثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وقوله تعالى (غير مضار) حال من ضمير يوصى أى غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث وعن قتادة كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه وعن الحسن المضارة فى الدين أن يوصى بدين ليس عليه ومعناه الاقرار وقوله تعالى (وصية من الله) مصدر مؤكد ليوصيكم أى يوصيكم بذلك وصية كقوله فريضة من الله (والله عليم) بما دبره لخلقه من الفرائض (حليم) بتأخير العقوبة عمن خالفه * (تنبيه) * خصت السنة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين أو رق (تلك) أى الاحكام المذكورة فى أمر اليتامى والوصايا والمواريث (حدود الله) أى شرائعه التى حدها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدوها (ومن يطع الله ورسوله) فيما حكم به (يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار) وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة كقولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا (وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده) أى الله (يدخله نارا) وقوله تعالى (خالدا فيها) حال كما مر ولا يجوز أن يكون خالدين وخالدا صفتين لجنات ونار لانهما جريا على غير من هما له فلابد من الضمير وهو قولك خالدين هم فيها وخالدا هو فيها هذا على مذهب البصريين أما على مذهب الكوفيين فهو جائز عندهم عند أمن اللبس كما هنا وهو الراجح كما جرى عليه ابن مالك وغيره (وله عذاب مهين)

أى ذو اهانة (روعى فى الضمائر فى الآيتين لفظ من وفى خالدين معناها وقرأ نافع وابن عامر ندخله جنات وندخله نارا بالنون فيهما على الالتفات والباقون بالياء (واللاتى يأتين الفاحشة) أى الزنا (من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أى من رجال المسلمين وهذا خطاب للحكام أى فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود وفيه بيان أن الزنا لا يثبت الا بأربعة من الشهود (فان شهدوا) عليهن بها (فأمسكوهن) أى احبسوهن (فى البيوت) واجعلوها سجنا لهن وامنعوهن عن مخالطة الناس وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها (حتى يتوفاهن الموت) أى ملائكته (أو) الى أن (يجعل الله لهن سبيلا) أى طريقا الى الخروج منها أمروا بذلك أول الاسلام ثم جعل لهن سبيلا بجلد البكر مائة وتغريبها عاما ورجم المحصنة وفى الحديث لما بين الحد قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا رواه مسلم (واللذان) أى الزانى والزانية وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف (يأتيانها) أى فاحشة الزنا (منكم) أى الرجال (فآذوهما) بالسب والضرب بالنعال (فان تابا) أى منها (وأصلحا) أى العمل (فأعرضوا عنهما) ولا تؤذوهما (ان الله كان توابا) على من تاب (رحيما) به وهو علة الامر بالاعراض وترك المذمة وهذا منسوخ بالحد روى ابن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما أخبراه ان رجلين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله فقال الآخر وكان أفقههما أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى أن أتكلم فقال ان ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فاخبرونى ان على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة وبجارية لى ثم انى سألت أهل العلم فاخبرونى أن ما على ابنى جلد مائة وتغريب سنة وانما الرجم على امرأته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما غنمك وجاريتك فرد عليك وجلد ابنه مائة وغربه عاما أى لانه كان غير محصن وأمر أنيسا الاسلمى أن يأتى امرأة الآخر فان اعترفت رجمها فاعترفت فرجمها وروى ابن عباس عن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى ان طال بالناس زمان ان يقول قائل والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو الاعتراف وجملة حد الزنا أن الزانى اذا كان محصنا وهو الذى اجتمع فيه أربعة أوصاف العقل والبلوغ والحرية والاصابة بالنكاح الصحيح فحده الرجم مسلما كان أو ذميا وعند أبى حنيفة أن الاسلام من شرائط الاحصان فلا يرجم عنده الذمى ويرده ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وان كان الزانى غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الاوصاف نظران كان غير بالغ أو مجنونا فلا حد عليه وان كان حرا عاقلا بالغا غير أنه لم يصب بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام وان كان رقيقا فعليه جلد خمسين وتغريب نصف عام ومثل الزنا

اللواط عند الشافعي رضي الله تعالى عنه لكن المفعول به لا رجم عليه وان كان محصنا بل يجلد ويغرب وقيل نزلت آية واللاتي يأتين الفاحشة في المساحقات وآية واللذان يأتيانها منكم في اللواطين (انما التوبة على الله) أي ان قبول التوبة كالمحتوم على الله تفضلا منه بمقتضى وعده لانه تعالى وعد بقبول التوبة فاذا وعد شيأ لابد أن ينجز وعده لان الخلف في وعده سبحانه وتعالى محال (للذين يعملون السوء) أي المعصية وقوله تعالى (بجهالة) في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين أي سفهاء فان ارتكاب الذنب مما يدعو اليه السفه والشهوة لا مما تدعو اليه الحكمة والعقل وعن مجاهد من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع أي يخرج من جهالته وقال قتادة أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصى به الله فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل (ثم يتوبون من) زمن (قريب) أي قبل أن يغرغروا لقوله تعالى حتى اذا حضر أحدهم الموت وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر رواه الترمذي وحسنه وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين أهبط الى الارض وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في جسده فقال وعزتي وجلالي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر والغرغرة تردد الروح في الحلق

* (تنبيه) * معنى من في قوله تعالى من قريب التبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمنا قريبا لان أمد الحياة قريب لقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب والا فهو تائب من بعيد (فأولئك يتوب الله عليهم) أي يقبل توبتهم (فان قيل) ما فائدة ذلك بعد قوله تعالى انما التوبة على الله (أجيب) بأن ذلك وعد بالوفاء بما وعد به وكتبه على نفسه كما يعد العبد الوفاء بما عليه (وكان الله عليما) بخلقه (حكيما) في صنعه بهم (وليست التوبة للذين يعملون السيآت) أي الذنوب (حتى اذا حضر أحدهم الموت) أي أخذ في النزع (قال) عند مشاهدة ما هو فيه (اني تبت الآن) حين لا يقبل من كافر ايمان ولا من عاص توبة قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ولذلك لم ينفع ايمان فرعون حين أدركه الغرق (ولا الذين يموتون وهم كفار) أي اذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب لا ينفعهم ذلك ولا تقبل توبتهم فسوى سبحانه وتعالى بين الذين سوفوا توبتهم الى حضور الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم لان حضور الموت أول أحوال الآخرة فكما أن المصرون على الكفر قد فاتهم التوبة على اليقين فكذلك المسوف الى حضور الموت لمجاوزة كل منهما أوان التكليف والاختيار وقوله تعالى (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) أي مؤلما تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيان ان العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة وقيل أصله أعددنا أبدلت الدال الاولى تاء

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء) أي ذواتهن (كرها) نزلت في أهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول الاسلام اذا مات الرجل وله امرأة وللرجل عصبة وألقى ثوبه على امرأة الميت أو على خبائها صار أحق بها من نفسها ومن غيره ثم ان شاء تزوجها بصداقها الاول وان

شاء زوجها غيره وأخذ صداقها وان شاء عضلها ومنعها من الازواج يضارها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت هى فيرثها فان ذهبت المرأة الى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبة الميت ثوبه فهى أحق بنفسها وكانوا على هذا حتى توفى أبو القيس بن الاسلت الانصارى وترك امرأته فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارها لتفدى نفسها منه فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه فلا هو ينفق على ولا يدخل بى ولا يخلى سبيلى فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اقعدى فى بيتك حتى يأتى أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ حمزة والكسائى بضم الكاف والباقون بفتحها قال الكسائى وهما لغتان وقال الفراء الكره بالفتح ما أكره عليه وبالضم المشقة وقوله تعالى (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) عطف على أن ترثوا أى لاتمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بامساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضرارا لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر وقيل هذا خطاب لاولياء الميت والصحيح كما قال البغوى انه خطاب للازواج قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون له المرأة وهو كاره صحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد اليه ماساق اليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك قال الزمخشرى والعضل الحبس والضيق ومنه عضلت المرأة بولدها اذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقى بعضه (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والنشوز وسوء العشرة فحينئذ يحل لكم اضرارهن ليفتدين منكم قال عطاء كان الرجل اذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ماساق اليها وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود وقرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء المثناة تحت والباقون بالكسر وقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) قال الحسن رجع الى أول الكلام يعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف وهو النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى القول وقيل هو أن يتصنع لها كما تصنع له (فان كرهتموهن) فاصبروا ولا تفارقوهن (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى الى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك وليكن نظركم ما هو أصلح للدين وأدنى الى الخير فلعل أن يرزقكم الله تعالى منهن ولدا صالحا أو يعطفكم الله عليهن وقد بينت الآية جواز امساك المرأة مع الكراهة لها ونبهت على معنيين أحدهما ان الانسان لايعلم وجوه الصلاح والثانى ان الانسان لايكاد يجد محبوبا ليس فيه مايكره فليصبر على مايكره لما يحب وأنشدوا فى هذا المعنى

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض مافيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة * يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

ولما كان الرجل اذا طمحت عينه الى استطراف امرأة بهت بالتى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه الى زوج غيرها نزل (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى أخذها بدلها بأن طلقتموها (و) قد (آتيتم احداهن) أى الزوجات (قنطارا) أى مالا كثيرا صداقا (فلا تأخذوا منه) أى القنطار (شيأ) وقوله تعالى (أتأخذونه بهتانا)

أى ظلما (واثما مبينا) أى بينا حال أى أتأخذونه باهتين وآثمين وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا فقال أيها الناس لا تغالوا بصداق النساء فلو كان مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتى عشرة أوقية فقامت اليه امرأة فقالت له يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقا جعله الله لنا والله تعالى يقول وآتيتم احداهن قنطارا فقال عمر رضى الله عنه كل أحد أعلم من عمر ثم قال لاصحابه تسمعوننى أقول مثل هذا القول ولا تنكرونه على حتى ترد على امرأة ليست من أعلم النساء وقوله تعالى (وكيف تأخذونه) استفهام توبيخ وانكار أى تأخذونه بأى وجه (وقد أفضى) أى وصل (بعضكم الى بعض) بالجماع المقرر للمهر وكنى الله تعالى عن الجماع بالافضاء وهو الوصول الى الشئ من غير واسطة تعليما للعباد لانه مما يستحيا منه (وأخذن منكم ميثاقا) أى عهدا (غليظا) أى شديدا وهو ما أخذه الله للنساء على الرجال من امساك بمعروف أو تسريح باحسان وعن النبى صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وقد قيل صحبة عشرين يوما قرابة فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ولما توفى أبو قيس وكان من صالحى الانصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه وكان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم فقالت انى أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره فأتته وأخبرته بذلك فنزل (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وانما عبر بما دون من لانه أريد به صفة ذات معينة وهى كونهن منكوحات الآباء وقيل ما مصدرية على ارادة المفعول من المصدر وقوله تعالى (الا ما قد سلف) استثناء من المعنى اللازم للنهى فكأنه قيل تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف أو من اللفظ للمبالغة فى التحريم والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم الا ما قد سلف ان أمكنكم أن تنكحوه ولا يمكن ذلك والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق الى اباحته كما يعلق بالمحال فى التأبيد فى نحو قوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط أو منقطع أى لكن ما قد سلف من فعلكم ذلك فانه معفو عنه وقوله تعالى (انه) أى نكاحهن (كان فاحشة ومقتا) علة للنهى أى انه فاحشة فكان مزيدة أى قبيحا عند الله تعالى ما رخص فيه لامة من الامم ممقوتا عند ذوى المروآت من الجاهلية وغيرهم وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه المقتى ويسمى به الرجل المذكور أيضا قال فى القاموس نكاح المقت أن يتزوج امرأة أبيه بعده فالمقتى ذلك المتزوج أو ولده أى ومن ثم قيل ومقتا كأنه قيل هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح قبيح ممقوت فى المروأة ولا مزيد على ما يجمع القبحين (وساء) أى بئس (سبيلا) أى طريقا ذلك روى عن البراء بن عازب أنه قال مر بى خالى ومعه لواء فقلت أين تذهب فقال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه * واعلم أن أسباب التحريم المؤبد ثلاثة قرابة ورضاع ومصاهرة وضابط المحرمات بالنسب والرضاع أن يقال تحرم نساء القرابة الا من دخلت تحت ولد العمومة أو ولد الخؤلة وقد بدأ الله بالسبب الاول وهو القرابة فقال (حرمت عليكم

أمهاتكم) أى العقد عليهن وكذلك يقدر فى الباقى لان تحريم نكاحهن هو الذى يفهم من تحريمهن كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله والامهات جمع أم وأصلها أمهة قاله الجوهرى وضابط الام هى كل من ولدتك فهى أمك حقيقة أو ولدت من ولدك ذكرا كان أو أنثى كام الاب وان علت وأم الام كذلك فهى أمك مجازا وان شئت قلت هى كل أنثى ينتهى اليها نسبك (وبناتكم) جمع بنت وضابطها هو كل من ولدتها فهى بنتك حقيقة أو ولدت من ولدها ذكرا كان أو أنثى كبنت ابن وان نزل و بنت بنت وان نزلت فبنتك مجازا وان شئت قلت كل أنثى ينتهى اليك نسبها وخرج بالبنت المخلوقة من ماء زنا الرجل فانها تحل له لانها أجنبية عنه بدليل منع الارث بالاجماع فلا تتبعض الاحكام ويحرم على المراة ولدها من زنا بالاجماع كما أجمعوا على أنه يرثها والفرق أن الابن كالعضو منها وانفصل منها انسانا ولا كذلك النطفة التى خلقت منها البنت بالنسبة للاب (وأخواتكم) جمع أخت وضابطها هو كل من ولدها أبواك أو أحدهما فهى أختك (وعماتكم) جمع عمة وضابطها هو كل من هى أخت ذكر ولدك بلا واسطة فعمتك حقيقة أو بواسطة كعمة أبيك فعمتك مجازا وقد تكون العمة من جهة الام كاخت أبى الام (وخالاتكم) جمع خالة وضابطها هو كل من هى أخت أنثى ولدتك بلا واسطة فخالتك حقيقة أو بواسطة كخالة أمك فخالتك مجازا وقد تكون الخالة من جهة الاب كاخت أم الاب (وبنات الاخ وبنات الاخت) من جميع الجهات وبنات أولادهم وان سفلن ثم ثنى بالسبب الثانى وهو الرضاع فقال (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم) وضابط أمك من الرضاع هو كل من أرضعتك أو أرضعت من أرضعتك أو صاحب اللبن أو أرضعت من ولدك بواسطة أو غيرها أو ولدت مرضعتك بواسطة أو غيرها أو صاحب لبنها وهو الفحل بواسطة أو غيرها فأم رضاع (وأخواتكم من الرضاعة) وضابط أخت الرضاع هو كل من أرضعتها أمك أو ارتضعت بلبن أبيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل ويلحق بذلك بالسنة باقى السبع لخبر الصحيحين يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة وفى رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من الولادة وفى رواية حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب وضابط بنت الرضاع هو كل أنثى ارتضعت لبنك أو لبن من ولدته بواسطة أو غيرها أو أرضعتها امرأة ولدتها بواسطة أو غيرها وكذا بناتها من نسب أو رضاع وان سفلن وضابط عمة الرضاع هو كل أخت للفحل أو أخت ذكر ولد الفحل بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع وضابط خالة الرضاع هو كل أخت للمرضعة أو أخت أنثى ولدت المرضعة بواسطة أو غيرها من نسب أو رضاع وضابط بنات الاخوة وبنات الاخوات من الرضاع كل أنثى من بنات أولاد المرضعة والفحل من الرضاع والنسب وكذا كل أنثى أرضعتها أختك أو ارتضعت بلبن أخيك وبناتها وبنات أولادها من نسب أو رضاع وانما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين لقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ولقوله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع الا ما فتق الامعاء وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم

لا رضاع الا ما أنشر العظم وأنبت اللحم وانما يكون هذا في حال الصغر وعند أبي حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وهي عند الاكثرين لاقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع وأقل مدة الحمل ستة أشهر وابتداء الحولين من تمام انفصاله والشرط الثاني ان توجد خمس رضعات متفرقات لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت فيما أنزل الله في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فيما يقرأ من القرآن أي يقرؤهن من لم يبلغه نسخهن فقد نسخت تلاوتهن وبقي حكمهن وهذا ماذهب اليه الشافعي وذهب أكثر أهل العلم الى أن قليل الرضاع وكثيره محرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب واليه ذهب سفيان الثوري ومالك والاوزاعي وعبد الله بن المبارك وأبو حنيفة ويقوي الاول قوله صلى الله عليه وسلم لاتحرم المصة من الرضاع والمصتان ثم ثلث بالسبب الثالث وهو النكاح فقال تعالى (وأمهات نسائكم) أي بواسطة أو بغيرها من نسب أو رضاع سواء أدخل بزوجته أم لا لاطلاق الآية (وربائبكم) جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره وسميت ربيبة لانه يربيها كما يربي ولده في غالب الامر ثم اتسع فيه وسميت بذلك وان لم يربها وقوله تعالى (اللاتي في حجوركم) أي تربونها صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) أي جامعتموهن سواء أكان ذلك بعقد صحيح أم فاسد لاطلاق الآية (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أي في نكاح بناتهن اذا فارقتموهن (فان قيل) لم أعيد الوصف الى الجملة الثانية ولم يعد الى الجملة الاولى وهي وأمهات نسائكم مع أن الصفات عقب الجمل تعود الى الجميع (أجيب) بأن نسائكم الثاني مجرور بحرف الجر ونسائكم الاول مجرور بالاضافة واذا اختلف العامل لم يجز الاتباع وتعين القطع واعترض بأن المعمول الجر وهو واحد *(تنبيه)* قضية كلام الشيخ أبي حامد وغيره أنه يعتبر في الدخول أن يقع في حياة الام فلو ماتت قبل الدخول ووطئها بعد موتها لم تحرم بنتها لان ذلك لايسمى دخولا وان تردد فيه الروياني (فان قيل) لم لم يعتبر الدخول في تحريم أصول البنت واعتبر في تحريمها الدخول (أجيب) بأن الرجل يبتلى عادة بمكالمة أمها عقب العقد لترتيب أموره فحرمت بالعقد ليسهل ذلك عليه بخلاف بنتها واستدخال الماء المحترم يثبت المصاهرة كالوطء وتحرم البنت المنفية باللعان وان لم يدخل بأمها لانها لاتنتفي عنه قطعا (وحلائل) أي أزواج (أبنائكم) واحدتها حليلة والذكر حليل سميا بذلك لان كل واحد منهما حلال لصاحبه وقيل سميا بذلك لان كل واحد يحل ازار صاحبه من الحل وهو ضد العقد وقوله تعالى (الذين من أصلابكم) احتراز عن حليلة المتبنى فانها لاتحرم على الرجل الذي تبناه فان النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد بن حارثة وكان تبناه صلى الله عليه وسلم لاعن حليلة ولده من الرضاع فانها تحرم عليه ولاعن حلائل أبناء الولد وان سفلوا *(تنبيه)* كل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين والوطء بشبهة النكاح فاذا وطئ امرأة بشبهة أو جارية بملك اليمين حرم على الواطئ أمها وبنتها وتحرم الموطوأة على أبي الواطئ وابنه

ولو زنى بامرأة لم تحرم أمها ولا بنتها على الزانى ولا تحرم الزانية على أبى الزانى وابنه كما قاله ابن عباس واليه ذهب مالك والشافعى وذهب قوم الى التحريم يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبى هريرة وهو قول أصحاب الرأى وهل المباشرة بشهوة كلمس وقبلة كالوطء فى تحريم الربيبة فيه قولان أحدهما وهو الاصح من مذهب الشافعى لا لان ذلك لا يوجب العدة فكذا لا يوجب الحرمة والثانى نعم لان ذلك كالوطء بجامع التلذذ بالمرأة ولانه استمتاع يوجب الفدية على المحرم فكان كالوطء وبهذا قال جمهور العلماء * ثم ذكر سبحانه وتعالى تحريم الجمع بقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الاختين) أى ولا يجوز للرجل أن يجمع بين أختين فى نكاح سواء كانتا من نسب أم رضاع سواء أنكحهما معا أم مترتبا فاذا انكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها وخرج بالجمع فى النكاح الجمع بملك اليمين فانه جائز لكن لا يجوز أن يجمع بينهما فى الوطء فاذا وطئ احداهما لم يحل له وطء الاخرى حتى يحرّم الاولى على نفسه ويلحق بالاختين بالسنة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من نسب أو رضاع ولو بواسطة قال صلى الله عليه وسلم لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى رواه الترمذى وغيره وصححوه ولما فيه من قطيعة الرحم وان رضيت بذلك فان الطبع يتغير واليه أشار صلى الله عليه وسلم فى خبر النهى عن ذلك بقوله انكم اذا فعلتم ذلك قطعتم ارحامهن كما رواه ابن حبان وغيره وضابط تحريم الجمع ابتداء ودواما هو كل امرأتين بينهما قرابة أو رضاع ولو فرضت احداهما ذكرا حرم الجمع بينهما بنكاح أو وطء بملك اليمين وقوله تعالى (الا ما قد سلف) استثناء عن لازم المعنى وهو المؤاخذة فكانه قال تعالى تؤاخذون بذلك الا ما قد سلف قبل النهى فلا تؤاخذون به أو منقطع أى لكن ما قد سلف من نكاح بعض ما ذكر فانه مغفور لكم ويؤيد هذا قوله تعالى (ان الله كان غفورا) لما سلف منكم قبل النهى (رحيما) بكم فى ذلك وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر من رواية ابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند السين والباقون بالادغام (و) حرمت (المحصنات) أى ذوات الازواج (من النساء) أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن سواء أكن حرائر أم لا مسلمات أم لا قال أبو سعيد الخدرى نزلت فى نساء كن هاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجهن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال (الا ما ملكت أيمانكم) أى من الاماء بالسبى فلكم وطؤهن وان كان لهن أزواج فى دار الحرب بعد الاستبراء لان بالسبى يرتفع النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدرى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشا الى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن وتحرجوا فأنزل الله هذه الآية * (فائدة) * قرأ الكسائى جميع ما فى القرآن من لفظ المحصنات ومحصنات بكسر الصاد الا هذا الحرف فانه فتح الصاد موافقة للجميع ووجه تسميتهن بذلك لانهن أحصن فروجهن بالتزويج فهن محصنات ومحصنات بالكسر فى غير هذه الآية وقوله تعالى (كتاب الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة التى

قبله وهي حرمت عليكم الخ أي كتب الله (عليكم) تحريم هؤلاء كتابا وقوله تعالى (وأحل لكم) عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله اذا قرئ بالبناء للفاعل كما قرأه غير حفص وحمزة والكسائي وأما هم فقرؤه بالبناء للمفعول عطفا على حرمت (ماوراء ذلكم) أي سوى ما حرم عليكم من النساء وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) مفعول له والمعنى أحل لكم ماوراء ذلكم ارادة أن تبتغوا أي تطلبوا النساء بأموالكم التي جعل الله لكم قياما في حال كونكم محصنين أي متزوجين غير مسافحين أي زانين لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين والاحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام والمسافح الزاني من السفح وهو صب المني وكان الفاجر يقول للفاجرة سافحيني ماذيني من المذي والاموال المهور وما يخرج في المناكح * (تنبيه) * يجوز ان يكون مفعول تبتغوا مقدرا وهو النساء كما قدرته لك قال الزمخشري والاجود ان لا يقدر وكأنه قيل أن تخرجوا أموالكم ويجوز أن يكون أن تبتغوا بدلا مما وراء ذلكم بدل اشتمال لان المبدل منه ذات والمبدل معنى والذات مشتملة عليه (فما) أي فمن (استمتعتم) أي تمتعتم (به منهن) أي ممن تزوجتم بالوطء (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن فان المهر في مقابلة الاستمتاع وقوله تعالى (فريضة) حال من الاجور بمعنى مفروضة أو صفة مصدر محذوف أي ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم) أنتم وهن (به من بعد الفريضة) فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق وقيل نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نسخت كان الرجل ينكح المرأة وقتا معلوما ليلة أو ليلتين أو أسبوعا بثوب أو غير ذلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتعه لها بما يعطيها وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس اني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء الا ان الله حرم ذلك الى يوم القيامة وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه قال لا أوتى برجل تزوج بامرأة الى أجل الا رجمتهما بالحجارة وعن ابن عباس انه قال هي محكمة أي لم تنسخ وكان يقرأ فما استمتعتم به الى أجل مسمى و يروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال اللهم اني أتوب اليك من قولي بالمتعة وقيل انها أبيحت مرتين وحرمت مرتين (ان الله كان عليما) بخلقه (حكيما) فيما دبره لهم (ومن لم يستطع منكم طولا) أي غنى وأصل الطول الفضل يقال لفلان على فلان طول أي زيادة فضل وقد طاله طولا فهو طائل كما قال القائل

لقد زادني حبا لنفسي انني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

ومنه قولهم هذا أمر ما تحته طائل أي شئ يعتد به مما له فضل وخطر ومنه الطول في الجسم لانه زيادة فيه كما ان القصر قصور فيه ونقصان والمعنى ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة (أن ينكح المحصنات) أي الحرائر وقوله تعالى (المؤمنات) جرى على الغالب فلا مفهوم له فان الحرائر الكتابيات كذلك (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أي امائكم المؤمنات

أى ومن لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة أى أو الكتابية كما مر فليتزوج الامة المؤمنة وظاهر الآية حجة للشافعى رضى الله عنه فى تحريم نكاح الامة على من ملك ما يجعله صداق حرة ومنع نكاح الامة الكتابية مطلقا وأول أبو حنيفة رضى الله عنه طول المحصنات بأن يملك فراشهن على أن النكاح هو الوطء وحمل قوله من فتياتكم المؤمنات على الافضل كما حمل عليه قوله المحصنات المؤمنات ومن أصحابنا من حمله أيضا على التقييد وجوز نكاح الامة لمن قدر على الحرة والكتابية دون المؤمنة حذرا من مخالطة الكفار وموالاتهم والمحذور فى نكاح الامة رق الولد ولانها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع الى الناكح ومهانة والعزة من صفات المؤمنين واما وطؤها بملك اليمين فجائز باتفاق *(فائدة)* قوله تعالى فمن ما ملكت من مقطوعة عن ما (والله أعلم بايمانكم) أى بتفاضل ما بينكم وبين ارقائكم فى الايمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم وربما كان ايمان الامة أرجح من ايمان الحرة والمرأة أفضل فى الايمان من الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الا فضل الايمان لا فضل الاحساب والانساب وهذا تأنيس بنكاح الاماء وترك الاستنكاف منه فانه العالم بالسرائر (بعضكم من بعض) أى أنتم واماؤكم سواء فى النسب والدين نسبكم من آدم ودينكم الاسلام فلا تستنكفوا من نكاحهن (فانكحوهن باذن أهلهن) أى مواليهن (وآتوهن أجورهن) أى أدوا اليهن مهورهن باذن أهلهن فحذف باذن لتقدم ذكره أو أدوا الى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لانه عوض حقه فيجب أن يؤدى اليه وقال مالك المهر للامة ذاهبا الى ظاهر الآية (بالمعروف) أى من غير مطل ولا اضرار وقوله تعالى (محصنات) أى عفيفات حال من ضمير فانكحوهن وهو محمول على الندب بناء على المشهور من جواز نكاح الزوانى (غير مسافحات) أى زانيات جهرا (ولا متخذات أخدان) أى اخلاء يزنون بها سرا جمع خدن وهو الصديق فى السر وقيل المسافحات اللاتى يزنين مع أى رجل وذوات الاخدان اللاتى يزنين مع معين وذلك بحسب ما كان فى الجاهلية (فاذا أحصن) قرأ شعبة وحمزة والكسائى أحصن بفتح الهمزة والصاد على البناء للفاعل أى تزوجن والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد على البناء للمفعول أى زوجن (فان أتين بفاحشة) أى زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أى الحرائر الابكار اذا زنين (من العذاب) أى الحد فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة ويقاس عليهن العبد (فان قيل) ما فائدة وجوب تنصف الحد عليهن بتقييده بتزوجهن اذ تنصيف العذاب لازم للامة الزانية تزوجت أم لا (أجيب) بأن فائدة ذلك بيان أن لا رجم عليهن أصلا وبأنه انما ذكر لبيان جواب سؤال اذ الصحابة رضى الله تعالى عنهم عرفوا مقدار حد الامة قبل التزوج دون مقداره بعده فسألوا عنه النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية وذهب بعضهم الى أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك اذا زنا أخذا بظاهر الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان عادت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها فان زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر (ذلك) أى نكاح الاماء عند عدم الطول (لمن

خشى

خشى) أى خاف (العنت) أى الزنا وأصله المشقة سمى به الزنا لانه سببها بالحد فى الدنيا أو العقوبة فى الاخرى (منكم) أيها الاحرار بخلاف من لم يخفه أما العبيد فيجوز لهم نكاح الاماء مطلقا لكن ان كان العبد مسلما فلابد أن تكون الامة مسلمة (وان تصبروا) عن نكاح الاماء متعففين (خير لكم) لئلا يصير الولد رقيقا وعن النبى صلى الله عليه وسلم الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت (والله غفور) لمن لم يصبر (رحيم) بأن وسع له فى ذلك (يريد الله ليبين لكم) شرائع دينكم ومصالح أموركم (ويهديكم) أى يرشدكم (سنن) أى شرائع (الذين من قبلكم) من الانبياء فى التحريم والتحليل فتتبعوهم (ويتوب عليكم) أى ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم (والله عليم) بكم (حكيم) فيما دبره لكم (والله يريد أن يتوب عليكم) ان وقع منكم تقصير فى دينه (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال السدى هم اليهود والنصارى وقال بعضهم هم المجوس لانهم يستحلون نكاح الاخوات وبنات الاخ والاخت فلما حرمهن الله قالوا فانكم تحلون بنات الخالة والعمة والخالة والعمة عليكم حرام فانكحوا بنات الاخ والاخت فنزلت وقال مجاهد هم الزناة (أن تميلوا) أى تعدلوا عن الحق (ميلا عظيما) بارتكاب ما حرم عليكم فتكونوا مثلهم (يريد الله أن يخفف عنكم) أى يسهل عليكم احكام الشرع وقد سهل كما قال تعالى ويضع عنهم اصرهم وقال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة أى السهلة (وخلق الانسان ضعيفا) لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات وعن سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من أحد قط الا أتاه من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت احدى عينى وأنا أعشو بالاخرى وان أخوف ما أخاف على فتنة النساء وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ثمان آيات فى سورة النساء خير لهذه الامة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ما يفعل الله بعذابكم (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار والربا وقوله تعالى (الا أن تكون تجارة) استثناء منقطع أى لكن أن تقع تجارة على قراءة الرفع وهى قراءة غير عاصم وحمزة والكسائى وأما هؤلاء فقرؤا بالنصب على كان الناقصة واضمار الاسم أى الا أن تكون الاموال تجارة (عن تراض منكم) أى فلكم ان تأكلوها (ولا تقتلوا أنفسكم) أى بارتكاب ما يؤدى الى هلاكها فى الدنيا والآخرة وقال الحسن يعنى اخوانكم أى لا يقتل بعضكم بعضا أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل نفسه بشئ فى الدنيا عذب به يوم القيامة وروى ان الله تعالى يقول بادرنى عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة وعن عمرو بن العاص انه تأوله فى التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم (ان الله كان بكم) يا أمة محمد (رحيما) حيث أمر بنى اسرائيل بقتل الانفس ونهاكم عنه (ومن يفعل ذلك) أى ما نهى عنه من قتل النفس وغيره من المحرمات

وقوله تعالى (عدوانا) حال أى متجاوزا للحلال وقوله تعالى (وظلما) تأكيد وقيل أراد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم ظلم الشخص نفسه بتعريضها للعقاب (فسوف نصليه) أى ندخله (نارا) يحترق فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) أى هينا لاعسر عليه فيه (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أى كلا منها وفسر جماعة الكبيرة بأنها ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أوسنة وقال جماعة هى المعصية الموجبة للحد والاول أولى لانهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال الامام هى كل جريمة تؤذن أى تعلم بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وقال سفيان الثورى الكبائر ما كان بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد ان الله قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتى وهى أشياء كثيرة قال ابن عباس هى الى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هى الى السبعمائة أقرب أى باعتبار أصناف أنواعها (نكفر عنكم سيآتكم) أى الصغائر وهى ما عدا الكبائر أى نكفر بفعل الطاعات كالصلاة والصوم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ولا بأس بذكر شئ من النوعين فمن الاول تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله وأمن مكره تعالى والقتل عمدا أو شبه عمد والكفر والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والافطار فى رمضان من غير عذر وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر وان قل والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به فى السرقة وكتمان الشهادة بلا عذر وضرب المسلم بغير حق وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب الصحابة وأخذ الرشوة والنميمة وأما الغيبة فان كانت فى أهل العلم أو حملة القرآن فهى من الكبائر والا فهى صغيرة ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على بيوت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث وكثرة الخصومات الا ان راعى حق الشرع فيها والضحك فى الصلاة والنياحة وشق الجيب فى المصيبة والتبختر فى المشى والجلوس بين الفساق ايناسا لهم وادخال مجانين وصبيان يغلب تنجيسهم نجاسة المسجد واستعمال نجاسة فى بدن أو ثوب لغير حاجة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل الكبائر الشرك وما عداه من الصغائر قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (وندخلكم مدخلا) قرأ نافع بفتح الميم أى موضعا (كريما) أى حسنا وهو الجنة وقرأ الباقون بضمها على المصدر بمعنى الادخال مع الكرامة

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) من جهة الدنيا والدين لئلا يؤدى الى التحاسد والتباغض لان ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد وبما يصلح للمقسوم له من بسط فى الرزق وقبض ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض فعلى كل

أحد أن يرضى بما قسم له علما بأن ما قسم له هو المصلحة ولو كان خلافه لكان مفسدة له ولا يحسد أخاه على حظه قال مجاهد قالت أم سلمة يا رسول الله ان الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعف ما لنا من الميراث فلو كنا رجالا غزونا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا فنزلت هذه الآية وقيل لما جعل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين فى الميراث قالت النساء نحن أحوج الى الزيادة من الرجال فانا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر فى طلب المعاش منا فنزلت وقال قتادة والسدى لما أنزل الله تعالى للذكر مثل حظ الانثيين قال الرجال انا لنرجو أن نفضل على النساء فى الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كما فضلنا عليهن فى الميراث فأنزل الله تعالى (للرجال نصيب) أى ثواب (مما اكتسبوا) أى بسبب ما عملوا من الجهاد (وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى من حفظ فروجهن وطاعة الله وطاعة أزواجهن فالرجال والنساء فى الاجر فى الآخرة سواء وذلك ان الحسنة تكون بعشر أمثالها يستوى فى ذلك الرجال والنساء وفضل الرجال على النساء انما هو فى الدنيا (واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله ما احتجتم اليه يعطكم من خزائنه التى لا تنفد فنهى الله عن التمنى لما فيه من دواعى الحسد والحسد أن يتمنى الشخص زوال النعمة عن صاحبها سواء تمناها لنفسه أم لا والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز قال صلى الله عليه وسلم لا حسد أى لا غبطة الا فى اثنتين الحديث (ان الله كان بكل شئ عليما) فهو يعلم ما يستحقه كل انسان فيفضل عن علم وتبيان (ولكل) من الرجال والنساء (جعلنا موالى) أى عصبة يعطون (مما ترك الوالدان والاقربون) لهم من المال فالوالدان والاقربون هم المورثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالى أى ورثة مما ترك أى من الذين تركهم فتكون ما بمعنى من ثم فسر الموالى فقال الوالدان والاقربون أى هم الوالدان والاقربون فعلى هذا القول الوالدان هم الوارثون (والذين عاقدت ايمانكم) والمعاقدة المعاهدة والمحالفة والايمان جمع يمين بمعنى القسم أو اليد وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم يد بعض على الوفاء والتمسك بالعهد ومحالفتهم ان الرجل كان فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمى دمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من مال الحليف وكان ذلك ثابتا فى ابتداء الاسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) أى أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ ذلك بقوله تعالى وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله وقال مجاهد أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث وعلى هذا الآية غير منسوخة لقوله تعالى أوفوا بالعقود وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم فتح مكة لا تحدثوا حلفا فى الاسلام وما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به فانه لم يزده الاسلام الا شدة قال الزمخشرى وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة خلافا للشافعى رحمه الله تعالى اهـ وقرأ غير عاصم وحمزة والكسائى عاقدت بألف بين العين والقاف وأما هؤلاء الثلاثة فقرؤا عقدت بغير ألف بمعنى عقدت عهودهم ايمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف

اليه مقامه ثم حذف كما حذف فى القراءة الاولى (ان الله كان على كل شئ شهيدا) أى مطلعا فخافوه (الرجال قوامون على النساء) أى يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين أحدهما وهبى والآخر كسبى وقد ذكر الاول بقوله تعالى (بما فضل الله بعضهم على بعض) أى بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة فى الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة فى مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم فى الميراث والاستبداد بالفراق والرجعة وعدد الازواج واليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم ثم ذكر الثانى بقوله تعالى (وبما أنفقوا من أموالهم) فى نكاحهن كالمهر والنفقة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لو أمرت أحدا أن يسجد لاحد لامرت الزوجة أن تسجد لزوجها وروى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار نشزت عليه زوجته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أفرشته كريمتى فلطمها فقال لتقتص منه فنزلت فقال أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير ورفع القصاص (فالصالحات) منهن (قانتات) أى مطيعات لازواجهن (حافظات للغيب) أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة أزواجهن من الفروج والبيوت والاموال وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك وان أمرتها أطاعتك وان غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها (بما حفظ الله) أى بما حفظهن الله حين أوصى بهن الازواج فى كتابه وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال استوصوا بالنساء خيرا أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب العظيم على حفظ الغيب وأوعدهن بالعذاب الشديد على الخيانة (واللاتى تخافون) أى تعلمون (نشوزهن) كما فى قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أو اثما (فعظوهن) أى خوفوهن كأن يقول لزوجته اتق الله فى الحق الواجب لى عليك واحذرى العقوبة ويبين لها أن النشوز يسقط النفقة والقسم (واهجروهن فى المضاجع) أى اعتزلوهن فى الفراش (واضربوهن) وان لم يتكرر النشوز ان أفاد الضرب والا فلا يضرب كما لا يضرب ضربا مبرحا ولا وجها ولا مهالك ومع ذلك فالاولى له العفو وخرج بالعلم بالنشوز ما اذا ظهرت اماراته فقط اما بقول كأن صارت تجيبه بكلام خشن بعد ان كان بلين واما بفعل كأن يجد منها اعراضا وعبوسا بعد تلطف وطلاقة وجه فانه يعظها بلا هجر وبلا ضرب لعلها تبدى عذرا أو تتوب عما وقع منها بغير عذر وخرج بالمضجع الهجر بالكلام فلا يجوز الهجر فوق ثلاثة أيام ويجوز فيها للخبر الصحيح لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث ان قصد بهجرها ردها لحظ نفسه فان قصد به ردها عن المعصية واصلاح دينها فلا تحريم اذ النشوز حينئذ عذر شرعى والهجر له فى الكلام جائز مطلقا ومنه هجره صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وصاحبيه ونهيه الصحابة عن كلامهم (فان اطعنكم) فيما يراد منهن (فلا تبغوا) أى لا تطلبوا (عليهن سبيلا) أى طريقا الى ضربهن ظلما

واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له رواه الطبراني وابن ماجه وغيرهما (ان الله كان عليا كبيرا) فاحذروه أن يعاقبكم ان ظلمتموهن فانه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم (وان خفتم) أي علمتم (شقاق) أي خلاف (بينهما) أي بين المرء وزوجه وذكرهما بضميرهما وان لم يجر ذكرهما لجري ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء واضافة الشقاق الى الظرف اما لاجرائه مجرى المفعول به كقوله ياسارق الليلة أهل الدار أو الفاعل كقولهم نهارك صائم (فابعثوا) أي أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما اليهما لكن برضاهما (حكما من أهله) أي أقاربه (وحكما) آخر (من أهلها) أي أقاربها لينظرا في أمرهما بعد اختلاء حكمه به وحكمها بها ومعرفة ما عندهما في ذلك ويصلحا بينهما أو يفرقا ان عسر الاصلاح على ما يأتي فان الاقارب أعرف ببواطن الاحوال وأطلب للصلاح *(تنبيه)* بعث الحكمين على سبيل الوجوب وكونهما من الاقارب على سبيل الندب وهما وكيلان لهما فاشترط رضاهما لا حكمان من جهة الحاكم لان الحال يؤدي الى الفراق والبضع حق الزوج والمال حق الزوجة وهما رشيدان فلا يولى عليهما في حقهما فيوكل هو حكمه بطلاق أو خلع وتوكل هي حكمها ببذل عوض وقبول طلاق ويشترط فيهما اسلام وحرية وعدالة واهتداء الى المقصود من بعثهما له وانما اشترط فيهما ذلك مع انهما وكيلان لتعلق وكالتهما بنظر الحاكم كما في أمينه ويسن كونهما ذكرين ولا يكفي حكم واحد (ان يريدا) أي الحكمان (اصلاحا يوفق الله بينهما) أي الزوجين أي ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى بورك في وساطتهما وأوقع الله بطيب أنفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والالفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة وقيل الضمير الاول للزوجين والثاني للحكمين أي ان يرد الزوجان اصلاحا يوفق الله بين الحكمين اختلافهما حتى يعملا بالاصلاح وقيل الضميران للحكمين أي ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل للزوجين أي ان أرادا الاصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الالفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله تعالى مبتغاه وان لم يرضيا ببعثهما ولم يتفقا على شيء أدب الحاكم الظالم واستوفى للمظلوم حقه (ان الله كان عليما) بكل شيء (خبيرا) بالبواطن كالظواهر فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق قال تعالى لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (واعبدوا الله) أي وحدوه وأطيعوه (ولا تشركوا به شيئا) أي شيئا من الاشراك جليا كان أو خفيا وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه انه قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس قال قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله تعالى اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال فان حق الناس على الله ان لا يعذبهم قال قلت يا رسول الله ألا أبشر الناس قال دعهم يعملون (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) أي برا ولين جانب (وبذي القربى) أي صاحب القرابة (واليتامى والمساكين) ويدخل في المساكين

الفقراء روى انه صلى الله عليه وسلم قال أنا وكافل اليتيم فى الجنة وفى رواية من مسح رأس يتيم ولم يمسحه الالله كان له بكل شعرة تمر عليها يداه حسنات ومن أحسن الى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين وقرن بين أصبعيه (والجار ذى القربى) أى القريب منك فى النسب أو الجوار (والجار الجنب) أى البعيد عنك فى النسب أو الجوار روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها انها قالت يارسول الله ان لى جارين فالى أيهما أهدى قال الى أقربهما منك بابا وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لابى ذر لاتحقرن من المعروف شيأ ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق واذا طبخت مرقة فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه يورثه (والصاحب بالجنب) أى الرفيق فى السفر كما قاله ابن عباس ومجاهد أو المرأة تكون معه الى جنبه كما قاله على والنخعى أو الذى يصحبك رجاء نفعك فى تعلم علم أو حرفة أو نحو ذلك كما قاله ابن جريج وابن زيد (وابن السبيل) أى المسافر لانه يلازم السبيل أو الضيف كما عليه الاكثر روى انه صلى الله عليه وسلم قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وفى رواية من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه (وما ملكت أيمانكم) أى من الارقاء من عبيد واماء روى أنه صلى الله عليه وسلم قال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل مايغلبه فان كلفه مايغلبه فليعنه عليه وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه الصلاة وما ملكت أيمانكم فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه (ان الله لا يحب من كان مختالا) أى متكبرا على الناس من أقاربه وأصحابه وجيرانه وغيرهم ولا يلتفت اليهم (فخورا) أى يتفاخر عليهم بما آتاه الله روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه خسف به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وفى رواية لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقوله تعالى (الذين) مبتدأ (يبخلون) أى بما يجب عليهم (ويأمرون الناس بالبخل) بذلك (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) من العلم والمال وهم اليهود بخلوا ببيان صفته صلى الله عليه وسلم وكتموها وكانوا يأتون رجالا من الانصار ويخالطونهم فيقولون لاتنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون مايكون وخبر المبتدأ محذوف تقديره لهم وعيد شديد ويصح أن يكون الذين بدلا من قوله من كان أو منصوبا على الذم أو مرفوعا عليه أى هم الذين وقرأ حمزة والكسائى بالبخل بفتح الباء والخاء والباقون بضم الباء وسكون الخاء (واعتدنا للكافرين) بذلك وبغيره (عذابا مهينا) أى ذا اهانة وضع الظاهر فيه موضع المضمر اظهارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بالله لكتمانه صفة النبى صلى الله عليه وسلم وكافر بنعمة الله عليه وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أنعم الله على عبد نعمة

أحب أن ترى نعمته على عبده وبنى عامل للرشيد قصرا حذاء قصره فنم به عنده فقال الرجل يا أمير المؤمنين ان الكريم يسره ان ترى أثر نعمته فأحببت ان أسرك بالنظر الى آثار نعمتك فأعجبه كلامه وقوله تعالى (والذين) عطف على الذين قبله (ينفقون أموالهم رئاء الناس) أى مرائين لهم (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى كالمنافقين ومشركى مكة المنفقين أموالهم فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم (ومن يكن الشيطان له قرينا) أى صاحبا يعمل بأمره كهؤلاء (فساء) أى فبئس (قرينا) هو حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر وزينه لهم كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين والمراد ابليس وأعوانه الداخلة فى باطن الانسان والخارجة عنه ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله) أى أى ضرر عليهم فى ذلك والاستفهام للانكار ولو مصدرية أى لا ضرر فيه وانما الضرر فيما هم عليه وقوله تعالى (وكان الله بهم عليما) وعيد لهم فيجازيهم بما عملوا (ان الله لا يظلم) أحدا (مثقال) أى وزن (ذرة) وهى أصغر نملة ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة أى لا ينتقص قدر ذلك من حسناته ولا يزيده فى سيآته كما قال تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ وفى ذكر المثقال ايماء الى أنه وان صغر قدره عظم جزؤه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه أدخل يده فى التراب فرفعها ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة (وان تك حسنة) أى وان يك المثقال حسنة (يضاعفها) أى ثوابها من عشر الى أكثر من سبعمائة وعن أبى عثمان النهدى أنه قال لابى هريرة بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته يقول ان الله يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزيه بها فى الآخرة قال وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا وفى رواية اذا خلص المؤمنون من النار وأمنوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه فى الحق يكون له فى الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم فى اخوانهم الذين أدخلوا النار قال يقولون ربنا اخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال فيقول اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم فيأتون فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النار صورهم فمنهم من أخذته النار الى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته الى ركبتيه فيخرجونهم فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا قال ثم يقول أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار ثم من كان فى قلبه وزن نصف دينار حتى يقول من كان فى قلبه مثقال ذرة قال أبو سعيد فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية ان الله الخ قال فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق أحد فى النار فيه خير ثم يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفعت الانبياء وشفعت المؤمنون وبقى أرحم الراحمين قال فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين ناسا لم يعملوا خيرا حتى احترقوا حتى صاروا حمما فيؤتى بهم الى ماء يقال له ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل وهى بكسر

الحاء المهملة وتجمع على حبب. قال فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ فى أعناقهم الخاتم عتقاء الله فيقال لهم ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شئ فهو لكم قال فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين قال فيقول الله تعالى فان لكم عندى أفضل منه فيقولون ربنا وما أفضل من ذلك فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم أبدا (فان قيل) لم أنث الضمير مع انه راجع للمثقال وهو مذكر (أجيب) بأنه أنثه لتأنيث الخبر أو لاضافة المثقال الى مؤنث وقيل ان الضمير راجع الى ذرة وهى مؤنثة لا الى مثقال وحذفت النون تشبيها بحروف العلة وقرأ نافع وابن كثير حسنة برفع التاء على كان التامة والباقون بنصبها على كان الناقصة وقرأ ابن كثير وابن عامر يضعفها بتشديد العين ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف العين وألف قبلها (ويؤت) أى يعط صاحب الحسنة (من لدنه) أى من عند الله على سبيل التفضل زائدا على ما وعد فى مقابلة العمل (أجرا عظيما) أى عطاء جزيلا وانما سماه أجرا لانه تابع للاجر مزيد عليه لا يثبت الا بثباته (فكيف) حال الكفار (اذا جئنا من كل أمة بشهيد) يشهد عليها بعملها وهو نبيها لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء) الشهداء (شهيدا) أى شاهدا تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك على مجامع قواعدهم وقيل هؤلاء اشارة الى المؤمنين لقوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وقيل الى الكافرين المستفهم عن حالهم وعن ابن مسعود أنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال حسبك (يومئذ) أى المجئ وهو يوم القيامة (يود) أى يتمنى (الذين كفروا وعصوا الرسول لو) أى أن (تسوى بهم الارض) كالموتى أو لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانوا هم والارض سواء وقال الكلبى يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش والطيور والسباع كونوا ترابا فتسوى بهن الارض فعند ذلك يتمنى الكافر أنه لو كان ترابا كما قال تعالى ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم تسوى بضم التاء للبناء للمفعول والباقون بالفتح بالبناء للفاعل مع حذف احدى التاءين فى الاصل وشدد السين نافع وابن عامر وخففها الباقون (ولا يكتمون الله حديثا) أى مما عملوه لان جوارحهم تشهد عليهم وقال الحسن انها مواطن ففى موطن لا يتكلمون ولا تسمع الا همسا وفى موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون ما كنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفى موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم وهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال سعيد بن جبير قال رجل لابن عباس انى أجد فى القرآن شيأ يختلف على فقال هات ما اختلف عليك قال قال الله تعالى فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وقال تعالى وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقال تعالى ولا يكتمون الله حديثا وقال والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا وقال تعالى أم السماء بناها الى قوله والارض بعد ذلك دحاها فذلك خلق السماء قبل خلق الارض ثم قال أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين الى طائعين فذكر فى هذه الآية خلق الارض قبل خلق السماء وقال

تعالى

تعالى وكان الله غفورا رحيما وقال وكان الله عزيزا حكيما فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فى النفخة الاولى قال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض فلا انساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون فى النفخة الآخرة ثم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأمّا قوله والله ربنا ما كنا مشركين ولا يكتمون الله حديثا فان الله يغفر لاهل الاخلاص ذنوبهم فقال المشركون تعالوا نقل لم نك مشركين فيختم على افواههم فتنطق أيديهم وأرجلهم فعند ذلك عرفوا انّ الله لا يكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض وخلق الارض فى يومين ثم خلق السماء ثم استوى الى السماء فسواهنّ فى يومين آخرين ثم دحا الارض فى يومين ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما فى يومين آخرين فقال خلق الارض فى يومين فخلقت الارض وما فيها من شئ فى أربعة أيام وخلقت السموات فى يومين وكان الله غفورا رحيما أى لم يزل كذلك فلا يختلف عليك القرآن فانّ كلا من عند الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة) أى لا تغشوها ولا تقوموا اليها واجتنبوها (وأنتم سكارى) من الشراب (حتى تعلموا ما تقولون) بأن تصحوا منه كقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقربوا الفواحش روى أنّ عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا فدعا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحا فأكلوا وشربوا فلما سكروا وجاء وقت صلاة المغرب فقدموا أحدهم يصلى بهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف لا هكذا الى آخر السورة فنزلت فكانوا لا يشربونها فى أوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون الا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون ثم نزل تحريمها وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهى المساجد وقيل أراد بالسكر سكر النوم ونهى عن الصلاة عند غلبة النوم قال صلى الله عليه وسلم اذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فانّ أحدكم اذا صلى وهو ينعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه وقوله تعالى (ولا جنبا) منصوب على الحال أى ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب بايلاج او انزال يقال رجل جنب وامرأة جنب ورجال ونساء جنب لانه يجرى مجرى المصدر لا أنه مصدر بل هو اسم مصدر لانه لم يستوف حروف الفعل لانّ فعله أجنب فمصدره اجنابا لا جنبا وأصل الجنابة البعد وسمى جنبا لانه يجتنب موضع الصلاة أو لمجانبته الناس وبعده منهم حتى يغتسل (الا عابرى) أى مجتازى (سبيل) أى طريق أو مسافرين (حتى تغتسلوا) أى فلكم أن تصلوا واستثناء المسافر له حكم آخر سيأتى وفى هذا دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث لانه غياه بقوله حتى تغتسلوا ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر عابرى سبيل بالمجتازين فيها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال أبو حنيفة لا يجوز له المرور الا اذا كان فيه الماء أو الطريق الى الماء (وان كنتم مرضى) أى مرضا يخاف معه من استعمال الماء فانّ الواجد كالفاقد (أو على سفر) أى مسافرين وأنتم جنب أو محدثون (أو جاء أحد منكم من الغائط) أى أحدثتم

بخروج الخارج من أحد السبيلين والغائط المكان المطمئن من الارض تقضى فيه الحاجة سمى باسمه الخارج للمجاورة (أولامستم النساء) قرأ حمزة والكسائى بغير ألف بين اللام والميم والباقون بألف واختلف فى معنى اللمس والملامسة فقال قوم هما التقاء البشرتين سواء أكان بجماع أم بغيره وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى وبه استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على أن اللمس ينقض الوضوء وقال قوم هما المجامعة وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة كنى باللمس عن الجماع لان باللمس يوصل الى الجماع (فلم تجدوا ماء) تطهرون به للصلاة بعد الطلب لانه لا يسمى غير واجد الا بعد الطلب وهذا راجع الى ما عدا المرضى (فتيمموا) أى بعد دخول الوقت (صعيدا طيبا) أى ترابا طاهرا أى طهورا أما المرضى فيتيممون مع حضور الماء لان وجوده بالنسبة اليهم كالعدم (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين منه بضربتين كما ثبت فى الحديث وقال الزجاج الصعيد وجه الارض ترابا كان أو غيره وان كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره والى هذا ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وأجاب عن قوله تعالى فى آية المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه أى بعضه وهو لا يتأتى فى الصخر الذى لا تراب عليه بأن من لابتداء الغاية قال الزمخشرى وقولهم انها لابتداء الغاية فيه تعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسى من الدهن ومن الماء ومن التراب الا معنى التبعيض قال والاذعان للحق أحق من المراء والتيمم من خصائص هذه الامة روى عن حذيفة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء وكان بدء التيمم ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى اذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس أبا بكر فقالوا ألا ترى ماصنعت عائشة أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على فخذى قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فعاتبنى أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده فى خاصرتى ولا يمنعنى من التحرك الا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فقال اسيد بن حضير وهو أحد النقباء ماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر فقالت عائشة فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته وفى رواية أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من أصحابه فى طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك اليه فنزلت فقال أسيد بن حضير جزاك الله خيرا فوالله ما نزل بك أمر قط الا جعل الله لك منه مخرجا وجعل للمسلمين فيه بركة وقوله تعالى

(ان الله كان عفوا غفورا) كناية عن الترخيص والتيسير لان من كانت عادته أن يعفو عن الخاطئين ويغفر لهم آثر ما كان ميسورا غير معسر (ألم تر) أى تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أى حظا يسيرا (من الكتاب) أى من علم التوراة وهم أحبار اليهود (يشترون) أى يختارون (الضلالة) على الهدى (ويريدون أن تضلوا) أيها المؤمنون (السبيل) أى تخطئوا طريق الحق لتكونوا مثلهم (والله أعلم) منكم (بأعدائكم) فيخبركم بهم لتجتنبوهم ولا تستصحبوهم فانهم أعداؤكم (وكفى بالله وليا) أى حافظا (وكفى بالله نصيرا) أى مانعا لكم من كيدهم وقوله تعالى (من الذين هادوا) بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب لانهم يهود ونصارى وقوله تعالى والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض أو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كقوله تعالى ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أو خبر مبتدا محذوف صفته (يحرفون الكلم عن مواضعه) أى من الذين هادوا قوم يحرفون أى يغيرون الكلم الذى أنزل فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم عن مواضعه التى وضع عليها بازالته عنها واثبات غيره فيها وفى المائدة من بعد مواضعه والمعنيان متقاربان قال ابن عباس كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألونه عن الامر فيخبرهم ويرى أنهم يأخذون بقوله فاذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه (ويقولون) للنبى صلى الله عليه وسلم اذا أمرهم (سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع غير مسمع) بمعنى الدعاء أى لا سمعت بصمم أو بموت أو بمعنى اسمع منا ولا نسمع منك أو بمعنى اسمع غير مسمع كلاما ترضاه (و) يقولون له (راعنا) يريدون به النسبة الى الرعونة وقد نهى عن خطابه صلى الله عليه وسلم بها وهى كلمة سب بلغتهم (ليا) أى تحريفا (بألسنتهم) أى يحرفون ما يظهرون من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير نفاقا (وطعنا) أى قدحا (فى الدين) أى الاسلام (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) بدل وعصينا (واسمع) أى فقط (وانظرنا) أى انظر الينا بدل راعنا (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) أى أعدل وأصوب (ولكن لعنهم الله) أى أبعدهم عن رحمته (بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) أى ايمانا قليلا لا يعبأ به وهو الايمان ببعض الآيات والرسل ويجوز أن يراد بالقلة العدم أو الا نفرا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) يخاطب اليهود (آمنوا بما نزلنا) أى القرآن (مصدقا لما معكم) أى التوراة وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وأصحابه وكعب بن أسد وقال يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله انكم لتعلمون ان الذى جئتكم به لحق قالوا ما نعرف ذلك وانصرفوا على الكفر فنزلت (من قبل أن نطمس وجوها) أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم (فنردها على أدبارها) أى فنجعلها كالاقفاء مطموسة مثلها أو ننكسها الى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة روى أن عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله ويده على وجهه وأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحول وجهى فى قفاى وكذلك

كعب الاحبار لما سمع هذه الآية أسلم فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه فقال يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيد هذه الآية (فان قيل) قد أوعدهم الله بالطمس ان لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك (أجيب) بأن هذا الوعيد باق و يكون طمس ومسخ فى اليهود قبل قيام الساعة أو أن هذا كان وعيدا بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رفع ذلك عن الباقين وقيل أراد به فى القيامة وقال مجاهد أراد بقوله نطمس وجوها أى نتركهم فى الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب والرد عن بصائر الهدى على أدبارها فى الكفر والضلالة (أو نلعنهم) أى نمسخهم قردة وخنازير (كما لعنا) أى مسخنا (أصحاب السبت) منهم قردة وخنازير (وكان أمر الله) أى قضاؤه (مفعولا) أى نافذا وكائنا فيقع لامحالة ما أوعدتم به ان لم تؤمنوا (ان الله لايغفر أن يشرك به) أى لايغفر الاشراك به قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما لما نزل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا قالوا يارسول الله والشرك فنزلت * ولما أخبر بعدله أخبر تعالى بفضله فقال (ويغفر ما دون ذلك) الامر الكبير العظيم من كل معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة سواء أتاب فاعلها أم لا ورهب بقوله اعلاما بأنه مختار لايجب عليه شئ (لمن يشاء) وقال الكلبى نزلت هذه الآية فى وحشى بن حرب وأصحابه وذلك انه لما قتل حمزة وذهب الى مكة ندم هو وأصحابه وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد ندمنا على ما صنعنا وانه ليس يمنعنا عن الاسلام الا انا سمعناك تقول وأنت بمكة والذين لايدعون مع الله الها آخر الآيات وقد دعونا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله قتلها وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزل الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما قرؤهما كتبوا اليه ان هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحا فنزل ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث بها اليهم فبعثوا اليه انا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله الآية فبعث بها اليهم فدخلوا فى الاسلام ورجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقبل منهم ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزة فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عنى فلحق وحشى بالشأم فكان بها الى أن مات (ومن يشرك بالله فقد افترى) أى ارتكب (اثما عظيما) أى كبيرا فالافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذا الاختلاق روى أن رجلا قال يارسول الله ما الموجبات قال من مات لايشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيأ دخل النار وروى أبو ذر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال وان زنا وان سرق قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق على رغم انف أبى ذر وكان أبو ذر اذا حدث بهذا قال وان رغم انف أبى ذر (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) قال الحسن وقتادة نزلت فى اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وقال الكلبى نزلت فى رجال من اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بأطفالهم فقالوا هل على هؤلاء ذنب قال لا قالوا والله ما نحن الا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار ويدخل فى الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله الا اذا كان لغرض صحيح وطابق الواقع كقول سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وقوله صلى الله عليه وسلم انى أمين فى السماء أمين فى الارض حين قال له المنافقون اعدل فى القسمة اكذابا لهم اذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه ولكن شتان بين من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم (بل الله) الذى له صفات الكمال (يزكى من يشاء) أى عاله من العلم التام والقدرة الشاملة والحكمة البالغة وأصل التزكية نفى ما يستقبح فعلا أو قولا (ولا يظلمون) أى ينقصون من أعمالهم (فتيلا) أى قدر ما يكون فى شق النواة قاله عكرمة عن ابن عباس فهو اسم لما فى شق النواة والقطمير اسم للقشرة التى على النواة والنقير اسم للنقطة التى تكون على ظهر النواة وقيل الفتيل من الفتل وهو ما يحصل بين الاصبعين من الوسخ عند الفتل * ولما أخبر سبحانه وتعالى أن التزكية انما هى اليه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (انظر) متعجبا (كيف يفترون) أى يتعمدون (على الله) الذى لا يخفى عليه شئ ولا يعجزه شئ (الكذب) من غير خوف منهم لذلك عاقبة ذلك (وكفى به) أى بهذا الكذب (اثما مبينا) أى بينا واضحا (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وهما صنمان بمكة لقريش وذلك أن كعب بن الاشرف خرج فى سبعين راكبا من اليهود الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فقال أهل مكة انكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فاسجدوا للآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام وأطاعوا ابليس فيما فعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد قال كعب اعرضوا على دينكم فقال أبو سفيان نحن ولاة البيت نسقى الحاج الماء ونقرى الضيف ونفك العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد فأنزل الله تعالى ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا أى حظا من الكتاب وهم كعب بن الاشرف وأصحابه يؤمنون بالجبت والطاغوت أى الصنمين (ويقولون للذين كفروا) وهم أبو سفيان وأصحابه (هؤلاء) أى أنتم (أهدى من الذين آمنوا) وهم محمد وأصحابه (سبيلا) اى اقوم دينا وأرشد طريقا (اولئك الذين لعنهم الله) اى طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) اى مانعا يمنع العذاب عنه بشفاعة اوغيرها *(تنبيه)* فى هؤلاء أهدى همزتان من كلمتين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة قرأ نافع وابن كثير

وابو عمرو بابدال الثانية ياء خالصة والباقون بالتحقيق (أم) منقطعة أى بل (لهم نصيب) أى حظ (من الملك) ومعنى الهمزة انكار أن يكون لهم شئ من الملك وجحد لما زعمت اليهود من ان الملك سيصير لهم ولو كان لهم نصيب منه (فاذا) أى فيتسبب عن ذلك أنهم (لا يؤتون الناس) أى واحدا منهم (نقيرا) ومرّ أنه النقرة فى ظهر النواة وهو مثل فى القلة كالفتيل والقطمير والمراد بالملك اما ملك الدنيا واما ملك الله كقوله تعالى قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وهذا مبالغة فى شحهم فانهم بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم اذا كانوا اذلاء منقادين ويصح أن يكون معنى الهمزة فى أم لانكار أنهم قد أوتوا نصيبا من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك وانهم لا يؤتون أحدا مما يملكون شيأ (أم) أى بل (يحسدون الناس) أى محمدا صلى الله عليه وسلم الذى جمع فضائل الناس الاولين والآخرين (على ما آتاهم الله من فضله) أى من النبوة والكتاب والنصرة والاعزاز وكثرة النساء أى يتمنون زواله عنه ويقولون لو كان نبيا لاشتغل عن النساء (فقد آتينا آل ابراهيم) وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم ومن آل ابراهيم موسى وداود وسليمان (الكتاب) أى ما أنزل اليهم (والحكمة) أى النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) فلا يبعد أن يؤتيه الله تعالى مثل ما آتاهم فكان لداود تسع وتسعون امرأة وكان لسليمان ألف وثلثمائة حرة وسبعمائة سرية وقيل المراد بالناس الناس جميعا وقيل العرب وحسدوهم لان النبى الموعود منهم وقيل النبى وأصحابه لان من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم على كمالهم ورشدهم (فمنهم) أى اليهود (من آمن به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه (ومنهم من صد) أى أعرض (عنه) فلم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) أى عذابا لمن لم يؤمن وقوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم) أى ندخلهم (نارا) كالبيان والتقرير لذلك (كلما نضجت) أى احترقت (جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى روى أن هذه الآية قرئت عند عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال عمر للقارئ أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدله الله تعالى فى ساعة مائة مرة قال عمر هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا (فان قيل) كيف تعذب جلود لم تكن فى الدنيا ولم تعص (أجيب) بأن المعاد انما هو الجلد الاول وانما قال جلودا غيرها لتبدل صفتها كما تقول صنعت من خاتمى خاتما غيره فالخاتم الثانى هو الاول الا أن الصناعة والصفة تبدلت روى أن ما بين منكبى الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع وروى أن ضرسه أو نابه مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (ليذوقوا العذاب) أى ليقاسوا شدته وقيل يخلق مكان ذلك الجلد جلد آخر والمعذب فى الحقيقة على كل حال هى النفس العاصية القائمة بالبدن لانها المدركة دونه (ان الله كان) ولم يزل (عزيزا) أى لا يعجزه شئ (حكيما) فى خلقه يعاقب على وفق حكمته (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات سندخلهم) أى بوعد لا خلف

فيه وربما أفهم التنفيس لهم بالسين دون سوف كما فى الكافرين انهم أقصر الامم مدة أو انهم أقصرهم أعمارا راحة لهم من دار الكدر الى محل الصفاء وانهم يدخلون الجنة قبل جميع الفرق الناجية من أهل الموقف (جنات) أى بساتين ووصفها بما يديم بهجتها ويعظم نضرتها وزهرتها فقال (تجرى من تحتها الانهار) أى ان أرضها فى غاية الرى كل موضع صالح لان يجرى منه نهر ولما ذكر قيامها وما به دوامها أتبعه بما تهواه النفوس من استمرار الاقامة بها فقال (خالدين فيها أبدا) وانما قدم تعالى ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لان الكلام فيهم وذكر المؤمنين بالعرض ولما وصف تعالى حسن الدار ذكر حسن الجار فقال تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الحيض والقذر (فان قيل) المطرد فى وصف جمع القلة لمن يعقل أن يكون بالالف والتاء فيقال مطهرات (أجيب) بأنه عدل عن ذلك الى الوحدة لافهام انهن لشدة الموافقة فى الطهر كذات واحدة (وندخلهم) أى فيها (ظلا) أى عظيما وأكده تعالى بقوله (ظليلا) أى متصلا لا فرج فيه منبسطا لا ضيق معه دائما لا تصيبه الشمس يوما ما ولا حر فيه ولا برد بل هو فى غاية الاعتدال وهو ظل الجنة جعلنا الله تعالى ومن يحبنا ونحبه من أهلها السابقين مع النبيين والصديقين وقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) خطاب يعم المكلفين والامانات وان نزلت يوم الفتح فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح ليدخلها فأبى وقال لو علمت أنه رسول لم أمنعه المفتاح فلوى على رضى الله تعالى عنه يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح الى عثمان ويعتذر ففعل ذلك وقال هاك خالدة تالدة فعجب من ذلك وقال عثمان أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق فقال قد أنزل الله فى شأنك قرآنا وقرأ عليه فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة تكون فى أولاد عثمان أبدا فلما مات عثمان دفعه الى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أيديهم الى اليوم والى يوم القيامة فالآية وان وردت فى سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع (واذا حكمتم بين الناس) أى قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم أو يرضى بحكمكم (أن تحكموا بالعدل) أى بالسواء بأن تأمروا من وجب عليه حق بأدائه الى من هو له فان ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل فى الظل الظليل أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل الحديث وروى ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر ولما أخبرهم بأمره زادهم رغبة بقوله (ان الله نعما) فيه ادغام ميم نعم فى ما النكرة الموصوفة أى نعم شيأ (يعظكم به) وهو تأدية الامانة والحكم بالعدل وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وكسرها الباقون واختلس كسر العين قالون

وأبو عمرو وشعبة (ان الله كان) أى ولم يزل ولا يزال (سميعا) لكل ما يقال (بصيرا) بكل ما يفعل (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان وبدأ بما هو العمدة فى الحمل على ذلك فقال (أطيعوا الله) أى فيما أمركم به (وأطيعوا الرسول) أى فيما بينه لكم (و) أطيعوا (أولى) أى أصحاب (الامر) أى الولاة (منكم) أى اذا أمروكم بطاعة الله ورسوله سواء كان ذلك فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وامراء السرية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وروى أنه صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع فقال اتقوا الله وصلوا رحمكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدّوا زكاة أموالكم وأطيعوا اذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وقيل المراد بأولى الامر أبو بكر وعمر لقوله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر وقال عطاء هم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان بدليل قوله تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل أصحابى وأمتى كالملح فى الطعام ولا يصلح الطعام الا بالملح قال الحسن فقد ذهب ملحنا فكيف نصلح وقيل المراد علماء الشرع لقوله تعالى ولو ردّوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (فان تنازعتم) أى اختلفتم (فى شئ فردوه الى الله) أى كتابه (والرسول) أى مدة حياته وبعد وفاته الى سنته أى اكشفوا عليه منهما والردّ الى الكتاب والسنة واجب ان وجد فيهما فان لم يوجد فسبيله الاجتهاد وقيل الرد الى الله والرسول أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى فان الايمان يوجب هذا (ذلك) أى الرد اليهما (خير) لكم من التنازع والقول بالرأى (وأحسن تأويلا) أى من تأويلكم بلا رد أو عاقبة (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة وأوقعوها فى أنفسهم (بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى التوراة والانجيل قال الاصبهانى ولا يستعمل أى الزعم فى الاكثر الا فى القول الذى لا يتحقق يقال زعم فلان كذا اذا شك فيه فلا يعرف كذبه أو صدقه (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) أى الباطل المغرق فى البطلان وقيل هو كعب بن الاشرف روى عن ابن عباس أن بشرا المنافق خاصم يهوديا فقال اليهودى ننطلق الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل الى كعب بن الاشرف فأبى اليهودى أن يخاصمه الا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا الى عمر رضى الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودى اختصمت انا وهذا الى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم انه يخاصم اليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال لهما عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل وأخذ سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق وقال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل عليه السلام ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق والطاغوت على هذا هو كعب بن الاشرف سمى بذلك

لفرط طغيانه أو لتشبيهه بالشيطان أو لان التحاكم اليه تحاكم الى الشيطان من حيث انه الحامل عليه (وقد) أى والحال انهم قد (أمروا) ممن له الامر فى كل ما أنزل اليك من كتاب وما قبله (أن يكفروا به) أى بالشيطان فمتى تحاكموا اليه كانوا مؤمنين به كافرين بالله وهو معنى قوله (ويريد الشيطان) أى بارادتهم ذلك التحاكم اليه (أن يضلهم) أى المتحاكم اليه (ضلالا بعيدا) أى بحيث لا يمكنهم معه الرجوع الى الهدى ولما ذكر ضلالهم بالارادة ورغبتهم فى التحاكم الى الطاغوت ذكر فعلهم فيه فى نفرتهم عن التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (واذا قيل لهم) أى من أى قائل كان وقرأ هشام والكسائى بضم القاف والباقون بالكسر وتقدم ذكر الادغام لابى عمرو (تعالوا) أى اقبلوا رافعين أنفسكم من وهاد الجهل الى شرف العلم (الى ما أنزل الله) أى الذى عنده كل شئ (والى الرسول) أى الذى تجب طاعته لاجل مرسله مع انه أكمل الرسل الذين هم أكمل الخلق رسالة (رأيت المنافقين يصدون) أى يعرضون (عنك) الى غيرك وأكد ذلك بقوله (صدودا) أى هو أعلى طبقات الصدود (فكيف) يكون حالهم (اذا أصابتهم مصيبة) أى عقوبة كقتل عمر رضى الله عنه المنافق (بما قدمت أيديهم) أى من التحاكم الى غيرك وعدم الرضا بحكمك ومن الكفر بغير ذلك أى أيقدرون على الاعراض والفرار منها لا وتم الكلام ههنا وقوله تعالى (ثم جاؤك) أى حين يصابون للاعتذار معطوف على يصدون وما بينهما اعتراض (يحلفون بالله ان) أى ما (أردنا) أى بالمحاكمة الى غيرك (الا احسانا) أى صلحا (وتوفيقا) أى تأليفا بين الخصمين ولم نرد مخالفتك وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم الى عمر الا أن يحسن الى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه بالتقريب فى الحكم دون الحمل على مر الحق (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) أى من النفاق والبغض للاسلام وأهله وان اجتهدوا فى اخفائه وكذبهم فى حلفهم وعذرهم (فأعرض عنهم) أى عن عتابهم بالصفح لانهم أقل من أن يحسب لهم حساب (و) لكن (عظهم) أى خوفهم الله القادر على استئصالهم (وقل لهم فى أنفسهم) أى فى شأنها أو خاليا بهم فان النصح فى السر أنجع (قولا بليغا) أى مؤثرا فيهم أى ازجرهم ليرجعوا عن كفرهم وقيل هذا منسوخ بآية القتال ولما أمر الله تعالى بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذم من حاكم الى غيره وهدده وختم تهديده بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاعراض عنه والوعظ له فكان التقدير فما أرسلناك وغيرك من الرسل الا للرفق بالامة والصفح عنهم والدعاء لهم على غاية الجهد والنصيحة عطف عليه قوله (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع) أى فيما يأمر به ويحكم لان منصبه الشريف يقتضى ذلك (باذن الله) أى بارادته من أنه يطاع فلا يعصى ولا يخالف (ولو أنهم اذ) أى حين (ظلموا أنفسهم) أى بالتحاكم الى الطاغوت أو غيره (جاؤك) أى تائبين (فاستغفروا الله) بالتوبة والاخلاص (واستغفر) أى شفع (لهم الرسول) اى اعتذروا اليه حتى انتصب لهم شفيعا وانما عدل عن الخطاب تفخيما لشأنه (لوجدوا الله توابا) عليهم (رحيما) بهم وقرأ أبو عمرو بادغام الراء فى اللام بخلاف عنه (فلا وربك) أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد القسم (لا يؤمنون) أى يوجدون هذا

الوصف ويجدونه (حتى يحكموك) أى يجعلوك حكما (فيما شجر) أى اختلف واختلط (بينهم)
من كلام بعضهم لبعض للتنازع حتى كانوا كأغصان الشجرة فى التداخل والتضايق
(ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا) أى نوعا من الضيق (مما قضيت) به عليهم (ويسلموا تسليما) أى
وينقادوا لك انقيادا بظواهرهم وبواطنهم وفى الصحيح ان الآية نزلت فى الزبير وخصم له من
الانصار وقد شهد بدرا فى شراج من الحرة كانا يستقيان بها النخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم
للزبير اسق يا زبير ثم ارسل الى جارك فغضب الانصارى وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك
فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر واستوف
حقك ثم ارسله الى جارك وقيل نزلت فى بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما الى عمر
(ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) كما أمرنا بنى اسرائيل أو تعرضوا بها للقتل بالجهاد
وان مصدرية أو مفسرة لان كتبنا فى معنى أمرنا وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى بكسر
النون فى الوصل والباقون بالضم (أو اخرجوا من دياركم) أى التى هى لاشباحكم كاشباحكم
لارواحكم توبة لربكم (مافعلوه) أى المكتوب عليهم أى انا ما كتبنا عليهم الا طاعة الله ورسوله
والرضا بحكمه ولو كتبنا عليهم القتل والخروج من الديار ما كان يفعله (الا قليل منهم) قال
الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم القليل والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ
النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال ان من أمتى لرجالا الايمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى
وقرأ ابن عامر قليلا بالنصب على الاستثناء والباقون بالرفع على البدل (ولو أنهم) أى هؤلاء
المنافقين (فعلوا ما يوعظون به) من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) فى عاجلهم
وآجلهم مما اختاروه لانفسهم (وأشد تثبيتا) أى تحقيقا لايمانهم (واذا) أى لو ثبتوا (لآتيناهم
من لدنا) أى من عندنا (أجرا عظيما) وهو الجنة (ولهديناهم صراطا مستقيما) يصلون بسلوكه
جنات القدس وتفتح لهم أبواب الغيب قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم
رواه أبو نعيم فى حليته روى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف
الحزن فى وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غير لونك فقال يا رسول الله ما بى مرض
ولا وجع غير أنى اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة وأخاف
أن لا أراك لانك ترفع مع النبيين وانى ان دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك وان لم
أدخل الجنة لا أراك أبدا فأنزل الله تعالى (ومن يطع الله) فى امتثال أوامره والوقوف عند
زواجره (والرسول) أى فى كل ما أراده فان منصب الرسالة يقتضى ذلك لاسيما من بلغ نهايتها
(فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم) أى معدود من حزبهم فهو بحيث اذا أراد زيارتهم أو رؤيتهم
وصل اليهم بسهولة وقوله تعالى (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بيان للذين حال
منه أو من ضميره قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم فى العلم والعمل وحث كافة الناس على

أن لا يتأخروا عنهم وهم الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال الى درجة التكميل ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقى النظر فى الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات الى أوج العرفان حتى اطلعوا على الاشياء وأخبروا عنها على ماهى عليه ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد فى اظهار الحق حتى بذلوا مهجتهم فى اعلاء كلمة الله تعالى ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته (وحسن) أى وما أحسن (أولئك) أى العالون الاخلاق السابقون (رفيقا) من الرفق وهو لين الجانب ولطافة الفعل وهو مما يستوى واحده وجمعه أى رفيقا فى الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وان كان مقرهم فى درجات عالية بالنسبة الى غيرهم روى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رجلا قال يا رسول الله الرجل يحب قوما ولم يلحق بهم قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وروى أيضا أن رجلا قال يا رسول الله متى الساعة قال وما أعددت لها فلم يذكر كثيرا الا أنه يحب الله ورسوله قال فأنت مع من أحببت وقوله تعالى (ذلك) أى كونهم مع من ذكر مبتدا خبره (الفضل من الله) أى تفضل به عليهم لا انهم نالوه بطاعتهم (وكفى بالله عليما) أى بجزاء من أطاعه أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قاربوا وسددوا واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (خذوا حذركم) من عدوكم أى احترزوا منه وتيقظوا له والحذر والحذر كالاثر والاثر (فانفروا) أى اخرجوا الى قتاله مسرعين (ثبات) أى جماعات متفرقين سرية فى اثر سرية جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة (أو انفروا جميعا) أى مجتمعين كوكبة واحدة قال البيضاوى والآية وان نزلت فى الحرب لكن يقتضى اطلاق لفظها وجوب المبادرة الى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات (وان منكم) الخطاب لعسكر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين منهم والمنافقين (لمن ليبطئن) أى ليتأخرن وليتثاقلن عن القتال وهم المنافقون كعبد الله بن أبى المنافق وأصحابه وانما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الايمان فى الجنسية والنسب واظهار الاسلام لا فى حقيقة الايمان (فان أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) هذا المتبطئ جهلا منه وغلطة (قد أنعم الله على اذ) أى حين (لم أكن معهم شهيدا) أى حاضرا فأصاب (ولئن) لام قسم (أصابكم فضل) أى فتح وظفر وغنيمة (من الله) الذى كل شئ بيده (ليقولن) نادما على مافاته من الاغراض الدنيوية وأكده تنبيها على فرط تحسره وقوله تعالى (كأن) مخففة واسمها محذوف أى كأنه (لم تكن بينكم وبينه مودة) أى معرفة وصداقة رجع الى قوله قد أنعم الله على اعتراض بين القول ومقوله وهو (يا) للتنبيه (ليتنى كنت معهم فأفوز) أى بمشاركتهم فى ذلك (فوزا عظيما) أى آخذ حظا وافرا من الغنيمة وقرأ ابن كثير وحفص بالتاء فى تكن على التأنيث والباقون بالياء على التذكير ولما بين أن محط رحال القاعد عن الجهاد الدنيا علم أن قصد المجاهد الآخرة فقال تعالى (فليقاتل فى سبيل الله) أى لاعلاء

دينه (الذين يشرون) أى يبيعون برغبة (الحياة الدنيا بالآخرة) وهم المؤمنون والمعنى ان تباطأ
هؤلاء عن القتال فليقاتل المجاهدون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة ويشرون أى يأخذون
وهم المتباطؤن فيختارونها على الآخرة والمعنى حثهم على ترك ما حكى عنهم وفى هذا استعمال
للمشترك فى مدلوليه (ومن يقاتل فى سبيل الله) لاعلاء دينه (فيقتل) أى يستشهد (أو يغلب)
أى يظفر بعدوه (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ثوابا جزيلا وانما وعده الاجر العظيم غلب
أو غلب ترغيبا فى القتال وتكذيبا القول المتبطئ قد أنعم الله على اذلم أكن معهم شهيدا وانما
قال فيقتل أو يغلب تنبيها على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة
أو الدين بالظفر والغلبة وان لا يكون قصده بالذات الى القتل بل الى اعلاء كلمة الحق واظهار
الدين روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته
الا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع
ما نال من أجر أو غنيمة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القانت
الصائم الذى لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجعه الله الى أهله انما يرجعه من غنيمة وأجر
أو يتوفاه فيدخله الجنة وقوله تعالى (وما لكم لا تقاتلون) استفهام توبيخ أى لا مانع لكم من
القتال (فى سبيل الله) لاعلاء دينه وقوله تعالى (والمستضعفين) عطف على اسم الله أى وفى
سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الاسر وصونهم عن العدو وقوله تعالى (من الرجال والنساء
والولدان) بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين حبسهم الكفار عن الهجرة واذوهم قال ابن
عباس كنت أنا وأمى منهم وانما ذكر الولدان مبالغة فى الحث وتنبيها على تناهى المشركين بحيث
بلغ أذاهم الولدان وان دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء حتى يشاركوا فى استنزال
الرحمة واستدفاع البلية وقيل المراد بهم العبيد والاماء وهم جمع وليد (الذين يقولون) أى
داعين يا (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) أى بالكفر (واجعل لنا من لدنك) أى من
عندك (وليا) يتولى أمرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) يمنعنا منهم وقد استجاب الله تعالى
دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج الى المدينة وبقى بعضهم الى أن فتحت مكة له صلى الله عليه وسلم
فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد بفتح الهمزة وكسر السين فحماهم ونصرهم
حتى صاروا أعز أهلها وكان حينئذ ابن ثمان عشرة سنة والقرية مكة والظالم صفتها وتذكيره
لتذكير ما أسند اليه فان اسم الفاعل أو المفعول اذا جرى على غير من هوله كان كالفعل يذكر
ويؤنث على حسب ما عمل فيه (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) أى فى طاعة الله (والذين
كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى فى طاعة الشيطان (فقاتلوا) أيها المؤمنون (أولياء
الشيطان) أى حزبه وجنوده وهم الكفار (ان كيد الشيطان) أى مكره بالمؤمنين (كان
ضعيفا) بالاضافة الى كيد الله تعالى بالكافرين لا يعتد به فلا تخافوا أولياءه فان اعتمادهم على
أضعف شئ وأوهنه كما فعل الشيطان يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن تأخذه فهرب وخذلهم
(ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) أى عن قتال الكفار وهم جماعة من الصحابة كانوا يلقون

من المشركين أذى كثيرا قبل أن يهاجروا ويقولون يارسول الله ائذن لنا في قتالهم فانهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا أيديكم فاني لم أومر بقتالهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فلما هاجروا الى المدينة وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم كما قال تعالى (فلما كتب) أي فرض (عليهم القتال) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم في الوصل وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم في الوصل وأما الوقف فالجميع يسكنون الميم وحمزة بضم الهاء على أصله وكسرها الباقون (اذا فريق منهم يخشون) أي يخافون (الناس كخشية الله) أي كخشيتهم من الله (أو أشد خشية) من خشيتهم له *(تنبيه)* نصب أشد على الحال وجواب لما دل عليه اذا وما بعدها أي فاجأتهم الخشية (وقالوا) جزعا من الموت (ربنا لم كتبت علينا القتال لولا) أي هلا (أخرتنا الى أجل قريب) وهو الموت أي هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك فقيل قاله قوم من المنافقين لان قوله لم كتبت علينا القتال لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا وأهل الايمان يتفاضلون فيه وقيل هم قوم كانوا مؤمنين فلما كتب عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد وقرأ البزي في الوقف لمه بهاء بعد الميم بخلاف عنه والباقون بالميم بغير هاء والهاء ساقطة في الوصل للجميع (قل) لهم يا محمد (متاع الدنيا) أي ما يتمتع به فيها والاستمتاع بها (قليل) أي آيل الى الزوال (والآخرة) أي ثوابها وهو الجنة والنظر الى الله تعالى (خير لمن اتقى) عقاب الله بترك معاصيه روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع (ولا تظلمون) أي تنقصون من أعمالكم (فتيلا) أي قدر ما يكون في شق النواة كما مر عن عكرمة وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ونزل في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا (أينما تكونوا) أيها الناس كلكم مطيعكم وعاصيكم (يدرككم الموت) أي فانه طالب لا يفوته هارب واختلف كتاب المصاحف في رسم اينما هنا فمنهم من كتب ما مقطوعة من اين ومنهم من وصلها (ولو كنتم في بروج) أي حصون برج داخل برج أو كل واحد منكم داخل برج (مشيدة) أي مرتفعة كل واحد منها شاهق في الهواء منيع فلا تخشوا القتال خوف الموت ونزل في اليهود لما قالوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة مازلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه (وان تصبهم) أي اليهود (حسنة) أي خصب ورخص في السعر (يقولون هذه من عند الله) لنا لا مدخل لك فيها (وان تصبهم سيئة) أي جدب وغلاء في الاسعار (يقولون هذه من عندك) أي من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر والسيئة القتل والهزيمة يوم احد يقولون هذه من عندك اي انت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا يكون هذا قول المنافقين (قل) لهم يا محمد (كل) اي الحسنة والسيئة (من عند الله) ثم عيرهم بالجهل فقال (فما لهؤلاء القوم) اي اليهود والمنافقين (لا يكادون

يفقهون) اى لا يقاربون ان يفهموا (حديثا) يوعظون به وهو القرآن لانهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا ان الكل من عند الله اوحديثا ما يلقى اليهم كبهائم لا افهام لهم وما استفهام تعجب من فرط جهلهم ونفى مقاربة الفعل اشد من نفيه (ما اصابك) اى أيها الانسان (من حسنة) اى نعمة دنيوية اواخروية (فمن الله) اتتك تفضلا منه والايمان احسن الحسنات قال الامام انهم اتفقوا على ان قوله ومن احسن قولا ممن دعا الى الله المراد به كلمة الشهادة (وما اصابك من سيئة) اى بلية وامر تكرهه (فمن نفسك) اتتك حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب (فان قيل) كيف الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك (اجيب) بأن قوله قل كل من عند الله اى الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك اى ما اصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم وقيل ان هذه الآية متصلة بما قبلها والقول فيه مضمر تقديره فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله (وارسلناك) يا محمد (للناس) أى كافة وقوله تعالى (رسولا) حال قصد بها التأكيد (وكفى بالله شهيدا) على ارسالك بنصب المعجزات ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أحبنى فقد أحب الله فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم نزل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لانه فى الحقيقة مبلغ والآمر هو الله تعالى (ومن تولى) اى اعرض عن طاعتك فلا يهمنك (فما أرسلناك) يا محمد (عليهم حفيظا) اى حافظا لاعمالهم وتحاسبهم عليها انما عليك البلاغ وعلينا الحساب فنجازيهم وهذا قبل الامر بالقتال (ويقولون) اى المنافقون اذا امرتهم بشئ من امرنا وهم بحضرتك (طاعة) اى امرنا وشأننا طاعة أى نطيعك فيما تأمرنا به (فاذا برزوا) أى خرجوا (من عندك بيت طائفة منهم) اى اضمرت (غير الذى تقول) لك فى حضورك من الطاعة اى عصيتك وقرأ ابو عمرو وحمزة بادغام التاء فى الطاء فانها عندهما ساكنة اى التاء فاذا اسكنت التاء قبل الطاء وجب ادغامها فيها والباقون بالاظهار فان التاء عندهم مفتوحة (والله يكتب) أى يأمر بكتب (ما يبيتون) أى ما يسرون من النفاق فى صحائفهم ليجازوا عليها (فأعرض عنهم) أى قلل المبالاة بهم (وتوكل على الله) أى ثق به فانه كافيك معرتهم وينتقم لك منهم (وكفى بالله وكيلا) اى مفوضا اليه (افلا يتدبرون) اى يتأملون (القرآن) وما فيه من المعانى البديعة (ولو كان من عند غير الله) اى ولو كان من كلام البشر كما زعم الكفار (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) اى تناقضا فى معانيه وتباينا فى نظمه فكان بعضه فصيحا وبعضه ركيكا وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل وتخلفا عن الصدق فى الاخبار عن الغيب عما كان وما يكون افلا يتفكرون فيه فيعرفون عدم التناقض فيه وصدق ما يخبرهم به انه كلام الله ولان ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف والمراد من التقييد بالكثير المبالغة فى اثبات الملازمة اى لو كان من عند غير الله للزم أن يكون فيه اختلاف كثير فضلا عن

القليل لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل (واذا جاءهم) اى المنافقين (امر) اى خبر عن سرايا النبى صلى الله عليه وسلم (من الامن) اى الغنيمة (او الخوف) اى القتل والهزيمة (اذاعوا به) اى افشوه وكانت اذاعتهم مفسدة والباء مزيدة ولتضمن الاذاعة معنى التحدث وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فاذا غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيفشونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين ويتأذى النبى صلى الله عليه وسلم (ولو ردوه) اى ذلك الخبر (الى الرسول) اى لم يحدثوا به حتى يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به (والى أولى الامر منهم) اى ذوى الرأى من الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم (لعلمه) على اى وجه يذكر أى (الذين يستنبطونه منهم) اى يستخرجون تدابيره بتجاربهم وانظارهم هل ينبغى ان يكتم او يفشى (ولولا فضل الله عليكم) بالاسلام (ورحمته) لكم بارسال الرسل وانزال القرآن (لاتبعتم الشيطان) فيما يأمركم به من الكفر والمعاصى (الا قليلا) اى منكم فانهم لا يتبعونه حفظا من الله بما وهبهم الله من صحيح العقل والعصمة تقال فى حق غير الانبياء أيضا لانها المنع من المعصية ولكن الشائع ان يقال فى حق النبى معصوم وفى حق غيره محفوظ (فقاتل) يا محمد (فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك) فلا تهتم بتخلفهم عنك اى قاتل ولو وحدك فانك موعود بالنصر من الله وليس النصر الا بيده وما كان ليأمر لشئ الا وأنت كفؤله فأنت كفؤ لمقاتلة الكفار وان كانوا أهل الارض كلهم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية * (تنبيه) * الفاء فى قوله تعالى فقاتل فى سبيل الله قال البغوى جواب عن قوله تعالى ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما فتأمل انتهى (وحرض المؤمنين) أى حثهم على القتال ورغبهم فيه اذ ما عليك فى شأنهم الا التحريض (عسى الله أن يكف بأس) أى حرب (الذين كفروا) وعسى فى كلام الله وعد واجب الوقوع بخلافها فى كلام المخلوق (والله أشد بأسا) أى صولة منهم (وأشد تنكيلا) أى عقوبة منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاخرجن ولو وحدى فخرج بسبعين راكبا الى بدر الصغرى فكف الله بأس الذين كفروا بالقاء الرعب فى قلوبهم ومنع أبا سفيان من الخروج كما تقدم فى سورة آل عمران (من يشفع شفاعة حسنة) راعى بها حق مسلم بأن دفع عنه بها ضررا أو جلب اليه نفعا ابتغاء وجه الله ومنها الدعاء للمسلم قال صلى الله عليه وسلم من دعا لاخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثله أى مثل ذلك أى ودعاء الملك لا يرد (يكن له نصيب) أى أجر (منها) أى بسببها قال أبو موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا اذ جاءه رجل يسأل أو يطلب حاجة أقبل علينا بوجهه فقال اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء (ومن يشفع شفاعة سيئة) مخالفة للشرع (يكن له كفل) أى نصيب من الوزر (منها) أى بسببها (وكان الله على كل شئ مقيتا) قال ابن

عباس مقتدرا مجازيا قال الشاعر

وذى ضغن (أى رب صاحب حقد) كففت الضغن عنه
وكنت على اساءته (اى اساءتى لذى الضغن) مقيتا

أى مقتدرا وقال مجاهد شاهدا وقال قتادة حفيظا وقيل معناه على كل حيوان مقيتا أى يوصل القوت اليه وجاء فى الحديث كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) التحية هى دعاء الحياة ولكن جمهور المفسرين على أن ذلك فى السلام أى اذا سلم عليكم مسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم فاذا قال السلام عليكم فيزيد الراد ورحمة الله فاذا قال ورحمة الله فيزيد الراد وبركاته (اوردوها) اى بأن ترد عليه بمثل ما سلم روى ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال آخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال آخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك أى السلام ورحمة الله وبركاته فقال الرجل نقصتنى اى الفضل على سلامى فأين ما قال الله اى من الفضل وتلا الآية فقال لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله لان ذلك هو النهاية لاستجماعه اقسام المطالب وهى السلامة من المضار وحصول المنافع وثبوتها وظاهر الآية انه لورد عليه بأقل مما سلم عليه به انه لا يكفى وظاهر كلام الفقهاء انه يكفى وتحمل الآية على انه الاكمل وابتداء السلام على المسلم سنة عين من المنفرد وكفاية من الجماعة ورده فرض عين اذا كان المسلم عليه واحدا وكفاية من الجماعة ويشترط فى الرد الفور والوجوب مستفاد من الامر والفور من الفاء وأما كونه كفاية فلخبر أبى داود يجزئ عن الجماعة اذا مروا أن يسلم احدهم ويجزئ عن الجلوس ان يرد احدهم والراد منهم هو المختص بالثواب ويسقط الحرج عن الباقين وان أجابوا كلهم كانوا مؤدين للفرض سواء كانوا مجتمعين ام متفرقين كصلاة الجنازة ولا يسقط الفرض برد الصبى المميز (فان قيل) قد سقط به فرض الصلاة عن الجنازة (أجيب) بأن المقصود من الصلاة الدعاء والصبى أقرب الى الاجابة والمقصود من السلام الامان والصبى ليس من أهله ولا يسقط أيضا برد من لم يسمع ولو سلم على امرأة ان كان يباح له النظر اليها كمحرمه وزوجته يسن له السلام عليها ووجب عليها الرد والا كره لها ابتداء وردا وحرم عليها ابتداء وردا هذا اذا كانت مشتهاة فان كانت عجوزا أو جماعة نسوة لم يكره ويجب الرد لانتفاء خوف الفتنة ولا يسن ابتداؤه على قاضى حاجة ولا على آكل ولا على من فى حمام ولا على مصل ومؤذن وخطيب وملب ومستغرق القلب بالدعاء ولا يجب الجواب عليهم ويحرم ابتداؤه على الكافر ويرد عليه اذا سلم بعليك فقط وهذا باب طويل قد بينته السنة وقد أكثرت منه فى شرح المنهاج (ان الله كان) أى ازلا وأبدا (على كل شئ حسيبا) أى محاسبا فيجازى عليه وقال مجاهد حفيظا وقال أبو عبيدة كافيا يقال حسبى هذا أى كفانى وقوله تعالى (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام لام القسم أى والله ليجمعنكم الله من قبوركم (الى) فى (يوم القيامة) وسميت بذلك لان الناس يقومون من قبورهم قال تعالى يوم يخرجون من الاجداث

سراعا وقيل لقيامهم الى الحساب قال تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين (لاريب) أى لاشك
(فيه) اى فى ذلك اليوم أى الجمع (ومن أصدق من الله حديثا) أى قولا (فان قيل) الصدق
لا يتفاوت كالعلم اذ لا يقال هذا الصدق أصدق من هذا الصدق كما لا يقال هذا العلم أعلم من هذا
العلم (أجيب) بان الصدق صفة للقائل لا صفة للحديث أى لا أحد غير الله أصدق منه لان غيره
يتطرق الى خبره الكذب وذلك مستحيل فى حقه تعالى والانبياء مخبرون عن الله تعالى وقرأ حمزة
والكسائى باشمام الصاد أى بحرف متولد بين الصاد والزاى (فمالكم) أى فما شأنكم صرتم
(فى المنافقين) أى فى أمرهم (فئتين) أى فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم وذلك ان ناسا منهم
استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى البدو لاجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا
راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا المشركين فاختلف المسلمون فى اسلامهم وقال مجاهد هم قوم
خرجوا الى المدينة واسلموا ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج الى مكة ليأتوا
ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة واختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون
وقائل يقول هم مؤمنون وقال قوم هى الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض
الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قتلهم فانهم منافقون وقال بعضهم اعف عنهم فانهم
تكلموا بالاسلام (والله أركسهم) أى نكسهم بأن صيرهم الى النار أو ردهم الى حكم الكفرة
(بما كسبوا) من الكفر والمعاصى (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) أى أتعدونهم من جملة
المهتدين والاستفهام فى الموضعين للانكار (ومن يضلل الله) أى ومن يضله الله (فلن تجد له
سبيلا) أى طريقا الى الهدى (ودوا) أى تمنوا (لو تكفرون كما كفروا فتكونون) أنتم وهم
(سواء) فى الكفر * (تنبيه) * قوله تعالى فتكونون لم يرد به جواب التمنى لان جوابه بالفاء منصوب
وانما أراد النسق أى ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء مثل قوله ودوا لو تدهن فيدهنون
أى ودوا لو تدهن وودوا لو يدهنون (فلا تتخذوا منهم أولياء) أى فلا توالوهم وان أظهروا
الايمان (حتى يهاجروا فى سبيل الله) معكم هجرة صحيحة تحقق ايمانهم قال عكرمة هى هجرة أخرى
والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين فى أول الاسلام وهى قوله تعالى للفقراء المهاجرين وقوله
تعالى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحوهما من الآيات وهجرة المنافقين وهى
خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا محتسبا لا لاغراض الدنيا وهى المرادة ههنا
وهجرة عن جميع المعاصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر ما نهى الله عنه (فان
تولوا) اى اعرضوا عن التوحيد والهجرة وأقاموا على ما هم عليه (فخذوهم) أى بالاسر
(واقتلوهم حيث وجدتموهم) أى فى حل أو فى حرم كسائر الكفرة (ولا تتخذوا منهم وليا) توالونه
(ولا نصيرا) تنتصرون به على عدوكم أى بل جانبوهم مجانبة كلية وقوله تعالى (الا الذين يصلون)
استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أى الا الذين يصلون أى ينتهون (الى قوم بينكم وبينهم ميثاق)
أى عهد بالامان لهم ولمن وصل اليهم كما عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقت خروجه الى مكة هلال
ابن عمير الاسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن لجأ اليه فله من الجوار مثل ماله وقوله تعالى

(أوجاؤكم) عطف على الصلة أى أو الذين جاؤكم وقوله تعالى (حصرت) أى ضاقت حال باضمار قد أى وقد ضاقت (صدورهم ان يقاتلوكم) أى عن قتالكم مع قومهم (أو يقاتلوا قومهم) معكم أى ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرضوا لهم بأخذ ولا قتل وهذا وما بعده منسوخ بآية القتال وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار تاء تأنيث حصرت عند الصاد وأدغمها الباقون (ولو شاء الله) تسليطهم عليكم (لسلطهم عليكم) بأن يقوى قلوبهم ويبسط صدورهم ويزيل الرعب (فلقاتلوكم) ولكنه لم يشأه فألقى فى قلوبهم الرعب (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم) أى بأن لم يتعرضوا لكم (وألقوا اليكم السلم) أى الاستسلام والانقياد (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا بالاخذ أو القتل (ستجدون) أى عن قريب بوعد لا شك فيه (آخرين) أى من المنافقين روى عن ابن عباس أنه قال هم أسد وغطفان كانوا حاضرى المدينة تكلموا بالاسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا أسلمت فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء واذا لقوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا انا على دينكم يريدون بذلك الامن من الفريقين كما قال تعالى (يريدون أن يأمنوكم) باظهار الايمان عندكم (ويأمنوا قومهم) باظهار الكفر اذا رجعوا اليهم (كلما ردوا) أى دعوا (الى الفتنة) أى الكفر (اركسوا) أى انقلبوا منكوسين (فيها) أى الفتنة أقبح قلب (فان لم يعتزلوكم) أى بترك قتالكم (ويلقوا) أى ولم يلقوا (اليكم السلم ويكفوا) أى ولم يكفوا (أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم) أى بالاسر (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى وجدتموهم (وأولئكم) أى أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى حجة واضحة فى التعرض لهم بالقتل والسبى لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا) أى ما ينبغى أن يصدر منه قتل له بغير حق (الا خطأ) أى مخطئا فى قتله من غير قصد نزلت فى عياش بن ربيعة وذلك انه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وأسلم ثم خاف أن يظهر الاسلام لاهله فخرج هاربا الى المدينة وتحصن فى أطم من آطامها فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لابنيها الحرث وأبى جهل ابنى هشام وهما أخواه لامه والله لا يظلنى سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى تأتيانى به فخرجا فى طلبه وخرج معهما الحرث بن زيد حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو فى الاطم وقالوا له انزل فان أمك لم يأوها سقف بيت بعدك وقد حلفت أن لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى ترجع اليها ولك والله علينا عهد أن لا نكرهك على شئ ولا نحول بينك وبين دينك فلما ذكروا له ذلك أى جزع أمه وأوثقوا بالله نزل اليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به الى أمه فلما أتاها قالت له والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذى آمنت به ثم تركوه موثوقا مطروحا فى الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذى أرادوا فأتاه الحرث بن زيد فقال يا عياش أهذا الذى أنت عليه فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا أبدا الا قتلتك ثم ان عياشا بعد ذلك أسلم وهاجر ثم أسلم الحرث بن زيد بعده وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينما عياش بظهر قباء اذ لقى الحرث فقتله فقال

الناس ويحك أى شئ صنعت انه قد أسلم فرجع عياش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له قد كان من أمرى وأمر الحرث ما قد علمت وانى لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزلت الآية (تنبيه) قوله تعالى الا خطأ اما منصوب على الحال أى وليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا فى حالة من الاحوال الا حال الخطا واما مفعول لاجله أى لا يقتله لعلة الا للخطا وقيل الا بمعنى ولا أى ليس له قتله فى حال من الاحوال ولا خطا نظيره قوله تعالى انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم وقوله لئلا يكون للناس على الله حجة الا الذين ظلموا منهم (ومن قتل مؤمنا خطأ) كان قصد رمى غيره كصيد أو شجر فاصابه (فتحرير رقبة) أى فعليه أى فواجبه تحرير رقبة كاملة الرق فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحة ولا أم ولد والتحرير الاعتاق ويعبر عن النسمة بالرقبة كما يعبر عنها بالرأس (مؤمنة) أى محكوم باسلامها وان كانت صغيرة ولو كان اسلامها بتبعية الدار أو السابى سليمة عما يخل بالعمل (ودية مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) أى ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث (الا أن يصدقوا) أى يتصدقوا بها عليه بأن يعفوا عنها وسمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله قال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وبينت السنة ان دية الخطا مائة من الابل عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وان عاقلة القاتل تحملها عنه وهم عصبته لا أصله وفرعه موزعة عليهم على ثلاث سنين على الغنى منهم نصف دينار والمتوسط ربع دينار كل سنة فان لم يفوا فمن بيت المال فان تعذر فعلى الجانى (فان كان) أى المقتول (من قوم عدو لكم) أى محاربين (وهو) أى والحال أنه (مؤمن) أى ولم يعلم القاتل ايمانه (فتحرير) أى فالواجب على القاتل تحرير (رقبة مؤمنة) ولا دية تسلم الى أهله اذ لا وراثة بينه وبينهم لانهم محاربون (وان كان) أى المقتول (من قوم) أى كفرة أيضا عدو لكم (بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد كأهل الذمة وهو كافر مثلهم (فدية) أى فالواجب فيه دية (مسلمة) أى مؤداة (الى أهله) وهى ثلث دية المؤمن ان كان نصرانيا أو يهوديا تحل مناكحته وثلثا عشرها ان كان مجوسيا أو كتابيا لا تحل مناكحته (وتحرير رقبة مؤمنة) على قاتله (فمن لم يجد) أى الرقبة بأن فقدها وما يحصلها به (فصيام) أى فالواجب عليه صيام (شهرين متتابعين) حتى لو أفطر يوما واحدا لغير حيض أو نفاس وجب الاستئناف ولم يذكر تعالى الانتقال الى الطعام كالظهار وبه قال الشافعى رضى الله تعالى عنه فى أصح قوليه وقوله تعالى (توبة من الله) نصب على المصدر أى وتاب عليكم توبة أو على المفعول له أى وشرع لكم ذلك توبة مأخوذة من تاب الله عليه اذا قبل توبته (وكان الله) أى ولم يزل (عليما) أى بأحوالكم وبما يصلحكم فى الدنيا والآخرة (حكيما) فيما دبره لكم من نصب الزواجر بالكفارات أو غيرها فالزموا أوامره وباعدوا زواجره لتفوزوا بالعلم والحكمة (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) بأن يقصد قتله بما يقتل غالبا عالما بايمانه (فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) أى أبعده من رحمته (وأعد له عذابا عظيما) فى النار وهذا مخصوص بالمستحل له كما قاله عكرمة وغيره ويؤيده ان الآية نزلت فى مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى

النجار ولم يظهر قاتله فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدفعوا اليه ديته فدفعوا اليه ثم حمل على مسلم فقتله ورجع الى مكة مرتدا والمراد من الآية التغليظ كقوله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين على تفسير من كفر بمن لم يحج وكقوله صلى الله عليه وسلم للمقداد لاتقتله فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله وانك بمنزلته قبل أن تقول الكلمة التى قال أوان هذا جزاؤه ان جوزى ولابدع فى خلف الوعيد لقوله تعالى ويغفر مادون ذلك لمن يشاء أو المراد بالخلود المكث الطويل فان الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لايدوم عذابهم ولهذا لم يذكر فى الآية أبدا وماروى عن ابن عباس أنه قال لاتقبل توبة قاتل المؤمن عمدا كما رواه الشيخان أراد به التشديد كما قاله البيضاوى اذروى عنه خلافه رواه البيهقى فى سننه وبينت آية البقرة ان قاتل العمد يقتل به وان عليه الدية ان عفى عنه وسبق قدرها وبينت السنة ان بين العمد والخطا قتلا يسمى شبه العمد وهو أن يقتله بما لايقتل غالبا فلا قصاص فيه بل فيه دية كالعمد فى الصفة والخطا فى التأجيل والحمل وهو أى العمد أولى بالكفارة من الخطا (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم) أى سافرتم للجهاد (فى سبيل الله فتبينوا) وروى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقى رجل يقال له مرداس لانه كان على دين المسلمين فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد هو الى الجبل فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فلما سمع التكبير علم انهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر ونزل وهو يقول لااله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد فقتله واستاق غنمه فنزلت ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلتموه ارادة مامعه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد فقال يارسول الله استغفرلى فقال وكيف بلا اله الا الله قال اسامة فمازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها على حتى وددت انى لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفرلى ثلاث مرات وقال اعتق رقبة وقال عكرمة عن ابن عباس قال مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم له فسلم عليهم قالوا ماسلم عليكم الا ليعوذ منكم فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقرأ حمزة والكسائى بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة وبالباء الموحدة مكان الياء المثناة تحت وبالتاء المثناة فوق مكان النون فهو من التثبت والباقون من البيان (ولاتقولوا لمن ألقى اليكم السلام) أى لمن حياكم بتحية الاسلام وقرأ نافع وابن عامر وحمزة بغير ألف بعد اللام من السلام أى الاستسلام والانقياد والباقون بالالف (لست مؤمنا) وانما فعلت ذلك متعوذا (تبتغون عرض الحياة الدنيا) أى تطلبون ماله الذى هو حطام سريع النفاد (فعند الله مغانم كثيرة) تغنيكم عن قتل مثله لماله (كذلك كنتم من قبل) أى أول مادخلتم فى الاسلام تفوهتم بكلمة الشهادة فحصنتم بها أموالكم ودماءكم من غير أن تعلم

مواطأة

مواطأة قلوبكم ألسنتكم (فمن الله عليكم) أى بالاشتهار بالايمان والاستقامة فى الدين (فتبينوا) أى وافعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل الله بكم ولا تبادروا الى قتلهم ظنا انهم دخلوا اتقاء وخوفا فان بقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم وتكريره تأكيد لتعظيم الامر بالتبيين وترتيب الحكم على ماذكر من حالهم (ان الله كان) ولم يزل (بما تعملون خبيرا) أى عالما به وبالغرض منه فيجازيكم به فلا تتساهلوا فى القتل واحتاطوا فيه (لا يستوى القاعدون) أى عن الجهاد حال كونهم (من المؤمنين) روى أن زيد بن ثابت أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها على فقال يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى أى تكسر ثم سرى عنه أى أزيل وكشف مابه من برحاء الوحى (غير أولى الضرر) أى من زمانة أو عمى أو نحوه فقال اكتب لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر وقرأ نافع وابن عامر والكسائى بنصب الراء على الحال من القاعدين أو الاستثناء والباقون بالرفع صفة للقاعدين لانه لم يقصد به قوم بأعيانهم بل أراد به الجنس كما فى قوله * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * فصح جعل غير صفة للقاعدين (والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة * (تنبيه) * فائدة ذكر قوله تعالى لا يستوى القاعدون الخ تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد فى الجهاد رفعا لرتبته واتقاء عن انحطاط منزلته وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال ان فى المدينة لاقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) لضرر (درجة) أى فضيلة لاستوائهما فى النية وزيادة المجاهد بالمباشرة (وكلا) من القاعدين لضرر والمجاهدين (وعد الله الحسنى) أى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم وانما التفاوت فى زيادة العمل المقتضى لمزيد الثواب (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) لغير ضرر (أجرا عظيما) ويبدل منه (درجات منه) أى منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وقوله تعالى (ومغفرة ورحمة) منصوبان بفعلهما المقدر (وكان الله) أى ولم يزل (غفورا) لاوليائه (رحيما) بأهل طاعته وروى أبو سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة قال فعجب بها أبو سعيد فقال أعدها يارسول الله ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فقال وما هى يارسول الله قال الجهاد فى سبيل الله وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يارسول الله أفلا ننذر الناس بذلك فقال ان فى الجنة مائة درجة

أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتموه فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وانما يجب الجهاد على كل مسلم مكلف حر ذكر مستطيع له وهو فرض كفاية للآية المتقدمة اذا كان الكفار ببلادهم ويجب على الامام أن يغزوهم فى كل عام مرة بنفسه أو بنائبه أو بشحن الثغور بما يقاوم العدو وأما اذا دخلوا بلادنا والعياذ بالله تعالى تعين على أهل البلدة وعلى من دون مسافة القصر حتى على فقير وولد ومدين ورقيق بلا اذن ويجب على من هو فى مسافة القصر بقدر الكفاية وان أسروا مسلما لزمنا النهوض لخلاصه ان رجى وان لم يدخلوا بلادنا * ونزل فى جماعة أسلموا ولم يهاجروا فلما خرجوا الى بدر رجعوا معهم فقتلوا مع الكفار (ان الذين توفاهم الملائكة) أى ملك الموت وأعوانه أو ملك الموت وحده كما قال تعالى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع (ظالمى أنفسهم) أى فى حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة بالمقام فى دار الشرك فان الهجرة كانت واجبة قبل فتح مكة ثم نسخ الوجوب بعد فتحها فقال صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقرأ البزى بتشديد التاء المثناة فوق من توفاهم فى الوصل والباقون بالتخفيف وأدغم أبو عمرو التاء فى الظاء بخلاف عنه والباقون بغير ادغام (قالوا) أى الملائكة لهم (فيم كنتم) أى فى أى شئ كنتم من أمر دينكم وقرأ البزى فيمه بالهاء بعد الميم فى الوقف بخلاف عنه (قالوا) معتذرين عما وبخوا به (كنا مستضعفين) أى عاجزين عن اظهار الدين واعلاء كلمته (فى الارض) أى فى أرض مكة (قالوا) أى الملائكة تكذيبا لهم وتوبيخا (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) من أرض الكفر الى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين الى المدينة والحبشة قال تعالى (فأولئك مأواهم جهنم) أى لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار (وساءت مصيرا) أى جهنم وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من اقامة دينه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان ما بينهما شبرا استوجبت أى وجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم * ثم استثنى أهل العذر منهم فقال (الا المستضعفين) أى الذين وجد ضعفهم فى نفس الامر وعدوا ضعفاء وتقوى عليهم غيرهم (من الرجال والنساء والولدان) ثم بين ضعفهم بقوله (لا يستطيعون حيلة) أى لا قوة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم (ولا يهتدون سبيلا) أى طريقا الى أرض الهجرة (فأولئك عسى الله أن يعفو) أى يتجاوز (عنهم) وعسى من الله واجب للاطماع والله تعالى اذا أطمع عبده بشئ أوصله اليه ولكن فى ذكر الاطماع والعفو ايذان بأن أمر الهجرة مضيق لا توسعة فيه حتى ان المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس كنت أنا وأمى ممن عذر الله أى من المستضعفين وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين فى كل صلاة قال أبو هريرة كان اذا قال سمع الله لمن حمده فى الركعة الاخيرة من صلاة العشاء قنت يقول اللهم أنج عياش بن ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام

اللهم أنج المستضعفين من المسلمين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا) أي متحولا يتحول اليه وقيل طريقا يراغم بسلوكه قومه أي يفارقهم على رغم انوفهم مأخوذ من الرغام والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الانف بالرغام وهو التراب يقال راغمت الرجل اذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك (و) يجد (سعة) في الرزق كما قال صلى الله عليه وسلم صوموا تصحوا وسافروا تغنموا أخرجه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولفظه واغزوا تغنموا وهاجروا تفلحوا ولما سمع هذه الآية رجل من بني قيس يقال له جندب بن ضمرة قال ما أنا ممن استثنى الله عز وجل واني لاجد حيلة ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة اخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فادركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات قال التفتازاني الظاهر أن هذه اشارة الى اليمين وهذه الى الشمال لا قصد اسناد الجارحة الى الله تعالى بل على سبيل التصوير وتمثيل مبايعة الله تعالى على الايمان والطاعة بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه وقيل اشارة الى البيعة والصفقة والمعنى أن بيعته كبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بيعة كبيعة الناس فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وافى المدينة كان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ما أدرك هذا ما طلب فنزل (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أي في الطريق قبل مقصده (فقد وقع أجره على الله) أي ثبت أجره عنده تعالى ثبوت الاجر الواجب تفضلا منه ورحمة (وكان الله غفورا) لتقصيره ان كان (رحيما) يكرم بعد المغفرة بأنواع الكرامات ولما أوجب الله السفر للجهاد والهجرة وكان مطلق السفر مظنة المشقة فكيف بسفرهما مع ما ينضم الى المشقة فيهما من خوف الاعداء ذكر تخفيف الصلاة بالقصر بقوله تعالى (واذا ضربتم) أي سافرتم (في الارض) سفرا طويلا لغير معصية والطويل عند الشافعي رحمه الله تعالى أربعة برد وهي مرحلتان كما ثبت ذلك بالسنة وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ثلاثة أيام ولياليهن بسير الابل ومشي الاقدام على القصد وقوله تعالى (فليس عليكم جناح) أي اثم وميل في (أن تقصروا من الصلاة) أي من أربع الى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء يدل على جواز القصر دون وجوبه ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر كما رواه الشافعي وغيره وعن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة حتى اذا قدمت مكة قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت فقال أحسنت يا عائشة وما عاب علي رواه الدارقطني وحسنه البيهقي وصححه وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر وأوجب القصر أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم رواه النسائي وابن ماجه ولقول عائشة رضي الله عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر رواه الشيخان (فان قيل) ظاهرهما يخالف الآية (أجيب) بأن

الاول مؤول بأن القصر كالتمام فى الصحة والاجزاء ومعنى الثانى لمن أراد الاقتصار عليهما جمعا بين الادلة وقوله تعالى (ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا) أى ينالوكم بمكروه بيان باعتبار الغالب فى ذلك الوقت فلا مفهوم له قال يعلى بن أمية قلت لعمر انما قال الله تعالى ان خفتم وقد أمن الناس قال قد عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته رواه مسلم (ان الكافرين كانوا) أى جبلة وطبعا (لكم عدوا مبينا) أى بين العداوة وقوله تعالى (واذا كنت) أى يا محمد حاضرا (فيهم) أى وأنتم تخافون العدو (فأقمت لهم الصلاة) تمسك بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم نبيه صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليقتدى به الائمة بعده فانهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره روى ان المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم وهى صلاة العصر فاذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل فقال يا محمد انها صلاة الخوف وان الله يقول واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وهى أنواع * الاول اذا كان العدو فى جهة القبلة ولا ساتر والمسلمون كثيرون فيصلى بهم الامام ثم يسجد بصف أول ويحرس صف ثان فاذا قاموا سجد من حرس ولحقه وسجد معه بعد تقدمه وتأخر الاول بلا كثرة أفعال فى الركعة الثانية وحرس الآخرون فاذا جلس للتشهد جلس الآخرون وتشهد وسلم بالجميع روى هذا النوع مسلم وقد صلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان وهى قرية على مرحلتين من مكة بقرب خليص سميت بذلك لعسف السيول فيها وجاز عكس هذه الكيفية * والنوع الثانى اذا كان العدو فى غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر فيصلى الامام بهم ركعتين مرتين كل مرة بفرقة كما قال تعالى (فلتقم طائفة منهم معك) أى وتتأخر طائفة (وليأخذوا) أى الطائفة التى قامت معك (أسلحتهم) معهم (فاذا سجدوا) أى صلوا (فليكونوا) أى هذه الطائفة الاخرى (من ورائكم) يحرسون الى أن تقضوا الصلاة وتذهب هذه الطائفة الاخرى تحرس (ولتأت طائفة أخرى) تحرس (لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) معهم الى أن تقضوا الصلاة وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل رواه الشيخان وهذه الصلاة وان جازت فى غير الخوف سنت فيه عند كثرة المسلمين وقلة عدوهم وخوف هجومهم عليهم فى الصلاة (فان قيل) أخذ الحذر وهو الخوف مع التحفظ مجاز وأخذ الاسلحة حقيقة فلا يجمع بينهما (أجيب) بأن أخذ الحذر حقيقة أيضا تنزيلا له منزلة الآلة على سبيل الاستعارة بالكناية فالجمع انما هو بين حقيقتين على أن الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز كما عليه الشافعى رضى الله تعالى عنه (فان قيل) لم ذكر أخذ الحذر فى الثانية دون الاولى (أجيب) بأن الكفار يتنبهون للثانية ما لا يتنبهون للاولى والنوع الثالث صلاة ذات الرقاع رواها الشيخان أيضا وهى والعدو فى غير جهة القبلة أو فيها وثم ساتر أن تقف فرقة فى وجه العدو ويصلى الامام بفرقة ركعة ثم عند قيامه للثانية تفارقه وتتم بقية صلاتها وتقف فى وجه العدو وتجىء تلك والامام

ينتظر اماما فيصلى بها ثانية فاذا جلس للتشهد قامت وأتت بركعة وتلحقه ويسلم بها ويصلى الثلاثية بفرقة ركعتين وبالثانية ركعة وهو أفضل من عكسه ويصلى الرباعية بكل فرقة ركعتين وبقى نوع رابع تقدم عند قوله تعالى فان خفتم فرجالا أو ركبانا (ود) أى تمنى (الذين كفروا لو تغفلون) اذا قمتم الى الصلاة (عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) بأن يحملوا عليكم فيأخذوكم وهذه علة الامر بأخذ السلاح ولما كان الله تعالى قد تفضل على هذه الامة ورفع عنها الحرج وكان المطر والمرض يشقان قال (ولا جناح) أى حرج (عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) لان حمل السلاح فى المطر يكون سببا لبله وفى المرض يزيد حملها المريض وهنا وهذا يفيد ايجاب حملها عند عدم العذر وهو أحد قولى الشافعى والثانى أنه سنة ورجح بشرط أن لا يؤذى ولا يحصل بترك حمله خطر ولا يمنع صحة الصلاة فان أذى كرمح وسط الصف كره حمله بل ان غلب على ظنه ذلك حرم وان حصل بتركه خطر وجب حمله ويمكن حمل الآية على هذه الحالة وكحمله وضعه بين يديه ان سهل مديده اليه بل يتعين ان منع حمله الصحة من نجس أو غيره (وخذوا حذركم) من العدو أى احترزوا منه ما استطعتم كيلا يهجم عليكم (فان قيل) كيف طابق الامر بالحذر قوله تعالى (ان الله أعد للكافرين عذابا) أى قتلا وأسرا ونهبا فى الدنيا (مهينا) أى ذا اهانة (أجيب) بأن الامر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واغتراره فنفى عنهم ذلك الايهام باخبارهم أن الله تعالى يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه لتقوى قلوبهم ويعلموا أن الامر بالحذر ليس لذلك وانما هو تعبد من الله تعالى كما قال تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ولما أعلمهم بما يفعلون فى الصلاة حال الخوف اتبع ذلك ما يفعلون بعدها لئلا يظن أنها تغنى عن مجرد الذكر فقال مشيرا الى تعقيبه (فاذا قضيتم الصلاة) أى فرغتم من فعلها وأديتموها على حالة الخوف أو غيرها (فاذكروا الله) أى بالتهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد (قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى مضطجعين أى اذكروه فى كل حال وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه وقيل صلوا قياما فى حال الصحة وقعودا فى حال المرض وعلى جنوبكم عند الجرح والزمانة (فاذا اطمأننتم) أى أمنتم مما كنتم فيه من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى أدوها بحقوقها على الحالة التى كنتم تفعلونها قبل الخوف (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا) أى مكتوبا أى مفروضا (موقوتا) أى مقدرا وقتها لا تؤخر عنه ولا تتقدم عليه قال صلى الله عليه وسلم أمنى جبريل عند البيت مرتين فصلى بى الظهر حين زالت الشمس والعصر حين كان ظله أى الشئ مثله والمغرب حين أفطر الصائم أى دخل وقت افطاره والعشاء حين غاب الشفق الاحمر والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظله مثله والعصر حين كان ظله مثليه والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء الى ثلث الليل والفجر فأسفر وقال هذا وقت الانبياء من قبلك رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره وقوله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر حين صار ظله مثله أى فرغ منها حينئذ كما شرع فى العصر فى اليوم الاول حينئذ قاله

الشافعي رضي الله عنه نافيا به اشتراكهما في وقت ويدل له خبر مسلم وقت الظهر اذا زالت
الشمس مالم يحضر العصر ونزل لما بعث صلى الله عليه وسلم طائفة في طلب أبي سفيان وأصحابه
لما رجعوا من أحد فشكوا الجراحات (ولا تهنوا) أي تضعفوا (في ابتغاء القوم) أي في طلب
أبي سفيان وأصحابه (ان تكونوا تألمون) أي تتوجعون من ألم الجراح (فانهم يألمون) أي
يتوجعون من الجراح (كما تألمون) ولم يجبنوا عن قتالكم فلا تجبنوا عن قتالهم (وترجون)
أنتم (من الله) من النصر والثواب على جهادكم (مالا يرجون) هم فأنتم تزيدون عليهم بذلك
فيجب أن تكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها (وكان الله عليما) بأعمالكم وضمائركم
(حكيما) أي فيما يأمر وينهى (انا انزلنا اليك الكتاب) أي القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق
بأنزل (لتحكم بين الناس بما أراك) الله أي عرفك وأوحى به اليك وليس أرى من الرؤية بمعنى
العلم والا لاستدعى ثلاثة مفاعيل وعن عمر رضي الله تعالى عنه لا يقولن أحدكم قضيت بما
أراني الله فان الله لم يجعل ذلك الا لنبيه ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان مصيبا لان الله تعالى كان يريه اياه وهو منا الظن والتكليف وروى الكلبي عن أبي
صالح عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في رجل من الانصار يقال له طعمة بكسر الطاء
وفتحها والاول أفصح ابن أبيرق من بني ظفر بن الحرث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن
النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه حتى انتهى الى الدار
ثم أخبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف
ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودي فأخذوها فقال
دفعها الي طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم واسألوه ان يجادل عن صاحبهم فقالوا ان لم تفعل افتضح صاحبنا فهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يفعل لانه برئ بحلفه وان يعاقب اليهودي لثبوت المال عنده وقيل هم أن يقطع يده
فقال تعالى (ولا تكن للخائنين) كطعمة (خصيما) أي مخاصما مدافعا عنهم (واستغفر الله) أي
مما هممت به أي من الذب عنه وهذا الاستغفار لا عن ذنب اذ هو منزه عن ذلك معصوم ولكن عن
مقام عال سام للارتقاء الى أعلى منه وأتم (ان الله كان غفورا رحيما) لمن يستغفره (ولا تجادل
عن الذين يختانون أنفسهم) أي يخونونها بالمعاصي لأن وبال خياناتهم عليهم (فان قيل) لم قال
للخائنين ويختانون أنفسهم والخائن واحد فقط (أجيب) بأنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان
خيانته أو ليتناوله وقومه فانهم شاركوه في الاثم حين شهدوا على براءته وخاصموا عنه وقيل
ان هذا خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كقوله تعالى فان كنت في شك مما
أنزلنا اليك والاستغفار في حق الانبياء بعد النبوة على احد وجوه ثلاثة اما الذنب تقدم على
النبوة أو لذنوب أمته أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار فالاستغفار يكون معناه
السمع والطاعة لحكم الشرع (ان الله لا يحب) أي يعاقب (من كان خوانا) أي كثير الخيانة
(أثيما) أي منهمكا فيه روى ان طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا ليسرق متاع أهله

فسقط الحائط عليه فقتله (فان قيل) لم قال خوانا أثيما على المبالغة (أجيب) بأن الله تعالى كان عالما من طعمة بالافراط فى الخيانة وركوب المآثم ومن كانت تلك خاقة أمره لم يشك فى حاله وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها أخوات وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة (يستخفون) أى طعمة وقومه يستترون ويستحيون ويخافون (من الناس ولا يستخفون) أى ولا يستحيون ولا يخافون (من الله) وهو أحق أن يستحيا ويخاف منه (وهو معهم) بعلمه لا يخفى عليه سرهم (اذ يبيتون) أى يدبرون ليلا على طريق الامعان فى الفكر والاتقان للرأى (ما لا يرضى من القول) أى من رمى اليهودى بالسرقة وشهادة الزور عليه والحلف الكاذب على نفيها (فان قيل) لم سمى التدبير قولا وانما هو معنى فى النفس (أجيب) بأنه لما حدث بذلك نفسه سمى قولا مجازا قال فى الكشاف ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذى حلف به بعد أن بيته (وكان الله بما يعملون محيطا) أى علما وقدرة لا يفوت عنه شئ وقوله تعالى (ها أنتم هؤلاء) خطاب لقوم طعمة أى يا هؤلاء (جادلتم) أى خاصمتم (عنهم) أى عن طعمة وذويه (فى الحياة الدنيا) أى بما جعل لكم من الاسباب (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) اذا عذبهم (أم من يكون عليهم وكيلا) يتولى أمرهم ويذب عنهم أى لا أحد يفعل ذلك *(فائدة)* اتفق كتاب المصاحف على قطع أم عن من (ومن يعمل سوأ) أى ذنبا يسوء به غيره كرمى طعمة اليهودى (أو يظلم نفسه) أى يعمل ذنبا يختص به لا يتعداه وقيل المراد بالاول الصغيرة والثانى الكبيرة (ثم يستغفر الله) أى يطلب من الله تعالى غفرانه بالتوبة بشروطها (يجد الله غفورا) أى محاء للزلات (رحيما) أى مبالغا فى اكرام من يقبل اليه كما فى الحديث عن الله من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ان هذه الآية نسخت من يعمل سوأ يجز به (ومن يكسب اثما) أى ذنبا (فانما يكسبه على نفسه) أى لان وباله راجع عليه اذ الله بالمرصاد فهو مجازيه عليه فلا يتعداه وباله قال تعالى وان أسأتم فلها (وكان الله عليما) بالغ العلم بدقيق ذلك وجليله فلا يترك شيأ منه (حكيما) فى صنعه فلا يجازيه الا بمقدار ذنبه (ومن يكسب خطيئة) أى ذنبا صغيرا أو ما لا عمد فيه (أو اثما) أى كبيرة أو ما كان عن عمد (ثم يرم به بريأ) أى ينسبه الى من لم يعمله كما فعل طعمة باليهودى (فقد احتمل) أى تحمل (بهتانا) أى خطر كذب يبهت المرمى به (واثما) أى ذنبا كبيرا (مبينا) أى بينا يكسبه بسبب رمى البرئ (ولولا فضل الله عليك) يا محمد (ورحمته) بالعصمة (لهمت طائفة منهم) أى من قوم طعمة أى همّا مؤثرا عندك (أن يضلوك) أى عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال بتلبيسهم عليك فلا ينافى ذلك أنهم قد هموا بذلك لان الهم المؤثر لم يوجد (وما يضلون الا أنفسهم) اذ وبال ذلك عليهم (وما يضرونك من شئ) فان الله عصمك وما خطر ببالك كان اعتمادا منك على ظاهر الامر لا ميلا فى الحكم *(تنبيه)* من شئ فى موضع نصب على المصدر أى شيأ من الضرر فمن مزيدة (وأنزل الله عليك

الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة فانها ليست قرآنا يتلى وفسرت أيضا بانها علم الشرائع وكل كلام وافق الحق (وعلمك مالم تكن تعلم) أى من المشكلات وغيرها غيبا وشهادة من أحوال الدين والدنيا (وكان فضل الله عليك عظيما) أى بهذا وبغيره من أمور لاتدخل تحت الحصر وفى هذا دليل على أن العلم من أشرف الفضائل (لا خير فى كثير من نجواهم) أى الناس قوم طعمة فانهم ناجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى الدفع عنه وكذا غيرهم (الا) نجوى (من أمر بصدقة) واجبة أومندوبة (أومعروف) أى عمل بر وقيل المراد بالصدقة الواجبة وبالمعروف صدقة التطوع (أواصلاح بين الناس) وسواء اصلاح ذات البين وغيرهم قال صلى الله عليه وسلم كلام ابن آدم كله عليه لاله الاما كان من أمر بمعروف أونهى عن منكر أوذكر الله وسمع سفيان رجلا يقول ما أشد هذا الحديث فقال ألم تسمع الله يقول لاخير فى كثير من نجواهم فهو هذا بعينه أوما سمعته يقول والعصر ان الانسان لفى خسر فهو هذا بعينه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة قلنا بلى يارسول الله قال اصلاح ذات البين وافساد ذات البين هى الحالقة وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ليس بالكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أونمى خيرا (ومن يفعل ذلك) أى هذا المذكور (ابتغاء) أى طلب (مرضاة الله) أى لا لغيره من أمور الدنيا لان الاعمال بالنيات (فسوف يؤتيه) أى الله فى الآخرة بوعد لاخلف فيه (أجرا عظيما) هو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وفى هذه الآية دلالة على أن المطلوب من أعمال الظاهر رعاية أحوال الباطن فى اخلاص النية وتصفية القلب من الالتفات الى غرض دنيوى وقرأ أبو عمرو وحمزة يؤتيه بالياء والباقون بالنون (ومن يشاقق الرسول) اى يخالفه فيما جاء به مأخوذ من الشق فان كلا من المتخالفين فى شق غير شق الآخر (من بعد ماتبين) اى ظهر (له الهدى) اى الدليل الذى هو سببه (ويتبع) طريقا (غير سبيل المؤمنين) اى طريقهم الذى هم عليه من الدين بأن يتبع غير دين الاسلام (نوله ماتولى) اى نجعله واليا لما تولاه بأن نخلى بينه وبينه فى الدنيا (ونصله) أى ندخله فى الآخرة (جهنم) يحترق فيها (وساءت مصيرا) أى مرجعا هى وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة نوله ونصله بسكون الهاء واختلس كسرة الهاء قالون ولهشام وجهان الاختلاس كقالون واشباع الحركة كباقى القراء (فان قيل) ما الحكمة فى فك الادغام فى قوله تعالى ومن يشاقق الرسول والادغام فى سورة الحشر فى قوله تعالى ومن يشاق الله (أجيب) بأن أل فى لفظ الجلالة لازم بخلافه فى الرسول واللزوم يقتضى الثقل فخفف بالادغام فيما صحبته الجلالة بخلاف ما صحبه لفظ الرسول (فان قيل) يرد هذا قوله تعالى فى سورة الانفال ومن يشاقق الله ورسوله (اجيب) أنه لما انضم الرسول الى الله صار المعطوف والمعطوف عليه كالشئ الواحد (ان الله لايغفر ان يشرك به) اى وقوع الشرك به من اى شخص كان وبأى شئ كان (ويغفر ما) اى كل شئ هو (دون ذلك) اى من سائر المعاصى لكن (لمن يشاء) لان جميع الامور بمشيئته روى ان شيخا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى شيخ منهمك فى الذنوب الا أنى لم

أشرك بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به ولم اتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصى بجراءة وما توهمت طرفة عين انى أعجز الله هربا وانى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله فنزلت (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة وابعدها عن الصواب والاستقامة وانما ذكر فى الآية الاولى فقد افترى لانها متصلة بقصة اهل الكتاب ومنشأ شركهم نوع افتراء وهو دعوى التبنى على الله (ان) اى ما (يدعون) اى يعبد المشركون (من دونه) اى غير الله (الا اناثا) وهى اللات والعزى ومناة وعن الحسن لم يكن حى من احياء العرب الا ولهم صنم يعبدونه ويسمونه انثى بنى فلان وقيل كانوا يقولون فى اصنامهم هن بنات الله وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله (وان) اى ما (يدعون) أى يعبدون بعبادتها (الا شيطانا مريدا) اى خارجا عن الطاعة وهو ابليس لانه الذى امرهم بعبادتها واغراهم عليها فكانت طاعته فى ذلك عبادة له (لعنه الله) أى ابعده عن رحمته (وقال) الشيطان المذكور (لأتخذن من عبادك نصيبا) أى حظا (مفروضا) أى مقطوعا ادعوهم فيه الى طاعتى قال الحسن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار (ولأضلنهم) أى عن طريقك السوى بما سلطتنى به من الوسواس وتزيين الاباطيل (ولأمنينهم) أى بكل ما أقدر عليه من الباطل من عدم البعث والحساب ولا جنة ولا نار وغيره وألقى فى قلوبهم طول الاعمار وبلوغ الآمال من الدنيا والآخرة بالرحمة والعفو والاحسان ونحوه مما هو سبب للتسويف بالتوبة (ولآمرنهم فليبتكن) أى يقطعن (آذان الانعام) كما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب التى حرموها على أنفسهم كانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حرموا على أنفسهم الانتفاع بها (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) أى فطرة الله التى هى دين الاسلام بالكفر واحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ويدخل فى ذلك اللواط والسحر والوشم وهو أن يغرز الجلد بابرة ويحشى بنحويلة والوشر وهو ان تحدد المرأة أسنانها وترققها ونحو ذلك وكالخصاء وهو حرام فى بنى آدم قال الزمخشرى وعند أبى حنيفة يكره شراء الخصيان وامساكهم واستخدامهم لان الرغبة فيهم تدعو الى خصائهم وأما فى البهائم فيجوز فى المأكول الصغير ويحرم فى غيره وقيل للحسن رحمه الله تعالى ان عكرمة يقول المراد هنا هو الخصاء فقال كذب عكرمة هو دين الله وعن ابن مسعود هو الوشم (ومن يتخذ الشيطان وليا) أى يتولاه ويطيعه (من دون الله) أى غيره (فقد خسر خسرانا مبينا) بينا لمصيره الى النار المؤبدة عليه (يعدهم) ما لا ينجزه بأن يخيل اليهم بما يصل الى قلوبهم بالوسوسة فى شئ من الاباطيل انه قريب الحصول فيسعون فى تحصيله فيضيع عليهم فى ذلك الزمان ويرتكبوا ما لا يحل من الاهوال والهوان (ويمنيهم) نيل الآمال فى الدنيا ولا بعث ولا جزاء (وما) أى والحال انه ما (يعدهم الشيطان) بذلك (الا غرورا) أى باطلا وهو اظهار النفع فيما فيه الضر وهذا الوعد اما بالخواطر أو بلسان أوليائه (أولئك) أى الشيطان وأولياؤه (مأواهم) أى مقرهم (جهنم) يحترقون فيها (ولا يجدون عنها محيصا) أى معدلا ومهربا * ولما ذكر ما للكافرين

ترهيبا اتبعه ما لغيرهم ترغيبا فقال (والذين آمنوا) أى أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات) أى الطاعات تصديقا لاقرارهم (سندخلهم) بوعد لا خلف فيه (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى لرى أرضها فحيثما أجرى منها نهر جرى (خالدين فيها) ولما كان الخلود يطلق على المكث الطويل دفع ذلك بقوله تعالى (أبدا) أى لا الى آخر (وعد الله حقا) أى وعدهم الله ذلك وهو قوله تعالى سندخلهم وحقه حقا (ومن) أى لا أحد (أصدق من الله قيلا) أى قولا وأكثر سبحانه وتعالى من التأكيد هنا لانه فى مقابلة وعد الشيطان ووعد الشيطان موافق للهوى الذى طبعت عليه النفوس فلا تنصرف عنه الا بعسر شديد * ونزل لما افتخر المسلمون وأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الانبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى (ليس) أى الامر منوطا (بأمانيكم) أيها المسلمون (ولا أمانى أهل الكتاب) بل بالايمان والعمل الصالح (من يعمل سوأ يجز به) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين وقالوا يارسول الله أينا لم يعمل سوأ غيرك فكيف الجزاء قال منه ما يكون فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كما ورد فى الحديث فمن يعمل حسنة فله عشر أمثالها ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشرة وبقى له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره وأما ما كان جزاء فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيآته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه الآية من يعمل سوأ يجز به (ولا يجد له من دون الله) أى غيره (وليا) أى يحفظه (ولا نصيرا) أى يمنعه منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر الا أقرئك آية نزلت على قلت بلى يارسول الله قال فأقرأنيها قال ولا أعلم انى قد وجدت انفصاما فى ظهرى حتى تمطيت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقلت يارسول الله بأبى انت وامى واينا لم يعمل سوأ وانا لمجزيون بكل سوء عملناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا أى بالبلاء والمحن كما مر حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا يوم القيامة (ومن يعمل) شيأ (من الصالحات) فان كل احد لا يتمكن من كلها وليس مكلفا بها وقوله تعالى (من ذكر أو انثى) فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أو من الصالحات أى كائنة من ذكر أو أنثى ومن للابتداء وقوله تعالى (وهو مؤمن) حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على انه لا اعتداد بالعمل الصالح دون اقترانه بها (فأولئك) اى العالو الرتبة (يدخلون) اى ندخلهم (الجنة) اى الموصوفة (ولا يظلمون نقيرا) قدر نقرة النواة من ثواب اعمالهم وان لم ينقص ثواب المطيع فبالحرى ان لا يزاد عقاب العاصى لان المجازى هو أرحم الراحمين ولذلك اقتصر على ذكره عقب الثواب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء (ومن) اى لا احد (احسن دينا ممن اسلم وجهه)

اى انقاد واخلص عمله (لله) فلا حركة ولا سكون الا فيما يرضاه وفى هذا الاستفهام تنبيه على ان ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية (وهو) أى والحال انه (محسن) اى مؤمن مراقب آت بالحسنات تارك للسيآت لانه يعبد الله كأنه يراه وقد اشتملت هذه الكلمات العشر على الدين كله اصلا وفرعا مع الترغيب بالمدح الكامل لمتبعه وافهام الذم الكامل لغيره (واتبع ملة ابراهيم) اى الموافقة لملة الاسلام وقوله تعالى (حنيفا) حال اى مائلا عن الاديان كلها الى الدين القيم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) اى صفيا خالص المحبة له وانما اعاد ذكره ولم يضمره تفخيما له وتنصيصا على انه الممدوح والخلة من الخلال فانه ود تخلل النفس وخالطها قال الزجاج الخليل الذى ليس فى محبته خلل والخلة الصداقة فسمى خليلا لان الله تعالى أحبه واصطفاه روى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يسمى ابا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس سنة فحشروا الى باب ابراهيم يطلبون الطعام وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالابل الى الخليل الذى بمصر فقال خليله لغلمانه لو كان ابراهيم يريده لنفسه لفعلت ولكن يريده للاضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه فمروا ببطحاء أى بأرض ذات حصى فقالوا لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس انا قد جئنا بميرة فانا نستحى ان نمر بهم وابلنا فارغة فملؤا تلك الغرائر ثم أتوا ابراهيم فلما أخبروه بذلك وسارة نائمة ساءه الخبر فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ما جاء الغلمان قالوا بلى فقامت الى الغرائر ففتحتها فاذا هو أجود حوارى أى وهو بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الراء الدقيق الذى نخل مرة بعد اخرى فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ ابراهيم فوجد رائحة الخبز فقال من أين هذا لكم فقالت من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله خليلا (ولله ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا يفعل فيهما ما يشاء (وكان الله بكل شئ محيطا) علما وقدرة أى ولم يزل متصفا بذلك فهما أراد كان فى وعد ووعيد للمطيع والعاصى لا يخفى عليه أحد منهم ولا يعجزه شئ (ويستفتونك) أى يطلبون منك الفتوى (فى) شأن (النساء) أى فى شأن اليتامى (قل الله يفتيكم) أى يبين لكم حكمه (فيهن) والافتاء تبيين المبهم (و) يفتيكم أيضا فى (ما يتلى عليكم فى الكتاب) أى القرآن من آية الميراث (فى يتامى النساء) اى فى شأن اليتامى (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب) أى فرض (لهن) أى من الميراث (وترغبون) أيها الاولياء (ان) أى فى ان أو عن ان (تنكحوهن) لجمالهن أو دمامتهن قالت عائشة رضى الله تعالى عنها هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل وهو وليها فيرغب فى نكاحها اذا كانت ذات جمال ومال باقل من سنة صداقها وان كانت مرغوبا عنها فى قلة المال والجمال تركها وفى رواية هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل قد شركته فى ماله فيرغب عنها أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه فى ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها فنهاهم الله تعالى عن ذلك (و) يفتيكم فى (المستضعفين) أى الصغار (من الولدان) أى أن تعطوهم حقوقهم لان العرب كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النساء

وقوله تعالى (وان تقوموا) فى محل نصب باضمار فعل أى ويامركم ان تقوموا (لليتامى) بالقسط أى العدل من الميراث وغيره والخطاب للائمة فى ان ينظروا لهم ويستوفوا حقهم أو للقوام بالنصفة فى شأنهم (وما تفعلوا من خير) أى فى ذلك أو غيره (فان الله كان به عليما) أى فيجازيكم عليه فانه اكرم الاكرمين فطيبوا انفسا وقروا اعينا قال سعيد بن جبير كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فاراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت له لا تطلقنى ودعنى على ولدى واقسم لى من كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لى فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان امرأة) مرفوع بفعل يفسره (خافت) أى توقعت (من بعلها) أى زوجها (نشوزا) أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أو اعراضا) بأن يقل محادثتها ومجالستها (فلا جناح عليهما) أى الزوج والزوجة (ان يصالحا بينهما صلحا) أى فى القسم والنفقة وهو ان يقول الزوج لها انك قد دخلت فى السن وانى أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك فى القسم ليلا ونهارا فان رضيتى بهذا فأقيمى وان كرهت خليت سبيلك فان رضيت كانت هى المحسنة ولا تجبر على ذلك وان لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان فان أمسكها ووفاها حقها مع كراهته فهو المحسن وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء وسكون الصاد ولا ألف من أصلح بين المتنازعين والباقون بفتح الياء وفتح الصاد مع التشديد وألف بعدها وفتح اللام وفيه ادغام التاء فى الاصل فى الصاد وغلظ ورش اللام من يصالحا بخلاف عنه (والصلح) بأن يترك كل منهما حقه أو بعض حقه (خير) من الفرقة والنشوز والاعراض كما روى أن سودة كانت امرأة كبيرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يفارقها فقالت لا تطلقنى وانما بى أن ابعث فى نسائك وقد جعلت نوبتى لعائشة فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ثم بين سبحانه وتعالى ما جبل عليه الانسان بقوله (وأحضرت الانفس الشح) أى جبلت عليه فكأنها حاضرة لا تغيب عنه فلا تكاد المرأة تسمح بالاعراض عنها والتقصير فى حقها ولا بنفسه بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغى اذ الزوج لا يكاد يسمح بنفسه اذا كرهها وخصوصا اذا أحب غيرها والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير (وان تحسنوا) أى فى عشرة النساء وان كنتم كارهين (وتتقوا) أى النشوز والاعراض ونقص الحق (فان الله كان) أزلا وأبدا (بما تعملون) أى من الاحسان والخصومة (خبيرا) أى عليما به وبالغرض منه فيجازيكم عليه (ولن تستطيعوا) أى توجدوا من أنفسكم طواعية بالغة دائمة (ان تعدلوا) أى تسووا بين (النساء) اى فى المحبة لان العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا املك رواه ابو داود وغيره وصححه الحاكم (ولو حرصتم) على تحرى ذلك وبالغتم فيه (فلا تميلوا) أى الى التى تحبونها (كل الميل) فى القسم

والنفقة

والنفقة فان مالايدرك كله لايترك كله (فتذروها) أى تتركوا المرأة الممال عنها (كالمعلقة) أى التى لاهى أيم ولاذات بعل وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كان له امرأتان يميل الى أحداهما جاء يوم القيامة واحدى شقيه مائل رواه أبوداود وغيره وصححه الحاكم وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه بعث الى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بمال فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها الى كل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بعث عمر مثل هذا قالوا لابعث الى القرشيات بمثل هذا والى غيرهن بغيره فقالت ارفع رأسك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا فى القسمة بماله ونفسه فرجع الرسول فأخبره فأتم لهن جميعا وكان لمعاذ رضى الله تعالى عنه امرأتان فاذا كان عند احداهما لم يتوضأ فى بيت الاخرى فماتتا فى الطاعون فدفنهما فى قبر واحد (وان تصلحوا) أى ما كنتم تفسدون من أمورهن (وتتقوا) فيما يستقبل (فان الله كان غفورا) أى لما فى قلوبكم من الميل (رحيما) بكم فى ذلك وغيره فانه أرحم الراحمين (وان يتفرقا) أى يفترق كل من الزوجين من صاحبه بالطلاق (يغن الله كلا) منهما عن الآخر ببدل بأن يرزقها زوجا ويرزقه غيرها أوسلوا (من سعته) أى من فضله وكرمه (وكان الله واسعا) أى واسع الفضل والرحمة بخلقه (حكيما) أى فيما دبره لهم وفى قوله تعالى (ولله مافى السموات ومافى الارض) أى ملكا وعبيدا تنبيه على كمال سعته وقدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) أى جنس الكتب (من قبلكم) أى اليهود والنصارى ومن قبلهم وقوله تعالى (واياكم) عطف على الذين وهو خطاب لاهل القرآن (أن اتقوا الله) أى بأن اتقوا الله أى خافوا عقابه بأن تطيعوه وقوله تعالى (وان تكفروا) أى بما وصيتم به (فان لله مافى السموات ومافى الارض) على ارادة القول قال التفتازانى لان الجملة الشرطية لاتصح أن تقع بعد أن المصدرية فلايصح عطفها على الواقع بعدها أى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا فان الله مالك الملك كله لايتضرر بكفركم ومعاصيكم كما لاينتفع بشكركم وتقواكم وانما يوصيكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله تعالى (وكان الله غنيا) عن الخلق وعبادتهم (حميدا) فى ذاته حمد أولم يحمد (ولله مافى السموات ومافى الارض وكفى بالله وكيلا) أى شهيدا بأن مافيهما له (فان قيل) مافائدة تكرير لله مافى السموات ومافى الارض (أجيب) بأن لكل واحدة منها وجها أما الاول فمعناه لله مافى السموات ومافى الارض وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته وأما الثانى فمعناه لله مافى السموات ومافى الارض وكان الله غنيا حميدا أى هو الغنى المطلق فاطلبوا منه ماتطلبون فانه لاينفد ماعنده وأما الثالث فمعناه لله مافى السموات ومافى الارض وكفى بالله وكيلا ولاتتوكلوا على غيره فذكرت كل مرة دليلا على شئ غير الذى قبله وكررت لان الدليل الواحد اذا كان دالا على مدلولات كثيرة يحسن أن يستدل به على كل واحد منها واعادته مع كل واحد أولى من الاكتفاء بذكره مرة واحدة لان اعادته تحضر فى الذهن مايوجب العلم بالمدلول فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجل وفى ختم كل جملة بصفة من الصفات الحسنى تنبيه الذهن بها الى أن هذا الدليل محتوعلى أسرار شريفة ومطالب جليلة لاتنحصر

فيجتهد السامع فى التفكر لاظهار الاسرار والاستدلال على صفات الكمال لان الغرض الكلى من هذا الكتاب صرف العقول والافهام عن الاشتغال بغير الله الى الاستغراق فى معرفته سبحانه وتعالى وهذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده (ان يشأ يذهبكم) أى يفنكم (أيها الناس) كما أوجدكم (ويأت بآخرين) أى ويوجد قوما آخرين مكانكم أو خلقا آخرين مكان الانس (وكان الله على ذلك) أى الاعدام والايجاد (قديرا) أى بليغ القدرة لا يمتنع عليه شئ أراده وقيل هذا خطاب لمن كان يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ان يشأ يمتكم ويأت بناس آخرين يوالونه وروى أنه لما نزلت ان يشأ يذهبكم الآية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا أى سلمان وهم بنو فارس (من كان يريد ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية كالمجاهد يجاهد للغنيمة لقصور نظره على الخسيس الحاضر مع خسته كالبهائم (فعند الله ثواب الدنيا) الخسيسة الفانية (والآخرة) النفيسة الباقية لا عند غيره فماله يطلب الخسيس فليطلبهما منه كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب الاشرف منهما فان من غلب همته فأقبل بقلبه اليه وقصر همه عليه جمع له سبحانه وتعالى بينهما كمن يجاهد لله خالصا يجمع له بين الآخرة والمغنم (وكان الله سميعا) أى بالغ السمع لكل قول وان خفى (بصيرا) أى بالغ البصر لكل ما يبصر وان خفى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أى قائمين قياما بليغا مواظبا عليه مجتهدا فيه (بالقسط) أى بالعدل (شهداء لله) بالحق أى تقيمون شهاداتكم لوجه الله (ولو) كانت الشهادة (على انفسكم) فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق ولا تكتموه (أو الوالدين والاقربين) أى ولو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم (ان يكن) أى المشهود عليه (غنيا) فلا يمنع الشهادة عليه لغناه طلبا لرضاه (أو فقيرا) فلا يمنع ترحما عليه (فالله أولى بهما) أى الغنى والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة لهما أو عليهما صلاحا لما شرعها * (تنبيه) * الضمير فى بهما راجع الى ما دل عليه المذكور وهو جنس الغنى والفقير لا اليهما والا لوحد الضمير لكون العطف بأو فكأنه قال فالله أولى بجنس الغنى والفقير أى بالاغنياء والفقراء (فلا تتبعوا الهوى) أى فى شهاداتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه أو الفقير رحمة له (أن تعدلوا) أى ارادة ان تعدلوا فقد بان لكم أن لا عدل فى ذلك أو لئلا تعدلوا أى تميلوا عن الحق (وان تلووا) أى ألسنتكم لتحرفوا الشهادة (أو تعرضوا) أى عن آدائها (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم به وقرأ ابن عامر وحمزة بضم اللام وحذف الواو الاولى والباقون بسكون اللام وواوين الاولى مضمومة (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) أى داوموا على الايمان (بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) على الرسل بمعنى الكتب أى آمنوا بجميع كتب الله المنزلة وقيل ان الخطاب فى ذلك لاهل الكتاب روى ان ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم بل آمنوا بالله ورسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم النون من نزل وضم الهمزة من أنزل وكسر الزاى فيهما والباقون بفتح النون والهمزة وفتح الزاى فيهما (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه) التى أنزلها على أنبيائه (ورسله) أى من الملائكة والبشر (واليوم الآخر) أى الذى أخبرت به رسله وهو يوم القيامة أى ومن يكفر بشئ من ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق بحيث لا يكاد يعود اليه وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار دال قد عند الضاد والباقون بالادغام (انّ الذين آمنوا) أى بموسى وهم اليهود (ثم كفروا) حين عبدوا العجل (ثم آمنوا) بعد عود موسى اليهم (ثم كفروا) بعيسى (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (لم يكن الله ليغفر لهم) أى ما داموا على هذه الحالة لانه لا يغفر أن يشرك به (ولا ليهديهم سبيلا) أى طريقا الى الحق (بشر المنافقين) يا محمد (بأنّ لهم عذابا أليما) أى مؤلما هو النار * (تنبيه) * وضع بشر مكان أنذر تهكما بهم وقوله تعالى (الذين) بدل أو نعت للمنافقين (يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) لما يتوهمون فيهم من القوة وقوله تعالى (أيبتغون) أى أيطلبون (عندهم العزة) استفهام انكارى أى لا يجدونها عندهم (فان العزة لله جميعا) فى الدنيا والآخرة ولا ينالها الا أولياؤه قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (وقد) أى تتخذونهم والحال أنه قد (نزل عليكم) أى أيتها الامة الصادقين منكم والمنافقين (فى الكتاب) أى القرآن فى سورة الانعام النازلة بمكة المشرفة النهى عن مجالستهم فضلا عن ولايتهم (أن) أى انه فهى مخففة واسمها محذوف (اذا سمعتم آيات الله) أى القرآن (يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم) أى الكافرين والمستهزئين (حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى حتى يأخذوا فى حديث غير ذلك قال الضحاك عن ابن عباس دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين وكل مبتدع الى يوم القيامة وقرأ عاصم نزل بفتح النون والزاى والباقون بضم النون وكسر الزاى (انكم اذا) أى ان قعدتم معهم (مثلهم) أى فى الاثم لانكم قادرون على الاعراض عنهم والانكار عليهم أو الكفر ان رضيتم به وقيل كان الذين يقاعدون الخائضين فى القرآن من الاحبار هم المنافقون فقيل لهم انكم اذا مثل الاحبار فى الكفر ويدل عليه قوله تعالى (انّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) أى القاعدين والمقعود معهم كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر والاستهزاء وقوله تعالى (الذين) امّا بدل من الذين قبله وامّا صفة للمنافقين وامّا نصب على الذم منهم (يتربصون) أى ينتظرون وقوع أمر (بكم فان كان لكم فتح من الله) أى ظفر وغنيمة (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) أى فى الدين والجهاد فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وان كان للكافرين نصيب) أى من الظفر فان الحرب سجال وعبر بنصيب تحقيرا لظفرهم بالنسبة لما حصل للمسلمين من الفتح (قالوا) لهم (ألم نستحوذ) أى نستول (عليكم) ونقدر على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم (ونمنعكم من المؤمنين) أى من تسلطهم عليكم بما كنا نخادعهم به ونشيع فيهم من الارجافات والامور المرعبات الصارفة لهم عن كثير من المقاصد لتصديقهم لنا لاظهارنا الايمان ومراد المنافقين بذلك اظهار المنة على الكافرين (فالله يحكم بينكم) وبينهم (يوم القيامة) بأن يدخلكم الجنة

ويدخلهم النار (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أى طريقا بالاستئصال واحتج أصحابنا بهذه الآية على فساد شراء الكافر العبد المسلم (ان المنافقين يخادعون الله) أى باظهارهم خلاف ما يبطنونه من الكفر ليدفعوا عنهم احكامهم الدنيوية (وهو خادعهم) أى مجازيهم على خداعهم فيفضحهم فى الدنيا باطلاع نبيه على ما أبطنوه ويعاقبهم فى الآخرة (واذا قاموا الى الصلاة) مع المؤمنين (قاموا كسالى) أى متثاقلين كالمكرهين على الفعل (يراؤن الناس) بصلاتهم ليظنوهم مؤمنين (ولا يذكرون الله) أى ولا يصلون (الا قليلا) أى حين يتعين ذلك طريقا لخداعتهم ولا يصلون غائبين قط عن عيون الناس وما يجهرون به أيضا الا قليلا لانهم ما وجدوا مندوحة عن تكلف ما ليس فى قلوبهم لم يتكلفوه ويجوز أن يراد بالقلة العدم (فان قيل) اما معنى المراآة وهى مفاعلة من الرؤية (أجيب) بأن المرائى يريهم عمله وهم يرون استحسانه وقوله تعالى (مذبذبين) حال من واو يراؤن أى مترددين (بين ذلك) أى الكفر والايمان (لا) منسوبين (الى هؤلاء) أى الكفار (ولا الى هؤلاء) أى المؤمنين (ومن يضلل الله) أى يضلله (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا الى الهدى ونظيره قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين) أى المجاهرين بالكفر (أولياء من دون المؤمنين) فانه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبهوا بهم (أتريدون ان تجعلوا لله عليكم) أى بموالاتهم (سلطانا) أى دليلا على كفركم باتباعهم غير سبيل المؤمنين (مبينا) أى واضحا على نفاقكم (ان المنافقين فى الدرك) أى البطن (الاسفل من النار) أى لان ذلك أخفى ما فى النار وأستره وأخبثه كما أن كفرهم أخفى الكفر وأخبثه وأستره وسميت طبقات النار دركات لانها متداركة متتابعة الى أسفل كما ان الدرج مترقية الى فوق (فان قيل) لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر (أجيب) بأنه مثله فى الكفر وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بسكون الراء والباقون بفتحها (ولن تجد لهم نصيرا) أى مانعا يمنعهم من عذاب الله تعالى فيخرجهم (الا الذين تابوا) أى رجعوا عما كانوا عليه من النفاق (وأصلحوا) أى أعمالهم (واعتصموا) أى وثقوا (بالله وأخلصوا دينهم لله) من الرياء فلا يريدون بطاعتهم الا وجهه تعالى (فأولئك مع المؤمنين) فى الجنة (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) فيشاركونهم ويساهمونهم (فان قيل) من المنافق (أجيب) بأنه فى الشريعة من أظهر الايمان وأبطن الكفر وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقا فللتغليظ كقوله صلى الله عليه وسلم من ترك الصلاة متعمدا فهو كافر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وقيل لحذيفة رضى الله تعالى عنه من المنافق قال الذى يصف الاسلام ولا يعمل به (وقيل) لابن عمر رضى الله تعالى عنهما ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فاذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال كنا نعده من النفاق * (فائدة) * اتفق كتاب المصاحف على حذف الياء من يؤت الله ولا سبب لحذفها (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم) نعمه (وآمنتم به) أى لينفى به غيظا أو يدفع ضرا

أو يستجاب به نفعا وهو الغنيّ المطلق المتعالى عن النفع والضرّ والاستفهام بمعنى النفى أى لا يعذبكم (فان قيل) لم قدم الشكر على الايمان مع أنه لا ينفع مع عدم الايمان (أجيب) بأن الناظر يدرك النعمة أولا فيشكر شكرا مبهما فاذا انتهى الى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا فكان الشكر متقدما على الايمان وكأنه أصل التكليف ومداره فيؤمن به والشكر ضد الكفر فالكفر ستر النعمة والشكر اظهارها (وكان الله شاكرا) لاعمال المؤمنين بالاثابة يقبل اليسير ويعطى الجزيل (عليما) بخلقه (لا يحب الله الجهر بالسوء) أى القبيح (من القول) من أحد أى يعاقب عليه (الا من) أى جهر من (ظلم) وهو ان يدعو على الظالم ويذكره بما هو فيه من السوء فلا يؤاخذ به قال الله تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل قال الحسن البصرى دعاؤه عليه أن يقول اللهمّ أعنى عليه اللهمّ استخرج حقى منه وقيل ان شتم أجازله ان يشتم بمثله لا يزيد عليه وقال مجاهد هذا فى الضيف اذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله ان يشكو ويذكر ما صنع به روى أن رجلا اضاف قوما أى نزل بهم ضيفا فلم يطعموه فأصبح شاكيا فعوتب على الشكاية فنزلت وعن عقبة بن عامر قال قلنا يارسول الله انك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا وان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم (وكان الله سميعا) لكل ما يقال ومنه دعاء المظلوم (عليما) بكل ما يفعل ومنه فعل الظالم (ان تبدوا) أى تظهروا (خيرا) من أعمال البرّ (أو تخفوه) أى تعملوه سرا (أو تعفوا عن سوء) أى عن مظلمة (فان الله كان) أى دائما أزلا وأبدا (عفوا قديرا) أى يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك وهو حث للمظلوم على تمهيد العفو بعد ما رخص له فى الانتصار حملا على مكارم الاخلاق وقوله تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسله) نزل فى اليهود وذلك انهم آمنوا بموسى والتوراة وعزير وكفروا بعيسى والانجيل ومحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) أى نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعضهم (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أى طريقا وسطا بين اليهودية والاسلام ولا واسطة اذ الحق لا يختلف فان الايمان بالله انما يتم بالايمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلا واجمالا والكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل فى الضلال قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال (أولئك هم الكافرون) أى الكاملون فى الكفر وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) اى ذا اهانة وهو عذاب النار ولما بين سبحانه وتعالى ما أعده للكافرين بين ما أعده للمؤمنين بقوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله) كلهم (ولم يفرّقوا بين أحد منهم) بان كفروا ببعض وآمنوا ببعض كما فعل الاشقياء منهم وانما أدخل بين على أحد وهو يقتضى متعددا لعمومه من حيث انه وقع فى سياق النفى (أولئك) أى العالو الرتبة فى رتب السعادة (سوف نؤتيهم) بوعد لا خلف فيه وان تأخر (أجورهم) الموعودة لهم بايمانهم بالله وكتبه ورسله وقرأ حفص بالياء على الغيبة والباقون

بالنون (وكان الله غفورا) لما يريد من الزلات (رحيما) أي لمن يريد اسعاده بالجنات ونزل لما
قال أحبار اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به
موسى (يسئلك) يا محمد (أهل الكتاب) أي أحبار اليهود (أن تنزل عليهم كتابا من السماء) جملة كما
أنزل على موسى وقيل كتابا محررا أي مجلدا مصونا بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة
وقيل كتابا نعاينه حين ينزل أو كتابا الينا بأعياننا بأنك رسول الله قالوا ذلك تعنتا قال الحسن
لو سألوا لكي يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية وقوله تعالى (فقد سألوا) أي آباؤهم
(موسى) جواب شرط مقدر معناه انك ان استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى (أكبر)
أي أعظم (من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) أي عيانا وانما أسند السؤال اليهم وان وجد من
آبائهم في أيام موسى عليه الصلاة والسلام وهم النقباء السبعون لانهم كانوا على مذهبهم
وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت (فأخذتهم الصاعقة) أي عقب هذا السؤال وهي
نار جاءت من السماء فأهلكتهم (بظلمهم) أي بسببه وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في تلك
الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقا (ثم) بعد العفو عنهم واحيائهم
من اماتة هذه الصاعقة (اتخذوا العجل) أي تكلفوا أخذه وجعلوه الها (من بعد ما جاءتهم
البينات) المعجزات على وحدانية الله تعالى وليس المراد التوراة لانها لم تأتهم فيما مضى بل
أتتهم بعد (فعفونا عن ذلك) أي الذنب العظيم بتوبتنا عليهم من غير استئصالهم (وآتينا
موسى سلطانا) تسليطا واستيلاء (مبينا) أي ظاهرا فانه أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة
العجل فبادروا الى الامتثال (ورفعنا فوقهم الطور) أي الجبل العظيم (بميثاقهم) أي بسبب
أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه (وقلنا لهم) على لسان موسى صلى الله عليه وسلم والطور
مظلل عليهم (ادخلوا الباب) أي الذي لبيت المقدس (سجدا) أي سجود انحناء (وقلنا لهم)
أي على لسان داود (لا تعدوا) أي لا تتجاوزوا ما حددناه لكم (في السبت) أي لا تعملوا فيه
عملا من الاعمال تسمية للشئ باسم سببه سمي عدوا لان العامل للشئ يكون لشدة اقباله عليه كأنه
يعدو ويحتمل أن يكون ذلك على لسان موسى حين ظلل عليهم الجبل فانه شرع السبت أي ترك
العمل فيه ولكن كان الاعتداء في السبت والمسخ به في زمن داود وقرأ ورش بفتح
العين مع تشديد الدال وقرأ قالون باختلاس حركة العين مع تشديد الدال والباقون بسكون
العين وتخفيف الدال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا
ومعاهدتهم على ان يقيموا عليه ثم نقضوه بعد كما قال تعالى (فبما نقضهم) أي فبنقضهم وما مزيدة
للتوكيد والباء للسببية متعلقة بمحذوف أي لعناهم بسبب نقضهم (ميثاقهم وكفرهم بآيات
الله) أي القرآن أو بما في كتابهم (وقتلهم الانبياء بغير حق) فانهم معصومون من كل نقيصة
ومبرؤن من كل ريبة لا يتوجه عليهم حق (وقولهم قلوبنا غلف) أي أوعية للعلوم أو في أكنة مما
تدعونا اليه فلا نعي كلامك (بل طبع الله) أي ختم (عليها بكفرهم) فلا تعي وعظا (فلا يؤمنون
الا قليلا) منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو ايمانا قليلا لا عبرة به بأن يؤمنوا وقتا يسيرا

كوجه النهار ويكفروا في غيره ويؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض وقوله تعالى (وبكفرهم) معطوف على فبما نقضهم ويجوز عطفه على بكفرهم وقد تكرر منهم الكفر لانهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فعطف بعض كفرهم على بعض وكرر الباء للفصل بينه وبين ما عطف عليه (وقولهم على مريم) أي بعد ما ظهر على يديها من الكرامات الدالة على براءتها وانها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات (بهتانا عظيما) وهو نسبتها الى الزنا (فان قيل) كان مقتضى الظاهر أن يقول في مريم (أجيب) بأنه ضمن القول معنى الافتراء وهو يتعدى بعلى (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أي بمجموع ذلك عذبناهم (فان قيل) كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله (أجيب) بأنهم قالوه بزعم عيسى عندهم أو انهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون قال الزمخشري ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه الصلاة والسلام عما كانوا يذكرونه به اه قال الله تعالى تكذيبا لهم في قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي المقتول والمصلوب روى النسائي عن ابن عباس أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بانه يرفعه الى السماء ويطهره من صحبة اليهود فقال لاصحابه أيكم يرضى أن يلقى الله عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجلا ينافق عيسى أي يظهر له الاسلام ويخفي الكفر فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل في بيت عيسى فرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون انه عيسى وقيل انهم حبسوا عيسى عليه الصلاة والسلام في بيت وجعلوا عليه رقيبا فألقى الله شبه عيسى على الرقيب فقتلوه (وان الذين اختلفوا فيه) أي في شأن عيسى فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حقا وتردد آخرون وقال بعضهم ان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وكان الله ألقى شبه وجه عيسى عليه ولم يلق على جسده وقال من سمع من عيسى ان الله يرفعني الى السماء انه رفعه الى السماء وقال قوم صلب الناسوت أي الانسانية وصعد اللاهوت أي الالوهية (لفي شك منه) أي من قتله (ما لهم به) أي بقتله (من علم) وقوله تعالى (الا اتباع الظن) استثناء منقطع أي لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه (فان قيل) قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما فكيف يكونون شاكين ظانين (أجيب) بأن الشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم فيشمل الاعتقاد (وما قتلوه) أي انتفى قتلهم له انتفاء (يقينا) أي انتفاؤه على سبيل القطع ويجوز أن يكون حالا من واو قتلوه أي ما فعلوا القتل متيقنين ان عيسى عليه الصلاة والسلام بل فعلوه شاكين فيه والحق انهم لم يقتلوا الا الرجل الذي ألقى عليه

شبهه قال البقاعي والوجه الاول أولى لقوله تعالى (بل رفعه الله اليه) أى الى مكان لايصل اليه حكم آدمي وعن وهب انه أوحى اليه وهو ابن ثلاثين سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين فكانت رسالته ثلاث سنين (وكان الله عزيزا) أى فى ملكه لايغلب عما يريد (حكيما) فى صنعه لايطمع أحد فى نقض شئ منه (وان من أهل الكتاب) أى ومامن أهل الكتاب أحد (الا ليؤمنن به) أى بعيسى عليه الصلاة والسلام هذا قول أكثر المفسرين واهل العلم (قبل موته) اختلف فى عود هذا الضمير فقال عكرمة ومجاهد والضحاك يعود للكتابى أى ان الكتابي يؤمن بعيسى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه ايمانه سواء احترق أوغرق أوتردى أوسقط عليه جدار أوأكله سبع أومات فجأة فقيل لابن عباس أرأيت من خرّ من فوق بيت فقال يتكلم به فى الهوى فقيل أرأيت ان ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج بها لسانه وذهب قوم الى عود الضمير الى عيسى أى ومامن أهل الكتاب الا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد الا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الاسلام روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك ان ينزل فيكم عيسى بن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد ويهلك فى زمانه الملل كلها الا الاسلام ويقتل الدجال فيمكث فى الارض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وان من أهل الكتاب الآية ثم أعادها أبو هريرة ثلاث مرات ولا يعارض هذا مافى مسلم فى قصة الدجال ان الله يبعث عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة لان قوله ثم يلبث الناس بعده أى بعد موته فلا معارضة أو لان السبع محمول على مدة اقامته بعد نزوله ويكون ذلك مضافا الى مكثه فيها قبل رفعه الى السماء وكان عمره اذذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور وروى عكرمة ان الهاء فى قوله تعالى ليؤمنن به كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول لايموت كتابى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الهاء راجعة الى الله عز وجل يقول وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن بالله عز وجل قبل موته عند المعاينة حين لاينفعه ايمانه (ويوم القيامة يكون) أى عيسى على القول الاول (عليهم شهيدا) انه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه كما قال تعالى مخبرا عنه وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم وكل نبى شاهد على أمته قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (فبظلم من الذين هادوا) وهو ماتقدم ذكره من نقضهم الميثاق وبكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى كان وقع احلالها لهم فى التوراة ثم حرمت عليهم وهى التى فى قوله تعالى فى سورة الانعام وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وبصدهم) أى الناس (عن سبيل الله) أى دينه وقوله تعالى (كثيرا) صفة مصدر محذوف أى صدا كثيرا بالاضلال عن الطريق فمنعوا مستلذات تلك المآكل بما منعوا أنفسهم وغيرهم من لذاذة الايمان (وأخذهم الربا وقد) أى والحال انهم قد (نهوا عنه) فى التوراة فكان محرما عليهم كما هو محرم علينا لانه قبيح فى نفسه مضر بصاحبه وفى الآية دليل على ان النهى

التحريم

التحريم (وأكلهم أموال الناس بالباطل) أى من الرشا فى الحكم والمآكل أى التى كانوا يصيبونها من عوامهم عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات فكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شئ من الطيبات التى كانت حلالا لهم قال تعالى ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون (واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى مؤلما دون من تاب وآمن * ولما بين سبحانه وتعالى ما المطبوع على قلوبهم الغريقين فى الكفر من العقاب بين ما للنيرى البصائر بالرسوخ فى العلم والايمان من الثواب فقال (لكن الراسخون) أى الثابتون المتمكنون (فى العلم منهم) أى من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وأصحابه (والمؤمنون) أى من المهاجرين والانصار (يؤمنون بما أنزل اليك) أى القرآن (وما أنزل من قبلك) أى من سائر الكتب المنزلة وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) نصب على المدح لان الصلاة لما كانت أعظم دعائم الدين ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر نصبت على المدح من بين هذه المرفوعات اظهارا لفضلها وحكى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وأبان بن عثمان ان ذلك غلط من الكاتب ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة وكذلك قوله فى سورة المائدة ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى وقوله تعالى ان هذان لساحران قالا ذلك خطأ من الكاتب وقال عثمان ان فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها فقيل له الا تغيره فقال دعوه فانه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا وعامة الصحابة وأهل العلم على انه صحيح كما قدمناه وقيل نصب باضمار فعل تقديره أعنى المقيمين الصلاة وقوله تعالى (والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) رجوع الى النسق الاول (أولئك سنؤتيهم) بوعد لا خلف فيه على جمعهم بين الايمان الصحيح والعمل الصالح (أجرا عظيما) وهو الجنة والنظر الى وجهه الكريم وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأن شأنه فى الوحى اليه كشأن سائر الانبياء الذين سلفوا وبدأ بذكر نوح عليه الصلاة والسلام لانه كان أبا البشر مثل آدم عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين ولانه أول نبى من أنبياء الشريعة وأول نذير على الشرك وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الارض بدعائه وكان أطول الانبياء عمرا وجعلت معجزته فى نفسه لانه عمر ألف سنة فلم ينقص له سن ولم يشب له شعرة ولم تنقص له قوة ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره (و) كما (أوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق) ابنى ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (والاسباط) أولاد يعقوب وظاهر هذا انهم كلهم أنبياء وهو أحد قولين والقول الآخر أن يوسف هو النبى فقط وعلى هذا فالمراد المجموع (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا) أباه (داود زبورا) قرأ حمزة بضم الزاى مصدر بمعنى مزبورا أى مكتوبا والباقون بالنصب على أنه اسم للكتاب المؤتى وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل كان داود يبرز الى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ويقوم معه علماء بنى اسرائيل فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس الاعظم فالاعظم والشياطين خلف الجن وتجئ الدواب التى فى الجبال فيقمن بين

يديه تعجبا لما يسمع من منه والطير ترفرف على رؤسهم فلما قارف الذنب لم يرذلك فقيل له ذلك أنس الطاعة وهذا وحشة المعصية قال السيوطى فى شرح التنبيه ان الزبور مائة وخمسون سورة ما بين قصار وطوال والطويلة منها قدر ربع حزب والقصيرة قدر سورة النصر اه وعن أبى موسى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتنى البارحة وأنا أسمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود وكان عمر اذا رآه قال ذكرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده وانما خص هؤلاء بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم وقوله تعالى (ورسلا) أى غير هؤلاء نصب بمضمر دل عليه أوحينا اليك مثل أرسلنا (قد قصصناهم) أى تلونا ذكرهم (عليك من قبل) أى قبل انزال هذه السورة أو هذه الآية (ورسلا لم نقصصهم عليك) أى الى الآن وروى انه سبحانه وتعالى بعث ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس قاله الجلال المحلى فى سورة غافر وقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) هو منتهى مراتب الوحى أى كلمه على التدريج شيأ فشيأ بحسب المصالح بغير واسطة ملك فلا فرق فى الوحى بين ما كان بواسطة وبين ما كان بلا واسطة وخص به موسى من بين سائر الانبياء غير نبينا وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد فضله الله بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم وقوله تعالى (رسلا) بدل من رسلا قبله (مبشرين) أى بالثواب من آمن (ومنذرين) أى مخوفين بالعذاب من كفر وقوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة) متعلق بارسلنا أو بمبشرين ومنذرين أى حجة تقال (بعد) ارسال (الرسل) فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فبعثناهم لقطع عذرهم (فان قيل) كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله تعالى من الادلة التى النظر فيها يوصل الى المعرفة (أجيب) بأن الرسل ينبهون عن الغفلة وباعثون على النظر فى الادلة فارسالهم ضرورى (وكان الله عزيزا) فى ملكه لا يغلب فيما يريده (حكيما) فى صنعه روى أن سعد بن عبادة قال لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب اليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد بالجنة قال ابن عباس ان رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا سألنا عنك اليهود وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك ودخل عليهم جماعة من اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم والله انكم لتعلمون انى رسول الله فقالوا والله ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل (لكن الله يشهد) أى يبين نبوتك (بما أنزل اليك) أى من القرآن المعجز الدال على نبوتك ان جحدوك وكذبوك (أنزله) متلبسا (بعلمه) الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ وروى أنه لما نزل انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك فنزلت (والملائكة يشهدون) لك أيضا (وكفى بالله شهيدا) على ذلك بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره (ان الذين كفروا وصدوا) الناس

(عن سبيل الله) أى دين الاسلام بكتمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الانقلاع عنه (ان الذين كفروا) بالله (وظلموا) نبيه بكتمان نعته (لم يكن الله ليغفر لهم) لكفرهم وظلمهم (ولا ليهديهم طريقا) من الطرق (الا طريق جهنم) أى الطريق المؤدى اليها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) اذا دخلوها وأكد ذلك بقوله (أبدا) لان الله لا يغفر أن يشرك به (وكان ذلك على الله يسيرا) اى هينا لا يصعب عليه ولا يستعظمه (يا ايها الناس قد جاءكم الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم (بالحق من ربكم) لما قرر من أمر النبوة وبين الطريق الموصل الى العلم بها ووعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة والزام الحجة والوعد بالاجابة والوعيد على الرد (فآمنوا) بالله وقوله تعالى (خيرا لكم) وكذلك قوله تعالى فيما يأتى انتهوا خيرا لكم منصوب بمضمر وذلك انه لما بعثهم على الايمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال خيرا لكم أى اقصدوا وأمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الايمان والتوحيد وقيل تقديره يكن الايمان خيرا لكم قال البيضاوى ومنعه البصريون لان كان لا يحذف مع اسمه الا فيما لا بد منه ولانه يؤدى الى حذف الشرط وجوابه اه (وان تكفروا) بالله (فان لله ما فى السموات والارض) ملكا وخلقا فهو غنى عنكم فلا يضره كفركم كما لا ينفعه ايمانكم ونبه على غناه بقوله تعالى لله ما فى السموات والارض وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبتا منه (وكان الله عليما) بأحوالكم (حكيما) أى فيما دبره لهم (يا أهل الكتاب لا تغلوا) أى تجاوزوا الحد (فى دينكم) الخطاب للفريقين غلت اليهود فى حط عيسى حتى رموه بالزنا والنصارى فى رفعه حتى اتخذوه الها وقيل للنصارى خاصة والمراد بالكتاب الانجيل فانه أوفق لقوله تعالى (ولا تقولوا على الله الا الحق) أى من تنزيهه عن الشريك والولد (انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها) أى اوصلها (الى مريم) وجعلها فيها (وروح) أى ذو روح (منه) لا بتوسط ما يجرى مجرى الاصل والمادة له وسمى عيسى كلمة الله وكلمة منه لانه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير واسطة أب ولا نطفة وقيل له روح الله وروح منه لانه ذو روح وجسد من غير جزء من ذى روح كالنطفة المنفصلة من الاب الحى وانما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته بأن أمر جبريل فنفخ فى جيب درعها فحملت به فأضيف الى الله تعالى تشريفا له وليس كما زعمتم أنه ابن الله أو اله معه أو ثالث ثلاثة لان الروح مركب والاله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب اليه روى انه صلى الله عليه وسلم قال من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل (فآمنوا بالله ورسله) أى عيسى وغيره ولا تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض (ولا تقولوا) كما قالت النصارى الآلهة (ثلاثة) الله وعيسى وأمه قال تعالى (انتهوا) عن ذلك وائتوا (خيرا لكم) من ذلك وهو التوحيد (انما الله اله واحد) أى لا تعدد فيه بوجه ما (سبحانه) تنزيها له (أن) أى عن ان (يكون له ولد) أى كما قلتم أيها النصارى فان ذلك يقتضى

الحاجة ويقتضى التركيب والمجانسة ثم علل ذلك بقوله (له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا فلا يتصور أن يحتاج الى شئ منهما ولا الى شئ متميز فيهما ولا يصح بوجه أن يكون بعض ما يملكه المالك جزأ منه وولدا له لان الملكية تنافى البنوة وعيسى وأمه كل منهما محتاج الى ما فى الوجود (وكفى بالله وكيلا) أى يحتاج اليه كل شئ ولا يحتاج هو الى شئ فهو غنى عن الولد فان الحاجة اليه ليكون وكيلا لابيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الاشياء كاف فى ذلك مستغن عمن يخلفه أو يعينه روى ان وفد نجران قالوا يا رسول الله لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شئ أقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزل قوله تعالى (لن يستنكف) أى يتكبر ويأنف (المسيح) أى الذى زعمتم انه اله (أن) أى عن أن (يكون عبد الله) فان عبوديته له شرف يتباهى به وانما المذلة والاستنكاف فى عبودية غيره وقوله تعالى (ولا الملائكة المقربون) أى عند الله عطف على المسيح أى ولا تستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيد الله وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم انها آلهة أو بنات الله كارد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم فلا حجة فيه على أن الملائكة أفضل من الانبياء كما زعمه بعض المعتزلة قائلا بأن المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه قال الطيبى وانما تنهض الحجة على النصارى اذا سلموا ان الملائكة أفضل من عيسى ودونه خرط القتاد فكيف والنصارى رفعوا درجة عيسى الى الالهية فظهر ان ذكر الملائكة للاستطراد كما رد على النصارى وأنه من باب التتميم لا من باب الترقى اه أو من باب الترقى فى الخلق لا فى المخلوق كما قاله البقاعى قال لأن الملائكة أعجب خلقا من عيسى فى كونهم ليسوا من ذكر ولا أنثى ولا مما يجانس عضو البشر فكانوا لذلك أعجب خلقا من آدم عليه الصلاة والسلام أيضا أو فى القوة لانهم أقوى من عيسى لانهم يقتلعون الجبال ويأتون بالمياه العظيمة والعبادات الدائمة المستمرة (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أى يطلب الكبر عن ذلك قال الراغب الاستنكاف تكبر فى أنفة والاستكبار بخلافه (فسيحشرهم) أى المستكبرين وغيرهم (اليه جميعا) فى الآخرة بوعد لا يخلف فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لاقرارهم بالايمان (فيوفيهم أجورهم) أى ثواب أعمالهم (ويزيدهم من فضله) أى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) عن عبادته (فيعذبهم عذابا أليما) أى مؤلما هو عذاب النار بما وجدوا من لذاذة الترفع والتكبر (ولا يجدون لهم) أى حالا ولا مآلا (من دون الله) أى غيره (وليا) يدفعه عنهم (ولا نصيرا) يمنعهم منه (يا أيها الناس) أى كافة أهل الكتاب وغيرهم (قد جاءكم برهان من ربكم) أى حجة نيرة واضحة مفيدة لليقين التام وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالادلة القاطعة من المعجزات وغيرها (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) أى واضحا فى نفسه موضحا لغيره وهو القرآن الجامع باعجازه وحسن بيانه فلم يبق لكم عذر ولا علة وقيل المراد بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم) أى بوعد لا خلف فيه (فى رحمة

منه)

منه) أى ثواب عظيم هو رحمته لهم لابشئ استوجبوه (وفضل) أى احسان زائد عليه
(ويهديهم) أى فى الدنيا والآخرة (اليه صراطا مستقيما) أى طريقا مستقيما وهو الاسلام
والطاعة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (يستفتونك) أى فى الكلالة حذف لدلالة الجواب عليه
روى ان جابر بن عبد الله قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لاأعقل فتوضأ
وصب على من وضوئه فعقلت وقلت يارسول الله لمن الميراث وانما يرثنى كلالة فنزل يستفتونك
(قل الله يفتيكم فى الكلالة) وقد تقدم معنى الكلالة وحكم الآية فى أول السورة وفى
هذه الآية بيان حكم ميراث الاخوة للاب والام أو للاب وقوله تعالى (ان امرؤ) هو مرفوع
بفعل يفسره (هلك) أى مات (ليس له ولد) أى ولا والد وهو الكلالة قال الاصبهانى عن
الشعبى اختلف أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى الكلالة فقال أبو بكر هو ما عدا الوالد
وقال عمر ماعدا الوالد والولد ثم قال عمر انى لاستحى من الله أن أخالف أبا بكر وقوله تعالى (وله
أخت) يحتمل الحال والعطف والمراد بالاخت الاخت من الابوين أو الاب لانه جعل أخوها
عصبة والذى لام لايكون عصبة والولد يشمل الذكر والانثى فان الاخت وان ورثت مع البنت
قد لاترث النصف وذلك عند تعدد البنت (فلها نصف ماترك وهو) أى هذا الاخ للميت (يرثها)
أى ان ماتت هى وبقى هو جميع مالها (ان لم يكن لها ولد) فان كان لها ولد ذكر فلا شئ له أو أنثى
فله مافضل عن نصيبها ولو كانت الاخت أو الاخ من الام ففرضه السدس كما مر أول السورة
(فان كانتا) أى الاختان (اثنتين) أى فصاعدا لانها نزلت فى جابر وقد مات عن أخوات
(فلهما الثلثان مما ترك) أى الاخ (وان كانوا) أى الورثة (اخوة رجالا ونساء فللذكر)
منهم (مثل حظ الانثيين يبين الله لكم) أى ولم يكلكم فى بيانه الى بيان غيره وقال مرغبا مرهبا
(أن) أى كراهة أن (تضلوا) وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين وقيل يبين الله لكم
ضلالكم أى الذى من شأنكم أى اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتحروا خلافه (والله بكل
شئ عليم) فهو عالم بمصالح العباد فى المحيا والممات ومنه الميراث روى عن البراء رضى الله تعالى
عنه انه قال آخر سورة نزلت كاملة براءة وآخر آية نزلت قال السيوطى أى من الفرائض خاتمة
سورة النساء يستفتونك الآية وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان آخر آية نزلت آية
الربا وآخر سورة نزلت اذا جاء نصر الله والفتح وروى عنه ان آخر آية نزلت قوله تعالى واتقوا يوما
ترجعون فيه الى الله وروى بعد مانزلت سورة النصر عاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها عاما
فنزلت بعدها سورة براءة وهى آخر سورة نزلت كاملة فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها ستة
أشهر ثم نزل فى طريق حجة الوداع يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة فسميت آية الصيف ثم نزل
وهو واقف بعرفة اليوم أكملت لكم دينكم فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها احدا وثمانين
يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فعاش النبى صلى الله عليه وسلم
بعدها أحدا وعشرين يوما وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من
قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطى

من الاجركن اشترى محررا أى رقيقا وحرره وبرئ من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم حديث موضوع

(سورة المائدة مدنية)

مائة وعشرون آية أو اثنتان أو ثلاث وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربع كلمات وحروفها أحد عشر ألفا وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا

(بسم الله) الذى له الامر كله فلا يسئل عما يفعل (الرحمن) الذى عم بنعمة ايجاده وبيانه فنعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذى خص خلص عباده بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) أى التى عقدها الله تعالى على عباده وألزمها اياهم من مواجب التكليف وما يعقدون بينهم من عقود الامانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ان حملنا الامر على المشترك بين الوجوب والندب والعقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه قول الحطيئة

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم * شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

والعناج حبل يشد فى أسفل الدلو ثم يشد الى العراقى ليكون عونا له والكرب الحبل الذى يشد فى وسط العراقى والعرقوتان الخشبتان المعترضتان على الدلو كالصليب وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الانعام) تفصيل للعقود لان العقود مجملة فهو شامل لجميع العقود لان ذلك أمهات التكاليف وجميع ما فى هذه السورة من الاحكام تفصيل لذلك *(فائدة)* روى عن ابن مسعود قال أنزل الله تعالى فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى غيرها قوله تعالى والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وتمام الطهر فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة والسارق والسارقة ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وقوله تعالى شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت وزيد عليها تاسع عشر وهو قوله تعالى واذا ناديتم الى الصلاة ليس للاذان ذكر فى القرآن الا فى هذه السورة وأما فى سورة الجمعة فهو مخصوص بالجمعة وهو فى هذه السورة عام فى جميع الصلوات والبهيمة كل حى لا يميز أى من شأنه أنه لا يميز فلا يدخل فى ذلك المجنون ونحوه والانعام الابل والبقر والغنم وهى الازواج الثمانية والحق بها الظباء وبقر الوحش *(تنبيه)* اضافة البهيمة الى الانعام للبيان كقولك ثوب خز ومعناه البهيمة من الانعام (فان قيل) لم أفرد البهيمة وجمع الانعام (أجيب) بارادة الجنس وقوله تعالى (الا ما يتلى عليكم) أى تحريمه فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الآية استثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم عرض من الموت ونحوه وقوله تعالى (غير محلى الصيد) حال من ضمير لكم وقوله تعالى (وأنتم حرم) مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير

في محل جمع حرام وهو المحرم (ان الله يحكم ما يريد) من تحليل وتحريم وغيرهما على سبيل
الاطلاق لا يجب عليه مراعاة مصلحة ولا حكمة كما تقوله المعتزلة فلا يسئل عن تخصيص
ولا تفصيل فما فهمتم حكمته فذاك وما لا فكلوه اليه وارغبوا في أن يلهمكم حكمته (يا أيها
الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر أي جعل شعارا وعلما للنسك من
مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى والافعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من
الاحرام والطواف والسعي والحلق والنحر وقيل معالم دينه وقيل فرائضه التي حدها العباده
(ولا) تحلوا (الشهر الحرام) أي بالقتال فيه قال تعالى ان عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم
ورجب فيجوز أن يكون ذلك اشارة الى جميع هذه الاشهر كما يطلق اسم الواحد على الجنس لان
الاشهر كلها في الحرمة سواء ولكن قال الزمخشري والشهر الحرام شهر الحج (ولا) تحلوا
(الهدي) أي بالتعرض له وهو ما أهدي الى الحرم من النعم (ولا) تحلوا (القلائد) أي صاحب
القلائد من الهدي وعبر بها مبالغة في تحريمها أو القلائد أنفسها والنهي عن احلالها مبالغة
في النهي عن التعرض للهدي والقلائد جمع قلادة وهي ما قلد به الهدي من نعل أو غيره ليعلم
به أنه هدي فلا يتعرض له (ولا) تحلوا (آمين) أي قاصدين (البيت الحرام) لزيارته أي بان
تقاتلوهم (يبتغون فضلا من ربهم) وهو الثواب (ورضوانا) أي وأن يرضى عنهم والجملة
في موضع الحال من المستكن في آمين أي لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم واستنكارا
أن يتعرض لمثلهم وقيل معناه يبتغون من الله رزقا بالتجارة ورضوانا بزعمهم لانهم كانوا يظنون
ذلك فوصفوا به بناء على ظنهم ولان الكافر لا نصيب له في الرضوان كقوله تعالى ذق انك أنت
العزيز الكريم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا
فنهى الله تعالى المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا شعائر الله فعلى الاول
الآية محكمة قال الحسن ليس في المائدة منسوخ وعلى الثاني قال البيضاوي فالآية
منسوخة أي لما فيها من حرمة القتال في الشهر الحرام ومن حرمة منع المشركين عن المسجد
الحرام والاول منسوخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم والثاني بقوله تعالى فلا
يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فقوله منسوخ منزل على هذا لكن اذا قلنا بشمول آمين
للمسلمين والمشركين انما يكون النسخ في حق المشركين خاصة وهو في الحقيقة تخصيص لا نسخ
ففي تسميته نسخا تسمح وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بالكسر (واذا حللتم) أي من الاحرام
وقوله تعالى (فاصطادوا) أمر اباحة اباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل واذا حللتم
فلا جناح عليكم ان تصطادوا كما في قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض
(ولا يجرمنكم) أي يحملنكم أو يكسبنكم (شنآن قوم) أي شدة بغضهم وقرأ ابن عامر وشعبة
بسكون النون بعد الشين والباقون بفتحها وقوله تعالى (ان صدوكم) قرأ ابن كثير وأبو عمرو
بكسر الهمزة على ان الشرطية والباقون بفتحها أي لاجل أن صدوكم في عام الحديبية أو غيره

(عن المسجد الحرام) وقوله تعالى (أن تعتدوا) أى يشتد عدوكم عليهم بأن تنتقموا منهم بالقتل وغيره ثانى مفعولى يجرمنكم فانه يتعدى الى واحد والى اثنين ككسب (وتعاونوا على البر والتقوى) أى بفعل ما أمرتم به (ولا تعاونوا) فيه حذف احدى التاءين فى الاصل (على الاثم) أى المعاصى للتشفى (والعدوان) أى التعدى فى حدود الله للانتقام (واتقوا الله) أى خافوا عقابه بأن تطيعوه (ان الله شديد العقاب) لمن خالفه فانتقامه اشد وقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) أى أكلها بيان ما يتلى عليكم والميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة شرعية (والدم) أى المسفوح قال تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونها (ولحم الخنزير) قال العلماء الغذاء يصير جزأ من جوهر المتغذى ولابد أن يحصل للمتغذى أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلا فى الغذاء والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المنهيات فحرم أكله على الانسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ولذلك ان الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة فى المنهيات وأورثهم عدم الغيرة فان الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الانثى التى له ولا يتعرض له لعدم الغيرة (وما أهل لغير الله به) أى رفع الصوت به لغير الله بأن ذبح على اسم غيره والاهلال رفع الصوت ومنه يقال فلان أهل بالحج اذا لبى وكانوا يقولون عند الذبح باسم اللات والعزى قال ابن عادل وقدم هنا لفظ الجلالة فى قوله لغير الله به وأخرت فى البقرة لانها هنالك فاصلة أو تشبه الفاصلة بخلافها هنا لان بعدها معطوفات (والمنخنقة) وهى التى ماتت بالخنق سواء أفعل بها ذلك آدمى أم اتفق لها ذلك (والموقوذة) وهى التى وقذت أى ضربت حتى ماتت ويدخل فى الموقوذة ما رمى بالبندق فمات (والمتردية) أى الساقطة من علو بان سقطت من جبل أو مشرف أو فى بئر فماتت ولو رمى صيدا فى الهواء بسهم فأصابه فسقط على الارض ومات حل لان الوقوع على الارض من ضرورته وان سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات لم يحل لانه من المتردية الا أن يكون السهم ذبحه فى الهواء فيحل كيفما وقع لان الذبح قد حصل قبل التردية *(تنبيه)* دخلت الهاء فى هذه الكلمات لان المنخنقة هى الشاة المنخنقة كأنه قيل حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية وخصت الشاة لانها من أعم ما يأكل الناس والكلام يخرج على الاعم ويكون المراد الكل وأما الهاء فى قوله تعالى (والنطيحة) وهى التى تنطحها أخرى فتموت فللنقل من الوصفية الى الاسمية والا فكان من حقها أن لا تدخلها تاء التأنيث كقتيل وجريح وما فى قوله تعالى (وما أكل السبع) بمعنى الذى وعائده محذوف أى وما أكله السبع ولابد من حذف ولهذا قال الزمخشرى وما أكل بعضه السبع وهذا يدل على ان جوارح الصيد اذا أكلت ما اصطادته لم يحل أكله وقوله تعالى (الا ما ذكيتم) استثناء متصل أى الا ما أدركتم ذكاته وصار فيه حياة مستقرة من ذلك فهو حلال وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع وقيل الاستثناء منقطع أى ولكن ما ذكيتم من غيرها فحلال أو فكلوه وكان هذا القائل رأى انها وصلت بهذه الاسباب الى الموت او الى حالة قريبة منه فلم تفد تذكيتها عنده شيأ وقيل الاستثناء

من التحريم لامن المحرمات أى حرم عليكم ما مضى الا ما ذكيتم فانه لكم حلال فيكون الاستثناء منقطعا أيضا وأقل الذكاة فى الحيوان المقدور عليه قطع الحلقوم والمرىء وكمالها أن يقطع الودجين معهما وهما عرقان فى صفحتى العنق و يجوز بكل محدد يجرح من حديد أو قصب أو زجاج أو غيره الا السن والظفر لقوله صلى الله عليه وسلم ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وقوله تعالى (وما ذبح على النصب) فى محل رفع عطفا على الميتة أى وحرم عليكم ذلك والنصب واحد الانصاب وهى حجارة كانت حول الكعبة يذبح عليها تقربا اليها وتعظيما لها وقيل هى الاصنام لانها تنصب لتعبد وعلى بمعنى اللام أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمى على الانصاب وقيل هو جمع والواحد نصاب ويدل للاول قول الاعشى

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه * ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وقوله تعالى (وان تستقسموا بالازلام) فى محل رفع أيضا فكان عطفا على الميتة أى وحرم عليكم ذلك والازلام جمع زلم بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام قدح بكسر القاف صغير وهو سهم لا ريش له ولا نصل وذلك انهم كانوا اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة اقداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى والثالث غفل أى لا سمة عليه فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهى تجنبوا عنه وان خرج الغفل أداروها ثانيا فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم بالازلام وقيل هو قسمة الجزور بالاقداح على الانصباء المعلومة وقوله تعالى (ذلكم فسق) اشارة الى ما ذكر تحريمه أى خروج عن الطاعة وقيل اشارة الى الاستقسام وكونه فسقا لانه دخول فى علم الغيب الذى استأثر بعلمه علام الغيوب وقد قال تعالى قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وضلال باعتقاد ان ذلك طريق اليه وقوله أمرنى ربى ونهانى ربى افتراء على الله عز وجل ان كان أراد بربى الله وما يدريه ان الله أمره أو نهاه فالكهنة والمنجمون بهذه المثابة وجهالة وشرك ان أراد به الصنم وقوله تعالى (اليوم) لم يرد به يوما بعينه وانما أراد الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الازمنة الماضية والآتية وقيل الالف واللام للعهد قيل أراد يوم نزولها وقيل نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع وقيل هو يوم دخوله صلى الله عليه وسلم مكة سنة تسع وقيل ثمان وقوله تعالى (يئس الذين كفروا من دينكم) فيه قولان أحدهما يئسوا من أن يحلوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله تعالى محرمة والثانى يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم فترتدوا عنه بعد طمعهم فى ذلك لما رأوا من قوته لانه تعالى كان وعد باعلاء هذا الدين على كل الاديان بقوله تعالى ليظهره على الدين كله فحقق ذلك النصر وأزال الخوف (فلا تخشوهم) أن يظهروا عليكم (واخشون) أجمع القراء السبعة على حذف الياء بعد النون لحذفها فى الرسم أى واخلصوا الخشية لى وحدى فان دينكم قد استكمل بدره وجل عن انمحاق محله وقدره ورضى به الآمر ومكنه على رغم أنوف الاعداء وهو قادر وذلك قوله تعالى مسوقا مساق التعليل (اليوم أكملت لكم دينكم) أى الذى أرسلت به أكمل خلقى محمدا صلى الله عليه وسلم

نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم
واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت وعن عمر رضى
الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية من كتابكم تقرؤنها لو علينا
معاشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أى آية قال اليوم أكملت لكم دينكم
(وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) قال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى
أنزلت فيه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار عمر الى أن ذلك اليوم كان
عيدا قال ابن عباس كان ذلك اليوم خمسة أعياد جمعة وعرفة وعيد اليهود وعيد النصارى
والمجوس ولم يجتمع اعياد أهل الملل فى يوم قبله ولا بعده وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر
رضى الله عنه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر قال ابكانى انا كنا فى زيادة من ديننا
فاذا كمل فلم يكمل شئ الا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عاش بعدها أحدا وثمانين يوما ومات يوم الاثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر
ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة وقيل توفى يوم الثانى عشر من شهر ربيع
الاول وكانت هجرته فى الثانى عشر منه فقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم أى الفرائض
والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شئ من
الفرائض وهذا معنى قول ابن عباس وقال سعيد بن جبير وقتادة اليوم أكملت لكم دينكم
فلم يحج معكم مشرك وقيل أظهرت دينكم وأمنتكم من عدوكم (فان قيل) قوله تعالى
اليوم أكملت لكم دينكم يقتضى ان الدين كان ناقصا قبل ذلك وذلك يوجب ان الدين الذى
كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم أكثر عمره كان ناقصا وانما وجد الدين الكامل فى آخر عمره
مدة قليلة (أجيب) بأن الدين لم يكن ناقصا بل كان أبدا كاملا وكانت الشرائع النازلة من
عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت الا أنه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو
كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا مصلحة فيه فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان ينزل
بعد العدم وأما فى آخر زمان المبعث فأنزل شريعة كاملة وحكم ببقائها الى يوم القيامة فالشرع
أبدا كان كاملا الا أن الاول كمال الى زمان مخصوص والثانى كمال الى يوم القيامة فلهذا قال
اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى باكماله وقيل بدخول مكة آمنين ورضيت أى
اخترت لكم الاسلام دينا من بين الاديان وهو الذى عند الله لا غير قال الله تعالى ومن يبتغ غير
الاسلام دينا فلن يقبل منه وقوله تعالى (فمن اضطر) متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض
بما يوجب التجنب عنها وهو ان تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة
التامة والاسلام المرضى والمعنى فمن اضطر الى تناول شئ من هذه المحرمات (فى مخمصة) أى
مجاعة (غير متجانف) أى مائل (لاثم) أى معصية بأن يأكل ذلك تلذذا ومجاوزا حد الرخصة
كقوله تعالى غير باغ ولا عاد (فان الله غفور) له ما أكل (رحيم) به فى اباحته له فلا يؤاخذه ومن
المائل الى الاثم قاطع الطريق ونحوه فلا يحل له الاكل مما ذكر وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر

نون فمن اضطر فى الوصل والباقون بالضم (يسئلونك) يا محمد (ماذا أحل لهم) من الطعام وانما أتى بقوله لهم بلفظ الغيبة لتقديم ضمير الغيبة فى قوله تعالى يسئلونك ولو قيل فى الكلام ماذا أحل لنا لكان جائزا على حكاية الجملة كقولك أقسم زيد ليضربن ولاضربن بلفظ الغيبة والتكلم الا ان ضمير المتكلم يقتضى حكاية ما قالوه كما أن لاضربن يقتضى حكاية الجملة المقسم عليها وماذا مبتدأ وأحل لهم خبره كقولك أى شئ أحل لكم منها فقال تعالى (قل) لهم (أحل لكم الطيبات) أى ما ليس بخبيث منها وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة أو قياس مجتهد ولا مستقذر من ذى الطباع السليمة وهذا يشمل كل مذبح وهو مأذون فى ذبحه مما كانوا يحرمونه على أنفسهم من السائبة ونحوها وكل ما أذن فيه من غير ذبح كحيوان البحر وما أذن فيه من غير المطاعم وقوله تعالى (وما علمتم من الجوارح) معطوف على الطيبات أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف للعلم به والجوارح جمع جارحة من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والباز والشاهين والهاء للمبالغة سميت بذلك لان الجرح الكسب لانها تكسب الصيد ومنه قوله تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار أى كسبتم أو لانها تجرح الصيد غالبا وقوله تعالى (مكلبين) حال من ضمير علمتم أى حال كونكم معلمين هذه الكواسب الصيد والمكلب المؤدب الجوارح ومغريها مأخوذ من الكلب بسكون اللام وهو الحيوان النابح لان التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب فأخذ من لفظه لكثرته فى جنسه أو لان السبع يسمى كلبا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشأم فغاظ النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الاسد وقوله تعالى (تعلمونهن) حال ثانية من ضمير علمتم أو استئناف (فان قيل) ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم (أجيب) بأن فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح فقيها عالما بالشرائط المعتبرة فى الشرع لحل الصيد وفى هذا فائدة جليلة وهى أن على كل طالب لشئ أن لا يأخذه الا من أجل العلماء به وأشدهم دراية له وأغوصهم على لطائفه وحقائقه وان احتاج فى ذلك الى أن يضرب اليه أكباد الابل فكم من آخذ من غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله (مما علمكم الله) أى من علم التكليب لانه الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه (فكلوا مما أمسكن) أى الجوارح مستقرا امساكها (عليكم) أى على تعليمكم وان قتلته بأن لم تأكل منه بخلاف غير المعلمة فلا يحل صيدها وشروط التعليم فيها ثلاثة أشياء اذا ارسلت استرسلت واذا زجرت انزجرت واذا أخذت الصيد أمسكته ولم تأكل منه وأقل ما يعرف به ذلك ثلاث مرات فان أكلت منه فليس مما أمسكن على صاحبها فلا يحل أكله كما فى حديث الصحيحين وان أكل منه فلا تأكل منه انما أمسك على نفسه وعن على رضى الله عنه اذا أكل البازى فلا تأكل والى هذا ذهب أكثر الفقهاء وبعضهم لا يشترط ذلك فى سباع الطير لان تأديبها الى هذا الحد متعذر وقال آخرون لا يشترط مطلقا وفى هذا

الحديث ان صيد السهم اذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح (واذكروا اسم الله
عليه) فى هذه الكناية ثلاثة أوجه أحدها انها تعود الى المصدر المفهوم من الفعل وهو الاكل
كأنه قيل واذكروا اسم الله عليه على الاكل ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم سم الله وكل مما يليك
الثانى انها تعود الى ما علمتم أى اذكروا اسم الله على الجوارح عند ارسالها على الصيد ويؤيده
قوله صلى الله عليه وسلم اذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه الثالث انها تعود الى ما أمسكن أى
اذكروا اسم الله تعالى على ما أدركتم ذكاته مما أمسكت عليكم الجوارح (واتقوا الله) أى فى
محرماته (ان الله سريع الحساب) فيؤاخذكم بما جل ودق وقوله تعالى (اليوم) الكلام فيه
كالكلام فيما قبله (أحل لكم الطيبات) أى المستلذات (وطعام الذين أوتوا الكتاب) أى ذبائح
اليهود والنصارى ومن دخل فى دينهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (حل) أى حلال (لكم)
فأما من دخل فى دينهم بعد المبعث فلا تحل ذبيحتهم ولو ذبح يهودى أو نصرانى على اسم غير الله
تعالى كالنصرانى يذبح على اسم المسيح لم تحل ذبيحته وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب
فى تقريرهم بالجزية دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم قال صلى الله عليه وسلم سنوا بهم سنة
أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم رواه الامام مالك (وطعامكم) اياهم (حل لهم)
فلا عليكم أن تطعموهم ولا تبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك (والمحصنات من المؤمنات)
أى الحرائر (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى أى حل
لكم أن تنكحوهن وان كن حربيات وقال ابن عباس لا تحل الحربيات وأما الاماء المسلمات
فيحل نكاحهن فى الجملة بخلاف الاماء الكتابيات فلا يحل نكاحهن عندنا ويحل عند أبى حنيفة
رحمه الله تعالى (اذا آتيتموهن أجورهن) أى مهورهن فتقييد الحل باتيانها لتأكيد وجوبها
والحث على الاولى وان من تزوج امرأة وعزم أن لا يعطى صداقها كان فى صورة الزانى وورد
فيه حديث وتسميته بالاجر يدل على انه لا حد لاقله كما ان أقل الاجر فى الاجارة لا يتقدر (محصنين)
أى قاصدين الاعفاف والعفاف وقيل متزوجين (غير مسافحين) أى معلنين بالزنا بهن
(ولا متخذى أخدان) أى مسرين بالزنا منهن والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى قال
الشعبى الزنا ضربان السفاح وهو الزنا على سبيل الاعلان واتخاذ الخدن وهو الزنا سرا والله
تعالى حرمهما فى هذه الآية وأباح التمتع بالمرأة على جهة الاحصان وهذه الآية مخصصة لقوله
تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن فبقى على التحريم ما تضمنته تلك ماعدا الكتابيات
من الوثنيات وغيرهن من جميع المشركات حتى المنتقلة من الكتابيات من دينها الى غير دين
الاسلام وقرأ الكسائى بكسر صاد المحصنات والباقون بنصبها وقوله تعالى (ومن يكفر
بالايمان) اختلف المفسرون فى معناه فقال ابن عباس ومجاهد ومن يكفر بالايمان أى بالله
الذى يجب الايمان به وانما حسن هذا المجاز لانه يقال رب الايمان ورب الشئ على سبيل المجاز
وقال الكلبى ومن يكفر بالايمان أى بكلمة التوحيد وهى شهادة أن لا اله الا الله لان الايمان
من لوازمها واطلاق الشئ على لازمه مجاز مشهور وقال قتادة ان ناسا من المسلمين قالوا كيف

نتزوج نساءهم مع كونهم على غير دينفا فأنزل الله هذه الآية ومن يكفر بما أنزل الله فى القرآن فهو كذا وكذا فسمى القرآن ايمانا لانه مشتمل على بيان كل ما لابد منه فى الايمان والمراد من ذلك أن يأتى بشئ يصير به مرتدا (فقد حبط) أى فسد (عمله) الصالح قبل ذلك ان اتصل ذلك بالموت بدليل قوله تعالى (وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقوله تعالى فى آية أخرى فيمت وهو كافر أما من أسلم قبل الموت فان ثوابه يفسد دون عمله فلا يجب عليه اعادة حج قد فعله ولا صلاة قد صلاها قبل الردة (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) أى أردتم القيام اليها كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها للايجاز والتنبيه على ان من أراد العبادة ينبغى أن يبادر اليها بحيث لا ينفك الفعل عن الارادة وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم الى الصلاة وان لم يكن محدثا لكن صح عنه الاجماع لما روى انه صلى الله عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال له عمر صنعت شيأ لم تكن تصنعه فقال عمدا فعلته فقيل هو مطلق أريد به التقييد والمعنى اذا قمتم الى الصلاة محدثين وقيل الامر فيه للندب وقيل كان ذلك أول الامر ثم نسخ قال البيضاوى وهو ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا احلالها وحرموا حرامها (فاغسلوا وجوهكم) أى أمروا الماء عليها ولا يجب الدلك خلافا لمالك رضى الله تعالى عنه (و) اغسلوا (أيديكم الى المرافق) أى معها ان وجدت وقدرها ان فقدت لما روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد الخ وللاجماع أو ان الى فى الآية بمعنى مع كما فى قوله تعالى من انصارى الى الله ويزدكم قوة الى قوتكم أو يجعل اليد التى هى حقيقة الى المنكب مجازا الى المرفق مع جعل الى غاية للغسل الداخلة هنا فى المغيا بقرينة الاجماع والاحتياط للعبادة والمعنى اغسلوا أيديكم من رؤس الاصابع الى المرافق أو تجعل باقية على حقيقتها الى المنكب مع جعل الى غاية للترك المقدر فتخرج الغاية والمعنى اغسلوا أيديكم واتركوا منها الى المرافق والمرافق جمع مرفق بفتح الميم وكسر الفاء على الفصيح من اللغة وهو مفصل ما بين العضد والمعصم ولو قطع بعض ما يجب غسله وجب غسل الباقى لان الميسور لا يسقط بالمعسور وان قطع من المرفق فان سل عظم الذراع وبقى العظمان المسميان برأس العضد وجب غسل رأس عظم العضد لانه من المرفق وهو مجموع العظمين والابرة الداخلة بينهما وان قطع من فوق المرفق ندب غسل باقى عضده (وامسحوا برؤسكم) أى بعضها لما روى مسلم انه صلى الله عليه وسلم مسح بناصيته وعلى عمامته واكتفى بمسح البعض لانه المفهوم من المسح عند اطلاقه ولم يقل أحد بوجوب خصوص الناصية وهى الشعر الذى بين النزعتين والاكتفاء بها يمنع وجوب الاستيعاب ويمنع وجوب التقدير بالربع أو أكثر لانها دونه والباء اذا دخلت على متعدد كما فى الآية تكون للتبعيض أو على غيره كما فى قوله تعالى وليطوفوا بالبيت العتيق تكون للالصاق (فان قيل) صيغة الامر بمسح الرأس والوجه فى التيمم واحدة فهلا أوجبتم التعميم أيضا (أجيب) بأن المسح ثم بدل للضرورة فاعتبر بدله

ومسح الرأس أصل فاعتبر لفظه (فان قيل) المسح على الخف بدل فهلا وجب تعميمه كمبدله (أجيب) بقيام الاجماع على عدم وجوبه ولا فرق بين أن يمسح على بشرة الرأس أو شعرها ولو شعرة واحدة في حد الرأس لان ذلك يصدق عليها مسمى الرأس عرفا اذ الرأس اسم لما رأس وعلا وقوله تعالى (وأرجلكم) قرأه نافع وابن عامر وحفص والكسائي بنصب اللام عطفا على وجوهكم وقيل على أيديكم والباقون بالكسر على الجوار ومنهم من عطف على المجرور على قراءة الجر والممسوح ليفيد مسح الخف وعطف على المنصوب على قراءة النصب على المغسول ليفيد غسل الرجل المتجردة منه فيفيد كل من القراءتين غير ما أفادته الاخرى وقوله تعالى (الى الكعبين) وهما العظمان الناتئان في كل رجل من جانبين عنده فصل الساق والقدم دل على دخولهما في الغسل مادل على دخول المرفقين فيه وقد مر * (تنبيه) * الفصل بين الايدى والارجل المغسولة بالرأس الممسوح فيه دليل على وجوب الترتيب في طهارة هذه الاعضاء وعليه الشافعي رضي الله عنه ولو قطع بعض القدم وجب غسل الباقي وان قطع فوق الكعب فلا فرض عليه وندب غسل الباقي كما مر في اليد ويؤخذ من السنة وجوب النية فيه كغيره من العبادات (وان كنتم جنبا) من جماع وغيره (فاطهروا) أي بالغسل لجميع البدن لانه أطلق ولم يخص الاعضاء كما في الوضوء (وان كنتم مرضى) أي مرضا يضره الماء (أو على سفر) أي مسافرين سفرا مباحا طويلا أو قصيرا (أو جاء أحد منكم من الغائط) أي الموضع المطمئن من الارض الذي يقضي فيه حاجته الانسان التي لابد منها سمي باسمه الخارج للمجاورة قيل وفي ذلك حكمة وهي شدة عجز الانسان ليكف عن اعجابه وكبره وترفعه وفخره كما حكى أن بعض الامراء لقي بعض البله فلم يفسح له فغضب وقال كأنك لم تعرفني فقال بلى والله انى لاعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وحقق الباقون الهمزتين معا (أو لامستم النساء) بالذكر أو غيره أمنيتم أم لا وقرأ حمزة والكسائي بغير ألف بين اللام والميم والباقون بالالف (فلم تجدوا ماء) بعد طلبه لفقده حسا أو معنى بالعجز عن استعماله للمرض بجرح أو غيره (فتيمموا) أي اقصدوا (صعيدا) أي ترابا (طيبا) أي طهورا خالصا (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) مع المرفقين (منه) بضربتين والباء للالصاق وبينت السنة أن المراد استيعاب العضوين بالمسح وتقدم مثل هذه الآية في النساء قال البيضاوي ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة (ما يريد الله ليجعل عليكم) في الدين (من حرج) أي ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم (ولكن يريد ليطهركم) من الاحداث والذنوب فان الوضوء يكفر الذنوب (وليتم نعمته عليكم) ببيان شرائع الدين (لعلكم تشكرون) نعمه فيثيبكم قال البيضاوي والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والاصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وان آلتيهما مائع وجامد

ومو جبهما

ووجبهما حدث أصغر أو أكبر وان المبيح للعدول الى البدل مرض أو سفر وان الموعود عليه تطهير الذنوب واتمام النعمة (واذكروا نعمة الله عليكم) أى فى هدايته لكم الى الاسلام بعد ان كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وفى غير ذلك من جميع النعم ليذكركم المنعم ويرغبكم فى شكره لان كثرة النعم توجب على المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعم والانقياد لاوامره ونواهيه وقال تعالى نعمة الله ولم يقل نعم الله لان هذا الجنس لا يقدر عليه الا الله لان نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات وايصال الخيرات فى الدنيا والآخرة لا يعلمه الا الله تعالى وان المراد التأمل فى هذا النوع من حيث انه ممتاز عن نعمة غيره (فان قيل) قوله تعالى واذكروا نعمة الله يشعر بسبق النسيان وكيف يعقل نسيانها مع أنها متواترة متوالية علينا فى جميع الساعات والاوقات (أجيب) بأنها لكثرتها وتعاقبها صارت كالامر المعتاد فصار غاية ظهورها وكثرتها سببا لوقوعها فى محل النسيان (و) اذكروا (ميثاقه) أى عقده الوثيق (الذى واثقكم به) أى بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعكم ليلة العقبة على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره والمنشط مفعل من النشاط وهو الامر الذى ينشط له والمكره مفعل من الكره وهو الامر الذى تكرهه النفس وأضاف الميثاق الصادر من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى نفسه كقوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وكذلك بأنكم التزمتموه (اذ) أى حين (قلتم سمعنا وأطعنا) وفى ذلك تذكير بما أوجب الله له صلى الله عليه وسلم عليكم من الشكر بهدايته لكم الى الاسلام ثم حذركم عن نقض تلك العهود بقوله (واتقوا الله) أى فى ميثاقه أن تنقضوه (ان الله) الذى له صفات الكمال (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فى القلوب فبغيره أولى فيجازيكم عليها فضلا عن جليات أعمالكم وقيل المراد بالميثاق هو الذى أخذه الله منهم حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى قاله مجاهد وقيل المراد به الدلائل العقلية والشرعية التى نصبها الله على التوحيد والشرائع قاله السدى وأدغم أبو عمرو القاف فى واثقكم فى الكاف بخلاف عنه (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) أى مجتهدين فى القيام (لله) تعالى بحقوقه (شهداء) أى متيقظين محضرين افهامكم غاية الاحضار بحيث لا يشذ عنها شئ مما تريدون الشهادة به (بالقسط) أى العدل (ولا يجرمنكم) أى ولا يحملنكم (شنآن) أى شدة بغض (قوم) أى الكفار (على أن لا تعدلوا) فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا مما فى قلوبكم (اعدلوا) أى تحروا العدل واقصدوه فى كل شئ (هو) أى العدل (أقرب) من تركه (للتقوى) لكونه لطنافيها وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله اذا كان بهذه الصفة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه واحباؤه * (تنبيه) * يؤخذ من هذا أن التكاليف مع كثرتها محصورة فى نوعين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فقوله تعالى كونوا قوامين لله اشارة الى التعظيم لامر الله ومعنى القيام هو ان تقوم لله بالحق فى كل ما يلزمك وقوله تعالى شهداء بالقسط اشارة الى الشفقة على خلق الله وفيه قولان الاول قال عطاء

لا تخاف فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك الثانى أمرهم بالصدق فى افعالهم وأقوالهم وتقدم نظير هذه الآية فى النساء الا أن هناك قدم لفظة القسط وهنا أخرها قال ابن عادل فكان الغرض من ذلك والله أعلم ان آية النساء جىء بها فى معرض الاقرار على نفسه ووالديه وأقاربه فبدأ فيها بالقسط الذى هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة والتى هنا جىء بها فى معرض ترك العداوة فبدأ فيها بالامر بالقيام به لانه أردع للمؤمنين ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء فى كل معرض بما يناسبه وقال البيضاوى وتكرير هذا الحكم اما لاختلاف السبب كما قيل ان الاولى نزلت فى المشركين وهذه فى اليهود ولمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى اطفاء ثائرة الغيظ (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فيجازيكم به (وعد الله الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان بألسنتهم (وعملوا) تصديقا لهذا الاقرار (الصالحات) وحذف ثانى مفعولى وعد استغناء بقوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) فانه استئناف يبينه وقيل الجملة فى موضع المفعول فان الوعد ضرب من القول لانه لا ينعقد الا به فكأنه قال وعدهم هذا القول والاجر العظيم هو الجنة (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى النار التى اشتد توقدها فاشتدا حرارها فلا يراها أحد الا أحجم عنها فيلقون فيها ثم يلازمونها فلا ينفكون عنها كما هو شأن الصاحب وهذا من عادة الله سبحانه وتعالى انه يتبع حال أحد الفريقين حال الفريق الآخر وفاء بحق الدعوة وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) رسمت نعمت هنا بالتاء فوقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وفى الوصل الجميع بالتاء روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا الى صلاة الظهر يصلون معا وذلك بعسفان وهو واد بينه وبين مكة مرحلتان فى غزوة ذى أنمار فلما صلوا ندموا ان لا كانوا أكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف رواه مسلم وغيره والآية اشارة الى ذلك وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الخلفاء الاربعة يستقرضهم أى يطلب منهم مالا قرض الدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين لكن فى رواية البيهقى أن المقتولين كانا معاهدين لا مسلمين وأن الخروج كان لبنى النضير لا الى قريظة فقالوا نعم يا أبا القاسم وكانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات فقالوا قد آن لك ان تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخلا بعضهم ببعض وقالوا انكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش أنا فجاء الى رحا عظيمة ليطرحها عليه فامسك الله تعالى يده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا الى المدينة ثم دعا عليا وقال لا تبرح مقامك فمن خرج عليك من أصحابى فسأل عنى فقل توجه الى المدينة ففعل ذلك حتى

تناهوا اليه ثم تبعوه وقيل نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة فجاء اعرابى فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال من يمنعك منى قال الله فاسقطه جبريل من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فنزلت (اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) ليفتكوا بكم يقال بسط اليه لسانه اذا شتمه وبسط اليه يده اذا بطش به قال تعالى ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ومعنى بسط اليد مدها الى المبطوش به ألا ترى الى قولهم فلان بسيط الباع ومديد الباع بمعنى (فكف أيديهم عنكم) أى منعها ان تمد اليكم ورد مضرتها عنكم (واتقوا الله) فى جميع أموركم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فانه الكافى لايصال الخير ودفع الشر (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) أى العهد الموثق بما أخذ عليكم من السمع والطاعة (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) أى شاهدا على كل سبط نقيب يكفلهم بالوفاء بما عليهم الوفاء به كما بعثنا منكم ليلة العقبة اثنى عشر نقيبا وأخذنا منكم الميثاق على ما به كمال الاسلام والنقيب الذى ينقب عن احوال القوم كما قيل له عريف لانه يتعرفها ومن ذلك المناقب وهى الفضائل لانها لا تظهر الا بالتنقيب عنها روى أن بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالمسير الى أريحاء بالدأرض الشام وكان سكنها الكنعانيون الجبابرة وقال انى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا فيها وانى ناصركم وأمر موسى صلوات الله وسلامه عليه أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به يوثقه عليهم واختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى اسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا اجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا من سبط يهودا ويوشع بن نون من سبط افرائيم بن يوسف وكانا من النقباء (وقال) لهم (الله انى معكم) أى بالعون والنصرة (لئن) لام قسم (أقمتم الصلاة) التى هى وصلة العبد والخالق بجميع شروطها وأركانها (وآتيتم الزكاة) التى تقرب العبد الى الله عز وجل (وآمنتم برسلى) أى بجميع الرسل (وعزرتموهم) أى نصرتموهم وقيل التعزير التعظيم وقيل هو الثناء بخير قاله يونس وهو قريب من الثانى (فان قيل) لم أخر الايمان بالرسل عن اقام الصلاة وايتاء الزكاة مع انه مقدم عليهما (أجيب) بأن اليهود كانوا مقرين بأنه لابد فى حصول النجاة من اقام الصلاة وايتاء الزكاة الا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل فذكر أن بعد اقام الصلاة وايتاء الزكاة لابد من الايمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود والا لم يكن لاقام الصلاة وايتاء الزكاة تأثير فى حصول النجاة بدون الايمان بجميع الرسل (فان قيل) قوله تعالى (وأقرضتم الله قرضا حسنا) داخل تحت ايتاء الزكاة فما فائدة اعادته (أجيب) بأن المراد بالزكاة الواجبة وبالقرض الصدقة المندوبة وخصها تنبيها على شرفها وقرضا يحتمل المصدر والمفعول به

ولما كان الانسان محل النقصان فهو لا ينفك عن زلل أو تقصير وان اجتهد فى صلاح العمل قال سدا لجواب القسم المدلول عليه باللام فى لئن مسد جواب الشرط (لأكفرن) أى لأسترن (عنكم سيآتكم) أى فعلكم الذى من شأنه أن يسوء (ولأدخلنكم) فضلا ورحمة منى (جنات تجرى من تحتها الانهار) أى من شدة الرى (فمن كفر بعد ذلك) الميثاق (منكم فقد ضل) أى ترك وضيع (سواء السبيل) أى أخطأ طريق الحق والسواء فى الاصل الوسط (فان قيل) من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سواء السبيل (أجيب) بأن الضلال بعد أظهر وأعظم لانه الكفر بعد البيان العظيم فهو أعظم من غيره لانه قد يكون له قبل ذلك شبهة يتوهم له معذرة وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار دال قد عند الضاد والباقون بالادغام وقد تقدم ولما نقضوا الميثاق مرة بعد مرة بتكذيب الرسل وقتل الانبياء وكتمهم صفة النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى سورة البقرة قال تعالى (فبما) ما مزيدة للتأكيد (نقضهم ميثاقهم لعناهم) قال عطاء أبعدناهم من رحمتنا وقال الحسن ومقاتل مسخناهم قردة وخنازير وقال ابن عباس ضربنا الجزية عليهم (وجعلنا قلوبهم قاسية) أى لا تلين لقبول الايمان وقرأ حمزة والكسائى بغير ألف بعد القاف وتشديد الياء بمعنى رديئة من قولهم درهم قسى اذا كان مغشوشا وهو أيضا من القسوة فان المغشوش فيه يبس وصلابة والباقون بألف بعد القاف وتخفيف الياء وقوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) استئناف لبيان قسوة قلوبهم فانه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله تعالى والافتراء عليه (ونسوا حظا) أى نصيبا نافعا (مما ذكروا به) أى من التوراة على أنبيائهم عيسى ومن قبله عليهم الصلاة والسلام تركوه ترك الناسى للشئ لقلة مبالاتهم به بحيث لم يكن لهم رجوع اليه وقيل معناه انهم حرفوها فزلت لشؤمهم أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعته (ولا تزال) أى بما نطلعك عليه يا أكرم الخلق فهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (تطلع) أى تظهر (على خائنة) أى خيانة (منهم) بنقض العهد وغيره لان ذلك من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم (الا قليلا منهم) لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم (فاعف عنهم) أى امح ذنبهم ذلك (واصفح) أى أعرض عن ذلك أصلا ورأسا ان تابوا وآمنوا وعاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق ونسخ بآية السيف وقوله تعالى (ان الله يحب المحسنين) تعليل للامر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن احسان فضلا عن العفو عن غيره روى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره رجل من اليهود يقال له لبيد بن الاعصم وفى رواية البخارى أنه رجل من بنى زريق حليف لليهود وكان منافقا حتى كان يخيل اليه أنه يأتى النساء ولا يأتيهن وذلك أشد السحر ثم ان الله تعالى شفاه وأعلمه أن السحر فى بئر ذروان فقالت له عائشة رضى الله عنها أفلا أخرجته فقال لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت ان أثير على الناس شرا فأمرت به فدفنته وهو فى معجم الطبرانى الكبير وهذا لفظه وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال

كان رجل يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فعقد له عقدا فجعله فى بئر رجل من الانصار فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما أتدرى ما وجعه قال فلان الذى يدخل عليه عقد له عقدا فألقاه فى بئر فلان الانصارى فلو أرسل رجلا لوجد الماء أصفر فبعث رجلا فأخذ العقد فحلها فبرئ فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فلم يذكر له شيأ منه ولم يعاتبه وعن أنس رضى الله عنه أن امرأة يهودية سمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت أردت لاقتلك فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك أو قال على قالوا أفلا نقتلها قال لا قال أنس فما زلت أعرفها فى لهوات النبى صلى الله عليه وسلم فانظر الى عفوه صلى الله عليه وسلم واقتد به وفى ذلك غاية العفو والاحسان امتثالا لامر ربه تعالى

وقيل فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) أى وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم (فان قيل) هلا قال من النصارى (أجيب) بأنهم انما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله تعالى لقولهم لعيسى نحن أنصار الله وليسوا موصوفين به قال الحسن فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى (فنسوا) أى تركوا ترك الناسى (حظا) أى نصيبا عظيما يتنافس فى مثله (مما ذكروا به) أى فى الانجيل من الايمان ومن أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ونقضوا الميثاق (فأغرينا) أى أوقعنا (بينهم) أى النصارى بعد أن جعلناهم فرقا متباينين وهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وكذا بينهم وبين اليهود (العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) أى بتفرقهم واختلاف أهوائهم فكل فرقة تكفر الاخرى وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما (وسوف ينبئهم الله) أى يجزيهم فى الآخرة (بما كانوا يصنعون) فيجازيهم عليه وقوله تعالى (يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى ووحد الكتاب لانه للجنس (قد جاءكم رسولنا) وهو أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أى يوضح ايضاحا شافيا (كثيرا مما كنتم تخفون) أى تكتمون (من الكتاب) أى التوراة والانجيل كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد فى الانجيل (ويعفو عن كثير) أى مما تخفونه فلا يبينه اذا لم يكن فيه مصلحة فى أمر دينى أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه (قد جاءكم من الله نور) هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى جلا ظلمات الشك والشرك (وكتاب) هو القرآن العظيم (مبين) أى بين فى نفسه مبين لما كان خافيا على الناس من الحق (يهدى به الله) أى بالكتاب وقيل بهما ووحد الضمير لان المراد بهما واحد لانهما كواحد فى الحكم (من اتبع رضوانه) أى رضاه بأن آمن (سبل) أى طرق (السلام) أى السلامة من العذاب أو الله باتباع شرائع دينه (ويخرجهم من الظلمات) أى أنواع الكفر والوساوس الشيطانية (الى النور) أى الاسلام (باذنه) أى بارادته أو بتوفيقه (ويهديهم الى صراط مستقيم) أى طريق هى أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لا محالة وهو الدين الحق (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) وذلك حيث جعلوه الها وهم اليعقوبية فرقة من النصارى وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدى اليه حيث

اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم (قل) لهم يا محمد (فمن يملك) أي يدفع (من) عذاب (الله شيأ) أي من الاشياء التي يتوهم أنها قد تمنعه مما يريد (ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعا) أي لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح الها لقدر عليه فدل ذلك على انه بمعزل من الالوهية وانه مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات وأراد بعطف من في الارض على المسيح وأمه انهما من جنسهم لا تفاوت بينهم وبينهما في البشرية (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) أي بين النوعين وبين افرادهما مما به تمام أمرهما (يخلق ما يشاء) أي على أي كيف أراد (والله على كل شيء قدير) أي قادر على الاطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والارض ومن أصل كما خلق ما بينهما وينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كما خلق حواء من آدم أو من أنثى وحدها كعيسى بن مريم أو منهما كسائر الناس وقوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى) أي كل طائفة قالت على حدتها (نحن أبناء الله وأحباؤه) اختلف المفسرون في معنى ذلك على أربعة أوجه أحدها أن هذا من باب حذف المضاف أي نحن أبناء رسل الله كقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله الثاني ان لفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب قد يطلق أيضا على من اتخذ ابنا بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبة فالقوم لما ادعوا عناية الله بهم ادعوا انهم ابناء الله الثالث ان اليهود زعموا ان العزير ابن الله والنصارى زعموا ان المسيح ابن الله ثم زعموا ان العزير والمسيح كانا منهم فصار كأنهم قالوا نحن أبناء الله ألا ترى ان أقارب الملك اذا فاخروا أحدا يقولون نحن ملوك الدنيا والمراد كونهم مختصين بالشخص الذي هو الملك فكذا هنا الرابع قال ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم من عقاب الله فقالوا كيف تخوفنا بعذاب الله ونحن أبناء الله تعالى وأحباؤه فهذه الرواية انما وقعت عن تلك الطائفة وأما النصارى فانهم يتلون في الانجيل ان المسيح قال لهم اني ذاهب الى أبي وأبيكم وقيل أرادوا ان الله كالاب لنا في الحنو والعطف ونحن كالابناء له في القرب والمنزلة وقال ابراهيم النخعي ان اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري فبدلوه يا أبناء ابكاري فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وجملة الكلام ان اليهود والنصارى كانوا يرون لانفسهم فضلا على سائر الخلق بسبب أسلافهم من الانبياء الى ان ادعوا ذلك (قل) لهم يا محمد (فلم يعذبكم بذنوبكم) أي فان صح ما زعمتم فلم يعذبكم بذنوبكم ولا يعذب الاب ولده ولا الحبيب حبيبه وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والاسر والمسخ واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياما معدودة وقرأ البزي في الوقف فلمه بخلاف عنه (بل أنتم بشر من) جملة (من خلق) ه الله تعالى من البشر لكم ما لهم وعليكم ما عليهم (يغفر لمن يشاء) أي ممن خلقه منكم ومن غيركم تفضلا منه تعالى (ويعذب من يشاء) كذلك كما تشاهدونه يكرم ناسا منكم في هذه الدار ويهين آخرين لا اعتراض عليه وقرأ أبو عمرو بادغام الراء في اللام من يغفر والباء في الميم من يعذب بخلاف عنه ورقق ورش الراء على أصله (ولله ملك السموات والارض وما بينهما)

أى وأنتم مما بينهما فمن كان هكذا وقدرته هكذا كيف يستحق عليه البشر الضعيف حقا واجبا وكيف يملك عليه الجاهل بعبادته الناقصة دينا لازما كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ثم قال (واليه المصير) أى المرجع فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته (يا أهل الكتاب) أى من الفريقين (قد جاءكم رسولنا) محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أى ما كتمتم وحذف لتقدم ذكره أو الدين وحذف لظهوره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى ويبذل لكم البيان وجملة يبين لكم فى موضع الحال أى جاءكم رسولنا مبينا لكم وقوله تعالى (على فترة من الرسل) متعلق بجاءكم أى جاءكم على حين فتور من ارسال الرسل وانقطاع من الوحى قال ابن عباس يريد على انقطاع من الانبياء فشبه فقدهم وبعد العهد بهم ونسيان أخبارهم وبلاء رسومهم وآثارهم وانطماس معالمهم وأنوارهم بشىء كان يغلى ففتر ولم يبق من وصفه المقصود منه الا أثر خاف ورسم دارس يقال فتر الشىء يفتر فتورا اذا سكنت حركته وصار أقل مما كان عليه وسميت المدة بين الانبياء فترة لفتور الدواعى فى العمل بترك الشرائع واختلفوا فى مدة الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم فقال أبو عثمان النهدى ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر والكلبى خمسمائة وستة وأربعون سنة وعن الكلبى بين موسى وعيسى الف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم أربعة من الانبياء ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان العبسى وفى الآية امتنان عليهم بان بعث اليهم حين انطمست آثار الوحى وكانوا أحوج ما يكونون اليه قال البقاعى ولعله عبر بالمضارع فى يبين اشارة الى ان دينه وبيانه لا ينقطع أصلا بحفظ كتابه فكلما درست سنة منه الله تعالى بعالم يرد الناس اليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدا فلذلك لا يحتاج الامر الى نبى مجدد الا عند الفتنة التى لا تطيقها العلماء وهى فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ثم علل ذلك بقوله تعالى (أن) أى كراهة ان (تقولوا) أى اذا حشرتم وسئلتم عن أعمالكم (ما جاءنا من بشير) أى بشير فمن زائدة لتأكيد النفى أى يبشرنا لنرغب فنعمل بما يسعدنا فنفوز (ولا نذير) أى يحذرنا لنرهب فنترك ما يشقينا فنسلم وقوله تعالى (فقد جاءكم بشير ونذير) متعلق بمحذوف أى لا تعتذروا بما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير (والله على كل شىء قدير) أى فيقدر على الارسال تترا واحدا بعد واحد على التعاقب كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وعلى الارسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (واذ قال موسى لقومه) أى من اليهود (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم) أى انعامه فذكرهم بثلاثة امور أولها قوله تعالى (اذ) أى حين (جعل فيكم) أى منكم (أنبياء) فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى اسرائيل من الانبياء وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائى باظهار ذال اذ عند الجيم وأدغمها أبو عمرو وهشام وثانيها قوله تعالى (وجعلكم ملوكا) أى وجعل منكم أو فيكم فقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهموا بقتل عيسى وقال ابن عباس أصحاب خدم وحشم قال قتادة كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن قبلهم خدم وعن أبى سعيد الخدرى

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم وامرأة ودابة
يكتب ملكا وقال أبو عبد الرحمن الحبلي سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال
السنا من فقراء المسلمين المهاجرين فقال عبد الله له يا هذا ألك امرأة تأوي اليها قال نعم قال ألك
مسكن تسكنه قال نعم قال فأنت غني من الاغنياء قال ألك خادم قال نعم قال أنت من الملوك وقال
السدي وجعلكم احرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم
وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار فهو ملك
وثالثها قوله تعالى (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) وذلك لانه تعالى خصهم بأنواع عظيمة من
الاكرام كفلق البحر لهم وأهلاك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسلوى وأخرج
لهم المياه الغزيرة من الحجر وأظل فوقهم الغمام ولم يجتمع الملك والنبوة لقوم كما اجتمعا لهم
وكانوا في تلك الايام هم العلماء بالله تعالى وهم أحباب الله وأنصار دينه وقيل المراد بالعالمين
عالمو زمانهم وقال الكلبي ان جعلت العالمين عاما وجب تخصيص ما لئلا يلزم انهم أوتوا ما لم تؤت
هذه الامة من الكرامة والفضل وغير ذلك وان خصصته بعالمي زمانهم فباقية على عمومها اذ
لا محذور * ولما ذكرهم هذه النعم وشرحها لهم أمرهم بعد ذلك بجهاد العدو فقال (يا قوم
ادخلوا الارض المقدسة) أي المطهرة وهي أرض بيت المقدس سميت بذلك لانها كانت
مسكن الانبياء والمؤمنين وقال مجاهد هي الطور وما حوله وقال الكلبي هي دمشق وفلسطين
وبعض الاردن وهو بضم الدال وتشديد النون اسم نهر أو كورة بالشأم قاله الجوهري وقال
قتادة هي الشأم كلها (التي كتب الله لكم) أي في اللوح المحفوظ انها لكم مساكن وقال السدي
أمركم بدخولها (فان قيل) على القول الاول كيف كتبها لهم بعد قوله تعالى بعد فانها محرمة
عليهم (أجيب) بأجوبة أولها قال ابن عباس انها كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم
وعصيانهم ثانيها اللفظ وان كان عاما لكن المراد به الخصوص فكأنها كتبت لبعضهم وحرمت
على بعضهم ثالثها ان الوعد بقوله تعالى كتب الله لكم مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط
لم يوجد المشروط رابعها انها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الاربعون حصل ما كتب
(ولا ترتدوا على أدباركم) أي ولا ترجعوا مدبرين خوفا من العدو (فتنقلبوا خاسرين) أي في
سعيكم وذلك ان قوم موسى لما أخرجوا من مصر وعدهم الله تعالى اسكان أرض الشأم قال
الكلبي صعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر ما أدرك بصرك فهو مقدس وهو
ميراث لذريتك وكان بنو اسرائيل يسمون أرض الشأم أرض الموعد ثم بعث موسى عليه السلام
اثني عشر نقيبا ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الارض فلما دخلوا تلك الاماكن رأوا
أجساما عظيمة قال ابن عادل قال المفسرون فأخذهم أحد أولئك الجبارين وجعلهم في كمه مع
فاكهة قد حملها من بساتينه وأتى بهم للملك ونثرهم بين يديه وقال تعجبا للملك هؤلاء يريدون قتالنا
فقال الملك ارجعوا الى صاحبكم فاخبروه بما شاهدتم ثم انصرف هؤلاء النقباء الى موسى عليه
السلام فاخبروه بالواقعة فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه فلم يقبلوا قوله الا رجلين منهم وهما يوشع
ابن نون بن افرائيم بن يوسف فتى موسى وكالب بن يوفنا فتى موسى وكان من سبط يهوذا فانهما

بهذا الامر وقالوا هى بلاد طيبة كثيرة النعم والاقوام وان كانت أجسامهم عظيمة الا أن قلوبهم ضعيفة وأما العشرة الباقية من النقباء فانهم أوقعوا الجبن فى قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا ياليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم ويقولون لاصحابهم تعالوا نجعل علينا رؤساء وننصرف الى مصر فذلك قوله تعالى (قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين) أى عتاة قاهرين لغيرهم مكرهين لغيرهم على ما يريدون (وانا لن ندخلها) خوفا منهم (حتى يخرجوا منها) أى بأى وجه كان (فان يخرجوا منها فانا داخلون) لها وأصل الجبار المتعظم الممتنع عن القهر يقال نخلة جبارة اذا كان طويلة ممتنعة عن وصول الايدى اليها وسمى هؤلاء القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد فلما قال بنو اسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف الى مصر خر موسى وهرون عليهما السلام ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما فى قوله (قال رجلان من الذين يخافون) أى مخالفة أمر الله تعالى (أنعم الله عليهما) أى بالتوفيق والعصمة (ادخلوا عليهم الباب) أى باب قرية الجبارين ولا تخشوهم فانا رأيناهم وأجسادهم عظيمة بلا قلوب (فاذا دخلتموه فانكم غالبون) أى لان الله تعالى منجز وعده (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) به ومصدقين بوعده فأراد بنو اسرائيل ان يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما ثم (قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا) نفوا دخولهم على التأكيد والتأبيد وقوله تعالى (ما داموا فيها) بدل من أبدا بدل البعض (فاذهب أنت وربك فقاتلا) هم (انا ههنا قاعدون) عن القتال لا القعود الذى هو ضد القيام قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما وقيل وربك أى هرون لانه أكبر منه وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك فلما سمع من قومه ذلك (قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى) أى لا أملك التصرف ولا ينفذ أمرى الا فى نفسى وأخى لان الانسان لا يملك نفسه فى الحقيقة انما المراد به التصرف وانى أفعل ما أمرتنى به وأخى كذلك قاله اشكوى بثه وحزنه الى الله عز وجل لما خالفه قومه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هرون عليه السلام والرجلان المذكوران وان كانا يوافقانه لم يثق بهما كما بدمن تلون قومه أو ان المراد بأخى من يواخينى فى الدين فيدخلان فيه وأظهر وجوه الاعراب فى أخى أنه منصوب عطفا على نفسى والمعنى ولا أملك الا أخى مع ملكى نفسى دون غيرنا (فافرق) أى فافصل (بيننا وبين القوم الفاسقين) بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه أو بالتبعيد بيننا وبينهم (قال) تعالى (فانها) أى الارض المقدسة (محرمة عليهم) ان يدخلوها وقوله تعالى (اربعين سنة يتيهون) أى يتحيرون (فى الارض) اختلف فى العامل فى اربعين فقيل محرمة فيكون التحريم مؤقتا غير مؤبد فلا يخالف ظاهر قوله تعالى التى كتب الله لكم وقيل هو يتيهون أى يسيرون فيها متحيرين قال الزجاج والاول خطأ لانه جاء فى التفسير أنها محرمة عليهم ابدا فنصبها بيتيهون أى فيكون التحريم مطلقا قال البغوى لم يرد به تحريم تعبد وانما أراد تحريم منع وأوحى الله

تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام بى حلفت لاحرمن عليهم دخول الارض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الايام التى تجسسوا فيها سنة ولألقين جيفهم فى هذه القفار وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وقيل تسعة فراسخ قال ابن عباس وهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يسيرون كل يوم جادين فاذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود نور يطلع بالليل فيضىء لهم وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذى يحملون فاذا ولد لاحدهم مولود كان عليه ثوب مثل الظفر فى رأى العين يطول بطوله ويتسع بقدرة الله والله أعلم بما يحكى من ذلك (فان قيل) كيف ينزل المن والسلوى فى حال العقوبة (أجيب) بأنه سبب البقاء وهو أبق للعقوبة فهو كاقامة الحدود مع بقاء الخطاب واختلفوا هل كان موسى وهرون عليهما السلام فيهم أولا قال البغوى الاصح انهما كانا فيهم الا انه كان ذلك راحة لهما وزيادة فى درجتهما وعقوبة لهم وهو أبلغ فى الاجابة أن يشاهدوهما فى حال العقوبة فلا يصيبهما ما أصابهم ولم يدخل الارض المقدسة أحد ممن قال لن ندخلها بل هلكوا فى التيه وانما قاتل الجبابرة أولادهم واختلفوا هل مات موسى وهرون فى التيه أم لا قال البيضاوى الاكثرون انهما كانا معهم فى التيه وانهما ماتا فيه مات هرون قبل موسى وموسى بعده بسنة قال عمرو بن ميمون مات هرون قبل موسى وكانا خرجا الى بعض الكهوف فمات هرون فدفنه موسى وانصرف الى بنى اسرائيل فقالوا قتله لحبنا اياه وكان محببا فى بنى اسرائيل فتضرع موسى الى ربه فأوحى الله تعالى اليه ان انطلق بهم الى هرون فانى باعثه فانطلق بهم الى قبره فناداه ياهرون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال أناقتلتك قال لا ولكن مت قال فعد الى مضجعك وانصرفوا وعاش موسى صلى الله عليه وسلم بعده سنة روى عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ملك الموت الى موسى فقال له أجب أمر ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فقال ملك الموت يارب انك أرسلتنى الى عبد لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال فرد الله عينه وقال ارجع الى عبدى وقل له الحياة تريد فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعرة فانك تعيش بها سنة قال ثم مه قال ثم تموت قال الآن من قريب قال رب أدننى من الارض المقدسة رمية حجر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنى عنده لاريتكم قبره الى جانب الطريق عند الكثيب الاحمر قال وهب خرج موسى ليقضى حاجة فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيأ أحسن منه ولا مثل مافيه من الخضرة والنضرة والبهجة فقال لهم ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد كريم على ربه فقال ان هذا العبد لمن الله بمنزلة مارأيت كاليوم أحسن منه مضجعا فقالت الملائكة ياصفى الله تحب أن يكون لك قال وددت قالوا فانزل فاضطجع فيه وتوجه الى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه الى ربه ثم تنفس أسهل نفس فقبض الله تعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة التراب وقيل ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله روحه وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة

فلما

فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الاربعون سنة بعث الله تعالى يوشع عليه السلام نبيا فأخبرهم ان الله تعالى قد أمرهم بقتال الجبابرة فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى اسرائيل الى اريحاء ومعه تابوت الميثاق وأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر وفتحوها فى الشهر السابع ودخلوها فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت العصابة من بنى اسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال اللهم اردد الشمس على وقال للشمس انك فى طاعة الله وأنا فى طاعة الله فسأل الشمس ان تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وروى الامام أحمد فى مسنده حديثا ان الشمس لم تحبس على بشر الا ليوشع ليالى سار الى بيت المقدس ثم تتبع ملوك الشأم فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشأم وصارت الشأم كلها لبنى اسرائيل وفرق عماله فى نواحيها وجمع الغنائم فلم تنزل النار فأوحى الله تعالى الى يوشع ان فيها غلولا فمرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال هلم ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل باليواقيت والجواهر وكان قد غله فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ثم مات يوشع ودفن فى جبل ابراهيم وكان عمره مائة وستا وعشرين سنة وتدبر أمر بنى اسرائيل بعد موسى سبعا وعشرين سنة فسبحان الباقى بعد فناء خلقه * ولما ندم موسى عليه السلام على الدعاء عليهم قال تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) فبين تعالى انهم أحقاء بذلك لفسقهم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم) وهما هابيل وقابيل وقوله تعالى (بالحق) صفة مصدر محذوف أى تلاوة متلبسة بالحق * وقصتهما أن الله تعالى أوحى الى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر وكانت حواء تلد لآدم كل بطن غلاما وجارية وظاهر كلام المؤرخين ان آدم لا يحل له أن يتزوج بواحدة من بناته ولا من بنات أولاده ولهذا ألغز بعضهم بقوله ماتت زوجة رجل فحرم عليه نساء الدنيا وكان جميع ما ولدته أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته اقليما وثانيهم هابيل وتوأمته ليوذا وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله تعالى فى نسل آدم عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا فأراد آدم ان ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل وينكح هابيل اقليما وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل فذكر ذلك لولده فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى وأنا أحق بها فقال له أبوه انها لا تحل لك فأبى أن يقبل ذلك وقال ان الله لم يأمر بهذا وانما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين اذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها واذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسباع فخرجا ليقربا وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه وأضمر فى نفسه ما أبالى تقبل منى أم لا لا يتزوج أختى أبدا وكان هابيل صاحب غنم فعمد الى أحسن كبش فى غنمه فقربه وأضمر فى نفسه رضا الله عز وجل فوضعا

قربانهما على الجبل ثم دعا آدم فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل كما قال تعالى (اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما) وهو هابيل (ولم يتقبل من الآخر) وهو قابيل لانه سخط حكم الله ولم يخلص النية فى قربانه وقصد الى أخس ما عنده فغضب قابيل لرد قربانه وأضمر الحسد فى نفسه الى ان أتى آدم مكة لزيارة البيت الحرام فلما غاب آدم أتى قابيل لهابيل وهو فى غنمه (قال لاقتلنك) قال ولم قال لان الله تعالى قبل قربانك ورد قربانى وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس أنك خير منى و يفتخر ولدك على ولدى (قال) هابيل وماذنبى (انما يتقبل الله من المتقين) * فان قيل كيف كان قول هابيل انما يتقبل الله من المتقين جوابا لقوله لاقتلنك (أجيب) بأنه لما كان الحسد لاخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له انما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لامن قبلى فلم تقتلنى ومالك لاتعاقب نفسك ولاتحملها على تقوى الله تعالى التى هى السبب فى القبول فأجابه بكلام حليم مختصر جامع لمعان وفيه اشارة الى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره و يجتهد فى تحصيل ماصار به المحسود محظوظا لافى ازالة حظ المحسود فان ذلك مما يضره ولا ينفعه وأن الطاعة لاتقبل الامن مؤمن متق وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له مايبكيك وقد كنت وكنت فقال انى أسمع الله يقول انما يتقبل الله من المتقين (لئن) لام قسم (بسطت) أى مددت (الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب العالمين) قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وايم الله ان كان المقتول لاشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط الى أخيه يده خوفا من الله عز وجل لان الدفع لم يبح بعد أو تحريا لما هو الافضل قال عليه الصلاة والسلام كن عبد الله المقتول ولاتكن عبد الله القاتل وانما قال ما أنا بباسط فى جواب لئن بسطت للتبرى عن هذا الفعل الشنيع رأسا والتحرز من أن يوصف به و يطلق عليه ولذلك أكد النفى بالباء وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء من يدى والباقون بالسكون واتفق القراء السبعة على بقاء صفة الطاء فى بسطت وادغام الطاء فى التاء لان مخرج الطاء والتاء واحد ولكن الصفة مختلفة فالطاء منطبقة والتاء منفتحة والطاء مستعلية والتاء مستفلة والطاء مجهورة والتاء مهموسة و يقال فى ذلك ادغام الحرف وابقاء الصفة (انى أريد أن تبوء) أى ترجع (باثمى) أى باثم قتلى (واثمك) الذى ارتكبته من قبل (فتكون من أصحاب النار) ولا أريد أن أبوء باثمك اذا قتلتك فأكون منهم (فان قيل) كيف قال أريد أن تبوء باثمى واثمك وارادة القتل والمعصية لاتجوز (أجيب) بأن ذلك ليس بحقيقة ارادة لكنه لما علم انه يقتله لامحالة ووطن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب فكأنه صار مريدا لقتله مجازا وان لم يكن مريدا حقيقة (وذلك جزاء الظالمين) أى الراسخين فى وصف الظلم وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لى باحسانى فى ايثارى حياتك على حياتى وذلك جزاء المحسنين (فطوعت) قال قتادة فزينت (له نفسه قتل أخيه فقتله) قال ابن جريج تمثل له ابليس وأخذ له طائرا ووضع رأسه على حجر وشدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر اليه فعلمه القتل فرضخ قابيل

رأس هابيل بين حجرين وقتله وهو مستسلم وقيل اغتاله في النوم وهو نائم فشدخ رأسه فقتله (فأصبح) أي فصار (من الخاسرين) بقتله ولم يدر ما يصنع به لانه أول ميت على وجه الارض من بني آدم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة فحمله بعد قتله في جراب أربعين يوما وقال ابن عباس سنة حتى أروح وعكف عليه الطير والسباع تنظر متى يرمي فتأكله فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل احدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكنه ثم ألقاه في الحفرة وواراه وقابيل ينظر اليه فذلك قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه) أي الله أو ليريه الغراب أي ليعلمه لانه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز (كيف يواري) أي يستر (سوأة) أي جيفة (أخيه) وقيل عورته لانه كان سلبه ثيابه فلما رأى قابيل ذلك (قال ياويلتي) كلمة جزع وتحسر والالف فيها بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتي احضري فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة (أعجزت) أي مع ما جعل الله لي من القوة الناطقة (أن) أي عن أن (أكون) مع مالي من الجوارح الصالحة لاعظم من ذلك (مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي) أي لاهتدي الى ما اهتدى اليه وقوله تعالى فأواري عطف على أكون وليس جواب الاستفهام اذ ليس المعنى لو عجزت لواريت (فأصبح) أي بسبب قتله (من النادمين) أي على ما فعل لانه فقد أخاه وأغضب ربه وأباه وما انتفع من قتله بشئ قال المطلب بن عبد الله بن حنطب لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الارض بما فيها سبعة أيام وعن ابن عباس لما قتله وكان آدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الاطعمة وحمضت وأمر الماء واغبرت الارض فقال آدم عليه السلام قد حدث في الارض حدث وروى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض وشربت الارض الدم فسأله آدم عليه السلام بعد مجيئه من مكة عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا فقال بل قتلته ولذلك اسود جسدك قال فأين دمه ان كنت قتلته فحرم الله عز وجل على الارض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا وعن الواقدي ان السودان كلهم من ولده وعن محمد بن اسحق كان نوح نائما فرآه ابنه حام عريانا فلم يستره فاسود في الوقت فالسودان من ولده ورآه ابنه سام فستره وروى ان آدم صلوات الله وسلامه عليه مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه لما أتى من مكة الى الهند رثاه بشعر وهو

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون * وقل بشاشة الوجه المليح

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال من قال ان آدم قال شعرا فقد كذب ان محمدا والانبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام في النهي عن الشعر سواء وروى انه رثاه فلم يزل ينتقل حتى وصل الى يعرب ابن قحطان وكان يقول الشعر فنظر الى المرثية فاذا هي سجع فقال ان هذا يقوم منه شعر فرد المقدم الى المؤخر والمؤخر الى المقدم فوزنه شعرا وزيد فيه أبيات منها

أرى طول الحياة على غما * فهل أنا من حياتي مستريح
ومالي لا أجود بسكب دمع * وهابيل تضمنه الضريح

فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثا وتفسيره هبة الله أى انه خلف الله من هابيل علمه الله ساعات الليل والنهار وأعلمه الله عبادة الخلق فى كل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصى آدم وولى عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من يراه فأخذ بيد اخته اقليما وهرب بها الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس لعنه الله تعالى وقال له انما أكلت النار قربان أخيك لانه كان يعبد النار فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار قال مجاهد واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى بالطوفان أيام نوح عليه السلام وبقى نسل شيث عليه السلام قال البقاعى فى تفسيره والله أعلم بما روى من ذلك ولا يعتمد على مثل هذه الاحاديث وقد أحسن الطبرى بقوله أخبر الله تعالى بقتله ولا خبر يقطع العذر بصفة قتله على ماذكرنا منه فى مثله ولا فائدة فى طلب الصحيح منه فى الدين اه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل (من أجل ذلك) أى الذى فعله قابيل (كتبنا) أى قضينا (على بنى اسرائيل) فى التوراة لانهم كانوا أشد الناس جراءة على القتل ولذلك كانوا يقتلون الانبياء (انه) أى الشأن (من قتل نفسا) أى من بنى آدم (بغير نفس) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أو) قتلها بغير (فساد) أتاه (فى الارض) كالشرك والزنا بعد الاحصان وقطع الطريق وكل ما يبيح اراقة الدم (فكأنما قتل الناس جميعا) أى من حيث هتك حرمة الدماء وسن القتل وجراءة الناس عليه أو من حيث ان قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استحلال غضب الله والعذاب العظيم (ومن أحياها) أى بسبب من الاسباب كانقاذ من هلكة أو غرق أو دفع من يريد أن يقتلها ظلما (فكأنما أحيا الناس جميعا) قال ابن عباس من حيث عدم انتهاك حرمتها وصونها قال سليمان بن على قلت للحسن يا أبا سعيد أهى لنا أى هذه الآية كما كانت لبنى اسرائيل قال اى والذى لا اله غيره ما كانت دماء بنى اسرائيل أكرم على الله من دمائنا اه ومما يحسن ايراده هنا ما ينسب لامير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وقيل انه للشافعى رحمه الله تعالى

النَّاسُ من جهة التمثيل أكفاء * أبوهم آدم والام حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة * وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان يكن لهم فى أصلهم حسب * يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر الا لاهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه * وللرجال على الافعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله * والجاهلون لاهل العلم أعداء
فنز بعلم تعش حيا به أبدا * فالناس موتى وأهل العلم أحياء

(ولقد جاءتهم) أى بنى اسرائيل (رسلنا بالبينات) أى المعجزات وقرأ أبو عمرو بسكون السين

والباقون بضمها (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) أى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم وأرسلنا اليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيد للامر وتجديد للعهد (فى الارض لمسرفون) أى مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك ولا يبالون به وبهذا اتصلت القصة بما قبلها * ونزل فى العرنيين لما قدموا المدينة وهم مرضى أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وهم كذبة فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ابل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الابل (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أى يحاربون أولياءهما وهم المسلمون جعل محاربتهم محاربتهما تعظيما (ويسعون فى الارض فسادا) أى بقطع الطريق (أن يقتلوا) أى ان قتلوا (أو يصلبوا) أى مع ذلك ان قتلوا وأخذوا المال أى والصلب ثلاثا بعد القتل (أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال (أو ينفوا من الارض) أى ان أرعبوا ولم يأخذوا شيأ أى ينفوا من بلد الى بلد ان رأى الامام ذلك وان رأى حبسهم فعله ذلك ولو فى بلدهم هكذا فسر الآية ابن عباس رضى الله عنهما فحمل كلمة أو على التنويع لا التخيير كما فى قوله تعالى وقالوا كونوا هودا أو نصارى أى قالت اليهود كونوا هودا وقالت النصارى كونوا نصارى اذ لم يخير أحد منهم بين اليهودية والنصرانية (ذلك) أى الجزاء العظيم (لهم خزى) أى ذل واهانة (فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) هو عذاب النار واحتج أكثر أهل العلم على أن هذه الآية نزلت فى قطاع الطريق بقوله تعالى (الا الذين تابوا) أى رجعوا عما كانوا عليه من المحاربة خوفا من الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) أى فان حقوقه تعالى تسقط عنهم كالقطع والصلب وتحتم القتل ويبقى القصاص والمال لانه حق آدمى لا يسقط بالتوبة (فاعلموا أن الله غفور) لهم ما أتوه (رحيم) بهم ولو كانت نزلت فى الكفار لكانت توبتهم بالاسلام وهو رافع للعقوبة قبل القدرة وبعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى خافوا عقابه بأن تطيعوه (وابتغوا اليه الوسيلة) أى اطلبوا ما تتوسلون به الى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل الى كذا اذا تقرب اليه قال لبيد

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم * ألا كل ذى لب الى الله واسل

وفى الحديث الوسيلة منزلة فى الجنة (وجاهدوا فى سبيله) بمحاربة أعدائه لتكون كلمة الله هى العليا (لعلكم تفلحون) بالوصول الى الله عز وجل والفوز بكرامته (ان الذين كفروا لو) ثبت (أن لهم ما فى الارض) من صنوف الاموال وأكده بقوله (جميعا ومثله معه ليفتدوا به) أى ليجعلوه فدية لانفسهم (من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم) أى لان المدفوع اليه ذلك تام القدرة وله الغنى المطلق (ولهم) بعد ذلك (عذاب أليم) أى مؤلم (يريدون أن يخرجوا) أى أن يكون لهم الخروج فى وقت ما اذا رفعهم اللهب الى أن يكاد أن يلقيهم خارجا (من النار) ثم نفى خروجهم على وجه التأكيد فقال (وما هم بخارجين منها) أى ما يثبت لهم خروج اصلا (ولهم) خاصة دون عصاة المؤمنين (عذاب مقيم) أى دائم تارة بالبرد وتارة بالحر وتارة بغيرهما (فان قيل)

قال تعالى لا يذوقون فيها بردا فهو ينافي ما ذكر (أجيب) بأن المراد بالبرد في الآية النوم فلا منافاة وأل في قوله تعالى (والسارق والسارقة) موصولة مبتدأ أي والذي سرق والتي سرقت ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو (فاقطعوا أيديهما) أي يمين كل واحد منهما من الكوع كما بينته السنة كما بينت أنه لابد أن يكون المسروق ربع دينار فصاعدا من حرز مثله من غير شبهة له فيه وأنه اذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ثم اليد اليسرى ثم الرجل اليمنى ثم بعد ذلك يعزر * ثم علل تعالى ذلك بقوله (جزاء بما كسبا) أي فعلا من ذلك ثم علل تعالى هذا الجزاء بقوله (نكالا) أي عقوبة لهما (من الله) وأعاد الاسم الاعظم تعظيما للامر فقال (والله عزيز) أي غالب على أمره (حكيم) أي بالغ الحكم والحكمة في خلقه (فمن تاب) أي من السراق (من بعد ظلمه) أي سرقته (وأصلح) أمره بالتخلص من التبعات والعزم على أن لا يعود اليها (فان الله يتوب عليه) أي يقبل توبته تفضلا منه تعالى (ان الله غفور رحيم) فلا يعذبه في الآخرة وأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الاكثرين واذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند اكثر أهل العلم وقال سفيان الثوري وأصحاب الرأي لا غرم عليه وبالاتفاق ان كان المسروق قائما عنده يسترد وتقطع يده لان القطع حق الله عز وجل والغرم حق العبد ولا يمنع أحدهما الآخر وقوله تعالى (ألم تعلم) الاستفهام للتقرير والخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وقيل معناه ألم تعلم أيها الانسان فيكون خطابا لكل أحد من الناس (أن الله له ملك السموات والارض) أي أن الملك خالص له عن جميع الشوائب (يعذب من يشاء) تعذيبه (ويغفر لمن يشاء) المغفرة له (والله على كل شئ قدير) أي ومنه التعذيب والمغفرة فليس هو كغيره من الملوك الذين قد يعجز أحدهم عن تقريب ابنه وتبعيد أعدى عدوه (يا أيها الرسول) أي المبلغ لما أرسل به وقوله تعالى (لا يحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي (الذين يسارعون في الكفر) أي يقعون فيه بسرعة بأن يظهروه اذا وجدوا منه فرصة وقوله تعالى (من الذين قالوا آمنا) للبيان وقوله تعالى (بأفواههم) أي بألسنتهم متعلق بقالوا (ولم تؤمن قلوبهم) وهم المنافقون وقوله تعالى (ومن الذين هادوا) عطف على من الذين قالوا وقوله تعالى (سماعون للكذب) خبر مبتدأ محذوف أي هم سماعون والضمير في سماعون للفريقين أو للذين يسارعون ويجوز أن يكون مبتدأ ومن الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون للكذب الذي افترته أحبارهم سماع قبول (سماعون) منك (لقوم) أي لاجل قوم (آخرين) من اليهود (لم يأتوك) أي لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا في البغضاء (يحرفون الكلم) أي الذي في التوراة كآية الرجم (من بعد مواضعه) أي التي وضعها الله عليها أي يبدلونه (يقولون) أي الذين يحرفونه لمن يرسلونهم للنبي صلى الله عليه وسلم (ان أوتيتم هذا) أي المحرف أي أفتاكم به محمد صلى الله عليه وسلم (فخذوه) أي فاقبلوه منه واعلموا أنه الحق واعملوا به (وان لم تؤتوه) أي بأن أفتاكم بخلافه (فاحذروا) أن تقبلوه منه فانه الباطل والضلال روى ان شريفا في خيبر زنا بشريفة وكانا محصنين وحدهما الرجم في التوراة

فكرهوا رجمهما لشرفهما وقالوا ان هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب فأرسلوهما مع رهط منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم أى تسويد الوجه من الحمة بالضم والتشديد وهى السواد فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد أخبرنا عن الزانى والزانية اذا أحصنا ما حدهما فى كتابك فقال هل ترضون بقضائى فقالوا نعم فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم فقال هو أى رجل فيكم فقالوا هو أعلم يهودى بقى على وجه الارض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال تجعلونه بينى وبينكم قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا اله الا هو الذى فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن قال نعم فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبت أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله النبى الامى العربى الذى بشر به المرسلون فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده وقال اللهم انى أول من أحيا أمرك اذ اماتوه فأنزل الله عز وجل يا أيها الرسول الآية وروى أن اليهود جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم قالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله ابن سلام كذبتم ان فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما بعدها فقال له عبد الله ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة * (فائدة) * كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها وبقى حكمها روى البيهقى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبته ان الله بعث محمدا وأنزل عليه كتابا وكان فيما أنزل عليه آية الرجم فتلوناها ووعيناها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم وسيأتى الكلام فى سورة الاحزاب أن هذه الآية كانت فيها (ومن يرد الله فتنته) أى اضلاله أو فضيحته (فلن تملك) أى لن تستطيع (له من الله شيأ) فى دفعها واذا لم تملك أنت وأنت أقرب الخلق الى الله تعالى فمن يملك (أولئك) أى البعداء من الهدى (الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) اى من الكفر ولو أراده لكان وهذا كما ترى نص على فساد قول المعتزلة بأنه أراد ذلك (لهم فى الدنيا خزى) أى ذل بالفضيحة والجزية والخوف من المؤمنين (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو الخلود فى النار والضمير للذين

هادوا ان استأنفت بقوله تعالى ومن الذين والا فللفريقين وقوله تعالى (سماعون للكذب) كرره للتأكيد (أكالون للسحت) وهو كل مالايحل كسبه وهو من سحته اذا استأصله لانه مسحوت البركة كما قال الله تعالى يمحق الله الربا والربا باب منه وكانوا يأخذون الرشا على الاحكام وتحليل الحرام وعن الحسن رحمه الله تعالى كان الحاكم فى بنى اسرائيل اذا أتاه أحدهم برشوة جعلها فى كمه فأراه اياها وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر الى خصمه فيأكل الرشوة ويسمع الكذب وعنه صلى الله عليه وسلم كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بضم الحاء والباقون بالسكون (فان جاؤك) أى لتحكم فيهم (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) هذا تخيير لرسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا هل نسخ هذا التخيير أم لا فقال أكثر أهل العلم هو محكم ثابت وليس فى سورة المائدة منسوخ وحكام المسلمين بالخيار فى الحكم بين أهل الكتاب ان شاؤا حكموا وان شاؤا لم يحكموا بحكم الاسلام وهو قول النخعى والشعبى وعطاء وقتادة وقال قوم يجب على حكام المسلمين ان يحكموا بينهم والآية منسوخة نسخها قوله تعالى وان احكم بينهم بما أنزل الله وهو قول مجاهد وعكرمة وروى ذلك أيضا عن ابن عباس وقال لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى لاتحلوا شعائر الله نسخها قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله ومذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه ان الذميين وان اختلفت ملتهما كيهودى ونصرانى يجب الحكم بينهما عند الترافع وكذا الذمى مع المعاهد بخلاف المعاهدين فان الحكم لايجب بينهما لانهم لم يلتزموا بأحكامنا ولا التزمنا دفع بعضهم عن بعض فيحمل التخيير على هذا والآية الاخرى على أهل الذمة ويعلم من ذلك ان الحكم بين الحربيين لايجب بطريق الاولى ولو ترافع الينا ذميان فى شرب خمر لم نحدهما وان رضيا بحكمنا لانهما لايعتقدان تحريمه ولو ترافع الينا مسلم وذمى وجب الحكم بينهما اجماعا (وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) بأن يعادوك لاعراضك عنهم فان الله تعالى يعصمك من الناس (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) أى بالعدل الذى أمر الله تعالى به (ان الله يحب) أى يثيب (المقسطين) أى العادلين فى الحكم وقوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) استفهام تعجيب من تحكيمهم من لايؤمنون به والحال ان الحكم منصوص عليه فى كتابهم الذى هو عندهم وتنبيه على انهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا منه مايكون أهون عليهم وان لم يكن حكم الله تعالى فى زعمهم (ثم يتولون) أى يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم (من بعد ذلك) التحكيم وهذا داخل فى حكم التعجب فانه معطوف على يحكمونك (وما أولئك) أى البعداء من الله (بالمؤمنين) أى بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعنك وبه (انا أنزلنا التوراة فيها هدى) يهدى من الضلالة الى الحق (ونور) يكشف مااشتبه عليهم من الاحكام (يحكم بها النبيون) أى من بنى اسرائيل وقوله تعالى (الذين أسلموا) ذكر على وجه الصفة للانبياء للتنويه بشأن الصفة دون التخصيص والتمييز لانهم كلهم بهذه الصفة منقادون لله تعالى وللتنبيه على عظم قدرها

حيث وصف بها عظيم كما وصف الانبياء بالصلاح والملائكة بالايمان فان أوصاف الاشراف أشراف الاوصاف وقوله تعالى (للذين هادوا) متعلق بأنزل أو بيحكم أى يحكمون بها فى تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم وقوله تعالى (والربانيون) أى الزهاد الذين انسلخوا من الدنيا وبالغوا فيما يوجب النسبة الى الرب (والاحبار) أى العلماء السالكون طريقة أنبيائهم عطف على النبيون (بما) أى بسبب الذى (استحفظوا) أى استودعوه (من كتاب الله) أى استحفظهم الله تعالى اياه بأن يحفظوه من التضييع والتحريف أو بأن يحفظ فلا ينسى وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتاب الله من هذين الوجهين معا أحدهما ان يحفظ فى صدورهم ويدرسوه بألسنتهم والثانى أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه والراجع الى ما محذوف ومن للتبيين والضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا وكذلك الضمير فى قوله تعالى (وكانوا عليه شهداء) أى رقباء حاضرين لا يغيبون عنه ولا يتركون مراعاته أصلا وقوله تعالى (فلا تخشوا الناس واخشونى) نهى للحكام أن يخشوا غير الله تعالى فى حكوماتهم خوفا من سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من الاقرباء والاصدقاء وقرأ أبو عمرو باثبات الياء فى الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وصلا ووقفا (ولا تشتروا) أى تستبدلوا (بآياتى) اى بأحكامى التى أنزلتها (ثمنا قليلا) أى من الرشا وغيرها للكتموا أو تبدلوها كما فعل أهل الكتاب وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال عكرمة معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق فحمل الآيات على هذا وهو ظاهر وقال الضحاك وقتادة نزلت هذه الآيات الثلاث فى اليهود دون من أساء من هذه الامة (وقيل) أولئك هم الكافرون فى المسلمين لاتصالها بخطابهم والظالمون فى اليهود والفاسقون فى النصارى (وكتبنا) أى فرضنا (عليهم) أى اليهود (فيها) اى التوراة (أن النفس) تقتل (بالنفس) اذا قتلتها (والعين) تفقأ (بالعين) أى بعين من فقأها (والانف) تجدع (بالانف) أى بأنف من جدعه (والاذن) تقطع (بالاذن) أى باذن من قطعها (والسن) تقلع (بالسن) أى بسن من قلعها (والجروح قصاص) أى يقتص فيها اذا أمكن كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وما لا يمكن فيه القصاص فيه الحكومة وهذا الحكم وان كتب عليهم فهو مفروض فى شرعنا وقرأ الكسائى هذه الالفاظ الخمسة وهى العين بالعين الى آخرها بالرفع على انها جمل معطوفة على ان وما فى حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل كتبنا عليهم النفس بالنفس والعين بالعين فان الكتابة والقراءة يقعان على الجمل كالقول أو مستأنفة ووافق الكسائى ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فى الجروح فقط والباقون بالنصب فى الجميع وسكن نافع الذال من الاذن وقرأ الباقون برفعها (فمن تصدق به) أى القصاص بأن مكن من نفسه (فهو) أى التصدق بالقصاص (كفارة له) أى لما أتاه فلا يعاقب ثانيا فى الآخرة وقيل فمن تصدق به من أصحاب الحق فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله تعالى به من سيآته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به وقيل فهو كفارة للجانى اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه (ومن لم يحكم بما أنزل الله) أى

فى القصاص وغيره (فأولئك هم الظالمون) أى الذين تركوا العدل فضلوا فصاروا كمن يمشى فى الظلام فان كان تدينا بالترك كان نهاية للظلم وهو الكفر والا كان عصيانا لان الله تعالى أحق أن يخشى ويرجى (وقفينا) أى أتبعنا (على آثارهم) أى النبيين الذين يحكمون بالتوراة (بعيسى بن مريم) صلى الله عليه وسلم ونسبه تعالى الى أمه اشارة الى أنه لا والد له تكذيبا لليهود والى أنه عبد مربوب تكذيبا للنصارى (مصدقا لما بين يديه) أى قبله مما أتى به موسى عليه السلام (من التوراة) وأشار تعالى بقوله (وآتيناه الانجيل) أى أنزلناه عليه كما أنزلنا التوراة على موسى عليهما الصلاة والسلام الى أنه ناسخ لكثير من أحكامها (فيه هدى) من الضلالة (ونور) أى بيان للاحكام وقوله تعالى (ومصدقا) أى الانجيل حال (لما بين يديه) أى قبله * ولما كان الذى نزل قبله كثيرا بين المراد بقوله (من التوراة) أى لما فيهما من الاحكام فالاول صفة لعيسى عليه الصلاة والسلام والثانى صفة لكتابه أى فهو والتوراة والانجيل يتصادقون فكل من الكتابين يصدق الآخر وهو يصدقهما لم يتخالفوا فى شئ بل هو متخلق بجميع ما أتى به (وهدى وموعظة للمتقين) أى كل ما فيه يهتدون به ويتعظون فترق قلوبهم ويعتبرون به (وليحكم أهل الانجيل) وهم اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام (بما أنزل الله فيه) أى من الاحكام وقرأ حمزة بكسر اللام ونصب الميم عطفا على معمول آتيناه والباقون بكسر اللام وسكون الميم على الامر أى فلمنته أهل التوراة عما نسخ منها وليحكم أهل الانجيل الخ (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون) أى المختصون بكمال الفسق فان كان تدينا كان كفرا وان كان لاتباع الشهوات كان مجرد معصية لان الحظوظ والشهوات تحمل على الخروج من دائرة الشرع مرة بعد أخرى (وأنزلنا اليك) يا محمد خاصة (الكتاب) أى الكامل فى جمعه لكل ما يطلب منه وهو القرآن وقوله تعالى (بالحق) متعلق بأنزلنا (مصدقا لما بين يديه) أى قبله * ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشئ الواحد عبر تعالى بالمفرد فقال (من الكتاب) أى الكتب المنزلة التى جاء بها الانبياء من قبل فاللام الاولى فى الكتاب للعهد لانه عنى به القرآن والثانية للجنس لانه عنى به جنس الكتب المنزلة (ومهيمنا عليه) أى رقيبا على سائر الكتب أى يحفظها من التغيير والتبديل ويشهد لها بالصحة والثبات (فاحكم بينهم) أى بين جميع أهل الكتاب اذا ترافعوا اليك (بما أنزل الله) اليك فى هذا الكتاب الناسخ لكتبهم المهيمن عليها فى اثبات ما أسقطوه منها من أمرهم باتباعك ونحو ذلك من أوصافك (ولا تتبع أهواءهم) فيما خالفه عادلا (عما جاءك من الحق) بالانحراف عنه الى ما يشتهونه (لكل جعلنا منكم) أيها الامم (شرعة) أى دينا موصلا الى الحياة الابدية والشرعة هى الطريقة الى الماء شبه بها الدين لانها موصلة الى الماء الذى به الحياة الدنيوية (ومنهاجا) أى طريقا واضحا فى الدين ناسخا لما قبله وقد جعلنا شرعتك ناسخة لجميع الشرائع وأمثاله مما يدل على أنا لسنا متعبدين بالشرائع المتقدمة وأن كل رسول غير متعبد بشرع من قبله وهو محمول على الفروع وما دل على الاجتماع كآية شرع لكم من الدين محمول على الاصول (ولو شاء الله لجعلكم أمة)

أي جماعة (واحدة) أي متفقة على دين واحد في جميع الاعصار من غير نسخ وتحويل (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء أن تكونوا على شرائع مختلفة (ليبلوكم) أي ليختبركم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة ليبرز الى الوجود المطيع منكم والعاصي (فاستبقوا الخيرات) أي ابتدروها انتهازا للفرصة بغاية الجهد فعل من يسابق شخصا يخشى العار بسبقه وقوله تعالى (الى الله مرجعكم جميعا) أي بالبعث استئناف فيه تعليل للامر بالاستباق ووعد للمبادرين ووعيد للمقصرين (فينبئكم) أي يخبركم (بما كنتم فيه تختلفون) أي من أمر الدين ويجزى كلا منكم بعمله وقوله تعالى (وان احكم بينهم بما أنزل الله) عطف على الكتاب أي أنزلنا اليك الكتاب والحكم أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن أحكم وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر نون وأن احكم والباقون بضمها (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان) أي لئلا يفتنوك أي يضلوك ويصرفوك (عن بعض ما أنزل الله اليك) روى أن احبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد قد عرفت أنا احبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (فان تولوا) أي عن الحكم المنزل وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم) أي بالعقوبة في الدنيا (ببعض ذنوبهم) أي التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الآخرة (وان كثيرا من الناس) أي هم وغيرهم (لفاسقون) أي خارجون عن دائرة الطاعات ومعادن السعادات (أفحكم الجاهلية) أي خاصة مع ان احكامها لا يرضى بها عاقل لكونها لم يدع اليها كتاب بل هي مجرد أهواء وهم أهل الكتاب (يبغون) أي يريدون باعراضهم عن حكمك مع ما دعا اليه كتابهم من اتباعك وشهد كتابك المعجز عن معارضته من وجوب رسالتك الى جميع الخلائق وهذا استفهام انكاري وقرأ ابن عامر بالتاء على الالتفات من الغيبة الى الخطاب وهو أدل على الغضب والباقون بالياء على الغيبة وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما كان يحكم به الجاهلية من التفاضل بين القتلى أي بين ديات بعضهم على بعض (ومن) أي لا أحد (أحسن من الله حكما لقوم) أي عند قوم (يوقنون) به خصوا بالذكر لانهم الذين يتدبرون الامور ويتخيلون الاشياء بانظارهم فيعلمون ان لا أحسن حكما من الله جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أي توالونهم وتوادونهم وتعاشرونهم معاشرة الاحباب وقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) فيه ايماء الى علة النهي أي فانهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين واجماعهم على مضارتكم (ومن يتولهم منكم) أي ومن والاهم منكم (فانه منهم) أي من جملتهم وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم أو لأن الموالين كانوا منافقين (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار ومن لم يرد الله هدايته لم يقدر أحد أن يهديه * (تنبيه) * اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول المنافق وذلك انهما اختصما فقال عبادة ان لي أولياء من

اليهود كثيرا عددهم شديدة شوكتهم وانى ابرأ الى الله والى رسوله من موالاتهم ولا مولى لى الا
الله ورسوله فقال عبد الله لكنى لا أبرأ من ولاية اليهود لانى اخاف الدوائر ولا بد لى منهم فأنزل الله
تعالى هذه الآية وقال السدى لما كانت وقعة أحد اشتدت على طائفة من الناس وتخوفوا
أن تدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودى آخذ منه أمانا انى أخاف
أن تدال علينا اليهود وقال الآخر اما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشأم وآخذ منه أمانا
فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن المنذر بعثه النبى صلى الله عليه
وسلم الى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا اذا نزلنا فجعل
اصبعه على حلقه يعنى أنه الذبح أى يقتلكم فنزلت (فترى الذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف
اعتقاد كعبد الله بن أبى (يسارعون فيهم) أى فى موالاتهم (يقولون) معتذرين عنها (نخشى)
أى نخاف خوفا بالغا (أن تصيبنا دائرة) أى مصيبة تحيط بنا ويدور بها الدهر علينا من جدب
أو غلبة ولا يتم أمر محمد فلا يميرونا (فعسى الله أن يأتى بالفتح) أى باظهار الدين على الاعداء
(أو أمر من عنده) أى بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم (فيصبحوا) أى هؤلاء المنافقون (على
ما أسروا فى أنفسهم) أى على ما استبطنوه من الكفر والشك فى أمر الرسول فضلا عما أظهروه
مما أشعر به نفاقهم (نادمين) أى ثابت لهم غاية الندم فى الصباح وغيره وقوله تعالى (ويقول
الذين آمنوا) قرأه عاصم وحمزة والكسائى بالرفع على أنه كلام مبتدأ ويؤيده قراءة ابن كثير
ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو وعلى أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرأ
بالنصب ابو عمرو عطفا على يأتى باعتبار المعنى وكأنه قال عسى الله أن يأتى بالفتح ويقول الذين
آمنوا (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (انهم لمعكم) فى الدين
أى يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما من الله تعالى عليهم من
الاخلاص أو يقولون لليهود فان المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله
وان قوتلتم لننصرنكم (حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى الصالحة (فأصبحوا) أى فصاروا
(خاسرين) الدنيا بالفضيحة والآخرة بالعقاب (يا أيها الذين آمنوا) أى أقروا بالايمان
(من يرتدد) أى يرجع (منكم عن دينه) الى الكفر وهذا من الكائنات التى أخبر الله تعالى
عنها فى القرآن قبل وقوعها وكان أهل الردة احدى عشرة فرقة ثلاثة فى عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم الاولى بنو مدلج وكان رئيسهم ذو الحمار بالحاء المهملة قال التفتازانى كان له حمار
يقول له قف فيقف وسر فيسير وكانت النساء أى نساء أصحابه يتعطرون بروث حماره وقيل
يعقدون روثه بخمرهن فسمى ذو الخمار أيضا بالخاء المعجمة وذو هنا وفيما قبله بالواو على الحكاية
وهو العنسى بفتح العين وسكون النون منسوب الى عنس وهو يزيد بن مذحج بن ادد بن كعب العنسى
ويلقب بالاسود كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلادها وأخرج عمال رسول الله صلى الله
عليه وسلم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه والى
سادات اليمن وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم والنهوض الى حرب الاسود فقتله

فيروز الديلمي على فراشه قال ابن عمر رضى الله عنهما وأتى الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التى قتل فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل الاسود البارحة قتله رجل مبارك قيل ومن هو قال فيروز فسر المسلمون فبشر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الاسود وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الاول وكان ذلك أول فتح جاء الى أبى بكر رضى الله تعالى عنه وأرضاه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب وكان تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة عشر وزعم أنه اشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لى ونصفها لك وبعثه اليه مع رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ثم أجاب من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فى جيش كبير حتى أهلكه الله تعالى على يد وحشى غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حرب شديد وكان وحشى يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الاسلام أراد فى جاهليتى واسلامى الفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد وكان طليحة أحد من ارتد وادعى النبوة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من قوتل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الردة فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه اليه فهزمهم خالد بن الوليد رضى الله عنه بعد قتال شديد وأفلت طليحة فر على وجهه هاربا نحو الشأم ثم انه أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه الاولى فزارة قوم عيينة بن حصن والثانية غطفان قوم قرة بن سلمة والثالثة بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل والرابعة بنو يربوع قوم مالك بن نويرة والخامسة بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها المسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرى أتت سجاح ووالاها مسيلمة * كذابة فى بنى الدنيا وكذاب والسادسة كندة قوم الاشعث بن قيس والسابعة بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه وهى غسان قوم جبلة بن الايهم تنصر وسار الى الشأم والجمهور انه مات على ردته وذكرت طائفة انه عاد الى الاسلام وقرأ نافع وابن عامر يرتدد بدالين الاولى مكسورة مخففة والثانية ساكنة والباقون بدال مفتوحة مشددة واختلف فى القوم فى قوله تعالى (فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال قتادة بن غنم الازدى لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم هذا وأشار الى أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه وكانوا من اليمن وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان يمان والحكمة يمانية وقال الكلبى هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من

أفناه أى لم يعلم ممن هم قاله الجوهرى فجاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية وقيل هم الانصار وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب على عاتق سلمان رضى الله عنه فقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس والراجع الى من محذوف تقديره فسوف يأتى الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ويرضى عنهم ومحبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه (أذلة على المؤمنين) أى عاطفين عليهم متذللين لهم جمع ذليل وأما ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذل الذى هو نقيض الصعوبة فقد غبى عنه لان ذلولا لا يجمع على أذلة (فان قيل) هلا قال أذلة للمؤمنين (أجيب) بأنه تضمن معنى الحنو والعطف كأنه قال عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو للمقابلة فى قوله تعالى (أعزة على الكافرين) أى شداد متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه وقوله تعالى (يجاهدون فى سبيل الله) حال من الضمير فى أعزة أو صفة أخرى لقوم وقوله تعالى (ولا يخافون لومة لائم) يحتمل أن تكون الواو للحال على أنهم يجاهدون وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين فانهم كانوا موالين لليهود فاذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيأ مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط وان يكون للعطف على يجاهدون بمعنى انهم الجامعون بين المجاهدة فى سبيل الله والتصلب فى دينه واللومة المرة من اللوم وفيها وفى تنكير لائم مبالغتان (ذلك) اشارة الى الاوصاف المذكورة وقوله تعالى (فضل الله يؤتيه من يشاء) أى يمنحه ويوفق له فيبذل الانسان جهده فى طاعته لينظر اليه هذا النظر برحمته (والله واسع) أى كثير الفضل (عليم) أى بمن هو أهله ونزل لما قال ابن سلام رضى الله عنه يا رسول الله ان قومنا هجرونا (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وانما قال وليكم ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الاصالة ولرسوله وللمؤمنين على التبع اذ التقدير انما وليكم الله وكذا رسوله والمؤمنون ولو قيل انما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن فى الكلام أصل وتبع ثم وصف المؤمنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) أى متخشعون فى صلاتهم وزكاتهم وقيل يصلون صلاة التطوع (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) أى ومن يتخذهم أولياء وقيل من يعنهم وينصرهم (فان حزب الله هم الغالبون) أى فانهم هم الغالبون ولكن وضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما شرفهم به ترغيبا لهم فى ولايته وتشريفا لهم بهذا الاسم فكأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتعريضا بمن يوالى هؤلاء بانه حزب الشيطان وأصل الحزب القوم يجتمعون لامر حزبهم * ونزل فى رفاعة بن زيد وسويد ابن حارث اللذين أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم) أى الذى شرفكم الله به (هزوا) أى مهزوا به (ولعبا)

ثم بين المنهي عن موالاتهم بقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود * ولما خصص عمم بقوله (والكفار) أى من عبدة الاوثان وغيرهم (أولياء) أى فان الفريقين اجتمعوا على حسدكم وازدرائكم فلا تصح لكم موالاتهم وقرأ أبو عمرو والكسائى بخفض الراء والباقون بالنصب عطفا على الذين اتخذوا على أن النهى عن موالاة من ليس على الحق رأسا سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كاهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين (واتقوا الله) أى بترك المناهى (ان كنتم مؤمنين) أى صادقين فى ايمانكم فان الايمان حقا يقتضى ذلك وقوله تعالى (واذا ناديتم) معطوف على الذين قبله أى ولا تتخذوا الذين اذا ناديتم أى دعوتم (الى الصلاة) بالاذان (اتخذوها) أى الصلاة (هزوا ولعبا) بأن يستهزؤا بها ويتضاحكوا ويقولوا صاحوا كصياح العير وفى هذا دليل على أن الاذان مشروع للصلوات المكتوبات روى الطبرانى أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله قال احرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شرره فى البيت فأحرقه وأهله (ذلك) أى الاتخاذ (بأنهم) اى بسبب انهم (قوم لا يعقلون) أى فان السفه يؤدى الى الجهل بالحق والهزء به والعقل يمنع منه ونزل لما سأل نفر من اليهود النبى صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به من الرسل فقال أومن بالله وما أنزل الينا الآية فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون) أى تنكرون (منا) وتعيبون يقال نقم منه كذا أنكره وانتقم اذا كافأه (الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل) أى الى الانبياء وقوله تعالى (وان أكثركم فاسقون) عطف على ان امنا والمعنى ما تنكرون منا الا ايماننا ومخالفتكم فى عدم قبول الايمان المعبر عن عدم قبوله بالفسق اللازم عن عدم القبول وليس هذا مما ينكر (قل) لهم يا محمد (هل أنبئكم) أى أخبركم (بشر من ذلك) أى الذى تنقمونه (مثوبة عند الله) نصب مثوبة على التمييز أى ثوابا بمعنى جزاء (فان قيل) المثوبة مختصة بالاحسان كما أن العقوبة مختصة بالشر (أجيب) بأن ذلك على سبيل التهكم كما فى قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم وقوله تعالى (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) بدل من بشر على حذف مضاف قبل لفظ ذلك أو قبل لفظ من لعنه وتقديره بشر من أهل ذلك من لعنه الله أو بشر من ذلك دين من لعنه الله لان الدين المشار اليه غيره طابق لقوله من لعنه الله فى معنى يشترك فيه لفظ شر فيقدر أهل قبل ذلك أو دين قبل من ليطابق (فان قيل) هذا يقتضى كون الموصوفين بذلك الدين محكوما عليهم بالشر ومعلوم انه ليس كذلك (أجيب) بأنه انما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم فانهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقيل لهم هب ان الامر كذلك لكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك والذين لعنهم الله فى هذه الآية هم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار أهل

مائدة عيسى وقيل كلا المسخين فى أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة ومشايخهم خنازير روى أنه لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون يا اخوة القردة والخنازير فينكسون رؤسهم وقوله تعالى (وعبد الطاغوت) عطف على صلة من كأنه قيل ومن عبد الطاغوت وقرأ حمزة بضم باء عبد وكسر تاء الطاغوت على انه اسم جمع لعبد عطف على من والباقون بنصب الباء من عبد والتاء من الطاغوت والطاغوت الشيطان أو العجل لانه معبود من دون الله ولان عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت وعن ابن عباس رضى الله عنهما الطاغوت الكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله تعالى * (تنبيه) * روعى فى منهم معنى من وفيما قبلها لفظها وهم اليهود (أولئك) أى الملعونون الممسوخون (شر مكانا) لان مأواهم النار وجعلت الشرارة للمكان وهى لاهله وفيه مبالغة ليست فى قولك أولئك شر ومكانا تمييز (وأضل عن سواء السبيل) أى طريق الحق وأصل السواء الوسط (فان قيل) ذكر شر وأضل يقتضى مشاركة المؤمنين والكفار فى الشر والضلال وان الكفار أشر وأضل مع ان المؤمنين لم يشاركوا الكفار فى شئ من ذلك (أجيب) بأن مكان هؤلاء فى الآخرة شر وأضل من مكان المؤمنين فى الدنيا لما يلحقهم فيها من الشر والضلال الحاصل لهم بالهموم الدنيوية كسماع الاذى وغيره أو ان ذلك على سبيل التنزل والتسليم للخصم على زعمه الزاما له بالحجة وهذا أولى * ونزل فى يهود نافقوا النبى صلى الله عليه وسلم (واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد) أى قالوا ذلك والحال انهم قد (دخلوا) اليكم متلبسين (بالكفر وهم قد خرجوا) من عندكم متلبسين (به) أى الكفر كما دخلوا لم يتعلق بهم شئ مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر وغيره فى جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم وفى هذا وعيد لهم (وترى كثيرا منهم) أى اليهود أو المنافقين (يسارعون) أى يقعون سريعا (فى الاثم) أى الكذب بدليل قوله تعالى عن قولهم الاثم (والعدوان) أى الظلم وقيل الاثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعدى الى غيرهم (وأكلهم السحت) أى الحرام كالرشا (لبئس ما كانوا يعملون) عملهم هذا (لولا) هلا (ينهاهم) أى يجدد لهم النهى (الربانيون) أى المدعون للتخلى من الدنيا الى سبيل الرب (والاحبار) أى العلماء (عن قولهم الاثم) أى الكذب (وأكلهم السحت) أى الحرام هذا تحضيض لعلمائهم على النهى عن ذلك فان لولا اذا دخل على الماضى أفاد التوبيخ واذا دخل على المضارع المستقبل أفاد التحضيض (لبئس ما كانوا يصنعون) تركهم نهيهم (فان قيل) لم عبر فى الاول بيعملون وفى الثانى بيصنعون (أجيب) بأن كل عامل لا يسمى صانعا ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب ولذلك ذم بهذا خواصهم ولان ترك الانكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها وتميل اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ الذم فيدخل فى الذم كل من كان قادرا على النهى عن المنكر من العلماء أو غيرهم وتركه وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى أشد آية نزلت فى القرآن وعن الضحاك ما فى القرآن آية أخوف عندى منها (وقالت اليهود) لما ضيق عليهم

بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية (يد الله مغلولة) أى هو ممسك يقتر بالرزق وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ولا يقصد من يتكلم به اثبات يد ولا غل ولا بسط ولو أعطى الاقطع الى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال لان بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقولهم بسط اليأس كفيه فى صدرى فجعلت لليأس الذى هو معنى من المعانى لا من الاعيان كفان (فان قيل) قد تقدم أن قولهم يد الله مغلولة عبارة عن البخل فما تفعل فى قوله تعالى (غلت أيديهم) ومن حقه أن يطابق ما تقدمه (أجيب) بأنه يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد ومن ثم كانوا أبخل خلق الله تعالى وأنكدهم والمطابقة على هذا ظاهرة ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الايدى حقيقة يغلون فى الدنيا أسارى وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم كما قال تعالى اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل وعلى هذا تكون المطابقة حاصلة من حيث لفظ مغلولة وغلت من حيث ملاحظة ان الاصل فى القول الشنيع أن يقابل بالدعاء على قائله (ولعنوا) أى أبعدوا مطرودين عن الجناب الكريم (بما قالوا) فمن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير ثم رد الله تعالى عليهم بقوله (بل يداه مبسوطتان) مشيرا بالتثنية الى غاية الجود وان غاية ما يبذله السخى من ماله أن يعطى بيديه جميعا (ينفق كيف يشاء) أى هو مختار فى انفاقه يضيق تارة ويوسع أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته لا اعتراض عليه وقيل القائل هذه المقالة فنحاص بن عازوراء فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله تعالى فيها (وليزيدن كثيرا منهم) أى ممن أراد الله فتنته ثم ذكر فاعل الزيادة فقال (ما أنزل اليك من ربك) من القرآن (طغيانا) أى تماديا فى الجحود (وكفرا) بآيات الله فيزدادون على كفرهم وطغيانهم طغيانا وكفرا مما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للاصحاء (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) فكل فرقة منهم تخالف الاخرى فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد وقد أتاهم الاسلام وهم فى ملك المجوس وقيل خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس بالفاء الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وقيل كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم وعن قتادة لا تلقى اليهود ببلدة الا وجدتهم من أذل الناس (ويسعون فى الارض فسادا) أى ويجتهدون فى الكيد للاسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم واثارة الحرب والفتن وهتك المحارم (والله لا يحب المفسدين) أى فلا يجازيهم الا شرا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) أى الكفر (لكفرنا عنهم سيآتهم) أى التى فعلوها ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين وفى هذا اعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيآتهم ودلالة على سعة رحمة الله تعالى

وفتحه باب التوبة على كل عاص وان عظمت معاصيه و بلغت مبالغ سيآت اليهود والنصارى وان الاسلام يجب ماقبله وان جل وان الكتابى لايدخل الجنة مالم يسلم (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أى أقاموا أحكامهما وحدودهما ومافيهما من نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليهم) أى من الكتب المنزلة (من ربهم) لانهم مكلفون بالايمان بجميعها فكأنها أنزلت اليهم وقيل هو القرآن وقوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) عبارة عن التوسعة أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم من بركات السماء والارض أوان تكثر الاشجار المثمرة والزروع المغلة أوان يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجنونها من رأس الثمر والشجر ويلتقطون ماتساقط على الارض من تحت أرجلهم بين سبحانه وتعالى بذلك ان ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لابقصور الفيض ولو أنهم آمنوا وأقاموا ماأمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين (منهم أمة) أى جماعة (مقتصدة) أى عادلة غير غالية ولامقصرة وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل متوسطة فى عداوته (وكثير منهم ساء) أى بئس (ما) أى شيأ (يعملون) فيه معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما اسوأ عملهم وقيل هو كعب بن الاشرف وأصحابه والروم روى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت من حدثك أن محمدا كتم شيأ مما أنزل الله فقد كذب وهو يقول (يا أيها الرسول بلغ) جميع (ما أنزل اليك من ربك) أى لاتكتم شيأ منه خوفا ان تنال بمكروه (وان لم تفعل) أى وان لم تبلغ جميع ما أنزل اليك (فما بلغت رسالته) أى لان كتمان بعضها ككتمان كلها أى ولان بعضها ليس بالاولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالتى واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى عتب اليهود وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الاسلام فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤن به ويقولون تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك نزلت هذه الآية وقيل نزلت فى الجهاد وذلك ان المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحيانا عن حثهم على الجهاد وقيل لما نزلت آية التخيير وهى قوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت وقيل غير ذلك وقرأ نافع وابن عامر وشعبة بألف بعد اللام وكسر التاء والباقون بغير ألف ونصب التاء (والله يعصمك من الناس) أى يحفظك ويمنعك منهم (فان قيل) أليس قد شج وجهه وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وأوذى بضروب من الاذى (أجيب) بأن معناه يعصمك من القتل فلا يصلون الى قتلك وفى هذا تنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل مادون النفس من أنواع البلايا فما أشد تكليف الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل نزلت هذه الآية بعدما شج رأسه لان سورة المائدة من آخر مانزل من القرآن وروى اسحق بن راهويه فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت وعن أنس

رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس قال البيضاوى وظاهر الآية توجب تبليغ كل ما أنزل ولعل المراد بالتبليغ ما يتعلق به مصالح العباد وقصد بانزاله اطلاعهم عليه فان من الاسرار الالهية ما يحرم افشاؤه اه قال بعض العارفين ولهذا قال تعالى بلغ ما أنزل اليك ولم يقل ما تعرفنا به اليك واعلم أن المراد من الناس ههنا الكفار بدليل قوله تعالى (ان الله لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يمكنهم مما يريدون وروى انه عليه الصلاة والسلام نزل تحت شجرة فى بعض أسفاره وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابى وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه وقال من يمنعك منى يا محمد قال الله تعالى فرعدت يد الاعرابى وسقط من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) أى دين يعتد به حتى يسمى شيأ لفساده وبطلانه كما تقول هذا ليس بشئ تريد تحقيره وتصغير شأنه وفى أمثالهم أقل من لاشئ (حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) أى بأن تعملوا بما فيها ومن اقامتهما الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاذعان لحكمه فان الكتب الالهية بأسرها آمرة بالايمان بمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له والمراد اقامة أصولها وما ينسخ من فروعها (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك) أى من القرآن (طغيانا وكفرا) لكفرهم به (فلا تأس) أى تحزن (على القوم الكافرين) ان لم يؤمنوا بك أى لا تهتم بهم فان ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة عنهم لك (ان الذين آمنوا والذين هادوا) هم اليهود (والصابئون) فرقة منهم (والنصارى) وقد سبق تفسير هذه الآية فى سورة البقرة (فان قيل) بم رفع الصابئون وكان حقه والصابئين (أجيب) بأنه رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما فى خبر ان مع اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك وأنشد سيبويه شاهدا له

والا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة ما بقينا فى شقاق

والشاهد فى أنتم فانه مبتدأ حذف خبره والتقدير والا فانا بغاة وأنتم كذلك (فان قيل) ما فائدة هذا التقديم والتأخير (أجيب) بأن الصابئين أشد العرب المذكورين فى هذه الآية ضلالا وما سموا صابئين الا لانهم صبؤا عن الاديان كلها أى خرجوا فكأنه قال هؤلاء الفرق الذين آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون فانهم ان آمنوا كانوا أيضا كذلك وقيل منصوب بالفتحة فكما جوز بالفتحة مع الياء فى بنين وسنين جوز مع الواو كما هنا وقوله تعالى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) فى محل رفع بالابتداء وخبره (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى الآخرة والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والجملة خبر ان (فان قيل) كيف قيل الذين آمنوا من آمن (أجيب) بأن المراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون أو أن المراد من آمن من ثبت على الايمان واستقام ولم تخالجه ريبة فيه (لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) أى على الايمان بالله ورسوله (وأرسلنا اليهم رسلا) أى ولم نكتف بهذا العهد بل

أرسلنا رسلا ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) أى بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف (فريقا) أى من الرسل (كذبوا) أى كذبهم بنو اسرائيل من غير قتل كعيسى (وفريقا) منهم (يقتلون) كزكريا ويحيى وانما جىء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الحالة الشنيعة للتعجب منها وتنبيها على ان ذلك ديدنهم ماضيا ومستقبلا ومحافظة على رؤس الآى (وحسبوا) أى ظن بنو اسرائيل (أن لا تكون) أى توجد (فتنة) أى لا يصيبهم بها عذاب فى الدنيا ولا فى الآخرة بل استخفوا بأمرها فلا تعجب أنت من جراءتهم فى ادعائهم انهم أبناء الله وأحباؤه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى برفع النون تنزيلا للحسبان منزلة العلم فتكون مخففة من الثقيلة وأصله أنه لا تكون فتنة والباقون بالنصب على أن الحسبان على بابه (فعموا) أى عن الحق فلم يبصروه وهذا العمى هو الذى لا عمى فى الحقيقة سواه وهو انطماس البصائر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (وصموا) عنه فلم يسمعوه أى عموا وصموا بعد موسى ويوشع عليهما السلام والصمم أضر من العمى فصاروا لكن لا يهتدى الى سبيل أصلا لانه لا يبصر له بعين ولا قلب ولا سمع (ثم تاب الله عليهم) ببعث عيسى بن مريم فرفعوه الى الحق (ثم عموا وصموا) كرة أخرى بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (كثير منهم) بدل من الضمير (والله بصير بما يعملون) أى وان دق فيجازيهم به وفق أعمالهم (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) وهم اليعقوبية منهم القائلون بالاتحاد (وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى انى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم (انه من يشرك بالله) أى يشرك فى العبادة غيره (فقد حرم الله عليه الجنة) أى منعه من دخولها منعا متحتما فانها دار الموحدين (ومأواه النار) أى محل سكناه فانها المعدة للمشركين (وما للظالمين من أنصار) أى وما لهم أحد ينصرهم من النار لا بفداء ولا بشفاعة ولا بغيرهما فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق وهو يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى نبه على أنهم عدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره وأن يكون من كلام عيسى عليه السلام على معنى ولا ينصركم أحد منى فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن العقول أو لا ينصركم ناصر فى الآخرة من عذاب الله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية وفيه اضمار معناه ثالث ثلاثة الآلهة لانهم يقولون الالهية مشتركة بين الله ومريم وعيسى وكل واحد من هؤلاء اله فهم ثلاثة آلهة بين هذا قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ومن قال ان الله تعالى ثالث ثلاثة بالعلم ولم يرد به الآلهة لم يكفر فان الله يقول ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ثم قال الله تعالى ردا عليهم (وما من اله الا اله واحد) أى وما فى الموجودات واجب مستحق للعبادة من حيث انه مبدأ جميع الموجودات الا اله واحد موصوف بالوحدانية متعال

عن الشرك ومن مزيدة للاستغراق (وان لم ينتهوا) أى الكفرة بجميع أصنافهم (عما يقولون) أى من هاتين المقالتين وما داناهما (ليمسن) أى مباشرة من غير حائل (الذين كفروا) أى داوموا على الكفر (منهم عذاب أليم) أى مؤلم لم ينقطع عنهم لعدم توبتهم ولذلك عقبه بقوله تعالى (أفلا يتوبون) أى يرجعون بعد هذا الكفر الذى لا أوضح من بطلانه ولا أبين من فساده (الى الله ويستغفرونه) أى يطلبون منه غفران ما أقدموا عليه من تلك العقائد والاقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقريع والتهديد (والله غفور) أى بالغ المغفرة يمحو الذنوب فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (رحيم) أى بالغ الاكرام لمن أقبل عليه فيغفر لهم ويمنحهم من فضله ان تابوا وفى هذا الاستفهام تعجيب من اصرارهم (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت) أى مضت (من قبله الرسل) أى ليس هو بالله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة وما من خارقة له الا وقد كان مثلها أو أعجب منها لمن كان قبله فان كان قد أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب وان كان قد خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب (وأمه صديقة) أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق او يصدقن الانبياء كما قال تعالى فى وصفها وصدقت بكلمات ربها وهذه الآية من أدلة من قال ان مريم عليها السلام لم تكن نبية فانه تعالى ذكر أشرف صفاتها فى معرض الرد على من قال بالهيتهما اشارة الى ما هو الحق فى اعتقاد ما لهما من اعلى الصفات فان أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة وأكمل صفات أمه عليها السلام الصديقية * (فائدة) * مريم من أزواج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة * ولما بين سبحانه وتعالى أقصى ما لهما من الكمالات بين أن ذلك لا يوجب لهما الالوهية بقوله (كانا يأكلان الطعام) لان من احتاج الى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم لم يكن الا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب واخلاط وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الاجسام فكيف يكون الها وخص الاكل بالذكر لانه أصل الحاجات والاله لا يكون محتاجا وقيل هذا كناية عن الحدث لان من أكل وشرب لا بد له من البول والغائط ومن كانت هذه صفته كيف يكون الها * ثم لما أوضح الله تعالى لهم الادلة فى أمرهما حتى ظهر كالشمس بعدهما عما ادعوا فيهما اتبعه التعجب بقوله (انظر) متعجبا (كيف نبين لهم الآيات) على وحدانيتنا (ثم انظر أنى) أى كيف (يؤفكون) أى يصرفون عن الحق مع قيام البرهان (فان قيل) ما معنى التراخى فى قوله تعالى ثم انظر (أجيب) بأن معناه التفاوت بين العجبين أى أن بياننا للآيات عجب واعراضهم عنها أعجب (قل أتعبدون من دون الله) أى غيره يعنى عليه السلام (ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) أى لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب فى الانفس والاموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الابدان والسعة والخصب وكل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فباقدار الله تعالى وتمكينه وكأنه لا يملك شيأ وهذا دليل قاطع على ان أمر عيسى مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا وصفة الرب تعالى أن يكون قادرا

على كل شئ لا يخرج مقدور عن قدرته تعالى (فان قيل) اذا كان المراد السيد عيسى فلم عبر بما دون من مع ان المراد من يعقل (أجيب) بأنه أتى بما نظرا الى ما هو عليه فى ذاته توطئة لنفى القدرة عنه رأسا وتنبيها على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزل عن الالوهية أو ان المراد كل ما عبد من دون الله تعالى سواء كان ممن يعقل أم لا (والله هو السميع) لاقوال الكم (العليم) بأحوال الكم فيجازى عليها ان خيرا فخير وان شرا فشر والاستفهام للانكار (قل يا أهل الكتاب) أى عامة (لا تغلوا) أى تجاوزوا الحد (فى دينكم) وقوله تعالى (غير الحق) صفة للمصدر أى لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا لان الغلو فى الدين غلوان حق وهو أن يجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون وغلو باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالاعراض عن الادلة فيرفعوا عيسى عليه السلام الى أن يدعوا له الالهية أو يضعوه ويرتابوا فيه وقيل الخطاب للنصارى خاصة (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) فى غلوهم وهم أسلافهم الذين قد ضلوا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم (وأضلوا كثيرا) أى من الناس بتماديهم فى الباطل من التثليث وغيره حتى ظن حقا (وضلوا) أى بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن سواء السبيل) أى طريق الحق وهو الاسلام والسواء فى الاصل الوسط والاهواء ههنا المذاهب التى تدعو اليها الشهوة دون الحجة قال أبو عبيدة لم يذكر الهوى الا فى موضع الشر لا يقال فلان يهوى الخير انما يقال يريد الخير ويحبه وقيل سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه الى النار وقال رجل لابن عباس الحمد لله الذى جعل هواى على هواك فقال كل هوى ضلالة (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود) أى لعنهم الله فى الزبور على لسان داود وان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة وخنازير وقوله تعالى (وعيسى بن مريم) عطف على داود أى لعنهم الله فى الانجيل على لسان عيسى بن مريم وهم أصحاب المائدة لما لم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبى قال بعض العلماء ان اليهود كانوا يفتخرون بانا من أولاد الانبياء فذكر الله تعالى هذه الآية ليدل على أنهم ملعونون على ألسنة الانبياء (ذلك) أى اللعن المذكور (بما) أى بسبب ما (عصوا وكانوا يعتدون) ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله تعالى (كانوا لا يتناهون) أى لا ينهى بعضهم بعضا (عن منكر) أى معاودة منكر (فعلوه) أو عن مثل منكر أو عن منكر ارادوا فعله وتهيؤا له وانما قدر ما ذكر لان التناهى عن منكر قد مضى محال (لبئس ما كانوا يفعلون) أى يفعلونه والمخصوص بالذم محذوف أى فعلهم هذا قال بعض المفسرين فيا حسرتا على المسلمين فى اعراضهم عن باب التناهى عن المناكير وقلة عبثهم به كأنه ليس من ملة الاسلام فى شئ مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات فى هذا الباب (ترى كثيرا منهم) أى من أهل الكتاب (يتولون الذين كفروا) أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) من العمل لمعادهم (أن سخط الله عليهم) أى غضب عليهم (وفى العذاب هم خالدون) أى دائما

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى) محمد صلى الله عليه وسلم (وما أنزل اليه) من عند الله تعالى أعم من القرآن وغيره ايمانا خالصا من غير نفاق (ما اتخذوهم) أى المشركين (أولياء) اذ الايمان يمنع ذلك (ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى خارجون عن الايمان وقيل معناه ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون (لتجدن) يا محمد (أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) من أهل مكة لتضاعف كفرهم وجهلهم وانهماكهم فى اتباع الهوى وفى جعل اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين دلالة على شدة عداوتهم لهم بل نبه على تقدمهم فيها على الذين أشركوا وكذلك فعل فى قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا وعنه صلى الله عليه وسلم ما خلا يهوديان بمسلم الا هما بقتله (ولتجدن أقربهم) أى الناس (مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) انما أسند تسميتهم نصارى اليهم دون تسمية اليهود لانهم الذين سموا أنفسهم نصارى حين قال لهم عيسى عليه السلام من أنصارى الى الله الاية أو لانهم كانوا يسكنون قرية يقال لها ناصرة وكانهم لم يكونوا ساكنين فيها وعلى التقديرين فتسميتهم نصارى ليست حقيقة بخلاف تسمية اليهود يهودا فانها حقيقة سواء سموا بذلك لكونهم أولاد يهودا بن يعقوب أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل بقولهم انا هدنا اليك أو لتحركهم فى دراستهم * ثم علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بقوله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين) أى علماء (ورهبانا) أى عبادا (وأنهم لا يستكبرون) عن اتباع الحق كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة نزلت فى وفد النجاشى القادمين من الحبشة لا فى كل النصارى لانهم فى عداوتهم للمسلمين كاليهود فى قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريب ديارهم وهدم مساجدهم وحرق مصاحفهم قال أهل التفسير ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم فافتتن من افتتن وعصم الله تعالى منهم من شاء ومنع الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج الى أرض الحبشة وقال ان بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا وأراد به النجاشى واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وانما النجاشى اسم الملك كقولهم قيصر وكسرى فخرج اليه سرا احد عشر رجلا وأربع نسوة من جملتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة الى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك فى شهر رجب فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الهجرة الاولى ثم خرج جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب وتتابع المسلمون اليها فكان جميع من هاجر الى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك أرسلوا الى النجاشى بالهدايا ليردهم اليهم فعصمهم الله تعالى وانصرفوا خائبين وأقام المسلمون هناك بحسن دار وخير جوار الى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا دينه فى سنة ست من الهجرة كتب

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى على يد عمرو بن أمية الضمرى ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت قد هاجرت اليه مع زوجها فمات زوجها فأرسل النجاشى الى أم حبيبة جارية تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبشرت بذلك وأذنت لخالد بن سعيد أن يزوجها وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشى فأنفذ اليها أربعمائة دينار وقالت أم حبيبة فخرجنا الى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فخرج من خرج اليه وأقمت بالمدينة حتى قدم ووافى جعفر بن أبى طالب وأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشأم فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكوا وأسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى قال تعالى (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) من القرآن (ترى أعينهم تفيض من الدمع) أى جعلت أعينهم من فرط البكا كأنها تفيض بأنفسها (مما عرفوا من الحق) من الاولى للابتداء والثانية لتبيين ما عرفوا من الحق أو للتبعيض فانه بعض الحق والمعنى انهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف اذا عرفوه كله وقال ابن عباس يريد النجاشى وأصحابه رضى الله عنهم بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرئ عليهم ثم دعا بجعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين وأمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم كهيعص فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة قالوا أمنا كما قال تعالى (يقولون ربنا آمنا) أى صدقنا نبيك وكتابك (فاكتبنا مع الشاهدين) أى أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الامم يوم القيامة دليله قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس واذا نظرت مكاتبات النبى صلى الله عليه وسلم ازددت بصيرة فى صدق هذه الآية فانه ما كاتب نصرانيا الا آمن أو كان لينا ولولم يسلم كهرقل والمقوقس وهوذة بن على وغيرهم وغايتهم أنهم ضنوا بملكهم وأما غير النصارى فانهم كانوا على غاية فى الفظاظة ككسرى فانه مزق كتابه صلى الله عليه وسلم ولم يجز رسوله بشئ قال البقاعى السر فى ذلك انه لما كان عيسى عليه الصلاة والسلام أقرب الانبياء زمنا من زمن النبى صلى الله عليه وسلم كان المنتمون اليه ولو كانوا كفرة أقرب الامم مودة لاتباع النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا فى جواب من عيرهم بالاسلام من اليهود (ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) وهو القرآن لا مانع لنا من الايمان مع وجود مقتضيه وقوله تعالى (ونطمع) معطوف على نؤمن (أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أى المؤمنين الجنة (فأثابهم الله بما قالوا) أى جعل ثوابهم على هذا القول المسند الى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك) أى الجزاء العظيم (جزاء المحسنين) أى بالايمان (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى الذين لا ينفكون عنها الا غيرهم من عصاة المؤمنين وان كثرت كبائرهم وعطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لان القصد الى بيان حال المكذبين وذكرهم فى معرض المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا) أى

لا تمنعوا

لا تمنعوا أنفسكم بنذر أو يمين أو غير ذلك (طيبات) أى مستلذات (ما أحل الله لكم) كمنع التحريم أى لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا (ولا تعتدوا) حدود ما أحل الله لكم الى ما حرم عليكم (ان الله لا يحب المعتدين) أى لا يفعل فعل المحب من الاكرام للمفرطين فى الورع بحيث يحرمون ما أحلت ولا للمفرطين فيه الذين يحللون ما حرمت أن يفعلوا فعل المحرم من المنع وفعل المحلل من التناول فالآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم داعية الى القصد بينهما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف يوم القيامة لاصحابه فبالغ وأشبع فى الكلام فى الانذار فرق الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة رضى الله عنهم فى بيت عثمان بن مظعون وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الاسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن وعثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنهم وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا فى الارض فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا قالوا بلى يا رسول الله ما أردنا الا الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لم أومر بذلك ثم قال ان لانفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ثم جمع الناس وخطبهم وقال ما بال أقوام يحرمون النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما انى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فانه ليس فى دينى ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع وان سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فانما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالوا يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها وكانوا حلفوا على ما عليه اتفقوا فأنزل الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم الآية وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال المؤمن حلو يحب الحلاوة وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان رجلا قال له انى حرمت الفراش فتلا هذه الآية وقال نم على فراشك وكفر عن يمينك وعن الحسن أنه دعى الى طعام ومعه فرقد السنجى وأصحابه فقعدوا على المائدة وعليها الالوان من الدجاج والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية فسأل الحسن أهو صائم فقالوا لا ولكنه يكره هذه الالوان فقال يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم وعنه انه قيل له فلان لا يأكل الفالوذ ويقول لا أؤدى شكره قال أفيشرب الماء البارد قال نعم قال انه جاهل ان نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذ وعنه ان الله تعالى أدب عباده

فأحسن أدبهم قال تعالى لينفق ذو سعة من سعته ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوه ولا عذر قوما ذواها عنهم فعصوه وروى أن عثمان بن مظعون أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ائذن لى فى الاختصاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من خصى ولا من اختصى ان خصاء أمتى الصيام فقال يارسول الله ائذن لى بالسياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله قال يارسول الله ائذن لى فى الترهب قال ان ترهب أمتى الجلوس فى المساجد لانتظار الصلاة وروى ان رجلا قال يارسول الله انى أصبت من اللحم فانتشرت فأخذتنى شهوة فحرمت اللحم فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تعارض بين الخبرين لان الشئ الواحد قد يكون له أسباب جمة بعضها أقرب من بعض وروى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل نهيا شديدا وقال تزوجوا الولود الودود فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة (وكلوا مما رزقكم الله) ولما كان الرزق يقع على الحرام قيده بعد القيد بالتبعيض بقوله (حلالا طيبا) وهو مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لانه نكرة وقوله تعالى (واتقوا الله) تأكيد للتوصية بما أمر الله به وزاده تأكيدا بقوله (الذى أنتم به مؤمنون) لان الايمان به يوجب التقوى فى الانتهاء الى ما أمر به وعما نهى عنه (لا يؤاخذكم الله باللغو) الكائن (فى أيمانكم) هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الانسان لا والله وبلى والله واليه ذهب الشافعى رحمه الله تعالى وقيل هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن واليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم) أى وثقتم (الأيمان) عليه بأن حلفتم عن قصد روى أن الحسن سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال يا أبا سعيد دعنى أجب عنك فقال

ولست بمأخوذ بلغو تقوله * اذا لم تعمد عاقدات العزائم

والمعنى ولكن يؤاخذكم الله بما عقدتم اذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف التقدير بأحد الامرين للعلم به وقرأ ورش يواخذكم بابدال الهمزة واوا مفتوحة وقرأ ابن ذكوان عاقدتم بألف بعد العين وتخفيف القاف والباقون بغير ألف مع تشديد القاف (فكفارته) أى اليمين اذا حنثتم فيه التى تذهب اثمه وتزيل أثره بحيث تصيرون كأنكم ما حلفتم (اطعام عشرة مساكين) أى لكل مسكين مد عندنا ونصف صاع عند أبى حنيفة رحمه الله (من أوسط) أى أعدل (ما تطعمون أهليكم) من بر أو غيره لا من أعلاه ولا من أدناه (أو كسوتهم) بما يسمى كسوة كقميص وعمامة وازار وسراويل ومقنعة من صوف وقطن وكتان وحرير ولو لرجل وان لم يجز له لبسه لوقوع اسم الكسوة عليه رديئا كان أو جيدا ويجزئ لبدا وفروة اعتبر فى البلد لبسهما ولا يكفى دفع ما ذكر لمسكين واحد وعليه الشافعى ولا يكفى المكعب والنعل والخف والقلنسوة والتبان وهو سراويل قصيرة لا تبلغ الركبة ونحو ذلك مما لا يسمى كسوة (أو تحرير رقبة) أى مؤمنة كما فى كفارتى القتل والظهار حملا للمطلق على المقيد وجوز أبو حنيفة عتق الكافرة فى كل كفارة الا القتل وخرج بالتخيير بين هذه الثلاثة أنه لا يجزئ أن يطعم خمسة ويكسو خمسة كما لا يجزئ اعتاق نصف رقبة واطعام خمسة (فمن لم يجد) أى بان عجز عن أحد ما ذكر

(فصيام

(فصيام ثلاثة أيام) أى فكفارته صيام ثلاثة أيام ولا يجب تتابعها (فان قيل) قرئ شاذا متتابعات والقراءة الشاذة كخبر الواحد فى وجوب العمل كما أوجبنا قطع يد السارق اليمنى بالقراءة الشاذة فى قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما ولان من عادة الشافعى رحمه الله تعالى حمل المطلق على المقيد من جنسه وهو الظهار والقتل (أجيب) بأن آية اليمين نسخ فيها متتابعات تلاوة وحكما فلا يستدل بها بخلاف آية السرقة فانها نسخت تلاوة لا حكما وبأن المطلق ههنا متردد بين أصلين يجب التتابع فى أحدهما وهو كفارة الظهار والقتل ولا يجب فى الآخر وهو قضاء رمضان فلم يكن أحد الاصلين فى التتابع بأولى من الآخر ويسن تتابعها خروجا من خلاف أبى حنيفة فانه شرط تتابعها * (تنبيه) * المراد بالعجز أن لا يقدر على المال الذى يصرفه فى الكفارة كمن يجد كفايته وكفاية من تلزمه مؤنته فقط ولا يجد ما يفضل عن ذلك وضابط ذلك أن من جاز له أن يأخذ سهم الفقراء والمساكين من الزكاة والكفارات جاز له أن يكفر بالصوم لانه فقير فى الاخذ فكذا فى الاعطاء (ذلك) أى المذكور (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) أى وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) أى من أن تنكثوها ما لم تكن من فعل برّ أو اصلاح بين الناس كما مرّ فى سورة البقرة (كذلك) أى مثل ما بين لكم ماذكر (يبين الله لكم آياته) أى أعلام شريعته (لعلكم تشكرون) أى يحصل منكم شكر بحفظ جميع الحدود الآمرة والناهية (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر) أى المسكر الذى خامر العقل سواء فيه كثيره وقليله (والميسر) أى القمار (والانصاب) أى الاصنام (والازلام) أى قداح الاستقسام (رجس) أى خبيث مستقذر وانما وحد الخبر للنص على الخمر والاعلام بأن أخبار الثلاثة حذفت وقدرت لأنها أهل لان يقال فى كل واحدة منها على حدتها كذلك ولا يكفى عنها خبر واحد على سبيل الجمع ثم زاد فى التنفير عنها تأكيد الرجسيتها بقوله تعالى (من عمل الشيطان) الذى يزينه (فاجتنبوه) أى الرجس المعبر به عن هذه الاشياء أن تفعلوه (لعلكم تفلحون) أى تظفرون بجميع مطالبكم واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية بأن صدّر الجملة بانما وقرنهما بالاصنام والازلام وسماهما رجسا وجعلهما من عمل الشيطان تنبيها على أن الاشتغال بهما شر خالص أو غالب وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل الاجتناب سببا يرجى منه الفلاح ثم قرّر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم بقوله تعالى (انما يريد الشيطان) أى بتزيين الشرب والقمار لكم (أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) أى اذا أتيتموهما لما يحصل فيهما من الشر والفتن أما العداوة فى الخمر فان الشارب اذا سكر عربد كما فعل الانصارى الذى شج رأس سعد بن أبى وقاص بلحى الجمل وأما العداوة فى الميسر فقال قتادة كان الرجل يقامر على الاهل والمال ثم يبقى حزينا مسلوب الاهل والمال مغتاظا على حرفائه (ويصدكم) بالاشتغال بهما (عن ذكر الله وعن الصلاة) وذلك لان من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وشوش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف تقدم رجل منهم يصلى بهم صلاة المغرب بعد ما شربوا فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد بحذف لا وانما

خصهما باعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان وذكر الانصاب والازلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن رواه البزار ورواه ابن حبان بلفظ مدمن الخمر كعابد الوثن قال ويشبه أن يكون فيمن يستحلها وهو كذلك وخص الصلاة بالذكر للافراد بالتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان من حيث انها عماده والفارق بينه وبين الكفر ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أنواع الصوارف بقوله تعالى (فهل أنتم منتهون) ايذانا بأن الامر فى المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الاعذار قد انقطعت فلفظه الاستفهام ومعناه أمر كقوله تعالى فهل أنتم شاكرون (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمراكم به من اجتناب ذلك (واحذروا) مخالفتهما فيما ينهيا كم عنه (فان توليتم) أى عن الطاعة (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى فلا يضره توليكم فانما عليه الابلاغ البين وقد أدى وانما ضررتم أنفسكم * ولما نزل تحريم الخمر قال الصحابة رضى الله عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر نزل (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تصديقا لايمانهم (جناح) أى حرج (فيما طعموا) أى من مال الميسر وشربوا من الخمر قبل التحريم (اذا ما اتقوا) أى المحرمات (وآمنوا وعملوا الصالحات) أى ثبتوا على الايمان والاعمال الصالحة (ثم اتقوا) ما حرم عليهم بعد الخمر (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) أى استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصى (وأحسنوا) أى وتحروا الاعمال الجميلة واشتغلوا بها وأن التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة الماضى والحال والاستقبال التى تقع فيها الافعال المذكورة وباعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى والايمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولاجل استعمال الانسان التقوى بينه وبين الله ابدل الايمان بالاحسان فى الكرة الثالثة اشارة الى ما قاله عليه الصلاة والسلام فى تفسير الاحسان من قوله الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدا والوسط والمنتهى أو باعتبار ما يتقى به فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات تحرزا للنفس عن الوقوع فى الحرام وبعض المباحات صونا لها عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة (والله يحب المحسنين) أى يثيبهم * ونزل عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحوش تغشى رحالهم فهموا بأخذها (يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله) أى ليختبرنكم (بشئ) يرسله لكم (من الصيد) وانما بعض لانه ابتلاهم بصيد البر خاصة وفائدة الابتلاء اظهار المطيع من العاصى والا فلا حاجة به الى البلوى (تناله أيديكم) أى ما لا يقدر أن يفر من الصيد لصغر أو غيره (ورماحكم) أى ما يقدر على الفرار لكبر أو غيره (ليعلم الله) أى علم ظهور فانه تعالى يعلم ما تخفى الصدور (من يخافه بالغيب) أى ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر فى الآخرة فيجتنب الصيد والمعنى أنه سبحانه وتعالى يخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد فى عالم الغيب الى عالم الشهادة فيصير تعلق العلم به تعلقا شهوديا كما كان تعلقا غيبيا

ليقوم

ليقوم بذلك على الفاعل الحجة فى مجارى عاداتكم (فمن اعتدى) اى فاصطاد (بعد ذلك) أى الابتلاء بالصيد (فله عذاب أليم) أى مؤلم وان من لا يملك نفسه فى مثل ذلك ولا يراعى حكم الله فيه فكيف به فيما تكون فيه النفس أميل اليه وأحرص عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) أى محرمون بنسك أوفى الحرم والنهى عما يؤكل لحمه لانه الغالب فيه عرفا وأما غير المأكول فيحل قتله فانه لاحظ للنفس فى قتله الا الاراحة من أذاه ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم خمس يقتلن فى الحل والحرم الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب وفى رواية أخرى الحية بدل العقرب مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ وانما ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم فان مذبوح المحرم ميتة (ومن قتله منكم متعمدا) أى قاصدا للصيد ذاكرا للاحرام ان كان محرما والحرم ان كان فيه عالما بالتحريم وذكر العمد ليس لتقييد وجوب الجزاء فان اتلاف العامد والمخطئ واحد فى ايجاب الضمان بل لقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه ولان الآية نزلت فيمن تعمد اذ روى أنه عنّ لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو قتادة برمحه فقتله فنزلت وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطا وعن سعيد ابن جبير لا أرى فى الخطا شيأ باشتراط العمد فى الآية وعن الحسن روايتان وقوله تعالى (فجزاء) منون فى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وما بعده مرفوع أى فعليه جزاء هو (مثل ما قتل من النعم) أى شبهه فى الخلقة لا التساوى فى القيمة وقرأ الباقون بغير تنوين فى جزاء وخفض لام مثل (يحكم به) أى المثل رجلان (ذوا عدل منكم) أى لهما فطنة يميزان بها أشبه الاشياء به فيحكمان به وقد ذهب الى ايجاب المثل جماعة من الصحابة حكموا فى بلدان مختلفة بالمثل من النعم فحكم ابن عباس وعمر وعلى فى النعامة ببدنة وهى لا تساوى بدنة وعمر فى الضبع بكبش وهو لا يساوى كبشا وابن عباس وأبو عبيدة فى بقر الوحش وحماره ببقرة وابن عمر وابن عوف فى الظبى بشاة وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما فى الحمام لانه يشبهها فى العب والحمام كل ما عب وهدر من الطير كالفواخت والقمرى والدبسى فدل ذلك على أنهم ينظرون الى ما يقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة وقوله (هديا) حال من جزاء وقوله تعالى (بالغ الكعبة) أى يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ولا يجوز أن يذبح حيث كان وهو نعت لما قبله وان أضيف الى معرفة لان اضافته لفظية لا تفيد تعريفا فان لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته (أو) عليه (كفارة طعام مساكين) فى الحرم من غالب قوت البلد بما يساوى قيمة الجزاء لكل مسكين مد وقرأ نافع وابن عامر كفارة بغير تنوين وخفض ميم طعام والباقون بالتنوين ورفع ميم طعام أى هى طعام (أو) عليه (عدل) أى مثل (ذلك) أى الطعام (صياما) يصومه فى كل موضع يتيسر له عن كل مد يوما فأو للتخيير لانه الاصل فيها قال البقاعى والقول بأنها للترتيب يحتاج الى دليل وقوله تعالى (ليذوق وبال أمره) متعلق بمحذوف أى فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال المكروه والضرر الذى يناله فى العاقبة من عمل سوء لثقله عليه من قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا أى

ثقيلا والطعام الوبيل الذى يثقل على المعدة ولا يستمر (عفا الله عما سلف) أى من قتل الصيد قبل تحريمه فلا يؤاخذكم به (ومن عاد) الى تعمد شئ من ذلك بعد النهى وقوله تعالى (فينتقم الله منه) خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء ونحو ذلك قوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا أى ينتقم الله تعالى منه فى الآخرة واذا تكرر من المحرم قتل الصيد تعددت عليه الكفارة عند عامة العلماء وعن ابن عباس وشريح لا كفارة عليه تعلقا بظاهر الآية فانه لم يذكر الكفارة قالا لان الانتقام من العائد يمنع وجوب الكفارة (والله) الذى له صفات الكمال (عزيز) أى غالب على أمره (ذو انتقام) أى ممن أصر على عصيانه ٭ ولما كان هذا عاما فى كل صيد بين تعالى أنه خاص بصيد البر فقال (أحل لكم) أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين (صيد البحر) أى ما صيد منه وهو ما لا يعيش الا فى الماء كالسمك بخلاف ما يعيش فيه وفى البر عند الشافعى رحمه الله تعالى وذهب قوم الى أن جميع ما فى البحر حلال وظاهر الآية حجة له وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لا يحل منه الا السمك وقوله تعالى (وطعامه) عطف على صيد البحر أى وأحل لكم طعام البحر وهو ما يقذفه من السمك ميتا قال صلى الله عليه وسلم فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته رواه أبو داود والترمذى وغيرهما وصححوه وقال قتادة صيده طريه وطعامه مالحه وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله وعلى هذا فالصيد بمعنى الاصطياد والمعنى أحل لكم اصطياد الصيد وأكل المصيد من الانهار والبرك وغيرهما من جميع المياه كالبحر وقوله تعالى (متاعا) مفعول أى أحل (لكم) تمتيعا لكم تأكلونه طريا (وللسيارة) أى المسافرين منكم يتزودونه قديدا كما تزود موسى صلى الله عليه وسلم فى مسيره الى الخضر الحوت (وحرم عليكم صيد البر) أى اصطياده وأكل ما صيد منه لكم وهو ما لا يعيش الا فيه وما يعيش فيه وفى البحر فان صيد الحلال حل للمحرم أكله لقوله صلى الله عليه وسلم لحم الصيد حلال لكم ما لم تصطادوه أو يصد لكم (ما دمتم حرما) أى محرمين وقد ذكر تعالى تحريم الصيد على المحرم فى ثلاث مواضع من هذه السورة قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم الى قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا وقوله تعالى لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم وقوله تعالى وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما تشديدا على المحرم أنه لا يتعاطى ذلك وأكد ذلك بقوله تعالى (واتقوا الله) أى فى ذلك الاصطياد وغيره (الذى اليه تحشرون) فانه مجازيكم بأعمالكم (جعل الله الكعبة) أى صيرها وسمى البيت كعبة لتكعبه أى تربعه وقال مجاهد سميت كعبة لترفعها والعرب تسمى كل بيت مرتفع كعبة وقال مقاتل سميت كعبة لانفرادها من البناء وقوله تعالى (البيت الحرام) أى المحترم عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجىء الصفة كذلك (قياما للناس) أى يقوم به أمر دينهم بالحج أو العمرة اليه ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبى ثمرات كل شئ اليه قال الرازى والمراد بعض الناس وهم العرب وانما حسن هذا المجاز لان أهل كل بلد اذا قالوا الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فهم لا يريدون الا أهل بلدتهم فلهذا السبب خوطبوا بهذا الخطاب على وفق عادتهم وقرأ ابن عامر قيما بغير ألف مصدر قام غير معل والباقون بالالف

(والشهر

(والشهر الحرام) أي الاشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب أي صير الاشهر الحرم قياماً للناس يأمنون فيها من القتال (والهدى) أي الذي لم يقلد (والقلائد) أي الهدى الذي يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء ومر الكلام عليه في أول السورة (ذلك) أي الجعل المذكور وهو الاربعة الاشياء التي جعلها الله قياماً للناس (لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض) فان شرع الاحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليل على علمه بما في الوجود وما هو كائن وقوله تعالى (وان الله بكل شئ عليم) تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد اطلاق وقوله تعالى (اعلموا أن الله شديد العقاب) فيه وعيد لاعدائه ممن انتهك محارمه وقوله تعالى (وان الله غفور) فيه وعد لاوليائه ممن حافظ عليها (رحيم) بهم وقوله تعالى (ما على الرسول الا البلاغ) فيه تشديد على ايجاب القيام بما أمر به وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط (والله يعلم ما تبدون) أي تظهرون من العمل (وما تكتمون) أي تخفون منه فيجازيكم به وقوله تعالى (قل لا يستوي الخبيث والطيب) حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الردى من الاشخاص والاعمال والاموال وجيدها رغب به في صالح العمل وحلال المال (ولو أعجبك كثرة الخبيث) اذ لا عبرة بالقلة والكثرة بل بالجودة والرداءة فان المحمود القليل خير من المذموم الكثير والخطاب لكل معتبر ولذلك قال تعالى (فاتقوا الله) أي في ترك الخبيث وان كثر في الحس لنقصه في المعنى وآثروا الطيب وان قل في الحس لكثرته في المعنى (يا أولي الالباب) أي أصحاب العقول السليمة (لعلكم تفلحون) أي لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب * ونزل لما أكثروا سؤاله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد) أي تظهر (لكم تسؤكم) أي لما فيها من المشقة فقيل سبب نزولها ما في الصحيحين عن أنس رضي الله تعالى عنه انهم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه المسئلة أي بالغوا في السؤال فغضب وصعد المنبر وقال لا تسألوني اليوم عن شئ الا بينته لكم وشرع يكرر ذلك واذا رجل كان اذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه فقال يا رسول الله من أبي فقال حذافة فقال عمر رضي الله تعالى عنه رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا نعوذ بالله من الفتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط انه قد صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط في آخره فنزلت هذه الآية وروى أن عمر رضي الله تعالى عنه قال يا رسول الله انا حديث عهد بجاهلية اعف عنا يعف الله عنك فسكن غضبه وللبخاري في التفسير عن أنس أيضاً قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبي قال فلان فنزلت هذه الآية وللبخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل من أبي ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي فأنزل الله فيهم هذه الآية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله

عليه وسلم كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل عن شيء إلا وأجيب فقال رجل أين أنا قال في النار وقال آخر من أبي قال حذافة وكان يدعى لغيره فنزلت هذه الآية وقيل غير ذلك ولا تعارض بين هذه الاخبار ولو تعددورودها الى شيء واحد لما مر عند قوله تعالى لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم من أن الامر الواحد قد تتعدد أسبابه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما ولما كان ربما وقع في وهم متعنت ان هذا الزجر انما هو لقصد راحة المسؤل عن السؤال خوفا من عواقبه قال تعالى (وان تسألوا عنها) أي تلك الاشياء التي تسوءكم عند ابدائها (حين ينزل القرآن تبد لكم) المعنى اذا سألتم عن أشياء في زمنه صلى الله عليه وسلم ينزل القرآن بابدائها ومتى أبداها ساءتكم فلا تسألوا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى قد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ثم عفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقوله تعالى (عفا الله عنها) استئناف أي عفا الله عما سلف من مسئلتكم فلا تعودوا الى مسئلتها أو صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولا يكلف بها روى انه لما نزل ولله على الناس حج البيت قال سراقة بن مالك أكل عام فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد ثلاثا فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه (والله غفور) يمحو الزلات عينا وأثرا ويعقبها بالاكرام (حليم) لا يعجل على العاصي بالعقوبة وقوله تعالى (قد سألها قوم) الضمير فيه للمسئلة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يعد بعن أو الاشياء بحذف الجار وقوله تعالى (من قبلكم) قال البيضاوي متعلق بسألها وليس صفة لقوم فان ظرف الزمان لا يكون صفة لجثة ولا حالا منها ولا خبرا عنها اه قال أبو حيان هذا محله في ظرف الزمان المجرد من الوصف أما اذا لم يتجرد عنه فيصح أن يكون صفة للجثة أو حالا منها أو خبرا عنها وقبل وبعد وصفان في الاصل فاذا قلت جاء زيد قبل عمرو فالمعنى جاء في زمان قبل زمان مجيئه أي تقدم عليه ولذا صح وقوعه صلة للموصول ولو لم يلحظ فيه الوصف ولو كان ظرف زمان مجردا لم يجز أن يقع صلة قال تعالى والذين من قبلكم ولا يجوز والذين اليوم وممن سألها قبلهم ثمود سألوا صالحا الناقة وسأل قوم عيسى المائدة (ثم أصبحوا) أي صاروا (بها) أي بسببها (كافرين) حيث لم يأتمروا بما سألوا جحودا

وقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) ردوا نكار لما ابتدعته أهل الجاهلية روى ان أهل الجاهلية كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وتركوا الحمل عليها وركوبها ولم يجزوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ وقيل انهم كانوا ينتظرون الى خامس ولدها فان كان ذكرا نحروه فأكله الرجال والنساء وان كان أنثى بحروا أذنها أي شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها وكانت منافعها خاصة للرجال واذا

ماتت حلت للرجال والنساء وأما السائبة فكان الرجل منهم يقول ان شفيت أو ردّ غائبي فناقتي سائبة ثم يسيبها فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا تركب ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها وقيل كانت الناقة اذا تابعت ثنتي عشرة سنة اناثا سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف فان نتجت بعد ذلك أنثى شق أذنها ثم يخلى سبيلها مع أمها في الابل فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا الضيف كما فعل بأمها فهي البحيرة بنت السائبة وأما الوصيلة فمن الغنم كانت اذا ولدت سبعة أبطن نظر فان كان السابع ذكرا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء وان كانت أنثى تركوها في الغنم وقيل اذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم وكان ابن الانثى حراما على النساء فان مات منهاشيء أكله الرجال والنساء جميعا وأما الحام فهو الفحل اذا ركب ولد ولده ويقال اذا انتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى واذا مات أكله الرجال والنساء وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأكثم الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك وذلك أنه أول من غير دين اسمعيل ونصب الاوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي ولقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه فقال أكثم أيضرني شبهه يارسول الله قال لا انك مؤمن وهو كافر ومعنى ما جعل الله أي ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير ولا التسييب ولا غير ذلك (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) في قولهم ان الله أمرنا بها (وأكثرهم لا يعقلون) أن ذلك افتراء لانهم قلدوا فيه آباءهم كما قال تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا) أي كافينا (ما وجدنا عليه آباءنا) اذ لا مستند لهم سوى ذلك قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون) اى الى الحق والاستفهام للانكار أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين وقرأ هشام والكسائي قيل بضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) أي احفظوها والزموا اصلاحها (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) أي لا يضركم الضال اذا كنتم مهتدين ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكم منكرا واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال يا أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذابه وفي رواية لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب لهم قال أبو عبيدة خاف الصديق رضي الله عنه أن يتأول الناس الآية غير متأولها فيدعوهم الى ترك الامر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك قال أبو ثعلبة الخشني سألت عن هذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل ائتمروا بالمعروف

وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت الامر لا بد لك منه فعليك نفسك ودع أمر العامة وان وراءكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر وان وراءكم أياما للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قال ابن المبارك وزادنى غيره قال يارسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية قرئت عنده فقال ان هذا ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم فهى على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه وبسط لعذره وعنه ليس هذا زمان تأويلها قيل فمتى قال اذا حال دونها السيف والسوط والحبس وروى المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خيرا حرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا فان لو تفتح عمل الشيطان ولكن قل قدر الله وما شاء فعل وقيل كان الرجل اذا أسلم قالوا له سفهت آباءك ولاموه فنزلت عليكم أنفسكم وعليكم من أسماء الفعل بمعنى الزموا أنفسكم ولذلك نصب أنفسكم (الى الله مرجعكم جميعا) الضال والمهتدى (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به وفى ذلك وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بذنب أحد غيره (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) أى فيما أمرتم شهادة بينكم فشهادة مبتدأ خبره محذوف قيل هذه الآية وما بعدها من أشكل آى القرآن حكما واعرابا وتفسيرا والمراد بالشهادة الاشهاد بالوصية وقيل المراد بها اليمين بمعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان قال القرطبى ورد لفظ الشهادة فى القرآن على أنواع مختلفة بمعنى الحضور قال تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه وبمعنى قضى قال تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو وبمعنى أقر قال تعالى والملائكة يشهدون وبمعنى حكم قال تعالى وشهد شاهد من أهلها وبمعنى حلف قال تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات وبمعنى وصى قال تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم (اذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه (حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) وهذا خبر بمعنى الامر أى ليشهد واضافة شهادة لبين على الاتساع وحين بدل من اذا أو ظرف لحضر واثنان فاعل شهادة أو خبر مبتدأ محذوف أى الشاهدان اثنان وقوله تعالى (أو آخران من غيركم) عطف على اثنان ومن فسر الغير باهل الذمة جعله منسوخا فان شهادته على المسلم لا تسمع اجماعا وقد اتفق الاكثرون على انه لا نسخ فى سورة المائدة وعن مكحول نسخها قوله تعالى وأشهدوا ذوى عدل منكم وانما جازت فى أول الاسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم فى حال السفر (ان أنتم ضربتم) أى سافرتم (فى الارض فاصابتكم مصيبة الموت) أى قاربتم الاجل وقوله تعالى (تحبسونهما) أى توقفونهما وتصبرونهما صفة لآخران (من بعد الصلاة) أى صلاة العصر لانه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار وقيل اى صلاة كانت (فيقسمان) أى يحلفان (بالله) وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليمين انما تكون اذا كانا من غيرنا فان كانا مسلمين فلا يمين وعن غيره ان كان الشاهدان على حقيقتهما فقد نسخ تحليفهما وان كانا الوصيين

فلا ثم شرط لهذا الحلف شرطا فقال اعتراضا بين القسم والمقسم عليه (ان ارتبتم) أى شككتم فيما أخبرا به عن الواقعة ثم ذكر المقسم عليه بقوله (لانشترى به ثمنا) أى بهذا الذى ذكرناه ثمنا أى لم نذكره ليحصل لنا به غرض دنيوى وان كان فى نهاية الجلالة وليس قصدنا به الا اقامة الحق (ولو كان) أى المقسم له (ذا قربى) أى لنا (ولا نكتم شهادة الله) أى التى أمرنا باقامتها (انا اذا) أى اذا كتمناها (لمن الآثمين فان عثر) أى اطلع بعد حلفهما (على أنهما استحقا اثما) أى فعلا ما يوجبه من خيانة أو كذب فى الشهادة بان وجد عندهما مثلا ما اتهما به وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت أو وصى لهما به (فآخران) أى فشاهدان آخران (يقومان مقامهما) أى فى توجيه اليمين عليهما (من الذين استحق عليهم) الوصية وهم الورثة على قراءة غير حفص بضم التاء وكسر الحاء على البناء للمفعول وعلى البناء للفاعل فهو الاوليان ويبدل من آخران (الاوليان) بالميت أى الاقربان اليه وقرأ حمزة وشعبة بتشديد الواو وكسر اللام وبسكون الياء وفتح النون على الجمع على أنه صفة للذين أو بدل منه أى من الاولين الذين استحق عليهم والباقون بسكون الواو وفتح اللام والياء وألف بعد الياء وكسر النون على التثنية على انه بدل من آخران كما مر أو خبر محذوف أى هما الاوليان (فيقسمان) اى هذان الآخران (بالله) ويقولان (لشهادتنا) أى يميننا (أحق) أى أصدق من شهادتهما) أى يمينهما (وما اعتدينا) أى تجاوزنا الحق فى اليمين (انا اذا) أى اذا وقع منا اعتداء (لمن الظالمين) أى الواضعين الشئ فى غير موضعه * ومعنى الآيتين أن المحتضر اذا أراد الوصية ينبغى أن يشهد عدلين من ذوى نسبه أو دينه على وصيته أو يوصى اليهما احتياطا فان لم يجدهما بان كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ فى الوقت فان اطلع على انهما كذبا بامارة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت والحكم منسوخ ان كان الاثنان شاهدين فان الشاهد لا يحلف ولا تعارض يمينه بيمين الوارث وثابت ان كانا وصيين ورد اليمين الى الورثة اما لظهور خيانة الوصيين فان تصديق الوصى باليمين لامانته أو لتغيير الدعوى وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها وهى ما روى أن رجلا من بنى سهم خرج مع تميم الدارى وعدى ابن زيد الى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه فى صحيفة وطرحها فى متاعه ولم يخبرهما بها وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه وأخذا منه اناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب ثم قضيا حاجتهما وانصرفا الى المدينة ودفعا المتاع الى أهل الميت ففتشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاؤا تميما وعديا فقالوا هل باع صاحبنا شيأ قالا لا قالوا هل اتجر تجارة قالا لا قالوا فهل طال مرضه فأنفق على نفسه قالا لا قالوا فانا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وانا فقدنا منها اناء من فضة مموها بالذهب ثلثمائة مثقال من فضة قالا ما ندرى انما أوصى لنا بشئ وأمرنا أن ندفعه لكم فدفعناه وما لنا علم بالاناء فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجترآ على الانكار وحلفا فأنزل تعالى الله يا أيها الذين آمنوا الآية فلما نزلت هذه

وعدى بن زيد هكذا فى بعض النسخ كما فى البيضاوى والكشاف وفى نسخة ابن بداء كما فى حاشية العلامة الجمل وعبارته وعدى ابن بداء بفتح الموحدة وتشديد الدال المهملة ممدود مصروف اه

الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا تميما وعديا فاستحلفهما عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو انهما لم يختانا شيأ مما دفع اليهما فحلفا على ذلك وخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم وجد الاناء فى أيديهما فبلغ ذلك بنى سهم فأتوهما فى ذلك فقالا انا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم تزعما ان صاحبنا لم يبع شيأ من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة وكرهنا أن نقر لكم فكتمنا لذلك فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فان عثر فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى رفاعة السهميان وحلفا وتقدم ان تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة التى نزلت لها (ذلك) أى الحكم المذكور من ردّ اليمين على الورثة (أدنى) أى أقرب (أن) أى الى أن (يأتوا) أى الذين شهدوا أولا (بالشهادة) أى الواقعة فى نفس الامر (على وجهها) أى الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة (أو) أقرب الى أن (يخافوا أن تردّ أيمان بعد ايمانهم) أى على الورثة المدعين فيحلفون على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون ويغرمون فلا يكذبوا وانما جمع الضمير لانه حكم يعم الشهود كلهم (واتقوا الله) بترك الخيانة والكذب (واسمعوا) ما تؤمرون به سماع قبول (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته لا يهديهم الى حجة ولا الى طريق الجنة * وقوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) أى يوم القيامة منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل اشتمال (فيقول) لهم توبيخا لقومهم كما أن سؤال الموؤدة لتوبيخ الوائد (ماذا) أى الذى (أجبتم) به حين دعوتم الى التوحيد (قالوا لا علم لنا) أى لا علم لنا بما أنت تعلمه (انك أنت علام الغيوب) فتعلم ما أجابونا وأظهروا لنا وما لم نعلم مما أضمروا فى قلوبهم وقوله تعالى (اذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) أى اشكرها منصوب باضمار اذكر وقيل بدل من يوم يجمع وهو على طريقة ونادى أصحاب الجنة والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن اجابتهم وتعديد ما أظهروا عليهم من الآيات فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة وقوله تعالى (اذ أيدتك) أى قويتك ظرف لنعمتى أو حال منه (بروح القدس) أى جبريل عليه السلام فكان له فى الصغر حفظ لم يكن لغيره وقوله تعالى (تكلم الناس) حال من الكاف فى أيدتك (فى المهد) أى طفلا (وكهلا) أى تكلمهم فى الطفولية والكهولة على السواء والمعنى الحاق حاله فى الطفولية بحال الكهول فى كمال العقل والتكلم به وبه استدل على انه ينزل قبل الساعة لانه رفع قبل الكهولة كما سبق فى آل عمران (واذ علمتك الكتاب) أى الخط الذى هو مبدأ العلم (والحكمة) أى الفهم لحقائق الاشياء والعمل بما يدعو اليه العلم (والتوراة) أى المنزلة على موسى صلى الله عليه وسلم (والانجيل) أى المنزل عليك (واذ تخلق من الطين) أى هذا الجنس (كهيئة) أى كصورة (الطير) والكاف اسم بمعنى مثل مفعول (باذنى) أى بأمرى (فتنفخ فيها) أى فى الصورة المهيأة (فتكون) تلك الصورة التى هيأتها (طيرا باذنى) اى بارادتى وقرأ نافع بالمد بعد الطاء وبعد الالف همزة مكسورة وورش يرقق الراء على أصله والباقون بياء ساكنة بعد الطاء (وتبرئ الاكمه والابرص باذنى) وسبق تفسيرهما فى سورة آل

عمران (واذ تخرج الموتى) أى من قبورهم احياء (باذنى واذ كففت بنى اسرائيل) أى اليهود (عنك) أى حين هموا بقتلك وقوله تعالى (اذ جئتهم) ظرف لكففت (بالبينات) أى المعجزات (فقال الذين كفروا منهم ان) أى ما (هذا) الذى جئت به (الا سحر مبين) أى بين ظاهر وقرأ حمزة والكسائى بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء اشارة الى عيسى عليه السلام والباقون بكسر السين وسكون الحاء ولا ألف بعدها اشارة الى ما جاء به (واذ أوحيت) أى بالالهام باطنا وبايصال الاوامر على لسانك ظاهرا (الى الحواريين) أى الانصار (أن) أى بان (آمنوا بى وبرسولى) عيسى صلى الله عليه وسلم (قالوا آمنا) بهما (واشهد بأننا مسلمون) أى منقادون أتم انقياد وقوله تعالى (اذ قال الحواريون) منصوب باذكر وقيل ظرف لقالوا فيكون تنبيها على أن ادعاءهم الاخلاص مع قولهم (يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك) قرأ الكسائى بالتاء على الخطاب وادغام لام هل فيها على أصله وفتح الباء الموحدة من ربك أى هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأل ذلك من غير صارف وقرأ الباقون بالياء على الغيبة ورفع الباء أى يجيبك ربك اذا سألته (أن ينزل علينا مائدة) وهى الطعام ويقال أيضا للخوان اذا كان عليه الطعام والخوان شئ يوضع عليه الطعام للاكل هو فى العموم بمنزلة السفرة لما يوضع فيه طعام المسافر بالخصوص وقال أهل الكوفة سميت مائدة لانها تميد بالآكلين أى تميل وقال أهل البصرة فاعلة بمعنى مفعولة أى تميد أيدى الآكلين اليها كقولهم عيشة راضية أى مرضية وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وقولهم (من السماء) أى لا صنع للآدميين فيها المختص بها عمن تقدمنا من الامم لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة (قال) عيسى عليه الصلاة والسلام مجيبا لهم (اتقوا الله) أن تسألوه شيأ لم تسأله الامم من قبلكم (ان كنتم مؤمنين) بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتى أو صدقتكم فى ادعائكم الايمان فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الايمان (قالوا نريد) أى بسؤالنا من أجل (أن نأكل منها) تبركا لا أكل حاجة وقولهم (وتطمئن) أى تسكن (قلوبنا) بانضمام علم المشاهدة الى علم الاستدلال بكمال قدرته بيان لما دعاهم الى السؤال وتمهيد عذرهم وقولهم (ونعلم) أى نزداد علما (أن) مخففة أى أنك (قد صدقتنا) فى ادعاء النبوة وان الله يجيب دعوتنا وقيل ان عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما فاذا أفطروا لا يسألون الله شيأ الا أعطاهم ففعلوا وسألوا المائدة وقالوا ونعلم ان قد صدقتنا فى قولك أنا اذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى شيأ الا أعطانا (ونكون عليها من الشاهدين) اذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر (قال عيسى بن مريم) لما رأى أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه فأراد الزامهم الحجة بكمالها (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة) وحقق موضع الانزال بقوله (من السماء تكون هى أو يوم نزولها (لنا عيدا) نعظمه ونشرفه وقال سفيان نصلى فيه وروى أنها نزلت يوم الاحد فلذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل ان عيسى عليه السلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وغض بصره وبكى ثم قال اللهم ربنا الخ وقيل العيد السرور والعائد ولذلك سمى

يوم العيد عيدا وقوله (لاولنا وآخرنا) بدل من لنا باعادة العامل أى عيدا لاهل زماننا ولمن جاء بعدنا وقال ابن عباس يأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وقوله (وآية) عطف على عيدا وقوله (منك) صفة لها أى آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى (وارزقنا) المائدة والشكر عليها (وأنت خير الرازقين) أى من يرزق لانه تعالى خالق الرزق ومعطيه بلا غرض (قال الله) تبارك وتعالى مجيبا لعيسى عليه السلام (انى منزلها عليكم) أى المائدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فمن يكفر بعد) أى بعد نزولها (منكم فانى أعذبه عذابا) أى تعذيبا أو مفعولا به على السعة والضمير فى (لاأعذبه) للمصدر ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء (أحدا من العالمين) أى عالمى زمانهم أو العالمين مطلقا فانهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم قال عبد الله بن عمر ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وقوم فرعون واختلف العلماء هل نزلت المائدة أولا فقال مجاهد والحسن لم تنزل فان الله تعالى لما أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستغفروا وقالوا لا نريدها فلم تنزل وقوله تعالى انى منزلها عليكم أى ان سألتم والصحيح الذى عليه الاكثرون أنها نزلت لقوله تعالى انى منزلها عليكم ولتواتر الاخبار فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فى صفتها فقال عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسى لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفا وبكى وقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة فقام فتوضأ وصلى وكشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس أى بلا قشر كالفلوس ولا شوك تسيل دهنا وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون الصفار وهو رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال ليس شيأ مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شئ اخترعه الله تعالى بقدرته كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم و يزدكم من فضله فقال يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا أهل الفاقة والمرض وأهل البرص والجذام والمقعدين وقال كلوا من رزق الله لكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان والسمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعودا وهم ينظرون اليها حتى توارت فلم يأكل منها زمن ولا مريض ولا مبتلى الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فاذا نزلت اجتمعت الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء

ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفىء أى زالت الشمس طارت وهم ينظرون فى ظلها حتى توارت منهم وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة ثمود وقال قتادة كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى اسرائيل وقال وهب بن منبه أنزل الله تعالى أقراصا من شعير وحيتانا فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجىء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعهم وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شئ وقال الكلبى كان عليها خبز أرز وبقل وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنزل على المائدة كل شئ الا الخبز واللحم وقال كعب الاحبار نزلت منكسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها كانت تنزل تارة كذا وتارة كذا وقيل لما نزلت قالوا يا رسول الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيى باذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا من ليلتهم على فراشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات يأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطوف بعيسى وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وفى حديث أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما فأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير (و) اذكر (اذ قال الله) أى يقول لعيسى فى القيامة توبيخا لقومه والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه كقوله تعالى أتى أمر الله (يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) أى غيره وقال السدى قال الله هذا القول لعيسى حين رفعه الى السماء لان حرف اذ يكون للماضى وسائر المفسرين على الاول وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية وأدخل ألفا بينهما قالون وأبو عمرو وورش وابن كثير لم يدخلا ألفا بينهما والباقون بتحقيق الهمزتين ولا ألف بينهما وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أمى بفتح الياء والباقون بالسكون (فان قيل) ما وجه هذا السؤال مع علم الله عز وجل أن عيسى عليه السلام لم يقله (أجيب) بأنه ذكر لتوبيخ قومه كما مر ولتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله اعلاما واستعظاما لا استخبارا واستفهاما وأيضا أراد الله عز وجل أن يقر عيسى على نفسه بالعبودية فيسمع قومه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك قال أبو روق اذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب ارتعدت فرائصه ومفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم ثم (قال) وهو يرعد مجيبا لله (سبحانك) أى أنزهك عن أن يكون لك شريك (ما يكون) اى ما ينبغى (لى أن أقول ما ليس لى بحق) خبر ليس ولى للتبيين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو لى الاولى بفتح الياء والباقون بالسكون (ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما) أخفيه (فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى ما أخفيه عنى من الاشياء وقوله فى نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات وقوله

(انك انت علام الغيوب) تقرير للجملتين تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك باعتبار منطوق انك أنت علام الغيوب ومفهومه لانه يدل بمنطوقه على أنه تعالى لا يعلم الغيب غيره فيكون تقريرا لقوله تعالى ولا أعلم ما فى نفسك وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (ما قلت لهم الا ما أمرتنى به) وهو (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى فانا واياهم فى العبودية سواء (وكنت عليهم شهيدا) أى رقيبا أمنعهم عما يقولون (ما دمت فيهم فلما توفيتنى) بالرفع الى السماء لقوله تعالى انى متوفيك ورافعك الى والتوفى أخذ الشئ وافيا والموت نوع منه قال الله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (كنت أنت الرقيب) أى الحفيظ (عليهم) أى لاعمالهم (وأنت على كل شئ) من قولى وقولهم وغير ذلك (شهيد) أى مطلع عالم به (ان تعذبهم) أى من أقام على الكفر منهم (فانهم عبادك) وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك (وان تغفر لهم) أى لمن آمن منهم (فانك أنت العزيز) أى الغالب على أمره (الحكيم) فى صنعه فان عذبت فعدل وان عفوت ففضل (قال الله) تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى فى الدنيا كعيسى فان النافع ما كان حال التكليف لا صدقهم فى الآخرة وقرأ نافع بنصب الميم على انه ظرف لقال وخبر هذا محذوف والمعنى هذا الذى من كلام عيسى عليه السلام واقع يوم ينفع والباقون بالرفع على الخبر وقيل أراد بالصادقين النبيين وقال الكلبى ينفع المؤمنين ايمانهم وقال قتادة متكلمان يخطبان يوم القيامة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو ما قص الله تعالى وعدو الله ابليس وهو قوله تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر فصدق عدو الله يومئذ وكان كاذبا فلم ينفعه صدقه قال ولما كان عيسى صادقا فى الدنيا والآخرة نفعه صدقه * ثم بين تعالى ثوابهم فقال (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) وأكد معنى ذلك بقوله تعالى (أبدا) ولما كان ذلك لا يتم الا برضا الله تعالى قال (رضى الله عنهم) بطاعته (ورضوا عنه) بثوابه (ذلك) أى هذا الامر العلى لا غيره (الفوز العظيم) وأما الكاذبون فى الدنيا فلا ينفعهم صدقهم فى ذلك اليوم كالكفار لما يؤمنون عند رؤية العذاب (لله ملك السموات والارض) أى خزائن المطر والنبات والرزق وغيرها (وما فيهن) من انس وجن وملك وغيرهم ملكا وخلقا وأتى بما دون من تغليبا لغير العاقل (وهو على كل شئ قدير) ومنه اثابة الصادق وتعذيب الكاذب قال السيوطى وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر وقول البيضاوى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الاجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا حديث موضوع

(سورة الانعام مكية)

روى أنها نزلت بمكة جملة واحدة ليلا ونزل معها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان ربى العظيم وخر

ساجدا

ساجدا او الزجل بفتح الزاى والجيم القوة قال البغوى وروى مرفوعا من قرأ سورة الانعام يصلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت سورة الانعام بمكة الا قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الى قوله تعالى لعلكم تتقون فهذه الست آيات مدنيات ويروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا بالكتاب فكتبوها من ليلتهم الا الست ايات قال بعض العلماء واختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة والثانى انها شيعها سبعون ألفا من الملائكة والسبب فيها أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وابطال مذاهب المبطلين والملحدين وهى مائة وخمسة وستون آية وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثنا عشر ألفا وأربعمائة واثنان وعشرون حرفا (بسم الله) الذى تعالت عظمته عن كل شائبة نقص فكان له كل كمال (الرحمن) الذى عمت نعمته المحسن والمسىء فغمر الكل بالنوال (الرحيم) الذى خص أولياءه باتمام النعمة فهداهم بنعمة الايصال (الحمد) هو الوصف بالجميل ثابت (لله) وهل المراد الاعلام بذلك للايمان به أو الثناء به أوهما احتمالات قال الجلال المحلى فى سورة الكهف أفيدها الثالث وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا فى أول الفاتحة وقال كعب الاحبار هذه الآية أول آية فى التوراة وآخر آية فى التوراة وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الى آخر الآية وفى رواية ان آخر آية فى التوراة آخر سورة هود وقال ابن عباس رضى الله عنهما افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله (الذى خلق السموات والارض) وختم بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وقال أهل المعانى لفظ الحمد لله خبر ومعناه الامر أى احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ فى البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وانما خص السموات والارض بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما ترى العباد لان السماء بغير عمد ترونها فيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلائق وفيها أيضا العبر والمنافع وجمع السموات دون الارض وهى مثلهن لان طبقاتها مختلفة الذات متفاوتة الآثار والحركات بالكواكب فى سيرها وحركاتها فى السرعة والبطء واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك مما هو محرر عند أهله وقدمها لشرفها قدرا وعظما وان كانت الارض أشرف من حيث انها مسكن الانبياء (وجعل) أى خلق (الظلمات والنور) أى كل ظلمة ونور وجمعها دونه لكثرة أسبابها والاجرام الحاملة لها اذ ما من جرم الا وله ظل وظلمة بخلاف النور فانه من جنس واحد وهو النار ولا ترد الاجرام المنيرة كالكواكب لان مرجع كل نير الى النار على ما قيل ان الكواكب أجرام نورانية نارية وان الشهب منفصلة من نار الكواكب فصح أن النور من جنس النار وأن المراد بالظلمة الضلال وبالنار الهدى والهدى واحد والضلال متعدد وتقديمها لتقدم الاعدام على الملكات وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) عطف على قوله خلق أى انه تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم الذين كفروا يعدلون بربهم الاوثان

اى يسوونها به فى العبادة وعلى هذا فيعدلون من العدل وهو التسوية والباء متعلقة بيعدلون أو على قوله الحمد لله على معنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه وانعمه على العباد ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيكفرون نعمته وعلى هذا فيعدلون من العدول والباء متعلقة بكفروا ومعنى ثم استبعاد عدولهم بعد وضوح آيات قدرته (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الاولى وان آدم الذى هو أصل البشر خلق منه أو خلق أباكم فحذف المضاف قال السدى بعث الله جبريل عليه السلام الى الارض ليأتيه بطائفة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تنقص منى فرجع جبريل عليه السلام ولم يأخذ قال يارب عاذت بك فبعث ميكائيل عليه السلام فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت عليه السلام فعاذت بالله منه فقال أنا أعوذ بالله ان أخالف أمره فأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها الاجرم اجعل أرواح الخلق من هذا الطين بيدك وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب وجعله طينا ثم تركه حتى كان حمأ مسنونا ثم خلقه وصوره وتركه حتى كان صلصالا كالفخار ثم نفخ فيه من روحه (ثم قضى أجلا) أى أجلا لكم تموتون عند انتهائه (وأجل مسمى) أى مضروب (عنده) أى وهو أجل القيامة وقال الحسن الاول بين وقت الولادة الى وقت الموت والثانى من وقت الموت الى البعث فان كان الرجل براتقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب وقيل الاول النوم والثانى الموت وقيل الاول لمن مضى والثانى لمن بقى ولمن يأتى (ثم أنتم) أيها الكفار (تمترون) أى تشكون فى البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم ومن قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر ومعنى ثم استبعاد أيضا كما مر لان يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) الضمير لله والله خبره وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائى بسكون الهاء من وهو والباقون بالضم وقوله تعالى (فى السموات وفى الارض) متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل هو مستحق العبادة فيهما ومنه قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله أو هو المعروف بالالهية أو المتوحد بالالهية فيهما وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله (يعلم سركم) أى ما تسرون (وجهركم) أى ما تجهرون به بينكم فى السموات والارض وقيل معناه وهو اله السموات والارض كقوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله (ويعلم ما تكسبون) أى ما تعملون من خير أو شر فيثيب عليه أو يعاقب (فان قيل) الافعال اما أفعال القلوب وهى المسماة بالسر واما أفعال الجوارح وهى المسماة بالجهر والافعال لا تخرج عن السر والجهر فقوله تعالى ويعلم ما تكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وهو غير جائز (أجيب) بأن المراد بالسر ما يخفى وبالجهر ما يظهر من أحوال الانفس

وبالمكتسب أعمال الجوارح فهو كما يقال هذا المال كسب فلان أى مكتسبه فلا يحمل على نفس الكسب والالزم عطف الشئ على نفسه (وما تأتيهم) أى الكفار (من آية من آيات ربهم) من الاولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض أى ما يظهر لكم دليل قط من الادلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) أى تاركين لها وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (فسوف يأتيهم أنباء) أى عواقب (ما كانوا به يستهزؤن) بنزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة أو عند ظهور الاسلام وارتفاع أمره (ألم يروا) أى فى اسفارهم الى الشام وغيرها (كم) خبرية بمعنى كثيرا (أهلكنا من قبلهم من قرن) أى أمة من الامم الماضية وعلى هذا القرن الجماعة من الناس وجمعه قرون وقيل القرن مدة من الزمان قيل انها عشرة أعوام وقيل عشرون وقيل ثلاثون وقيل أربعون وقيل خمسون وقيل ستون وقيل سبعون وقيل ثمانون وقيل تسعون وقيل مائة لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازنى تعيش قرنا فعاش مائة سنة وقيل مائة وعشرون فيكون معناه على هذه الاقاويل من أهل قرن (مكناهم فى الارض) أى جعلنا لهم فيها سكانا بالقوة والسعة وقررناهم فيها (ما لم نمكن لكم) أى ما لم نجعل لكم من السعة والقوة فيه التفات عن الغيبة والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمودا وغيرهم من البسطة فى الاجسام والسعة فى الاموال والاستظهار بأسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) هى المطر (عليهم مدرارا) أى متتابعا (وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) أى تحت مساكنهم (فأهلكناهم بذنوبهم) أى بسبب ذنوبهم بتكذيبهم الانبياء فلم يغن ذلك عنهم شيأ (وأنشأنا) أى أحدثنا (من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (فان قيل) ما فائدة ذكر أنشأنا قرنا آخرين بعدهم (أجيب) بأنه ذكر للدلالة على انه تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم فانه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده فهو قادر على أن يفعل ذلك بكم * ونزل لما قال النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله (ولو نزلنا عليك كتابا) أى مكتوبا (فى قرطاس) أى رق كما اقترحوه (فلمسوه بأيديهم) أبلغ من عاينوه لانه أنفى للشك (لقال الذين كفروا ان) أى ما (هذا الا سحر مبين) أى تعنتا وعنادا كما قالوا فى انشقاق القمر (وقالوا لولا) أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا انه نبى كقوله تعالى لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا (ولو أنزلنا ملكا) كما اقترحوا فلم يؤمنوا (لقضى الامر) أى لحق اهلاكهم فان سنة الله تعالى جرت فيمن قبلهم أنهم اذا جاءهم مقترحهم فلم يؤمنوا به يهلكهم (ثم لا ينظرون) أى لا يمهلون لتوبة أو معذرة (ولو جعلناه) أى المنزل اليهم (ملكا لجعلناه) أى الملك (رجلا) أى على صورته ليتمكنوا من رؤيته اذ لا قوة للبشر على رؤية الملك فى صورته وانما رآه كذلك الافراد من الانبياء لقوتهم القدسية وقوله تعالى (وللبسنا

عليهم مايلبسون) جواب محذوف أى ولو أنزلناه وجعلناه رجلا للبسنا أى لخلطنا عليهم بجعلنا اياه رجلا مايخلطون على أنفسهم وعلى غيرهم فيقولون ماهذا الابشر مثلكم وانما كان تلبيسا لانهم لبسوا على ضعفتهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل مالحق الضعفاء منهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ماكان منهم من التخليط فى السؤال واللبس على الضعفاء وقوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك) فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم على مايرى من قومه (فحاق) قال الربيع بن أنس فنزل وقال عطاء فحل وقال الضحاك فأحاط (بالذين سخروا منهم) أى من أولئك الرسل (ما كانوا به يستهزؤن) وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك (قل) لهم (سيروا فى الارض) أى أوقعوا السير للاعتبار فيها ولاتغتروا بامهالكم وتمكينكم (ثم انظروا كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (المكذبين) الرسل من هلاكهم بالعذاب فانكم اذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار بهم (قل) لهم (لمن مافى السموات والارض) خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت (قل لله) ان لم يقولوه لاجواب غيره لانه المتعين للجواب بالاتفاق اذ لايمكنهم ان يذكروا غيره (كتب) اى قضى (على نفسه الرحمة) تفضلا منه واحسانا فالرحمة تعم الدارين ومن ذلك الهداية الى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الادلة وانزال الكتب والامهال على الكفرة والعصاة والمذنبين ولوشاء اسلط عليهم المضار وجعل عيشهم من غير اللذيذ كالتراب وبعض القاذورات التى تعيش فيها الحيوانات روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده فوق عرشه ان رحمتى غلبت غضبى وفى رواية سبقت غضبى وفى رواية ان لله تعالى مائة رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها واخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه سبى فاذا امرأة من السبى قدغلب ثديها اذوجدت صبيا فى السبى أخذته والصقته ببطنها وأرضعته فقال النبى صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لاتطرحه فقلنا لا والله يارسول الله فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) استئناف واللام لام القسم أى والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) أى فى يوم القيامة والى بمعنى فى أو ليجمعنكم فى القبور مبعوثين الى يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فان من رحمته بعثه اياكم وانعامه عليكم (لاريب) أى لاشك (فيه) أى اليوم أو الجمع وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) فى موضع نصب على الذم أو رفع على الخبر أى وأنتم الذين خسروا أنفسهم بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الاصلية أو مبتدأ خبره (فهم لايؤمنون) (فان قيل) الفاء تدل على أن عدم ايمانهم مسبب عن خسرانهم مع أن الامر على العكس (أجيب) بأن ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع عن الايمان وقوله تعالى (وله ماسكن) أى حل (فى الليل والنهار) عطف على لله أى له كل شئ من حيوان وغيره لانه خالقه ومالكه وقيل له ماسكن

فيهما

فيهما أو تحرك واكتفى بأحد الضدين عن الآخر (وهو السميع) أى لكل ما يقال (العليم) أى بكل ما يفعل فلا يخفى عليه شئ سبحانه وتعالى * ونزل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه (قل) لهم (أغير الله اتخذ وليا) أى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار أى لا أتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) أى خالقهما ابتداعا من غير سبق وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما انى فطرتها أى ابتدأتها (وهو يطعم) أى يرزق (ولا يطعم) أى ولا يرزق وصف سبحانه وتعالى ذاته بالغنى عن الخلق باحتياجهم اليه لان من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم اليه ولا يطعم لاستغنائه عنهم وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) لله من هذه الامة لان النبى سابق أمته فى الدين والدين وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة بسبب اختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات (ولا تكونن من المشركين) أى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين أى فى عدادهم باتباعهم فى شئ من اغراضهم وهذا التأكيد لقطع أطماعهم عنه صلى الله عليه وسلم فى سؤالهم أن يكون على دين آبائه وقوله تعالى (قل انى أخاف ان عصيت ربى) بعبادة غيره (عذاب يوم عظيم) مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب وقوله تعالى (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ) أى يوم القيامة قرأه أبو بكر وحمزة والكسائى بفتح الياء وكسر الراء على البناء للفاعل والضمير لله تعالى والمفعول محذوف وقرأه الباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول فالضمير للعذاب (فقد رحمه) ربه تعالى أى أراد به الخير (وذلك) أى الصرف أو الرحمة (الفوز المبين) أى النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) أى ببلاء كمرض وفقر والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو فى معناه (فلا كاشف) أى لا رافع (له الا هو) لا غيره (وان يمسسك بخير) أى بصحة وغنى والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور وغير ذلك (فهو على كل شئ قدير) من الخير والضر وهذه الآية وان كانت خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم فهى عامة لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شئ قدير من دفع الضر وايصال الخير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه فسار بى مليا ثم التفت الى فقال لى يا غلام فقلت لبيك يا رسول الله قال أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف وفى رواية واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين وفى رواية فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلق ان ينفعوك بما لم يقضه لك الله لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن

يضر ولا عالم يكتب الله عليك ما قدروا عليه (وهو القاهر) أى القادر الذى لا يعجزه شئ مستعليا (فوق عباده) فهم مقهورون تحت قدرته وكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة (وهو الحكيم) فى خلقه (الخبير) ببواطنهم كظواهرهم ونزل لما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا ما يشهد لك (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك (أى شئ) بينى وبينكم (أكبر شهادة) تمييز محول عن المبتدا (قل الله) أكبر شهادة ان لم تقولوه لا جواب غيره ثم ابتدأ (شهيد بينى وبينكم) أى هو شهيد بينى وبينكم ويحتمل أن يكون الله شهيد هو الجواب لانه تعالى اذا كان هو الشهيد كان أكبر شئ شهادة (وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم) يا أهل مكة (به) أى القرآن واكتفى بذكر الانذار عن ذكر البشارة وقوله تعالى (ومن بلغ) عطف على ضمير المخاطبين أى لانذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الانس والجن الى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم يبلغه قال محمد بن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله تعالى وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب مبلغ أوعى من سامع وفى رواية فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه وقال مقاتل من بلغه القرآن من الجن والانس فهو نذير له وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) استفهام انكارى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيرى انكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى وهى الاصنام التى كانوا يعبدونها (قل) لهم (لا أشهد) بما تشهدون به ان مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) لا شريك له وبذلك أشهد (واننى برئ مما تشركون) معه من الاصنام وفى الآية دليل على اثبات التوحيد ونفى الشريك لان كلمة انما تفيد الحصر فثبت بذلك ايجاب التوحيد والتبرى من كل معبود سوى الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) أى التوراة والانجيل وهم علماء اليهود والنصارى (يعرفونه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته (كما يعرفون أبناءهم) من بين الصبيان روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال عمر رضى الله تعالى عنه ان الله تعالى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة هذه الآية فكيف هذا فقال عبد الله بن سلام قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولانا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم من ابنى فقال له عمر كيف ذلك فقال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى ما تصنع النساء (الذين خسروا أنفسهم) من أهل الكتاب والمشركين (فهم لا يؤمنون) به لما سبق لهم من القضاء بالشقاء (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) كقولهم الملائكة بنات الله

واتخذ الله ولدا (أو كذب بآياته) الآتى بها الرسل كالقرآن وغيره من المعجزات (انه) اى الشأن (لا يفلح الظالمون) أى لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون عليه الباطل (و) اذكر (يوم نحشرهم جميعا) أى أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم وهو يوم القيامة (ثم نقول) توبيخا (للذين أشركوا) أى سموا شيأ من دوننا الها وعبدوه من الاصنام أو عزيرا أو المسيح أو الظلمة أو النور أو غير ذلك (أين شركاؤكم) أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله تعالى وأضافها الى ضميرهم لتسميتهم اياها بذلك وقوله تعالى (الذين كنتم تزعمون) معناه كنتم تزعمونهم شركاء وانها تشفع لكم عند الله فحذف المفعولان (ثم لم تكن فتنتهم) أى معذرتهم (الا أن قالوا) أى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم على أفواههم وتشهد جوارحهم عليهم بالشرك وقرأ حمزة والكسائى يكن بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص فتنتهم بضم التاء والباقون بالنصب وقرأ حمزة والكسائى ربنا بنصب الباء على النداء أو المدح والباقون بالكسر قال الله تعالى (انظر) يا محمد (كيف كذبوا على أنفسهم) باعتذارهم الباطل وتبريهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم (وضل) أى غاب (عنهم ما كانوا يفترون) أى يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم (فان قيل) كيف يصح ان يكذبوا حين يطلعون على حقائق الامور وعلى ان الكذب والجحود لا وجه لمنفعته (أجيب) بأن الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشة الا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون وقد أيقنوا الخلود ولم يشكوا فيه وقالوا ليقض علينا ربك وقد علموا انه لا يقضى عليهم (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن روى انه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون القرآن فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال والذى جعلها بيته يعنى الكعبة ما أدرى ما يقول الا أنه يحرك لسانه فيقول أساطير الاولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا لا تقر بشئ من هذا فأنزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (أن) أى كراهة ان (يفقهوه) أى يفهموا القرآن (و) جعلنا (فى آذانهم وقرا) أى صمما فلا يسمعونه سماع قبول ووجه اسناد الفعل الى ذاته تعالى وهو قوله تعالى وجعلنا للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه أو هى حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب (وان يروا كل آية) أى معجزة من المعجزات الدالة على صدقك (لا يؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى اذا جاؤك يجادلونك) أى بلغ تكذيبهم الآيات الى انهم جاؤك يجادلونك ويناكرونك وحتى هى التى تقع بعدها الجمل لا عمل لها والجملة اذا وجوابها وهو (يقول الذين كفروا ان) أى ما (هذا الا أساطير) أى أكاذيب (الاولين) أى

أحاديثهم من الامم الماضية واخبارهم وأقاصيصهم وماسطر وا بمعنى كتبوا والاساطير جمع أسطورة بالضم قال البخارى عن ابن عباس وهى الترهات (وهم ينهون) الناس (عنه) اى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن (وينأون) أى يتباعدون عنه فلا يؤمنون به قال محمد بن الحنفية والسدى والضحاك نزلت فى كفار مكة وقال ابن عباس ومقاتل فى أبى طالب كان ينهى الناس عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى عن الايمان به أى يبعد حتى روى انه اجتمع له رؤس المشركين وقالوا خذ شابا من أحسن أصحابنا وجها وادفع الينا محمدا فقال أبو طالب ما أنصفتمونى أدفع اليكم ولدى لتقتلوه وأربى ولدكم وروى انه صلى الله عليه وسلم دعاه الى الايمان فقال لولا ان تعيرنى قريش لاقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وروى انهم اجتمعوا الى أبى طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوأ فقال

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة * وابشر بذاك وقربه عيونا
ودعوتنى وزعمت انك ناصح * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة انه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

(وان) أى ما (يهلكون) بالنأى عنه (الا أنفسهم) لان ضرره عليهم (ومايشعرون) أن ضررهم لايتعداهم الى غيرهم وقوله تعالى (ولو ترى) يا محمد (اذ وقفوا) أى عرضوا (على النار) جوابه محذوف أى لو تراهم حين يقفون على النار فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمرا شنيعا (فقالوا) أى الكفار (يا) للتنبيه (ليتنا نرد) أى الى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا أن يردوا الى الدنيا ولا يكذبوا بآيات ربهم وقرأ حفص وحمزة بنصب الباء من يكذب على جواب التمنى والباقون بالرفع على الاستئناف وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة بفتح النون من نكون على جواب التمنى والباقون بالضم على العطف وقوله تعالى (بل بدا لهم) أى ظهر لهم (ما كانوا يخفون من قبل) للاضراب عن ارادة الايمان المفهوم من التمنى والمعنى أنهم ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجرا لاعزما على انهم لو ردوا لآمنوا كما قال تعالى (ولو ردوا) الى الدنيا أى لو فرض ذلك بعد الوقوف والظهور (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصى (وانهم لكاذبون) فى قولهم لو رددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين (وقالوا ان) أى ما (هى الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة ويجوز أن يعطف على قوله وانهم لكاذبون على معنى وانهم لقوم كاذبون فى كل شئ وهم الذين قالوا ان هى الا حياتنا وكفى به دليلا على كذبهم (ولو ترى) يا محمد (اذ وقفوا) أى عرضوا (على ربهم) لرأيت أمرا عظيما (قال) لهم على لسان الملائكة توبيخا (أليس هذا) البعث والحساب (بالحق) وقوله تعالى (قالوا بلى وربنا) اقرار مؤكد باليمين لانجلاء الامر غاية الانجلاء (قال فذوقوا العذاب) أى الذى كنتم به توعدون (بما كنتم

تكفرون) اى بسبب كفركم وجحودكم البعث (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى بالبعث واستمر تكذيبهم (حتى اذا جاءتهم الساعة) أى القيامة (بغتة) أى فجأة وسميت القيامة ساعة لانها تفجأ الناس بغتة فى ساعة لا يعلمها الا الله تبارك وتعالى وقيل لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة واحدة وأقل من ذلك (قالوا ياحسرتنا) أى ياندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وشدة التألم ونداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى (على ما فرطنا) أى قصرنا (فيها) أى الحياة الدنيا جئ بضميرها وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة لانها موضع التفريط فى الاعمال الصالحة ويجوز أن يكون للساعة على معنى قصرنا فى شأنها والايمان بها كما تقول فرطت فى فلان ومنه فرطت فى جنب الله وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) أى أثقالهم وآثامهم (على ظهورهم) تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام وقال السدى وغيره ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شئ صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طال ما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا أى ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طال ما ركبتنى فى الدنيا واليوم أركبك فهو معنى قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم (ألا ساء) أى بئس (ما يزرون) أى ما يحملون حملهم ذلك وقوله تعالى (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا أى وما أعمالها الا لعب ولهو يلهى الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية وقيل معناه ان أمر الدنيا والعمل فيها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة (وللدار الآخرة) أى الجنة واللام فيه لام القسم (خير) أى من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) أى الشرك وقيل اللهو واللعب (أفلا يعقلون) أى ان الآخرة خير من الدنيا فيعملوا لها وقرأ ابن عامر ولدار بتخفيف الدال وجر التاء من الآخرة والباقون وللدار بتشديد الدال ورفع التاء وقرأ نافع وابن عامر وحفص تعقلون على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة (قد) للتحقيق (نعلم انه) أى الشأن (ليحزنك الذى يقولون) من التكذيب وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزاى (فانهم لا يكذبونك) أى بقلوبهم ولكن يجحدون بألسنتهم أو انهم لا يكذبونك لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى يكذبون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين فعرفوا أنه لا يكذب فى شئ ولكنهم كانوا يجحدون قال السدى التقى الاخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيرى فقال أبو جهل والله ان محمدا لصادق ما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ان أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به فأنزلت

ووضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم والباء لتضمن الجحود معنى التكذيب وقرأ نافع والكسائي يكذبونك بسكون الكاف وتخفيف الذال من أكذبه اذا وجده كاذبا أو نسبه للكذب والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب وهو أن ينسبه الى الكذب وقوله تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على أن قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفي لتكذيبه مطلقا وانما هو من قولك لغلامك ما أهانوك ولكنهم أهانوني (فصبروا على ما كذبوا) أي على تكذيبهم لهم (وأوذوا) أي وصبروا على ايذائهم لهم (حتى أتاهم نصرنا) باهلاك من كذبهم فتأس بهم واصبر حتى يأتيك النصر باهلاك من كذبك وفي ذلك ايماء بوعد النصر للصابرين (ولا مبدل لكلمات الله) أي لمواعيده من قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين الآيات (ولقد جاءك من نبإ المرسلين) أي من قصصهم وما كابدوا من قومهم مما يسكن به قلبك قيل من مزيدة وقيل للتبعيض ويدل له قوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (وان كان كبر) أي عظم وشق (عليك اعراضهم) عنك وعن الايمان بما جئت به (فان استطعت أن تبتغي) أي تطلب بجهدك وغاية طاقتك (نفقا) أي منفذا (في الارض) تنفذ فيه الى ما عسالك تقدر الى الانتهاء اليه (أو سلما في السماء) أي جهة العلو لترتقي فيه الى ما تقدر عليه (فتأتيهم بآية) أي مما اقترحوه عليك فافعل لتشاهد انهم لا يزدادون عند اتيانك بها الا اعراضا كما أخبرناك لان الله تعالى شاء ضلال بعضهم والمقصود بهذا بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم وأنه لو قدر أن يتكلف النزول الى تحت الارض أو فوق السماء فيأتيهم بما يؤمنون به لفعل (ولو شاء الله) هدايتهم (لجمعهم على الهدى) أي لوفقهم له ولكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا والمعتزلة أولوا لو شاء الله بانه لو شاء لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة وجرى على هذا الزمخشري في كشافه والمعنى أن اسناد مشيئة الجمع الى الله تعالى ظاهر في أنه هو المهدي والمضل والمعتزلة لما قالوا انه بفعل العبد احتاجوا الى التأويل (فلا تكونن من الجاهلين) أي لا يشتد تحسرك على تكذيبهم ولا تجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وانما نهاه عن هذه الحالة وغلظ عليه الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة (انما يستجيب) دعاءك الى الايمان (الذين يسمعون) سماع تفهم واعتبار كقوله تعالى أو ألقى السمع وهو شهيد وهم المؤمنون الذين فتح الله تعالى لهم أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) أي الكفار اشبههم بهم في عدم السماع (يبعثهم الله) في الآخرة (ثم اليه يرجعون) أي يردون فيجازيهم بأعمالهم (وقالوا) أي رؤساء قريش (لولا) أي هلا (نزل عليه آية) مما اقترحوا (من ربه) المحسن اليه كالناقة والعصا والمائدة أو آية تضطرهم الى الايمان كنتق الجبل أو آية ان جحدوها هلكوا (قل) لهم (ان الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحوه أو آية تضطرهم الى الايمان أو آية ان جحدوها هلكوا لا يعجزه شئ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي ماذا عليهم في انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها

ولهم فيما أنزل مندوحة عن غيره وقرأ ابن كثير ينزل بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى والمعنى واحد (ومامن دابة فى الارض) أى تدب على وجهها (ولاطائر يطير بجناحيه) فى الهواء وهو بالمد مابين السماء والارض وهو المراد هنا وأما الهوى بالقصر فهوى النفس وليس مرادا وانما قال بجناحيه مع أن الطيران لا يكون الا به اقطعا لمجاز السرعة ونحوها كما تقول كتبت بيدى ونظرت بعينى (الا أمم أمثالكم) أى محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها قال العلماء جميع ماخلق الله تعالى لا يخرج عن هاتين الحالتين حتى ما فى البحر لان سيرها فى الماء اما أن يكون دبيبا أوطيرانا مجازا وانما خص مافى الارض بالذكر دون مافى السماء وان كان مافى السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد واختلاف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقال مجاهد أصناف مصنفة تعرف بأسمائها مثل بنى آدم يعرفون بأسمائهم يريد أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة وقال ابن قتيبة أمم أمثالكم فى الغذاء وابتغاء الرزق وتوقى المهالك وقال عطاء أمثالكم فى التوحيد والمعرفة وقيل غير ذلك والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية (مافرطنا) أى ماتركنا وما أغفلنا (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (من شئ) فلم نكتبه فانه مشتمل على مايجرى فى العالم من الجليل والدقيق ولم يهمل فيه أمر حيوان وقيل المراد بالكتاب القرآن فانه قد دون فيه مايحتاج اليه من أمر الدين مفصلا ومجملا ومن مزيدة وشئ فى موضع المصدر لا المفعول به فان فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدى بفى الى الكتاب (ثم الى ربهم يحشرون) قال ابن عباس والضحاك حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة الدواب والطير وكل شئ فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول ياليتنى كنت ترابا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى اهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء (والذين كذبوا بآياتنا) أى القرآن (صم) عن سماعها سماع قبول (وبكم) عن النطق بالحق (فى الظلمات) أى فى ضلالات الكفر (من يشإ الله) اضلاله (يضلله ومن يشأ) هدايته (يجعله على صراط مستقيم) هو دين الاسلام وهو دليل واضح لاهل السنة على المعتزلة فى قولهم انه مامن العبد كما مر (قل) يا محمد لاهل مكة وقوله تعالى (أرأيتكم) استفهام تعجب والكاف حرف خطاب أى أخبرونى (ان أتاكم عذاب الله) أى فى الدنيا كما أتى من قبلكم من الغرق أو الخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) أى القيامة المشتملة على العذاب (أغير الله تدعون) فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) ان الاصنام آلهة وجواب الاستفهام محذوف أى فادعوه وهو تبكيت لهم (بل اياه تدعون) أى تخصونه بالدعاء كما حكى الله تعالى ذلك عنهم فى موضع كما فى قوله تعالى واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما الآية (فيكشف ماتدعون اليه) أى ماتدعون الى كشفه (ان شاء) كشفه فى الدنيا تفضلا عليكم كما هو عادته معكم فى وقت شدائدكم ولكنه

لا يشاء كشفه فى الآخرة لانه لا يبدل القول لديه وان كان له ان يفعل ما يشاء (وتنسون) اى تتركون فى تلك الاوقات دائما (ما تشركون) معه من الاصنام فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع (ولقد أرسلنا) رسلا (الى أمم من قبلك) أى قبلك ومن مزيدة فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء) أى شدة الفقر (والضراء) أى الامراض والاوجاع وهما صفتا تأنيث لا مذكر لهما (لعلهم يتضرعون) أى يتذللون ويتوبون عن ذنوبهم فيؤمنون (فلولا) أى فهلا (اذ جاءهم بأسنا) أى عذابنا (تضرعوا) أى لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضى له (ولكن قست قلوبهم) فلم تلن للايمان (وزين لهم الشيطان) أى بما أدخل عليهم من باب الشهوات (ما كانوا يعملون) من المعاصى فأصروا عليها (فلما نسوا) أى تركوا (ما ذكروا) أى وعظوا وخوفوا (به) وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسى (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) أى من الخيرات والارزاق والملاذ التى كانت مغلقة عنهم فنقلناهم من الشدة الى الرخاء استدراجا لهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) أى فرح بطر (أخذناهم) بالعذاب (بغتة) أى فجأة (فاذا هم مبلسون) أى متحسرون آيسون من كل خير (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم بأن استؤصلوا (والحمد لله رب العالمين) أى على نصر الرسل واهلاك الكافرين والعصاة فان اهلاكهم من حيث انه تخليص لاهل الارض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها (قل) أى لاهل مكة (أرأيتم) أى أخبرونى (ان أخذ الله سمعكم) أى أصمكم (وأبصاركم) أى أعماكم (وختم) أى طبع (على قلوبكم) أى بأن يغطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم فلا تعرفون شيأ (من اله غير الله يأتيكم به) أى بذلك أو بما أخذ منكم وختم عليه لان الضمير فى به يعود على معنى الفعل أو بأحد هذه المذكورات ويجوز أن يعود الى السمع الذى ذكره أولا ويندرج غيره تحته كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه فالهاء راجعة الى الله تعالى ورضا رسول الله صلى الله عليه وسلم يندرج فى رضا الله تعالى (انظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره أى انظر يا محمد (كيف نصرف) أى نبين لهم الآيات أى العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ونكررها تارة من جهة المقدمات العقلية وتارة من جهة الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين (ثم هم يصدفون) أى يعرضون عنها فلا يؤمنون (قل لهم (أرأيتكم) أى أخبرونى (ان أتاكم عذاب الله بغتة) أى فجأة (أو جهرة) أى معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس والحسن ليلا ونهارا (هل يهلك) أى ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب (الا القوم الظالمون) أى المشركون لانهم ظلموا أنفسهم بالشرك (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) من آمن بالجنة (ومنذرين) من كفر بالنار أى ليس فى ارسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات انما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن) أى بهم (وأصلح) أى عمله (فلا خوف عليهم) أى من العذاب (ولا هم يحزنون) فى الآخرة بفوات الثواب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) أى يصيبهم (بما كانوا يفسقون) أى بسبب خروجهم عن

الطاعة (قل) لهم (لا أقول لكم عندى خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم انما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندى خزائن الله جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ وخزن الشئ احرازه بحيث لا تناله الايدى خزائن رزقه أو مقدوراته فاعطيكم منها ما تريدون لانهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا ويغنى فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدى (ولا) أقول لكم انى (أعلم الغيب) أى فأخبركم بما مضى وما هو آت وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا فى المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولا أعلم الغيب فأخبركم بذلك (ولا أقول لكم انى ملك) وذلك أنهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ويتزوج النساء فأجابهم بذلك لان الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدونه أى لا أقول لكم شيأ من ذلك فتنكرون وتجحدون (فان قيل) قد يستدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الانبياء لان معنى الكلام لا أدعى منزلة أقوى من منزلتى ولولا أن الملائكة أفضل لم يصح ذلك (أجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم انما قال ذلك تواضعا لله تعالى واعترافا بالعبودية حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى فى المسيح وبان المراد بما قاله نفى قدرته عن أفعال لا يقوى عليها الا الملائكة وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الانبياء (ان أتبع الا ما يوحى الى) تبرأ صلى الله عليه وسلم من دعوى الالوهية والملكية وادعى النبوة مع الرسالة التى هى أعلى كمالات البشر ردا لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه وظاهر هذه الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد فى شئ من الاحكام بل جميع أوامر الله ونواهيه انما كانت بوحى ولكن المرجح أنه يجتهد (قل) لهم (هل يستوى الاعمى والبصير) أى هل يكونون سواء من غير مزية فان قالوا انهم كابروا الحس وان قالوا لا قيل فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الاعمى وقيل المراد بالاول الكافر وبالثانى المؤمن وقيل الضال والمهتدى وقيل الجاهل والعالم (أفلا تتفكرون) فى أنهما لا يستويان فتؤمنوا (وأنذر) أى خوف اذ الانذار اعلام مع تخويف (به) أى القرآن وقوله تعالى (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) اما قوم داخلون فى الاسلام ومقرون بالبعث الا أنهم مفرطون فى العمل واما أهل الكتاب لانهم مقرون بالبعث واما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون اذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الانذار دون المتمردين منهم وقوله تعالى (ليس لهم من دونه) أى غير الله تعالى (ولى) أى ينصرهم (ولا شفيع) أى يشفع لهم حال من ضمير يحشروا بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ولا بد من هذه الحال لان كلا منهم محشور فان المخوف هو الحشر على هذه الحالة (فان قيل) اذا فسر ما ذكر بالمؤمنين كان مشكلا لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض (أجيب) بأن الشفاعة لا تكون الا باذن الله تعالى كما قال من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة لا تكون

الا باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع حتى يؤذن لهم بالشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) الله باقلاعهم عما هم فيه وعمل الطاعات (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) بعدما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بانذار غير المتقين ليتقوا أمره باكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش روى أن رؤساءهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الاعبد يعنون الفقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وخباب وسلمان واضرابهم وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا اليك وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت قال نعم طمعا فى ايمانهم وروى أن عمر رضى الله عنه قال له لو فعلت حتى تنظر الى ماذا يصيرون قالوا فاكتب بذلك كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر رضى الله تعالى عنه من مقالته قال سلمان وخباب فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته فكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزل واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال لنا الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى ان أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات وقال الكلبى قالوا له اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل واحدا وأقبل علينا وولهم ظهرك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم معبد لبايعنا محمدا فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس وذلك أن ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من الاشراف اذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا فنزلت هذه الآية وقوله تعالى (يريدون وجهه) حال من يدعون أى يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالاخلاص تنبيها على انه ملاك الامر (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) أى ليس عليك حساب فى اختبار بواطنهم واخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وان كان لهم باطن غير مرضى كما ذكره المشركون وطعنوا فى دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم اليك كما أن حسابك لا يتعداك اليهم كقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (فان قيل) هلا اكتفى بقوله ما عليك من حسابهم من شئ عن وما من حسابك عليهم من شئ (أجيب) بأن الجملتين جعلتا بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ولا يفيد هذا المعنى الا الجملتان جميعا كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه وقيل الضمير للمشركين والمعنى لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك ايمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعا فيه وقوله تعالى (فتطردهم) أى فتبعدهم جواب النفى وقوله تعالى (فتكون من الظالمين) جواب النهى وهو ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل أشراف قريش عاتبه الله تعالى به على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك قدح فى العصمة وقوله

تعالى

تعالى فتطردهم فتكون من الظالمين (وأجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولاهمّ به لاجل استخفاف بهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الاشراف فى ادخالهم فى الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فاعلمه الله تعالى أن تقريب هؤلاء الفقراء أولى من الهمّ بطردهم فقرّبهم منه وأدناهم والظلم فى اللغة وضع الشئ فى غير محله أى فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشئ فى غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات (وكذلك فتنا) أى ابتلينا (بعضهم ببعض) أى الشريف بالوضيع والغنى بالفقير بأن قدمناه بالسبق للايمان (ليقولوا) أى الشرفاء والاغنياء (أهؤلاء) الفقراء (منّ الله عليهم من بيننا) بالهداية أى لو كان ماهم عليه هدى ماسبقونا اليه ونحن الاكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء قال الله تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أى بمن يقع منهم الايمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) وقوله تعالى (فقل لهم (سلام عليكم) امّا أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله تعالى اليهم وامّا أن يكون أمرا بأن يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم (كتب) أى قضى (ربكم على نفسه الرحمة) روى أنها نزلت فى الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم فوصفهم الله تعالى بالايمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى اليهم ويبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهى عن طردهم ايذانا بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ويعز ولا يذل ويبشر من الله تعالى بالسلامة فى الدنيا والرحمة فى الآخرة وقال عطاء نزلت فى الخلفاء الاربع وجماعة من الصحابة وقيل الآية على اطلاقها فى كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التى تقدمت وقال ما أردت الا الخير فنزلت وقيل ان قوما جاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيأ فانصرفوا فنزلت (انه من عمل منكم سوأ) أى سوء كان ملتبسا (بجهالة) أى عمله وهو جاهل وفيه معنيان أحدهما انه فاعل فعل الجهلة لانّ من عمل ما يؤدّى الى الضرر فى العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير ومنه قول الشاعر

على أنها قالت عشية زرتها * جهلت على عمد ولم تك جاهلا

والثانى انه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شئ حتى يعلم حاله وكيفيته وقيل انها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه حين أشار باجابة الكفرة الى ما سألوه ولم يعلم أنها مفسدة وقرأ نافع وابن عامر وعاصم انه بفتح الهمزة على انه بدل من الرحمة والباقون بالكسر على انه ضمير الشان (ثم تاب) أى رجع (من بعده) أى من بعد ارتكابه ذلك السوء (وأصلح) عمله (فانه) أى الله (غفور) له (رحيم) به وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة على تقدير أن المغفرة له والباقون بالكسر (وكذلك) أى ومثل ذلك التفصيل الواضح وهو تفصيل أحوال الطوائف الاربع الاولى المطبوع على قلوبهم وهم من فى آية والذين كذبوا بآياتنا والثانية

المرجو اسلامهم وهم من فى آية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم والثالثة المطيعون وهم من فى آية ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى والرابعة الداخلون فى الاسلام لكنهم لا يحفظون حدوده وهم من فى آية واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا (نفصل الآيات) أى نبين آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والاوابين (ولتستبين سبيل) أى طريق (المجرمين) قرأ أبو بكر وشعبة وحمزة والكسائى بالياء بعد اللام على التذكير أى وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار والباقون بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يحق له وقرأ نافع سبيل بنصب اللام والباقون بالرفع (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (انى نهيت أن أعبد الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) وهى الاصنام التى يعبدونها أو ما تدعونها آلهة أى تسمونها لان الجمادات أخس من ان تدعى وقوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) تأكيد لقطع أطماعهم وبيان لمبدا ضلالهم وأن ماهم عليه هوى وليس بهدى (قد ضللت اذا) أى ان اتبعت أهواءكم فأنا ضال (وما أنا من المهتدين) أى وما أنا من المهديين فى شئ أى لانكم كذلك (قل انى على بينة) أى بيان (من ربى) أى معرفة وانه لا معبود سواه (و) قد (كذبتم به) أى بربى حيث أشركتم به غيره (ما عندى ما تستعجلون به) أى العذاب الذى استعجلوه بقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء (ان) أى ما (الحكم) فى ذلك وغيره (الا لله) فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بانزال العذاب متى شاء (يقص الحق) قرأ نافع وابن كثير وعاصم بضم القاف وصاد مهملة مشددة مع الرفع ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق والباقون بسكون القاف وضاد معجمة مخففة مع الكسر أى انه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) أى الحاكمين (قل) لهم (لو أن عندى) أى فى قدرتى وممكنتى (ما تستعجلون به) أى من العذاب (لقضى الامر بينى وبينكم) أى لانفصل ما بينى وبينكم بأن أهلككم عاجلا بما تستعجلون به من العذاب غضبا لربى ولكنه عند الله تعالى (والله أعلم بالظالمين) أى ما تستحقونه من العذاب والوقت الذى يستحقون فيه (وعنده) سبحانه وتعالى (مفاتح الغيب) أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن أو ما يتوصل به الى المغيبات مستعار من المفاتيح الذى هو جمع مفتح بالكسر وهو المفتاح (لا يعلمها الا هو) وهى الخمسة التى فى قوله ان الله عنده علم الساعة الآية كما رواه البخارى فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته وفيه دليل على انه تعالى يعلم الاشياء قبل وقوعها (ويعلم ما) يحدث (فى البر والبحر) قدم البر لان الانسان أكثر ملابسة له بما فيه من القرى والمدن والمفاوز والجبال والحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك وأخر البحر لان احاطة العقل بأحواله أقل وقال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار التى على الانهار وقوله تعالى (وما تسقط من ورقة) أى ورقة من يد (الا يعلمها) مبالغة فى احاطة علمه تعالى بالجزئيات وقوله تعالى (ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس) عطف على ورقة

واختلاف

واختلف فى الحبة فقيل هى من هذا الحب المعروف تكون فى بطن الارض قبل ان تنبت وقيل هى الحبة التى تنبت فى الصخرة التى فى أسفل الارض واختلف فى معنى الرطب واليابس فقال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحى وباليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة (فان قيل) جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر (أجيب) بأنه تعالى ذكرها أولا مجملة ثم فصل بعضا من ذلك الاجمال ليدل بها على غيرها وقوله تعالى (الا فى كتاب مبين) فيه قولان أحدهما انه علم الله الذى لا يغير ولا يبدل والثانى انه اللوح المحفوظ لان الله تعالى كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والارض فهو على الاول بدل من الاستثناء الاول بدل الكل وعلى الثانى بدل الاشتمال (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يقبض أرواحكم عند النوم (ويعلم ما جرحتم) أى كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم) أى يوقظكم برد أرواحكم (فيه) أى النهار (فان قيل) لم خص الليل بالنوم والنهار بالكسب مع ان ذلك يقع فى غير هذا (أجيب) بأن ذلك جرى على الغالب (ليقضى أجل مسمى) أى ليبلغ المستيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا (ثم اليه مرجعكم) بالموت والبعث (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم به (وهو القاهر) مستعليا (فوق عباده) لان من قهر شيأ وغلبه فهو مستعل عليه اما قهره للمعدوم فبالتكوين والايجاد واما قهره للموجود فبالافناء والافساد بنقل الممكن من العدم الى الوجود تارة ومن الوجود الى العدم أخرى ويقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار الى غير ذلك من ضروب الكائنات وصنوف الممكنات (ويرسل عليكم) من ملائكته (حفظة) أى تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون وعن أبى حاتم السجستانى أنه كان يكتب عن الاصمعى كل شئ تلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه أنت شبيه الحفظة تكتب لفظ اللفظة فقال أبو حاتم وهذا أيضا مما يكتب (فان قيل) الله تعالى غنى عن كتابة الملائكة فما فائدتها (أجيب) بأن فيها لطفا للعباد لانهم اذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رؤس الاشهاد فى مواقف القيامة كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (وهم لا يفرطون) أى لا يقصرون فيما يؤمرون وقيل ملك الموت وحده فذكر الواحد بلفظ الجمع وجاء فى الاخبار أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدى الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من ههنا ومن ههنا فاذا كثرت عليه الارواح يدعوها فتستجيب له (فان قيل) قال الله تعالى فى آية أخرى الله يتوفى الانفس حين موتها وفى أخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع (أجيب) بأن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى فاذا حضر أجل العبد أمر الله تعالى ملك الموت أن يقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت بنفسه فحصل الجمع بين الآيات وقال

مجاهد ما من أهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطوف بهم كل يوم مرتين وقرأ حمزة بعد فاء توفته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وسكن السين من رسلنا أبو عمرو ورفعها الباقون (ثم ردوا) أى الخلق (الى الله) أى الى حكمه وجزائه (مولاهم) أى سيدهم ومدبر أمورهم كلها (الحق) أى الثابت الولاية وكل ولاية غير ولايته تعالى عدم (الا له الحكم) أى القضاء النافذ فيهم فلا حكم عليه (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلق كلهم فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك لانه لا يحتاج الى فكرة وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض (قل) يا محمد لاهل مكة (من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أى من الخسف فى البر والغرق فى البحر أو من شدائدهما استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما فى الهول وابطال الابصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ولغيره يوم ذو كواكب وقيل حمله على الحقيقة أولى وظلمات البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والامواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى المهالك والمقصود ان عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله تعالى لانه هو القادر على كشف الكروب وازالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا) أى علانية (وخفية) أى سرا وقوله تعالى (لئن) اللام لام القسم على ارادة القول أى يقولون والله لئن (أنجيتنا من هذه) أى الظلمات والشدائد (لنكونن من الشاكرين) لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها أى فنكون من المؤمنين وقرأ عاصم وحمزة والكسائى أنجانا بحذف التاء وألف بعد الجيم بدل الياء ليوافق قوله تعالى تدعونه وأمالها حمزة والكسائى والباقون بالتاء بعد الياء (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) أى غم سوى ذلك (ثم أنتم تشركون) أى تعودون الى شركة الاصنام معه التى لا تضر ولا تنفع ولا توفون بالعهد وانما وضع تشركون موضع لا تعبدون تنبيها على ان من أشرك فى عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده (قل) لهم (هو القادر على أن يبعث) فى كل وقت يريده (عليكم) فى كل حالة (عذابا من فوقكم) بارسال الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الفيل (أو من تحت أرجلكم) بالغرق أو الخسف كما فعل بفرعون وقارون وعن ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم السلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم العبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم أى من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أى من أسفل منكم (أو يلبسكم) أى يخلطكم (شيعا) أى فرقا وينشب فيكم الاهواء المختلفة بقتل بعضكم بعضا روى لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك ومن تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا (ويذيق بعضكم بأس بعض) أى بالقتال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أهون أو أيسر وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم قال سألت ربى طويلا أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك

أمتي بالسنين فأعطانيها وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة سأله أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك وسأله أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك وسأله أن لا يجعل بأس بعضهم على بعض فمنعه ذلك (انظر) يا محمد (كيف نصرف) أي نبين لهم (الآيات) الدالة على قدرتنا (لعلهم يفقهون) أي يعلمون ان ما هم عليه باطل فيرجعوا عنه (وكذب به) أي القرآن أو العذاب (قومك) أي الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك فان القبيلة اذا ساد أحدهم عزت به فان عزه عزها وشرفه شرفها ولا سيما اذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة واذا سفل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام وسترت عيوبه مهما أمكنها فان عاره لاحق لها فهو من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع لهم وزاد ذلك بقوله (وهو) أي والحال انه (الحق) أي الثابت الذي لا يضره التكذيب به ولا يمكن زواله (قل) لهم (لست عليكم بوكيل) أي حفيظ وكل الى أموركم فأجازيكم أو أمنعكم من التكذيب انما أنا منذر والله الحفيظ (لكل نبأ) أي خبر أخبركم به من هذه الاخبار (مستقر) أي وقت يقع فيه ويستقر ومنه عذابكم (وسوف تعلمون) صحة ذلك عند وقوعه اما في الدنيا واما في الآخرة وفي ذلك تهديد لهم (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) أي القرآن بالاستهزاء والتكذيب (فأعرض عنهم) أي فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) أي حتى يكون خوضهم في غير الآيات والاستهزاء بها وذكر الضمير على معنى الآيات لانها القرآن والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ليكون أردع أو لغيره أي واذا رأيت أيها الانسان (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية في ما المزيدة (ينسينك الشيطان) أي فقعدت معهم ثم تذكرت (فلا تقعد بعد الذكرى) أي التذكر لهذا النهي (مع القوم الظالمين) أظهره وضع الاضمار تفهيما ودلالة على الوصف الذي هو سبب الخوض وروى ان المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس بالمسجد ونطوف فنزل (وما على الذين يتقون) الله (من حسابهم) أي الخائضين (من شيء) أي شيء مما يحاسبون عليه اذا جالسوهم فمن مزيد للتأكيد (ولكن) عليهم (ذكرى) أي تذكرة لهم ووعظ ويمنعوهم من الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها وقال سعيد بن جبير ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله الآية وذهب الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ ولانه انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكرة والموعظة (لعلهم يتقون) الخوض في الآيات (وذر الذين اتخذوا دينهم) أي الذي كلفوه (لعبا ولهوا) باستهزائهم به (وغرتهم الحياة الدنيا) أي خدعتهم وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق أي فاتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضي الاعراض عنهم وهو قبل الامر بالقتال ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف (وذكر) أي وعظ (به) أي القرآن الناس (أن) أي كراهة ان (تبسل نفس) أي تسلم الى الهلاك (بما كسبت) أي بسبب ما عملت وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته

قوله منسوخة بالآية الخ كذا في النسخ ولينظر اه

لا تفلت منه والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام (ليس لها من دون الله) أى غيره (ولىّ) أى ناصر (ولا شفيع) يمنع عنها العذاب (وان تعدل) أى تلك النفس لاجل التوصل الى الفكاك (كل عدل) أى وان تفد كل فداء والعدل الفدية لانها تعادل المفدى (لا يؤخذ منها) ما تفدى به (أولئك) أى الذين عملوا هذه الاعمال البعيدة عن الخير (الذين أبسلوا) أى سلموا الى العذاب (بما كسبوا) أى بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة (لهم شراب من حميم) أى ماء هو فى غاية الحرارة (و) لهم (عذاب أليم) أى مؤلم (بما) أى بسبب ما (كانوا يكفرون) أى هم بين ماء يغلى يتجرجر فى بطونهم ونار تشتعل فى أبدانهم بسبب كفرهم (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائهم (أندعو) أى نعبد (من دون الله) أى غيره (ما لا ينفعنا) أى بعبادته (ولا يضرنا) أى بتركها وهم الاصنام (ونرد على أعقابنا) أى نرجع الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) تعالى الى التوحيد ودين الاسلام (كالذى استهوته) أى أضلته (الشياطين فى الارض) حالة كونه (حيران) تائها ضالا لا يهتدى لوجه ولا يدرى كيف يسلك وقرأ حمزة بعد الواو فى استهوته بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث ورقق ورش راء حيران بخلاف عنه (له) أى المستهوى (أصحاب) أى رفقة (يدعونه الى الهدى) أى الى الطريق المستقيم وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر يقولون له (ائتنا) فلا يجيبهم فيهلك والاستفهام للانكار وجملة التشبيه للحال من ضمير نرد وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ومن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقة ضل به الغيلان والشياطين عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه من أهل رفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه اليهم فبقى حيران لا يدرى أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك وان أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل) لهم (ان هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى بأن نخلص العبادة له لانه المستحق العبادة لا غيره وقوله تعالى (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) عطف على لنسلم أى للاسلام ولاقامة الصلاة لان فيهما ما يقرب الى الله وروى ان عبد الرحمن بن أبى بكر دعا أباه الى عبادة الاوثان فنزلت (فان قيل) اذا كان هذا واردا فى شأن أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكيف قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قل أندعو (أجيب) بان ذلك اظهار للاتحاد الذى كان بينه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين خصوصا الصديق رضى الله تعالى عنه (وهو الذى اليه) لا الى غيره بعد بعثكم من الموت (تحشرون) يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم (وهو الذى خلق السموات والارض) على عظمهما (بالحق) أى بسبب اقامة الحق وقيل خلقهما بكلامه الحق الذى هو قوله تعالى كن وهو دليل على ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لا يخلق مخلوق بمخلوق (و) اذكر (يوم يقول) الله للخلق (كن فيكون) أى فهو يكون وهو يوم القيامة يقول بخلق قوموا أحياء (قوله) تعالى (الحق) أى الصدق الواقع لا محالة (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) أى

النفخة

النفخة الثانية من اسرافيل عليه الصلاة والسلام وانما أخبر سبحانه وتعالى عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى فى كل وقت فى الدنيا والآخرة لانه لا منازع له يومئذ فان من كان يدعى الملك من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا فى الدنيا قد زال ملكهم فاعترفوا أن الملك لله الواحد القهار وأنه لا منازع له تعالى فيه وعلموا ان الذى كانوا يدعونه من الملك فى الدنيا غرور وباطل *(تنبيه)* اختلفت العلماء فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن وقال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ماروى ان أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور قال قرن ينفخ فيه وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته واصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على الصحابة فقالوا كيف نعمل يارسول الله أو كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها والاول أصح لما مر فى الحديث ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب (عالم الغيب والشهادة) أى ماغاب وماشوهد فلا يغيب عن علمه تعالى شئ (وهو الحكيم) أى فى جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) بباطن الاشياء كظاهرها بكل مايعملونه من خير أو شر (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) اختلف العلماء فى لفظة آزر فقال مجاهد آزر اسم أبى ابراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة وقال البخارى فى تاريخه الكبير ابراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارخ فعلى هذا يكون لابى ابراهيم اسمان آزر وتارخ مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه آزر وتارخ لقب له وبالعكس فالله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى وهى قرية من سواد الكوفة وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيأ أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماله فهو كقوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه يا عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه والاول أصح لان آزر اسم أبى ابراهيم لان الله تعالى سماه به وأخرج البخارى فى افراده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه الصلاة والسلام أباه آزر يوم القيامة على وجهه أى آزر قترة وغبرة الحديث سماه النبى صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارح كما نقل عن النسابين والمؤرخين فثبت بهذا ان اسمه الاصلى آزر لا تارح وكان أهل تلك البلاد وهم الكنعانيون يعتقدون الهية النجوم فى السماء والاصنام فى الارض فيجعلون لكل نجم صنما فاذا أرادوا التقرب الى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم ليشفع لهم عند ذلك النجم فقال ابراهيم منكرا عليهم منبها لهم على ظهور فساد ماهو مرتكبه (أتتخذ) أى أتكلف نفسك الى خلاف ماتدعو اليه الفطرة الاولى بان تجعل (أصناما آلهة) أى تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر (انى اراك وقومك) أى فى اتفاقكم على هذا

(فى ضلال) أى بعد عن الصراط المستقيم (مبين) أى ظاهر جدا ببديهة العقل مع مخالفته لكل نبى نبأه الله تعالى من آدم عليه السلام فمن بعده وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (وكذلك) أى ومثل هذا التبصير العظيم الشأن (نرى ابراهيم) أى نبصر وهى حكاية حال ماضية (ملكوت السموات والارض) أى عجائبهما وبدائعهما والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرغبة والرهبة والرحمة وقال ابن عباس خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى ومافى السموات من العجائب وحتى رأى مكانه فى الجنة فذلك قوله تعالى وآتيناه أجره فى الدنيا معناه أريناه مكانه فى الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر أسفل الارضين ورأى مافيها من العجائب وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن على قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال الرب تبارك وتعالى يا ابراهيم انك رجل مجاب الدعوة فلا تدعو على عبادى فانما أنا من عبدى على ثلاث خلال اما أن يتوب الى فأتوب عليه واما ان أخرج منه نسمة تعبدنى واما أن يبعث الى فان شئت عفوت عنه وان شئت عاقبته وفى رواية فان تولى فان جهنم من ورائه وقال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار وقيل ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ذلك لايدرك الا بالعقل فأريناه ذلك ليستدل به على توحيدنا (وليكون من الموقنين) واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لان الانسان فى أول الحال لا ينفك عن شبهة فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة فى القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس فى وليكون من الموقنين جلى له الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شئ من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لاتستطيع هذا فرده الله تعالى كما كان قبل ذلك (فلما جن عليه الليل) أى دخل فيه (رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل) أى غاب (قال لا أحب الآفلين) وذلك ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم ولد فى زمن نمروذ بن كنعان وكان النمروذ أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك فى كتب الانبياء وقال السدى ان النمروذ رأى فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة فسألهم فقالوا هو مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد فى ناحيته فى تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لانهم كانوا لايجامعون فى الحيض فاذا طهرت حيل بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت فواقعها فحملت بابراهيم قال محمد بن

اسحق بعث نمروذ الى كل امرأة حبلى بقرية يحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت صغيرة لم يعرف الحبل ببطنها وقال السدى خرج نمروذ بالرجال الى العسكر ونحاهم عن النساء خوفا من ذلك ثم بدت له حاجة الى المدينة ولم يأمن عليها أحدا من قومه الا آزر فبعث اليه وأقسم عليه أن لا يدنو من أهله فقال آزر أنا أشح على دينى من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لو دخلت على أهلى فنظرت اليهم فلما نظر الى أم ابراهيم لم يتمالك حتى واقعها فحملت بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم به قال الكهان لنمروذ ان الغلام الذى أخبرناك عنه قد حملته أمه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان قال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة وكانت قريبة منها فولدت فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه فتنظر ما فعل فتجده يمص من اصبع ماء ومن اصبع لبنا ومن اصبع عسلا ومن اصبع تمرا ومن اصبع سمنا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وكان اليوم على ابراهيم فى الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث ابراهيم فى المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال لامه اخرجينى فأخرجته عشاء فنظر وتفكر فى خلق السموات والارض وقال ان الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى اله غيره ثم نظر فى السماء فرأى كوكبا فقال هذا ربى ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين (فلما رأى القمر بازغا) أى مبتدئا فى الطلوع (قال هذا ربى) فاتبعه بصره (فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين) وقيل انه كان فى السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قال بعض أهل التفسير فلما شب ابراهيم وهو فى السرب قال لامه من ربى قالت أنا قال فمن ربك قالت ابوك قال فمن رب أبى قالت اسكت فسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت الغلام الذى كنا نحدث أنه يغير دين أهل الارض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه فقال له ابراهيم يا أبتاه من ربى قال أمك قال فمن رب امى قال أنا قال فمن ربك قال نمروذ قال فمن رب نمروذ فلطمه وقال اسكت فلما أخرج من السرب وجن عليه الليل رأى المشترى قد طلع وقيل الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر فتأخر القمر فيها فرأى الكوكب فقال ذلك وهل ذلك جار على ظاهره أو مؤول جرى بعضهم على الاول وقال كان ابراهيم مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم يضره ذلك وأيضا كان ذلك فى طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفرا والاصح الثانى اذ لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الاوقات الا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه برىء ثم قال فى تأويله أوجه أحدها وهو الاصح ان ابراهيم ذكر ذلك على وجه الاحتجاج عليهم بقوله هذا ربى أى فى زعمكم فلما غاب قال لو كان الها لما غاب كما قال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم أى عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى انه قال وانظر الى الهك أى فى زعمك فلما أفل قال لا أحب الآفلين فضلا عن عبادتهم فان الانتقال والاحتجاج يقتضى الامكان والحدوث وينافى الالوهية فلم

يضحج فيهم ذلك فلما رأى القمر بازغا قال لهم هـذا ربى فلما أفل أى غاب قال لئن لم يهدنى ربى أى
يثبتنى على الهدى لانه لم يكن مهتديا والانبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الايمان
وكان ابراهيم عليه السلام يقول واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام (فلما رأى الشمس بازغة) أى
عند طلوع النهار (قال) لهم (هذا ربى هذا أكبر) أى من الكواكب والقمر ولم يقل هذه مع
أن الشمس مؤنثة لانه أراد هـذا الطالع أورده الى المعنى وهو الضياء والنور لانه رآه أضوأ من
النجم والقمر أوذكره لتذكير خبره (فلما أفلت) أى غربت وقويت عليهم الحجة فلم يرجعوا
(قال يا قوم انى برىء مما تشركون) أى بالله من الاصنام والاجرام المحدثة المحتاجة الى محدث
التى تجعلونها شركاء لخالقها والوجه الثانى من التأويل أنه قال ذلك على وجه الاستفهام
تقديره أهـذا ربى كقوله تعالى أفائن مت فهم الخالدون أى أفهم الخالدون وذكره على وجه
التوبيخ منكرا لفعلهم والوجه الثالث انه أراد أن يستدرجهم بهـذا القول ويعرفهم خطأهم
وجهلهم ومثل هذا مثل من ورد على قوم يعبدون صنما فاظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا
فى كثير من الامور عن رأيه الى أن دهمهم عدو فشاوروه فى أمره فقال الرأى أن ندعو
هـذا الصنم حتى ينكشف عنا ما أصابنا فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين لهم أنه لا ينفع
ولا يدفع دعاهم الى أن يدعوا الله تعالى فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا (فان قيل)
لم احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال (أجيب) بأن الاحتجاج
بالافول أظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب ولما ظهر خلاف قومه واستمروا فى شركهم وقالوا
له من تعبد أنت أظهر لهم ما هو عليه من الحق بقوله (انى وجهت وجهى) أى أخلصت
قصدى وصرفت عبادتى (للذى فطر السموات والارض) أى خلقهما وابتدعهما وهو الله تعالى
(حنيفا) أى مائلا الى الدين القويم عن كل دين يخالفه وأصل الحنيف الميل وهو عن طريق
الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة بصلاته (وما أنا من
المشركين) تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه أى وما أنا منكم ولا أعد فى عدادكم بشىء أقاربكم
به (وحاجه قومه) أى خاصموه فى التوحيد وهددوه بالاصنام أن تصيبه بسوء ان لم يرجع عن
الكلام فيها (قال) لهم (أتحاجونى) أى أتجادلونى (فى الله) أى فى وحدانيته وقرأ نافع وابن
عامر بتخفيف النون وهى نون الرفع عند النحاة ونون الوقاية عند الفراء والباقون بالتشديد
(وقد) أى والحال انه قد (هدانى) الى توحيده ومعرفته (ولا أخاف ما تشركون به)
شيأ وذلك ان ابراهيم لما رجع الى أبيه وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذابحين أى
ذابحى نمروذ وضمه آزر الى نفسه وجعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها لابراهيم ليبيعها فيذهب
بها ابراهيم وينادى من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها
الى نهر فصوب رؤسها وقال اشربى استهزاء بقومه وما هم عليه حتى فشا استهزاؤه بها فى قومه
وأهل قريته فقالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك اياها فقال
انما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله تعالى (الا أن يشاء ربى شيأ) وهـذا

استثناء

استثناء منقطع معناه لكن ان شاء ربي شيأ من المكروه يصيبني فيكون لانه قادر على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بذلك (وسع ربي كل شئ علما) أي أحاط علمه بكل شئ من معلومه (أفلا تتذكرون) أي يقع منكم تذكر فتميزوا بين الحق والباطل والقادر والعاجز (وكيف أخاف ما أشركتم) به أي الاصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون) أنتم (أنكم أشركتم بالله) وهو تعالى حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لانه اشراك للمصنوع مع الصانع وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضار النافع (ما لم ينزل به) أي بعبادته (عليكم سلطانا) أي حجة وبرهانا وهو القادر على كل شئ (فأي الفريقين) أي حزب الله وحزب ما أشركتم ولم يقل فأينا تعميما للمعنى (أحق بالأمن) أهم الموحدون أو المشركون (ان كنتم تعلمون) من الاحق أي ان كان لكم علم فأخبروني عما سألتكم عنه والأحق بذلك هم الموحدون فاتبعوهم قال تعالى قاضيا بينهما (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أي لم يخلطوا ايمانهم بشرك روى انه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله فأينا لم يظلم نفسه فقال ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا الى ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (أولئك) أي الموصوفون بما ذكر (لهم الامن) أي من العذاب المؤبد (وهم مهتدون) وقوله تعالى (وتلك) مبتدأ ويبدل منه (حجتنا) وهي ما احتج به ابراهيم على قومه من قوله تعالى فلما جن عليه الليل الى قوله وهم مهتدون أو من قوله تعالى أتحاجوني اليه والخبر (آتيناها ابراهيم) أي أرشدناه لها حجة (على قومه) ثم انه سبحانه وتعالى لما تفضل على خليله صلى الله عليه وسلم برفعه على قومه قال تعالى (نرفع درجات من نشاء) في العلم والحكمة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين (ان ربك حكيم) في صنعه فيرفع من يشاء ويخفض من يشاء (عليم) بخلقه فهو الفعال لما يريد (ووهبنا له) أي ابراهيم (اسحق) أي ابناله (ويعقوب) أي ابنا لاسحق فهو ابن ابنه (كلا) منهما ومن أبيهما (هدينا) الى سبيل الرشاد ووفقناه الى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا) ه (من قبل) أي قبل ابراهيم (ومن ذريته) أي نوح لا ابراهيم لانه تعالى ذكر في جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية ابراهيم وقيل الضمير لابراهيم ويكون ذلك من باب التغليب فان التغليب سائغ شائع في انتساب العرب (داود) وهو ابن ايشا هديناه وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة (وسليمان) هو ابن داود وهما اللذان بنيا بيت المقدس بأمر الله تعالى داود بخطه وتأسيسه وسليمان باكماله وتشييده (وأيوب) هو ابن أموص ابن رزاح بن روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (فان قيل) لم قدم أيوب على يوسف مع ان يوسف أقرب منه (أجيب) بأنه قدمه للمناسبة بينه وبين سليمان لان كلا منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم رده الله تعالى اليه (وموسى) هو ابن عمران ابن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى أكبر منه بسنة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (وكذلك) كما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه

بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء (نجزى المحسنين) على احسانهم (وزكريا) هو ابن أدن ابن بركيا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بغير همز والباقون بالهمز (ويحيى) هو ابن زكرياء (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل قال البغوى والصحيح أنه غيره لان الله تعالى ذكره فى ولد نوح وادريس جد أبى نوح وهو الياس ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران (كل) منهم (من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح وهو الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو أخطوب بن العجوز وقرأ حمزة والكسائى بتشديد اللام وسكون الياء والباقون بسكون اللام وفتح الياء (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو بن هاران أخى ابراهيم (وكلا) منهم (فضلنا على العالمين) أى بالنبوة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق من أنس وملك ويستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة وقوله تعالى (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) عطف على كلا أو نوحا ومن للتبعيض أى وفضلنا بعض آبائهم وبعض ذرياتهم واخوانهم لان آباء بعضهم كانوا مشركين وعيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من كان كافرا كابن نوح وقوله تعالى (واجتبيناهم) أى اخترناهم عطف على فضلنا أو هدينا (وهديناهم) أى وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) هو الدين الحق (ذلك) أى الذى هدوا اليه (هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) سواء كان له أب يعلمه أو كان له من يحمله على الضلال ام لا فهو سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية (ولو أشركوا) أى ولو فرض اشراك هؤلاء الانبياء بعد علو درجتهم وفضلهم (لحبط عنهم) أى لفسد وسقط (ما كانوا يعملون) أى لكانوا كغيرهم فى حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أى أولئك الذين سميناهم من الانبياء وهم ثمانية عشر نبيا أعطيناهم الكتاب فالمراد بالكتاب الجنس (والحكم) أى العمل المتقن بالعلم (والنبوة) أى وشرفناهم بالنبوة والرسالة (فان يكفر بها) أى بهذه الثلاثة (هؤلاء) أى أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم (فقد وكلنا بها) أى وفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قوما ليسوا بها بكافرين) كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه واختلف فى ذلك القوم فقال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال عطاء العطاردى هم الملائكة ونظر فيه لان اسم القوم لا يطلق الا على بنى آدم وقيل هم الفرس وقيل هم المهاجرون والانصار واستظهر وقال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أم نبيا أم صحابيا أم تابعيا والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها فانها ليست هدى مضافا الى الكل ولا يمكن التأسى بهم جميعا فليس فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام

قوله ابن العجوز كذا فى النسخ والذى فى حاشية الجمل ابن العجرز اه

والسلام قال وبيانه ان جميع الخصال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة فى الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة كما قال تعالى اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء كما قال تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين أى الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من أصحاب الزهد فى الدنيا وكان اسمعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واحسان ثم ان الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة والمتفرقة فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من الخصال التى كانت متفرقة فى جميعهم اه وقرأ حمزة والكسائى بحذف الهاء فى الوصل وحرك الهاء بحركة مختلسة ابن عامر ومد على الهاء ابن ذكوان بخلاف عنه وسكن الهاء الباقون فى الوصل وأما فى الوقف فجميع القراء يثبتون الهاء ويسكنونها (قل) يا محمد لاهل مكة (لا أسألكم عليه) أى القرآن أو التبليغ (أجرا) أى لا أطلب على ذلك جعلا (ان هو) أى القرآن أو التبليغ (الا ذكرى) أى عظة (للعالمين) أى الانس والجن (وما قدروا) أى اليهود (الله حق قدره) أى ما عرفوه حق معرفته أو ما عظموه حق عظمته (اذ قالوا) للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خاصموه فى القرآن (ما أنزل الله على بشر من شئ) قال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك ابن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله تعالى يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا والحبر بالفتح والكسر وهو أفصح العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه قاله الجوهرى فغضب فقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فقال له قومه ويلك ماهذا الذى بلغنا عنك فقال انه أغضبنى فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدى نزلت فى فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالت اليهود يا محمد أنزل الله تعالى عليك كتابا قال نعم قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا قال الله تعالى (قل) لهم (من أنزل الكتاب) أى التوراة (الذى جاء به موسى) أى الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه حال كون الكتاب (نورا) أى ذا نور أى ضياء من ظلمة الضلالة (وهدى) أى ذا هدى (للناس) أى يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن يبدل ويغير (يجعلونه قراطيس) أى يكتبونه فى دفاتر مقطعة (يبدونها) أى يظهرون ما يحبون اظهاره منها (ويخفون كثيرا) أى مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء فى المواضع الثلاثة على الغيبة حملا على قالوا وما قدروا والباقون بالتاء على الخطاب وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم للتوراة وذمهم على تجزئتها

بابداء بعض ما تحبونه وكتبوه فى ورقات متفرقة واخفاء بعض لا يشتهونه وقوله تعالى (وعلمتم) أى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) خطاب لليهود أى علمتم زيادة على مافى التوراة وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ونظيره ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون يذكرهم النعمة فيما عليهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لمن آمن من قريش وقوله تعالى (قل الله) أنزله راجع الى قوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى أى فان أجابوك بأن الله أنزله فذاك والا فقل أنت الله أنزله اذ لا جواب غيره (ثم ذرهم) أى اتركهم (فى خوضهم) أى باطلهم (يلعبون) أى يستهزؤن ويسخرون وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) أى كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) أى قبله من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء لانها مشتملة على التوحيد والتنزيه لله تعالى وعلى البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة وقوله تعالى (ولينذر) قرأ شعبة بالياء على الغيبة أى لينذر الكتاب والباقون بالتاء على الخطاب أى ولتنذر يا محمد (أم القرى) أى أهل مكة وسميت أم القرى لانها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنا ولبعض المجاورين

فمن يلق فى بعض القريات رحله * فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى

وقيل لان الارض دحيت من تحتها أو لانها مكان أول بيت وضع للناس (ومن حولها) أى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) لان من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبى والكتاب والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة * وتخصيص الصلاة فى قوله تعالى (وهم على صلاتهم يحافظون) لانها عماد الدين وعلم الايمان ومن حافظ عليها كانت لطفا له فى المحافظة على أخواتها (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى) أى اختلق (على الله كذبا) فزعم أن الله بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحى ومتابعيه (أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وكان يسجع ويتكهن فادعى النبوة وزعم أن الله تعالى أوحى اليه وكان قد أرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبى قالا نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى الله تعالى الى أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب وفى لفظ الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فى المنام كان فى يدى سوارين فأولتهما

كذابين يخرجان بعدي يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسى صاحب صنعاء وقوله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى أن انفحهما بالحاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها ويروى بالخاء المعجمة من النفخ وهو قريب من الاول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة فى اليمامة وتبعه قوم من بنى حنيفة وقتل فى خلافة أبى بكر قتله وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما وكان يقول قتلت خير الناس يعنى حمزة وقتلت شر الناس يعنى مسيلمة الكذاب قتل الاول وهو كافر وقتل الثانى وهو مسلم وأما الاسود العنسى بالنون ويقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل فى حياته صلى الله عليه وسلم قبل موته بيومين وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتله قتله فيروز الديلى فقال صلى الله عليه وسلم فاز فيروز بقتل الاسود العنسى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال السدى نزلت فى عبد الله بن أبى سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه صلى الله عليه وسلم سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم اكتبها هكذا نزلت فشك عبد الله بن أبى سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى مثل ما أوحى اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع بعد ذلك الى الاسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وقال ابن عباس ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده لان خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم (ولو ترى) يا محمد (اذ الظالمون) حذف مفعوله لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين المذكورين (فى غمرات) أى شدائد (الموت) من غمره الماء اذا غشيه فاستعير للشدة الغالبة (والملائكة باسطوا أيديهم) أى لقبض أرواحهم كالمتقاضى الملازم لغريمه لا يفارقه أو بالعذاب أو الضرب يضربون وجوههم وأدبارهم يقولون لهم تعنيفا (أخرجوا أنفسكم) الينا لنقبضها (فان قيل) انه لا قدرة لاحد على اخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا (أجيب) بأنهم يقولون لهم أخرجوها كرها لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب فى ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) أى كادعاء الولد والشريك له تعالى ودعوى النبوة والايحاء كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) أى تتكبرون عن الايمان بها وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا (و) يقال لهم اذا بعثوا للحساب والجزاء (لقد جئتمونا فرادى) أى منفردين عن الاهل والمال والولد وسائر ما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والاوثان التى زعمتم انها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف لتأنيث ككسالى وفى هذا تقريع

قوله ويروى الخ هو الذى اقتصر عليه الزرقانى فى شرح المواهب والذى فى الصحاح نفحت الناقة برجلها ضربت اه

وتوبيخ لهم لانهم صرفوا همهم فى الدنيا الى تحصيل المال والولد والجاه وافنوا أعمارهم فى عبادة الاصنام فلم يغن عنهم ذلك شيأ يوم القيامة فبقوا افرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) أى حفاة عراة غرلا روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قرأت هذه الآية فقالت يارسول الله واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال وروى عنها انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا أى غير مختونين وفى رواية زيادة على ذلك بهما قال الجوهرى وغيره أى ليس معهم شئ قالت عائشة رضى الله عنها فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الامر أشد أن يهمهم ذلك (وتركتم ما خولناكم) أى ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) أى فى الدنيا فما أغنى عنكم ما كنتم منه تستكثرون (و) يقال لهم توبيخا (ما نرى معكم شفعاءكم) أى الاصنام (الذين زعمتم أنهم فيكم) أى فى استحقاق عبادتكم (شركاء) أى لله وقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) قرأه نافع وحفص والكسائى بنصب النون أى لقد تقطع ما بينكم من الوصل والباقون بالرفع أى لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يستعمل للوصل والفصل (وضل) أى ذهب (عنكم ما كنتم تزعمون) أى من أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء (ان الله فالق) أى شاق (الحب) أى عن النبات (والنوى) أى عن النخل وقيل المراد الشق الذى فى الحنطة والنواة والحب جمع الحبة وهو اسم لجميع البزور والحبوب من البر والشعير والذرة وكل ما لم يكن له نوى والنوى جمع نواة وهى كل ما لم يكن حبا كالتمر والمشمش وغيرهما وقال الضحاك فالق الحب والنوى يعنى خالق الحب والنوى (يخرج الحى من الميت) أى كالانسان من النطفة والطائر من البيضة (ومخرج الميت من الحى) كالنطفة من الانسان والبيضة من الطائر * (تنبيه) * مخرج معطوف على فالق كما قاله الزمخشرى ويصح عطفه على يخرج لان عطف الاسم المشابه للفعل على الفعل صحيح كعكسه وهو عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل كقوله تعالى ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا فأقرضوا معطوف على المصدقين لشبهه بالفعل لكونه اسم فاعل ومخرج شبيه بالفعل لكونه اسم فاعل وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (ذلكم) المحيى والمميت هو (الله) الذى يحق له العبادة (فأنى) أى فكيف (تؤفكون) أى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الاشياء كلها وقوله تعالى (فالق الاصباح) مصدر بمعنى الصبح أى شاق عمود الصبح وهو أول ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل أو شاق ظلمة الاصباح وهو الغبش الذى عليه فى آخر الليل (وجاعل الليل سكنا) أى يسكن فيه الخلق راحة لهم قال ابن عباس اذ كل ذى روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه فاحتاج الى زمان يستريح فيه ليسكن فيه عن الحركة وذلك هو الليل وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بنصب العين واللام ولا ألف قبل العين على الماضى حملا على معنى المعطوف عليه

فان فالق بمعنى فلق والباقون بكسر العين ورفع اللام وألف قبل العين وقوله تعالى (والشمس والقمر) منصوبان باضمار فعل دل عليه جاعل الليل أى وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أى حسابا للاوقات أو الباء محذوفة وهو حال من مقدر أى يجريان بحسبان كما فى آية الرحمن وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ماتقدم ذكره فى هذه الآية من الاشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه (وهو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة أو فى مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة وهو افراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله لكم ومن منافعها أنها زينة للسماء كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ومنها رمى الشياطين كما قال تعالى وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا) اى بينا (الآيات) أى الدالات على قدرتنا وتوحيدنا (لقوم يعلمون) أى يتدبرون فانهم المنتفعون به (وهو الذى أنشأكم) أى خلقكم (من نفس واحدة) أى من آدم عليه الصلاة والسلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا لان ابتداء خلقه من مريم وهى من بنات آدم فثبت ان جميع البشر من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) أى فمستقر فى الرحم ومستودع فى القبر الى أن يبعث أو فمستقر فى أرحام الامهات ومستودع فى أصلاب الآباء قال سعيد بن جبير قال لى ابن عباس هل تزوجت قلت لا قال أما انه ما كان مستودعا فى ظهرك فسيخرجه الله عز وجل أو مستقر فى الرحم ومستودع فوق الارض قال تعالى ونقر فى الارحام مانشاء أو فمستقر على وجه الارض ومستودع عند الله فى الآخرة أو فمستقر فى القبر ومستودع فى الدنيا وكان الحسن يقول يا ابن آدم أنت وديعة فى أهلك يوشك ان تلحق بصاحبك أو فمستقر فى القبر ومستودع فى الجنة أو النار قال تعالى فى صفة الجنة حسنت مستقرا وفى صفة النار وساءت مستقرا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف على اسم الفاعل والمستودع مفعول أى فنكم قار ومنكم مستودع لان الاستقرار من الله تعالى دون الاستيداع لان الاستقرار فى الاصلاب أو فوق الارض لا صنع للعبد فيه بخلاف الاستيداع فى الارحام أو تحت الارض والباقون بالنصب (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى يفهمون ما يقال لهم ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لان أمرها ظاهر وذكر مع تخليقه بنى آدم يفقهون لان انشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج الى استعمال فطنة وتدقيق نظر (وهو الذى أنزل من السماء ماء) أى مطرا وهو من السحاب أو من جانب السماء وقيل ان الله تعالى ينزله من السماء الى السحاب ثم من السحاب الى الارض (فأخرجنا به) أى بالماء وفى ذلك التفات حيث لم يقل فاخرج على وفق أنزل (نبات كل شئ) أى شئ ينبت وينمو من جميع أصناف النبات فالسبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف متفرقة كما قال تعالى تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل (فأخرجنا منه) أى من النبات أو الماء (خضرا) أى شيأ أخضر يقال أخضر وخضر مثل أعور وعور والاخضر هو جميع البقول والزروع والبقول الرطبة (نخرج منه)

أي الخضر (حبا متراكبا) أي يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة والشعير والارز والذرة وقوله تعالى (ومن النخل) خبر مقدم ويبدل منه (من طلعها) وهو أول ما يخرج منها والمبتدأ (قنوان) أي عراجين (دانية) أي قريبة من التناول يتناولها النائم والقاعد أو قريب بعضها من بعض وانما اقتصر على ذكرها عن مقابلها وهي البعيدة لدلالتها عليها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أي والبرد واكتفى بذكر أحدهما وحكمة تخصيص دانية بالذكر زيادة النعمة فيها وقوله تعالى (وجنات) عطف على نبات كل شئ أي وأخرجنا به بساتين (من أعناب) وقوله تعالى (والزيتون والرمان) عطف أيضا على نبات أي وأخرجنا به شجر الزيتون والرمان (مشتبها وغير متشابه) قال قتادة معناه مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشتبه ورق الرمان وقيل مشتبها في النظر مختلفا في الطعم والله سبحانه ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وقدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وقدم النخل على غيرها لان ثمرها يجري مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الاشجار قال بعضهم وليس لنا أنثى من الشجر تحتاج الى ذكر غير النخل أي في تطييب ثمرها وذكر العنب عقب النخل لانه من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والنفع ثم ذكر بعده الرمان لما فيه من المنافع أيضا (انظروا) أيها المخاطبون نظر اعتبار (الى ثمره) قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم والباقون بالنصب وهو جمع ثمرة كشجرة وشجر وخشبة وخشب (اذا أثمر) أي حين يبدو من أكمامه ضعيفا قليل النفع أو عديمه (و) انظروا الى (ينعه) أي الى ادراكه اذا أدرك وحان قطفه كيف يصير ذا نفع ولذة والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله تعالى (ان في ذلكم لآيات) أي دلالات على قدرته تعالى على البعث وغيره فان حدوث الاجناس المختلفة والانواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال الى حال لا يكون الا باحداث قادر يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده وخص المؤمنين بالذكر بقوله (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أي الشياطين لانهم أطاعوهم في عبادة الاوثان فجعلوها شركاء لله (فان قيل) لله مفعول ثان لجعلوا وشركاء مفعول أول ويبدل منه الجن فما فائدة التقديم (أجيب) بأن فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من جن أو انس أو ملك فلذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء وقيل المراد بالجن الملائكة بأن عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسماهم جنا لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم وقال الكلبي نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لابليس في الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب فيقولون هو شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا وقوله تعالى (وخلقهم) حال بتقدير قد والضمير اما أن يعود الى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف

يكون

يكون شريك الله عز وجل محدثا مخلوقا وإما أن يعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى خالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا) قرأه نافع بتشديد الراء والباقون بالتخفيف أى اختلقوا (له بنين وبنات بغير علم) وهو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير وقول قريش فى الملائكة يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى وسئل الحسن عنه فقال كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل اذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله (سبحانه) تنزيها له (وتعالى عما يصفون) بأن له شريكا أو ولدا (بديع السموات والارض) أى مبتدعهما من غير سبق مثال ورفع بديع على الخبر والمبتدا محذوف أى هو بديع أو على الابتداء والخبر (أنى يكون له ولد) أى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد لان الولد لا يكون الا من صاحبة أنثى (وخلق كل شئ) أى من شأنه أن يخلق (وهو بكل شئ عليم) لا تخفى عليه خافية وفى الآية استدلال على نفى الولد من وجوه الاول انه مبدع السموات والارض وهى أجسام عظيمة من جنس ما يوصف بالولادة لكونها مخلوقة لا يستقيم أن توصف بالولادة لاستمرارها وطول مدتها ومخترع الاجسام لا يكون جسما حتى يكون والدا الثانى أن الولادة لا تكون الا من ذكر وأنثى مجانسين وهو متعال عن مجانس فلم يصح ان تكون له صاحبة فلم تصح الولادة والثالث أنه ما من شئ الا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض فى غير الله تعالى بدلا أو صفة لان الله تعالى أول وليس بصفة والبعض خبرا وقوله تعالى (فاعبدوه) مسبب عن مضمون ذلك فان من استجمع هذه الصفات استحق العبادة (وهو على كل شئ وكيل) أى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شئ من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال فيجازى عليها (لا تدركه الابصار) جمع بصر وهى حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث انها محلها والادراك احاطة بكنه الشئ وحقيقته وتمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وان رؤيته مستحيلة عقلا لان الله تعالى أخبر أن الابصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قولك أدركته ببصرى ورأيته ببصرى فثبت بذلك ان لا تدركه الابصار بمعنى لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من السلف فن الكتاب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعى رضى الله تعالى عنه حجب قوما بالمعصية وهى الكفر فثبت أن قوما يرونه بالطاعة وهى الايمان وقال مالك

قوله وهى اجسام عظيمة من جنس الخ عبارة البيضاوى وهى مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها الخ اه

رضى الله تعالى عنه لولم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة مفسرة بالنظر الى الله تعالى يوم القيامة ومن السنة ماروى عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله تعالى عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومنها أن ناسا قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون فى القمر ليلة البدر أى هل تشكون قالوا لا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك وعن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال ياأبارزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله أعظم انما هو خلق من خلق الله أى القمر فالله أعظم وأجل واحتج أهل السنة أيضا على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام رب أرنى أنظر اليك اذ لايسأل نبى مالايجوز أو يمتنع وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل بقوله تعالى فان استقر مكانه فسوف ترانى واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما قول المتمسكين بظاهر الآية وان الادراك بمعنى الرؤية فممنوع لان الادراك هو الوقوف على كنه الشئ والاحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون المعاينة بلا ادراك قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم فنفى موسى عليه السلام الادراك مع ثبوت الرؤية فالله تعالى يصح أن يرى من غير ادراك ولا احاطة كما يعرف فى الدنيا ولايحاط به قال تعالى ولايحيطون به علما فنفى الاحاطة مع ثبوت العلم قال سعيد بن المسيب لاتحيط به الابصار وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومقاتل لاتدركه الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة وظاهر هذا التسوية بين الادراك والرؤية ويدل على هذا التخصيص قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله ناظرة مقيد بيوم القيامة ويكون هذا جمعا بين الآيتين (وهو يدرك الابصار) أى يراها أو يحيط بها علما فلا يخفى عليه شئ ولايفوته شئ (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهرى اللطيف الرفيق بعباده وقيل اللطيف الموصل الشئ بالرفق واللين وقيل اللطيف الذى ينسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا (قد جاءكم بصائر) جمع بصيرة أى حجج (من ربكم) تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل (فمن أبصر) أى عمل بالادلة (فلنفسه) أى خاصة ابصاره لانه خلصها من الضلال الى الهدى (ومن عمى) أى لم يهتد بالادلة (فعليها) أى خاصة عماه لانه يضل فلا يضر الا نفسه (وما أنا عليكم بحفيظ) أى برقيب لاعمالكم وانما أنا منذر والله تعالى هو الرقيب عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها (وكذلك) أى كما بينا ماذكر (نصرف) أى نبين (الآيات) من حال

الى حال فى المعانى المتنوعة سالكين من وجوه البراهين بما يفوت القوى ويعجز القدر وليعتبروا (وليقولوا) اعتذارا عند ظهور عجزهم (دارست) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بين الدال والراء أى ذاكرت أهل الكتاب والباقون بغير ألف أى درست كتب الماضين وجئت بهذا منها وقرأ ابن عامر بفتح السين وسكون التاء من الدروس أى هذه الآيات التى تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت كقولهم أساطير الأولين وقيل اللام فيه لام العاقبة أى عاقبة أمرهم أن يقولوا دارست أى قرأت على غيرك وقيل قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا (ولنبينه) أى الآيات وذكر الضمير لأنها فى معنى القرآن كأنه قيل وكذلك نصرف القرآن أو القرآن وان لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الى التبيين الذى هو مصدر الفعل كقولهم ضربته زيدا (لقوم يعلمون) فانهم المنتفعون به وقوله تعالى (اتبع) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى اتبع يا محمد (ما أوحى اليك) أى القرآن فالزم العمل به ثم أكد مدحه بقوله (من ربك) أى المحسن اليك بهذا البيان وقوله تعالى (لا اله الا هو) اعتراض أكد به ايجاب الاتباع لما فى كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والاعراض عما سواه وقول البيضاوى أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفردا فى الألوهية مبنى على جواز تأكيد الجملة الفعلية بالاسمية وهو نادر (وأعرض عن المشركين) ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت الى رأيهم ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على ما يعم الكف عنهم (ولو شاء الله) ايمانهم وعدم اشراكهم (ما أشركوا) وهذا نص صريح فى أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة فى قولهم لم يرد الله من أحد الكفر والشرك والآية رد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا فتجازيهم بأعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى فتجبرهم على الايمان وهذا قبل الأمر بالقتال (ولا تسبوا الذين يدعون) أى يعبدون (من دون الله) وهى الأصنام أى ولا تذكروا آلهتهم التى يعبدونها بما فيها من القبائح (فيسبوا الله عدوا) أى اعتداء وظلما (بغير علم) أى جهلا منهم بالله وبما يجب أن يذكر به روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن فى آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك فنزلت وقال السدى لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل وأبى بن خلف ومعهم جماعة الى أبى طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه والهه فطلبه وقال هؤلاء قومك وبنو عمك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك والهك وقد أنصفك قومك فأقبل منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هى قال قولوا لا اله الا الله فأبوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخى فقال يا عم ما أنا بالذى أقول غيرها فقالوا لتكفن عن سبك آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك فنزلت وقيل كان المسلمون يسبونها

فهو الثلا يكون سبهم سببا لسب الله تعالى وفيه دليل على أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان مايؤدى الى الشر شر (كذلك) أى كما زينا لهؤلاء ماهم عليه من عبادة الاوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان (زينا لكل أمة عملهم) أى من الخير والشر باحداث مايمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا وتخذيلا وفى هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لايحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه فهو الفعال لما يريد لايسئل عما يفعل (ثم الى ربهم مرجعهم) فى الآخرة (فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا فيجازيهم به (واقسموا) أى كفار مكة (بالله جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءتهم آية) أى مما اقترحوه (ليؤمنن بها) روى أن قريشا قالوا يا محمد انك تخبرنا ان موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتى عشرة عينا وتخبرنا ان عيسى كان يحيى الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شئ تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وتبعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحق ماتقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ماتقولون أتصدقوننى قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاء جبريل عليه السلام فقال يارسول الله لك ماشئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوا ليعذبنهم الله وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فنزلت قال الله تعالى (قل) لهم (انما الآيات عند الله) ينزلها كيف يشاء وانما أنا نذير (ومايشعركم) أى ومايدريكم أيها المسلمون بايمانهم اذا جاءت فانهم كانوا يتمنون مجىء الآية طمعا فى ايمانهم أى أنتم لاتدرون ذلك (انها اذا جاءت لايؤمنون) لماسبق فى علمى وقرأ أبو عمرو بسكون الراء وروى عن الدورى اختلاس الضم وكسر الهمزة من انها ابن كثير وأبو عمرو على الابتداء وقالا تم الكلام عند قوله تعالى ومايشعركم والباقون بالفتح فهى بمعنى لعل وهو شائع فى كلام العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيأ بمعنى لعلك ومنه قول عدى بن زيد

اعاذل مايدريك أن منيتى * الى ساعة فى اليوم أوفى ضحى غد

أى لعل منيتى وقرأ ابن عامر وحمزة لاتؤمنون بالتاء خطابا للكفار والباقون بالياء على الغيبة (ونقلب أفئدتهم) أى ونحول قلوبهم عن الحق فلا يفقهونه (و) نقلب (أبصارهم) عن الحق فلا يبصرونه فلا يؤمنون لان الله تعالى اذا صرف القلوب والابصار عن الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به) أى بما أنزل من الآيات (أول مرة) أى التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغيره من المعجزات الباهرات وقيل معجزات موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المرة الاولى دار الدنيا أى لو ردوا من الآخرة الى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان كما لم يؤمنوا فى الدنيا قبل مماتهم كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا

لما نهوا عنه (ونذرهم) أى نتركهم (فى طغيانهم) أى ضلالهم (يعمهون) أى يترددون متحيرين لانهديهم هداية المتقين (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى) كما اقترحوا (وحشرنا) أى جمعنا (عليهم كل شئ قبلا) قرأ نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة فشهدوا بصدقك والباقون بضم القاف والباء جمع قبيل أى فوجا فوجا (ما كانوا ليؤمنوا) لما سبق فى علم الله وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) استثناء منقطع أى لكن ان شاء الله ايمانهم فيؤمنون أو استثناء من أعم الاحوال أى لا يؤمنون فى حال الاحال مشيئة الله تعالى ايمانهم (ولكن أكثرهم يجهلون) أى انهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون ولذلك أسند الجهل الى أكثرهم لان بعضهم معاند مع ان مطلق الجهل يعمهم فيشمل المعاند أو لكن أكثر المسلمين يجهلون انهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعا فى ايمانهم (وكذلك) أى ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الانس والجن (جعلنا لكل نبى) أى ممن كان قبلك (عدوا) ويبدل منه (شياطين) أى مردة (الانس والجن) وفى هذا دليل على أن عداوة الكفرة للانبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله تعالى وخلقه (يوحى) أى يوسوس (بعضهم) أى الشياطين من النوعين (الى بعض زخرف القول) أى مموهه من الباطل (غرورا) أى لاجل أن يغروهم بذلك (ولو شاء ربك) ايمانهم (ما فعلوه) أى هذا الذى أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها وفى هذا دليل ايضا (فذرهم) أى اترك الكفرة على أى حالة اتفقت (وما يفترون) من الكفر وغيره مما زين لهم وهذا قبل الامر بالقتال وقوله تعالى (ولتصغى) عطف على غرورا ان جعل علة أى ولتميل ميلا قويا (اليه) أى الزخرف الباطل (أفئدة) أى قلوب (الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ليس فى طبعهم الايمان بها لانها غيب وإنهم لبلادتهم واقفون مع وهمهم ولذلك استولت عليهم الدنيا التى هى من أصل الغرور أو متعلق بمحذوف أى وليكون ذلك جعلنا لكل نبى عدوا والمعتزلة لما اضطروا فيه قالوا اللام لام العاقبة وهو قول الزمخشرى فى كشافه ان اللام للصيرورة (وليرضوه) أى الزخرف الباطل لانفسهم (وليقترفوا) أى يكتسبوا (ما هم مقترفون) من الآثام فيعاقبوا عليها ونزل لما قال مشركوا قريش للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود وان شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك (أفغير الله) أى قل لهم يا محمد أفغير الله (ابتغى) أى أطلب (حكما) أى قاضيا بينى وبينكم (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب) أى الاكمل المعجز وهو هذا القرآن الذى هو تبيان لكل شئ (مفصلا) أى مبينا فيه الحق من الباطل (والذين آتيناهم الكتاب) أى المعهود انزاله من التوراة والانجيل والزبور (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) لما عندهم به من البشارة فى كتبهم ولما له من موافقتهم فى ذكر الاحكام المحكمة والمواعظ الحسنة وكثرة ذكر الله على وجوه ترقق القلوب وتفيض الدموع وتصدع الصدور مع ما يزيد به على ما فى كتبهم من التفصيل بما فيه من المعارف الالهية والمقامات الصوفية فى ضمن الاحكام السياسية وانما وصف جميعهم بالعلم لان أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن بادنى تأمل وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب كعبد

الله بن سلام وأصحابه وقرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (فلا تكونن) يا محمد (من الممترين) أى الشاكين فى أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل فلا تكونن فى شك مما قصصنا فيكون من باب التحريض فانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به غيره أى فلا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن فى شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذى لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى (وتمت كلمات ربك) أى بلغت الغاية أخباره واحكامه ومواعيده وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بغير ألف بين الميم والتاء والباقون بالالف (صدقا) فى الاخبار والمواعيد لا يقدر أحد أن يبدى فى شئ منها خدشا بخلاف ما عن مطابقة الواقع (وعدلا) أى فى الاقضية والاحكام ونصبهما على التمييز ويحتمل الحال والمفعول له (لا مبدل لكلماته) بنقض أو خلف بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة رضى من رضى وسخط من سخط وقيل المراد بالكلمات القرآن لا مبدل له لا يزيد فيه المغيرون ولا ينقصون (وهو السميع) لكل ما يقال (العليم) بكل ما يفعل (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله) أى دينه وأكثر أهل الارض كانوا على الضلالة وقيل الارض مكة وذلك أن المشركين جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى أكل الميتة فقالوا للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فكيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم فنزلت وقيل لا تطعهم فى اعتقاداتهم الفاسدة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله أى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم علل ذلك بقوله (ان) أى لانهم ما (يتبعون) فى مجادلتهم لك (الا الظن) وهو ظنهم ان آباءهم كانوا على الحق (وان) أى ما (هم الا يخرصون) اى يكذبون على الله عز وجل فيما ينسبون اليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان وصلة اليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونحو ذلك (ان ربك هو) أى لا غيره (أعلم) أى عالم (من يضل عن سبيله وهو) أى لا غيره (أعلم) أى عالم (بالمهتدين) فيجازى كلا منهم بما يستحقه وقوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه ولا تأكلوا مما ذكر عليه اسم غيره تعالى أو مات حتف أنفه (ان كنتم بآياته مؤمنين) أى ان كنتم محققين الايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه فان الايمان يقتضى استباحة ما أحله الله تعالى واجتناب ما حرمه (ومالكم) أى أى غرض لكم فى (ان لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) من الذبائح (وقد فصل) أى بين (لكم ما حرم عليكم) أى مما لم يحرم فى آية حرمت عليكم الميتة تفصيلا واضح البيان ظاهر البرهان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الفاء وكسر الصاد والباقون بفتحهما وقرأ نافع وحفص بفتح الحاء والراء والباقون بضم الحاء وكسر الراء (الا ما اضطررتم اليه) أى مما حرم عليكم فانه أيضا حلال حال الضرورة (وان كثيرا) من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم (ليضلون بأهوائهم) أى بما تهوى أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها وقرأ

عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء والباقون بفتحها (بغير علم) يعتقدونه في ذلك وقيل المراد بذلك عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين ابراهيم صلى الله عليه وسلم (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) أي الذين تجاوزوا الحق الى الباطل والحرام الى الحلال (وذروا) أي اتركوا (ظاهر الاثم وباطنه) أي ما أعلنتم به وما أسررتم به من الذنوب كلها وقيل المراد بظاهر الاثم افعال الجوارح وبباطنه أفعال القلوب فيدخل فيه الحسد والكبر والعجب وارادة الشر للمسلمين ونحو ذلك وقيل ظاهر الاثم الزناة في الحوانيت وباطنه المرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا (ان الذين يكسبون الاثم) في الدنيا بارتكاب المعاصي (سيجزون) في الآخرة (بما كانوا يقترفون) أي يكسبون وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب ومذهب أهل السنة انه اذا لم يتب فهو في خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله اما اذا تاب من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الاصنام واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء أترك التسمية عمدا أم نسيانا وهو قول ابن سيرين والشعبي واحتجوا بظاهر الآية وذهب قوم الى حلها مطلقا ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الشافعي وأحمد وذهب قوم الى أنه ان ترك التسمية عامدا لم تحل أو ناسيا حلت وهو مذهب مالك ومن قال بالاباحة مطلقا قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على غير اسم الله بدليل قوله تعالى (وانه لفسق) أي ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال تعالى في آخر السورة قل لا أجد فيما أوحي الى محرما الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به والضمير لما يجوز أن يكون للاكل الذي دل عليه لا تأكلوا واحتجوا أيضا في اباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قالوا يا رسول الله ان هنا أقواما حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فلا ندري أيذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا فلو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك في وجودها مانعا من أكلها كالشك في أصل الذبح (وان الشياطين ليوحون) أي يوسوسون (الى أوليائهم) من الكفار (ليجادلوكم) في تحليل الميتة بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله وهذا يؤيد التأويل بالميتة (وان أطعتموهم) أي باستحلال ما حرم (انكم لمشركون) أي مثلهم في الشرك قال الزجاج فيه دليل على أن كل من أحل شيأ مما حرم الله أو حرم شيأ مما أحل الله فهو مشرك (أومن كان ميتا) أي بالكفر (فأحييناه) أي بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل الايمان حياة لان الحي صاحب بصر يهتدي به الى رشده ولما كان الايمان يهدي الى الفوز العظيم والحياة الابدية شبه بالحياة وقرأ نافع بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) أي يتبصر به الحق من غيره وهو الايمان وقال قتادة هو كتاب الله القرآن بينة من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ واليها ينتهي (كمن مثله) أي كمن هو

(فى الظلمات) نفى فائدة (ليس بخارج منها) وهو الكافر أى ليس مثله نزلت هذه الآية فى حمزة ابن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وأبى جهل بن هشام وذلك ان أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث فاخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يقول يا أبا يعلى ماترى ماجاء به سفه عقولنا وسفه آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وقيل فى عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبى جهل (كذلك) أى كما زين للمؤمنين ايمانهم (زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى من الكفر والمعاصى قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى زينا لهم أعمالهم وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ورده بالآية المذكورة (وكذلك) أى كما جعلنا فساق أهل مكة أكابرها (جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) أى عظماءها وأكابر جمع أكبر كأفضل وأفاضل وأسود وأساود وذلك سنة الله تعالى انه جعل فى كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم كما قال فى قصة نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) بالصد عن الايمان وذلك انهم أجلسوا على طرق مكة أربع نفر ليصرفوا الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقولون لكل من يقدم اياكم وهذا الرجل فانه كاهن ساحر كذاب فكان هذا مكرهم (وما يمكرون الا بأنفسهم) لان وباله يحيق بهم (وما يشعرون) أى وما لهم نوع شعور بذلك (واذا جاءتهم) أى أهل مكة (آية) على صدق النبى صلى الله عليه وسلم (قالوا لن نؤمن) به (حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى من النبوة وذلك ان الوليد بن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لانى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فنزلت وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لا نرضى الا أن يأتينا وحى كما يأتيه وقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال وانما هى بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها وحيث مفعول به لفعل محذوف دل عليه أعلم لان أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به أى يعلم الموضع الصالح لوضعها فيه فيضعها وهؤلاء ليسوا أهلا لها وقرأ ابن كثير وحفص بنصب التاء ورفع الهاء ولا ألف قبل التاء على التوحيد والباقون بكسر التاء والهاء وألف قبل التاء على الجمع (سيصيب الذين أجرموا) بقولهم ذلك (صغار) أى ذل وهوان (عند الله) يوم القيامة وقيل تقديره من عند الله (وعذاب) أى مع الصغار (شديد) اى فى الدنيا بالقتل والاسر وفى الآخرة بالنار (بما) أى بسبب ما (كانوا يمكرون) من صدهم الناس عن الايمان وطلبهم ما لا يستحقونه (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) بان يقذف فى قلبه نورا فينفسح له ويقبله ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن ينشرح له قلبه وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم الانابة الى

دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقى الموت (ومن يرد) أى الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا) أى عن قبول الايمان حتى لايدخله وقرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها مع الكسر وقوله تعالى (حرجا) قرأه نافع وأبو بكر بكسر الراء أى شديد الضيق والباقون بالفتح وصفا للمصدر وفى الآية دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر (كأنما يصعد فى السماء) أى يشق عليه الايمان كما يشق عليه صعود السماء شبه مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالا يقدر عليه وقرأ ابن كثير بسكون الصاد وتخفيف العين من غير ألف بعد الصاد وقرأ شعبة بتشديد الصاد وتخفيف العين وألف بعد الصاد بمعنى يتصاعد (كذلك) أى مثل ماجعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان (يجعل الله الرجس) أى العذاب أو الشيطان أى يسلطه (على الذين لايؤمنون) وقال الزجاج الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب (وهذا) أى الدين الذى أنت عليه يامحمد (صراط) أى طريق (ربك مستقيما) لاعوج فيه ونصبه على الحال المؤكدة للجملة والعامل فيها معنى الاشارة (قدفصلنا) أى بينا (الآيات لقوم يذكرون) فيه ادغام التاء فى الاصل فى الذال أى يتعظون فيعلمون أن القادر على كل شئ هو الله عز وجل وأن كل مايحدث من خير أوشر فهو بقضائه وقدره وخلقه وانه تعالى عالم باحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وخصوا بالذكر لانهم المنتفعون (لهم) أى المتذكرين (دار السلام) هى الجنة وأضافها لنفسه فى قول جميع المفسرين فان السلام كما قال الحسن هو الله تعالى تشريفا لها أو تحيتهم فيها سلام أو أراد بها دار السلامة (عند ربهم) أى ذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره (وهو وليهم) أى المتكفل بتولى أمورهم ولايكلهم الى أحد سواه (بما) أى بسبب ما (كانوا يعملون) من الاعمال الصالحة التى كانوا يتقربون بها اليه فى الدنيا (و) اذكر يامحمد (يوم نحشرهم) أى الخلق (جميعا) أى لانترك منهم أحدا وقرأ حفص بالياء والباقون بالنون وقوله تعالى (يامعشر الجن) فيه حذف تقديره ويقال لهم يامعشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) أى من اضلالهم واغوائهم حتى صاروا كثيرهم اتباعكم (وقال أولياؤهم) أى الذين أطاعوهم (من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى انتفع الانس بتزيين الجن لهم الشهوات والجن بطاعة الانس لهم (وبلغنا اجلنا الذى أجلت لنا) أى ان ذلك الاستمتاع كان الى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب فى القيامة (قال) الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) أى مأواكم (خالدين فيها) أى الى مالا آخر له فان الجزاء من جنس العمل (الاماشاء الله) أى من الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقد روى انهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير مايميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل الاماشاء الله قبل الدخول قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب وقال ابن عباس الاستثناء يرجع الى قوم سبق فى علم الله انهم يسلمون فيخرجون من النار قال البغوى فما بمعنى من

على هـذا التأويل (ان ربك حكيم) فى صنعه (عليم) بعواقب أمور خلقه وماهم صائرون اليه (وكذلك) أى كما متعنا عصاة الانس والجن بعضهم ببعض (نولى) من الولاية (بعض الظالمين بعضا) أى على بعض روى عن ابن عباس فى تفسيرها هو ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) أى من مجموعكم وهم الانس اذ الرسل منهم خاصة ولكن لما جمع الجن مع الانس فى الخطاب صح ذلك ونظيره قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فان ذلك يخرج من الملح دون العذب أو ان رسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسول فيبلغون قومهم كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الآية وتعلق بظاهر الآية قوم فقالوا بعث الى كل من الثقلين رسل من جنسهم (يقصون عليكم آياتى) أى يخبرون بما أوحى اليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى ويحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وهو يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) أى اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) أى انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى فى الدنيا (فان قيل) كيف أقروا على أنفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا فى آية أخرى وهى قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (أجيب) بتفاوت الاحوال والمواطن فى ذلك اليوم المتطاول فيقرون فى بعضها ويجحدون فى بعض آخر (فان قيل) لم كرر شهادتهم على أنفسهم (أجيب) بأن الاولى حكاية لقولهم كيف يقولون وكيف يعترفون والثانية ذم لهم على سوء نظرهم وخطا رأيهم فانهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم ان اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيرا للسامعين عن مثل حالهم (ذلك) أى ارسال الرسل (أن) أى لاجل أن (لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) أى بسبب ظلم ارتكبوه (وأهلها غافلون) أى لم يتنبهوا برسول يبين لهم (ولكل) أى من العاملين بطاعة أو معصية (درجات) أى جزاء (مما عملوا) أى من خير وشر ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها فى الارتفاع والانخفاض كتفاضل الدرج (وما ربك بغافل عما يعملون) أى عن شئ يعمله أحد من الفريقين بل هو عالم بكل شئ من ذلك وبما يستحقه العامل من ثواب أو عقاب وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة والباقون بالياء على الغيبة (وربك الغنى) أى الغنى المطلق عن كل عابد وعبادته فليعمل العامل لنفع نفسه أو ضرها (ذو الرحمة) أى التجاوز عن خلقه فمن رحمته ارسال الرسل وتأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يا أهل مكة بالاهلاك ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف من بعدكم) أى بعد اهلاككم (مايشاء) أى خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية) أى نسل (قوم

آخرين)

آخرين) أذهبهم لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام ولكنه أبقاكم رحمة بكم (انما توعدون) من مجىء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) لا محالة (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين عذابنا (قل) يا محمد لقومك من كفار قريش (يا قوم اعملوا على مكانتكم) أى حالتكم التى أنتم عليها (انى عامل) على حالتى التى انا عليها والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى فانى ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم والتهديد بصيغة الامر مبالغة فى الوعيد (فسوف تعلمون) غدا فى القيامة (من) موصولة مفعول العلم (تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة أنحن أم أنتم (انه لا يفلح) أى يسعد (الظالمون) أى الكافرون (وجعلوا) أى كفار مكة (لله مما ذرأ) أى خلق (من الحرث) أى الزرع (والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) وذلك أن المشركين كانوا يجعلون لله من حروثهم وانعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبا وللاوثان نصيبا فما جعلوه لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه على الاصنام وخدمها فان سقط شئ من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة وكان اذا هلك او انتقص شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا هلك شئ مما جعلوه للاصنام جبروه بما جعلوه لله فذلك قوله تعالى (فما كان لشركائهم) أى ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) أى لجهته فلا يعطونه للمساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) وفى قوله تعالى مما ذرأ تنبيه على فرط جهالتهم فانهم أشركوا مع الخالق تعالى فى خلقه جمادا لا يقدر على شئ ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى له وفى قوله تعالى بزعمهم تنبيه على ان ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به وقرأ الكسائى برفع الزاى والباقون بالنصب (ساء) أى بئس (ما يحكمون) حكمهم هذا (وكذلك) أى ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم والكفر بربهم شركاؤهم (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم) أى بالوأد خشية الاملاق (شركاؤهم) من الجن أو من السدنة أى الخدمة وقرأ غير ابن عامر بفتح الزاى والياء ونصب لام قتل وكسر دال أولادهم وشركاؤهم بالواو مضمومة الهمزة على أنه فاعل وقرأ ابن عامر بضم الزاى وكسر الياء ورفع لام قتل ونصب دال أولادهم وشركائهم بالياء مكسورة الهمزة باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله قال البيضاوى تبعا للزمخشرى وهو ضعيف فى العربية معدود من ضرورة الشعر اهـ وقد أنكر جماعة على الزمخشرى فى ذلك بأن القراءة المذكورة صحيحة متواترة وتركيبها صحيح فى العربية فلا يجوز الطعن فيها ولا فى ناقلها قال التفتازانى وهذا على عادته يطعن فى متواتر القراآت السبع ويسند الخطأ تارة اليهم كما هنا وتارة الى الرواية عنهم وكلاهما خطأ لان القراآت متواترة وكذا الروايات عنهم وأطال فى بيان ذلك وقال ابن مالك فى كافيته اضافة المصدر الى الفاعل مفصولا بينهما بمفعول المصدر جائزة فى الاختيار اذ لا محذور فيه مع ان الفاعل كجزء من عامله فلا يضر فصله واضافة القتل الى الشركاء لامرهم (ليردوهم) أى ليهلكوهم بذلك الفعل الذى أمروهم به والارداء فى اللغة الاهلاك وقال ابن عباس ليردوهم

قوله مع أن الفاعل الخ فيه تأمل

فى النار (وليلبسوا) أى وليخلطوا (عليهم دينهم) قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الاصنام وزينوها لهم (ولو شاء الله) عصمة هؤلاء من ذلك القبيح الذى زين لهم (مافعلوه) فجميع الاشياء بمشيئته وارادته (فذرهم) أى اتركهم يا محمد (وما يفترون) أى وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد وفى ذلك تهديد لهم كما مرّ (وقالوا) أى المشركون سفها وجهلا (هذه) اشارة الى قطعة من أموالهم عينوها لآلهتهم (أنعام وحرث حجر) أى حرام محجور عليه لا يصل أحد اليه وهو وصف يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لان حكمه حكم الاسماء غير الصفات (لا يطعمها) أى لا يأكل منها (الا من نشاء) أى من خدمة الاوثان والرجال دون النساء (بزعمهم) أى لا حجة لهم فيه (وانعام حرمت ظهورها) اى فلا يركبونها كالبحائر والسوائب والحوامى (وانعام لا يذكرون اسم الله عليها) أى عند ذبحها وانما كانوا يذكرون عليها اسم الاصنام وقيل لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل خير لان العادة لما جرت بذكر الله على الخير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ونسبوا ما فعلوه الى الله تعالى (افتراء عليه) أى اختلاقا وكذبا انه أمرهم بها (سيجزيهم) أى بوعد صادق لا خلف فيه (بما) أى بسبب ما (كانوا يفترون وقالوا ما فى بطون هذه الانعام) أى أجنة البحائر والسوائب وقوله تعالى (خالصة) حلال (لذكورنا) أى خاصة بهم دون الاناث كما قال تعالى (ومحرم على أزواجنا) أى النساء وحذف الهاء من محرم اما حملا على اللفظ أو تخفيفا لان المراد بخالصة المبالغة (وان يكن) أى ما فى بطونها (ميتة فهم فيه شركاء) أى الذكور والاناث فيه سواء أى أن ما ولد منها حيا فهو للذكور دون الاناث وما ولد منها ميتا أكله الذكور والاناث جميعا وقرأ ابن عامر وشعبة بالتأنيث فى تكن والباقون بالتذكير وقرأ ابن كثير وابن عامر ميتة بالرفع على أن تكن تامة والباقون بالنصب على أنها ناقصة (سيجزيهم) الله (وصفهم) أى سيكافئهم على وصفهم بالكذب على الله تعالى بالتحليل والتحريم (انه) أى الله (حكيم) فى صنعه (عليم) بخلقه (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها) أى جهلا (بغير علم) نزلت فى ربيعة ومضر وبعض من العرب من غيرهم كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبى والفقر وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه بأن الله هو رازق أولادهم لا هم لان الجهل كان غالبا عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية وسبب هذا الخسران أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله تعالى بها على الوالد فاذا تسبب فى ازالة هذه النعمة وابطالها فقد استوجب الذم وخسر فى الدنيا والآخرة أما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وازالة ما أنعم الله تعالى به عليه وأما خسارته فى الآخرة فقد استوجب بذلك العذاب العظيم وقرأ أبو عمرو وابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (وحرموا ما رزقهم الله) وتفضل به عليهم رحمة لهم من تلك الانعام والغلات بغير شرع ولا نفع بوجه (افتراء) أى تعمدا للكذب (على الله) وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب والكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) أى فى فعلهم عن

الحق

قوله أو تخفيفا لان المراد الخ لا يخفى ما فيه وعبارة الكشاف وأنث خالصة للحمل على المعنى لان ما فى معنى الاجنة وذكر محرم للحمل على اللفظ ونظيره ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك ويجوز ان تكون التاء للمبالغة مثلها فى راوية الشعر وان تكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعاقبة أى ذو خالصة ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على ان قوله لذكورنا هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد ولا يجوز ان يكون حالا متقدمة لان المجرور لا يتقدم عليه حاله وقرأ ابن عباس خالصه على الاضافة وفى مصحف عبد الله خالص اهـ

الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) أى الى طريق الحق والصواب فى فعلهم روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها الى قوله وما كانوا مهتدين وروى عن مهدى بن ميمون أنه قال سمعت أبا رجاء العطاردى يقول كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر واذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به فاذا دخل شهر رجب قلنا منصل الاسنة فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة الا نزعناه فألقيناه فى رجب (وهو الذى أنشأ) أى خلق (جنات) أى بساتين (معروشات) أى مبسوطات على الارض كالبطيخ والقثاء (وغير معروشات) بأن ارتفعت على ساق كالنخل وشجر الرمان وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لان منه ما يعرش بأن يبقى على وجه الارض منبسطا ومنه ما لم يعرش بأن يرتفع على ساق وقيل المعروشات ما عرشه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير المعروشات هو ما أنبته الله تعالى فى البرارى والجبال من كرم أو شجر (و) أنشأ (النخل والزرع مختلفا أكله) أى ثمره وحبه فى الهيئة والطعم منها الحلو والحامض والجيد والردىء والضمير للزرع والباقى مقيس عليه أو للنخل والزرع داخل فى حكمه لكونه معطوفا عليه أو للجميع على تقدير كل ذلك أو كل واحد منها ومختلفا حال مقدرة لانه لم يكن كذلك عند الانشاء وقرأ نافع وابن كثير بجزم الكاف والباقون بالرفع (والزيتون والرمان متشابها) أى ورقهما (وغير متشابه) أى فى طعمهما وقيل متشابهين فى المنظر مختلفين فى الطعم * ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلى وهو الانتفاع بها فقال تعالى (كلوا من ثمره) أى كل واحد من ذلك (اذا أثمر) أى ولو قبل نضجه وهذا أمر اباحة وأما قوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) فالامر فيه للوجوب والآية مدنية والحق هو الزكاة المفروضة والامر باتيانها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخره عن أول وقت يمكن فيه الايتاء وليعلم ان الوجوب بالادراك لا بالتنقية وقيل الآية مكية والزكاة انما فرضت بالمدينة فالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد وكان ذلك واجبا حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم من ثمره والباقون بنصبهما وقرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح حاء حصاده والباقون بكسرها ومعناهما واحد (ولا تسرفوا) أى باعطاء كله فلا يبقى لعيالكم شئ روى أن ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة وقسمها فى يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فنزلت (انه لا يحب المسرفين) أى المجاوزين ما حد لهم وفى ذلك وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ قال مجاهد الاسراف ما قصرت به عن حق الله تعالى وقال لو كان أبو قبيس ذهبا لرجل أنفقه فى طاعة الله تعالى لم يكن مسرفا ولو أنفق درهما واحدا أو مدا فى معصية كان مسرفا وقوله تعالى (ومن الانعام) عطف على جنات أى وأنشأ من الانعام (حمولة) أى صالحة للحمل عليها كالابل الكبار والبغال (وفرشا) أى لا تصلح للحمل كالابل الصغار والعجاجيل والغنم سميت فرشا لانها كالفرش للارض لدنوها منها وقيل هو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش (كلوا مما رزقكم الله) أى

عما أحله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طرائقه فى التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية وقرأ قنبل وابن عامر وحفص والكسائى بضم الطاء والباقون بالسكون (انه) أى الشيطان (لكم عدو مبين) أى بين العداوة وقوله تعالى (ثمانية أزواج) أى أصناف بدل من حمولة وفرشا والزوج لغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والذكر ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز) زوجين (اثنين) أى ذكر وأنثى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح العين والباقون بالسكون والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه وهى ذوات الشعر من الغنم وقال البغوى جمع الماعز معيز وجمع الماعزة مواعز (قل) يا محمد لمن حرم ذكور الانعام تارة واناثها أخرى وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة ونسبوا ذلك لله تعالى (آلذكرين) من الضأن والمعز (حرم) الله عليكم (أم الانثيين) منهما (أما) أى أم حرم ما (اشتملت) أى انضمت (عليه أرحام الانثيين) ذكرا كان أو أنثى (نبئونى) أى أخبرونى (بعلم) عن كيفية ذلك بأمر معلوم من جهة الله تعالى على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) فى دعواكم والاستفهام للانكار والمعنى من أين جاء التحريم فان كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام وان كان من قبل الانوثة فجميع الاناث حرام أو من قبل اشتمال الرحم فالزوجان حرام فمن أين التخصيص * (تنبيه) * اتفق القراء على أن فى همزة الوصل وهى التى بين همزة الاستفهام ولام التعريف وجهين وهما البدل والتسهيل والبدل هو مدها مبدلة والتسهيل هو ان تقصرها مسهلة (ومن الابل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) كذلك (قل) يا محمد لهؤلاء الذين اختلفوا جهلا وسفها (آلذكرين حرم) الله عليكم (أم الانثيين) منهما (أما) أى أم حرم ما (اشتملت) أى انضمت (عليه أرحام) الانثيين ذكرا كان أو أنثى (أم كنتم) أى بل أكنتم (شهداء) أى حاضرين (اذ وصاكم الله بهذا) أى حين وصاكم بهذا التحريم اذ أنتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم الى معرفة أمثال ذلك الا بالمشاهدة والسماع فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله تعالى * ولما احتج عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا سند لهم فى ذلك قال تعالى (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى) أى تعمد (على الله كذبا) كعمرو بن لحى فانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدأ شيأ لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل فى دين الله ما ليس منه فهو داخل فى هذا الوعيد (ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يرشد ولا يوفق من كذب عليه وأضاف اليه ما لم يشرع لعباده * ولما بين سبحانه وتعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحريم والتحليل من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح فى ذلك وبين أن التحريم والتحليل لا يكون الا بوحى سماوى وشرع نبوى فقال

قوله والمعز والمعزى جمع لا واحد له الخ الذى فى حاشية زاده أن معز بفتح العين وسكونها لغتان فى جمع ماعز وقد تقدم أن فاعلا يجمع تارة على فعل كتاجر وتجر وعلى فعل أخرى نحو خادم وخدم ويجمع أيضا على معزى اه

تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم (لا أجد في ما أوحي
الي محرما) أي طعاما محرما مما حرمتموه * (فائدة) * في ما أوحي الي في مقطوعة من ما في الرسم
(على طاعم) أي طاعم كان من ذكر أو أنثى (يطعمه) أي يتناوله أكلا أو شربا أو دواء أو غير ذلك
(الا أن يكون) أي ذلك الطعام (ميتة) وهي كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية وقرأ ابن كثير
وابن عامر وحمزة تكون بالتأنيث والباقون بالتذكير ورفع ميتة ابن عامر على أن كان هي
التامة وعلى هذه القراءة يكون قوله تعالى (أو دما مسفوحا) عطفا على أن مع ما في حيزه أي
الا وجود ميتة أو دما مسفوحا أي مصبوبا كالدم في العروق لا كالكبد والطحال (أو لحم خنزير
فانه) أي الخنزير (رجس) أي نجس فالضمير يعود على المضاف اليه لان اللحم دخل في قوله ميتة
وحينئذ ففي الآية دلالة على نجاسة الخنزير وهو حي فلحمه وكذا سائر أجزائه بطريق الاولى ثم
اني رأيت البقاعي في تفسيره جرى على ذلك وقوله تعالى (أو فسقا أهل لغير الله به) أي ذبح على
اسم غيره عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل * (تنبيه) * ظاهر الآية ان المحرمات
محصورة في هذه الاربعة وأنه لا يحرم شئ من سائر المطعومات والحيوانات غيرها وهي الميتة
والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على اسم غير الله تعالى ويروى ذلك عن ابن عباس وعائشة
وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم لانه ثبت أنه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بالوحي وثبت أن
الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الاربعة أشياء وقال تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم
الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وانما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية
مطابقة للآية المكية في الحكم ولكن الذي ذهب اليه جمهور العلماء أن التحريم لا يختص
بهذه فقط بل المحرم ما كان بنص كتاب أو سنة وقد وردت السنة بتحريم أشياء غير ذلك منها تحريم
الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطيور وورد النهي عن أكل الهر وأكل ثمنه
ويحرم أيضا كل ما أمر بقتله كالحدأة والغراب الابقع أو نهي عن قتله كالهدهد والخفاش وما
لا نص فيه بتحريم أو تحليل أو بما يدل على أحدهما كالامر بالقتل والنهي عنه ان استطابته عرب
ذوو يسار وطباع سليمة حال رفاهية حل وان استخبثوه فلا يحل فان اختلفوا في استطابته اتبع
الاكثر فان استووا فقريش لانهم قطب العرب وفيهم الفتوة فان اختلفت أو لم تحكم بشئ اعتبر
الاشبه به من الحيوانات فان استوى الشبهان أو لم يوجد ما يشبهه فحلال لهذه الآية وما جهل
اسمه عمل بتسمية العرب له مما هو حلال أو حرام * ولما حرم الله تعالى هذه الاشياء أباحها كلها
عند الاضطرار بقوله تعالى (فمن اضطر) أي حصل له جوع خشي منه التلف (غير باغ) أي على
مضطر مثله (ولا عاد) أي ولا متجاوز قدر الضرورة وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي
بضم النون في الوصل والباقون بالكسر (فان ربك غفور) لا يؤاخذه بالاكل (رحيم) به حيث
أباح له ذلك (وعلى الذين هادوا) أي اليهود واليهود علم على قوم موسى عليه الصلاة والسلام
وسموا به اشتقاقا من هادوا أي مالوا اما عن عبادة العجل واما عن دين موسى عليه السلام أو من
هاد اذا رجع من خير الى شر أو من شر الى خير لكثرة انتقالهم عن مذاهبهم وقيل لانهم يتهودون أي

يتحركون عند قراءة التوراة وقيل معرب من يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة ثم نسب اليه فقيل يهودى ثم حذف الياء فى الجمع فقيل يهود (حرمنا) أى بسبب ظلمهم عليهم (كل ذى ظفر) أى ماهو كالاصبع للآدمى من دابة أو طير وكان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا حرم عليهم فعم التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم (ومن البقر والغنم) أى التى هى ذوات الاظلاف (حرمنا عليهم شحومهما) أى الصنفين والمراد شحم الجوف وهو الثروب قال الجوهرى هو شحم قد غشى الكرش والامعاء رقيق ثم استثنى من الشحوم ماذكره بقوله (الا ماحملت ظهورهما) أى الا ماعلق بالظهر والجنب من داخل بطونهما (أو الحوايا) أى ماحملته الحوايا وهى الامعاء التى هى متعاطفة ملوية جمع حوية فوزنها فعائل كسفينة وسفائن وقيل جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء فهو فواعل (أو مااختلط) أى من الشحوم (بعظم) مثل شحم الالية فان ذلك لايحرم عليهم روى أنه صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح وهو بمكة ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لاهو حرام أى بيعها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله تعالى لما حرم عليهم شحومهما أجملوه أى أذابوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه (ذلك) أى التحريم العظيم وهو تحريم الطيبات (جزيناهم) به (ببغيهم) أى بسبب مجاوزتهم الحدود (وانا لصادقون) أى فى الاخبار عما حرمنا عليهم وعن بغيهم (فان كذبوك) أى اليهود يامحمد فيما أخبرناك به عنهم (فقل) لهم (ربكم ذو رحمة واسعة) أى بتأخير العذاب عنكم فلم يعاجلكم بالعقوبة فى ذلك تلطفا بدعائهم الى الايمان (ولا يرد بأسه) أى عقابه (عن القوم المجرمين) اذا جاء وقته وقيل ذو رحمة واسعة للمطيعين وذو بأس شديد للمجرمين وقوله تعالى (سيقول الذين أشركوا) اخبار عن مستقبل ووقوع مخبره يدل على اعجازه ولما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ماكانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله قالوا (لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ) أرادوا ان يجعلوا قولهم لوشاء الله ما أشركنا حجة لهم على اقامتهم على الشرك وقالوا ان الله قادر على أن يحول بيننا وبين مانحن فيه حتى لانفعله فلولا انه رضى مانحن فيه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية (حتى ذاقوا بأسنا) أى عذابنا ويستدل أهل القدر بهذه الآية يقولون انهم لما قالوا لوشاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم فقال كذلك كذب الذين من قبلهم وأجاب أهل السنة بأن التكذيب ليس فى قولهم لوشاء الله ما أشركنا بل ذلك القول صدق ولكن فى قولهم ان الله أمرنا بها ورضى مانحن عليه كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فالرد عليهم فى هذا كما قال تعالى قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا فى قولهم لوشاء الله ما أشركنا قوله تعالى كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان كذلك خبرا من الله عن كذبهم فى قولهم لوشاء الله ما أشركنا لقال كذب الذين من

قبلهم

قبلهم بالتخفيف وكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسين بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيما واجلالا لله تعالى ومعرفة منهم لما عابهم بذلك لان الله تعالى قال ولو شاء الله ما أشركوا وقال تعالى وما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله والمؤمنون يقولون ذلك ولكن المشركين قالوا تكذيبا وتخريصا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون نظيره قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم قال الله تعالى ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقد علم من ذلك ان أمر الله تعالى بمعزل عن مشيئته وارادته فانه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين ما ذكر (هل عندكم) أيها الجهلة (من علم) أى من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم من تحريم ما حرمتم وان الله راض بشرككم (فتخرجوه لنا) أى فتظهروه لنا وتبينوه لنا كما بينا لكم خطأكم (ان) أى ما (تتبعون) فى ذلك (الا الظن) أى فيما أنتم عليه ولا علم عندكم (وان أنتم الا تخرصون) أى وما أنتم فى ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله تعالى الباطل (قل) لهم حين عجزوا عن اظهار الحجة (فلله الحجة البالغة) أى التامة على خلقه بانزال الكتب وارسال الرسل قال الربيع بن أنس لا حجة لاحد عصى الله وأشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء) الله هدايتكم (لهداكم أجمعين) ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء هداية بعض وضلال بعض آخر فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه لا يسئل عما يفعل (قل) لهم (هلم) أى أحضروا (شهداءكم الذين يشهدون) لكم (ان الله حرم هذا) أى ما تقدم من تحريمهم الاشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به وهلم اسم فعل لا يتصرف يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وعند بنى تميم فعل مؤنث ويثنى ويجمع (فان شهدوا) أى فان تجرؤا على الشهادة كذبا (فلا تشهد معهم) أى فاتركهم ولا تسلم لهم فانهم على ضلال وليست شهادتهم مستندة الا الى الهوى (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) انما وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير وان متبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها (و) لا تتبع أهواء (الذين لا يؤمنون بالآخرة) التى هى دار الجزاء فانهم لو جوزوها ما اجترؤا على ذلك (وهم بربهم يعدلون) أى يشركون فيجعلون له عديلا (قل) لهم (تعالوا) أى اقبلوا على (أتل) أى أقرأ (ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ) وذلك أنهم سألوا وقالوا أى الذى حرم الله فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم ذلك (فان قيل) ما معنى قوله تعالى حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك (أجيب) بأن موضع أن رفع أى هو أن لا تشركوا وقيل نصب واختلفوا فى وجهه فقيل معناه حرم عليكم ان تشركوا ولا صلة كقوله تعالى ما منعك أن لا تسجد أى ما منعك أن تسجد وقيل تم الكلام عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم ان لا تشركوا به شيأ على وجه الاغراء وقال الزجاج يجوز أن يكون هذا محمولا على المعنى أى أتل عليكم تحريم الشرك وجائز أن يكون على معنى أوصيكم أن لا تشركوا (وبالوالدين احسانا) أى فأحسنوا بهم احسانا ووضعه موضع النهى عن الاساءة اليهما للمبالغة وللدلالة

على أن ترك الاساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) أى من أجل فقر تخافونه والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم وقوله تعالى (نحن نرزقكم واياهم) منع لموجبية ما كانوا يفعلونه لاجله واحتجاج عليهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله (ولا تقربوا الفواحش) أى سائر المعاصى (ما ظهر منها وما بطن) أى علانيتها وسرها وقيل المراد الزنا علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسا فى السر فحرم الله عز وجل الزنا فى السر والعلانية وأجاب الاول بأن السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم ثم صرح بالقتل لشدة أمره بالتخصيص بعد التعميم فقال (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) عليكم قتلها (الا بالحق) وهى التى أبيح قتلها بردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم أو نحو ذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى ماذكر مفصلا (وصاكم به) أى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) أى تتدبرون ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فان كمال العقل هو التدبر (ولا تقربوا مال اليتيم) أى بنوع من أنواع عمل فيه أو غيره (الا بالتى) أى بالخصلة التى (هى أحسن) بماله كحفظه وتنميته وتثميره ويستمر ذلك (حتى يبلغ أشده) وهو سن يبلغ به أوان حصول عقله عادة وهو البلوغ بالسن أو الاحتلام أو عقل يحصل به رشده وقيل الاشد من الثمانى عشر الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين (وأوفوا) أى أتموا (الكيل والميزان بالقسط) أى العدل من غير تفريط ولا افراط (لا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها فى ايفاء الكيل والميزان لم يكلف المعطى أكثر مما وجب عليه ولا يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عليه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه وذكره عقب الامر معناه ان ايفاء الحق عسر فعليكم بما فى وسعكم وما وراء الوسع معفو عنه (واذا قلتم) أى فى حكم أو شهادة أو غير ذلك (فاعدلوا) فيه بالصدق (ولو كان) المقول له أو عليه (ذا قربى) أى من ذوى قرابتكم (وبعهد الله أوفوا) أى ما عهد اليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع (ذلكم) أى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم) بالعمل (به لعلكم تذكرون) أى تتعظون فتأخذون بما أمرتكم به وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (وأن هذا) الذى وصيتكم به (صراطى مستقيما) والاشارة فيه الى ماذكر فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرأ ابن عامر بتخفيف النون والباقون بالتشديد وكسر الهمزة حمزة والكسائى على الاستئناف وفتحها الباقون على تقدير اللام وفتح الياء من صراطى ابن عامر وسكنها الباقون وتقدم مذهب قنبل فى الصراط بالسين ومذهب خلف فى اشمام الصاد (فاتبعوه) أى بغاية جهدكم لانه الجامع للعباد على الحق الذى فيه كل خير

(ولا تتبعوا

(ولا تتبعوا السبل) أى الطرق المخالفة لدين الاسلام (فتفرق) فيه حذف احدى التاءين أى
فتميل (بكم) أى هذه الطرق المضلة (عن سبيله) أى طريقه التى ارتضاها لعباده وبها أوصى
(ذلكم) أى الامر العظيم من اتباعه (وصاكم به لعلكم تتقون) الضلال والتفرق عن الحق
روى انه صلى الله عليه وسلم خط خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله
وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه
(ثم آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فان قيل) ثم للترتيب وايتاء موسى الكتاب كان قبل مجىء
القرآن (أجيب) بأن ثم لترتيب الاخبار أى ثم أخبركم انا آتيناه موسى الكتاب فدخل ثم لترتيب
الخبر لا لتأخير النزول وقوله تعالى (تماما) حال أى لم ينقص الكتاب عما يصلحهم شيأ (على) الوجه
(الذى أحسن) أى أتى بالاحسان فأثبت الحسن وجمعه بما بين من الشرع وبما محى طوائف
أهل الارض به من الاهلاك العام روى ان الله تعالى لم يهلك قوما هلاكا عاما بعد نزول التوراة
وقيل تماما على المحسنين من قوم موسى فيكون الذى بمعنى من أى على من أحسن من قومه وكان
فيهم محسن ومسىء وقيل الذى أحسن هو موسى عليه السلام أى اتماما للنعمة عليه لاحسانه
بالعبادة أو الذى بمعنى ما أى ما أحسن وقوله تعالى (وتفصيلا) عطف على تماما أى وبيانا (لكل شىء)
أى يحتاج اليه فى الدين (وهدى) أى فيه هدى من الضلالة (ورحمة) أى انزاله عليهم رحمة لهم
(لعلهم) أى بنى اسرائيل (بلقاء ربهم) أى بالبعث والجزاء (يؤمنون) أى ليكون حالهم بعد
انزال الكتاب لما يرون من حسن شرائعه وفخامة كلامه وجلالة أمره حال من يرجو ان يجدد
الايمان فى كل وقت بلقاء ربه وليذكروا ما أنعم به عليهم من اخراجهم من مصر من العبودية
والرق (وهذا) أى القرآن (كتاب) أى عظيم (أنزلناه) اليكم أى بلسانكم حجة عليكم (مبارك)
أى كثير الخير والنفع والبركة (فاتبعوه) أى اتبعوا ما فيه من الاوامر والنواهى والاحكام
(واتقوا) الكفر (لعلكم ترحمون) أى بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه ثم بين تعالى المراد من
انزاله فقال (أن) أى كراهة ان (تقولوا انما أنزل الكتاب) أى التوراة والانجيل (على طائفتين
من قبلنا) أى اليهود والنصارى (وان كنا) أى وقد كنا وان هى المخففة من الثقيلة ولذلك
دخلت اللام الفارقة بينها وبين النافية فى خبر كان أى وانه كنا (عن دراستهم) قراءتهم لكتابهم
قراءة مردودة (لغافلين) أى لا نعرف حقيقتها ولا ثبت عندنا حقيتها ولا هى بلساننا (أو تقولوا)
أى أيها العرب لم نكن عن دراستهم غافلين بل كنا عالمين بها ولكنه لا يجب اتباع الكتاب الا على
المكتوب اليه فلم نتبعه و (لو أنا) أهلنا لما أهلوا له حتى (أنزل علينا الكتاب) أى جنسه (لكنا
أهدى منهم) أى لما لنا من الاستعداد بوفور العقل وحدة الاذهان واستقامة الافكار
واعتدال الامزجة والاذعان للحق (فقد جاءكم بينة من ربكم) أى القرآن فيه بيان وحجة واضحة
تعرفونها على لسان رجل منكم تعرفون انه أولاكم بذلك (وهدى) من الضلالة لمن تدبره
(ورحمة) أى وهو رحمة ونعمة أنعم بها عليكم فتأملوا فيه واعملوا به (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن
كذب بآيات الله وصدف) أى أعرض (عنها) فضل وأضل (سنجزى الذين يصدفون

عن آياتنا) ولا يتوبون (سوء العذاب) أى شدته (بما كانوا يصدفون) أى بسبب اعراضهم
(هل ينظرون) أى ما ينظر هؤلاء المكذبون (الا أن تأتيهم الملائكة) أى لقبض أرواحهم
أو بالعذاب وقرأ حمزة والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث (أو يأتى ربك)
أى أمره بالعذاب (أو يأتى بعض آيات) أى علامات (ربك) الدالة على الساعة كطلوع الشمس
من مغربها وعن حذيفة والبراء بن عازب كنا نتذاكر الساعة اذ طلع علينا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال ما تذاكرون قلنا كنا نتذاكر الساعة فقال انها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر
آيات الدخان ودابة الارض وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب وخسفا بجزيرة العرب والدجال
وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونارا تخرج من عدن (يوم يأتى
بعض آيات ربك) وهو طلوع الشمس من مغربها كما فى حديث الصحيحين (لا ينفع نفسا ايمانها لم
تكن آمنت من قبل) صفة نفسا (أو) نفسا لم تكن (كسبت فى ايمانها خيرا) أى
طاعة لا ينفعها توبتها قال صلى الله عليه وسلم يد الله مبسوطتان لمسىء الليل ليتوب بالنهار ولمسىء
النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها وقال صلى الله عليه وسلم من تاب قبل ان تطلع
الشمس من مغربها تاب الله عليه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جعل بالمغرب بابا مسيرة عرضه
سبعون عاما للتوبة لا يغلق مالم تطلع الشمس من قبله وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث اذا خرجن
فلا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها (قل
انتظروا) بعض هذه الاشياء (انا منتظرون) ذلك وحينئذ لنا الفوز عليكم ولكم الويل (ان
الذين فرقوا دينهم) أى بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وافترقوا فيه قال صلى الله عليه
وسلم افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى على
ثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وتفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها
فى الهاوية الا واحدة رواه أبو داود والترمذى والحاكم وصححاه وفى بعض الروايات قالوا ومن
هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى وقرأ حمزة بتخفيف الراء وألف قبلها والباقون بتشديدها
ولا ألف (وكانوا شيعا) أى فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة كأهل
الكتاب فانهم ابتدعوا فى دينهم بدعا أوصلتهم الى تكفير بعضهم بعضا فآمنوا ببعض الانبياء
وكفروا ببعض وكالمجوس الذين فرقوا دينهم باعتقاد ان الاله اثنان النور والظلمة وعبدوا
الاصنام والنجوم وجعلوا لكل نجم قسما يتوسل به فى زعمهم اليه وقيل هم أهل البدع وأصحاب
الاهواء من هذه الامة روى انه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة يا عائشة ان الذين فرقوا دينهم
وكانوا شيعا هم أهل البدع وأصحاب الاهواء من هذه الامة وعن العرباض بن سارية قال صلى
بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب
فقال قائل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فاوصنا قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة
وان كان عبدا حبشيا فان من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء
الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل

بدعة

بدعة ضلالة وروى ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها (لست منهم فى شئ) أى من السؤال عنهم فلا تتعرض لهم (انما أمرهم الى الله) يتولى جزاءهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم به وهذا منسوخ بآية السيف (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى عشر حسنات أمثالها فضلا من الله تعالى (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) أى جزاءها قضية للعدل (وهم لا يظلمون) أى بنقص الثواب وزيادة العقاب وما ذكر فى اضعاف الحسنات هو أقل ما عد من الاضعاف فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فله سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن لقينى بقراب أهل الارض خطيئة لا يشرك بى شيأ لقيته بمثلها مغفرة وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى اذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة وان عملها فاكتبوها بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما الآية فى غير الصدقات من الحسنات فأما الصدقات فانها تضاعف سبعمائة ضعف (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم) بالوحى والارشاد الى ما نصب من الحجج وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقوله تعالى (دينا) بدل من محل الى صراط مستقيم والمعنى وهدانى صراطا كقوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما (قيما) أى مستقيما وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء مشددة والباقون بكسر القاف وفتح الياء مخففة على انه مصدر نعت به وكان قياسه قوما فاعل لاعلال فعله كالقيام وقوله تعالى (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا اذ الملة بالكسر الدين وان فرق بينهما بأن الملة لا تضاف الا الى النبى الذى تستند اليه والدين لا تختص اضافته بذلك وقوله تعالى (حنيفا) حال من ابراهيم أى مائلا من الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على انه دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (وما كان) ابراهيم صلى الله عليه وسلم (من المشركين) رد على كفار قريش لانهم يزعمون انهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين (قل) يا محمد (ان صلاتى ونسكى) أى عبادتى من حج وغيره (ومحياى ومماتى) أى وما أنا عليه فى حياتى وأموت عليه من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير أو الحياة والممات أنفسهما وقرأ نافع ومحياى بسكون الياء بخلاف عن ورش اجراء للوصل مجرى الوقف والباقون بالفتح وفتح الياء من مماتى نافع وسكنها الباقون (لله رب العالمين لا شريك له) فى ذلك (وبذلك) أى وبهذا التوحيد (أمرت وأنا أول المسلمين) أى من هذه الامة لان اسلام كل نبى متقدم على اسلام أمته وقرأ نافع بمد أنا قبل الهمزة المفتوحة وقالون بالمد والقصر لانها عنده مد منفصل والباقون بلا مد أصلا (قل)

يامحمد لهؤلاء الكفار من قومك (أغير الله أبغى) أى أطلب (ربا) أى الها فأشركه فى عبادتى وهذا جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار أى منكران أبغى ربا غيره (وهو رب كل شئ) فكل من دونه مربوب ليس فى الوجود من له الربوبية غيره كما قال تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون (ولا تكسب كل نفس) ذنبا (الا عليها) أى اثم الجانى عليه لا على غيره وقوله تعالى (ولا تزر) أى ولا تحمل نفس (وازرة) أى آثمة (وزر) نفس (أخرى) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ثم الى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فى الدنيا فيتبين الرشد من الغى والمحق من المبطل (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) جمع خليفة لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الامم أو يخلف بعضهم بعضا فيها أو هم خلفاء الله تعالى فى أرضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى فى الشرف والرزق (ليبلوكم) أى ليختبركم (فى ما آتاكم) أى اعطاكم ليظهر المطيع منكم والعاصى * (فائدة) * فى تكتب مقطوعة عن ما (ان ربك سريع العقاب) لمن عصاه لان ما هو آت قريب أو لانه يسرع اذا أراده (وانه لغفور) للمؤمنين (رحيم) بهم وصف الله تعالى العقاب ولم يضفه الى نفسه ووصف تعالى ذاته بالمغفرة وضم اليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيها على انه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها قليل العقوبة مسامح فيها فنسأل الله العظيم أن يسامحنا وأن يغفر زلاتنا ولا يؤاخذنا بسوء افعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا وأقاربنا وأحبابنا وأصحابنا وجميع المسلمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(سورة الاعراف مكية)

الا ثمان آيات من قوله تعالى واسئلهم عن القرية الى قوله تعالى واذ نتقنا الجبل وهى محكمة كلها وقيل الا قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وعدد آياتها مائتان وخمس آيات وكلماتها ثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها أربعة عشر ألفا وثلثمائة وعشرة احرف

(بسم الله) الواحد الذى لا يقدر أحد قدره (الرحمن) الذى عم بنعمة البيان من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذى خص أهل وده فاجتنبوا نهيه وامتثلوا أمره (المص) سبق الكلام على معانى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدا محذوف تقديره هو أو هذا أو خبر المص والمراد بالكتاب السورة أو القرآن وقوله تعالى (أنزل اليك) صفة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فلا يكن فى صدرك حرج) أى ضيق (منه) أى لا يضيق صدرك بالابلاغ وتأدية ما أرسلت به مخافة أن تكذب لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه واذاهم وكان يضيق صدره من الاذى ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم وقيل الحرج الشك والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وسمى الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر كما ان المتيقن منشرح الصدر وقوله تعالى (لتنذر) متعلق بأنزل

أى للانذار به (وذكرى) أى وتذكرة (للمؤمنين) به وحذف المفعول يدل على عموم الرسالة لكل من أمكن انذاره وتذكيره من العقلاء قال بعض المفسرين وهذا من المؤخر الذى معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه ويدل لهذا تعلق لتنذر بانزل وقوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) يعنى القرآن والسنة لقوله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ولقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا أى قل لهم يا محمد اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وذروا ما أنتم عليه من الشرك (ولا تتبعوا من دونه) أى ولا تتخذوا من دون الله أى غيره (أولياء) تطيعونهم من شياطين الانس والجن فيأمركم بعبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) أى تتعظون وقرأ ابن عامر بياء قبل التاء وتخفيف الذال وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال ولا ياء قبل التاء والباقون بتشديد الذال ولا ياء قبل التاء (وكم من قرية أهلكناها) أى أهلكنا أهلها وقيل لا يحتاج الى تقدير مضاف لان القرية تهلك كما يهلك أهلها وانما يقدر فى فجاءها الاجل قوله تعالى أوهم قائلون وكم خبرية مفعول أهلكنا وهى للتكثير والاهلاك على حقيقته أو بقدر اردنا اهلاكها لقوله تعالى (فجاءها) أى أهلها (بأسنا) أى عذابنا فان مجىء الباس قبل الاهلاك فتقدر الارادة وقيل الاهلاك الخذلان وعلى هذا فلا حاجة الى تقدير (بياتا) أى وقت الاستكان فى البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام (أوهم قائلون) أى نائمون وقت القائلة وهى نصف النهار أو مستريحون من غير نوم كما أهلكنا قوم شعيب عليه السلام أى مرة جاءها ليلا ومرة نهارا وانما خص هذين الوقتين لانهما وقت دعة واستراحة فيكون مجىء العذاب فيهما أفظع وفى هذا وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لا تغتروا بأسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) أى قولهم (اذ جاءهم بأسنا) أى عذابنا (الا أن قالوا) أى الا قولهم (انا كنا ظالمين) أى فيما كنا عليه حيث لم نتبع ما أنزل الينا من ربنا وذلك حين لا ينفعهم الاعتراف (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) أى المرسل اليهم وهم الامم يسألهم الله تعالى عن قبول الرسالة واجابتهم الرسل (ولنسئلن المرسلين) أى عما اجيبوا به كما قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم وقيل نسأل المرسلين عن الابلاغ والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والمنفى فى قوله تعالى ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام الاول فى موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة (فلنقصن عليهم) أى الرسل والمرسل اليهم (بعلم) لنخبرنهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهرا وبما قالوه سرا وعلانية (وما كنا غائبين) عنهم فيخفى علينا شئ من أحوالهم وأقوالهم (والوزن) أى لصحائف الاعمال بميزان له لسان وكفتان ينظر اليها الخلائق اظهارا للعدل وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم ويؤيده ما روى ان رجلا يؤتى به الى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة والبطاقة رقعة صغيرة

تجعل فى طى الثوب يكتب فيها عمله وقيل توزن الاعمال روى عن ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان وقيل توزن الاشخاص لما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم السؤال المذكور وهو يوم القيامة خبر المبتدا الذى هو الوزن وقوله تعالى (الحق) أى العدل السوى صفته (فمن ثقلت موازينه) أى رجحت على ما يعهد فى الدنيا بصحائف الاعمال أو حسناته أو به على الاقوال الماضية وعن الحسن وحق لميزان توضع فيه الحسنات ان يرجح ويثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات ان يخف (فان قيل) الميزان واحد فما وجه الجمع (أجيب) بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين واللسان والساهون ولا يتم الوزن الا بذلك كله وقيل جمع لاختلاف الموزونات وتعدد الجمع فهو جمع موزون أو ميزان (فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالنجاة والثواب (ومن خفت) أى طاشت (موازينه) أى السيئات أى بسببها (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى بتصييرها الى النار (بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى يجحدون (ولقد مكناكم) يا بنى آدم (فى الارض) أى فى مسكنها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة أى اسبابا تعيشون بها أيام حياتكم من أنواع التجارات والصنائع والمآكل والمشارب وذلك بفضل الله تعالى وانعامه على عبيده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عبيده وانعامه عليهم لا يقومون بشكرها كما ينبغى فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى على ما صنعت اليكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعمة الله فيشكره عليها فلا يخلو فى بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها (ولقد خلقناكم) أى اباكم آدم (ثم صورناكم) أى أباكم آدم والمراد يعنى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه فنزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم وقيل خلقناكم فى اصلاب الرجال ثم صورناكم فى أرحام النساء (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) (فان قيل) ثم للترتيب والتراخى وهى ظاهرة على القول الاول فما وجهه على الثانى (أجيب) بأنها تكون بمعنى الواو أى وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية بالانحناء (فسجدوا) أى الملائكة كلهم لآدم (الا ابليس) أبا الجن كان بين الملائكة (لم يكن من الساجدين) أى ممن سجد (قال) الله تعالى لابليس (ما منعك أن لا تسجد) أى ان تسجد (اذ أمرتك) فلا زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لا أقسم أى أقسم وقوله تعالى وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون أى يرجعون نعم ان حمل ما منعك على ما حملك لم تكن زائدة (قال) ابليس مجيبا لله تعالى (أنا خير منه) (فان قيل) كيف يكون قوله أنا خير منه جوابا لما منعك وانما الجواب أن يقول منعنى كذا (أجيب) بأنه جواب من حيث المعنى استأنف به استبعادا لان يكون مثله مأمورا بالسجود

لمثله كأنه قال المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به فهو الذى سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولا وعلل الخيرية بقوله تعالى (خلقتنى من نار) فهى أغلب أجزائى وهى مشرقة مضيئة عالية غالبة (وخلقته من طين) أى هو أغلب أجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب فكل منهما مركب من العناصر الاربعة فالاضافة الى ماذكر باعتبار الجزء الغالب قال ابن عباس رضى الله عنهما أول من قاس ابليس فأخطأ فمن قاس الدين بشئ من رأيه قرنه الله تعالى مع ابليس قال ابن سيرين ما عبدت الشمس الا بالقياس وانما اخطأ ابليس لانه رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار اليه بقوله تعالى مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أى بغير واسطة وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين وباعتبار الغاية وهى ملاكه ولذلك أمر الملائكة بالسجود لما تبين لهم انه أعلم منهم وان له خواص ليست لغيره وقال محمد بن جرير ظن الخبيث ان النار خير من الطين ولم يعلم ان المفضل ما جعل الله له الفضل وقد فضل الله الطين عن النار بوجوه منها ان من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعى لآدم بعد السعادة التى سبقت له الى التوبة والتواضع والتضرع فأورثته الاجتباء والمنزلة والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع وهو الداعى لابليس بعد الشقاوة التى سبقت له الى الاستكبار والاصرار فأورثته اللعنة والشقاوة ولان الطين سبب جمع الاشياء والنار سبب تفرقها ولان التراب سبب الحياة لان حياة الاشجار والنبات لاتكون الامع الطين والنار سبب الهلاك (فان قيل) لم سأله الله تعالى عن المانع من السجود وهو عالم بما منعه (أجيب) بأنه للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه أصل آدم عليه الصلاة والسلام (قال) الله تعالى لابليس (فاهبط منها) أى من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون) أى فما يصح (لك أن تتكبر فيها) عن أمرى لان الجنة أو السماء مكان الخاشع المطيع لامر الله تعالى وفيه تنبيه على ان التكبر لايليق بأهل الجنة والسماء وانه تعالى انما طرد ابليس لتكبره لا لمجرد المعصية قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقى "من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله" وعن عمر رضى الله عنه من تواضع رفع الله حكمته ومن تكبر وعلا طوره هضمه الله الى الارض (فاخرج) منها (انك من الصاغرين) أى الكفرة الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فأخرجه الله منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروغ فيها حتى يخرج منها (قال) ابليس عند ذلك (أنظرنى) أى أخرنى ولا تمتنى ولا تعجل عقوبتى (الى يوم يبعثون) أى الناس وهو النفخة الاخيرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة ابليس الخبيث لانه سأل ربه الامهال وقد علم انه لا سبيل لاحد من الخلق الى البقاء فى الدنيا ولكنه كره أن يذوق الموت فطلب البقاء والخلود

فلم يجب الى ماسأل بل أجابه الله تعالى بقوله (قال انك من المنظرين) لا الى ذلك الوقت بل الى الوقت المعلوم كما بينه تعالى فى سورة الحجر بقوله تعالى فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى التى يموت فيها الخلق (فان قيل) لم أجيب الى الانظار وانما استنظر ليفسد عباده ويغويهم (أجيب) بأنه أجابه لما فى ذلك من ابتلاء العباد وفى مخالفته من عظيم الثواب وحكمة ما خلق الله تعالى من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهى وما ركب فى الانفس من الشهوات ليمتحن بها عباده (قال) أى ابليس (فبما أغويتنى) أى فبما غوايتك لى والباء للقسم أى اقسم باغوائك وجوابه (لاقعدن لهم) أى لبنى آدم (صراطك المستقيم) أى على الطريق الموصل اليك وانما أقسم بالاغواء لانه كان تكليفا والتكليف من أحسن افعال الله تعالى لكونه تعريضا لسعادة الابد فكان جديرا لان يقسم به ويجوز أن تتعلق الباء بفعل القسم المحذوف تقديره فبما أغويتنى أقسم بالله لاقعدن أى فبسبب اغوائك أقسم (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى من جميع الجهات الاربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال ابن عباس رضى الله عنهما ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة ربه وقيل لم يقل من تحتهم لان الاتيان منه يوحش وعنه انه قال من بين أيديهم من قبل الآخرة فيخبرهم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من قبل الدنيا فيزينها لهم وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم أى فيبطؤهم عنها وعن شمائلهم من قبل سيآتهم أى فيزين لهم المعاصى ويدعوهم اليها وانما عدى الفعل الى الاولين بحرف الابتداء لانه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف عنهم المار على عروضهم ونظيره قوله جلست عن يمينه وعن شقيق مامن صباح الا قعد لى الشيطان على أربع مراصد من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما من بين يدى فيقول لا تخف ان الله غفور رحيم فأقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من خلفى فاقرأ ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من قبل النساء فاقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين مايشتهون (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى مطيعين (فان قيل) كيف علم الخبيث ذلك (أجيب) بأنه انما قال ذلك ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى فيهم مبدأ الشر متعددا وهو الشيطان والنفس والهوى ومبدأ الخير واحدا وهو الملك الملهم وقيل سمع ذلك من الملائكة (قال) الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه بسبب عصيانه ومخالفته (اخرج منها) أى الجنة أو السماء كما مر فانه لا ينبغى أن تسكن فيها (مذؤما) أى محقورا ممقوتا (مدحورا) أى مبعدا مطرودا عن الرحمة وقوله تعالى (لمن تبعك منهم) أى من الناس اللام فيه موطئة للقسم وجوابه (لاملأن جهنم منكم أجمعين) وهو ساد مسد جواب الشرط وهو من تبعك أى لاملأن جهنم منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب (ويا آدم) أى وقلنا يا آدم (اسكن) فهذه القصة معطوفة على قوله تعالى قلنا للملائكة

وقوله تعالى (أنت) تأكيد للضمير في اسكن ليعطف عليه (وزوجك) أي حواء بالمد وذلك بعد ان أهبط منها ابليس واخرجه وطرده من الجنة (الجنة فكلا من حيث شئتما) من ثمار الجنة أي من أي مكان شئتما (فان قيل) قال تعالى في سورة البقرة وكلا بالواو وهنا بالفاء فما الفرق أجاب الفخر الرازي بأن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة) أي بالاكل منها مشيرا الى شجرة بعينها أو نوعها وهي الحنطة وقيل شجرة الكرم وقيل غيرهما (فتكونا من الظالمين) أي بالاكل منها أي فتصيرا بذلك من الذين ظلموا أنفسهم وتكونا يحتمل الجزم عطفا على تقربا والنصب على جواب النهي (فوسوس لهما الشيطان) أي ابليس بما مكنه الله تعالى منه من أنه يجري من الانسان مجرى الدم ويلقي له في سره ما يميل به قلبه الى ما يريد وهو أحقر وأذل من أن يكون له فعل وانما الكل بيد الله سبحانه وتعالى وهو الذي جعله آلة لمراده منه ومنهم فان من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ثم بين علة الوسوسة بقوله تعالى (ليبدي) أي ليظهر (لهما ما ووري) أي ستر وغطي (عنهما من سوآتهما) أي عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وفيه دليل على ان كشف العورة في الخلوة وعند الزوجة من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع قالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت منه صلى الله عليه وسلم ولا رأى مني أي الفرج (وقال) أي ابليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) أي عن الاكل منها (الا) أي كراهة ان (تكونا ملكين) أي في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم (أو تكونا من الخالدين) أي الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا كما في آية أخرى هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (وقاسمهما) أي اقسم لهما بالله على ذلك واخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل اقسما عليه بالله انه لهما لمن الناصحين فاقسم لهما (اني لكما لمن الناصحين) فجعل ذلك مقاسمة وقال قتادة حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله تعالى فقال اني خلقت قبلكما وأنا أعلم فاتبعاني أرشدكما وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف وان الاغلب أن كل حلاف كاذب وأنه لا يحلف الا عند ظنه ان سامعه لا يصدقه ولا يظن ذلك الا وهو معتاد للكذب وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه كان اذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه وكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق فقيل له انهم يخدعونك فقال من خدعنا بالله انخدعنا له وابليس لعنه الله تعالى أول من حلف بالله تعالى كاذبا فلما حلف ظن آدم ان أحدا لا يحلف بالله تعالى كاذبا فاغتر به (فدلاهما بغرور) أي خدعهما يقال ما زال يدلي لفلان بالغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل وقيل حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش (فلما ذاقا الشجرة) أي أكلا من ثمرها وفي ذلك دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى

معرفة طعمه اذ الذوق يدل على الاكل اليسير وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال قبل أزدرادهما أخذتهما العقوبة والعقوبة هى قوله تعالى (بدت) أى ظهرت (لهما سوآتهما) أى عوراتهما وتجافت عنهما الباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما وورى عنه من سوأة صاحبه بأن رأى قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره وكانا لا يريان ذلك وسمى كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه قال وهب كان لباسهما من النور يحول بينهما وبين النظر وقال قتادة كان ظفرا ألبسهما الله من الظفر لباسا فلما وقعا فى الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحييا (وطفقا) أى أقبلا وجعلا (يخصفان) أى يلزقان (عليهما من ورق الجنة) أى من ورق التين قال البغوى حتى صار كهيئة الثوب قال الزجاج يجعلان ورقة على ورقة ليستترا سوآتهما وروى عن أبى ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فى الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها ارسلينى فقالت لست بمرسلتك فناداه الله عز وجل يا آدم أمنى تفر فقال لا يارب ولكنى استحييتك (وناداهما) أى خاطبهما (ربهما) بقوله (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) أى عن الاكل من ثمرها (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) أى بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود تعنتا وحسدا وفى ذلك عتاب على مخالفة النهى وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ودليل على أن مطلق النهى للتحريم قال محمد بن قيس لما أكل آدم من الشجرة ناداه ربه يا آدم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى وقال لحواء لم أطعمت آدم قالت أمرتنى الحية وقال للحية لم أمرتيها قالت أمرنى ابليس قال الله تعالى أما أنت ياحواء فكما أدميت الشجرة فتدمين فى كل شهر وأما أنت ياحية فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا ابليس فملعون مدحور وفى رواية لابن عباس انه قال لحواء فانى أعطيتها أن لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أى ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك فان لم تتب علينا نستمر عاصين (وان لم تغفر لنا) أى تمحو ما عملنا عينا وأثرا (وترحمنا) أى فتعلى درجاتنا (لنكونن من الخاسرين) فى الارض فأعربت الآية انهما فزعا الى الانصاف وبالاعتراف بذنبهما وان كان انما هو خلاف الاولى لانه بطريق النسيان كما فى سورة طه قال قتادة قال آدم أرأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأل التوبة وسأل النظرة فاعطى كل واحد منهما ما سأله وقال الضحاك فى قوله تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا قال هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه تعالى وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ورد بأن درجة الانبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى فى اعلى الدرجات ولكن يؤاخذون بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاصى بالنسبة الى كمال طاعتهم لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصى غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم

وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله تعالى ذنوب بالنسبة الى أحوالهم فقالا ذلك على عادة المقربين فى استعظام الصغير من السيئات وتحقير العظيم من الحسنات وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة ومن جملة ذلك ان آدم انما أكل من الشجرة قبل النبوة (قال) الله تعالى (اهبطوا) أى آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة طه اهبطا بضمير التثنية (بعضكم) أى بعض الذرية (لبعض عدو) أى من ظلم بعضهم بعضا وقيل بعود الضمير لآدم وحواء وابليس وقيل لآدم وحواء وابليس والحية وعلى هذين فالعداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذرية كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض) أى جنسها (مستقر) أى موضع استقرار (و) لكم فيها (متاع) أى تمتع (الى حين) أى انقضاء آجالكم وقيل الى انقطاع الدنيا وعن ثابت البنانى رحمه الله تعالى لما اهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها خلى ملائكة ربى فانما أصابنى الذى أصابنى منك فلما توفى غسلته الملائكة بسرنديب بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب وحفروا له ولحدوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده (قال) الله تعالى (فيها) أى الارض (تحيون) أى تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) أى وفيها وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) أى يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء وقرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائى بفتح التاء وضم الراء والباقون بضم التاء وفتح الراء (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة من مطر ونحوه ونظيره قوله تعالى وأنزل لكم من الانعام وقوله تعالى وأنزلنا الحديد وقيل كل بركات الارض منسوبة الى السماء (يوارى) أى يستر (سوآتكم) أى عوراتكم روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لانطوف فى ثياب عصينا الله تعالى فيها وكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطوفون بالليل عراة قال قتادة كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت قال البيضاوى ولعله سبحانه ذكر قصة آدم تقدمة لذلك حتى نعلم ان انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من الشيطان وانه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم (وريشا) أى ولباسا تتجملون به والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لان الزينة غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال تعالى ولكم فيها جمال وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال وقال ابن عباس وريشا أى مالا يقال تريش الرجل تموّل ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسى وقسمه الى ساتر ومزين أتبعه اللباس المعنوى فقال (ولباس التقوى) قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله تعالى فى تعظيم المعنوى بقوله (ذلك خير) أى ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب لكونه أهم اللباسين لان نزعه يكشف العورة الحسية

والمعنوية فلو تجمل الانسان بأحسن الملابس وهو غير متق كان كله سوآت ولو كان متقيا وليس عليه الاخريقة ثوب توارى عورته كان فى غاية الجمال والكمال وأنشدوا فى المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

وقال قتادة لباس التقوى هو الايمان وقال الحسن هو الحياء لانه يبعث على التقوى وقال عثمان ابن عفان رضى الله عنه هو السمت الحسن وقال ابن الزبير هو خشية الله تعالى والعمل الصالح يشمل هذه الامور كلها وقرأ نافع وابن عامر والكسائى بنصب السين عطفا على لباسا والباقون بالرفع على الابتداء والخبر ذلك خير (ذلك) أى انزال اللباس (من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته (لعلهم يذكرون) فيعرفون نعمة الله فيتعظون ويتورعون عن القبائح وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها اظهارا للامتنة فيما خلق من اللباس ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة اظهارا واشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى (يابنى آدم) أى الذى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى ثم أسكنته جنتى وانزلته منها الى دار محنتى (لا يفتننكم) أى يضلنكم (الشيطان) أى البعيد المحترق بالذنوب أى لا تتبعوه فتفتتنوا فيمنعكم بذلك من دخول الجنة ويدخلكم النار (كما أخرج أبويكم من الجنة) بفتنته بعد ان كانا ساكنا ها وتمكنا فيها وتوطناها وقد علمتم ان الدفع أسهل من الرفع وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) حال من أبويكم أو من فاعل أخرج وانما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند اليه واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما فقال ابن عباس وقتادة كان لباسهما الظفر فلما أصابا المصيبة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه كان نورا يحول بينهما وبين النظر وتقدم بعض ذلك وقال مجاهد كان لباسهما التقوى وقيل كان لباسهما من ثياب الجنة قال بعض المفسرين وهذا أقرب لان اطلاق اللباس يطلق عليه وان النزع لا يكون الا بعد اللبس اه وتقدم الكلام على قوله (ليريهما سوآتهما انه) أى الشيطان (يراكم هو وقبيله) أى جنوده وقال ابن عباس قبيله ولده وقال أبو زيد نسله وانما أعاد الكناية فى قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهى الجماعة المجتمعة التى يقابل بعضها بعضا (من حيث لا ترونهم) أى للطافة أجسامهم أو عدم ألوانهم وعن ابن عباس انه قال ان الله تعالى جعلهم يجرون من ابن آدم مجرى الدم وجعل صدور بنى آدم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس فهم يرون بنى آدم وبنو آدم لا يرونهم وعن مجاهد قال ابليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وعن ابن دينار ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله تعالى ومنع الرؤية اذا كانوا على خلقتهم الاصلية والا فقد يرون عند تشكلهم بصورة حيوان أو طير أو غير ذلك فان للجن قوة التشكل وهذا أمر شائع ذائع وقد رؤى ابليس على صورة شيخ وتمثل لكثير من العباد على صورة حية بل قال شيخنا القاضى زكريا والحق جواز رؤيتهم حتى من تلك الجهة

كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض (انا جعلنا الشياطين أولياء) أي اعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) لما بينهم من التناسب في الطباع (واذا فعلوا فاحشة) كالشرك وطوافهم بالبيت عراة فنهوا عنه (قالوا) معللين لارتكابهم اياها بأمرين أحدهما قولهم (وجدنا عليها) أي الفاحشة (آباءنا) فاقتدينا بهم والثاني قولهم (والله أمرنا بها) افتراء عليه سبحانه وتعالى فاعرض الله تعالى عن الاول لظهور فساده ورد عن الثاني بقوله (قل) لهم يا محمد (ان الله لا يأمر بالفحشاء) لان عادته سبحانه وتعالى جرت على الامر بمحاسن الافعال والحث على مكارم الخصال (أتقولون على الله ما لا تعلمون) انه قاله فانكم لم تسمعوا كلام الله من غير واسطة ولا أخذتموه عن الانبياء الذين هم وسايط بين الله وبين عباده وهو استفهام انكاري يتضمن النهي عن الافتراء على الله وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء في الوصل والباقون بالتحقيق (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يقولون ذلك (أمر ربي بالقسط) أي بالعدل وهو الوسط من كلام المتجافي عن طرفي الافراط والتفريط وقال ابن عباس بلا اله الا الله (وأقيموا) أي وقل لهم أقيموا (وجوهكم) لله (عند كل مسجد) أي اخلصوا له سجودكم (فان قيل) قل أمر ربي خبر وأقيموا وجوهكم أمر وعطف الامر على الخبر لا يجوز (أجيب) بأن فيه اضمارا وحذفا تقديره قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا كما تقدم تقديره فحذف قل لدلالة الكلام عليه وقيل معنى الآية وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة الى الكعبة وقيل معناه صلوا في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم (وادعوه) أي اعبدوه (مخلصين له الدين) أي الطاعة ولا تشركوا به شيأ فان اليه مصيركم و (كما بدأكم) أي كما أنشأكم ابتداء (تعودون) أي يعيدكم احياء يوم القيامة حالة كونكم فريقين (فريقا هدى) أي خلق الهداية في قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية (وفريقا حق) أي ثبت ووجب (عليهم الضلالة) اي بمقتضى القضاء السابق وقيل ان الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم كافرا ومؤمنا وقيل يبعثون على ما كانوا عليه روى انه صلى الله عليه وسلم قال يبعث كل عبد على ما مات عليه المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقيل من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار اليها وان عمل عمل أهل السعادة كما أن ابليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة صار اليها وان عمل عمل أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا يعملون عمل أهل الشقاوة فصاروا الى السعادة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وانه من أهل النار وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وانه من أهل الجنة وانما الاعمال بالخواتيم وانتصاب فريقا بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقا وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) أي دونه تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالهم (ويحسبون) أي يظنون (انهم) مع ضلالهم (مهتدون) أي على هداية وحق وفيه دليل على ان

الكافر الذى يظن انه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء (يابنى آدم خذوا زينتكم) أى مايستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة (عند كل مسجد) أى كلما صليتم أو طفتم وكانوا يطوفون عراة وعن طاوس رحمه الله لم يأمرهم بالحرير والديباج وانما أحدهم كان يطوف عريانا ويضع ثيابه وراء المسجد وان طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه لانهم قالوا لانعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها وقيل تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب وقيل الزينة المشط وقيل الطيب والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وكان بنو عامر فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام الاقوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون فانا أحق أن نفعل فقيل لهم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) بتحريم الحلال أو بالتعرى فى الطواف أو بافراط الطعام أو الشره عليه وعن ابن عباس رضى الله عنهما كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وروى أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد ليس فى كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان علم الابدان وعلم الاديان فقال له قد جمع الله تعالى الطب كله فى نصف آية من كتابه فقال وماهى قال قوله تعالى وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فقال النصرانى ولا يؤثر عن نبيكم شئ فى الطب فقال جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة قال وماهى قال قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء فأعط كل بدن ماعودته فقال النصرانى ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (انه لا يحب المسرفين) أى لا يرتضى فعلهم ففى الآية الوعيد الشديد على الاسراف (قل) يا محمد لهؤلاء الجهلة من الذين يطوفون بالبيت عراة (من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) من الثياب كل ما يتجمل به فيدخل تحته انواع الملبوس والحلى ولولا النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير للرجال لدخل فى هذا العموم ولكن ورد النص فى تحريمه على الرجال دون النساء (و) قل أيضا لهؤلاء الجهلة الذين كانوا لا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم من حرم (الطيبات من الرزق) التى أخرج لعباده وخلقها لهم فيدخل تحت ذلك كل مايستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما ورد نص بتحريمه وقد دلت الآية على أن الاصل فى الملابس وأنواع التجملات والمطاعم الاباحة الا ماورد النص بخلافه لان الاستفهام فى من للانكار (قل هى) أى الزينة والطيبات (للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) أى بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها فتبع ولذا لم يقل تعالى للذين آمنوا وغيرهم (خالصة يوم القيامة) لايشاركهم فيها غيرهم وقرأ نافع برفع التاء على أنها خبر بعد خبر والباقون بالفتح على الحال (كذلك) أى مثل هذا التفصيل البديع (نفصل الآيات) أى نبين احكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض (لقوم يعلمون) أى يتدبرون فانهم المنتفعون بها (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات من الرزق وغير ذلك مما أحل الله تعالى (انما حرم ربى الفواحش) أى الكبائر والكبيرة ماتوعد عليها بنحو لعن أو غضب بخصوصها فى الكتاب أو السنة غالبا كالزنا جمع فاحشة (ماظهر منها ومابطن) أى جهرها وسرها وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها

(و) حرم (الاثم) أى الصغائر وهى ماعدا الكبائر كالنظر الى بدن أجنبية (و) حرم (البغى) على الناس أى الظلم أو الكبر وأفرده بالذكر مع انه من الكبائر للمبالغة وقوله تعالى (بغير الحق) متعلق بالبغى مؤكد له معنى (و) حرم (أن تشركوا بالله مالم ينزل به) أى بالاشراك (سلطانا) أى حجة وفى ذلك تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم مالم يدل عليه برهان وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد (و) حرم (أن تقولوا على الله مالا تعلمون) فى تحريم مالم يحرم وغيره (ولكل أمة أجل) أى وقت معلوم وفى ذلك وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عند الله كما نزل بالامم الماضية (فاذا جاء أجلهم) أى حان وقتهم (لايستأخرون ساعة) عنه (ولا يستقدمون) ساعة عليه وانما ذكرت الساعة وان كان دونها كذلك لانها أقل اسم للاوقات فى العرف وذلك حين سألوا نزول العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وورش وقنبل سهلا الثانية وابدلاها حرف مد والباقون بالتحقيق فيهما (يابنى ادم اما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (يأتينكم رسل منكم) أى من نوعكم من عند ربكم (يقصون عليكم آياتى) أى يقرؤن عليكم كتابى وأدلة أحكامى وشرائعى التى شرعت لعبادى وجواب الشرط قوله تعالى (فمن اتقى) الشرك ومخالفة رسلى (وأصلح) عمله الذى أمرته به رسلى فعمل بطاعتى وتجنب معصيتى ومانهيت عنه (فلا خوف عليهم) حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولاهم يحزنون) أى يتجدد لهم فى وقت ما حزن على شئ فاتهم لان الله يعطيهم ماتقر به أعينهم (والذين كذبوا بآياتنا) أى جحدوها وكذبوا رسلنا (واستكبروا) أى تكبروا (عنها) أى عن الايمان بها الآن كل مكذب وكافر متكبر قال تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون (أولئك) هؤلاء البعداء البغضاء (أصحاب النار هم فيها خالدون) أى لايخرجون منها أبدا وادخال الفاء فى خبر المبتدا الاول دون خبر الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد (فمن) أى لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى بنسبة الشريك والولد اليه أو قال عليه مالم يقله (أو كذب بآياته) أى القرآن (أولئك ينالهم) أى يصيبهم (نصيبهم) أى حظهم (من الكتاب) أى مما كتب لهم فى اللوح المحفوظ من الرزق والاجل وغير ذلك (حتى اذا جاءتهم) أى هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب (رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) بقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم وقوله تعالى (قالوا) جواب اذا أى قال الرسل لهم تبكيتا وتوبيخا وتقريعا (أين ما كنتم تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم مانزل بكم وقيل ان هذا يكون فى الآخرة أى اذا جاءتهم ملائكة العذاب يتوفونهم أى يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار (قالوا) أى الكفار مجيبين للرسل (ضلوا) أى غابوا (عنا) وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم) أى بالغوا فى الاعتراف عند الموت أو عند معاينة العذاب (انهم كانوا كافرين) أى جاحدين وحدانية الله تعالى (قال) الله تعالى لهم يوم القيامة أو أحد من الملائكة (ادخلوا فى أمم) أى فى جملة جماعات وفرق أم بعضها بعضا (قد خلت) أى مضت

وسلفت (من قبلكم من الجن والانس) أى كفار الامم الماضية من الفريقين وقوله تعالى (فى النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) أى جماعة النار (لعنت أختها) أى التى ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا) أى تلاحقوا واستقروا (فيها) أى النار (جميعا قالت أخراهم) أى منزلة أو دخولا وهم الاتباع (لاولاهم) أى لاجلهم وهم المتبعون اذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم (ربنا هؤلاء) أى الاولون (أضلونا) أى لانهم أول من سن الضلال وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء فى الوصل والباقون بالتحقيق (فآتهم) أى أذقهم بسبب ذلك (عذابا ضعفا) أى يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين لانهم ضلوا وأضلوا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ومنه لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل ثم أكد واشدة العذاب بقولهم (من النار قال) الله تعالى (لكل) أى منكم ومنهم (ضعف) أى عذاب مضعف أما القادة فبكفرهم وتضليلهم واما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم لهم (ولكن لا تعلمون) أى ما أعد الله تعالى لكل فريق من العذاب وقرأ شعبة يعلمون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (وقالت أولاهم) أى فى الكفر وهم القادة (لاخراهم) أى الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) أى لانكم لم تكفروا بسببنا فقد جاءتكم الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالكم وكفركم فنحن وأنتم سواء قال الله تعالى لهم (فذوقوا العذاب بما) أى بسبب ما (كنتم تكسبون) أى من الكفر والاعمال الخبيثة (ان الذين كذبوا بآياتنا) أى بدلائل التوحيد فلم يصدقوا ولم يتبعوا رسلى (واستكبروا عنها) أى وتكبروا عن الايمان بها والانقياد لها والعمل بمقتضاها (لا تفتح لهم أبواب السماء) لصعود أعمالهم ولا لدعائهم ولا لارواحهم ولا لنزول البركات عليهم لانها طاهرة عن الارجاس الحسية والمعنوية فاذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الابواب دونها ثم ألقيت من هنالك الى سجين بخلاف المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه الى السماء السابعة كما ورد فى حديث وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بسكون الفاء وتخفيف التاء بعدها الا أن أبا عمرو يقرأ بالتاء على التأنيث وحمزة والكسائى بالياء على التذكير وقرأ الباقون بالتأنيث وفتح الفاء وتشديد التاء بعدها (ولا يدخلون الجنة) أى التى هى أطهر المنازل وأشرفها (حتى) يكون ما لا يكون بان (يلج) أى يدخل (الجمل) على كبره (فى سم الخياط) أى ثقب الابرة وهو غير ممكن فكذا دخولهم الجنة فهو تعليق على محال وعن ابن مسعود انه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة استجهالا للسائل واشارة الى أن طلب معنى آخر تكلف (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب وهوان دخولهم الجنة محال عادة (نجزى المجرمين) أى الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار * ولما بين تعالى أن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد الله لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) أى فراش وأصل المهاد والمهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالبساط (ومن فوقهم غواش)

أى أغطية من النار جمع غاشية والتنوين فيه عوض عن الياء التى هى حرف علة وقيل عن حركتها (وكذلك نجزى الظالمين) عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى اشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الاوصاف الذميمة وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الاجرام وقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدا وقوله تعالى (لانكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها من العمل اعتراض بينه وبين خبره وهو (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وانما حسن وقوع ذلك بين المبتدا والخبر لانه من جنس هذا الكلام لان الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح دل ذلك على أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها وعلو محلها يوصل اليها بالعمل السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة وأتبع الوعيد بالوعد على عادته فقال تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى غش وعداوة كانت بينهم فى الدنيا فمن كان فى قلبه على أخيه غل فى الدنيا نزع فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم الا التوادد والتعاطف وعن على رضى الله عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لاحدهم أهدى بمنزلة فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا وقال السدى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فنزع ما فى صدورهم من غل وهو الشراب الطهور واغتسلوا من الآخر فجرت عليهم بنضرة النعيم فلا يشعثوا ولا يشحنوا بعدها أبدا وقيل ان درجات الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض فأخرج الله تعالى الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة العالية (تجرى من تحتهم الانهار) أى من تحت قصورهم زيادة فى لذتهم وسرورهم (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى لولا هداية الله وتوفيقه واللام لتوكيد النفى وجواب لولا محذوف دل عليه قوله تعالى وما كنا لنهتدى وتقديره لولا هداية الله لنا موجودة لشقينا أو ما كنا مهتدين وقرأ ابن عامر بحذف الواو وقيل ما والباقون بالواو واذا دخل أهل النعيم الجنة ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من النعيم قالوا (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فاهتدينا بارشادهم يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا وتلذذوا بالتكلم به وتبجحا بأن ما علموه يقينا فى الدنيا صار لهم عين اليقين فى الآخرة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام (ونودوا) اذا رأوها من بعيد أو بعد دخولها والمنادى هو الله تعالى أو الملائكة ينادون بأمر الله تعالى (أن تلكم الجنة) التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا وروى أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا
وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا
فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله تعالى ونودوا أن تلكم الجنة (أورثتموها) أى أعطيتموها
(بما كنتم تعملون) أى بسبب أعمالكم الصالحة التى عملتموها لان الجنة جعلت جزاء وثوابا
لكم على الاعمال الصالحة ولا يعارض هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يدخل
الجنة أحد بعمله انما يدخلونها برحمة الله تعالى فان الباء فى الحديث للعوض وهى الداخلة على
الاثمان نحو شريت الفرس بألف فلا تكون الجنة مشتراة له بعمله فيكون عمله ثمنا لها
أو ان دخول الجنة برحمة الله واقتسام الدرجات بالاعمال أو أن العمل الصالح لن يناله المؤمن
وان يبلغه الا برحمة الله وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة فى
الحقيقة برحمة الله وجعلها الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التى عملوها فى
دار الدنيا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد الا وله منزل فى الجنة ومنزل
فى النار فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من الجنة والمؤمن يرث الكافر منزله من النار وأن فى
المواضع الخمسة التى فيها المناداة والتأذين هى المخففة أو المفسرة لان المناداة والتأذين من
القول وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام
(ونادى أصحاب) أى أهل (الجنة أصحاب) أى أهل (النار) أى تقول أهل الجنة يا أهل النار
(أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا) أى فى الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الايمان به وبرسله
وطاعته (حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم) أى من العذاب على الكفر (حقا قالوا) أى قال
أهل النار مجيبين لاهل الجنة (نعم) وجدنا ذلك حقا وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل
الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار (فان قيل) الجنة فى السماء والنار فى الارض فكيف يصح
أن يقع هذا النداء (أجيب) بأن الله قادر على أن يقوى الاصوات والاسماع فيصير البعيد
كالقريب (فان قيل) هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض
(أجيب) بأن ظاهر الآية العموم ويحتمل أن كل واحد من أهل الجنة ينادى من كان يعرف
من الكفار فى دار الدنيا والله أعلم بحقيقة ذلك وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح
وهما لغتان (فأذن مؤذن) أى وهو اسرافيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس وقيل واحد
من الملائكة وأصل الاذان فى اللغة الاعلام والمعنى نادى مناد (بينهم) أى الفريقين
أسمعهم (أن لعنة الله على الظالمين) وقرأ البزى وابن عامر وحمزة والكسائى بتشديد أن
ونصب التاء والباقون بتخفيف أن ورفع التاء ثم فسر الظالمين منهم بقوله تعالى (الذين يصدون
عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن الدخول فى دين الاسلام (ويبغونها) أى يطلبون السبيل
(عوجا) أى معوجة قال ابن عباس يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله والعوج بكسر
العين فى الدين والامر وكل ما لم يكن قائما وبالفتح فى كل ما كان قائما كالحائط والرمح (وهم
بالآخرة كافرون) أى بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها (وبينهما) أى أهل الجنة

واهل

وأهل النار (حجاب) لقوله تعالى فضرب بينهم بسور أو بين الجنة والنار ليمتنع وصول أثر
احداهما الى الاخرى (وعلى الاعراف) وهو سور الجنة جمع عرف وهو المكان المرتفع ومنه
عرف الديك لارتفاعه على ماسواه من جسده وقال السدى سمى ذلك السور اعرافا لان أصحابه
يعرفون الناس أى أهل الجنة والنار (رجال) أى طائفة من الموحدين استوت حسناتهم
وسيآتهم كما فى الحديث فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار
فوقفوا هنالك حتى يقضى الله تعالى فيهم مايشاء ثم يدخلون الجنة بفضل الله تعالى ورحمته وهم
آخر من يدخل الجنة وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن
كانت حسناته أكثر من سيآته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر من حسناته
بواحدة دخل النار ثم قرأ قوله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت
موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ثم قال ان الميزان تخف بمثقال حبة أو ترجح قال ومن
استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف وقيل هم قوم خرجوا الى الغزو بغير اذن
آبائهم فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم فى سبيل الله وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم
آخر من يدخل الجنة وقيل هم الذين ماتوا فى الفترة ولم يبدلوا دينهم وقيل هم أطفال
المشركين (يعرفون) أى أصحاب الاعراف (كلا) من أهل الجنة والنار (بسيماهم) أى
بعلاماتهم وهى بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم اذ موضعهم عال
(ونادوا) أى ونادى أصحاب الاعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) اذا نظروا اليهم سلموا
عليهم (لم يدخلوها) أى أصحاب الاعراف الجنة (وهم يطمعون) فى دخولها قال الحسن
لم يطمعهم الا لكرامة يريدها بهم وروى الحاكم عن حذيفة قال بينماهم كذلك اذ طلع عليهم ربك
فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم وقال مجاهد أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء
علماء وعلى هذا انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم
وحكى ابن الانبارى أنهم أنبياء وعلى هذا انما أجلسهم على ذلك العالى تمييزا لهم على أهل
القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على
أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار وقال أبو مجلز هم ملائكة يرون فى
صورة الرجال والاقوال الاول تدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة فى الدرجات
وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله والاقوال الاخيرة تدل على أنهم أفضل من أهل الجنة لانهم
أعلى منهم منزلة وأفضل (واذا صرفت أبصارهم) أى أصحاب الاعراف (تلقاء) أى جهة
(أصحاب النار) فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وماهم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع
القوم الظالمين) أى الكافرين فى النار قال ابن عباس ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى
أصحاب النار وماهم فيه تضرعوا الى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم وقرأ قالون وأبو عمرو
والبزى باسقاط الهمزة الاولى وأبدلها ورش وقنبل حرف مد وسهلاها والباقون بالتحقيق
(ونادى أصحاب الاعراف رجالا) أى كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم)

أى بسيما أهل النار (قالوا) أى أصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ما أغنى عنكم جمعكم) أى ما كنتم تجمعون من الاموال فى الدنيا أو كثرتكم واجتماعكم فيها (وما كنتم تستكبرون) أى وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبى ينادونهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان الفارسى وخبيب وصهيب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لهؤلاء الكفار (أهؤلاء) لفظ استفهام أى أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) أى حلفتم بالله (لا ينالهم الله برحمة) أى لا يدخلون الجنة وقد قيل لهم (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل أصحاب الاعراف اذا قالوا لاهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار ان دخل هؤلاء فأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون أنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة الذين حبسوا أهل الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وهذا ظاهر على الاقوال الاول وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر تنوين رحمة فى الوصل وابن ذكوان بوجهين الضم والكسر والباقون بالضم (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) أى صبوه وهو دليل على أن الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) أى من سائر الاشربة ليلا ئم الافاضة لان الافاضة ملائمة للماء وسائر المائعات فحملت الافاضة على افاضة جميع المائعات أو من سائر المشروب والمأكول بتضمين أفيضوا ألقوا كقوله

علفتها تبنا وماء باردا * حتى غدت همالة عيناها

أى فائضة عيناها (قالوا) أى أهل الجنة مجيبين لهم (ان الله حرمهما) أى منعهما (على الكافرين) أى منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله *حرام على عينى أن تطعم الكرا* وقيل لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الاكل والشرب وعذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الاكل والشرب فأجيبوا بأن الله تعالى حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ثم وصف الله تعالى الكافرين بقوله (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم وهزؤا به واللهو هو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف له واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به (وغرتهم الحياة الدنيا) أى وخدعهم عاجل ما هم فيه من رغد العيش والدعة وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسوله ومن الاخذ بنصيبهم فى الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الانسان فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقيل الجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق فى الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) أى يوم القيامة (ننساهم) أى نتركهم فى النار ونعرض

عنهم فلا نجيب دعاءهم ولا نرحم ضعفهم (كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناسين فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا له وأعرضوا عن الايمان فقابل الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لا ينسى شيأ فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى وما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى (ولقد جئناهم) أى هؤلاء الكفار (بكتاب) أى قرآن أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه) أى بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ مفصلة (على علم) أى عالمين وجه تفصيله وقوله تعالى (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى به حال من منصوب فصلناه كما ان على علم حال من مرفوعه (هل ينظرون) أى ما ينظرون (الا تأويله) أى الا عاقبة أمره وما يؤول اليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله) أى يوم القيامة لانه يوم الجزاء (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه ترك الناسى (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين لهم واعترفوا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من الايمان والحشر والنشر والبعث والثواب والعقاب حق حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف * ولما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو نرد) أى أوهل نرد الى الدنيا وقولهم (فنعمل غير الذى كنا نعمل) فيها فنبدل الكفر بالايمان والتوحيد والمعاصى بالطاعة والانابة جواب الاستفهام الثانى (قد خسروا أنفسهم) أى اذ صاروا الى الهلاك لانهم كانوا فى الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله فيهم (وضل) أى ذهب (عنهم ما كانوا يفترون) أى من دعوى الشريك فلم ينفعهم (ان ربكم) أى سيدكم ومولاكم ومصلح أموركم وموصل الخيرات اليكم ودافع المكاره عنكم هو (الله الذى خلق السموات والارض) أى ابتدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق (فى ستة أيام) أى من أيام الدنيا وقيل من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة (فان قيل) اليوم من أيام الدنيا عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار من طلوع الشمس الى غروبها ولم يكن اذ ذاك شمس ولا قمر ولا سماء (أجيب) بأن معنى ذلك فى مقدار ستة أيام فهو كقوله تعالى لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أى على مقادير البكر والعشى فى الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار قال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض فى لمحة ولحظة فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الامور وقد جاء فى الحديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتدأ الله خلق الاشياء فيه فقيل هو يوم السبت لخبر مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق الله آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار فيما بين العصر الى الليل وقيل يوم الاحد لقول بعضهم سمى يوم الاثنين لانه ثانى الايام والخميس لانه خامس الايام قال الاسنوى والصواب الاول للخبر المذكور (ثم استوى على

العرش) أى استوى أمره وقال أهل السنة الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب الايمان به ونكل فيه العلم الى الله تعالى والمعنى أن له سبحانه وتعالى استواء على العرش على الوجه الذى عناه منزه عن الاستقرار والتمكن وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فأطرق رأسه مليا وعلاه الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك الا ضالا ثم أمر به فأخرج وروى عن سفيان الثورى والاوزاعى والليث بن سعد وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت اقرؤها بلا كيف واجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية والعرش فى اللغة السرير قال كعب ان السموات فى العرش كالقنديل معلقا بين السماء والارض وقال الطائى العرش ياقوتة حمراء وشذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة الى التجوز مع مخالفة الاثر ألم يسمعوا قوله تعالى وكان عرشه على الماء أتراه كان الملك على الماء وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء وبعضهم يقول استوى بمعنى استولى ويحتج بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر هما استويا بفضلهما جميعا * على عرش الملوك بغير زور

وهذا منكر عند أهل اللغة قال ابن الاعرابى لا يعرف استولى فلان على كذا الا اذا كان بعيدا منه غير متمكن منه ثم تمكن منه والله تعالى لم يزل مستوليا على الاشياء والبيتان قال ابن فارس اللغوى لا يعرف قائلهما ولو صحا لا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة وقيل هو ما علا فأظل ومنه عرش الكرم (يغشى الليل النهار) أى يغطيه ولم يذكر عكسه اما للعلم به واما لان اللفظ يحتملهما بأن يكون المعنى بأنه يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل وقرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين (يطلبه) أى يطلب كل منهما الآخر طلبا (حثيثا) اى سريعا فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل أن يكون حالا من الفاعل بمعنى حاثا أو المفعول بمعنى المحثوث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) أى مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب ارادة المدبر لهن (بأمره) أى بقضائه وتصريفه وقرأ ابن عامر برفع الاربعة على الابتداء والخبر والباقون بالنصب عطفا على السموات ومسخرات منصوب بالكسرة (ألا له الخلق والامر) كله فانه الموجد والمتصرف فى ذلك وفى هذا رد على من يقول ان الشمس والقمر والكواكب تخلق له الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره فهو الآمر والناهى الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه واستخرج سفيان بن عيينة من هذا ان كلام الله تعالى ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر أى ان جعل الامر وهو كلامه من جملة ما خلقه فهو كفر لان المخلوق لا يقوم الا بمخلوق (تبارك الله رب العالمين) أى تعالى بالوحدانية وتعظم بالتفرد فى الربوبية قال البيضاوى وتحقيق الآية والله

اعلم

أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين الله تعالى لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لانه الذى له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فابدع الافلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وعمد الى ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيآت المختلفة ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى خلق الارض فى يومين أى ما فى جهة السفل فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة أى وهى النبات والحيوان والمعدن بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال تعالى بعد قوله خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الاولين اللذين خلق فيهما السموات لقوله تعالى فى سورة السجدة الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة فدبر الامر من السماء الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والايام ثم صرح بما هو نتيجة ذلك فقال ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم أمرهم أن يدعوه متذللين مخلصين بقوله تعالى (ادعوا ربكم) لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لان الداعى لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعى فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) أى ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل فى النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع (وخفية) أى سرا فى أنفسكم وهو ضد العلانية والادب فى الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم قال أبو موسى وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا بالله فى نفسى فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى قال لا حول ولا قوة الا بالله وقال الحسن بين دعوة السر والجهر سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء لا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية فان الله تعالى أثنى على زكريا عليه الصلاة والسلام فقال اذ نادى ربه نداء خفيا وعن الحسن أيضا ان الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفى ان كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر الناس به وان كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الارض من عمل يقدرون أن يفعلوه فى السر فيكون علانية أبدا (انه) تعالى (لا يحب المعتدين) أى المجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره نبه به على أن الداعى ينبغى له أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الانبياء عليهم الصلاة

والسلام والصعود الى السماء روى أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم انى أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال يابنى أسأل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء وقيل أراد به الاعتداء فى الجهر قال ابن جريج من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح وعنه صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لايحب المعتدين (ولاتفسدوا فى الارض) أى بالشرك والمعاصى (بعد اصلاحها) أى ببعث الرسل وشرع الاحكام وقيل لاتفسدوا فى الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم وعلى هذا فمعنى قوله تعالى بعد اصلاحها أى بعد اصلاح الله تعالى اياها بالمطر والخصب (وادعوه خوفا) منه ومن عذابه (وطمعا) أى فيما عنده من مغفرته وثوابه وقال ابن جريج خوف العدل وطمع الفضل (ان رحمت الله قريب من المحسنين) أى المطيعين وفى ذلك ترجيح الطمع وتنبيه على مايتوسل به الى الاجابة وتذكير قريب المخبر به عن رحمة لاضافتها الى الله تعالى وقال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تأنيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وقيل ذكره للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التأنيث فى الاول فيقال فيه فلانة قريبة منى ويجوز فى الثانى فيقال فلانة قريبة وقريب منى فى المكان وكون الرحمة قريبا من المحسنين لان الانسان فى كل ساعة من الساعات فى ادبار من الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك كان الموت أقرب اليه من الحياة وليس بينهم وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان *(فائدة)* رحمت تكتب بالتاء المجرورة فوقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وأمالها الكسائى فى الوقف وقوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح) عطف على ماقبله والمعنى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وهو الذى يرسل الرياح وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالتوحيد والباقون بالجمع (نشرا بين يدى رحمته) أى متفرقة قدام المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا وقرأ عاصم بالباء الموحدة وسكون الشين أى مبشرا وحمزة والكسائى بالنون مفتوحة وسكون الشين على انه مصدر فى موضع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان وابن عامر بالنون مضمومة وسكون الشين تخفيفا والباقون بضم النون والشين جمع نشور بمعنى ناشر (حتى اذا أقلت) أى حملت الرياح (سحابا ثقالا) أى بالمطر يقال أقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا (سقناه) أى السحاب وافراد الضمير باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل على اللفظ على الوصف لقيل ثقيلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء قال السدى ان الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح فتأتى

بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه ثم تنشره فتبسطه في السماء كما يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك (لبلد ميت) لا نبات فيه أى لاحيائه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بتخفيف الياء والباقون بالتشديد (فأنزلنا به) أى بالبلد أو السحاب (الماء فأخرجنا به) أى بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات (من كل الثمرات) أى من كل أنواعها قال الازهرى قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى البلد هو كل موضع من الارض عامرا وغير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد (كذلك) أى مثل هذا الاخراج (نخرج الموتى) أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودرس آثارهم (لعلكم تذكرون) أى لكى تعتبروا وتتذكروا والخطاب لمنكرى البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهى مزهرة مورقة مثمرة فى أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الاوراق والثمار ثم ان الله أحياها مرة أخرى فالقادر على احيائها بعد موتها قادر على أن يحيى الاجساد بعد موتها قال أبو هريرة وابن عباس رضى الله تعالى عنهم اذا مات الناس كلهم فى النفخة الاولى أرسل الله تعالى عليهم مطرا كمنى الرجال من ماء تحت العرش فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون فى قبورهم ثم يحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم فى رؤسهم وأعينهم فعند ذلك يقولون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقرأ حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (والبلد الطيب) أى والارض الكريمة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) أى بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانها وقعت فى مقابلة (والذى خبث) أى والبلد الذى خبث أرضه فهى سبخة (لا يخرج) نباته (الا نكدا) أى عسرا بمشقة وكلفة قال المفسرون وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الطيبة وشبه نزول القرآن على قلبه بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الازهار والاثمار فكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهر منه الطاعات والعبادات وأنواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التى لا ينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها فى الآخرة وقيل هو مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم طيب ومنهم خبيث (كذلك) أى كما بينا ما ذكر (نصرف) أى نبين (الآيات) الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين ينتفعون بسماع القرآن * ولما ذكر الله تعالى فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الادلة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم فقال (لقد) جواب قسم محذوف تقديره والله لقد (أرسلنا نوحا) عليه السلام (الى قومه) ولا تكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة

التوقع فان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد ادريس وكان نجارا بعثه الله تعالى الى قومه وهو ابن خمسين سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقال ابن عباس سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعبتنى أو أعبت الكلب وفى ذكر القصص تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه عن قبول الحق فقط بل قد أعرض عنه غالب الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت للخسار والهلاك فى الدنيا والآخرة والعذاب الاليم فمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبلهم من الامم المكذبة وفيه دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه وقد أتى بمثل هذه القصص والاخبار عن القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه أحد فعلم بذلك أنه انما أتى من عند الله وانه أوحى اليه بذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم (فقال) نوح حال ارساله لقومه (يا قوم اعبدوا الله) أى اعبدوه وحده لقوله تعالى (ما لكم من اله غيره) فانه الذى يستحق العبادة لا غيره وقرأ الكسائى بكسر الراء والهاء على أنه صفة لاله والباقون برفعهما على البدل من محله (انى أخاف عليكم) ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم نزول الطوفان واهلاككم فيه وقال اخاف على الشك وان كان يقينا من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (قال الملأ من قومه) أى الاشراف منهم فانهم يملؤن العيون منظرا (انا لنراك فى ضلال) أى خطا وزوال عن الحق (مبين) أى بين (قال) نوح مجيبا لهم (يا قوم ليس بى ضلالة) أى ليس بى شئ مما تظنون من الضلال (فان قيل) لم لم يقل ليس بى ضلال كما قالوا (أجيب) بأن الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كما لو قيل ألك ثمر فقلت مالى ثمرة فقد بالغ فى النفى كما بالغوا فى الاثبات وقوله تعالى (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك باعتبار ما يلزمه وهو كونه كانه قال ولكنى على هدى فى الغاية لانى رسول الله (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم) والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه ويقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وانما وقعت خالصة للمنصوح له مقصودا بها جانبه لا غير فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعا ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسوله وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه وقال بعض المفسرين والفرق بين ابلاغ نصيحة الرسالة وبين النصيحة

هو

هو أن تبليغ الرسالة ان يعلمهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهى أن يرغبهم فى قبول تلك الاوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام من الابلاغ كقوله تعالى لقد أبلغتكم رسالات ربى وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام من التبليغ كقوله تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى من صفات الله وأحوال قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين وقوله تعالى (أوعجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف أى أكذبتم وعجبتم (ان جاءكم) أى من أن جاءكم (ذكر) أى موعظة (من ربكم على رجل) أى على لسان رجل (منكم) أى من جنسكم أو من جملتكم تعرفون نسبه وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) أى لاجل أن ينذركم عاقبة الكفر والمعاصى (ولتتقوا) أى ولاجل أن تتقوا الله (ولعلكم ترحمون) بالتقوى ان وجدت منكم لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة وفائدة حرف الترجى التنبيه على أن التقوى غير موجبة والرحمة من الله تعالى محض تفضل وان المتقى ينبغى أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله (فكذبوه) أى نوحا (فأنجيناه والذين) آمنوا به (معه) من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه الثلاثة سام وحام ويافث وستة ممن آمن به وقوله تعالى (فى الفلك) متعلق بمعه كأنه قيل والذين استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فى الفلك أو بأنجيناه أى أنجيناهم فى السفينة من الطوفان (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (انهم كانوا قوما عمين) أى عمى القلوب عن الحق غير مستبصرين يقال رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر وأنشدوا قول زهير

وأعلم علم اليوم والامس قبله * ولكننى عن علم مافى غد عم

(والى عاد) أى وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهى عاد الاولى (أخاهم هودا) أى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح وقيل هو ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام واختلف فى سبب الاخوة من أين حصلت على وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفى هذا القدر فى تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم يبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن والوجه الثانى ان أخاهم بمعنى صاحبهم والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذى عند عمان وحضرموت (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوه ولا تجعلوا معه الها آخر (مالكم من اله غيره) (فان قيل لم حذف العاطف من قوله قال ولم يقل فقال كما فى قصة نوح (أجيب) بأن هذا على تقدير سؤال

سائل قال فقال لهم هود فقيل قال ياقوم وقيل ان نوحا كان مواظبا على دعوته قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح فى المبالغة فى الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره (أفلا تتقون) الله أى أفلا تخافون عقابه فتؤمنون ولما كانت هذه القصة معطوفة على قصة نوح وقد علم ماحل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون أى أفلا تخافون مانزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شئ حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة) أى فى حمق وجهالة وضلالة عن الصواب (فان قيل) لم قال قوم نوح انا لنراك فى ضلال مبين وقوم هود انا لنراك فى سفاهة (أجيب) بأن نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة فى أرض ليس فيها من الماء شئ قال له قومه انا لنراك فى ضلال مبين حيث تتعب فى اصلاح سفينة فى هذه الارض وأما هود عليه السلام لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك فى سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) أى فى ادعائك انك رسول من رب العالمين (قال) هود لهؤلاء الملا الذين نسبوه الى السفه (ياقوم ليس بى سفاهة) أى ليس الامر كما تزعمون ان بى سفاهة (ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى) أى أؤدى اليكم ما أرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) أى فيما آمركم به من عبادة الله تعالى (أمين) أى مأمون على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه (فان قيل) لم قال نوح وأنصح لكم بصيغة الفعل وقال هود وأنا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل (أجيب) بأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله تعالى عنه بقوله رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين (فان قيل) مدح الذات بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء (أجيب) بأنه فعل هود ذلك لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم فى قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين فى تبليغ ما أرسل به من عند الله وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه فى موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) سبق تفسيره *(تنبيه)* فى اجابة الانبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والاعراض عن مقالتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة وهكذا ينبغى لكل ناصح (واذكروا) نعمة الله عليكم (اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم فى الارض أو جعلكم ملوكا فى الارض فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج وهو موضع بالبادية بها رمل الى شحر عمان وهو بفتح الشين المعجمة وكسرها وبالحاء المهملة ساحل البحر بين عمان وعدن (وزادكم فى الخلق بسطة) أى طولا وقوة قال الجلال المحلى فى سورة الفجر كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع والقامة

القصير ستين ذراعا وقال أبو حمزة اليمانى سبعون ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانون ذراعا وقال مقاتل كان طول كل رجل اثنى عشر ذراعا أخرج ابن عساكر عن وهب بذراعهم أى على الاقوال كلها وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل أى بعد موته تفرخ فيها الضباع وكذا مناخرهم وقرأ نافع والبزى وشعبة والكسائى بالصاد وأبو عمرو وهشام وقنبل وحفص وخلف بالسين وأما ابن ذكوان وخلاد فقرآ بالسين والصاد (فاذكروا آلاء الله) أى أنعمه أى اعملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بالنعيم المقيم فى الآخرة (قالوا) أى قوم هود مجيبين له (اجئتنا) يا هود (لنعبد الله وحده ونذر) أى نترك (ما كان يعبد آباؤنا) أى من الاصنام استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والاعراض عما أشرك به آباؤهم ومعنى المجىء فى أجئتنا امالان هودا كان معتزلا عن قومه كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم بحراء قبل البعثة فلما أوحى اليه جاء قومه يدعوهم أو يريدون به الاستهزاء لانهم كانوا يعتقدون ان الله تعالى لا يرسل الا الملائكة فكأنهم قالوا أجئتنا من السماء كما يجىء الملك أو ان المقصود على المجاز كما تقول ذهب يشتمنى ولا يراد حقيقة الذهاب (فأتنا بما تعدنا) أى من العذاب (ان كنت من الصادقين) أى فى قولك انى رسول الله (قال) هود مجيبا لهم (قد وقع عليكم) أى نزل عليكم (من ربكم رجس) عقاب (وغضب) أى سخط (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها) أى وضعتموها (أنتم وآباؤكم) أى من عند أنفسكم والاستفهام للانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة فعبدوها من دون الله (ما نزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى حجة وبرهان لان المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل وانها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى امابانزال آية أو نصب دليل (فانتظروا) أى نزول العذاب بسبب تكذيبكم لى (انى معكم من المنتظرين) ذلك فأرسلت عليهم الريح العقيم (فأنجيناه) أى هودا (والذين معه) أى من المؤمنين (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) أى استأصلناهم وقوله تعالى (وما كانوا مؤمنين) عطف على كذبوا وروى ان قوم هود كانوا يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم هودا فكذبوا وازدادوا عتوا فأمسك الله تعالى القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس حينئذ مسلمهم وكافرهم اذا نزل بهم بلاء توجهوا الى البيت الحرام وطلبوا من الله تعالى الفرج فجهزوا الى الحرم قيل بن عنز ومرثد بن سعد فى سبعين من أعيانهم وكان بمكة اذ ذاك العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان له وكان اسم احداهما وردة والاخرى جرادة فتسميتهما جرادتين فيه تغليب والقينة الامة مغنية أو غير مغنية فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحى أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقال قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله فعلم القينتين معاوية هذه الابيات قيل وبحلك قم فهينم * والهينمة الصوت الخفى أى أخف

الدعاء* لعل الله يمنحنا غماما * والغمام هنا المطر

فيسقى أرض عاد ان عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

فلما غنتا به أزعجهم ذلك وقالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقاكم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا به وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود ومن معه من المؤمنين وأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا ويروى أن النبى من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اذا هلك قومه هاجر والصالحون معه الى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا وروى عن على رضى الله تعالى عنه ان قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل فى تلك البقعة (والى ثمود) أى وأرسلنا الى ثمود قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وكان مسكنهم الحجر وهو بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشأم الى وادى القرى واتفق القراء السبعة هنا على عدم صرف ثمود مرادا به القبيلة وقرئ مصروفا فى غير هذه السورة بتأويل الحى أو باعتبار الاصل وهو انه اسم لابيهم الاكبر أو للماء القليل (أخاهم صالحا) أى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح ابن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال) لهم صالح حين أرسله الله تعالى اليهم (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) أى فلا يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) أى معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتى وصدق ما أقول وادعو اليه من عبادة الله تعالى ثم فسر تلك البينة بقوله (هذه ناقة الله لكم آية) أى علامة على صدقى وآية نصبت على الحال عاملها مادل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل كأنه قال أشير اليها آية ولكم بيان لمن هى له آية موجبة عليه الايمان خاصة وهم ثمود لانهم عاينوها وسائر الناس أخبروا وليس الخبر كالمعاينة كأنه قال لكم خصوصا وانما أضيفت الى الله تعالى تعظيما لها وتفخيما لشأنها كما يقال بيت الله ولانها جاءت من عند الله تعالى بلا وسايط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية (فذروها) أى اتركوها (تأكل فى أرض الله) أى العشب فليست الارض لكم ولا ما فيها من النبات انباتكم (ولا تمسوها بسوء) أى بشئ من أنواع الاذى لا بعقر ولا بغيره وقوله (فيأخذكم عذاب أليم) أى بسبب أذاها جواب النهى (واذكروا اذ جعلكم خلفاء) فى الارض (من بعد عاد) أى

ان الله

ان الله تعالى أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم فى الارض وتعمرونها (وبوأكم) أى أسكنكم وأنزلكم (فى الارض) أى أرض الحجر (تتخذون من سهولها قصورا) أى تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين غالبا (وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتنقبون فى الجبال البيوت وكانوا فى الصيف يسكنون بيوت الطين وفى الشتاء بيوت الجبال وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بخفضها (فاذكروا آلاء الله) أى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها فانكم متنعمون مرفهون بمساكن فى الصيف ومساكن فى الشتاء (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) والعثو أشد الفساد وقال قتادة معناه لا تسيروا مفسدين فى الارض وقيل أراد به النهى عن عقر الناقة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أى تكبروا عن الايمان به (للذين استضعفوا) أى للذين استضعفوهم واستبذلوهم وقوله تعالى (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا بدل الكل ان كان الضمير لقومه وبدل البعض ان كان للذين وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو والباقون بلا واو (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) أى أن الله أرسله الينا واليكم قالوا ذلك على الاستهزاء (قالوا) أى الضعفاء (انا بما أرسل به) أى صالح من الدين والهدى (مؤمنون) أى مصدقون وانما عدلوا عن الجواب السوى الذى هو نعم تنبيها على أن ارساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذى لب (قال الملأ) (الذين استكبروا) عن أمر الله تعالى والايمان به وبرسوله صالح عليه السلام (انا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون متكبرون (فعقروا الناقة) أى عقرها قدار بأمرهم فاسند العقر اليهم والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا فانه قتلها بالسيف فان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه وكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) أى من العذاب (ان كنت من المرسلين) أى ان كنت تزعم أنك رسول الله فان الله ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة من الارض والصيحة من السماء (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى باركين على الركب ميتين روى ان عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادهم وخلفوهم فى الارض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى ان الرجل كان يبنى البيت المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعثوا وأفسدوا فى الارض وعبدوا الاصنام فبعث الله تعالى اليهم صالحا عليه السلام من أشرافهم غلاما شابا فدعاهم الى الله تعالى حتى كبر لا يتبعه الا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التحذير والتخويف سألوه آية فقال لهم أى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيد لنا فى يوم معلوم لهم فى السنة فتدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعنا قال لهم صالح نعم فخرجوا بأوثانهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة

مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة هي التي شاكلت البخت والجوفاء ذات الجوف والوبراء ذات الوبر فان فعلت ذلك صدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لنؤمنن ولنصدقن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة أي تحركت للولادة تمخض النتوج بولدها فانصدعت أي انشقت عن ناقة عشراء وهي التي مر عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى عظما وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن أسد والخباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج وهو بتقديم الحاء المهملة مثل التفسح وهو أن تفرج بين رجليها فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف أي تقيم زمن الصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو أي تقيم زمن الشتاء ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزين عقرها لهم امرأتان عنيزة بنت غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها فرقي سقبها وهو بفتح السين والقاف ولدها الذكر جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجت وهو بتشديد الجيم أي انفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين فلما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا وسيأتي لهذه القصة زيادة ان شاء الله تعالى في سورة النمل ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لاصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم وقال صلى الله عليه وسلم لعلي أتدري من أشقى الاولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح عليه السلام أتدري من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك (فتولى) أي أعرض صالح (عنهم) وفي هذا التولي قولان أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله تعالى فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم وهو وتهم والقول الثاني أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل هلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء وعلى هذا القول يحتمل أن في الآية تقديما وتأخيرا تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا

فى دارهم جاثمين (وأجيب) من جهة الاول بأنه خاطبهم بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا كما خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيحين وفيه فقال عمر يا رسول الله تكلم أمواتا قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فينزجروا عن مثل تلك الطريقة وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى أنه خرج فى مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم (٢) وقال قوم من أهل العلم توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة (ولوطا) أى وأرسلنا لوط بن هاران بن تارخ ابن أخى ابراهيم (اذ قال لقومه) أى وقت قوله لهم وقيل معناه واذكر لوطا ويبدل منه اذ قال لقومه وهم أهل سذوم قال التفتازانى هو بفتح السين قرية قوم لوط والذال المعجمة فى رواية الازهرى دون غيره اه وصوبه صاحب القاموس وغلط الجوهرى فى قوله انها مهملة وذلك أن لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليه السلام الى الشأم فنزل ابراهيم عليه السلام أرض فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهو بضم الهمزة والدال وتشديد النون نهر وكورة بأعلى الشام فأرسله الله تعالى الى أرض سذوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) أى أتفعلون الفاحشة الخبيثة التى هى غاية القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران فى أدبارهم كما سيأتى (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى ما فعلها أحد قبلكم والباء للتعدية ومن الاولى زائدة لتوكيد النفى وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استئناف مقرر للانكار وبخهم أولا باتيان الفاحشة ثم باختراعها فانه أسوأ قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا حتى كان من قوم لوط * ثم بين الفاحشة بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) أى فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) أى ان أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء وقرأ نافع وحفص بكسر الهمزة ولا ياء بينها وبين النون على الخبر وشهوة اما مفعول له واما مصدر فى موضع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى أن يكون الداعى له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر وقرأ ابن كثير بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة مسهلة ولا مد بينهما وأبو عمرو كذلك الا أنه يمد بين الهمزتين وهشام بتحقيق الهمزتين بينهما مد والباقون بتحقيقهما من غير مد بينهما وقوله (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال الى الحرام اضراب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحالة التى توجب ارتكاب القبائح وتدعو الى اتباع الشهوات وانما ذمهم الله تعالى وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل فاذا تركهن ووضع الشئ فى غير محله

(٢) قوله وقال قوم الخ الذى فى حاشية الجمل وعاش صالح مائتى سنة وثمانين سنة اه فليحرر

الذى خلق له فقد أسرف وجاوز واعتدى لان وضع الشئ فى غير محله الذى وضع له اسراف لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة تلك الشهوة المركبة فى الانسان روى أن أول من عمل عمل قوم لوط ابليس لعنه الله تعالى لان بلادهم أخصبت بالزرع والثمار وانتجعها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شاب ثم دعا الى نفسه فكان أول من نكح فى دبره وقال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الارض مثلها فقصدهم الناس فأذوهم فعرض لهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شيخ وقال لهم ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فلما ألح عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا حسانا فاستخبثوا واستحكم ذلك فيهم (وما كان جواب قومه) له حين وبخهم على فعلهم القبيح وارتكابهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) أى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) أى ما جاؤا بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام من انكار الفاحشة وتعظيم أمرها ولكنهم جاؤا بشئ آخر لا يتعلق بنصيحته وكلامه من الامر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم وقولهم (انهم أناس يتطهرون) أى يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخارا بما كانوا فيه من القاذورات كما تقول الفسقة لبعض الصلحاء اذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتنزه (فأنجيناه) أى لوطا (وأهله) أى من آمن به وقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من أهله فانها كانت تسر الكفر موالية لاهل سذوم (كانت من الغابرين) أى من الذين غبروا أى بقوا فى ديارهم فهلكوا وروى انها التفتت فأصابها حجر فماتت وانما قال تعالى من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الاناث (وأمطرنا عليهم مطرا) أى نوعا من المطر عجيبا وهو مبين بقوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطر وفى الرحمة مطر وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم (فانظر) أى أيها الانسان (كيف كان عاقبة المجرمين) روى ان تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وقال مجاهد نزل جبريل عليه السلام وأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة كما قال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل (والى مدين) أى وأرسلنا الى ولد مدين بن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام (أخاهم) فى النسب لا فى الدين (شعيبا) بن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه عليه السلام وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان (قال) أى شعيب عليه السلام (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة) أى معجزة تدل على صدق ما جئت به (من ربكم) أوجبت عليكم الايمان بى والاخذ بما آمركم به (فان قيل) ما كانت معجزته اذ لم تذكر له معجزة (أجيب) بأنه قد وقع العلم بأنه كان له معجزة لقوله قد جاءتكم بينة من ربكم ولانه

لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه والا لم تصح دعواه وكان متنبئا الانبياء غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ومن معجزات شعيب عليه السلام الواردة فى غير القرآن ما روى من محاربة عصا موسى التنين حين دفع اليه الغنم وولادة الغنم الدرع حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها والدرع بوزن الصرد وهى الغنم التى أوائلها سواد وأواخرها بياض ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع وغير ذلك من الآيات لان هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزة لشعيب وهذا أولى من جعله كرامة لموسى أو ارهاصا وهو علامة تظهر قبل النبوة وقيل أراد بالبينة الموعظة وهى قوله تعالى (فأوفوا الكيل والميزان) أى أتموهما (ولا تبخسوا) أى تنقصوا (الناس أشياءهم) فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (فان قيل) هلا قال المكيال والميزان كما فى سورة هود (أجيب) بأنه أراد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمى ما يكال به بالكيل أو أريد أوفوا كيل المكيال ووزن الميزان وانما قال أشياءهم لانهم كانوا يبخسون الناس كل شئ فى مبايعاتهم أو كانوا مكاسين لايدعون شيأ الامكسوه كما يفعل أمراء الجور (ولا تفسدوا فى الارض) أى بالكفر والمعاصى (بعد اصلاحها) أى بعد ما أصلح أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم بالشرائع (ذلكم) أى الذى ذكرت لكم وأمرتكم به من الايمان ووفاء الكيل والميزان وترك المظالم والبخس (خير لكم) أى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بما أقول لكم ومعنى خير لكم أى فى الانسانية وحسن ما يحدث به وجمع المال لان الناس ترغب فى متاجرتكم اذا عرفوا منكم الامانة والتسوية (ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق من طرق الدين (توعدون) أى تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم وقيل كانوا يقطعون الطريق على الناس أو يقعدون لاخذ المكس منهم وقوله تعالى (وتصدون) أى تصرفون الناس (عن سبيل الله) أى دينه (من آمن به) دليل على أن المراد بالطريق سبيل الحق (فان قيل) صراط الحق واحد قال تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فكيف قيل بكل صراط (أجيب) بأن صراط الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع فى شئ منها أوعدوه وصدوه (وتبغونها) اى تطلبون الطريق (عوجا) أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة عن الحق غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها أو يكون ذلك تهكما بهم وانهم يطلبون لها ما هو محال فان طريق الحق لايعوج (واذكروا) نعمة الله عليكم وآمنوا به (اذ كنتم قليلا فكثركم) أى كثر عددكم بعد القلة أو كثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف قيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط عليهما السلام فولدت فرمى الله تعالى فى نسلهما بالبركة والنماء فكثروا ونموا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) قبلكم بتكذيبهم

رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسوله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) به أى وان اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت برسالتى (فاصبروا) أى فتربصوا (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفرقتين فيعز المؤمنين أى المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم وفى هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (وهو خير الحاكمين) أى لاحيف فى حكمه ولا معقب له لانه تعالى منزه عن الجور والميل فى حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة (قال الملأ) أى الجماعة (الذين استكبروا) أى تكبروا (من قومه) عن الايمان بالله ورسوله وتعظموا عن اتباع شعيب عليه الصلاة والسلام (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن) أى ترجعن (فى ملتنا) أى لابد من أحد الامرين اما اخراجك ومن اتبعك على دينك من بلدنا أو عودكم فى الكفر (فان قيل) شعيب لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه (أجيب) بأن أتباع شعيب كانوا على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط لان الانبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقا فاستعمل العود فى حقهم على سبيل المجاز وجرى بعضهم على ان العود يستعمل بمعنى صار كما يستعمل بمعنى رجع فلا يستلزم الرجوع الى حالة سابقة بل هو انتقال من حالة سابقة الى حالة مستأنفة كما قال القائل

فان تكن الايام تحسن مرة * الى فقد عادت لهن ذنوب

راد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان (قال) لهم شعيب على سبيل الاستفهام الانكارى (أولو كنا كارهين) أى كيف نعود فيها ونحن كارهون لها وقيل لانعود فيها وان اكرهتمونا وجبرتمونا على الدخول فيها لانقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) والجواب عن هذا مثل ما أجيب به عن الاول وهو ان نقول ان الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة الا أن شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريأ مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا) اى الا أن يشاء خذلاننا وارتدادنا فحينئذ يمضى قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى وقيل أراد به حسم طمعهم فى العود بالتعليق على ما لا يكون (وسع ربنا كل شئ علما) أى وسع علمه كل شئ فلا يخفى عليه شئ مما كان وما يكون منا ومنكم (على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الايمان ويخلصنا من الاشرار ولما أيس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال (ربنا افتح) أى اقض وافصل واحكم (بيننا وبين قومنا بالحق) أى بالعدل الذى لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى قال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم (لئن اتبعتم شعيبا) أى على دينه وتركتم دينكم وما أنتم عليه (انكم اذا لخاسرون) أى مغبونون

لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف أو لاستبدال ضلالته بهداكم وجواب القسم الذى وطأته اللام فى لئن اتبعتم شعيبا وجواب الشرط قوله انكم اذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم) أى مدينتهم (جاثمين) أى باركين على الركب ميتين قال ابن عباس رضى الله عنهما فتح الله عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الاسراب ليتبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا الى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض فاحترقوا كما يحترق الجراد وصاروا رمادا وروى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فاذا تحته انهار وعيون فأتاهم وأخبرهم فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله تعالى عذاب يوم الظلة وقال قتادة بعث الله تعالى شعيبا الى أصحاب الايكة وأصحاب مدين فأما أصحاب الايكة فأهلكوا بالظلة وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعا قال أبو عبد الله البجلى كان أبو جاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا ترثيه وتبكيه

كلمن قد هد ركنى * هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ * ـحتف نار تحت ظله
جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن) مخففة واسمها محذوف أى كأنهم (لم يغنوا) أى لم يقيموا وينزلوا (فيها) أى فى ديارهم يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أى أقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل كأن لم يعيشوا فيها متنعمين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر قال الشاعر

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى * وكل سقانا بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة * غنى ولا أزرى باحسابنا الفقر

قال الزجاج معنى غنينا عشنا والتصعلك الفقر يقال للفقير صعلوك (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) أى دينا ودنيا دون الذين اتبعوه فانهم الرابحون فى الدارين وأكد ذلك باعادة الموصول وغيره للرد عليهم فى قولهم السابق (فتولى) أى أعرض شعيب (عنهم) أى عن قومه (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) أى قال ذلك لما تيقن نزول العذاب بهم تأسفا وحزنا عليهم لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان ثم أنكر

على نفسه فقال (فكيف آسى) أى أحزن (على قوم كافرين) لانهم ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بسبب كفرهم وقيل قال ذلك اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الابلاغ والانذار وبذلت وسعى فى النصح فلم يصدقوا قولى فكيف أحزن عليهم وقوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبى) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء سوء الحال (لعلهم يضرعون) أى فعلنا بهم ذلك لكى يتضرعوا ويتوبوا والتضرع التذلل والخضوع والانقياد لامر الله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات فأخبر الله تعالى بهذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصى والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله تعالى (حتى عفوا) أى كثروا وغوا فى أنفسهم وأموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وأعفوا اللحى أى وفروها وأكثروا شعرها (وقالوا) كفرا للنعمة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) وهذه عادة الدهر قديما وحد ثالنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) أى فجأة أيما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) أى بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة وغيرها من القصص وعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب ويرجع الى الله تعالى ويزداد الذين آمنوا ايمانا (ولو أن أهل القرى) أى المكذبين (آمنوا) بالله ورسوله (واتقوا) أى الشرك والمعاصى (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) أى لآتيناهم بالخير من كل جهة وقيل بركات السماء المطر وبركات الارض النبات والثمار والانعام وجميع ما فيها من الخيرات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه وانعامه على عباده وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف (ولكن كذبوا) أى فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا الرسل (فأخذناهم) أى عاقبناهم بانواع العذاب (بما) أى بسبب ما (كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى وقوله تعالى (أفأمن أهل القرى) عطف على قوله تعالى فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون وما بينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك أمن أهل القرى (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا (بياتا) أى ليلا وقوله تعالى (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا (أوأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وزجر وتهديد والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام فى كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بسكون الواو والباقون بفتح الواو (أن يأتيهم بأسنا ضحى) أى نهار الا انه الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) أى وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم وقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) تقرير لقوله تعالى أفأمن أهل القرى ومكر الله استعارة لاستدراج العبد بالنعم فى الدنيا وأخذه من حيث لا يحتسب (فلا يأمن

مكر

مكر الله الا القوم الخاسرون) أي انه لا يأمن استدراجه اياهم بالنعم وأخذهم بغتة الا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين فعلى العاقل أن يكون في خوفه من الله تعالى كالمحارب الذي يخاف من عدوه المتمكن البيات والغيلة وعن الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى ان ابنته قالت له مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام فقال يا بنتاه ان أباك يخاف البيات أراد قوله تعالى أن يأتيهم بأسنا بياتا (أولم يهد) أي يتبين (للذين يرثون الارض) أن يسكنونها (من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (أن لو نشاء أصبناهم) بالعذاب (بذنوبهم) كما أصبنا من قبلهم والهمزة للتوبيخ وأن لو نشاء مرفوع بأنه فاعل يهد أي اولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم أي بسببها كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين منهم كما أهلكنا المورثين وانما عدى فعل الهداية باللام لانه بمعنى التبيين كما مرّ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية واوا في الوصل والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى (ونطبع) أي نختم (على قلوبهم) معطوف على مادل عليه أولم يهد كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم أو على يرثون الارض أو يكون منقطعا بمعنى ونحن نطبع على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة أي لا يقبلونها ومنه سمع الله لمن حمده قال الشاعر

دعوت الله حتى خفت أن لا * يكون الله يسمع ما أقول

أي يقبله ويستجيبه (تلك القرى) أي القرى التي ذكرنالك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك) يا محمد (من أنبائها) أي نخبرك عنها وعن أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا اليهم لتعلم أنا ننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم ومخالفتهم رسلهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) أي أهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وأمال حمزة وابن ذكوان الالف وسكن السين أبو عمرو ورفعها الباقون (فما كانوا ليؤمنوا) أي عند مجيئهم بها (بما كذبوا) أي كفروا به (من قبل) أي قبل مجيء الرسل بل استمرّوا على الكفر واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للايمان لمنافاته لحالتهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم (كذلك) أي كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية وأهلكهم يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب عليهم انهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لاكثرهم) أي لاكثر الناس على الاطلاق أو لاكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك وأكد الاستغراق فقال (من عهد) أي من وفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق والآية على الاول اعتراض وعلى الثاني من تتمة الكلام السابق (وان) مخففة أي وانا (وجدنا) أي في علمنا في عالم الشهادة (أكثرهم لفاسقين) أي خارجين عن دائرة العهد طبق ما كنا نعلمه منهم في عالم الغيب

وما أبرزناه فى عالم الشهادة الالنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم فى مجارى عاداتهم ومدارك عقولهم (ثم بعثنا من بعدهم) أى الرسل المذكورين وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام أو الامم المهلكين (موسى) عليه السلام (بآياتنا) أى بحججنا الدالة على صدقه كاليد والعصا (الى فرعون) هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم والنجاشى لملوك الحبشة وكان اسم فرعون موسى قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط (وملائه) أى عظماء قومه وخصهم بالذكر لانهم اذا أذعنوا أذعن من دونهم فكأنهم المقصودون والارسال اليهم ارسال الى الكل (فظلموا) أى كفروا (بها) أى بسبب رؤيتها خوفا على رياستهم ومملكتهم الفانية أن تخرج من أيديهم (فانظر) أيها المخاطب بعين البصيرة (كيف كان عاقبة المفسدين) أى آخر أمرهم أى كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى) لما دخل على فرعون (يا فرعون) خاطبه بما يحبه امتثالا لامر الله تعالى له أن يلين فى خطابه وذلك لان فرعون كان لقب مدح لمن ملك مصر (انى رسول) أى مرسل اليك والى قومك ثم بين مرسله بقوله تعالى (من رب العالمين) أى الاله الذى خلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم وقوله تعالى (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) جواب لتكذيب فرعون اياه فى دعوى الرسالة وانما لم يذكره لدلالة قوله تعالى فظلموا بها والحق هو الثابت الدائم والحقيق مبالغة فيه وكان المعنى أنا ثابت مستمر على أن لا أقول على الله الا الحق قرأ نافع على بالتشديد فحقيق مبتدأ خبره أن ومابعدها والباقون بالسكون وعلى هذا تكون على بمعنى الباء أو يضمن حقيق معنى حريص وأن لا مقطوعة فى الرسم أى النون من لام الالف (قد جئتكم ببينة) أى معجزة (من ربكم) على صدقى فيما أدعى من الرسالة وهى العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم قوله (فأرسل معى بنى اسرائيل) أى فخلهم حتى يرجعوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الاعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما (قال) فرعون لعنه الله مجيبا لموسى عليه السلام (ان كنت جئت بآية) أى علامة على صحة رسالتك (فأت بها ان كنت من الصادقين) أى فى عداد أهل الصدق العريقين فيه لتصح دعواك عندى وتثبت (فألقى عصاه فاذا هى) أى العصا (ثعبان مبين) أى ظاهر أمره لا شك فيه أنه ثعبان والثعبان الذكر العظيم من الحيات فان قيل أليس قال الله تعالى فى موضع كأنها جان والجان الحية الصغيرة (أجيب) بانها كانت كالجان فى الخفة والحركة وهى فى جثتها حية عظيمة روى أنه لما ألقاها صارت حية عظيمة صفراء شقراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت عن الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض والاعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث قيل أخذته البطن فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقد قيل انه كان يأكل الموز حتى لا يتغوط وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك الله

الذى

الذى أرسلك أن تأخذها وانا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال هل معك آية أخرى قال نعم (ونزع يده) أى أخرجها من جيبه وقيل من تحت ابطه بعد أن أراه اياها محترقة أدما كما كانت وهى عنده (فاذا هى بيضاء) نورانية (للناظرين) لها شعاع غلب شعاع الشمس قال ابن عباس كان لها نور ساطع يضىء ما بين السماء والارض له لمعان مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ثم ردها الى جيبه فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية أخرى من غير سوء أى من غير برص (فان قيل) بم يتعلق قوله تعالى للناظرين (أجيب) بأنه يتعلق بقوله تعالى بيضاء والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يجتمع الناس للنظر اليه كما تجتمع النظارة للعجائب (فان قيل) أحد هذين الامرين اما العصا واما اليد كان كافيا فما فائدة الجمع بينهما (أجيب) بأن كثرة الدلائل توجب القوة فى اليقين وزوال الشك وقول بعض الملحدين المراد بالثعبان وباليد البيضاء شىء واحد وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة من حيث انها أبطلت أقوال المخالفين وأظهرت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذى يلقف حجج المبطلين ومن أنها كانت ظاهرة فى نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال فى العرف لفلان يد بيضاء فى العلم الفلانى أى قوة كاملة ومرتبة ظاهرة مردود اذ حمل هاتين المعجزتين على هذا الوجه يجرى مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله ولما أتى بالبيان وأقام واضح البرهان (قال الملأ) أى الاكابر (من قوم فرعون ان هذا) أى موسى (لساحر عليم) أى عالم بالسحر ماهر فيه قد أخذ بأعين الناس ويريهم الشىء بخلاف ما هو عليه حتى يخيل اليهم ان العصا صارت حية وأن الآدم أبيض كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان (فان قيل) قد أخبر الله تعالى فى هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملا لفرعون وقال فى سورة الشعراء وقال أى فرعون للملا حوله ان هذا الساحر عليم فكيف الجمع بينهما (أجيب) عن ذلك بجوابين الاول لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم انهم قالوه بعده فأخبر الله عنهم هنا وأخبر عن فرعون فى سورة الشعراء الثانى أن فرعون قال هذا القول ثم ان الملا من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فأخبر الله تعالى هنا عن الملا وأخبر هناك عن فرعون (يريد) أى موسى (أن يخرجكم) أيها القبط (من أرضكم) أى أرض مصر (فماذا تأمرون) أى أى شىء تشيرون أن نفعل به فقوله فماذا تأمرون من قول فرعون وان لم يذكره وقيل من قول الملا وتم كلام فرعون عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملا مجيبين له فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فما تأمرون أن نفعل به والقول الاول أصح لسياق الآية التى بعدها وهى قوله تعالى (قالوا أرجه) أى موسى (وأخاه) هرون عليهما السلام أى اخر أمرهما ولا تعجل فيه حتى تنظر فى أمرهما والارجاء فى اللغة التأخير وقيل الحبس أى احبسه وأخاه ورد بأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد ما رأى من أمر العصا ما رأى

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بغير همز (وأرسل في المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به أي مدائن صعيد مصر (حاشرين) أي أرسل رجالا من اعوانك وهم الشرط بضم الشين وفتح الراء طائفة من اعوان الولاة يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا انه ساحر فذلك قوله تعالى (يأتوك) أي الشرط (بكل ساحر عليم) أي ماهر بصناعته والباء يحتمل أن تكون بمعنى مع ويحتمل أن تكون باء التعدية وقرأ حمزة والكسائي بتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها ولا ألف قبلها والباقون بتخفيف الحاء مكسورة وألف قبلها ولا ألف بعدها ولم يختلفوا في سورة الشعراء انه سحار قيل الساحر الذي يعلم السحر ولا يعلم والسحار من يديم السحر روى ان فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا ما رأى قال انا لا نقاتل موسى الا بمن هو أقوى منه فاتخذ غلمانا من بني اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها الفرما يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة الذين أرسلهم فجاؤا ومعلمهم معهم فقال فرعون للمعلم ماصنعت فقال علمتهم سحرا لا تطيقه أهل الارض الا أن يأتي أمر من السماء فانهم لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحرا الا أتى به وهذا يدل على ان السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وهو يدل على صحة ما يقوله المتكلمون وهو أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالبا على أهل زمان موسى كانت معجزته شبيهة بالسحر وان كانت مخالفة للسحر في الحقيقة ولما كان الطب غالبا على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته من جنس الفصاحة واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فمن مقل ومن مكثر وليس في الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف في عددهم فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني اسرائيل وقال الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثني عشر ألفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال ابن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال مقاتل كان رئيس السحرة شمعون وقال ابن جريج كان رئيسهم يوحنا (وجاء السحرة فرعون) أي بعد ما أرسل الشرط في طلبهم (قالوا أئن لنا لاجرا) أي جعلا وعطاء تكرمنا به (ان كنا نحن الغالبين) لموسى (فان قيل) هلا قيل فقالوا بالفاء (أجيب) بأنه على تقدير سائل سأل ما قالوا اذ جاؤا فأجيب بقوله أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين وقرأ ابن كثير وحفص بهمزة مكسورة ونون مشددة بعدها على الخبر والباقون بهمزتين وسهل الثانية أبو عمرو وأدخل ألفا بينهما والباقون بتحقيقهما وأدخل بينهما ألفا هشام والباقون بغير ألف بينهما (قال) لهم فرعون (نعم) اى لكم الاجر والعطاء وقرأ الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح وقوله تعالى (وانكم لمن المقربين)

عطف على محذوف سد مسد الجواب كأنه قيل جوابا لقولهم أئن لنا لأجرا ان لكم أجرا وانكم لمن المقربين أراد انى لا اقتصر لكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة انى أجعلكم من المقربين عندى قال الكلبى تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج من عندى والآية تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة فى دفع موسى وتدل أيضا على أن كل السحرة ما كانوا قادرين على قلب الاعيان والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا على قلب الاعيان لقلبوا التراب ذهبا ولنقلوا ملك فرعون الى أنفسهم ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وأن لا يغتر بكلمات أهل الاباطيل والاكاذيب (قالوا) أى السحرة (يا موسى اما أن تلقى) أى عصاك (واما أن نكون نحن الملقين) أى عصينا وحبالنا فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الادب حيث قدموه على أنفسهم فى الالقاء فعوضهم الله تعالى حيث تأدبوا مع نبيه عليه السلام ان من عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب أولا وأظهروا ما يدل على رغبتهم (قال) لهم موسى (ألقوا) انتم فقدمهم على نفسه فى الالقاء (فان قيل) كيف جاز لنبى الله تعالى موسى عليه السلام أن يأمر بالالقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر حرام أو كفر (أجيب) عن ذلك بأجوبة أحدها ان معناه ان كنتم محقين فى فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الثانى أن القوم انما جاؤا الالقاء تلك الحبال والعصى وعلم موسى عليه السلام انه لا بد وأن يفعلوا ذلك ووقع التخيير فى التقديم والتأخير فعند ذلك أذن لهم فى التقديم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاته بهم وثقة بما وعده الله تعالى من التأييد والتقوية وأن المعجزة لا يغلبها سحر أبدا الثالث انه عليه السلام كان يريد ابطال ما أتوا به من السحر وابطاله ما كان يمكن الا بتقديمهم فأذن لهم فى الاتيان بذلك السحر ليمكنه الاقدام على ابطاله فلهذا المعنى أمرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) حبالهم وعصيهم (سحروا) أى صرفوا (أعين الناس) عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام الذى هو فعل الله تعالى وذلك لان السحر ليس فيه قلب الاعيان وانما فيه صرف أعين الناس عن ادراك ذلك الشئ بسبب التمويهات والمعجزة قلب ذلك الشئ حقيقة كقلب عصا موسى عليه السلام فاذا هى حية تسعى (واسترهبوهم) أى أرهبوهم والسين زائدة قاله المبرد وقال الزجاج استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند القائهم ذلك أيها الناس احذروا فهذا هو الاسترهاب (وجاؤا) أى السحرة (بسحر عظيم) روى ان السحرة قالوا قد علمنا سحرا لا تطيقه سحرة أهل الارض الا أن يكون أمرا من السماء فانه لا طاقة لنا به وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى حيات تسعى كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات تتحرك وتلتوى باختيارها

ويقال ان الارض كانت سعتها ميلا فى ميل فصارت كلها حيات وأفاعى ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه السلام لاجل سحرهم لانه كان على ثقة ويقين من الله تعالى أنهم لم يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بأن ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى عليه السلام وانما كان خوفه لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه السلام ان يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) فألقاها فصارت حية عظيمة قد سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية وقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا (فاذا هى تلقف) بحذف احدى التاءين من الاصل أى تبتلع (ما يأفكون) أى ما يزورونه من الافك وهو الصرف وقلب الشئ عن وجهه روى انها ابتلعت كل ما أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل ثم أقبلت على الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه أمر من السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس فى قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) اى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) أى من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت وتلاشت فى عصا موسى علموا ان ذلك من أمر الله تعالى وقدرته وقرأ حفص تلقف بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد التاء البزى (فغلبوا) أى فرعون وجموعه (هنالك) أى عند ذلك الامر العظيم العالى الرتبة (وانقلبوا صاغرين) أى رجعوا الى المدينة اذلاء مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) اى ان الله تعالى الهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الامر عليه قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا (قالوا آمنا برب العالمين) قال فرعون اياى تعنون قالوا الابل (رب موسى) فقال اياى تعنون لانى انا الذى ربيت موسى فلما قالوا (وهرون) زالت الشبهة وعرف الكل انهم كفروا بفرعون وآمنوا باله السماء قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة أتؤمن بى ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون ينظر اليهما ويسمع كلامهما فهذا قوله ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة ويقال ان الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى عليه السلام كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن هذا السحر وما هو الا من أمر السماء فآمنوا وصدقوا (فان قيل) كان يجب ان يأتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان (أجيب) بأن الله تعالى لما قذف فى قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على ما هداهم اليه وألهمهم من الايمان بالله

تعالى وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك ايمانهم قال قتادة كانوا أول النهار كفارا سحرة وفى آخره شهداء بررة وعن الحسن ترى من ولد فى الاسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء الكفار نشؤا فى الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى (قال فرعون) للسحرة منكرا عليهم موبخا لهم بقوله (آمنتم) أى صدقتم (به) أى بموسى أو بالله تعالى والاستفهام فيه للانكار والتوبيخ * (فائدة) * هنا ثلاث همزات جميع القراء بابدال الثالثة ألفا وحقق الثانية شعبة وحمزة والكسائى وسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأما حفص فانه أسقط الاولى وأبدلها قنبل فى الوصل واوا (قبل ان آذن لكم) أى قبل أن آمركم بذلك وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه) أى ان هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى (فى المدينة) أى مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطؤا عليه وعلى أهل مصر ليستولوا على مصر كما قال (لتخرجوا منها أهلها) أى القبط وتخلص لكم ولبنى اسرائيل وقوله تعالى (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد أى فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد بقوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى يخالف الطرف الذى تقطع منه اليد الطرف الذى تقطع منه الرجل قال الكلبى لاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى (ثم لاصلبنكم) أى أعاقبكم ممددة أيديكم لتصير على هيئة الصليب أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذى فيكم (أجمعين) أى لا أترك منكم أحدا تفضيحا لكم وتنكيلا لامثالكم قال ابن عباس أول من صلب وقطع الايدى والارجل فرعون أى انه أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى للقطاع تعظيما لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته (قالوا) أى السحرة مجيبين لفرعون حين وعدهم بما ذكر (انا الى ربنا) بعد موتنا على أى وجه كان (منقلبون) أى راجعون اليه فى الآخرة (وما تنقم) أى تنكر (منا) أى فى فعلك ذلك بنا وتعيب علينا (الا أن آمنا) أى الا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الايمان (بآيات ربنا لما جاءتنا) لم نتأخر عن معرفة الصدق وهذا موجب الاكرام لا الانتقام ثم فزعوا الى الله تعالى فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) عندما توعدهم فرعون به أى اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير أى صبرا وأى صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) أى واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك عليه السلام قال ابن عباس كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء قال الطيبى ان فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (تنبيه) فى الآية فوائد الاولى قولهم أفرغ علينا صبرا أكمل من قولهم أنزل علينا صبرا لان افراغ الاناء هو صب ما فيه بالكلية فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه الثانية ان قولهم صبرا مذكور بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أى صبرا تاما كاملا الثالثة ان ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم ثم انهم طلبوه من الله تعالى وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل الا بخلق الله تعالى وقضائه الرابعة احتج القاضى بهذه الآية على أن الايمان والاسلام واحد فقال انهم قالوا أولا

آمنا بآيات ربنا ثم قالوا ثانيا وتوفنا مسلمين فوجب أن يكون ذلك الايمان هو ذلك الاسلام وذلك يدل على ان أحدهما هو الآخر واعلم ان فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى لانه كان كلما رأى موسى عليه السلام خافه أشد الخوف فلهذا السبب لم يتعرض له الا أن القوم لم يعرفوا ذلك فقالوا له أتذر موسى وقومه كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى (وقال الملأ) أى الاشراف (من قوم فرعون) له (أتذر) أى تترك (موسى وقومه) من بنى اسرائيل (ليفسدوا فى الارض) أى أرض مصر وأرادوا بالافساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قولهم (ويذرك وآلهتك) أى معبوداتك أى فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس كان لفرعون بقرة حسنة يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامرى عجلا وقال السدى كان فرعون اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى (فان قيل) ان فرعون ان لم يكن كامل العقل لم يجز فى حكمة الله تعالى ارسال الرسل اليه وان كان عاقلا لم يجز ان يعتقد فى نفسه كونه خالق السموات والارض لان فساده معلوم بالضرورة (أجيب) بأن الاقرب أن يكون دهريا منكرا لوجود الصانع وكان يقول مدبر هذا السفلى هو الكواكب واتخذ اصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول فى نفسه انه المطاع المخدوم فى الارض ولهذا قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملأ حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم) أى المولودين (ونستحيى نساءهم) أى نتركهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم انه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكك على يديه وقرأ نافع وابن كثير بفتح النون وسكون القاف وضم التاء مخففة والباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء مشددة (وانا فوقهم قاهرون) أى غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا ولا أثر لغلبة موسى لنا فى هذه المناظرة فأعادوا عليهم القتل فشكت بنو اسرائيل لموسى فأمرهم بالصبر كما قال تعالى (قال موسى لقومه) أى بنى اسرائيل (استعينوا بالله واصبروا) أى استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله تعالى هو الكافى لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره فى أنفسكم وأبنائكم (ان الارض) أى أرض مصر وان كانت الارض كلها (لله) تعالى لان الكلام فيها (يورثها من يشاء من عباده) وفى هذا تسلية لهم وتقرير للامر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت فى الامر وقوله تعالى (والعاقبة) أى المحمودة (للمتقين) لان الله تعالى وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم به من اهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له ولما سمع بنو اسرائيل ما قال فرعون من توعده اياهم بالقتل مرة ثانية (قالوا) لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا) أى بالرسالة وذلك ان بنى اسرائيل كانوا مستضعفين فى يد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية وكان يستعملهم فى الاعمال الشاقة الى نصف النهار ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم فلما جاء موسى بالرسالة وجرى له ما جرى شدد فرعون فى استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار بلا أجر وأراد أن يعيد القتل

عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا (ومن بعد ما جئتنا) أى بالرسالة (فان قيل) ظاهر هذا الكلام يوهم ان بنى اسرائيل كرهوا مجىء موسى بالرسالة وذلك كفر (أجيب) عن هذا الايهام بأن موسى عليه السلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما رأوا ان المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك أى فتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أى فرعون وقومه (ويستخلفكم فى الارض) أى يجعلكم تخلفونهم فى أرضهم بعد هلاكهم قال البيضاوى ولعله أتى بفعل الطمع أى بعسى لعدم جزمه بانهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم وقد روى ان مصر انما فتح لهم فى زمن داود عليه السلام ثم سبب عن الاستخلاف قوله تعالى مذكرا لهم محذرا من سطواته تعالى (فينظر) أى وأنتم خلفاء متمكنون (كيف تعملون) أى يعاملكم معاملة المختبر وهو فى الازل أعلم بما تعملون منكم بعد ابقائكم للاعمال ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجارى عاداته وروى عن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان فطلب زيادة لعمرو فلم يجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعدما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقى فينظر كيف تعملون (ولقد أخذنا آل فرعون) أى فرعون وقومه (بالسنين) أى بالقحط والجوع سنة بعد سنة فان السنة تطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف (ونقص من الثمرات) أى بالعاهات قال قتادة أما السنين فلاهل البوادى وأما نقص الثمرات فلاهل الامصار وعن كعب يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة الا ثمرة (لعلهم يذكرون) أى يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصى لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى من الخيرات والدليل على ذلك قوله تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وقوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقال سعيد بن جبير عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروها فى نفسه ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه فى تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية ثم بين سبحانه وتعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد فى كفرهم ومعصيتهم فقال (فاذا جاءتهم الحسنة) قال ابن عباس العشب والخصب والثمار والمواشى والسعة فى الرزق والعافية والسلامة (قالوا لنا هذه) أى نحن مستحقوه على العادة التى جرت من كثرة نعمتنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا انه من الله تعالى فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) أى قحط وجدب ومرض وبلاء وراوا ما يكرهونه فى أنفسهم (يطيروا) أى يتشاءموا وأصله يتطيروا (بموسى ومن معه) من المؤمنين ويقولون ما أصابنا الا بشؤمهم وهذا اغراق فى وصفهم فى الغباوة والقساوة فان الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات وهى لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوا وانهماكا فى البغى وانما عرف الحسنة وذكرها مع اداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الارادة باحداثها بالذات ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها الا بالتبع (الا انما

طائرهم عند الله) أى سبب خيرهم وشرهم عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته أو سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم المكتوبة عنده فانها التى ساقت اليهم مايسوءهم (ولكن أكثرهم لايعلمون) أى ان مايصيبهم من الله تعالى وذلك لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره والحق ان الكل من الله تعالى لان كل موجود اما واجب لذاته أو ممكن لذاته والواجب لذاته واحد وماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته لايوجد الا بايجاد الواجب لذاته وبهذا الطريق يكون الكل من الله تعالى فاسناده الى غير الله تعالى يكون جهلا بكمال الله تعالى (وقالوا) أى فرعون وقومه القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به) وقوله تعالى (من آية) اى من عند ربك بيان لهما وانما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا (لتسحرنا بها) أى لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين *(تنبيه)* اختلف فى أصل مهما فقيل أصلها ما ما الاولى ما الشرطية والثانية ما الزائدة ضمت اليها للتأكيد ثم قلبت ألفها هاء استثقالا لتكرير المتجانسين فصارت مهما هذا قول الخليل والبصريين وقيل أصلها مه التى بمعنى اكفف وما الجزائية كانهم قالوا اكفف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فهو كذا وكذا هذا قول الكسائى فهى مركبة على هذين القولين والمعتمد الذى جرى عليه ابن هشام وغيره انها بسيطة لان دعوى التركيب لم يقم عليها دليل ووزنها فعلى وألفها للالحاق أو للتأنيث والضميران فى به وبها راجعان لمهما الا أن أحدهما ذكر باعتبار اللفظ والثانى أنث باعتبار المعنى لانه فى معنى الآية ونحوه قول زهير

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

قال فى الكشاف وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لايدله فى علم العربية فيضعها فى غير موضعها ويحسب انها بمعنى متى ما ويقول مهما جئتنى أعطيتك قال ابن عباس ان القوم لما قالوا مهما تأتنا به من آية من ربك فهى عندنا من باب السحر ونحن لانؤمن بها البتة وكان موسى عليه السلام رجلا حديدا فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله تعالى له فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وقال سعيد بن جبير لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى على الشر فتابع الله تعالى عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله تعالى عليهم المطر من السماء وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى اسرائيل شئ وركب ذلك الماء على ارضهم فلم يقدروا ان يحرثوا ولا يعملوا شيأ ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت حتى كان الرجل منهم لايرى شمسا ولا قمرا ولا يستطيع الخروج من داره فصرخوا الى فرعون واستغاثوا به فأرسل الى موسى عليه

السلام

السلام فقال اكشف عنا العذاب فقد صار بحرا واحدا فان كشف هذا العذاب آمنا بك فأزال الله تعالى عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الارض وخرج من النبات مالم ير مثله قط فقالوا هذا الذى جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر فلا والله لانؤمن بك ولا نرسل معك بنى اسرائيل وقيل المراد بالطوفان الجدرى وهو بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما قروح فى البدن تنفط وتنفخ وقيل هو الموتان وهو بضم الميم موت فى الماشية وقيل هو الطاعون فنكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فارسل الله تعالى عليهم (الجراد) فأكل النبات والثمار وأوراق الشجر حتى كان يأكل الابواب وسقوف البيوت وسامير الابواب من الحديد وابتلى الجراد بالجوع فكانت لاتشبع ولم يصب بنى اسرائيل شئ من ذلك وعظم الامر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطى الشمس ووقع بعضها على بعض فى الارض ذراعا فضجوا من ذلك وقالوا ياموسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فأعطوه عهد الله وميثاقه فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وفى الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام برز الى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت وقيل أرسل الله تعالى ريحا فاحتمل الجراد فألقاه فى البحر وكان قد بقى من زرعهم وغلاتهم بقية فقالوا قد بقى لنا ما يكفينا فانحن بتاركى ديننا (و) لم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فأرسل الله تعالى عليهم (القمل) واختلفوا فى القمل فعن ابن عباس انه السوس الذى يخرج من الحنطة وعن قتادة انه أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها وعن عكرمة انه الحنان وهو ضرب من القراد وعن عطاء القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه وكان أحدهم يأكل طعاما فيمتلئ قملا وكان أحدهم يخرج عشرة أجربة الى الرحا فلا يرد منها الا شيأ يسيرا وعن سعيد بن جبير كان الى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملا فأخذت ابشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا هم وفرعون الى موسى عليه السلام وقالوا انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فنكثوا وعادوا الى أخبث أعمالهم وقالوا ما كنا أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم جعل الرمل دواب (و) لم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام عليهم بعد ما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الضفادع) فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس فى الضفادع الى رقبته ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه وكان يثب فى قدورهم فيفسد عليهم طعامهم ويطفئ نيرانهم وكان أحدهم يضطجع فيركبه الضفدع فيكون عليه ركاما حتى لايستطيع أن ينصرف الى شقه الآخر ويفتح فاه الى أكلته فيسبق الضفدع أكلته الى فيه ولا يعجن عجينا ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع وعن ابن عباس أن الضفادع كانت برية فلما أرسلها الله تعالى

الى آل فرعون سمعت فأطاعت فجعلت تلقى نفسها فى القدور وهى تغلى وفى التنانير وهى تفور فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء فلقوا منها أذى شديدا فشكوا الى موسى عليه السلام وقالوا ارحمنا هذه المرة فما بقى الا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأن أماتها وأرسل الله المطر والريح فاحتملها الى البحر بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وعادوا لكفرهم وأعمالهم الخبيثة فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الدم) فصارت مياههم كلها دما فما يستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه دما عبيطا أحمر فشكوا الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب فقال انه سحركم فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيأ من الماء الا دما عبيطا وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطى والاسرائيلى على الاناء الواحد فيكون ما يلى الاسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما ويقومان الى الجرة فيها الماء فيخرج للاسرائيلى ماء وللقبطى دم حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى للمرأة من بنى اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقينى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء واذا مجته فى فيها صار دما واعترى فرعون العطش حتى انه كان ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون الا الدم فأتوا موسى وشكوا اليه ما يلقونه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم وقيل الدم الذى سلط عليهم هو الرعاف وقوله تعالى (آيات) نصب على الحال (مفصلات) أى مبينات لا تشكل على عاقل انها آيات الله تعالى ونقمته عليهم أو مفصلات لامتحان أحوالهم اذ كان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة اسبوعا كما مرت الاشارة الى ذلك وقيل ان موسى عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة وآمنوا به عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا) أى فرعون وقومه (قوما مجرمين) أى كافرين (ولما وقع عليهم الرجز) أى نزل بهم العذاب وهو ما ذكره الله تعالى من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التى تقدمت فنزل بهم الطاعون فمات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا وتركوا غير مدفونين قال الامام الرازى والقول الاول أقوى لان لفظ الرجز مفرد محلى بالالف واللام فينصرف الى المعهود السابق وههنا المعهود السابق هو الانواع الخمسة التى تقدم ذكرها وأما غيرها فمشكوك فيه فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه وعن أسامة بن زيد الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى اسرائيل وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه (قالوا يا موسى ادع لنا ربك) ولم يقولوا ربنا كبرا وعتوا (بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة وسميت عهدا لان الله تعالى عهد أن يكرم النبى وهو عهد

أن يستقل باعبائها أو بالذى عهده اليك ان تدعوه به فيجيبك كما أجابك به فى آياتك والباء اما أن تتعلق بقوله ادع لنا ربك على وجهين أحدهما أسعفنا الى مانطلب منك من الدعاء لك بحق ماعندك من عهد الله وكرامته بالنبوة أو ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك واما أن يكون قسما مجابا بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) أى اقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (ولنرسلن معك بنى اسرائيل) أى لنصدقنك بما جئت به ولنخلين بنى اسرائيل ليذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) أى بدعاء موسى عليه السلام (الى أجل هم بالغوه) أى الى حد من الزمان هم بالغوه لامحالة فعذبون فيه لا ينفعهم ماتقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله وهو وقت اهلاكهم بالغرق فى اليم وقوله تعالى (اذاهم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير توقف وتأمل فيه (فان قيل) ان الله تعالى علم من حال هؤلاء انهم لايؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالبها عليهم واظهار الكثير منها (أجيب) بأن الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا يسئل عما يفعل قال تعالى (فانتقمنا منهم) أى كافأناهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب لانه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الاجل الذى أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم كما قال تعالى (فأغرقناهم فى اليم) أى فى البحر الذى لايدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المنتفعين به يقصدونه قال الازهرى ويقع اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه فى اليم والمراد نيل مصر وهو عذب واغراقهم (بأنهم) أى بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) الدالة على وحدانيتنا وصدق رسولنا (وكانوا عنها) أى الآيات (غافلين) أى لايتدبرونها وقيل الضمير فى عنها يرجع للنقمة التى دل عليها قوله تعالى انتقمنا أى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين (فان قيل) الغفلة ليست من فعل الانسان ولاتحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة (أجيب) بأن المراد بالغفلة هنا الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها (فان قيل) أليس قد ضموا الى التكذيب والغفلة معاصى كثيرة فكيف يكون الانتقام بهذين دون غيرهما (أجيب) بأنه ليس فى بيان انه تعالى انتقم منهم بهذين دلالة على نفى ماعداهما قال الرازى والآية تدل على أن الواجب فى الآيات النظر فيها فلذلك ذمهم بأنهم غفلوا عنها وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم ولما بين تعالى اهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بين تعالى مافعله بالمؤمنين من الخيرات وهو انه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) أى بالاستعباد وذبح الابناء وأخذ الجزية والاعمال الشاقة وهم بنو اسرائيل (مشارق الارض ومغاربها) اى أرض الشأم وهى من الفرات الى بحر سرف الموضع الذى خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله كما نقله البقاعى فى المائدة عن التوراة وقيل المراد جملة الارض لانه خرج من جملة بنى اسرائيل داود وسليمان عليهما السلام وقد ملكا الارض ويدل للاول قوله

تعالى (التى باركنا فيها) أى بالخصب وسعة الارزاق وذلك لا يليق الا بأرض الشأم (وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل) أى مضت عليهم واستمرت من قولهم تم عليه الامر اذا قضى وهى قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض الخ والحسنى تأنيث الاحسن صفة للكلمة ومعنى تمت عليهم انجاز الوعد الذى تقدم باهلاك عدوهم واستخلافهم فى الارض وانما كان الانجاز تماما للكلام لان الوعد بالشئ يبقى كالشئ المعلق فاذا حصل الموعود به فقد تم ذلك الوعد وكمل * (فائدة) * رسمت كلمة بالتاء المجرورة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ووقف الباقون بالتاء وانما حصل لهم ماذكر (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى اليه ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله تعالى له الفرج (ودمرنا) أى أهلكنا قال الليث الدمار الهلاك التام (ما كان يصنع فرعون وقومه) فى أرض مصر من القصور والعمارات (وما كانوا يعرشون) أى من الجنان وما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بالجر وهذا آخر ما قص الله تعالى من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ثم اتبعه اقتصاص نبأ بنى اسرائيل وما أحدثوه بعد انقاذهم من مملكة فرعون واستعبادهم ومعاينتهم الآيات العظام بقوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) أى قطعناه بهم روى أن جوازهم كان يوم عاشوراء وان موسى عليه السلام صامه شكرا لله تعالى على انجائهم واهلاك عدوهم ومع النعم التى أنعم الله تعالى بها عليهم لم يراعوها حق رعايتها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى (فأتوا على قوم) أى مروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) أى يقيمون على عبادتها قال ابن جريج كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل قيل كانوا قوما من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم وقرأ حمزة والكسائى بكسر الكاف والباقون بالضم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض لانه كان مع موسى السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل وهو قولهم (يا موسى) سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظة (اجعل لنا الها) أى صنما نعتكف عليه وهذا يدل على غاية جهلهم وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعدما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهى الآيات التى توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى فى البحر بكفرهم وهو عبادتهم غير الله سبحانه وتعالى فحملهم جهلهم الى أن قالوا لنبيهم موسى عليه السلام اجعل لنا الها (كما لهم آلهة) وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم مما رأى من بنى اسرائيل بالمدينة تذكرة لحال الانسان وانه ظلوم جهول كنود الا من عصمه الله وقليل من عبادى الشكور (قال) موسى ردا عليهم (انكم قوم تجهلون) وصفهم بالجهل المطلق وأكده لبعد ما صدر عنهم بعدما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى لانه جهل أعظم مما رأى منهم وأشنع (ان هؤلاء) أى القوم (متبر) أى هالك مدمر (ما هم فيه) أى ان الله تعالى يهدم دينهم الذى هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها

رضاضا (وباطل) أى مضمحل (ما كانوا يعملون) من عبادتها وان قصدوا بها التقرب الى الله تعالى لان الاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفة الله تعالى من القلب والمقصود من العبادة رسوخ معرفة الله تعالى فى القلب فكان هذا ضدا للغرض ونقيضا للمطلوب (قال) موسى عليه السلام مجيبا لهم على سبيل الانكار عليهم والتعجب (أغير الله أبغيكم الها) وأصله أبغى لكم أى أطلب لكم معبودا (وهو) أى والحال أنه هو وحده (فضلكم على العالمين) اذ الاله ليس شيأ يطلب ويلتمس ويتخذ بل الاله هو الذى يكون قادرا على الانعام بالايجاد واعطاء الحياة وجميع النعم فهذا الموجود هو الاله الذى يجب على الخلق عبادته فكيف يجوز العدول عن عبادته الى عبادة غيره وفى تفضيلهم على العالمين قولان الاول أنه تعالى فضلهم على عالمى زمانهم الا ما يخصه العقل من الانبياء والملائكة والثانى أنه تعالى خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لاحد من العالمين وان كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال مثاله رجل يعلم علما واحدا وآخر يعلم علوما كثيرة سوى ذلك العلم فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك العلم فى الحقيقة (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أى واذكروا صنعه معكم فى هذا الوقت وقرأ ابن عامر بحذف الياء والنون والباقون باثباتهما وقوله تعالى (يسومونكم) أى يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أى أشده استئناف لبيان ما أنجاهم أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما وقوله تعالى (يقتلون أبناءكم ويستحيون) أى يستبقون (نساءكم) بدل من يسومونكم سوء العذاب (وفى ذلكم) أى الانجاء أو العذاب (بلاء) أى نقمة أو محنة (من ربكم عظيم) أى أفلا تتعظون وتنتهون عما قلتم (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) نكلمه عند انتهائها بأن يصوم أيامها روى أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك سأل ربه فأمر بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة فصامه فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه الله بخلوف فمه كما قال تعالى (وأتممناها بعشر) أى من ذى الحجة (فتم ميقات ربه) أى وقت وعده بتكليمه اياه (أربعين ليلة) وقيل أمره أن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة فى العشر وكلمه فيها ولقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصلها هنا وقرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف قبل العين والباقون بألف (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى فتم ميقات ربه أربعين ليلة مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع العشر تكون أربعين (أجيب) بأنه تعالى انما قال أربعين ليلة ازالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لانه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الايهام * (تنبيه) * الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر فيه عمل من الاعمال والوقت وقت للشئ قدره مقدر أم لا وقوله تعالى أربعين نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد وليلة نصب على التمييز (وقال موسى لاخيه) وقوله (هرون) عطف بيان لاخيه أى قال له عند ذهابه الى الجبل للمناجاة (اخلفنى) أى كن

خليفتى (فى قومى وأصلح) أى ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه (فان قيل) ان هرون كان شريك موسى عليهما السلام فى النبوة فكيف جعله خليفة لنفسه فان شريك الانسان أعلى حالا من خليفته ورد الانسان من منصبه الاعلى الى الادون يكون اهانة له (أجيب) بأن الامر وان كان كما ذكر الا أن موسى عليه السلام كان هو الاصل فى تلك النبوة (فان قيل) لما كان هرون نبيا والنبى لا يفعل الا الاصلاح فكيف وصى اليه بالاصلاح (أجيب) بأن المقصود من هذا الامر التأكيد كقول الخليل ولكن ليطمئن قلبى (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى للوقت الذى وعدناه للكلام فيه (وكلمه ربه) دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون فى كلام الله تعالى قال الزمخشرى فى كشافه وكلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به فى بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا فى اللوح اه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك فى بطلانه وفساده لان ذلك الجرم كالشجرة لا يقول أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهب بعض الحنابلة والحشوية الى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم قال الامام الرازى وهذا القول أخس من أن يلتفت اليه العاقل والذى عليه أكثر أهل السنة والجماعة ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وان موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الازلية قالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته مع أن ذاته ليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفا ولا صوتا وفيما روى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين وهل كان سبحانه وتعالى كلم موسى وحده أو مع أقوام آخرين ظاهر الآية يدل للاول لان قوله تعالى وكلمه ربه يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفى الحكم عمن عداه وقال القاضى بل السبعون المختارون سمعوا أيضا كلام الله تعالى قال لان الغرض باحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجرى هناك وهذا المقصود لا يتم الا عند سماع الكل وأيضا فان تكليم الله تعالى موسى على هذا الوجه معجز وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره * ولما سمع عليه السلام كلام ربه اشتاق الى رؤيته سبحانه وتعالى (قال رب أرنى أنظر اليك) قال فى الكشاف ثانى مفعولى أرنى محذوف أى أرنى نفسك أنظر اليك (فان قيل) الرؤية عين النظر فكيف قيل أرنى أنظر اليك (أجيب) بأن معنى أرنى نفسك اجعلنى متمكنا من رؤيتك بأن تجلى لى فانظر اليك وأراك وفى هذا دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة لان طلب المستحيل من الانبياء محال خصوصا ما يقتضى الجهل بالله تعالى ولذلك رده بأن (قال) له (لن ترانى) دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى لم يوجد فيه بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة كما قاله الزمخشرى أشد خطأ اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم

ويزيل شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا اجعل لنا الها والاستدلال بالجواب وهو قوله تعالى لن ترانى على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار عن عدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالته فان أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة قالوا لن تكون لتأبيد النفى وهو خطأ لانها لو كانت للتأبيد لزم التناقض بذكر اليوم فى قوله تعالى فلن أكلم اليوم انسيا ولزم التكرار بذكر أبدا فى قوله تعالى ولن يتمنوه أبدا ولن تجتمع مع ما هو لانتهاء الغاية نحو قوله تعالى فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى وأما تأبيد النفى فى قوله تعالى لن يخلقوا ذبابا فلامر خارجى لا من مقتضيات لن ولا تقتضى تأكيد النفى أيضا خلافا للزمخشرى فى كشافه بل قولك لن أقوم محتمل لان تريد به انك لا تقوم أبدا وأنك لا تقوم فى بعض الازمنة المستقبلة وهو موافق لقولك لا أقوم فى عدم افادة التأكيد وقوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيق الرؤية وفى تعليق الرؤية بالاستقرار أيضا دليل على جوازها لان استقرار الجبل عند التجلى ممكن بان يجعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق على الممكن ممكن وترانى فى الحرفين الياء ثابتة وقفا ووصلا وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون والباقون بالضم قال وهب ابن منبه ومحمد بن اسحق لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والرعد والبرق حتى أحاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى عليه السلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم مرت به ملائكة السماء الثانية كأمثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة فى جسده ورأسه ثم قال لقد ندمت على مسئلتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شئ فقال له رئيس الملائكة يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له رأس الملائكة مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا تصبر لك عليه ثم مرت به ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شئ من الذين مروا به ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شئ من الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعب قلبه واشتد بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم مرت به ملائكة السماء الخامسة لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له رأس الملائكة يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ثم مرت به ملائكة السماء السادسة وفى يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نور أشد ضوأ من الشمس ولباسهم كلهب النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات

كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبد الايموت فى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكى ويقول يارب اذكرنى ولا تنس عبدك لا أدرى أنفلت مما أنا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان مكثت احترقت فقال له رأس الملائكة قد أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع نور الجبل من عظمة الله تعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبد الايموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل واندك وذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه) أى أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما فى حديث صححه الحاكم (للجبل) أى جبل زبير بفتح الزاى والاضافة فيه بيانية لقول الجوهرى الزبير اسم للجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (جعله دكا) أى مدكوكا مفتتا وحكى عن سهل بن سعد الساعدى ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا مستويا بالارض والدك والدق اخوان وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل فى الارض حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال الكلبى كسر جبالا صغارا قال البغوى ووقع فى بعض التفاسير صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحرا وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الكاف وهمزة مفتوحة من غير تنوين وصلا ووقفا أى مستويا ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها والباقون بالتنوين بعد الكاف والوقف على ألف التنوين (وخر) أى وقع (موسى صعقا) أى مغشيا عليه من هول ما رأى غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون له يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة (فلما أفاق) من غشيته (قال) تعظيما لما رأى (سبحانك) أى تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن وقيل لما كانت الرؤية مختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك من سؤالى ما ليس لى وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك من هذا السؤال وحسنات الابرار سيآت المقربين (وأنا أول المؤمنين) أى فى زمانى وقيل أنا أول من آمن انك لا ترى فى الدنيا أى لكل الانبياء والا فالرؤية ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء على الصحيح وللزمخشرى هنا فى كشافه على مذهبه الفاسد فى عدم الرؤية مطلقا تأويلات فلتحذر (قال يا موسى انى اصطفيتك) أى اخترتك (على الناس) أى الموجودين فى زمانك وهرون وان كان نبيا مرسلا كان مأمورا باتباعه ولم يكن كليما ولا صاحب شرع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء انى والباقون بالسكون وقوله تعالى (برسالاتى) أى باسفار التوراة قرأه نافع وابن كثير بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالالف بعد اللام على الجمع (وبكلامى) أى وبتكليمى اياك (فخذ ما آتيتك) أى ما أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) لانعمى لان موسى عليه السلام لما منع الرؤية عدد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التى له عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت

منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها واشتغل بشكرها والاشتغال بشكرها انما يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية قال الامام الرازى وهذا أيضا أحد ما يدل على أن الرؤية جائزة على الله تعالى اذ لو كانت ممتنعة فى نفسها لما كان الى ذكر هذا القدر حاجة وروى ان موسى عليه السلام كان بعدما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذاك ان لم تتزوجى بعدى لان المرأة لآخر أزواجها (وكتبنا له) أى لموسى (فى الالواح) أى ألواح التوراة قال البغوى وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشرة ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده والمراد بيده قدرته وقيل كانت من زبرجدة خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من صخرة صماء لينها الله تعالى لموسى فقطعها بيده وأما كيفية الكتابة فقال ابن جريج كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال وهب سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك فى أول يوم من ذى القعدة وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر وكانت الالواح عشرة على طول موسى وقيل كانت تسعة وقيل سبعة وقال مقاتل وكتبنا له فى الالواح كنقش الخاتم وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها فى سنة ولم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام أى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلب الا هؤلاء الاربعة قال الامام الرازى وليس فى لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الالواح وعلى كيفية تلك الكتابة فان ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوى وجب القول به والا وجب السكوت عنه وأما قوله تعالى (من كل شئ) فلا شبهة أنه ليس على العموم بل مما يحتاج اليه موسى عليه السلام وقومه من أمر الدين وقوله تعالى (موعظة وتفصيلا) أى تبيينا (لكل شئ) بدل من الجار والمجرور وقبله أى كتبنا كل شئ من المواعظ وتفصيل الاحكام وقوله تعالى (فخذها) على اضمار القول عطفا على كتبنا أو بدلا من قوله فخذ ما آتيتك والهاء للالواح أو لكل شئ فانه بمعنى الاشياء أو الرسالة وعن كعب الاحبار أن موسى عليه السلام نظر فى التوراة فقال انى أجد أمة هى خير الامم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال رب اجعلهم أمتى قال هى أمة محمد يا موسى قال يارب انى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجابون والمستجاب لهم الشافعون والمشفعون لهم فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال

يارب انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله واذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وان عملها كتبت له عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا الا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد قال يارب انى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون فى صلاتهم كصفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار أحد منهم الا من برئ من الحسنات مثل ما برئ الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتى قال هم أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله محمدا وأمته قال ياليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله تعالى اليه اى اصطفيتك الخ فرضى موسى كل الرضا ومعنى (بقوة) أى بجد وعزيمة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى بأحسن ما فيها (فان قيل) ظاهر هذا يقتضى أن فيها ما ليس بأحسن وأنه لا يجوز لهم الاخذ به وذلك متناقض (وأجيب) عن ذلك بأجوبة * الاول أن تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن كالاقتصاد والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يحملوا أنفسهم على ما هو أدخل فى الحسن وأكثر للثواب كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وقوله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هذا ما أجاب به فى الكشاف وتبعه البيضاوى والامام الرازى لكن قال التفتازانى هذا ينافى ما تقرر من أن المكتوب على بنى اسرائيل هو القصاص قطعا والجواب بأنه مثال للحسن والاحسن لا لكونه فى التوراة بعيد جدا (فان قيل) يلزم عليه أيضا منع الاخذ بالحسن وذلك يقدح فى كونه حسنا (أجيب) عن هذا بأن الاخذ بالحسن الثانى على سبيل الندب فلا يقدح فى منع الاخذ بالحسن * الثانى ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح وأحسن هؤلاء الثلاثة الواجب * الثالث أن المراد بالاحسن البالغ فى الحسن مطلقا لا بالاضافة وهو المأمور به كقولهم الصيف أحر من الشتاء أى هو فى حره ابلغ من الشتاء فى برده فكذا هنا المأمور به أبلغ فى الحسن من المنهى عنه فى القبح (سأريكم دار الفاسقين) أى دار فرعون وقومه وهى مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل ما نكل بهم وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم فى ممركم عليها فى أسفاركم وقيل المراد دارهم فى الآخرة وهى جهنم (سأصرف عن آياتى) المنصوبات فى الآفاق والانفس كخلق السموات والارض وما بينهما (الذين يتكبرون فى الارض) أى أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقوله تعالى (بغير الحق) صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل فان اظهار التكبر على الغير قد يكون بالحق فان للمحق أن يتكبر

على المبطل وفى الكلام المشهور التكبر على المتكبر صدقة (وان يروا كل آية) أى منزلة أو معجزة (لا يؤمنوا بها) أى لعنادهم وتكبرهم (وان يروا سبيل) أى طريق (الرشد) أى الهدى الذى جاء من عند الله (لا يتخذوه سبيلا) أى طريقا يسلكونه بقصد منهم ونظر وتعمد بل ان سلكوه فعن غير قصد وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين (وان يروا سبيل الغى) أى الضلال (يتخذوه سبيلا) أى بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه (ذلك) أى هذا الصرف العظيم الذى زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الايمان واتخاذ الرسالة (بأنهم) أى بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) أى الدالة على وحدانيتنا (وكانوا عنها غافلين) أى كان دأبهم وديدنهم معاملتهم ايانا بالاعراض عنها حتى كأنها مغفول عنها فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم وعن الفضيل بن عياض ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عظمت أمتى الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام واذا تركوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت عليهم بركة الوحى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة التى هى موعد الثواب فهو من اضافة المصدر الى المفعول به ويجوز أن يكون من اضافة المصدر الى الظرف بمعنى ولقاء ما وعد الله فى الدار الآخرة (حبطت) أى بطلت (أعمالهم) أى ما عملوه فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم لعدم شرطه (هل) أى ما (يجزون الا) جزاء (ما كانوا يعملون) أى من التكذيب والمعاصى (واتخذ قوم موسى من بعده) اى بعد ذهابه الى المناجاة (من حليهم) أى الذى استعاروه من القبط بسبب عرس فبقى عندهم (فان قيل) كيف قال من حليهم وكان معهم معارا (أجيب) بأنه لما أهلك الله تعالى قوم فرعون بقيت تلك الاموال فى أيديهم وصارت ملكا لهم كسائر املاكهم بدليل قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين وقرأ حمزة والكسائى بكسر الحاء والباقون بضمها (عجلا) أى صاغه لهم منه السامرى وقوله تعالى (جسدا) بدل منه أى صار جسدا ذا لحم ودم (له خوار) أى صوت البقر روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فصار حيا له خوار وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح جوفه ويصوت وانما نسب الاتخاذ اليهم وهو فعله امالانهم رضوا به أو لان المراد اتخاذهم اياه الها وقيل انه ما خار الا مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا فاذا خار سجدوا له واذا سكت رفعوا رؤسهم وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك قال السدى كان يخور ويمشى وقوله تعالى (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) تقريع على فرط ضلالهم وافراطهم بالنظر لان هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدى الى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح أن يعبد * ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله (اتخذوه) أى العجل الها (وكانوا ظالمين) أى واضعين الاشياء فى غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ولا أول مناكيرهم واختلفوا هل كل قوم موسى عبدوا العجل أو بعضهم

قال الحسن كلهم عبدوا العجل غير هرون واحتج عليه بوجهين الاول عموم هذه الآية والثانى قول موسى عليه السلام فى هذه القصة رب اغفر لى ولاخى قال خص نفسه وأخاه بالدعاء وذلك يدل على أن من كان مغايرا لهما ما كان أهلا للدعاء ولو بقوا على الايمان ما كان الامر كذلك وقال غيره بل كان قد بقى فى بنى اسرائيل من ثبت على ايمانه وان ذلك الكفر انما وقع فى قوم مخصوصين والدليل عليه قوله ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ولما سقط فى أيديهم) أى ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر قد سقط فى يده وذلك لان من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب بخذه فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن النزول من أعلى الى أسفل (ورأوا) أى علموا (انهم قد ضلوا) عن الطريق الواضح باتخاذ العجل (قالوا) توبة ورجوعا الى الله تعالى كما قال أبوهم آدم عليه السلام (لئن لم يرحمنا ربنا) الذى لم يقطع قط احسانه عنا فيكف غضبه ويديم احسانه (ويغفر لنا) أى يمحو ذنوبنا عينا وأثرا لئلا ينتقم منا فى المستقبل (لنكونن من الخاسرين) أى فينتقم منا بذنوبنا وهذا كلام من اعترف بعظيم ما قدم عليه من الذنوب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى فى اقالة عثرته وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه السلام اليهم كما قال تعالى (ولما رجع موسى) أى من مناجاته (الى قومه غضبان) أى من جهتهم (أسفا) أى لان الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامرى قد أضلهم فكان موسى فى حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الاسف أشد الغضب وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدى والقولان متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب وقرأ حمزة والكسائى بالخطاب فى يرحمنا ويغفر لنا ونصب ربنا والباقون بالغيبة ورفع الباء (قال) موسى لهم (بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس الفعل فعلكم بعد فراقى اياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأتباعه أى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله تعالى وأن يكون لهرون والمؤمنين أى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم *(فائدة)* اتفقوا على وصل بئسما هنا فى الرسم (أعجلتم أمر ربكم) أى أتركتموه غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدى تعديته أو أعجلتم أمر ربكم الذى وعدنيه من الاربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الامم بعد أنبيائهم وروى ان السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال هذا الهكم واله موسى ان موسى لن يرجع وانه قد مات وروى انهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (وألقى الالواح) أى الواح التوراة أى طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر أى عند استماعه حديث العجل حمية للدين وكان فى نفسه حديدا شديد الغضب روى ان التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها أى ستة أسباع ما فيها لا ستة أسباعها نفسها لقوله بعد وأخذ الالواح وكان فيها تفصيل كل شئ وبقى سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال

والحرام

والحرام قال الرازى ولقائل أن يقول ليس فى القرآن الا أنه ألقى الالواح فاما انه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس فى القرآن وأنه جراءة عظيمة على كتاب الله ومثله لا يليق بالانبياء (وأخذ برأس أخيه) أى بشعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله (يجره) أى أخاه (اليه) غضبا وكان هرون عليه السلام أكبر من موسى بثلاث سنوات وأحب الى بنى اسرائيل من موسى لانه كان الين منه جانبا (قال) هرون عند ذلك (ابن أم) قراءة ابن عامر وشعبة والكسائى بكسر الميم وأصله يا ابن أمى فحذف الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء والباقون بالنصب زيادة فى التخفيف لطوله أو تشبيها بخمسة عشر (فان قيل) هرون وموسى من أب وأم فلماذا ناداه بالام فقط (أجيب) بأنه انما ذكرها لانها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ولانها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ليرققه عليه والطاعنون فى عصمة الانبياء يقولون أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الاهانة والاستخفاف والمثبتون لعصمة الانبياء قالوا جر رأس أخيه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة (فان قيل) فلماذا قال يا ابن أم (ان القوم) الذين عبدوا العجل (استضعفونى) أى انى قد بذلت وسعى فى كفهم فاستذلونى وقهرونى (وكادوا) أى قاربوا (يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء) أى فلا تفعل بى ما يشمتون بى لاجله وأصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به أى لا تسر الاعداء بما تنال منى من مكروه فكيف فعل بأخيه ذلك (أجيب) بأن هرون انما قال ذلك خوفا من أن يتوهم جهال بنى اسرائيل ان موسى غضبان عليه كما هو غضبان على عبدة العجل أى فلا تفعل بى ما تشمت به اعدائى فهم اعداؤك فان القوم يحملون هذا الفعل الذى تفعله بى على الاهانة لا على الاكرام (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى الذين عبدوا العجل مع براءتى منهم بالمؤاخذة أو بنسبة التقصير ولما اعتذر له أخوه وذكر شماتة الاعداء (قال رب اغفر لى) أى ما حملنى عليه مما صنعت بأخى (ولاخى) أى اغفر له ما فرط فى كفهم عن عبادة العجل ان كان وقع منه تفريط وضمه الى نفسه فى الاستغفار ترضية له ودفعا للشماتة عنه (وأدخلنا فى رحمتك) بمزيد الانعام علينا (وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا قال الله تعالى (ان الذين اتخذوا العجل) أى الها يعبدونه من دون الله تعالى فهذا هو المفعول الثانى من مفعولى اتخذوا (سينالهم غضب) أى عقوبة (من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا) وهى خروجهم من دارهم وللمفسرين فى هذه الآية طريقان الاول أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادة العجل (فان قيل) أولئك تاب الله عليهم بسبب ان قتلوا أنفسهم فى معرض التوبة على ذلك الذنب واذا تاب الله عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة (أجيب) بأن ذلك الغضب انما حصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطا وقيل خروجهم من ديارهم لان ذل الغربة مثل مضروب (فان قيل) السين فى قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضى (أجيب) بأن هذا انما هو خبر عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين

أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله تعالى فى ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقته وهو القتل الذى أمرهم الله تعالى به بعد ذلك والطريق الثانى أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فوصف اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وان كان مافعل ذلك الا آباؤهم لانهم رضوا بفعلهم ولان العرب تعير الابناء بقبائح أفعال الآباء كما يفعل ذلك فى المناقب يقولون للأمم أفعلتم كذا وكذا وانما فعله من مضى من آبائهم ثم حكم عليهم بأنهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا كما قال تعالى فى صفتهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة (وكذلك) أى كما جزيناهم (نجزى المفترين) أى كل مفتر فى دين الله فجزاؤه غضب الله فى الآخرة والذلة فى الدنيا قال مالك بن أنس مامن مبتدع الا ويجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية لان المبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيآت) أى عملوا الاعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب حتى الكفر (ثم تابوا) أى رجعوا عنها الى الله تعالى (من بعدها) أى من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) أى وصدقوا بالله تعالى بأنه لا اله غيره وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب وان عظمت (ان ربك) أى يا محمد أو يا أيها الانسان التائب (من بعدها) أى التوبة (لغفور) أى ستور عليهم محاء لما كان منهم (رحيم) بهم أى منعم عليهم بالجنة وفى الآية دليل على أن السيآت بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته فان عفوه وكرمه أعظم وأجل وهذا من أعظم مايفيد البشارة والفرح للمذنبين التائبين وتقدير الآية أن من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله تعالى وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته (ولما سكت) أى سكن (عن موسى الغضب) أى باعتذار هرون وبتوبتهم فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذى قال رب اغفر لى ولاخى وفى هذا الكلام استعارتان استعارة بالكناية فى الغضب عن الشخص الناطق واستعارة تصريحية أو تخييلية فى السكوت عن طفء غضب موسى وسكون هيجانه وغليانه وقال عكرمة ان المعنى سكت موسى عن الغضب فقلب كما قالوا أدخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى أدخلت رأسى فى القلنسوة (أخذ الالواح) أى وكان داعيه الاخيه منها بذلك على زوال غضبه عليه فكذلك أخذ الالواح التى ألقاها منها على زوال غضبه قال الامام الرازى وظاهر هذا يدل على ان شيأ منها لم ينكسر ولم يبطل وان الذى قيل من أن ستة اسباع التوراة رفعت الى السماء ليس الامر كذلك اه ومرت الاشارة الى مايدل على الجمع بين ماهنا وبين مامر (وفى نسختها) أى مانسخ فيها من كتب والنسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب فهو نقلك مافى الاصل الى الفرع لان الالواح نسخت من اللوح المحفوظ والنسخة فعلة بمعنى مفعولة كالخطبة وقيل ان موسى عليه السلام لما ألقى الالواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وعلى قول من قال ان الالواح لم تكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون المعنى وفى نسختها أى المكتوب فيها (هدى) أى بيان للحق (ورحمة) أى ارشاد الى الصلاح

والخير

والنذير وقال ابن عباس هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) أى يخافون (فان قيل) التقدير الذين يرهبون ربهم فما الفائدة فى اللام فى قوله لربهم (أجيب) بأوجه الاول ان تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفا فدخلت اللام للتقوية ونظيره قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون الثانى انها لام الاجل والمعنى للذين هم لاجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة الثالث انه قد يزاد حرف الجر فى المفعول وان كان الفعل متعديا كقولك قرأت السورة وقرأت بالسورة (واختار موسى قومه) أى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل اليه فنصب يقال اخترت من الرجال زيدا واخترت الرجال زيدا وأنشد واقول الفرزدق

ومنا الذى اختير الرجال سماحة ✱ وجودا اذا هب الرياح الزعازع

قال أبو على والاصل فى هذا الباب ان فى الافعال ما يتعدى الى المفعول الثانى بحرف الجر ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الى المفعول الثانى من ذلك قولك اخترت من الرجال زيدا ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيدا واستغفر الله من ذنبى واستغفر الله ذنبى قال الشاعر

استغفر الله ذنبا لست محصيه ✱ ويقال أمرت زيدا بالخير وأمرت زيدا الخير قال الشاعر

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ✱ قال الرازى وعندى فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم اطلاقا لاسم الجنس على ما هو المقصود منه وقوله (سبعين رجلا لميقاتنا) عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى ما ذكر من التكلفات (فلما أخذتهم الرجفة) روى ان الله تعالى أمره أن يأتيه فى سبعين رجلا من بنى اسرائيل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب معه الباقون روى أنه لم يصب الا ستين شيخا فاوحى الله تعالى اليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا وقيل كانوا ابناء ما عدا العشرين ولم يجاوزوا الاربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج الى طور سينا لميقات ربه وكان أمره أن يأتيه فى سبعين من بنى اسرائيل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى عليه السلام اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه وافعل لا تفعل فلما فرغ من أمره ونهيه وانكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أى من قبل خروجهم الى الميقات (واياى) معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونى اذا رجعت اليهم وما هم معى وعنى بذلك انك قدرت على اهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على اهلاكهم وباغراقهم فى البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالانقاذ منهما فان ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم احسانك وقال وهب لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة

أخذتهم الرجفة حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم
الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكا وناشد ربه
فكشف الله تعالى عنهم تلك الرجفة واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم وذلك قوله تعالى قال أى
موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل أى من قبل عبادة العجل واياى بقتلى القبطى (أتهلكنا بما
فعل السفهاء منا) أى عبدة العجل وظن موسى انهم عوقبوا باتخاذ بنى اسرائيل العجل وقال هذا
على طريق السؤال وقال المبرد هو استفهام استعطاف أى لا تهلكنا وقد علم موسى عليه السلام
أن الله تعالى أعظم من أن يأخذ بجريرة الجانى غيره وقيل بما فعل السفهاء من العناد والتجاسر
على طلب الرؤية وكان ذلك قاله بعضهم (ان هى) أى ماهى (الا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى
هى تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن
الا فتنتك أى اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله تعالى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان
معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا بأن
أوجدت فى العجل خوارا فزاغوا به وأسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى الرؤية هديت قوما فعصمتهم
حتى ثبتوا على دينك فذلك معنى قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) ولما أثبت ان الكل
بيده تعالى استأنف سؤاله فى أن يفعل لهم الاصلح فقال (أنت) أى وحدك (ولينا) أى نعتقد أن
لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك وأنت لا نفع لك فى شىء من الامرين ولا ضرر بل الكل بالنسبة اليك
على حد سواء ونحن على بصيرة من أن أفعالك لا تعلل بالاغراض وعفوك عنا ينفعنا وانتقامك
منا يضرنا ونحن فى حضرتك قد انقطعنا اليك وحططنا رحال افتقارنا لديك (فاغفر لنا) أى
امح ذنوبنا (وارحمنا) أى اشملنا برحمتك التى وسعت كل شىء (وأنت خير الغافرين) أى لان
غيرك يتجاوز عن الذنب طلبا للثناء أو للثواب أو دفعا للصفة الخسيسة وهى صفة الحقد ونحوه
وأنت منزه عن ذلك فتغفر السيئة وتبدلها حسنة (واكتب) أى أوجب وأثبت واقسم (لنا)
أى فى مدة احيائك لنا (فى هذه الدنيا) أى الحاضرة والدنية (حسنة) أى حسن معيشة وتوفيق
طاعة (وفى الآخرة) أى واكتب لنا فى الحياة الآخرة حسنة وهى الجنة ثم علل ذلك بقوله
(انا هدنا) أى تبنا (اليك) أى عما لا يليق بجنابك وأصل الهود الرجوع برفق والهود جمع هائد
وهو التائب ولبعضهم

يا راكب الذنب هدهد * واسجد كأنك هدهد

قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم بعد نسخها (قال)
الله تعالى لموسى (عذابى أصيب به من أشاء) من خلقى أذنب أو لم يذنب لا اعتراض على (ورحمتى
وسعت) عمت وشملت (كل شىء) من خلقى فى الدنيا ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص
الا وهو متقلب فى نعمتى وهذا معنى حديث أبى هريرة فى الصحيحين ان رحمتى سبقت غضبى وفى
رواية غلبت غضبى وأما فى الآخرة فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون) الله (ويؤتون
الزكاة) وخصها بالذكر لنفعها المتعدى ولانها كانت أشق عليهم قال قتادة لما نزل ورحمتى وسعت

كل شئ قال ابليس أنامن ذلك الشئ فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة (والذين هم بآياتنا يؤمنون) ولا يكفرون بشئ منها فأيس ابليس منها وتمناها اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقى ونؤمن بآيات ربنا فأخرجهما الله تعالى بقوله (الذين يتبعون الرسول النبى الامى) وانما سماه رسولا باضافته الى الله عزوجل لانه الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ونبيا لانه رفيع الدرجة عند الله ثم وصفه بالامى وهو الذى لا يكتب ولا يقرأ وهى صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤن أى الخط والنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الاول أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلابد وأن يزيد فيها أوان ينقص عنها بالقليل والكثير ثم انه عليه الصلاة والسلام مع انه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك معجزة واليه الاشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى الثانى انه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهما فى أنه ربما طالع كتب الاولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا الارتاب المبطلون الثالث تعلم الخط شئ سهل فان أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم ثم انه تعالى آتاه علوم الاولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق مالم يصل اليه أحد من الخلق ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الامور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه صلى الله عليه وسلم وتارة يخرج من القوة الى الفعل كمن لحق زمان دعوته فمن علم الله تعالى منه انه لا يتبعه اذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات غير ذلك وعرفه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق اليه عند مجيئه ريب ولا يتعلل فى أمره بعلة ولذلك اتبعه (الذى يجدونه) أى علماء بنى اسرائيل (مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) باسمه ونعته ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان وعن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال اجل انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله تعالى حتى

يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا انتهى
(شرح غريب ألفاظه) الفظ السيء الخلق والغليظ الجافي القاسي والسخاب بالسين والصاد الكثير
الصياح والاعوجاج ضد الاستقامة والملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذى لا يصل اليه شئ
بفهمه كأنه فى غلاف وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) قال الزجاج يجوز ان يكون استئنافا
ويجوز ان يكون المعنى يجدونه مكتوبا عندهم انه يأمرهم بالمعروف قال الرازى ومجامع
المعروف فى قوله عليه الصلاة والسلام التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وذلك لان
الموجود اما واجب الوجود لذاته واما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فهو الله تعالى ولا معروف
أشرف من تعظيمه واظهار عبوديته واظهار الخشوع والخضوع على باب عزته والاعتراف
بكونه موصوفا بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزها عن الاضداد والانداد وأما
الممكن لذاته فان لم يكن حيوانا فلا سبيل الى ايصال الخير اليه لان الانتفاع مشروط بالحياة
ومع ذلك فانه يجب النظر الى كلها بعين التعظيم من حيث انها مخلوقة لله ومن حيث ان كل
ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على توحيده وتنزيهه فانه يجب
النظر اليه بعين الاحترام ومن حيث ان الله سبحانه وتعالى فى كل ذرة من ذرات المخلوقات
اسرارا عجيبة وحكما خفية فيجب النظر اليها بعين الاحترام وأما ان كان ذلك المخلوق من جنس
الحيوان فانه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الانسان عليه ويدخل فيه بر الوالدين وصلة
الارحام وبث المعروف فثبت ان قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق
الله كلمة جامعة لجميع جهات الامر بالمعروف (وينهاهم عن المنكر) وهو ضد الامور
المذكورة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد وبمكارم الاخلاق وبصلة الارحام
وينهاهم عن المنكر أى عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) أى ما حرم عليهم فى
شرعهم كالشحوم (ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم
اصرهم) أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة الممدودة والصاد وألف بعد
الصاد على الجمع والباقون بكسر الهمزة وسكون الصاد ولا ألف بعدها على التوحيد (والاغلال
التى كانت عليهم) أى ويضع الاثقال والشدائد التى كانت عليهم من الدين والشريعة وذلك مثل
قتل النفس فى التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة من البدن والثوب بالمقراض
وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى اسرائيل شبهت بالاغلال التى تجمع اليد الى العنق كما
ان اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذى نهيت عنه وكانت هذه الاثقال
فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه
قوله صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) أى بمحمد صلى الله عليه
وسلم (وعزروه) أى وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبى صلى الله عليه
وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه (ونصروه) على أعدائه (واتبعوا النور الذى أنزل معه)
اى القرآن سمى نورا لانه به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء

اليقين

اليقين والعلم وقيل الهدى والبيان والرسالة وقيل الحق الذى بيانه فى القلوب كبيان النور (فان قيل) كيف يمكن حمل النور ههنا على القرآن والقرآن ما أنزل مع محمد صلى الله عليه وسلم وانما أنزل مع جبريل عليه السلام (أجيب) بان معناه انه أنزل مع نبوته لان نبوته ظهرت مع ظهور القرآن ثم انه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال (أولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطلوب فى الدنيا والآخرة ولما تم ما نظمه تعالى فى أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبى الكريم حثا على الايمان وايجابا له على وجه يعلم منه انه رسول الله الى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر قال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم) الخطاب عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى كافة الثقلين بل والى الملائكة قاله السبكى والبقاعى وغيرهما وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وان خالف فى ذلك بعضهم وأما سائر الرسل فمبعوثون الى أقوامهم فقط لقوله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى أرسلت الى الاحمر والاسود وجعلت لى الارض طيبة مسجدا وطهورا ونصرت على عدوى بالرعب يرعب منى مسيرة شهر وأطعمت الغنيمة دون من قبلى وقيل لى سل تعطه واختبأت شفاعتى لامتى (فان قيل) كان آدم عليه السلام مبعوثا الى جميع أولاده ونوح عليه السلام لما خرج من السفينة كان مبعوثا الى الذين كانوا معه مع ان جميع الناس فى ذلك الزمان ما كانوا الا ذلك القوم (أجيب) بأن ذلك لم يكن لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور فليس ذلك من باب عموم الرسالة وقوله (جميعا) حال من اليكم أى ان الكل يشترط عليهم الايمان بى والاتباع لى وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى كل أفق وتغلغل فى كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بحر ولا بر فى مشارق الارض ومغاربها الا وقد ألقاه اليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه حين رفع اليه الذراع فنهش منها فقال أنا سيد الناس يوم القيامة وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا قائدهم اذا وفدوا وأنا خطيبهم اذا أنصتوا وأنا مستشفعهم اذا حبسوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر وعن أبى بن كعب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائى والفخر ادعاء العظمة والكبر والشرف أى لا أقول تبجحا ولكن شكرا وتحدثا بالنعمة وما اجتمع بهم فى مجمع الا كان امامهم قبل موته وبعده اجتمع بهم ليلة الاسراء فى بيت المقدس فصلى بهم اماما ثم اجتمع بهم فى السماء فصلى بجميع أهل السماء اماما وأما يوم

الجمع الاكبر والكرب الاعظم فيحيل الكل عليه وما احال بعض الاكابر على بعض الاعلام منهم بأن الختام يكون به ليكون أظهر للاعتراف بامامته والانقياد لطاعته لان المحيل على المحيل على الشئ محيل على ذلك والحاصل انه صلى الله عليه وسلم تظهر في ذلك الموقف رسالته بالفعل الى كافة الخلق فيظهر سر هذه الآية الذين يتبعون الرسول قال البقاعي ولما دل بالاضافة الى اسم الذات مايدل على جميع الصفات على عموم دعوته وشمول رسالته حتى للجن والملائكة أيد ذلك بقوله (الذى له ملك السموات والارض) فيكون محله جرا على الوصف وان حيل بين الصفة والموصوف بقوله اليكم جميعا لانه متعلق المضاف اليه فهو كالمتقدم عليه قال الزمخشرى والاحسن أن يكون محله نصبا باضمار اعنى وهذا الذى يسمى النصب على المدح قال البيضاوى أو مبتدا خبره (لا اله الا هو) أى فالكل منقادون لامره خاضعون له ثم علل ذلك بقوله (يحيى ويميت) أى له هاتان الصفتان مختصا بهما ومن كان كذلك كان منفردا بما ذكر قال البقاعى واذا راجعت ما يأتى ان شاء الله تعالى فى أول الفرقان مع ما مضى فى أوائل الانعام لم يبق عندك شك فى دخول الملائكة عليهم السلام فى عموم الدعوة اه وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس انى رسول الله اليكم جميعا أمر الله تعالى جميع خلقه بالايمان به وبرسوله بقوله (فآمنوا بالله ورسوله) وذلك أن الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عليه فلهذا بدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله ثم وصفه تعالى بقوله (النبى الامى) وتقدم معناهما (الذى يؤمن بالله وكلماته) أى بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه وقال قتادة المراد بكلماته القرآن وقال مجاهد عيسى بن مريم لانه خلق بقوله كن فكان ولم يكن من نطفة تمنى ولهذا سمى كلمة الله وقيل هو الكلمة التى تكون عنها عيسى وجميع خلقه وهى قوله كن (واتبعوه) أى واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه (لعلكم تهتدون) أى لكن تهتدوا وترشدوا وجعل تعالى رجاء الاهتداء أثر الايمان والاتباع تنبيها على ان من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد فى خطيئة الضلالة (ومن قوم موسى) أى من بنى اسرائيل (أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) أى يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) أى يحكمون والمراد بتلك الامة الثابتون على الايمان القائلون بالحق من أهل زمان موسى عليه السلام اتبع ذكر المرتابين الكافرين من بنى اسرائيل بذكر اضدادهم كما هو عادة القرآن تنبيها على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل مستمر وقيل هم الذين أسلموا من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (واعترض) بأنهم كانوا قليلين فى العدد ولفظ الامة يقتضى الكثرة (وأجيب) بأنهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما فى قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة وقيل ان بنى اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم

هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبى الامى فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى عليه السلام أوصانا ان من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى صلى الله عليهما وسلم السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن أنزلت بمكة ولم تكن فريضة نزلت غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا امكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت ولا يتظالموا ولا يتحاسدوا ولا يصل اليهم منا أحد ولا الينا منهم أحد قال بعض المحققين هذا القول ضعيف وان كان البغوى صححه لوجوه الاول كونه اقرأهم عشر سور وقد نزل عليه أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضها الثانى كون جبريل ذهب اليهم به ليلة الاسراء لم يرد بذلك نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث الثالث ان أحدا منهم لا يصل الينا ولا يصل اليهم منا أحد فمن الذى أوصل خبرهم الينا فثبت بذلك بطلان هذا القول (فان قيل) ان يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم الينا ولم يصل خبرنا اليهم (أجيب) بالمنع فمن أين يعرف أنه لم يصل خبرنا اليهم ثم قال فالمختار فى تفسير هذه الآية انها اما أن تكون قد نزلت فى قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (وقطعناهم) أى فرقنا بنى اسرائيل وقوله تعالى (اثنتى عشرة) حال وتأنيثه حملا على الامة (اسباطا) بدل منه ولذلك جمع قبائل والاسباط أولاد الولد وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام (أمما) بدل بعد بدل أو نعت لاسباطا أى وقطعناهم أمما لان كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى لا تكاد تأتلف (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) أى حين استسقوه فى التيه (ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست) اى انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة يقال بجست الماء فانبجس أى فجرته فانفجر قاله الجوهرى وعلى هذا انتقرر فلا تباين بين الانبجاس المذكور هنا وبين الانفجار المذكور فى سورة البقرة وقال آخرون الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة وطريق الجمع أن الماء ابتدأ بالخروج قليلا ثم صار كثيرا وهذا الفرق مروى عن عمرو بن العلاء (فان قيل) هلا قيل فضربه فانبجست (أجيب) بانه انما حذف ذلك للايماء على أن موسى لم يتوقف فى الامتثال وان ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل فى ذاته (منه) أى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) أى بعدد الاسباط (قد علم كل أناس) أى كل سبط منهم (مشربهم) أى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) أى فى التيه ليقيهم من حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) الترنجبيل (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم والقصر جعل الله تعالى ذلك طعاما لهم فى التيه وقيل المن الخبز والسلوى الادام وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السمانى وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت اذا سمع صوت

الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فليهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم) مما لم تعالجوه نوع معالجة وقوله تعالى (وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فيه حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات مارزقناكم فامتنعوا من ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غير ذلك لان المكلف اذا أمر بشئ فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعل ذلك فلهذا قال تعالى وماظلمونا أى بفعل شئ مما قابلوا به الاحسان بالكفران ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمخالفتهم ما أمروا به وقد سبق تفسير هذه الآية فى سورة البقرة (واذ قيل لهم) أى واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لبنى اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) أى بيت المقدس (وكلوا منها) أى من القرية (حيث شئتم وقولوا) أمرنا (حطة وادخلوا الباب) أى باب القرية (سجدا) أى سجودا نحناء وقوله تعالى (تغفر لكم) قرأه نافع وابن عامر بضم التاء وفتح الفاء على التأنيث والباقون بنون مفتوحة وكسر الفاء وقوله تعالى (خطاياكم) قرأه نافع بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة وبعد الهمزة تاء مضمومة على الجمع وابن عامر كذلك الا أنه يقصر الهمزة على التوحيد وأبو عمرو بفتح الخاء والطاء وبعد الطاء ألف بعدها ياء وبعد الياء الف على وزن قضاياكم والباقون بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة بعدها تاء مكسورة (سنزيد المحسنين) أى بالطاعة ثوابا (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) فقالوا حبة فى شعرة ودخلوا يزحفون على أستاههم أى ادبارهم (فأرسلنا عليهم رجزا) أى عذابا (من السماء بما كانوا يظلمون) وهذه القصة أيضا تقدمت فى سورة البقرة لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة فى سورة البقرة من وجوه الاول انه قال هنالك واذ قلنا ادخلوا هذه القرية وهنا قال واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية والثانى انه قال هنالك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو والثالث انه قال هنالك رغدا وأسقطه هنا والرابع انه قال هنالك وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير والخامس انه قال هنالك نغفر لكم خطاياكم وقال هنا نغفر لكم خطيآتكم والسادس انه قال هنالك وسنزيد المحسنين وهنا حذف الواو والسابع انه قال هنالك فانزلنا على الذين ظلموا وقال هنا فارسلنا عليهم الثامن انه قال هنالك بما كانوا يفسقون وقال هنا بما كانوا يظلمون ولا منافاة بين هذه الالفاظ المختلفة اما الاول وهو أنه قال هنالك ادخلوا هذه القرية وقال هنا اسكنوا فلا منافاة بينهما لان كل ساكن فى موضع فلا بد من الدخول فيه وأما الثانى وهو قوله هنالك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو فالفرق بينهما أن للدخول حالة مقتضية للاكل عقب الدخول فحسن دخول الفاء التى هى للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو وعقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤا فظهر الفرق وأما الثالث وهو انه ذكر هنالك رغدا واسقطه هنا فلان الاكل عقب الدخول ألذ وأكمل والاكل مع السكنى والاستمرار ليس كذلك فحسن

دخول لفظ رغدا هناك دون هنا وأما الرابع وهو قوله هناك ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا على التقديم والتأخير فلا منافاة فى ذلك لان المقصود من ذلك تعظيم أمر الله تعالى واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير وأما الخامس وهو انه قال هناك خطايا كم وقال هنا خطيآتكم فهو اشارة الى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أم كثيرة فهى مغفورة عند الاتيان بهذا الدعاء والتضرع وأما السادس وهو قوله تعالى هناك وسنزيد بالواو وقال هنا بحذفها فالفائدة فى حذف الواو انه تعالى وعد بشيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب واسقاط الواو لا يخل بذلك المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا حصل بعد الغفران فقيل انه سيزيد المحسنين وأما السابع وهو الفرق بين انزلنا وبين ارسلنا فلان الانزال لا يشعر بالكثرة والارسال يشعر بها فكأنه تعالى بدأ بانزال العذاب القليل ثم جعله كثيرا وهو نظير ما تقدم من الفرق بين انبجست وانفجرت وأما الثامن وهو الفرق بين قوله تعالى يفسقون وبين قوله تعالى يظلمون فلانهم لما ظلموا أنفسهم فيما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله فوصفوا بكونهم ظالمين لاجل انهم ظلموا أنفسهم وبكونهم فاسقين لانهم خرجوا عن طاعة الله فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الامرين هذا ملخص كلام الرازى رحمه الله تعالى ثم قال وتمام العلم بذلك عند الله تعالى (واسألهم) أى اسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع (عن القرية) أى عن خبرها وما وقع بأهلها الاسؤال استفهام لانه صلى الله عليه وسلم كان قد علم حال هذه القرية بوحى من الله تعالى اليه واخباره اياه بحالهم وانما القصد من هذا السؤال تقرير اعتداء اليهود واقدامهم على الكفر والمعاصى قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكارهم نبوته ومعجزاته ليس بشئ قد حدث الآن فى زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا فى قديم الزمان وفى الاخبار بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لم يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم فى قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم لامر الله تعالى مسخوا قردة واختلفوا فى هذه القرية فقال ابن عباس رضى الله عنهما هى قرية يقال لها ايلة بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهرى هى طبرية الشأم وقيل مدين والعرب تسمى المدينة قرية وعن أبى عمرو بن العلاء ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج يعنى رجلين من أهل المدن (التى كانت حاضرة البحر) أى مجاورة بحر القلزم على شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام (اذ) أى حين (يعدون) أى يعتدون (فى السبت) أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد فيه وقد نهوا عنه وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون (يوم سبتهم شرعا) أى ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع وقال الضحاك متتابعة وعن الحسن تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت فى معنى السمكة والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد

والاشتغال بالتعبد فمعناه يعدون فى تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم أمر السبت يدل عليه قوله تعالى (ويوم لا يسبتون) أى لا يعظمون السبت أى سائر الايام (لا تأتيهم) أى الحيتان ابتلاء من الله تعالى (كذلك) أى مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم بما) أى بسبب ما (كانوا يفسقون) وقوله تعالى (واذ) معطوف على اذ قبله (قالت أمة) أى جماعة (منهم) أى من أهل القرية لم تصد ولم تنه لمن نهى (لم تعظون قوما الله مهلكهم) فى الدنيا بعذاب من عنده لانهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ (أو معذبهم عذابا شديدا) فى الآخرة لتماديهم فى العصيان (قالوا) أى الواعظون موعظتنا (معذرة) نعتذر بها (الى ربكم) أى لئلا ننسب الى تقصير فى ترك النهى فان النهى عن المنكر يجب وان علم الناهى ان مرتكبه لا يقلع عن معصيته وقيل اذا علم الناهى حال المنهى وان النهى لا يؤثر فيه سقط النهى وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ألا ترى انك لو ذهبت الى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثا منك ولم يكن الا سببا للتلهى بك (ولعلهم يتقون) أى وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد اذ اليأس لا يحصل الا بالهلاك (فلما نسوا) أى تركوا ترك الناسى (ما ذكروا) أى وعظوا (به) ولم يرجعوا (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) أى بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى (بعذاب بئيس) أى شديد (بما) أى بسبب ما (كانوا يفسقون) روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال أسمع الله تعالى يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدرى ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكى قال عكرمة فقلت جعلنى الله تعالى فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولى ورضى به وأمر لى ببردين فالبسنيهما وقال نجت الساكتة وقال عمار بن زيان نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن (فان قيل) ان ترك الوعظ معصية والنهى أيضا عنه معصية فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله تعالى وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ولهذا قال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان (أجيب) بأن هذا غير لازم لان النهى عن المنكر انما يجب على الكفاية فاذا قام به البعض سقط عن الباقين (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس ابوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان أى فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا فى العصيان من اعتدائهم فى السبت واستحلالهم ما حرم الله تعالى عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى صاغرين فكانوها كقوله تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وهذا يقتضى ان الله تعالى عذبهم أولا بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا للاولى وروى ان اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا

يوم السبت فابتلوا به وحرّم الله عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض لا يرى الماء من كثرتها ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها وتأخذونها يوم الاحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى السبت القابل حوتين فلما رأوا ان العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلثا نهوا وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفا وثلثا قالوا لم تعظون قوما وثلثا هم أصحاب الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون انا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان للناس شأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الانس والانس لا يعرفون أنسباءهم من القرود فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى فيقول ألم ننهك فيقول برأسه بلى وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير واختلفوا فى ان الذين مسخوا هل بقوا قردة وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم لا دلالة فى الآية على شئ من ذلك وعن الحسن أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة وعن جابر بين العبد وبين رزقه حجاب فان صبر خرج اليه والا هتك الحجاب ولم ينل الا ما قدر له قال الزمخشرى هاه وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر وقوله تعالى (واذ) عطف على واسألهم أى واذكر لهم حين (تأذن) أى أعلم (ربك) وأجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بجوابه وهو (ليبعثن عليهم) أى اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى بالاهانة والذل وأخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده بختنصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية وكانوا يؤدونها الى المجوس الى أن بعث الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ولا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر حتى ينزل عيسى بن مريم فانه لا يقبل الجزية ولا يقبل الا الاسلام (فان قيل) انه يحكم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته أخذ الجزية أو الاسلام (أجيب) بأن شريعته بذلك مغياة بنزول عيسى عليه السلام وقوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) أى لمن أقام على الكفر كهيئة الدليل على انه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وانه لغفور) أى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام (رحيم) بهم (وقطعناهم) أى فرقناهم (فى الارض أمما) أى فرقا بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تتمة لادبارهم حتى لا تكون لهم شوكة قط وأمما مفعول ثان أو حال وقوله تعالى (منهم الصالحون) صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا

بالمدينة ونظراؤهم (ومنهم) أى اناس (دون ذلك) أى منحطون عن الصلاح فهم كفرتهم وفسقتهم (وبلوناهم) أى اختبرناهم جميعا الصالح وغيره (بالحسنات) أى بالخصب والعافية (والسيآت) أى بالجور والشدة (لعلهم يرجعون) أى كى يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعانى وكل واحد من الحسنات والسيآت يدعو الى الطاعة اما النعم فلاجل الترغيب وأما النقم فلاجل الترهيب (فخلف من بعدهم) أى هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) والخلف القرن الذى يجئ من بعد وهو بسكون اللام شائع فى الشر وبفتحها فى الخير يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها وقد تحرك فى الذم وتسكن فى المدح قال حسان بن ثابت

لنا القدم الأولى اليك وخلفنا * لاولنا فى طاعة الله تابع

وقال لبيد فى الذم

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

فحرك اللام والخلف مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع والمراد به الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) أى التوراة من اسلافهم يقرؤنها ويقفون على مافيها (يأخذون عرض هذا الادنى) أى هذا الشئ الفانى الادنى أى الدنيا وما يتمتع به فيها وفى قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير والادنى اما من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب واما من دون الحال وسقوطها وقلتها والعرض بالفتح جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير وجمعه عروض والمعنى انهم يأخذون حطام الدنيا وهو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فالیهود ورثوا التوراة وعلموا مافيها وضيعوا العمل بمافيها وتركوه وأخذوا الرشا فى الاحكام ويعلمون أنه حرام (و) مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم واصرارهم عليه (يقولون سيغفر لنا) أى لايؤاخذهم الله تعالى بذلك فيتمنون على الله الامانى الباطلة وعن شداد بن أوس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى لان اليهود كانوا يقومون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو فيه للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الاصرار وقوله تعالى (ألم يؤخذ) استفهام تقرير (عليهم ميثاق الكتاب) أى التوراة والاضافة بمعنى فى (ان لا يقولوا على الله الا الحق) أى المعلوم شأنه وليس من المعلوم اثبات المغفرة على القطع بغير توبة بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وقوله تعالى (ودرسوا مافيه) أى ما فى ذلك الميثاق الذى فى الكتاب أو الكتاب بتقرير القراءة للحفظ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير او على ورثوا وألم يؤخذ اعتراض (والدار الآخرة خير) أى وما فى الدار الآخرة مما اعده الله خير (للذين يتقون) الله ويخافون

عقابه (أفلا يعقلون) أى حين أخذوا مايشقيهم ويفنى بدل مايسعدهم ويبقى أن الدار الآخرة خير وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ويكون المراد الاعلام بتناهى الغضب والباقون بالياء على الغيبة (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به وأمسكت به والتمسك بالكتاب العمل بما فيه واحلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك بأحكامه وقرأ شعبة بسكون الميم وتخفيف السين والباقون بفتح الميم وتشديد السين (وأقاموا الصلاة) أى وداوموا على اقامتها فى مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى وهذه الآية نزلت فى الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وقوله تعالى (انا لا نضيع أجر المصلحين) الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أى أجرهم (واذ) أى اذكر يا محمد اذ (نتقنا) أى رفعنا (الجبل فوقهم) أى من أصله (كأنه ظلة) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كأنه سقيفة والظلة كل ما أظلك من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال (وظنوا) أى ايقنوا (أنه واقع بهم) أى ساقط عليهم بوعد الله بوقوعه ان لم يقبلوا أحكام التوراة روى أنهم لم يقبلوا أحكام التوراة لعظمها وثقلها فرفع الله تعالى الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم فكان فرسخا فى فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه وهو ينظر بعينه اليمنى خوفا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هى السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة وقوله تعالى (خذوا) هو على اضمار القول أى قلنا لهم خذوا أو قائلين خذوا (ما آتيناكم) أى من الكتاب وقوله تعالى (بقوة) أى بجد وعزم على تحمل مشاقه حال من واو خذوا (واذكروا ما فيه) أى بالعمل به ولا تتركوه كالمنسى (لعلكم تتقون) أى فضائح الاعمال ورذائل الاخلاق (واذ) أى واذكر يا محمد حين (أخذ ربك من بنى آدم) وقوله تعالى (من ظهورهم) بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار كما قاله السيوطى أو بدل بعض كما قاله البيضاوى (ذريتهم) أى بأن أخرج بعضهم من صلب بعض نسلا بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا عرفوا به كما جعل للجبال عقولا حين خوطبوا بقوله تعالى يا جبال أوبى معه والطير كما جعل تعالى للبعير عقلا حتى سجد للنبى صلى الله عليه وسلم وكذا للشجرة حين سمعت لامره وانقادت وكذا للنملة حين قالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر بألف بعد الياء وكسر التاء على الجمع والباقون بغير ألف وفتح التاء على التوحيد (وأشهدهم على أنفسهم) قال (ألست بربكم قالوا بلى) أنت ربنا وعن مسلم بن يسار الجهنى أنه قال ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء

الى النار ويعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عينى كل انسان وبيصا من نور وعرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا قال داود قال يارب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يارب زده من عمرى أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا أربعين سنة جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمرى أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أبصر آدم فى ذريته قوما لهم نور فقال يارب من هم فقال الانبياء ورأى واحدا هو أشدهم نورا فقال يارب من هو قال داود قال فكم عمره قال ستون سنة قال آدم هو قليل وكان عمر آدم ألف سنة فقال يارب زده من عمرى أربعين سنة فلما تم عمر آدم تسعمائة وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه فقال بقى من أجلى أربعون سنة فقال ألست قد وهبتها من ابنك داود فقال ما كنت لاجعل لاحد من أجلى شيأ فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها وعن مقاتل ان الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيض كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سود كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء فى الجنة برحمتى وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء فى النار ولا أبالى وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعا فى صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء وقال تعالى فيمن نقض العهد الاول وما وجدنا لاكثرهم من عهد وقال بعض المفسرين ان أهل السعادة أقروا طوعا وقالوا بلى وأهل الشقاوة قالوا بلى تقية وكرها وذلك معنى قوله تعالى وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واختلفوا فى موضع الميثاق فقال ابن عباس رضى الله عنهما ببطن نعمان وهو واد الى جنب عرفة وعنه أيضا أنه بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه السلام وقال الكلبى بين مكة والطائف (فان قيل) ما معنى قوله تعالى واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم وانما أخرجهم من ظهر آدم (أجيب) بأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على ما يتوالدون فالابناء من الآباء فى الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم انهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره وقوله (شهدنا) أى على أنفسنا بذلك وانما أشهدهم على أنفسهم كراهة (أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا) التوحيد (غافلين) أى لعدم الادلة فلذلك أشركنا وقوله تعالى (أو يقولوا) أى

لولم ترسل اليهم الرسل عطف على أن يقولوا وقرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب (انما أشرك آباؤنا من قبل) أى قبل أن نوجد (وكنا ذرية من بعدهم) أى فلم نعرف انا من باغ غيرهم فكنا لهم تبعا فشغلنا اتباعهم عن النظر ولم يأتنا رسول ينبه فيتسبب عن ذلك انكارهم فى قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى من آبائنا قال أبو حيان والمعنى ان الكفرة لولم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان احداهما كنا غافلين والاخرى كنا تبعا الاسلافنا فكيف والذنب انما هو لمن طرق لنا وأضلنا انتهى (فان قيل) كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة فانهم لما أخرجوا من ظهر آدم ركب فيهم العقل وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا الى صلبه بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق (أجيب) بأن التذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره فى النفوس وبذلك قامت الحجة عليهم يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة بنسيانهم وعدم حفظهم بعد اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات والمقصود من ايراد هذا الكلام هنا الزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم من التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال تعالى (وكذلك) أى ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع (نفصل الآيات) أى كلها لئلا يواقعوا ما لا يليق بجنابنا جهلا لعدم الدليل (ولعلهم يرجعون) أى عن التقليد واتباع الباطل (واتل) أى يا محمد (عليهم) أى اليهود (نبأ) أى خبر (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعم بن باعوراء من علماء بنى اسرائيل وقيل من الكنعانيين سئل أن يدعو على موسى وأهدى اليه شئ فدعا فانقلبت عليه واندلع لسانه على صدره (فأتبعه الشيطان) أى لحقه وأدركه وصيره لنفسه تابعا فى معصية الله تعالى فخالف أمر ربه وأطاع الشيطان وهواه (فكان من الغاوين) أى من الضالين الهالكين * وقصته على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد ومعه جند كثير وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى اسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون وانى ان فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أوامر ربى وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فوامر فى الدعاء عليهم فقيل له فى المنام لا تدع عليهم فقال لقومه انى قد وامرت ربى وانى نهيت ان ادعو عليهم فأهدوا اليه هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أوامر ربى فوامر فلم يؤمر بشئ فقال قد وامرت ربى فلم يأمرنى بشئ فقالوا لو كره ربك ان تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الاولى فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب اتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر

بنى اسرائيل يقال له حسبان فلما سار على اتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها فأذن الله تعالى لها فى الكلام وانطقها الله فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب أما ترى الملائكة امامى تردنى عن وجهى ويحك أتذهب الى نبى الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزجر فخلى الله تعالى سبيل الاتان فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان فجعل يدعو عليهم فلا يدعو بشر الا صرف الله تعالى به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله تعالى به لسانه الى بنى اسرائيل فقال له قومه يا بلعم أتدرى ماتصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا مالا أملكه هذا شئ قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهب الآن منى الدنيا والآخرة ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكم واحتال احملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى عسكر بنى اسرائيل يبعنها فيه ومروهن ان لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنا رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بنى اسرائيل وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حتى أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف على موسى وقال انى لاظنك أن تقول هذه حرام عليك قال أجل هى حرام عليك لاتقربها قال فوالله لانطيعك ثم دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون فى الوقت فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة من النهار * وقيل الآية نزلت فى أمية ابن أبى الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم ان الله تعالى يرسل رسولا فى ذلك الزمان ورجا أن يكون هو فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به * وقيل نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم * وقيل انها نزلت فى البسوس وهو رجل من بنى اسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وكان له منها أولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لها لك منها واحدة فما تريدين قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى اسرائيل فدعا الله تعالى فصارت أجمل النساء فى بنى اسرائيل فلما علمت أنه ليس فى بنى اسرائيل أجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها وقالوا ليس لنا على هذا قرار قد صارت امنا كلبة نباحة وقد عيرنا الناس ادع الله أن يردها الى الحال التى كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات كلها وقيل غير ذلك ويدل للقول الاول قوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه) أى منازل الابرار (بها) أى بسبب تلك الآيات (ولكنه أخلد الى الارض) أى مال الى الدنيا قال البيضاوى أو السفالة قال الجوهرى السفالة بالضم نقيض العلو وبالفتح النذالة (واتبع هواه) أى فى آثار الدنيا واسترضى قومه وأعرض عن مقتضى الآيات وانما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيها على ان المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وان عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه وان السبب الحقيقى هو المشيئة وان مانشاهده من هذه الاسباب وسايط معتبرة فى حصول المسبب من حيث ان المشيئة تعلقت به كذلك

وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد الى الارض واتبع هواه مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه وان حب الدنيا رأس كل خطيئة وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم وذلك لانه بعد ان خص هذا الرجل بآياته وعلمه الاسم الاعظم وخصه بالدعوات المستجابة لما اتبع الهوى انسلخ من الدين فصار فى درجة الكلب وذلك يدل على ان كل من كانت نعم الله تعالى فى حقه أكثر فاذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى كان بعده عن الله أعظم واليه الاشارة بقوله من ازداد علما ولم يزدد هدى فلم يزدد من الله الابعدا (فمثله) أى فصفته التى هى مثل فى الخسة (كمثل الكلب) أى كمثله فى أخس أوصافه وهو (ان تحمل عليه) أى بالطرد والزجر (يلهث) أى يدلع لسانه (أو) ان (تتركه يلهث) فهو يلهث دائما سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك وليس غيره من الحيوان كذلك قيل كل شئ يلهث انما يلهث من اعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال والراحة لان اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال من كذب بآيات الله ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال وكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب وعن ابن عباس رضى الله عنهما الكلب منقطع الفؤاد يلهث ان حمل عليه أولم يحمل عليه ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالتين وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب (ذلك) أى المثل (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فعم بهذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا بل هم فى ضلال على كل حال (فاقصص القصص) أى فاخبر يا محمد قومك بهذه الاخبار التى سبقت بها مواقع الوقائع وآثار الاعيان حتى لم تدع فى شئ منها البسا على كل من يسمع لك من اليهود وغيرهم (لعلهم يتفكرون) أى يتدبرون فيها فيؤمنون (ساء) أى بئس (مثلا القوم) أى مثل القوم (الذين كذبوا بآياتنا) أى بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها (وأنفسهم كانوا يظلمون) أى كان ذلك فى طبعهم جبلة لهم لا يقدر غير الله تعالى على تغييره وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّاها الى غيرها وقوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى وأن هداية الله تعالى تختص ببعض دون بعض وانها مستلزمة للاهتداء والافراد فى الاول والجمع فى الثانى باعتبار اللفظ والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقتهم بخلاف الضالين والاقتصار فى الاخبار عمن هدى الله بالمهتدى تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على انه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لولم يحصل له غيره لكفاه وانه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان له (ولقد ذرأنا) أى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله تعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين

حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أوغير ذلك ياعائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى اصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى اصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو فى الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث وأجاب العلماء عنه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله نهاها عن المسارعة الى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبى وقاص قوله اعطه فانى لأراه مؤمنا فقال أو مسلما قال بعضهم ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أن اطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك أخبر به قال وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة منهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة واستدلوا بأشياء منها حديث ابراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس قالوا يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول المرسل حتى يبلغ وهذا متفق عليه وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى ان الله تعالى خالق افعال العباد جميعها خيرها وشرها لانه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله تعالى ولان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب عليه دخول النار به علم أن له من يضطره الى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله تعالى وقالت المعتزلة ان اللام فى قوله لجهنم لام العاقبة واستدلوا لذلك بآيات واشعار فمن الآيات قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم ما التقطوه لهذا الغرض ومنها قول موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ومن الاشعار قول بعضهم

وللموت تغذو الوالدات سخالها * كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وقال آخر أموالنا لذوى الميراث نجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر له ملك ينادى كل يوم * لدوا للموت وابنوا للخراب

وقال آخر وأم شمال فلا تجزعى * فللموت ما تلد الوالدات

وهذا مردود لان المصير الى التأويل انما يحسن اذا ثبت الدليل العقلى على امتناع حمل اللفظ على ظاهره فاذا لم يثبت كان المصير الى التأويل فى هذا المقام عبثا فالحق مذهب أهل الحق جعلنا الله تعالى وأهل مودتنا منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين أضلهم بقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها) أى لا يبصرون بها طريق الحق والهدى (ولهم آذان لا يسمعون بها) أى الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر

وقال اهل المعانى ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لاشك فيه ولما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم أن المراد من ذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم فى الآخرة والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قوله الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها * وانى ان أشاء بها سميع

فانه أثبت له صمما مع وجود السمع ولما سلب عنهم هذه المعانى كانت النتيجة (أولئك) اى البعداء من المعانى الانسانية (كالانعام) فى انها لا تفهم ولا تعقل ذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركة فى هذه الحواس الثلاث التى هى القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير من الشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه كان لا فرق بينه وبين البهائم التى لا تدرك شيأ ولما كانوا قد زادوا على ذلك بفقد نفع هذه الحواس قال تعالى (بل هم أضل) سبيلا من الانعام لان الانعام تعرف ما يضرها وما ينفعها فاذا رأت نارا مثلا لا تقع فيها واذا رأت كلأ مثلا دخلت فيه والكافر لا يعرف ذلك ولان الحيوان لا قدرة له على تحصيل هذه الفضائل والانسان أعطى القدرة على تحصيلها ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالا ممن لم يكتسبها مع العجز عنها ولان الانعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع ولان الانعام تعرف ربها وتذكره وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولانها تضل اذا لم يكن معها مرشد فأما اذا كان معها مرشد فقل أن تضل وهؤلاء الكفار قد جاءهم الانبياء وأنزل عليهم الكتب وهم يزدادون فى الضلالة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (أولئك هم الغافلون) قال عطاء عما أعد الله تعالى لاوليائه من الثواب ولاعدائه من العقاب (ولله الاسماء الحسنى) ذكر ذلك فى أربع سور أولها هذه السورة وثانيها فى آخر سورة بنى اسرائيل فى قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وثالثها فى أول طه وهو قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ورابعها فى آخر الحشر فى قوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى والحسنى مؤنث الاحسن كالكبرى والصغرى (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الصفات وللدعاء شروط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ومنها أن يستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ومنها أن يخلص اليه فى دعائه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وكان صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقال المشركون ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله تعالى هذه الآية والاسماء الحسنى كما فى الحديث الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق

الباري المصوّر الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذلّ السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحيّ القيوم الواجد الماجد الواحد الاحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدّم المؤخر الاوّل الآخر الظاهر الباطن الوال المتعال البرّ التوّاب المنتقم العفوّ الرؤف مالك الملك ذوالجلال والاكرام المقسط الجامع الغنيّ المغني المانع الضارّ النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور رواه الترمذي قال النووي اتفق العلماء على أنّ هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه تعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وقوله من أحصاها دخل الجنة المراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء في حديث آخر أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربي المالكي عن بعضهم ان لله تعالى ألف اسم قال ابن العربي وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة قال البخاري من حفظها وهو قول أكثر المحققين وتعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل من أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى الواحد الذي لا شريك له ولا نظير واختلفوا هل الاسم الاعظم الله أو الحيّ القيوم وهل الاسم عين المسمى أو غيره وفي ذلك خلاف وقد حققت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة (وذروا) أي اتركوا (الذين يلحدون) أي يميلون عن الحق (في أسمائه) أي حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز ومنات من المنان وقال أهل المعاني الالحاد في أسمائه تعالى هو أن تسميه بما لم يسم الله به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان أسماءه تعالى كلها توقيفية فيجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب (سيجزون) أي في الدنيا والآخرة (ما كانوا يعملون) وفي هذا وعيد شديد لمن الحد في أسمائه تعالى وهذا قبل الامر بالقتال وقرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد ولما ذكر سبحانه وتعالى انه خلق للنار طائفة ضالين مضلين ملحدين عن الحق ذكر أنه خلق للجنة أمة هادين في الحق عادلين في الامر بقوله تعالى (وممن خلقنا أمة) أي جماعة (يهدون بالحق وبه) أي بالحق خاصة (يعدلون) أي يجعلون الامور متعادلة لا زيادة في شئ منها على ما ينبغي ولا نقص لانا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمناها أولئك واستدل بذلك على صحة الاجماع لانّ المراد منه انّ في كل قرن طائفة بهذه الصفة وأكثر المفسرين انهم أمة محمد صلى الله عليه

وسلم

وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم لا تزال من أمتى طائفة على الحق الى أن يأتى أمر الله رواه الشيخان وعن معاوية رضى الله تعالى عنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك اذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فانه معلوم وعن الكلبى هم الذين آمنوا من أهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين (والذين كذبوا بآياتنا) أى القرآن أو غيره من أهل مكة أو غيرهم (سنستدرجهم) أى سنستدنيهم الى الهلاك قليلا قليلا وأصل الاستدراج الاستبعاد والاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لا يعلمون) أى سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرة أغفل ما يكونون وقيل سنقربهم الى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بذنب فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادوا بذلك تماديا فى الغى والضلالة ويتدرجوا فى الذنوب والمعاصى بسبب ترادف النعم يظنون ان تواتر النعم يقرب من الله تعالى وانما هى خذلان منه وتبعيد فهو استدراج الله تعالى فيأخذهم الله تعالى أخذة واحدة اغفل ما يكونون عليه وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (وأملى لهم) أى أمهلهم وأطيل مدة أعمارهم ليتمادوا فى الكفر والمعاصى ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (ان كيدى) أى أخذى (متين) أى شديد وانما سماه كيدا لان ظاهره احسان وباطنه خذلان (أولم يتفكروا) فيعلموا (ما بصاحبهم) محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أى جنون روى أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يا بنى فلان يا بنى فلان يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت ومعنى يهوت يصوت يقال هيت به وهوت به أى صاح قاله الجوهرى وانما نسبوه الى الجنون وهو برئ منه لانه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله تعالى وانذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى (ان) أى ما (هو الا نذير مبين) أى بين الانذار بحيث لا يخفى على ناظر (أولم ينظروا) أى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والارض) أى ملكهما البالغ (وما) أى وفيما (خلق الله من شئ) أى غيرهما مما يقع عليه الشئ من الاجناس التى لا يمكن حصرها ليدل لهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولى أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم اليه وقوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب) أى دنا (أجلهم) عطف على ملكوت وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون ولا يصح أن تكون أن مصدرية خلافا للبيضاوى قال التفتازانى لان المصدرية لا تدخل الافعال غير المتصرفة التى لا مصادر لها والمعنى أولم

ينظروا فى اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا الى طلب الحق والتوجه الى ماينجيهم قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب فلعل أجلهم قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا الى النار فيجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز والنعيم الدائم (فبأى حديث) أى كتاب (بعده) أى الكتاب الذى جاءبه محمد صلى الله عليه وسلم (يؤمنون) أى يصدقون وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعده صلى الله عليه وسلم (فان قيل) قوله تعالى فبأى حديث بعده يؤمنون يدل على أن القرآن حادث كما تمسك به بعض المعتزلة (أجيب) من جهة أهل السنة بأن ذلك محمول على الالفاظ من الكلمات ولانزاع فى حدائتها * ثم ذكر تعالى علة اعراضهم عن الايمان بقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادى له) بوجه من الوجوه اى ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم ولوهداهم لآمنوا (ويذرهم) أى يتركهم (فى طغيانهم) أى ضلالهم وتماديهم فى الكفر (يعمهون) أى يترددون متحيرين لايهتدون سبيلا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ونذرهم بالنون والباقون بالياء وجزم حمزة والكسائى الراء قال سيبويه انه عطف على محل الفاء ومابعدها من قوله تعالى فلا هادى له لان موضع الفاء ومابعدها جزم لجواب الشرط ورفعها الباقون استئنافا وهو مقطوع عما قبله * ولما بين تعالى التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه المعاد لتكمل المطالب الاربعة التى هى أمهات مطالب القرآن مبينا ما اشتمل عليه عامة الكلام من تبلدهم فى العمه وتلددهم فى أشراك الشبه بقوله تعالى (يسئلونك) يامحمد سؤال استهزاء (عن الساعة) أى عن وقتها واختلفوا فى ذلك السائل فقال ابن عباس ان قوما من اليهود قالوا يامحمد أخبرنا متى تقوم الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى هى فنزلت هذه الآية وقال الحسن وقتادة ان قريشا قالوا يامحمد بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والساعة من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أولان حساب الخلق يقضى فيها فى ساعة واحدة فسميت بالساعة لهذا السبب أولانها على طولها عند الله تعالى كساعة واحدة وقوله تعالى (أيان) سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى (مرساها) قال ابن عباس منتهاها والمرسى هنا مصدر بمعنى الارساء كقوله تعالى بسم الله مجراها ومرساها أى اجراؤها وارساؤها والارساء الاثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت قال الله تعالى والجبال أرساها (قل) لهم يامحمد (انما علمها) أى متى تكون (عند ربى) أى لايعلم الوقت الذى تقوم فيه الساعة الا الله تعالى استأثر الله تعالى بعلمها فلم يطلع عليه أحدا من خلقه ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال متى الساعة فقال عليه الصلاة والسلام ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون والسبب فى اخفاء الساعة عن العباد أنهم اذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية ثم انه تعالى أكد هذا المعنى فقال (لايجليها) أى يظهرها (لوقتها) أى فى وقتها المعين فاللام بمعنى فى وهو أولى من قول البيضاوى انها للتأقيت (الاهو)

أى لا يقدر على اظهار وقتها المعين بالاعلام والاخبار الاهو (ثقلت) أى عظمت (فى السموات والارض) أى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والارض وكل شئ خفى فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب وقوله تعالى (لاتأتيكم الابغتة) تأكيد أيضا لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لاتجىء الافجأة على حين غفلة من الخلق وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولايطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلايطعمه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع الاكلة الى فيه فلايطعمها ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلايسقى فيه اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج وقوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه أى يطينه ويصلحه يقال لاط حوطه يليطه ويلوطه اذا طينه والاكلة بضم الهمزة اللقمة وفى رواية ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم بسلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه رواه بمعناه الشيخان (يسألونك) أى يسألك قومك عن الساعة (كأنك حفى عنها) أى عالم بها من قولهم أحفيت فى المسئلة اذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها وقيل الحفى البار اللطيف ومنه قوله سبحانه وتعالى انه كان بى حفيا أى بارا لطيفا مجيب دعائى اذا دعوته أى يسألونك كأنك بار بهم لطيف العشرة معهم وهذا قول الحسن ويؤيده ماروى فى تفسيره أن قريشا قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والمعنى يسألونك عنها كأنك حفى فتحفى بهم أى فتخصهم لاجل قرابتك بتعليم وقتها وتزوى علمها عن غيرهم ولو أخبرت بوقتها المصلحة علمها الله تعالى فى اخبارك به لكنت مبلغه القريب والغريب من غير تخصيص كسائر ما أوحى اليك وقيل كأنك حفى بالسؤال عنها تحبه وتؤثره أى انك تكره السؤال عنها لانه من علم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته أحدا من خلقه كقوله تعالى (قل) يامحمد (انما علمها عند الله) أى استأثر الله تعالى بعلمها فلايعلم متى الساعة الاهو (فان قيل) قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله تعالى ثانيا يسألونك كأنك حفى عنها فيه تكرارا (أجيب) بأنه لاتكرار لان السؤال الاول عن وقت قيام الساعة والثانى عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها فلا يلزم التكرار وقيل ذكر الثانى للتأكيد ولماجاء به من زيادة قوله كأنك حفى عنها وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق فى كتبهم لايخلون المكرر من فائدة ومنهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله تعالى (فان قيل) لم أجاب عن الاول بقوله انما علمها عند ربى وعن الثانى بقوله انما علمها عند الله (أجيب) بأن السؤال الاول لما كان واقعا عن وقت قيام الساعة والثانى كان واقعا عن مقدار شدتها ومهابتها عبر عن الجواب فيه بقوله علم ذلك عند الله لانه أعظم أسمائه مهابة وعظمة ثم انه تعالى ختم هذه الآية بقوله (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى لايعلمون السبب الذى من أجله أخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن

الخلق وقيل لا يعلمون ان علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وروى أن أهل مكة قالوا يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيصة قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء وبالارض التي تريد أن تجدب فنرحل عنها الى ما قد أخصبت فأنزل الله تعالى (قل) لهم (لا أملك لنفسي نفعا) اجتلاب نفع بأن أربح فيما اشتريه (ولا ضرا) أي ولا أقدر أدفع عن نفسي ضرا نزل بها بأن أرتحل الى الارض الخصبة أو من الارض الجدبة (الا ما شاء الله) من ذلك فيلهمني اياه ويوفقني له وقيل انه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بني المصطلق عصفت ريح في الطريق ففرت الدواب منها فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا أين ناقتي فقال عبد الله بن أبي المنافق مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت الرجل بالمدينة ولم يعرف أين ناقته فقال صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولو كنت) أي من ذاتي (أعلم الغيب) أي جنسه (لاستكثرت) أي أوجدت لنفسي كثيرا (من الخير وما مسني السوء) أي ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع ويدخل فيه ما يتصل بالخصب واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء (ان) أي ما (أنا الا نذير) بالنار للكافرين (وبشير) بالجنة (لقوم يؤمنون) أي يصدقون وقيل لقوم يؤمنون متعلق بنذير وبشير لانهم المنتفعون بهما (هو الذي خلقكم) أي ولم تكونوا شيئا (من نفس واحدة) أي خلقها ابتداء من تراب وهي آدم عليه السلام (وجعل منها) أي من جسدها من ضلع من اضلاعها وقيل من جنسها لقوله تعالى وجعل لكم من أنفسكم أزواجا (زوجها) أي حواء قالوا والحكمة في كونها خلقت منه ان الجنس الى الجنس أميل والجنسية علة الضم (ليسكن اليها) أي ليأنس بها ويطمئن اليها اطمئنان الشيء الى جزئه أو جنسه وانما ذكر الضمير في يسكن بعد ان أنث في قوله تعالى من نفس واحدة ذهابا الى معنى النفس ليناسب تذكير الضمير في قوله تعالى (فلما تغشاها) أي جامعها ولئلا يوهم لو أنثه نسبة السكون الى الانثى والامر بخلافه ازالة لاستيحاشه فكانت نسبة المؤانسة اليه أولى (حملت حملا خفيفا) أي خف عليها ولم تلق منه ما يلقى الحوامل غالبا من الاذى أو محمولا خفيفا وهو النطفة (فمرت به) أي فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ولم يعقها عن شيء من ذلك لخفته (فلما أثقلت) أي صارت ذا ثقل بكبر الولد في بطنها (دعوا الله) أي آدم وحواء عليهما السلام (ربهما) مقسمين (لئن آتيتنا صالحا) أي ولدا سويا لا عيب فيه (لنكونن من الشاكرين) أي نحن وأولادنا على نعمتك علينا وذلك انهما جوزا ان يكون غير سوي لقدرة الله تعالى على كل ما يريد لانه الفاعل المختار * (فائدة) * اتفق القراء على ادغام تاء التأنيث الساكنة في الدال (فلما آتاهما صالحا) أي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا فكثروا في الارض وانتشروا في نواحيها ذكورا واناثا (جعلا) أي النوعان من أولادهما الذكور والاناث لان صالحا صفة للولد وهو الجنس فيشمل الذكر والانثى

قوله بالسعر الرخيصة كذا في جميع النسخ ولعل فيه سقطا فليحرر

والقليل

والقليل والكثير فكأنه قيل فلما آتاهما أولادا صالحي الخلقة من الذكور والاناث جعل النوعان (له شركاء) أى بعضهم أصناما وبعضهم نارا وبعضهم شمسا وبعضهم غير ذلك وقيل جعل أولادهما له شركاء (فيما آتاهما) أى فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ويدل عليه قوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون أيشركون ما لا يخلق شيأ وهم يخلقون) أى الاصنام (فان قيل) كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون (أجيب) بأن لفظ ما يقع على الواحد والاثنين والجمع فوحد بحسب ظاهر اللفظ وجمع باعتبار المعنى (فان قيل) كيف جمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس (أجيب) بأنه لما اعتقد عابدوا الاصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع على ما يعتقدونه وقيل لما حملت حواء أتاها ابليس فى صورة رجل فقال لها ما يدريك ما فى بطنك ولعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك وذكرت لآدم فهمهما منه وهو بضم الهاء وتشديد الميم من الهم وهو هنا الحزن ثم عاد اليها وقال انى من الله بمنزلة فان دعوت الله على أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه فسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس حارثا فى الملائكة ففعلت ولما ولدته سمته عبد الحرث (فان قيل) قد قال البيضاوى وأمثال ذلك لا تليق بالانبياء ويحتمل أن يكون الخطاب فى خلقكم لآل قصى من قريش فانهم خلقوا من نفس قصى وكان لها زوج من جنسها عربية قرشية فطلبا من الله تعالى الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد شمس وعبد مناف وعبد قصى وعبد الدار ويكون الضمير فى يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما اه (أجيب) بأنه نظر فى ذلك الى الظاهر والا فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فانه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره رواه الحاكم وقال صحيح والترمذى وقال حسن غريب وروى عن ابن عباس أنه قال كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فسمياه فعاش وجاء فى حديث خدعهما ابليس مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الارض وهو قول كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوى ليس اشراكا فى العبادة ولأن الحرث ربهما فان آدم كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصد الى أن الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا كالرجل اذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه ان الضيف يملكه قال الشاعر

وانى لعبد الضيف ما دام ثاويا ✱ ولا شيمة لى بعدها تشبه العبدا

وتقول للغير أنا عبدك قال الرازى ورأيت بعض الافاضل كتب على عنوان عبده ودود فلان وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر انه ربى ولم يرد به معبوده كذلك هذا فقوله تعالى فتعالى الله عما يشركون ابتداء كلام وأريد به اشراك أهل مكة وقرأ نافع وشعبة شركا بكسر الشين وسكون الراء وألف منونة بعد الكاف فى الوصل وفى الوقف بغير تنوين أى شركة

والباقون بضم الشين وفتح الراء وبعد الكاف ألف بعدها همزة مفتوحة (فان قيل) المطاع ابليس فكيف يعبر بالجمع (أجيب) بأن من أطاع ابليس فقد أطاع جميع الشياطين هذا ان حملت هذه الآية على القصة المشهورة امّا اذا لم نقل به فلا حاجة الى التأويل (ولا يستطيعون) أى الاصنام (لهم) أى لعابديهم (نصرا) أى لا تقدر على النصر لمن أطاعها أو عبدها ولا تضر من عصاها والمعبود الذى تجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع والضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها (ولا أنفسهم ينصرون) أى وهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها مكروها فان من أراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها والاستفهام للتوبيخ * ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وان تدعوهم) أى المشركين (الى الهدى) أى الى الاسلام (لا يتبعوكم) أى لان الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلوا الهداية وقرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء الموحدة والباقون بفتح التاء مشدّدة وكسر الباء الموحدة (سواء عليكم أدعوتموهم) الى الهدى (أم أنتم صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالتين لا يؤمنون وقيل الضمير فى تدعوهم للاصنام أى ان هذه الاصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضرّ ولا تنفع ولا تسمع من دعاها الى خير وهدى وذلك أن المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدّة وبلاء تضرّعوا الى أصنامهم واذا لم يكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم الى الاصنام وسكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال (انّ الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله عباد) أى مملوكة (أمثالكم) فهى لا تملك ضرّا ولا نفعا (فان قيل) كيف وصفها بأنها عباد مع أنها جماد (أجيب) بأن المشركين لما ادعوا أن الاصنام تضرّ وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى كونها آلهة ولم يقل فادعوهنّ فليستجبن وقال انّ الذين ولم يقل التى وبأن هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين لانهم لما نحتوها بصورة الاناسى قال لهم ان قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما انه لا يستحق بعضكم عبادة بعض فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا * ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالكم بقوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم) أى بل أ (لهم أيد يبطشون بها أم) أى بل أ (لهم أعين يبصرون بها أم) أى بل أ (لهم آذان يسمعون بها) وهذا الاستفهام انكارى أى ليس لهم شئ من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم اذ لا يليق بالانسان العاقل أن يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل ونظير هذا قول ابراهيم الخليل عليه السلام لابيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وقد تعلق بعض الجهال بهذه الآية فى اثبات هذه الاعضاء لله تعالى فقال ان الله تعالى جعل عدم هذه الاعضاء لهذه الاصنام دليلا على عدم الهيتها فلو لم تكن هذه الاعضاء موجودة لله لكان عدمها دليلا على عدم الالهية وذلك باطل فوجب القول باثبات هذه الاعضاء لله تعالى (أجيب) بأن المقصود من هذه الآية بيان أن الانسان أفضل وأحسن حالا من الصنم لان الانسان له رجل

ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة والصنم رجله غير ماشية ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة وأذنه غير سامعة فكان الانسان أفضل وأكمل حالا من الصنم فاشتغال الافضل الاكمل بحال الاخس الادون جهل فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام لا ماذهب اليه وهم هؤلاء الجهال (قل ادعوا) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا (شركاءكم) أى الى هلاكى (ثم كيدون) قال الحسن كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بآلهتهم فقال الله تعالى له قل لهم ادعوا شركاءكم ثم كيدون أى ليظهر لكم أنها لا قدرة لها على ايصال المضار الى بوجه وقرأ أبو عمرو باثبات الياء وصلا ووقفا وهشام له فيها وجهان الاثبات والحذف وصلا ووقفا والباقون يحذفونها وصلا ووقفا * ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله (فلا تنظرون) أى فاعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم فانكم لا تقدرون على ذلك وعلل عدم قدرتهم على ذلك بقوله (ان ولى الله) الذى يتولى حفظى ونصرى هو الله (الذى نزل الكتاب) المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة فى الدين وهو القرآن (وهو) أى الله سبحانه (يتولى الصالحين) أى بنصره وحفظه فلا يضرهم عداوة من عاداهم قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيأ ولا يعصونه فمن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه وفى هذا مدح للصالحين وأن من تولاه الله تعالى بحفظه لا يضره شئ وعن عمر بن عبد العزيز أنه ما كان يدخر لاولاده شيأ فقيل له فيه فقال ولدى اما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين فان كان من الصالحين فوليه هو الله تعالى ومن كان الله تعالى له وليا فلا حاجة له الى مالى وان كان من المجرمين فقد قال الله تعالى فلن أكون ظهيرا للمجرمين ومن رده الله تعالى لم أكن مشتغلا باصلاح مهماته (والذين تدعون من دونه) أى الله (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى فكيف أبالى بهم (فان قيل) هذه الاشياء قد صارت مذكورة فى الآيات المتقدمة فما الفائدة فى تكريرها (أجيب) بأن الاول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز كأنه قيل الاله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تكون صالحة للالهية (وان تدعوهم) أى الاصنام (الى الهدى لا يسمعوا) دعاءكم (وتراهم) يا محمد (ينظرون اليك) أى يقابلونك كالناظر (وهم لا يبصرون) لانهم صوروا بصورة من ينظر الى من يواجهه وقال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه ان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون أى ببصائر قلوبهم * ولما بين تعالى أن الله هو الذى يتولاه وان الاصنام وعابديها لا يقدرون على الايذاء والاضرار بين ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس بقوله تعالى (خذ العفو) أى اقبل الميسور من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار ويدخل فى ذلك ترك التشديد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل فيه أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وقال

الشاعر خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك (وأمر بالعرف) أى بالمعروف قال عطاء بلا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) أى فلا تقابلهم بالسفه وذلك مثل قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وذلك سلام المتاركة وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه الآية وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثنى بمكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال * قال أبو زيد لما نزل قوله تعالى وأعرض عن الجاهلين قال النبى صلى الله عليه وسلم كيف يارب والغضب فنزل (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) أى وسوسة وقوله تعالى (فاستعذ) أى فاستجد (بالله) جواب الشرط وجواب الامر محذوف أى يدفعه عنك * (تنبيه) * احتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية وقالوا لولا أنه يجوز من النبى الاقدام على المعصية والذنب لم يحتج الى الاستعاذة (وأجيب) عن ذلك بأجوبة الاول ان معنى هذا الكلام ان حصل فى قلبك نزغ فاستعذ بالله كما أنه تعالى قال لئن أشركت ليحبطن عملك ولم يدل ذلك على أنه أشرك الثانى على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله تعالى قد عصم قلب نبيه صلى الله عليه وسلم من قبولها وثباتها فى قلبه وانما القادح لو قبل صلى الله عليه وسلم وسوسة والآية لا تدل على ذلك وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما من انسان الا ومعه شيطان وفى رواية ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يارسول قال واياى الا أن الله تعالى أعانى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير وفى رواية لكنه أسلم بعون الله فلقد أتانى فأخذت بحلقه ولولا دعوة سليمان لاصبح فى المسجد طريحا قال النووى روى بفتح الميم وضمها فمن ضمها معناه فاسلم أنا من شره وفتنته ومن فتحها قال معناه ان القرين أسلم أى صار مسلما فلا يأمرنى الا بخير الثالث أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره أى واما ينزغنك أيها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله كقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله (انه سميع) للقول (عليم) بالفعل وفى الآية دليل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد الا اذا حضر فى القلب العلم بمعنى الاستعاذة فكأنه تعالى قال اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فانى سميع واستحضر معنى الاستعاذة بعقلك وقلبك فانى عليم بما فى ضميرك وفى الحقيقة القول اللسانى بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والاثر (ان الذين اتقوا اذا مسهم) أى أصابهم (طيف) أى شئ ألم بهم (من الشيطان تذكروا) عقاب الله وثوابه (فاذا هم مبصرون) الحق من غيره فيرجعون وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بياء ساكنة بعد الطاء والباقون بألف بعد الطاء بعدها همزة

مكسورة (واخوانهم) أى واخوان الشياطين من الكفار (يمدونهم) أى يمدهم الشياطين (فى الغى) أى يزيدونهم فى الضلالة بالتزيين والحمل عليها (ثم لا يقصرون) أى لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر فى ضلاله لا يتذكر ولا يرعوى (واذا لم تأتهم) أى أهل مكة (بآية) اى مما اقترحوها كقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا (قالوا لولا اجتبيتها) أى هلا تقولتها من عند نفسك كسائر ما تقرؤه فانهم كانوا يقولون ان هذا الافك مفترى تقول العرب اجتبيت الكلام اختلقته وافتعلته وأنشأته من عندك وهلا طلبتها من ربك منزلة عليك مقترحة قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (انما أتبع ما يوحى الى من ربى) أى ليس لى ان أقترح على ربى فى أمر من الامور انما انتظر الوحى فكل شئ أكرمنى به قلته والا فالواجب السكوت وترك الاقتراح * ثم بين ان عدم الاتيان بتلك المعجزات التى اقترحوها لا يقدح فى الغرض لان ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة فاذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية فى تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت فذكر فى وصف القرآن ألفاظا ثلاثة أولها قوله (هذا بصائر من ربكم) أى هذا القرآن فيه حجة وبرهان وأصل البصائر الابصار وهو ظهور الشئ حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سبب البصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب وثانيها (وهدى) أى وهو هدى وثالثها (ورحمة) أى وهو رحمة (لقوم يؤمنون) * فان قيل ما الفرق بين هذه المراتب الثلاث (أجيب) بأنهم متفاوتون فى درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية فى علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن فى حق القسم الاول وهم السابقون بصائر وفى حق القسم الثانى وهم المستدلون هدى وفى حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) أى عن الكلام (لعلكم ترحمون) أى لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمرتم به من أوامره واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فذهب قوم الى أنها نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع الى قراءة القرآن وقال قوم نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الامام وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وقال الكلبى كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار وعن ابن مسعود أنه سمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرفوا قال اما آن لكم أن تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وهذا قول الحسن والزهرى ان الآية نزلت فى القرآن فى الصلاة وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد ان الآية نزلت فى الخطبة أمروا بالانصات لخطبة الامام يوم الجمعة وقال عمر بن عبد

العزيز الانصات لكل واعظ وقيل معناه واذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا وقيل معنى فاستمعوا له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه قال البغوى والاول أولاها وهو أنها فى القراءة فى الصلاة لان الآية مكية والجمعة وجبت بالمدينة قال البيضاوى وظاهر اللفظ يقتضى وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقا وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف اه أى مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) عام فى الاذكار من القراءة والدعاء وغيرهما والمراد بالذكر فى النفس أن يستحضر فى قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله لان الذكر باللسان اذا كان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واشعاره عظمة المذكور تعالى قال الرازى سمعت بعض الاكابر من أصحاب القلوب كان اذا أراد أن يأمر واحدا من المريدين بالخلوة والذكر أمره أربعين يوما بالخلوة والتصفية ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية الكاملة يقرأ عليه الاسماء التسعة والتسعين ويقول للمريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الاسماء فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوى تأثره وعظم تشوقه فاعلم ان الله تعالى انما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه وهذا طريق حسن لطيف فى هذا الباب اه وقيل ذلك أمر للمأموم بالقراءة سرا بعد فراغ الامام من قراءة الفاتحة كما هو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى (تضرعا) أى تذللا (وخيفة) أى خوفا منه *(فائدة)* انما قال تعالى واذكر ربك ولم يقل واذكر الهك ولا غيره من الاسماء وانما سماه فى هذا المقام باسم كونه ربا وأضاف نفسه اليه وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والاحسان والمقصود منه أن يصير العبد فرحا مسرورا مبتهجا عند سماع هذا الاسم لان لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام انعام الله تعالى عليه وبالحقيقة لا يصل عقله الى أقل أقسامه كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فعند انكشاف هذا المقام فى القلب يقوى الرجاء فاذا سمع بعد ذلك قوله تضرعا وخيفة عظم الخوف وحينئذ يحصل فى القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف وعنده يكمل الايمان كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وهذا جرى عليه بعضهم فى حالة الصحة فيكون الخوف والرجاء مستويان والذى جرى عليه الغزالى وهو التحقيق أنه ان قوى رجاؤه يقوى جانب الخوف والعكس بالعكس وأما حال المرض فيكون جانب الرجاء أرجح وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله وانى أخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان فى قلب مؤمن فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف (ودون الجهر من القول) أى ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر أى قصدا بينهما فانه أدخل فى الخشوع والاخلاص (بالغدو) جمع غدوة وقيل انه مصدر (والآصال) جمع أصيل وهو ما بين صلاة العصر الى الغروب وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذى هو أخو الموت الى

اليقظة

اليقظة التي هي كالحياة فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله تعالى وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب الذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله وقيل انما خصا بالذكر لان الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيهما ليكون في جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله تعالى من صلاة وذكر وقيل ان أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى الغروب فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله بالذكر وختامه بالذكر (ان الذين عند ربك) أي الملائكة المقربين بالفضل والكرامة (لا يستكبرون) أي لا يتكبرون (عن عبادته) لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه (ويسبحونه) أي وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان الله ربنا (وله يسجدون) أي ويخضعون له بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره وفي هذا اشارة الى أن الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح فأعمال القلوب هي تنزيه الله تعالى عن كل ما سواه وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم وعن معدان قال سألت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت حدثني حديثا ينفعني الله به قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وفي رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرأ سورة الاعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم شفيعا له يوم القيامة حديث موضوع

(سورة الانفال مدنية)

وقيل الا واذ يمكر بك الذين كفروا الآيات السبع فمكية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

(بسم الله) الذي له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة (الرحمن) الذي عم جميع خلقه بنعمه المتواترة (الرحيم) الذي خص من أراد من عباده بما يرضيه فكان حامده وشاكره (يسئلونك) يا أشرف الخلق يا محمد (عن الانفال) أي الغنائم لمن هي وكيف مصرفها وانما سميت الغنيمة

نفلا لانها عطية من الله تعالى وفضل منه كما يسمى به ما يشرطه الامام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه (قل) يا محمد لهم (الانفال لله والرسول) يجعلانها حيث شاآ وأكثر المفسرين ان سبب نزولها اختلاف المسلمين فى غنائم بدر كيف تقسم فقال الشبان هى لنا لانا باشرنا القتال وقال الشيوخ كنا ردأ لكم ولو انكشفتم لفئتم الينا فنزلت وقيل لى شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء وهو بفتح الغين المعجمة والمد النفع أن ينفله فسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ أى عونا لكم وفئة تنحازون الينا فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء رواه الحاكم فى المستدرك وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه انه قال لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه وأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال هذا ليس لى ولا لك اطرحه فى القبض وهو بفتحتين ما قبض من الغنائم فطرحته وبى ما لا يعلمه الا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتنى السيف وليس لى وانه قد صار لى اذهب فخذه وقيل انها نزلت فيما يصل من المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع فهو للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء واختلفوا هل هذه الآية منسوخة أولا فقال مجاهد وعكرمة هى منسوخة بقوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول الآية فكانت الغنائم يومئذ للنبى صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس وقال بعضهم هى ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا فى شرائع انبيائهم وأباحها الله تعالى بهذه الآية لهذه الامة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبد الله بن زيد بن أسلم هى ثابتة غير منسوخة ومعنى الآية قل الانفال لله وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى وقد بين الله تعالى مصارفها فى قوله واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه الآية (فان قيل) ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول (أجيب) بأن معناه أن حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى فيها وليس الامر فى قسمها مفوّضا الى رأى أحد (فاتقوا الله) بطاعته واتركوا مخالفته واتركوا المخاصمة والمنازعة فى الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أى وأصلحوا الحال فيما بينكم بالمودّة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (ان كنتم مؤمنين) حقا فان الايمان يقتضى ذلك (انما المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الذين اذا ذكر الله) أى وعيده (وجلت) أى خافت وخضعت ورقت (قلوبهم) أى أن المؤمن انما يكون مؤمنا كاملا اذا كان خائفا من الله تعالى ونظيره قوله

تعالى والذين هم من عذاب ربهم مشفقون وقوله تعالى الذين هم فى صلاتهم خاشعون (فان قيل) انه تعالى قال هنا وجلت قلوبهم وفى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأنه لامنافاة بينهما لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من اليقين وشرح الصدر بمعرفة التوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله تعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله عند رجاء ثواب الله وقال أهل التحقيق الخوف على قسمين خوف العقاب وهو خوف العصاة وخوف الجلال والعظمة وهو خوف الخواص لانه تعالى غنى بذاته عن كل الموجودات وماسواه من المخلوقات محتاجون اليه والمحتاج اذا حضر عند الملك الغنى هابه وخافه وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا اليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف وأما العصاة فيخافون عقابه والمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) أى تصديقا ويقينا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ماحكاه الواحدى ان كل من كانت عنده الدلائل أكثر وأقوى كان أزيد ايمانا لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد ايمانه واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام لو وزن ايمان أبى بكر بايمان أهل الارض لرجح الوجه الثانى وهو انهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمنه صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف كانوا يزدادون تصديقا واقرارا ومن المعلوم أن من صدق انسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد فكان ذلك زيادة فى الايمان والتصديق (فان قيل) ان تلك الآيات لاتوجب الزيادة وانما الموجب هو سماعها أو معرفتها (أجيب) بأن ذلك هو المراد من الآية واختلفوا اهل الايمان يقبل الزيادة والنقصان أولا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا الا يقبل الزيادة ولا النقصان والذين قالوا انه مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل قالوا يقبل الزيادة والنقصان واحتجوا بهذه الآية من وجهين الاول أن قوله تعالى زادتهم ايمانا يدل على أن الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لماقبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثانى انه تعالى ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان ففى الحديث دليل على أن للايمان أدنى وأعلى فيكون قابلا للزيادة والنقص وقال عمير بن حبيب ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته ومانقصانه فقال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان

للايمان فرائض وشرائط وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان * ثم وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بصفة أخرى ثالثة وهي الاتكال عليه بقوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) أي يفوضون جميع أمورهم اليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه لان المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله تعالى ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهذا الحال مرتبة عالية ودرجة شريفة وهي ان الانسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في أمر من الامور الا على الله تعالى وهذه الصفات الثلاث مرتبة على أحسن صفات الترتيب فان المرتبة الاولى هي الوجل عند ذكر الله والمرتبة الثانية هي الانقياد لمقامات تكاليفه والمرتبة الاخيرة الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغنى بالكلية عما سوى الله ثم ان هذه المراتب الثلاث أحوال معتبرة في القلوب والبواطن ثم انتقل منها الى رعاية أحوال الظاهر فقال (الذين يقيمون الصلاة) أي الذين يؤدونها بحقوقها (ومما رزقناهم) أي أعطيناهم (ينفقون) في طاعة الله لان رأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة وبذل المال في مرضاة الله ويدخل في ذلك صلاة الفرض والنفل والزكاة والصدقات والانفاق في الجهاد والانفاق على المساجد والقناطر ثم قال تعالى (أولئك) أي الموصوفون بهذه الصفات الخمسة (هم المؤمنون حقا) لانهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ومحاسن أعمال الجوارح التي المعيار عليها وهي الصلاة والصدقة وحقا مصدر مؤكد للجملة التي هي أولئك هم المؤمنون كقوله هو عبد الله حقا أي أحق ذلك حقا * (تنبيه) * اختلف العلماء في أنه هل للشخص أن يقول أنا مؤمن حقا أولا فقال أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه الاولى أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله تعالى ولا يقول أنا مؤمن حقا وقال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول ان شاء الله تعالى واستدل للاول بوجوه الاول أن قوله أنا مؤمن ان شاء الله تعالى ليس على سبيل الشك ولكن الشخص اذا قال أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله تعالى زال ذلك العجب وحصل الانكسار له الثاني ان الله تعالى ذكر في أول الآية ما يدل على الحصر وهو قوله تعالى انما المؤمنون هم كذا وكذا وكلمة انما تفيد الحصر وذكر في آخر الآية قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا وهذا أيضا يفيد الحصر فلما دلت هذه الآية على هذا المعنى ثم ان الانسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمس فكان الاولى له أن يقول ان شاء الله تعالى وعن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت فقال الايمان ايمانان فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن بها وان كنت تسألني عن قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا وقال سفيان الثوري من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية وهذا الزام منه أي كما لا نقطع أنه من أهل الجنة قطعا فلا نقطع

أنه مؤمن حقا الثالث أن قوله أنا مؤمن ان شاء الله تعالى للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعى بأنه لاحق بأهل القبور الرابع أن المؤمن لايكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لايحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله تعالى فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة الخامس أن ذكر هذه الكلمة لاينافى حصول الجزم والقطع ألا ترى أنه تعالى قال لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وهو تعالى منزه عن الشك والريب فثبت أنه تعالى انما ذكر ذلك تعليما منه لعباده فالاولى ذكر هذه الكلمة الدالة على تفويض الامور الى الله تعالى حتى يحصل ببركة هذه الكلمة دوام الايمان واستدل الثانى بوجهين الاول أن المتحرك يجوز أن يقول أنا متحرك ولا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى وكذا القول فى القائم والقاعد فكذا هنا الثانى أنه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا فكان قوله ان شاء الله يوجب الشك فيما قطع الله تعالى لهم به وذلك لايجوز وأجاب الاول عن قولهم المتحرك لايجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله تعالى بالفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا اذ الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل للانسان نفسى فحصل الفرق بينهما وعن قولهم انه تعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فحكم لهم بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة على الحقيقة ونحن لانعلم ذلك فثبت حينئذ أن الصواب مع أصحاب القول الاول (لهم) أى للموصوفين بتلك الصفات (درجات) أى منازل فى الجنة (عند ربهم) بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم فى الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم فى الجنة على قدر أعمالهم قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى احداهن لوسعتهم (ومغفرة) أى لما فرط منهم (ورزق كريم) أعد لهم فى الجنة لاينقطع عدده ولا ينتهى أمده (فان قيل) أليس المفضول اذا علم حصول الدرجات العالية للفاضل وحرمانه منها فانه يتألم قلبه ويتنغص عيشه وذلك يخل كون الثواب رزقا حسنا (أجيب) بأن استغراق كل أحد فى سعادته الحاضرة تمنعه من حصول النظر الى غيره وبالجملة فأحوال الآخرة لاتناسب أحوال الدنيا الا بالاسم وقوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) يقتضى تشبيه شئ بهذا الاخراج واختلفوا فى تقدير ذلك فقال المبرد تقديره الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الى القتال وان كانوا كارهين له قال الرازى وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة فى هذا الموضع وقال عكرمة تقديره فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن اخراج محمد من بيته خير لكم وان كرهه فريق منكم وقال الكسائى الكاف متعلق بما بعده وهو قوله يجادلونك فى الحق والتقدير كما أخرجك

ربك من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على تقديره امض على الذى أخرجك ربك وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر

اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) الخروج والجملة حال من كاف أخرجك وقيل كما خبر مبتدا محذوف أى هذه الحالة فى كراهتهم لها مثل اخراجك فى حال كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك هذه أيضا وذلك ان أباسفيان قدم بعير من الشأم فى أربعين راكبا منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى وفيها تجارة كثيرة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم لقى العير لكثرة المال وقلة العدو فلما سمع أبوسفيان بمسير النبى صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه الى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدا وأصحابه قد خرجوا العيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة أخت العباس بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رأت رؤيا فقالت لاخيها العباس انى رأيت عجبا رأيت راكبا أقبل على بعيرله حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا عليه ورأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها ورمى أى رمى بها الى فوق فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فقال العباس اكتميها فلا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان صديقا له فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رآنى أبوجهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل علينا قال فلما فرغت من طوافى أقبلت حتى جلست معهم فقال أبوجهل يا بنى عبد المطلب متى حدثت هذه الفتنة فيكم قلت وماذا الذى قال الرؤيا التى رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بنى عبد المطلب أما رضيتم ان تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فنتربص بكم الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا أنكم اكذب أهل بيت فى العرب قال العباس فوالله ما كان منى اليه كبير أمر الا أنى جحدت ذلك وأنكرته ان لا تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا أتتنى فقالت أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت قال قلت والله ما كان منى اليه من شئ وايم الله تعالى لاتعرضن له فان عاد لاكفينكنه قال فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى انى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته قال فوالله انى لامشى نحوه لاتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان أبوجهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال قلت ماله لعنه الله اكان هذا فرقا منى أن أشاتمه قال فاذا هو سمع مالم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد حول

رحله وشق قميصه وهو يقول يامعشر قريش هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد وأصحابه فنادى أبو جهل فوق الكعبة ياأهل مكة النجاء النجاء وهو بالمد الاسراع منصوب على الاغراء أي الزموا الاسراع على كل صعب وذلول أي أسرعوا مجتمعين ولاتقفن لان تختاروا للركوب ذلولا دون صعب عيركم أموالكم ان أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل لا في العير ولا في النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس فقال والله لايكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بخرجنا وأن محمدا لم يصب العير فانا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة ونزل جبريل عليه السلام وقال يامحمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال ماتقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم وقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا الكلام وأمالاه الى المضي الى العدو ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فاقض فوالله لو سرت الى عدن أبين وهي مدينة معروفة باليمن وأبين بوزن أبيض اسم رجل من حمير عدن بها أي أقام ماتخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو يارسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا اناههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الى ديارنا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف ان تكون الانصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالله الذي بعثك بالحق نبيا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله تعالى يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد رضي الله عنه قال سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه

بالحق نبيا ما أخطأ الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا فاني وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم باسمع لما أقول لهم منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيأ وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شئ فناداه العباس وهو في وثاقه أي قيده وكان العباس حينئذ مأسورا مقيدا لا يصلح فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك فكانت الكراهة من بعضهم لقوله تعالى وان فريقا من المؤمنين لكارهون (يجادلونك في الحق) أي القتال (بعد ما تبين) انك لا تصنع شيأ الا بأمر ربك (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) اليه أي يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك ان المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير اذ روى أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان وفيه ايماء الى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم ورعبهم (واذ) أي واذكر اذ (يعدكم الله احدى الطائفتين) أي العير أو النفير واحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل منها (أنها لكم) بدل اشتمال (وتودون) أي تريدون (أن غير ذات الشوكة) أي القوة والشدة والسلاح وهي العير (تكون لكم) لقلة عددها وعددها اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا بخلاف النفير لكثرة عددهم وعددهم وقرأ أبو عمرو بادغام التاء في التاء بخلاف عنه (ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهره (بكلماته) أي بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) أي يستأصلهم والمعنى انكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد اعلاء الدين واظهار الحق وما يحصل لكم من فوز الدارين (ليحق الحق) أي يثبت الاسلام (ويبطل الباطل) أي يمحق الكفر (ولو كره المجرمون) أي المشركون ذلك (فان قيل) قوله تعالى ليحق الحق بعد قوله أن يحق الحق يشبه التكرار (أجيب) بأن المعنيين متباينان وذلك ان الاول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت والثاني لبيان الداعي الى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصره عليها (اذ) أي واذكر اذ (تستغيثون ربكم) واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون ربنا انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين وعن عمر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة أي وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار ذال اذ عند التاء والباقون بالادغام (فاستجاب لكم أني) أي بأني فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله

(ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى متتابعين يردف بعضهم بعضا وقرأ نافع بفتح الدال وقيل بالفتح والكسر والباقون بالكسر وعدهم بالالف أولا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف كما فى آل عمران فقيل نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وميكائيل عليه السلام على الميسرة وفيها على رضى الله تعالى عنه فى صور الرجال عليهم عمائم بيض وثياب بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الاحزاب ويوم حنين وروى أن أبا جهل قال لابن مسعود من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمع ولا نرى شخصا قال من الملائكة فقال أبو جهل هم غلبونا لا أنتم وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشتد فى طلب رجل من المشركين اذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر الى المشرك وقد خر مستلقيا وشق وجهه فحدث الانصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وعن أبى داود المازنى تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وقيل انهم لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والافلاك واحد كاف فى اهلاك أهل الدنيا كلهم فان جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط وأهلك بلاد ثمود قوم صالح عليه السلام بصيحة واحدة وقيل يدل على هذا قوله تعالى (وما جعله الله الا بشرى) لكم أى وما جعل الارداف بالملائكة الا بشرى لكم (ولتطمئن به قلوبكم) فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه لما تقدم (وما النصر الا من عند الله) أى لا من عند غيره وأما امداد الملائكة وكثرة العدد والاهب ونحوها فهى وسايط لا تأثير لها فلا تحسبوا ان النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها وفى ذلك تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى فى جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) أى انه تعالى قوى منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ ويغلبه (حكيم) فى تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده (اذ) أى واذكر اذ (يغشاكم النعاس) وهو النوم الخفيف (أمنة) أى أمنا مما حصل لكم من الخوف من عدوكم (منه) أى من الله تعالى لانهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم كان ذلك النوم نعمة فى حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما النعاس فى القتال أمنة من الله تعالى وفى الصلاة وسوسة من الشيطان وقرأ نافع بضم الياء وكسر الشين مخففة وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والشين مع التخفيف فيهما والباقون بضم الياء وكسر الشين مشددة ورفع السين من النعاس ابن كثير وأبو عمرو ونصبها

الباقون على أن الله تعالى هو الفاعل (وينزل عليكم من السماء ماء) أى مطرا (ليطهركم به) أى من الاحداث والجنابات وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب فناموا فاحتلم أكثرهم وكان المشركون قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس اليهم الشيطان أو قال لهم المنافقون تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله صلى الله عليه وسلم وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين فكيف ترجون ان تظهروا على عدوكم وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع العطش أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله تعالى مطرا أسال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الدواب وملؤا الاسقية وطفئ الغبار وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان كما قال تعالى (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسة الشيطان التى ألقاها فى قلوبكم وقيل الجنابة لانها من تخييله (فان قيل) يلزم على هذا التكرار فان هذا تقدم فى قوله تعالى ليطهركم به (وأجيب) عنه بأن المراد من قوله تعالى ليطهركم به حصول الطهارة الشرعية ومن قوله تعالى ويذهب عنكم رجز الشيطان ان الرجز هو عين المنى فانه شئ مستخبث وطابت أنفسهم كما قال تعالى (وليربط) أى يحبس (على قلوبكم) باليقين والصبر ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام كما قال تعالى (ويثبت به الاقدام) أى أن تسوخ فى الرمل والضمير فى به للماء ويجوز كما قال الزمخشرى أن يكون للربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت الاقدام فى مواطن القتال وقوله تعالى (اذ يوحى ربك) متعلق بيثبت أو بدل من اذ يعدكم (الى الملائكة) أى الذين أمد بهم المسلمين وقوله تعالى (انى) أى بأنى (معكم) أى بالعون والنصرة مفعول يوحى (فثبتوا الذين آمنوا) أى قووا قلوبهم بأن تقاتلوا المشركين معهم وقيل بالتبشير والاعانة فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم عليهم فانكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه وقيل بالقاء الالهام فى قلوبهم كما أن للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر ويسمى ما يلقيه الشيطان وسوسة وما يلقيه الملك الهاما * ثم بين تعالى المعية بقوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى الخوف فلا يكون لهم ثبات وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين حيث ألقى الخوف فى قلوب المشركين وقرأ ابن عامر والكسائى برفع العين والباقون بالسكون وقوله تعالى (فاضربوا) خطاب للمؤمنين وللملائكة (فوق الاعناق) أى أعاليها التى هى المذابح والمفاصل والرؤس فانها فوق الاعناق وقيل المراد الاعناق وفوق صلة أو بمعنى على أى اضربوا على الاعناق (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن عطية يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف والبنان جمع بنانة وهى أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقال ابن

الانبارى كانت الملائكة لاتعلم كيف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله تعالى قيل انما خصت الرأس والبنان بالذكر لان الرأس أعلى الجسد وأشرف الاعضاء والبنان أضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وبه هلاك الانسان وبضرب البنان وبه تبطل حركته عن القتال لان بالبنان يتمكن من مسك السيف والسلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل ذلك كله (ذلك) أى التسليط العظيم الذى وقع من القتل والاسر يوم بدر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد (بأنهم) أى الذين تلبسوا بالكفر (شاقوا الله) الذى لايطاق انتقامه (ورسوله) أى خالفوهما فى الاوامر والنواهى والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب غير الذى يرضيانه (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) له فان الذى أصابهم فى ذلك اليوم من الاسر والقتل شئ قليل فى جنب ما أعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة وقوله تعالى (ذلكم) خطاب للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة فى شاقوا أى ذلكم الذى عجل لكم يبدر من القتل والاسر (فذوقوه) عاجلا (وأن للكافرين) آجلا فى الآخرة (عذاب النار) ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون أى يدبون دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا سمى به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال وهو مصدر موصوف به كالعدل والرضا ولذلك لم يجمع (فلا تولوهم الادبار) أى منهزمين منهم وان كنتم أقل منهم (ومن يولهم يومئذ) أى يوم لقائهم (دبره) أى يجعل ظهره اليهم منهزما (الا متحرفا) أى منعطفا (لقتال) بأن يريهم أنه منهزم خداعا ثم يكر عليهم وهو باب من مكايد الحرب (أو متحيزا) منضما وصائرا (الى فئة) أى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها على القرب يستنجد بها ومنهم من لايعتبر القرب لما روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا الى المدينة فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال بل أنتم العكارون وفى رواية الكرارون أى المتعاطفون الى الحرب وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضى الله تعالى عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف فقال عمر انا فئتك (فقد باء) أى رجع (بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى المرجع هى وعن ابن عباس ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر هذا اذا لم يزد العدد على الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا وقيل هذا فى أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم قاله مجاهد ولما انصرف المسلمون من قتال بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزل قوله تعالى (فلم تقتلوهم) أى بقوتكم (ولكن الله قتلهم) أى بنصره اياكم بأن هزمهم لكم قال البيضاوى تبعا للزمخشرى والفاء جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم اه ورده ابن هشام بأن الجواب المنفى بلم لاتدخل عليه الفاء واختلف فى سبب نزول قوله تعالى

(ومارميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) على ثلاثة أقوال الاول وهو قول أكثر المفسرين
نزلت في يوم بدر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الى قتال بدر نزلوا بدرا ووردت
عليهم روّاد قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاصي بن سعد
فأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما أين قريش فقالا هم وراء هذا الكثيب
الذي بالعدوة القصوى الكثيب العقنقل وهو الكثيب العظيم المتداخل الرمل قاله
الجوهري فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عدّتهم قالا لا ندري
قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم
ما بين التسعمائة الى الالف ثم قال لهما فمن فيهم من اشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة
ابن ربيعة وأبو البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام وعدا جماعة أخرى فقال صلى الله عليه
وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة
والسلام هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهمّ اني أسألك ما وعدتني فأتاه
جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعليّ رضي الله
عنه أعطني قبضة من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه أي قبحت فلم يبق
مشرك الا دخل في عينيه وفيه ومنخره فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم والمعنى
انّ الرمية التي رميتها بلغ أثرها الى ما لا يبلغه أثر البشر لكونها كانت برمي الله حيث أثرت ذلك
الاثر العظيم لان كفا من الحصباء لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية البشر فأثبت الرمية لرسول
الله صلى الله عليه وسلم لان صورتها وجدت منه ونفاها عنه لأنّ أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل
الله تعالى فكان الله تعالى هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله
عليه وسلم أصلا القول الثاني انها نزلت يوم خيبر روى انه عليه الصلاة والسلام أخذ قوسا وهو
على باب خيبر فرمى سهما فأقبل السهم حتى قتل لبابة بن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت
القول الثالث انها نزلت في يوم أحد في قتل أبيّ بن خلف وذلك انه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم
بعظم رميم وفتته وقال يا محمد من يحيي هذه وهي رميم فقال صلى الله عليه وسلم يحييه الله ثم يميتك
ثم يحييك ثم يدخلك النار فأسر يوم بدر فلما افتدى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عندي
فرسا أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتلك
ان شاء الله تعالى فلما كان يوم أحد اقبل أبيّ يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأخروا
ورماه بحربة كسر ضلعا من أضلاعه فمات ببعض الطريق فنزلت والاصح الاوّل والا أدخل في
اثناء القصة كلاما أجنبيا عنها وذلك لا يليق وقال الرازي لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع
لانّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكن الله قتلهم
ولكن الله رمى بكسر النون مخففة ورفع الهاء من اسم الله فيهما والباقون بفتح النون مشددة
ونصب الهاء وقوله تعالى (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) معطوف على قوله تعالى ولكن الله

رمى أى وليتم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى (ان الله سميع) لاقوالكم (عليم) بأحوال قلوبكم وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الامور ويعلم ان الخالق تعالى يطلع على مافى الضمائر والقلوب وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الغرض ذلكم وقوله تعالى (وان الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المقصود ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الواو وتشديد الهاء وتنوين النون ونصب الدال وقرأ حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء وعدم تنوين النون وخفض الدال والباقون بسكون الواو وتخفيف الهاء مع تنوين النون ونصب الدال وقوله تعالى (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أكثر المفسرين على انه خطاب للكفار روى ان أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر اللهم أينا كان أقطع للرحم وأفجر فاهلكه الغداة وقال السدى ان المشركين لما أرادوا الخروج الى بدر أخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى القبلتين وأكرم الحزبين بأفضل الدين فأنزل الله تعالى هذه الآية أى ان تستنصروا الأهدى القبلتين وتستقضوا فقد جاءكم النصر والقضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل خطاب للمؤمنين وذلك انه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين وكثرة عددهم وعددهم استغاث بالله تعالى وطلب ماوعده الله تعالى به من احدى الطائفتين وتضرع الى الله تعالى وكذلك الصحابة رضى الله تعالى عنهم فقال تعالى ان تستفتحوا أى ان تطلبوا النصر الذى تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح أى حصل ماوعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة قال القاضى عياض وهذا القول أولى لان قوله تعالى فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين اه وقال البيضاوى انه خطاب لاهل مكة عن سبيل التهكم اه ويدل له قوله تعالى (وان تنتهوا) أى عن الكفر ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو خير لكم) أى لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين (وان تعودوا) أى لقتال النبى صلى الله عليه وسلم (نعد) أى لنصرته عليكم (ولن تغنى) أى تدفع (عنكم فئتكم) أى جماعتكم (شيأ) لان الله تعالى على الكافرين فيخذلهم (ولو كثرت) فئتكم (وان الله مع المؤمنين) بالنصر والمعونة وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة على ولان الله تعالى والباقون بالكسر على الاستئناف (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) أى تعرضوا (عنه) أى الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره فان المراد من الآية الامر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على ان طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد (وأنتم تسمعون) أى القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أى بألسنتهم (وهم لا يسمعون) سمعا ينتفعون به وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) أى ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عنده (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق بالحق فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) أمر الله وسماهم دواب لقلة

اتباعهم بعقولهم كما قال تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عما جاء به محمد فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا) أى سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع تفهم (ولو أسمعهم) على سبيل الفرض وقد علم أن لا خير فيهم (لتولوا) عنه ولم ينتفعوا به وارتدوا عن التصديق والقبول (وهم معرضون) لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك فقال الله تعالى ولو أسمعهم كلام قصى لتولوا وهم معرضون (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) أى أجيبوهما بالطاعة ووحد الضمير فى قوله تعالى (اذا دعاكم) لان دعوة الله تعالى تسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم روى الترمذى انه صلى الله عليه وسلم مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال له صلى الله عليه وسلم ما منعك عن اجابتى قال كنت أصلى قال ألم تجد فيما أوحى الى استجيبوا لله وللرسول ويؤخذ من ذلك ان اجابته صلى الله عليه وسلم بالقول لا تقطع الصلاة وهو كذلك بل ولا بالفعل الكثير كما قاله بعض أصحابنا وهو ظاهر الحديث أيضا * ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة فى غاية القرب منه نبه على ذلك باللام دون الى فقال (لما يحييكم) من العلوم الدينية فانها حياة القلوب والجهل موتها قال أبو الطيب

لا تعجبن الجهول حلته * فذاك ميت وثوبه كفن

أو مما يورثكم الحياة الابدية فى النعيم الدائم من العقائد وقال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال ابن اسحق هو الجهاد أعزكم الله تعالى به بعد الذل وقال العتبى هو الشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أى انه يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من اخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله وقال الضحاك يحول بين المرء المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة وقال السدى يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر الا باذنه وقال مجاهد يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى ما يعمل وعن أنس بن مالك رضى الله عنه انه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالوا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال القلوب بين اصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء (وانه) أى واعلموا أنه تعالى (اليه تحشرون) لا الى غيره فلا تتركوا مهملين معطلين فيجازيكم بأعمالكم وفى هذا تشديد فى العمل وتحذير عن الكسل والغفلة (واتقوا فتنة) أى ذنبا قيل هو اقرار المنكر بين أظهرهم وقيل افتراق الكلمة وقيل فتنة عذابا وقوله تعالى (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) جواب الامر والمعنى ان أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم كما يحكى ان علماء بنى اسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب (فان قيل) كيف جاز ان تدخل

النون المؤكدة فى جواب الامر (أجيب) بأن فيه معنى النهى كقولك انزل عن الدابة لاتطرحنك ولاتطرحنك وكقوله تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان (واعلموا ان الله شديد العقاب) لمن خالفه (واذكروا) يامعاشر المهاجرين (اذ أنتم) فى أوائل الاسلام (قليل) أى عددكم (مستضعفون) أى لامنعة لكم (فى الارض) أى أرض مكة واطلاقها لانها اعظمها كانها هى الارض كلها أولان حالهم كان فى بقية البلاد كحالهم فيها أوقريبا من ذلك ولهذا عبر بالناس فى قوله تعالى (تخافون أن يتخطفكم الناس) أى تأخذكم الكفار بسرعة كما تتخطف الجوارح الصيد (فآواكم) الى المدينة أوجعل لكم مأوى تتحصنون فيه على أعدائكم (وأيدكم) أى قواكم (بنصره) أى بامداد الملائكة يوم بدر وبمظاهرة الانصار (ورزقكم من الطيبات) أى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) أى بأن تضمروا خلاف ماتظهرون روى انه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح اخوانهم بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم باذرعات وأريحا من الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة واسمه رفاعة أو مروان بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وعياله عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه انه الذبح أى حكم سعد هو القتل فلاتفعلوا فقال أبو لبابة والله مازالت قدماى من مكانهما حتى علمت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لاأذوق طعاما ولاشرابا حتى أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما لو جاءنى لاستغفرت له وأما اذ فعل مافعل فانى لاأطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولاشرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله لاأحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده فقال ان من تمام توبتى ان أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال له صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تتصدق به فنزلت هذه الآية وعن المغيرة نزلت فى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه وعن جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فعلم النبى صلى الله عليه وسلم خروجه وعزم على الذهاب اليه فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فنزلت وقيل معنى لاتخونوا الله بأن لاتعطلوا فرائضه ورسوله بأن لاتستنوا به وأصل الخون النقص كما ان أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الامانة لتضمنه اياه وقوله تعالى (وتخونوا أماناتكم) أى ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره مجزوم بالعطف على الاول أى ولاتخونوا أو منصوب بأن مضمرة بعد الواو على جواب النهى أى لاتجمعوا بين الخيانتين كقوله * لاتنه عن خلق وتأتى مثله * (وأنتم تعلمون)

أنكم تخونون أى وأنتم علماء مميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة لانه يشغل القلب بالدنيا ويصيره حجابا عن خدمة المولى * ثم انه تعالى نبه بقوله تعالى (وان الله عنده أجر عظيم) على ان سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لانها أعظم فى الشرف وأعظم فى القوة وأعظم فى المدة لانها تبقى بقاء لانهاية له فهذا هو المراد من وصف الله الاجر الذى عنده بالعظم قال الرازى ويمكن أن يتمسك بهذه الآية فى بيان ان الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لان الاشتغال بالنوافل يفيد الاجر العظيم عند الله والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة الى المال وذلك فتنة ومعلوم ان مايفضى الى الاجر العظيم عند الله هو خير مما يفضى الى الفتنة اهـ لكن محله فى غير المحتاج الى النكاح الواجد أهبته والا فالنكاح حينئذ أفضل وأولى من التخلى للعبادة * ولما حذر الله تعالى عن الفتنة بالاموال والاولاد رغب فى التقوى التى توجب ترك الميل والهوى فى محبة الاموال والاولاد بقوله (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) أى بالامانة وغيرها (يجعل لكم فرقانا) أى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل (ويكفر عنكم سيآتكم) أى يسترها مادمتم على التقوى (ويغفر لكم) أى يمح ما كان منكم غير صالح عنا وأثرا وقيل السيآت الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها فى أهل بدر وقد غفر الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تنبيه على ان ماوعده لهم على التقوى تفضل منه واحسان وانه ليس مما توجبه تقواهم عليه كالسيد اذا وعد عبده انعاما على عمله * ولما ذكر سبحانه وتعالى المؤمنين بنعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل الى آخره عطف عليه قوله تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) فذكر رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه عليه وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه وهذه السورة مدنية وهذا المكر كان بمكة ولكن الله تعالى ذكره بالمدينة مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى عليه فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وكان ذلك المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من المفسرين ان قريشا لما أسلمت الانصار وبايعوه فرقوا ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت رؤساؤهم كأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبى البخترى ابن هشام فى دار الندوة متشاورين فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل عليهم ابليس لعنه الله تعالى فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا من انت قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا قالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى رأيى ان تحبسوه فى بيت وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل ماهلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله النجدى وقال بئس الرأى رأيتم والله لئن حبستموه فى بيت ليأتينكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم قالوا صدق الشيخ

النجدى فقال هشام بن عمرو رأيى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ماصنع واسترحتم فقال النجدى بئس الرأى تعمدون الى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجوه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب مايسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك فيذهب ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم اليكم و يخرجكم من بلادكم قالوا صدق والله الشيخ النجدى فقال أبو جهل لعنه الله تعالى والله لأشيرن عليكم برأى لارأى غيره انى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلاتقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال ابليس الملعون صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا القول ماقال لارأى غيره فتفرقوا على قول أبى جهل مجمعين على قتله فأتى جبريل عليه الصلاة والسلام النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره ان لايبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج الى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فنام فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك أمر تكرهه ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا الى قوله تعالى فهم لايبصرون ومضى الى الغار هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت بمكة عنده وكانت الودائع تودع عنده لصدقه وامانته وبات المشركون يحرسون عليا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون انه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا بادروا اليه فرأوا عليا فقالوا له وأين صاحبك فقال لاأدرى فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لودخله لم تكن تنسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وأبطل الله مكرهم وهذا معنى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا (ليثبتوك) أى يوثقوك ويحبسوك (أو يقتلوك) كلهم قتلة رجل واحد (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) بك (ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم بتدبير أمرك بأن أوحى اليك مادبروه وأمرك بالخروج الى المدينة وأخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا (والله خير الماكرين) أى أعلمهم به فلا ينفذ مكرهم دون مكره قال البيضاوى واسناد أمثال هذا انما يحسن للمزاوجة ولايجوز اطلاقها ابتداء لمافيه من ايهام الذم اه واعترض عليه بأنه لايتعين فى مثل ذلك المشاكلة بل يجوز أن يكون ذلك استعارة لان اطلاق المكر على اخفاء الله تعالى ما أوعده لمن استوجبه ان جعل باعتبار أن صورته تشبه صورة المكر فاستعارة أو باعتبار الوقوع فى صحبة مكر العبد فمشاكلة وعلى هذا لايحتاج كما قال الطيبى الى وقوعه فى صحبة مكر العبد قال ومنه قول على رضى الله عنه من وسع الله تعالى عليه فى دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع فى عقله (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (قالوا) أى هؤلاء الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم اذ لو استطاعوا ذلك لفعلوه والا فما منعهم

لو كانوا مستطيعين وقرّعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا بسورة مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصا فى باب البيان وقيل قائله النضر بن الحرث المقتول صبرا لانه كان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار العجم ويحدّث بها أهل مكة واسناده الى الجميع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم فكأنه كان قاضيهم وقد أسره المقداد يوم بدر فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فقال المقداد أسيرى يارسول الله فقال انه كان يقول فى كتاب الله تعالى ما يقول فعاد المقداد لقوله فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهمّ أغن المقداد من فضلك فقال ذلك الذى أردت يارسول الله فقتله النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنشدت أخته

ما كان ضرك لو مننت وربما * منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه (ان) أى ما (هذا) أى القرآن (الا أساطير الاولين) أى أخبار الامم الماضية وأسماؤهم وما سطر الاولون فى كتبهم والاساطير جمع أسطورة وهى المكتوبة من قولهم سطرت أى كتبت وقيل أساطير جمع أسطور وأسطار جمع سطر (واذ قالوا اللهمّ ان كان هذا) أى الذى يقرؤه محمد (هو الحق) المنزل (من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) أى مؤلم على انكاره غير الحجارة قاله النضر وغيره استهزاء وايهاما أنه على بصيرة وجزم ببطلانه وعن معاوية رضى الله عنه أنه قال لرجل من سبا ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومى قومك قالوا اللهمّ ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما قالوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا اليه (فان قيل) قد حكى الله تعالى هذه المقالة عن الكفار وهى من حسن نظم القرآن فقد حصلت المعارضة فى هذا القدر وأيضا حكى عنهم أنهم قالوا فى سورة بنى اسرائيل وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآية وذلك أيضا كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القرآن وذلك يدل على حصول المعارضة (أجيب) بأنّ الاتيان بهذا القدر لا يكفى فى حصول المعارضة لانه كلام قليل لا تظهر فيه وجوه المعارضة والفصاحة والبلاغة لانّ أقل ما وقع به التحدى سورة أو قدرها قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم) أى بما سألوه (وأنت فيهم) أى لانّ العذاب اذا نزل عمّ ولم يعذب أمّة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أى وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه كان فى هذه الامّة أمانان أما النبى صلى الله عليه وسلم فقد مضى وأمّا الاستغفار فهو كائن فيكم الى يوم القيامة فاللفظ وان كان عاما الا أنّ المراد بعضهم كما يقال قدم أهل البلدة الفلانية على القتال والمراد بعضهم (وما لهم أن لا يعذبهم الله) بالسيف بعد خروجك والمستضعفين فنفى تعالى فى الآية أنه لا يعذبهم ما دام الرسول والمؤمنون فيهم وذكر فى هذه الآية أنه يعذبهم اذا خرجوا من بينهم وقال الحسن الآية الاولى منسوخة بهذه وردّ بانّ الاخبار لا يدخلها النسخ واختلفوا فى هذا العذاب فقال بعضهم لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر وقيل يوم فتح مكة وقال ابن عباس هذا العذاب هو عذاب

الا آخرة والعذاب الذى نفى عنهم هو عذاب الدنيا ثم بين تعالى ما لاجله يعذبهم فقال (وهم يصدون) أى يمنعون النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين (عن المسجد الحرام) أن يطوفوا به وذلك عام الحديبية ونبه تعالى على انهم يصدونهم لادعائهم انهم أولياؤه فكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ثم بين تعالى بطلان هذه الدعوى بقوله تعالى (وما كانوا أولياءه) كما زعموا (ان) أى ما (أولياؤه الا المتقون) أى الذين يحترزون عن المنكرات الذين لا يعبدون فيه غيره وقيل الضمير ان لله (ولكن أكثرهم) أى الناس (لا يعلمون) أن لا ولاية لهم عليه وكانه نبه بالأكثر على ان منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها (الا مكاء) أى صفيرا (وتصدية) أى تصفيقا قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره يصفران ويصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته (فذوقوا العذاب) أى عذاب القتل والاسر ببدر فى الدنيا وعذاب النار فى الا آخرة (بما) أى بسبب ما (كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا ولما ذكر تعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الا آخرة بقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم) فى حرب النبى صلى الله عليه وسلم (ليصدوا عن سبيل الله) أى ليصرفوا عن دين الله تعالى نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم أيام بدر عشر جزائر أو فى أبى سفيان استأجر يوم أحد الفين من العرب سوى من استجاش أى اتخذه جيشا وأنفق عليهم أربعين أوقية والاوقية اثنان وأربعون مثقالا أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا ففعلوا (فسينفقونها ثم تكون) أى عاقبة الامر (عليهم حسرة) أى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه (ثم يغلبون) أى آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك كما اتفق لهم فى بدر فانهم أنفقوا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شئ من ذلك بل كان وبالا عليهم فانه كان سببا لجراءتهم حتى قدموا انما كان فى الحقيقة الاقوة للمؤمنين (والذين كفروا) أى ثبتوا على الكفر (الى جهنم يحشرون) أى يساقون اليها يوم القيامة فهم فى خزى فى الدنيا والا آخرة (فان قيل) لم لم يقل تعالى والى جهنم يحشرون (أجيب) بأنه اسلم منهم جماعة كأبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وحكيم بن حزام بل ذكر ان الذين ثبتوا على الكفر يكونون كذلك (ليميز الله الخبيث) أى الفريق الكافر (من الطيب) أى من الفريق المؤمن (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يجمعه متراكما بعضه على بعض

كقوله تعالى كادوا يكونون عليه لبدا أى لفرط ازدحامهم وقيل ليميز المال الخبيث الذى أنفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذى أنفقه المؤمن فى جهاد الكفار كانفاق أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا (فيجعله فى جهنم) فى جملة ما يعذبون به كقوله تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم الآية واللام على هذا متعلقة بتكون من قوله تعالى ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول متعلقة بيحشرون أو يغلبون وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء الاولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية مع الكسر والباقون بفتح الياء الاولى وكسر الميم وسكون الياء الثانية وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى الذين كفروا (هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم * ولما بين تعالى ضلالهم فى عباداتهم البدنية والمالية أرشدهم الى طريق الصواب فقال (قل) يا محمد (للذين كفروا) كأبى سفيان وأصحابه (ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا عن الكفر وقتال النبى صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم (وان يعودوا) أى الى الكفر ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم (فقد مضت سنة الاولين) أى باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه واجمع العلماء على أن الاسلام يجب ما قبله واختلفوا هل الكافر الاصلى مخاطب بفروع الشريعة وهل يسقط عن المرتد ما مضى فى حال ردته كالكافر الاصلى كما هو ظاهر الآية وهل الردة تحبط ما مضى من العبادات قبلها ذهب أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه مخاطب بدليل قوله تعالى ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الآية وأن المرتد لا تسقط عنه العبادات الفائتة فى الردة تغليظا عليه وأن الردة لا تحبط ما مضى وقد تقدم الكلام على ذلك فى المائدة وعن يحيى بن معاذ أنه قال توحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر ارجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب * ولما بين تعالى أن هؤلاء الكفار ان انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وان عادوا فهم متوعدون بسنة الاولين أتبعه بالامر بقتالهم اذا أصروا فقال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أى شرك كما قاله ابن عباس وقال الربيع حتى لا يفتن أحدكم عن دينه لان المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله فى مبدا الدعوة فافتتن من المسلمين بعضهم وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا الى الحبشة وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة توامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فأصاب المؤمنين جهد شديد فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة (ويكون الدين كله) خالصا (لله) تعالى وحده لا يعبد غيره (فان انتهوا) عن الكفر (فان الله بما يعملون بصير) أى فيجازيهم به (وان تولوا) عن الايمان (فاعلموا أن الله مولاكم) أى ناصركم ومتولى أموركم (نعم المولى) هو فانه لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) أى الناصر فلا يغلب من ينصره فمن كان فى حماية هذا المولى وفى حفظه وكفايته كان آمنا من الآفات مصونا عن المخالفات (واعلموا أنما غنمتم) أى أخذتم من الكفار الحربيين

(من شئ) مما يقع عليه اسم شئ مما هو لهم ولو اختصاصا (فان لله خمسه وللرسول) واعلم أن الغنيمة والفئ اسمان لما يصيبه المسلمون من الحربيين والصحيح أنهما مختلفان فالفئ ما حصل لنا مما هو لهم بلا ايجاف كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه ولو لغير خوف كضر أصابهم وتركة مرتد وكافر معصوم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز وسيأتي حكمه ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى ما أفاء الله على رسوله وأما الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم بايجاف أو سرقة أو التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا مالا جمعوه فتأتي نار من السماء تأخذه ثم أحلت للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الاسلام له خاصة لانه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ثم نسخ ذلك واستقل الامر على أنها تجعل خمسة أقسام متساوية ويؤخذ خمس رقاع ويكتب على واحدة لله أو للمصالح وعلى أربع للغانمين ثم تدرج في بنادق مستوية ويخرج لكل خمس رقعة فما خرج لله أو للمصالح جعل بين أهل الخمس على خمسة أصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه وذكر الله تعالى في الآية للتبرك وأما ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور وأرزاق علماء بعلوم تتعلق بمصالحنا كتفسير وفقه وحديث والصنف الثاني ما ذكره الله تعالى بقوله (ولذي القربى) أي قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بني عميهم نوفل وعبد شمس له لقوله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه فيعطون ولو أغنياء ويفضل الذكر على الانثى كالارث لانه عطية من الله تعالى تستحق بقرابة الاب كالارث فلا يعطى أولاد البنات من بني هاشم والمطلب شيأ لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان أم كل واحد منهما كانت هاشمية والصنف الثالث ما ذكره الله تعالى بقوله (واليتامى) اليتيم صغير ولو أنثى لخبر لا يتم بعد احتلام لا أب له وان كان له أم وجد ومن فقد أمه فقط يقال له منقطع واليتيم في البهائم من فقد أمه وفي الطير من فقد أباه وأمه والصنف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله (والمساكين) الصادقين بالفقراء والمسكين من له مال أو كسب لائق به يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه العمر الغالب وقيل سنة كمن يملك أو يكسب سبعة أو ثمانية ولا يكفيه الا عشرة والفقير من لا مال له أوله ذلك ولا يقع موقعا من كفايته كمن يحتاج الى عشرة ولا يملك أو لا يكتسب الا درهمين أو ثلاثة والخامس ما ذكره الله تعالى بقوله (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج ولا معصية بسفره والاخماس الاربعة الباقية للغانمين وهم من حضر القتال ولو في أثنائه بنية القتال وان لم يقاتل أو حضر بلا نية وقاتل كأجير لحفظ أمتعة وتاجر ومحترف وقوله تعالى (ان كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقنعوا بالاخماس الاربعة الباقية فان العلم العملي اذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لانه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل وقوله تعالى (وما) عطف على بالله (أنزلنا على عبدنا)

محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر فانه فرق به بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) أى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسعة عشر أو لسبعة عشر من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله تعالى المشركين وقتل منهم سبعون وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شئ قدير) فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم وقوله تعالى (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) أى القربى من المدينة بدل من يوم الفرقان أو من يوم التقى الجمعان أو منصوب باذكروا مقدرا والعدوة الدنيا مما يلى المدينة (وهم بالعدوة القصوى) أى البعدى من المدينة وهى مما يلى مكة وكان الماء بها وكان استظهار المشركين من هذا الوجه أشد والقصوى تأنيث الاقصى وكان قياسه قلب الواو كالدنيا والعليا ولكن لم تقلب تفرقة بين الاسم والصفة فانها تقلب فى الاسم دون الصفة على الاكثر وقيل بالعكس وعلى الاول القصوى وان كان صفة للعدوة فى الآية كالدنيا لكن غلب عليها الاسمية لترك الوصف بها فى أكثر الاستعمالات كما قاله ابن جنى فالقصوى بالواو على القولين شاذ بالنظر الى اسميتها فى الاول والى وصفيتها فى الثانى ومثال الصفة الخالصة حلوى تأنيث الاحلى فهى بالواو مقيسة على الاول شاذة على الثانى ومثال الاسم الخالص حزوى اسم مكان فهو بالواو شاذ على الاول مقيس على الثانى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو العدوة وهى شط الوادى بكسر العين فيهما والباقون بضم العين فيهما وأما الدنيا والقصوى فأمالهما حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين (والركب) أى العير التى خرجوا لها التى يقودها أبو سفيان (أسفل منكم) أى أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر وأسفل نصب على الظرفية معناه مكانا أسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل لانه خبر المبتدا (ولو تواعدتم) أنتم والنفير للقتال (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج وخرج الكفار مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لاموالهم فيمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد لقلتهم وكثرة عدوهم (ولكن) جمع الله تعالى بينهم على هذه الحالة من غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) فى علمه وهو نصر أوليائه واعزاز دينه واعلاء كلمته وقهر أعدائه وقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) بدل من ليقضى أو متعلق بقوله مفعولا واستعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به فان وقعة بدر من الآيات الواضحة التى من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها وقرأ نافع والبزى وشعبة بياءين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة والباقون بياء واحدة مشددة ثم انه تعالى ختم الآية بقوله (وان الله لسميع عليم) أى يسمع دعاءكم

ويعلم حاجتكم وضعفكم لا تخفى عليه خافية (اذ) أى واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ (يريكهم الله) أى المشركين (فى منامك) أى نومك (قليلا) فأخبرت أصحابك فسروا وقالوا رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق وصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم (فان قيل) رؤيا الكثير قليلا غلط فكيف يجوز على الله تعالى (أجيب) بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل أو أنه تعالى أراه بعضهم دون بعض فحكم صلى الله عليه وسلم على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت فى اليقظة قال والمراد من المنام العين التى هى موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) أى ولو أراكهم كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا أى جبنوا (ولتنازعتم) أى اختلفتم (فى الامر) أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقتال (ولكن الله سلم) أى سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم وقيل سلمكم من الهزيمة والقتل (انه) تعالى (عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى بما فى القلوب من الجراءة والجبن والجزع وغير ذلك (واذ يريكموهم) أيها المؤمنون (اذ التقيتم فى أعينكم قليلا) أى ان الله تعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وأخبر به أصحابه وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم ولا يجبنوا عن قتالهم قال ابن مسعود لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى أتراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال ألفا والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى (ويقللكم فى أعينهم) أى ويقللكم يا معشر المؤمنين فى أعينهم أى المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين قال السدى قال ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن اذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم انما محمد وأصحابه أكلة جزور يعنى جمع آكل أى قليل يشبعهم جزور واحد يضرب مثلا فى القلة والامر الذى لا يعبأ به ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال أراد بقوله ذلك القدرة والقوة (فان قيل) كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل (أجيب) بأن ذلك ممكن فى قدرة الله تعالى وان الله تعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة هى من خوارق العادات فلا ينكر ذلك أو أن الله تعالى يستر عنهم بعضه بساتر أو يحدث فى أعينهم ما يستقلون له الكثير كما أحدث فى عيون الحول ما يرون له الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك قال فمالى لا أرى هذين الديكين أربعة وهذا قبل التحام القتال فلما التحم أراهم اياهم مثليهم كما فى آل عمران (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى فى علمه وهو اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله (فان قيل) قد تقدم ذلك فى الآية المتقدمة فكان ذكره هنا محض تكرار (أجيب) بأن المقصود من ذكره فى الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الافعال ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره هنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكر هنا أنه قلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار فبين تعالى أنه

انما فعل ذلك ليصير ذلك سببا لئلا يبالغ الكفار فى تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم (والى الله ترجع الامور) كلها فلا ينفذ الامام يريد انفاذه فلا تجرى الامور على ما يظنه العباد وفى هذا تنبيه على أن أمور الدنيا غير مقصودة وانما المراد منها ما يصلح أن يكون زاد اليوم المعاد * ولما ذكر تعالى أنواع نعمه على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم اذا التقوا بالفئة وهى الجماعة من المحارب بين نوعين من الادب بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم) أى قاتلتم لان اللقاء سبب للقتال غالبا (فئة) أى جماعة كافرة (فاثبتوا) لقتالهم كما ثبتم فى بدر ولا تحدثوا أنفسكم بفرار وهذا هو النوع الاول (واذكروا الله كثيرا) بقلوبكم وألسنتكم قال ابن عباس أمر الله تعالى أولياءه بذكره فى أشد أحوالهم تنبيها على ان الانسان لا يجوز له أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله ولو أن رجلا أقبل من المشرق الى المغرب على ان ينفق الاموال سخاء والآخر من المغرب الى المشرق يضرب بسيفه فى سبيل الله لكان الذاكر لله أعظم أجرا وقيل المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر لان ذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى (لعلكم تفلحون) أى تظفرون بمرادكم من النصر والثبوت (فان قيل) هذه الآية توجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز (أجيب) بأن المراد من الثبات الجد فى المحاربة بل كان الثبات فى هذا المقصود لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز * ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) فى سائر ما يأمران به لان الجهاد لا ينفع الا مع التمسك بسائر الطاعات (ولا تنازعوا) أى تختلفوا فيما بينكم (فتفشلوا) أى تجبنوا (وتذهب ريحكم) أى قوتكم ودولتكم والريح مستعارة للدولة شبهها فى نفوذ أثرها بالريح ثم أدخل المشبه فى جنس المشبه به ادعاء وأطلق اسم المشبه به على المشبه وقيل المراد بها الحقيقة لانه لم يكن قط نصر الا بريح يبعثها الله تعالى وفى حديث الشيخين نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود (واصبروا) أى عند لقاء العدو ولا تنهزموا عنه (ان الله مع الصابرين) بالنصر والمعونة روى أنه صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) أى ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها (بطرا) اى فخرا وطغيانا فى النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها فى المفاخرة على الاقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها فى غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر فى النعمة وان صرفها فى طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها (ورئاء الناس) أى ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وأتاهم رسول أبى سفيان ان ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل لا والله حتى نقدم بدرا وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق فى كل عام

وأشرب

ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات والعزف اللعب بالمعازف وهي الدفوف وغيرها مما يضرب به قاله ابن الاثير وغيره والقينات الجوارى ونطعم بها من حضرنا من العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس باطعامهم فوافوها فسقوا المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القينات فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين وأمرهم ان يكونوا أهل تقوى واخلاص من حيث ان النهى عن الشئ أمر بضده (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس الدخول فى دين الله (والله بما يعملون محيط) لا يخفى عليه شئ لانه محيط بأعمال العباد كلها فيجازيهم بأعمالهم (واذ) أى واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ (زين لهم) أى المشركين (الشيطان) أى ابليس (أعمالهم) الخبيثة بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بنى بكر بن الحرث جاء ابليس وجند من الشياطين معه راية فتمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى وكان من أشرافهم (وقال) غارا لهم فى أنفسهم (لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) أى مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أى التقى الفريقان رأى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء علم عدو الله ابليس أنهم لا طاقة لهم بهم (نكص على عقبيه) قال الضحاك ولى مدبرا وقال النضر بن شميل رجع القهقرى على قفاه هاربا (وقال انى برئ منكم) قال الكلبى لما التقى الجمعان كان ابليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن مالك وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحرث الى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال له عدو الله ابليس (انى أرى مالا ترون) ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا قال الحسن رأى ابليس جبريل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ما ركب قال قتادة قال ابليس انى أرى مالا ترون وصدق وقال (انى أخاف الله) وكذب والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وذلك من عادة عدو الله ابليس لعنه الله لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقال عطاء خاف ابليس ان يهلكه الله تعالى فيمن يهلك وقيل أخاف الله عليكم وقيل انه لما رأى جبريل خافه وقيل لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف أن يكون الوقت الذى أنظر اليه قد حضر فقال ما قال اشفاقا على نفسه * ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وقوله تعالى (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلام ابليس أى انى أخاف الله لانه شديد العقاب وأن يكون مستأنفا أى والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به (فان قيل) كيف يقدر ابليس أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا (أجيب) بأن الله تعالى أعطاه قوة وأقدره على فعل ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال مارئى ابليس يوما فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا ما كان

من يوم بدر (اذ) أى واذكر اذ (يقول المنافقون) أى من أهل المدينة والمنافق هو من يظهر الاسلام ويخفى الكفر كما أن المرائى هو من يظهر الطاعة ويخفى المعصية (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقع الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء) المسلمين (دينهم) اذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسببه فقتلوا جميعا منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعدى بن أمية بن خلف الجمحى والعاص بن أمية بن الحجاج قال تعالى فى جوابهم (ومن يتوكل على الله) أى يثق به يغلب (فان الله عزيز) أى غالب على أمره (حكيم) أى فى صنعه يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن ادراكه ولما شرح تعالى أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم والعذاب الذى يصل اليهم فى ذلك الوقت بقوله تعالى (ولو ترى) أى عاينت وشاهدت يا محمد (اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) أى يقبض أرواحهم عند الموت (يضربون وجوههم وأدبارهم) أى ظهورهم واستاههم قال البيضاوى ولعل المراد تعميم الضرب أى يضربون ما أقبل منهم وما أدبر بمقامع من حديد (و) يقولون لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى النار قال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف واذا ولوا ضربوا أدبارهم فلا جرم قابلهم الله بمثله فى وقت نزع الروح وجواب لو محذوف والتقدير لرأيت منظرا هائلا وأمرا فظيعا وعقابا شديدا والملائكة مرفوع بالفعل ويضربون حال منهم ويجوز أن يكون فى قوله يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر (ذلك) أى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما) أى بسبب ما (قدمت) أى كسبت (أيديكم) من الكفر والمعاصى وانما عبر بالايدى دون غيرها لان أكثر الافعال تزاول بها والتحقيق ان الانسان جوهر واحد وهو الفعال وهو الدراك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصى وهذه الاعضاء آلة له وأدوات فى الفعل فأضيف الفعل فى الظاهر الى الآلة وهو فى الحقيقة مضاف الى جوهر ذات الانسان (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فلا يعذب أحدا من خلقه بغير ذنب وظلام للتكثير لاجل العبيد أى أنه بمعنى ذى ظلم (كدأب) أى دأب هؤلاء الكفار بكفرهم مثل دأب (آل فرعون) وهو عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه أى داموا عليه فجوزى هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب فى اللغة ادامة العمل يقال فلان دأب فى كذا أى داوم عليه وسميت العادة دأبا لان الانسان مداوم على عادته مواظب عليها (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأب آل فرعون (فأخذهم الله بذنوبهم) أى بسبب كفرهم كما أخذ هؤلاء (ان الله قوى) أى على ما يريده فينتقم ممن كفر وكذب رسله (شديد العقاب) ممن كفر وكذب رسله وقوله تعالى (ذلك) اشارة الى ما حل بهم من العقاب (بأن) أى

بسبب ان (الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم) أى مبدلا لها بالنقمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم)
أى بأن يبدلوا ما بهم من الحال الى حال أسوأ منه (فان قيل) فما كان من تغيير آل فرعون
ومشركى مكة حتى غير الله تعالى نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة
(أجيب) بأنه تعالى كما يغير الحال المرضية الى المسخوطة يغير الحال المسخوطة الى أسخط
منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كفرة عبدة أوثان فلما بعث اليهم بالآيات
البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت
عليه فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وان الله سميع) لما يقولون
(عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم
بذنوبهم) أى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح
وبعضهم بالمسخ كذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون) أى هو وقومه
(فان قيل) ما فائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية (أجيب) بأن فيها فوائد منها أن الكلام الثانى
يجرى مجرى التفصيل للكلام الاول لان الكلام الاول فيه ذكر أخذهم وفى الثانى ذكر
اغراقهم وذلك تفصيل ومنها أنه ذكر فى الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية
أنهم كذبوا بآيات ربهم ففى الآية الثانية اشارة الى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها
ومنها أن تكرير هذه القصة للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله بآيات ربهم
وبيان ما أخذ به آل فرعون ومنها ان الاولى لسببية الكفر والثانية لسببية التغيير والنقمة
بسبب تغييرهم ما بأنفسهم (وكل) أى من الفرق المكذبة أو من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا
ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصى وغيرهم بالاضلال واضعين الآيات فى غير موضعها وهم
يظنون بأنفسهم العدل ولما وصف تعالى كل الكفار بقوله تعالى وكل كانوا ظالمين أفرد بعضهم
بمزية فى الشر والفساد فقال (ان شر الدواب عند الله) فى حكمه وعلمه (الذين كفروا) أى أصروا
على الكفر (فهم لا يؤمنون) أى لا يتوقع منهم ايمان وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم ثم
ينقضون عهدهم فى كل مرة) بدل البعض من الذين كفروا وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان لا يمالئوا أى يساعدوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح
وقالوا نسينا وأخطأنا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن
الاشرف الى أهل مكة فحالفهم وانما جعلهم الله تعالى شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر
الكفار المصرون منهم وشر المصرين الناكثون العهود (وهم لا يتقون) الله فى حذرهم
(فاما) فيه ادغام ان الشرطية فى ما الزائدة (تثقفنهم) أى تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد
وظفرت بهم (فى الحرب فشرد) قال ابن عباس فنكل (بهم) أى بهؤلاء الذين نقضوا العهد
(من خلفهم) أى من وراءهم من أهل مكة واليمن وغيرهما فيخافون أن تفعل بهم كفعل هؤلاء
وقال عطاء أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم (لعلهم) أى الذين خلفهم (يذكرون) أى يتعظون
بهم (واما تخافن) أى تعلمن يا محمد (من قوم) عاهدتهم (خيانة) فى العهد بامارات تلوح لك

كما ظهر من قريظة والنضير (فانبذ) أى اطرح عهدهم (اليهم) وقوله تعالى (على سواء) حال أى مستويا أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر اذا نصبت الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) أى فى نقض العهد أو غيره روى ان معاوية كان بينه وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس او برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا فاذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل اليه معاوية يسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية قال الرازى حاصل الكلام فى هذه الآية أنه تعالى أمره بقتل من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه قال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن عاهدهم الامام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض امّا أن يظهر ظهورا محتملا أو ظهورا مقطوعا به فان كان الاول وجب الاعلام عليه على ما هو مذكور فى هذه الآية وذلك أن قريظة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فحصل للنبى صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فههنا يجب على الامام أن ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأمّا اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فههنا لا حاجة الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش النبى صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربعة فراسخ من مكة * ولما بين تعالى ما يفعله صلى الله عليه وسلم فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه وذكر أيضا ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين أيضا حال من فاته فى يوم بدر وغيره لكى لا تبقى حسرة فى قلبه فقد كان فيهم من بلغ فى أذية النبى صلى الله عليه وسلم مبلغا عظيما بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا) أى خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) الله أى لا يفوتونه بهذا السبق فى الانتقام منهم اما فى الدنيا بالقتل واما فى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منه فأعلمه الله تعالى انهم لا يعجزونه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء على الغيبة على أن الفعل للذين كفروا والباقون بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرد من صدر منه نقض العهد الى من خاف منه النقض واتفق لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم فى هذه الآية بالاعداد لهؤلاء الكفار بقوله تعالى (وأعدوا لهم) أى لقتالهم (ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه وفى المراد بالقوة اقوال الاول الرمى وقد جاءت مفسرة به عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم الا ان القوة الرمى ثلاثا أخرجه مسلم وعن أبى أسيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين

قوله فرجع معاوية فى تسببه عما قبله تأمل اه مصححه

صففنا

صففنا لقريش وصفوا لنا اذا كثبوكم فعليكم بالنبل وفى رواية ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه أى نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه الترمذى والثانى انها الحصون والثالث انها جميع الاسلحة والآلات التى تكون لكم قوة فى الحرب على قتال عدوكم وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) مصدر بمعنى حبسها فى سبيل الله سواء كانت ذكورا أو اناثا وقال عكرمة المراد الاناث وروى عن خالد بن الوليد انه قال لا يركب فى القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابى محيريز انه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند البيات والغارات وقيل ربط الفحول أولى لانها أقوى على الكر والفر ويدل للاول ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وبوله وروثه فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسناته وعن عروة البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل على فيها الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (ترهبون) أى تخوفون (به) أى بتلك القوة أو بذلك الرباط (عدو الله وعدوكم) أى الكفار من أهل مكة وغيرهم وذلك ان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الاسلام أو بذل الجزية للمسلمين (و) ترهبون (آخرين من دونهم) أى غيرهم وهم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم (الله يعلمهم) أى انهم منافقون (فان قيل) المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكر الارهاب (أجيب) بأن المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويقطع طمعهم من أن يصيروا غالبين فيحملهم ذلك على أن يتركوا الكفر من قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين فى الايمان وقيل هم اليهود وقيل الفرس (وما تنفقوا من شئ) وان قل (فى سبيل الله) أى طاعته جهادا كان أو غيره (يوف اليكم) قال ابن عباس أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره ويعجل الله عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من الثواب ولما تمثل ابن عباس عن هذا التفسير تلا قوله تعالى آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ ولما بين تعالى ما يرهب به العدو من القوة والاستظهار بين جواز الصلح بقوله تعالى (وان جنحوا) أى مالوا (للسلم) أى الصلح (فاجنح) أى مل (لها) وعاهدهم وتأنيث الضمير فى لها لحمل السلم مع انه مذكر على ضده وهو الحرب قال الشاعر

السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من انفاسها جرع

فأنث ضمير السلم فى تأخذ حملا على ضده وهو الحرب وعن ابن عباس هذه الآية منسوخة بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وعن مجاهد بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم

وقال غيرهما الصحيح ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الاسلام واهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا الى الهدنة أبدا وهذا ظاهر وقرأ شعبة بكسر السين والباقون بالفتح (وتوكل على الله) أى فوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون عونالك فى جميع أحوالك (انه هو السميع) لاقوالهم فهو يسمع كل ما أبرموه فى ذلك وفى غيره كما يسمعه علانية (العليم) بنياتهم فهو يعلم كل ما أخفوه كما انه يعلم كل ما أعلنوه (وان يريدوا) أى الكفار (أن يخدعوك) أى باظهار الصلح ليستعدوا لك (فان حسبك) أى كافيك (الله هو الذى أيدك بنصره) فى سائر أيامك فان أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته الى وقت وفاته كان أمرا الهيا وتدبيرا علويا وما كان لكسب الخلق فيه مدخل (و) أيدك (بالمؤمنين) أى الانصار (فان قيل) فاذا كان الله تعالى مؤيده بنصره فاى حاجة مع نصره تعالى الى المؤمنين (أجيب) بأن التأييد ليس الا من الله تعالى دائما لكنه على قسمين أحدهما ما يحصل من غير واسطة اسباب معلومة معتادة والثانى ما يحصل بذلك فالاول هو المراد من قوله تعالى أيدك بنصره والثانى هو المراد من قوله تعالى وبالمؤمنين والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذى أقامهم بنصره ثم بين تعالى كيف أيده بالمؤمنين بقوله تعالى (وألف) أى جمع (بين قلوبهم) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث الى قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو ان رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره ثم انهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا دعاة فازالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لا يقدر عليها الا الله تعالى وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أى تناهت عداوتهم الى حد لو أنفقت فى اصلاح ذات بينهم ما فى الارض من الاموال لم تقدر على الالفة والصلاح بينهم (ولكن الله ألف بينهم) بقدرته البالغة فانه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء (انه) أى الله تعالى (عزيز) أى غالب على أمره لا يعصى عليه ما يريد (حكيم) لا يخرج شئ عن حكمته وقيل الآية نزلت فى الاوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساهم فأنساهم الله تعالى ذلك وألف بين قلوبهم بالاسلام حتى تصادقوا وصاروا أنصارا وهذا من ابلغ لطائف صنعه وبليغ قدرته (يا أيها النبى حسبك) أى كافيك (الله) * (فان قيل) هذا مكرر (أجيب) بأنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الاعداء وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقا على جميع التقديرات فلا يلزم حصول التكرار لان المعنى فى الآية الاولى ان أرادوا خداعك كفاك الله تعالى أمرهم والمعنى فى هذه الآية عام فى كل ما يحتاج اليه فى الدين وقوله تعالى (ومن اتبعك من المؤمنين) اما فى محل نصب على المفعول معه كقول الشاعر * فحسبك والضحاك سيف مهند * روى الضحاك بالنصب على انه مفعول معه والمعنى كفاك وكفى اتباعك المؤمنين الله ناصرا أو رفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله وكفى المؤمنون وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال وعن سعيد بن

جبير أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فتمم الله تعالى به الاربعين فنزلت هذه الآية (يا أيها النبي حرض المؤمنين) أي حثهم (على القتال) للكفار والتحريض في اللغة كالتحضيض وهو الحث على الشئ (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم مائة) صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) وهذا خبر بمعنى الامر أي ليقاتل العشرون منكم المائتين والمائة الالف قتال عشرة امثالكم * (تنبيه) * تقييد ذلك بالصبر يدل على انه تعالى ما أوجب هذا الحكم الا بشرط كونه صابرا قادرا على ذلك وانما يحصل هذا الشرط عند حصول أشياء منها ان يكون شديد الاعضاء قويا جلدا ومنها ان يكون قوي القلب شديد البأس شجاعا غير جبان ومنها ان يكون غير متحرف لقتال أو متحيزا الى فئة فان الله تعالى استثنى هاتين الحالتين في الآيات المتقدمة فعند حصول هذه الشروط كان يجب على الواحد أن يثبت للعشرة (فان قيل) حاصل هذه العبارة المطولة ان الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول الى هذه العبارة المطولة (أجيب) بان هذا انما ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذين العددين وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (بأنهم) أي بسبب انهم (قوم لا يفقهون) أي جهلة بالله تعالى واليوم الآخر فلا يقاتلوا لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم في القتال لا يثبتون معكم وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على المؤمنين قال عطاء عن ابن عباس لما نزل التكليف بهذه الآية صاح المهاجرون وقالوا يارب نحن جياع وعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدونا ليس كذلك فنسخها الله تعالى بقوله تعالى (الآن خفف الله عنكم) أيها المؤمنون (وعلم ان فيكم ضعفا) أي في قتال الواحد للعشرة (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) منهم (وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين) منهم (باذن الله) أي بارادته تعالى فرهقوا من العشرة الى اثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز أن يفروا وقال عكرمة انما أمر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر فان فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون قال سفيان بن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك ونزل لما أخذوا الفداء من أسرى بدر (ما كان) أي ما صح وما استقام (لنبي أن تكون له أسرى) قرأ أبو عمرو بالتاء على التأنيث والباقون بالياء على التذكير (حتى يثخن في الارض) أي يكثر قتل الكفار ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله لان الملك والدولة انما تقوى وتشتد بالقتل قال الشاعر

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

روى انه صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيرا فيهم العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر رضى الله عنه قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر رضى الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله أغناك عن الفدا مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبابكر مثل ابراهيم قال من تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثل عيسى فى قوله وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثل موسى حيث قال ربنا اطمس على أموالهم ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قول أبى بكر وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لعمر يا أبا حفص وكان ذلك أول ما كناه أتامرنى أن أقتل العباس فجعل عمر يقول ويل لعمر ثكلته أمه ثم قال لاصحابه أنتم اليوم عالة ولا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق فقال ابن مسعود الا سهيل بن بيضاء فانى سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد خوفى فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للقوم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد وكان فدا الاسارى عشرين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وثمانمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف قال عمر رضى الله عنه فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه يبكيان قلت يارسول الله أخبرنى من أى شئ تبكى أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه (تريدون) أيها المؤمنون (عرض الدنيا) بأخذ فداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانها لاثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة (والله يريد) لكم (الآخرة) أى ثوابها بقهركم المشركين ونصركم الدين (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) أى لا يصدر منه فعل الا وهو فى غاية الاتقان قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الاسرى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله تعالى نبيه والمؤمنين فى أمر الاسرى بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا

أعتقوهم أى فهذه الآية نسخت تلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت الغنائم حراما على الانبياء والامم وكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان وكانت تنزل نار من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون وأخذوا الفداء فأنزل الله تعالى (لولا كتاب من الله سبق) أى لولا قضاء الله سبق فى اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم (لمسكم) أى لنالكم (فيما أخذتم) أى من الفداء (عذاب عظيم) وقال الحسن ومجاهد لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد الا أحب الغنائم الا عمر ابن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ قال يا رسول الله كان الاثخان فى القتل أحب الى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ روى لما نزلت هذه الآية كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم أن يأخذوا من الفداء فنزلت (فكلوا مما غنمتم) أى من الفداء فانه من جملة الغنائم (حلالا طيبا) فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وقال صلى الله عليه وسلم أحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل لنا الغنائم ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا (فان قيل) ما معنى الفاء فى قوله تعالى فكلوا (أجيب) بأنها سببية والسبب محذوف تقديره أبحت لكم الغنائم فكلوا وبنحوه تشبث من زعم ان الامر الوارد بعد الحظر للاباحة وحلالا حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته ازاحة ما وقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة ولذلك وصفه بقوله طيبا (واتقوا الله) فى مخالفته (ان الله غفور) غفر ذنوبكم (رحيم) أباح لكم ما أخذتم وقوله تعالى واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله تعالى ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ولما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الاسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه الآية استمالا لهم فقال عز من قائل (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسارى) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف والباقون بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعدها وامال الالف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائى محضة وورش بين بين (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) أى خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء قال ابن عباس نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لاهل بدر فلم تبلغه النوبة حتى أسر فقال العباس كنت مسلما الا أنهم الزمونى فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا قال العباس وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك ذلك الذهب لى فقال اما شئ خرجت به تستعين به علينا فلا قال فكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس تركتنى يا محمد أتكفف قريشا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين ما دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فان

حدث بى حادث فهولك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم فقال العباس وما يدريك يا ابن أخى قال أخبرنى به ربى فقال العباس أنا أشهد انك صادق وأشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فأما اذ أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم وما أحب ان لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ منى وأنا أرجو المغفرة من ربكم يعنى الدعوة بقوله تعالى (ويغفر لكم والله غفور رحيم) واختلف المفسرون فى أن الآية نزلت فى العباس خاصة أو فى جملة الاسارى قال بعضهم انها نزلت فى الكل قال الرازى وهذا أولى لان ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه أحدها قوله تعالى قل لمن فى أيديكم وثانيها قوله تعالى من الاسرى وثالثها قوله تعالى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ورابعها قوله تعالى يؤتكم خيرا وخامسها قوله تعالى مما أخذ منكم وسادسها قوله تعالى ويغفر لكم فدلت هذه الالفاظ الستة على العموم فما الموجب للتخصيص أقصى ما فى الباب أن يقال سبب نزول هذه الآية هو العباس الا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وان يريدوا) أى الاسارى (خيانتك) أى بما أظهروا من القول (فقد خانوا الله) بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعهد (من قبل) أى قبل بدر (فأمكن منهم) يبدر فقتلوا واسروا فليتوقعوا مثل ذلك ان عادوا (والله عليم) بما فى بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق وخيانة (حكيم) أى بالغ الحكمة فهو يتقن كل ما يريده فهو يوهن كيدهم ويتقن ما يقابلهم به فيلحقهم لا محالة وكذا فعل تعالى فى ابن عزة الجمحى فانه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى المنّ عليه بغير شئ لفقره وعياله وعاهده على أنه لا يظاهر عليه أحدا ثم خان فظفر به فى غزوة حمراء الاسد عقب يوم أحد أسيرا فاعتذر له وسأله العفو عنه فقال لا لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين وأمر به فضربت عنقه (انّ الذين آمنوا) أى بالله ورسوله (وهاجروا) أى وأوقعوا الهجرة من بلاد الشرك وهم المهاجرون الاولون هجروا أوطانهم وعشائرهم وأحبابهم حبا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم (وجاهدوا) أى وأوقعوا الجهاد وهو بذل الجهد فى توهين الكفر (بأموالهم) وكانوا فى غاية العزة فى أول الامر (وأنفسهم) باقدامهم على القتال مع شدة الاعداء وكثرتهم وقدم المال لانه سبب قيام النفس أى بانفاقهم لها فى الجهاد وتضييع بعضها بالهجرة من الديار والنخيل وغيرها وأخر قوله تعالى (فى سبيل الله) لذلك وفى سبيه أى جاهدوا بسببه حتى لا يصدّ عنه صاد ويسهل المرور فيه من غير قاطع (والذين آووا) أى من هاجر اليهم من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاسكنوهم فى ديارهم وقسموا لهم من أموالهم وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن (ونصروا) أى الله ورسوله والمؤمنين وهم الانصار رضى الله عنهم حازوا هذين الوصفين الشريفين فكانوا فى الذروة من هذين الجنسين ولكن المهاجرون الاولون أعلى منهم

لسبقهم فى الايمان الذى هو رئيس الفضائل وتحملهم الاذى من الكفار زمانا طويلا وصبرهم على فرقة الاهل والاوطان وأشار تعالى الى القسمين باداة البعد لعلو مقامهم فقال (أولئك) أى العالو الرتبة (بعضهم اولى ببعض) أى دون أقاربهم من الكفار قال ابن عباس فى الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة فكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون ذوى الارحام وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالارحام حيث كانوا وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (والذين آمنوا ولم يهاجروا) أى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) أى فلا ارث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم فى الغنيمة (حتى يهاجروا) أى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) أى ولم يهاجروا (فعليكم النصر) أى فيجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم (والله بما تعملون بصير) فى ذلك ترغيب فى العمل بما حث عليه من الايمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم وترهيب من العمل باضدادها وفى البصير اشارة الى العلم بما يكون من ذلك خالصا أو مشوبا ففيه مزيد حث على الاخلاص (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أى فى النصر لان كفار قريش كانوا معادين اليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا وفى الميراث فيرث بعضهم بعضا ولا ارث بينكم وبينهم (الا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى الميراث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن) أى تحصل (فتنة) أى عظيمة (فى الارض) بضعف الايمان وقوة الكفر (وفساد كبير) فى الدين ولما تقدمت أنواع المؤمنين المهاجر والناصر والقاعد وذكر أحكام موالاتهم أخذ يبين تفاوتهم فى الفضل بقوله تعالى (والذين آمنوا) أى بالله ورسوله وما أتى به (وهاجروا) فى الله تعالى من يعادى نبيه صلى الله عليه وسلم سابقين (وجاهدوا فى سبيل الله) بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد فى اذلال الكفار ولم يذكر آلة الجهاد لانها مع تقدم ذكرها لازمة (والذين آووا) أى من هاجر اليهم (ونصروا) أى حزب الله (أولئك هم المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (حقا) أى لانهم حققوا ايمانهم بتحقيق مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق ثم وعدهم الموعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة) أى لزلاتهم وهفواتهم لان مبنى الآدمى على العجز اللازم عند التقصير وان اجتهد ولن يشاد الدين أحد الا غلبه * ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى (ورزق) أى من الغنائم وغيرها فى الدنيا والآخرة (كريم) أى لا تبعة ولا منة فيه ثم الحق بهم فى الامرين من يستلحق بهم ويتسم بسمتهم بقوله تعالى (والذين آمنوا من بعد) أى بعد السابقين الى الايمان والهجرة (وهاجروا) أى لاحقين للسابقين وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم من هاجر بعد الحديبية قال وهى الهجرة الثانية (وجاهدوا معكم) أى من تجاهدونه من حزب الشيطان (فأولئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والانصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والمغانم وغيرها لان الوصف الجامع هو المدار للاحكام وان تأخرت رتبتهم عنكم بما

أنهمته اداة البعد (وأولو الارحام) أى ذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية فبين الله تعالى بها ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بها ذلك التوارث وقوله تعالى (فى كتاب الله) أى فى حكمه فى اللوح المحفوظ أو القرآن وتمسك أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى بهذه على توريث ذوى الارحام وأجاب عنه الشافعى رضى الله تعالى عنه بأنه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه السورة مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء فى قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات فوجب أن يكون المراد من هذا هو ذلك فقط فلا يتعدى الى توريث ذوى الارحام ثم قال تعالى فى ختم السورة (ان الله بكل شئ عليم) اى ان هذه الاحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح وليس فيها شئ من العبث والباطل لان العالم بجميع المعلومات لا يحكم الا بالصواب ونظيره ان الملائكة لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال الله تعالى مجيبا لهم انى أعلم ما لا تعلمون أى كما علمتم بكونى عالما بكل المعلومات فاعلموا أن حكمى يكون منزها عن الغلط فكذا هنا وقول البيضاوى فى بعض النسخ تبعا للزمخشرى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته فى الدنيا حديث موضوع

(سورة التوبة مدنية)

الا الآيتين من قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم وهى آخر ما نزلت وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون وعدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة وحروفها عشرة آلاف وثمانمائة وسبعة وثمانون حرفا ولها عدة أسماء التوبة براءة المقشقشة البحوثة المبعثرة المنقرة المثيرة الحافرة المخزية الفاضحة المنكلة المشردة المدمدمة سورة العذاب وانما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهى التبرئ منه والبحث عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم ولم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم وأخرج فى معناه عن على ان البسملة أمان وهى نزلت لرفع الامن بالسيف وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهى سورة العذاب وروى البخارى عن البراء انها آخر سورة نزلت وقيل كان صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه سورة أو آية بين موضعها فتوفى ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الانفال وتسامتها لان فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نبذها فضمت اليها قال القاضى يبعد أن يقال انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الانفال لان القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نقل ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى سائر السور وفى آيات السورة الواحدة وذلك يخرجه عن كونه

حجة بل الصحيح انه عليه الصلاة والسلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وانه
عليه الصلاة والسلام حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة وحيا والقول بأن قصتها
تشابه قصتها وتناسبها فضمت اليها انما يتم اذا قلنا انهم انما وضعوا هذه السورة من قبل أنفسهم
لهذه العلة وقيل ان الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى أن سورة الانفال وسورة براءة سورة
واحدة أم سورتان فقال بعضهم هما سورة واحدة لان كلتيهما نزل فى القتال ومجموعهما هو
السورة السابعة من الطوال وهى سبع ومابعدها المؤن لانهما معا مائتان وست آيات
فهما بمنزلة سورة واحدة ومنهم من قال سورتان فلما ظهر الاختلاف من الصحابة فى هذا
تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة وقال بعض أصحاب الامام
الشافعى رضى الله عنه لعل الله لما علم من بعض الناس انهم ينازعون فى كون بسم الله
الرحمن الرحيم من القرآن أمر أن لاتكتب ههنا ليدل ذلك على كونها آية من كل سورة فانها
لما لم تكن آية من هذه السورة وجب كونها آية من كل سورة وقيل غير ذلك والصحيح من هذه
الاقوال ماذهب اليه القاضى من أن القرآن مرتب من قبل الله ومن قبل رسوله صلى الله عليه
وسلم على الوجه الذى نقل وانه صلى الله عليه وسلم حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه السورة
وحيا وانما ذكرت هذه الاقوال تشحيذا للاذهان وقوله تعالى (براءة) خبر مبتدا محذوف أى
هذه براءة وقوله تعالى (من الله ورسوله) من ابتدائية متصلة بمحذوف تقديره واصلة من الله
ورسوله ويجوز أن يكون براءة مبتدا لتخصصها بصفتها والخبر (الى الذين عاهدتم) أى أوقعتم
العهد بينكم وبينهم (من المشركين) أى وان كانت معاهدتكم لهم انما كانت باذن من الله
ورسوله فكما فعلتم المعاهدة باذنهما فافعلوا النقض تبعا لهما ودل سياق الكلام وما حواه من
بديع النظام ان العهد انما هو لاجل المؤمنين واما الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فغنيان
عن ذلك اما الله فبالغنى المطلق وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فبالذى اختاره للرسالة لانه
مافعل ذلك الا وهو قادر على نصره بسبب وبغير سبب روى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج
الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله تعالى بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى واما
تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء الآية ونقض العهد بما يذكر فى قوله تعالى
(فسيحوا) أى سيروا آمنين أيها المشركون (فى الارض أربعة أشهر) لايتعرض لكم فيها
ولا أمان لكم بعدها وكان ابتداء هذه الاشهر يوم الحج الاكبر وانقضاؤها الى عشر من ربيع
الآخر وقال الازهرى هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لانها نزلت فى شوال وقيل فى ذى
الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشرين من شهر ربيع الآخر وكانت حرما لانهم أومنوا
فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها قال البغوى والاول هو
الاصوب وعليه الاكثرون اه وقيل العشر من ذى القعدة الى عشر من شهر ربيع الاول لان
الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ثم صار فى السنة الثانية من ذى الحجة

وكان نزولها في سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن اسيد فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضي الله عنه على موسم الحج سنة تسع ثم اتبعه عليا رضي الله عنه راكب العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها الى أبي بكر فقال لا يؤدي عني الا رجل مني فلما دنا علي من أبي بكر سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصل العضباء المشقوقة الاذن ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ولكن كان ذلك علما عليها والرغاء بالمد صوت ذوات الخف قاله الجوهري فلما لحقه قال أمير أو مأمور وروى ان أبابكر رضي الله عنه لما كان ببعض الطريق هبط جبريل وقال يا محمد لا يبلغن رسالتك الا رجل منك فأرسل عليا رضي الله عنه فرجع أبو بكر رضي الله عنه وقال يا رسول الله أشيء نزل قال نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالآي فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال أيها الناس اني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية وعن مجاهد ثلاث عشرة ثم قال أمرت بأربع آي بأن أخبروا نادى بها أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذي عهد عهده فقالوا عند ذلك أبلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (فان قيل) قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة لان يؤدوا عنه كثيرا ولم يكونوا من عترته (أجيب) بأن هذا ليس على العموم بل مخصوص بالعهود لان العرب عاداتها أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة الا رجل من الاقارب فلو تولاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا فلم يخف عليهم بتوليته عليا ذلك ويدل على ذلك ان في بعض الروايات لا ينبغي لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلي وقيل لما خص أبابكر بتولية الموسم خص عليا بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية للجوانب وقيل قرر أبا بكر على الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه على على امامة أبي بكر (فان قيل) ما وجه اطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الاشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك (أجيب) بأنهم قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها (واعلموا أنكم غير معجزي الله) أي لا تفوتونه وان أمهلكم (وأن الله مخزي الكافرين) أي مذلهم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب (وأذان) أي اعلام واقع (من الله ورسوله الى الناس) اذ الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة فانه اعلام بوقتها وارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين (فان قيل) لم علقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس (أجيب) بأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم واما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) أي يوم عيد النحر لان فيه معظم افعاله من طواف ونحر وحلق ورمي بقع

فيه ولان الاعلام كان فيه وروى انه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى حجة الوداع فقال أى يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر وروى ان عليا رضى الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الاكبر فقال يومك هذا خل سبيلها وقيل يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقيل أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقوله يوم صفين ويوم الجمل لان الحرب دامت فى هذه الايام ويطلق عليها يوم واحد وقيل هو الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل وصف بذلك لموافقته حج النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وقيل وصف بذلك لاجتماع اعياد الملل فى ذلك اليوم وقيل لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين وقوله تعالى (ان الله برىء من المشركين) أى من عهودهم فيه حذف تقديره وأذان من الله ورسوله بأن الله برىء من المشركين وانما حذف الجار لدلالة الكلام عليه وقوله تعالى (ورسوله) مرفوع على انه مبتدأ حذف خبره اى ورسوله كذلك وحكى ان اعرابيا سمع رجلا يقرأ ورسوله بالجر فقال ان كان الله برىء من رسوله فأنا منه برىء فلببه الرجل الى عمر رضى الله عنه فحكى الاعرابى الواقعة فحينئذ أمر عمر بتعليم العربية وحكى أيضا ان اعرابيا اقدم فى زمن عمر فقال من يقرئنى مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه رجل براءة فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابى أوقد برىء الله من رسوله ان يكن الله برىء من رسوله فأنا برىء منه فبلغ عمر رضى الله عنه مقالة الاعرابى فدعاه فسأله فأخبره الاعرابى بذلك فقال عمر ليس هكذا يا اعرابى فقال فكيف هى يا أمير المؤمنين فقال ان الله برىء من المشركين ورسوله بالرفع فقال وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه فأمر عمر ان لا يقرأ القرآن الا عالم باللغة وأمر أبا الاسود الدؤلى فوضع النحو (فان تبتم) أى عن الكفر والغدر (فهو) أى ذلك الامر العظيم وهو المتاب (خير لكم) أى من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) أى اعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا انكم غير معجزى الله) وذلك وعيد عظيم واعلام بأن الله تعالى قادر على انزال أشد العذاب بهم كما قال تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى مؤلم وهو القتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل الاخبار أو على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم وقوله تعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا كما قال تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) أى من عهودكم التى عاهدتموهم عليها (ولم يظاهروا) أى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم (فأتموا

اليهم عهدهم الى مدتهم) أى الى انقضائها ولا تجروهم مجرى الناكثين وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) تعليل وتنبيه على ان اتمام عهدهم من باب التقوى (فاذا انسلخ) أى انقضى وخرج (الاشهر الحرم) التى حرم الله تعالى عليهم فيها قتالهم وضربت أجلا لسياحتهم والتعريف مثله فى فأرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول والمراد بكونها حرما ان الله تعالى حرم القتل والقتال فيها وقيل هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم قال البيضاوى وهذا يخل بالنظم أى نظم الآية اذ نظمها يقتضى توالى الاشهر المذكورة (فاقتلوا المشركين) أى الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الاجل احسانا وكرما (حيث وجدتموهم) أى فى حل أو حرم أو فى شهر حرام أو غيره (وخذوهم) أى بالاسر (واحصروهم) أى بالحبس عن اتيان المسجد الحرام والتصرف فى بلاد الاسلام فى القلاع والحصون حتى يضطروا الى الاسلام أو القتل (واقعدوا لهم) أى لاجلهم خاصة فان ذلك من أفضل العبادات (كل مرصد) أى طريق يسلكونه لئلا ينبسطوا فى البلاد وانتصاب كل على الظرفية كقوله لاقعدن لهم صراطك المستقيم وقيل بنزع الخافض قال الحسن بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء (فان تابوا) أى عن الكفر بالايمان (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) تصديقا لتوبتهم وايمانهم فوصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق (فخلوا سبيلهم) أى فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشئ من ذلك وفى هذه الآية دليل على ان تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله لانه ان كان جاحد الوجوبهما فهو مرتد والا قتل بترك الصلاة وأخذت منه الزكاة قهرا وقوتل على ذلك كما نقل عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر كفر من كفر من العرب قال عمر لابى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقها وحسابه على الله فقال أبو بكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله ما هو الا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر الى القتال فعرفت انه الحق (ان الله غفور) أى بليغ المحو للذنوب التى تاب صاحبها عنها (رحيم) به (وان أحد من المشركين) أى الذين أمرت بقتالهم (استجارك) أى طلب أن تعامله فى الاكرام معاملة الجار بعد انقضاء مدة السياحة (فأجره) أى فأمنه ودافع عنه من يقصده بسوء (حتى يسمع كلام الله) أى القرآن بسماع التلاوة الدالة عليه فيعلم بذلك ما يدعى اليه من المحاسن ويتحقق انه ليس من كلام الخلق (ثم) ان أراد الانصراف ولم يسلم (أبلغه مأمنه) أى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه لينظر فى امره ثم بعد ذلك يجوز لك قتلهم وقتالهم من غير غدر ولا خيانة قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة * (تنبيه) * أحد مرفوع بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره وان استجارك أحد ولا يجوز أن

يرتفع بالابتداء لان ان من عوامل الفعل فلا تدخل على غيره (ذلك) أى الامر بالاجارة للغرض المذكور (بأنهم) أى بسبب انهم (قوم لا يعلمون) أى لا علم لهم لانهم لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب فاذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم وقوله سبحانه وتعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) استفهام معناه الجحد أى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد (الا الذين عاهدتم) أى من المشركين (عند المسجد الحرام) يوم الحديبية وهم المستثنون قبل (فما استقاموا لكم) أى أقاموا على العهد ولم ينقضوه (فاستقيموا لهم) أى على الوفاء وهو كقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم غير انه مطلق وهذا مقيد وما تحتمل الشرطية والمصدرية (ان الله يحب المتقين) أى من اتقى يوفى بعهده لمن عاهده وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه باعانة بنى بكر على خزاعة وقوله تعالى (كيف) تكرار للاستبعاد بثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهد ثابت (وان) أى والحال انهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم ان (يظهروا عليكم) أى يعلوا أمرهم على أمركم بأن يظفروا بكم بعد العهد والميثاق (لا يرقبوا) أى لا يراعوا (فيكم) اى فى اذاكم بكل جليل وحقير (الا) أى قرابة محققة قال حسان

لعمرك ان الك من قريش * كال السقب من رأل النعام

السقب ولد الناقة والرأل ولد النعامة والخطاب فى لعمرك لابى سفيان أى لا قرابة بينك وبين قريش كالاقرابة بين ولد الناقة وولد النعامة وقيل الالها وقيل جبريل (ولا ذمة) أى عهدا بل يؤذوكم ما استطاعوا وقوله تعالى (يرضونكم بأفواههم) أى بكلامهم كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) أى عن الوفاء به لمخالفة ما فيها من الاضغان (وأكثرهم فاسقون) أى راسخو الاقدام فى الفسق (فان قيل) الموصوفون بهذه الصفة كفار والكفر أقبح وأخبث من الفسق فكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم وأيضا الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله وأكثرهم فائدة (أجيب) بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقا خبيث النفس فى دينه فينقضه فالمراد بالفسق هنا نقض العهد وكان فى المشركين من وفى بعهده فلهذا قال وأكثرهم أى ان هؤلاء الكفار الذين من عادتهم نقض العهد أكثرهم فاسقون فى دينهم وعند اقوامهم وذلك يوجب المبالغة فى الذم وقال ابن عباس لا يبعد ان يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب فلهذا السبب قال وأكثرهم فاسقون حتى يخرج عن هذا الحكم أولئك الذين دخلوا فى الاسلام (اشتروا) أى استبدلوا (بآيات الله) أى القرآن (ثمنا قليلا) أى عرضا يسيرا من الدنيا وهو اتباع الاهواء والشهوات مع مصاحبة الكفر وذلك ان أبا سفيان بن حرب اطعم حلفاءه وترك حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم فنقض العهد الذى بينهم بسبب تلك الاكلة (فصدوا) أى فتسبب لهم ذلك وأداهم الى ان صدوا (عن سبيله) أى منعوا الناس من الدخول فى دينه (انهم ساء) أى بئس (ما كانوا يعملون) أى عملهم

هذا ومادل عليه قوله تعالى (لايرقبون فى مؤمن الاولاذمة) فهو تفسير لا تكرير وقيل الاول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والاعراب الذين جمعهم أبوسفيان وأطعمهم (وأولئك) أى هؤلاء البعداء من كل خير (هم المعتدون) الذين تعدوا ماحد الله لهم فى دينه ومايوجبه العقد والعهد * ولما بين تعالى حال من لايرقب فى الله الاولاذمة وينقض العهد وينطوى على النفاق ويتعدى ماحد الله تعالى له بين مايصيرون به من أهل دينه بقوله تعالى (فان تابوا) أى رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (وأقاموا الصلاة) أى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها (وآتوا الزكاة) المفروضة عليهم طيبة بها نفوسهم (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) لهم مالكم وعليهم ماعليكم وقوله تعالى (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) اعتراض للحث على تأمل مافصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين (وان نكثوا) أى نقضوا (ايمانهم) أى عهودهم (من بعد عهدهم) الذى عاهدوكم عليه أن لايقاتلوكم ولايظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) أى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه (فقاتلوا أئمة الكفر) أى الكفار بأسرهم وانما خص الائمة منهم بالذكر لانهم هم الذين يحرضون الاتباع منهم على هذه الاعمال الباطلة وقال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وأبى جهل وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا باخراج الرسول وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة وحققها الباقون وقول البيضاوى والتصريح بالياء لحن تبع فيه الكشاف التابع للفراء وهو مردود فالجمهور من النحاة والقراء على جواز قلب الهمزة الثانية حرف لين فبعضهم على جعلها بين بين وبعضهم على قلبها ياء خالصة وقوله تعالى (انهم لاايمان لهم) قرأ ابن عامر بكسر الهمزة أى لاتصديق لهم ولادين وليس فى ذلك دلالة على ان توبة المرتد لاتقبل والباقون بالفتح جمع يمين أى لاايمان لهم على الحقيقة وايمانهم ليست بايمان والا لما طعنوا فى دينكم ولم ينكثوا وفيه دليل على ان الذمى اذا طعن فى الاسلام فقد نكث عهده أى ان شرط ذلك عليه كما هو مذهبنا وتمسك أبو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على ان يمين الكافر لاتكون يمينا وعند الشافعى رحمه الله تعالى يمينهم منعقدة ومعنى هذه الآية عنده انهم لما لم يؤمنوا بها صارت ايمانهم كأنها ليست بايمان والدليل على أن يمينهم منعقدة ان الله تعالى وصفها بالنكث فى قوله تعالى وان نكثوا ايمانهم ولو لم تكن منعقدة لما صح وصفها بالنكث وقوله تعالى (لعلهم ينتهون) متعلق بقاتلوا أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم بعدما وجد منهم ماوجد من العظائم ان ينتهوا عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم وهذا فى غاية كرم الله تعالى وفضله على الانسان وليس الغرض ايصال الاذية لهم كما هو طريقة الموحدين * ولما قال تعالى فقاتلوا أئمة الكفر اتبعه بذكر ثلاثة أسباب تبعثكم على مقاتلتهم كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها حال الاجتماع أحدها ماذكره تعالى بقوله (الاتقاتلون قوما نكثوا ايمانهم) أى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا

عقد الصلح بالحديبية واعانوا بنى بكر على خزاعة وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ليكون ذلك زجرا لغيرهم وثانيها قوله تعالى (وهموا باخراج الرسول) من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة على ما ذكر فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا باخراجه من المدينة وهذا من أوكد ما يجب القتال لاجله وثالثها قوله تعالى (وهم بدؤكم) أى بالقتال (أول مرة) أى هم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم بالكتاب المنير وتحداهم به فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها الى القتال فهم البادؤن بالقتال والبادئ أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وان تصدموهم بالشر كما صدموكم وبخهم الله تعالى بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها وتقرر ان من كان فى مثل صفاتهم من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها (أتخشونهم) أى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بوعد الله تعالى ووعيده لان قضية الايمان الصحيح ان لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالى بمن سواه كقوله تعالى ولا يخشون أحدا الا الله * ولما وبخهم الله تعالى على ترك القتال جدد لهم الامر به بقوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) أى بالقتل والاسر واغتنام الاموال (فان قيل) قد قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف قال تعالى هنا يعذبهم الله بأيديكم (أجيب) بأن المراد بالعذاب فى الآية الاولى عذاب الاستئصال وبهذه الآية القتل والاسر والفرق ان عذاب الاستئصال قد يتعدى الى غير المذنب وانه فى حقه لمزيد الثواب وعذاب القتل مقصور على المذنب وهذا كالتصريح بأن هذا الفعل وما عطف عليه فعله تعالى وان كان جاريا على أيدى العباد كسبا الا يرد على ذلك أنه لا يقال يعذب الله المؤمنين بأيدى الكافرين لان ذلك انما امتنع لشناعة العبارة كما لا يقال يا خالق القاذورات والابوال والعذرات وان كان هو الخالق لها (ويخزهم) أى بالذل والفضيحة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (وينصركم عليهم) أى يمكنكم من قتلهم واذلالهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) أى طائفة من المؤمنين وهم خزاعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فاسلموا فلقوا من أهلها أذى شديدا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال أبشروا فان الفرج قريب (ويذهب غيظ قلوبهم) أى كربها ووجدها وقد وفى الله تعالى بما وعد والآية من المعجزات وقوله تعالى (ويتوب الله على من يشاء) استئناف أى ان الله تعالى يهدى من يشاء الى الاسلام كما فعل بأبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله تعالى عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا وحسن اسلامهم (والله عليم) أى يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان فهو عليم بكل شئ فيعلم من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها أو يعلم ما فى قلوبكم من الاقدام والاحجام (حكيم) أى أحكم جميع أموره (أم حسبتم) أى أظننتم (ان تتركوا) فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من

الكاذب والخطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال وقيل للمنافقين وأم بمعنى
همزة الانكار (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أى علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم فى مجارى
عاداتكم على مقتضى عقولكم بأن يقع الجهاد فى الواقع بالفعل وعبر تعالى بلما دون لم لدلالتها
مع استغراق الزمان على أن تبين مابعدها متوقع كائن وقوله تعالى (ولم يتخذوا من دون الله
ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله
المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة
من دخل وهى البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم اسرارهم وقال قتادة هى الخيانة
وقال عطاء هى الاولياء (والله خبير بما تعملون) من موالاة المشركين وغيرها فيجازيكم عليه
قال ابن عباس رضى الله عنهما ولما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم
وأغلظ على رضى الله عنه عليه القول فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون
محاسننا فقال له على وهل لكم محاسن قال نعم نحن أفضل منكم انا لنعمر المسجد الحرام
ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى يعنى الاسير فأنزل الله تعالى ردا على العباس (ما كان
للمشركين أن يعمروا مساجد الله) أى ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مسجد الله بدخوله
والقعود فيه وخدمته فاذا دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذنه لم يعزر لكن لابد من حاجة
فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبى صلى
الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سوارى المسجد وهو كافر وذهب جماعة الى أن
المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر وقرأ ابن كثير
وأبو عمرو بسكون السين ولا ألف بعدها على التوحيد وفى هذا دلالة على أن المراد المسجد
الحرام والباقون بفتح السين وألف بعدها على الجمع وفيه دلالة على أن المراد جميع المساجد
وقيل المراد على القراءتين المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر
الجميع وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) حال من الواو فى يعمروا أى ما استقام
لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته ومعنى
شهادتهم على أنفسهم بالكفر ظهور كفرهم قال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن
كلامهم بالكفر شاهد عليهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما شهادتهم على أنفسهم
بالكفر سجودهم للاصنام وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا
يطوفون بالبيت عراة ويقولون لانطوف بثياب قد عملنا فيها المعاصى وكلما طافوا أسبوعا
سجدوا للاصنام فلم يزدادوا من الله الا بعدا وقيل هو قولهم لبيك لاشريك لك الا شريك
هو لك تملكه وماملك وقال السدى شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصرانى يسئل من
أنت فيقول نصرانى واليهودى يقول يهودى والمشرك يقول مشرك (أولئك حبطت) أى
بطلت (أعمالهم) أى الاعمال التى عملوها من أعمال البر وافتخروا بها مثل العمارة والحجابة
والسقاية وفك العناة مع الكفر لا تأثير لها (وفى النار هم خالدون) لجعلهم الكفر مكان الايمان

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة من أهل الايمان لايبقى مخلدا فى النار من وجهين الاول قوله تعالى وفى النارهم خالدون يفيد الحصر أى هم فيها خالدون لاغيرهم ولما كان هذا واردا فى حق الكفار ثبت أن الخلود لايحصل الا للكافر الثانى أنه تعالى جعل الخلود فى النار جزاء للكفار عن كفرهم فلو كان هذا الحكم جزاء لغير الكافر لما صح تهديد الكافر به وفى الكشاف أن الكبيرة تهدم الاعمال وهو جار على مذهبه الفاسد ولما بين تعالى أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين المستحق لعمارتها بقوله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش) أحدا (الا الله) أى انما تتم عمارتها لهؤلاء الجامعين بين الكمالات العملية والعلمية (فان قيل) لم لم يذكر الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم مع أن الايمان به شرط فى صحة الايمان (أجيب) بأنه تعالى لما ذكر الصلاة والصلاة لاتتم الا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافيا وبما علم من أن الايمان بالله تعالى قرينه وتمامه الايمان به فكان الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم مذكورا بطريق أبلغ وهو طريق الكناية لما لزم من مقارنتهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى رسالة الله طلبا للرياسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة فكأنه يقول مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس الا الايمان بالمبدا والمعاد فذكر المقصود الاصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لامطلوب له من الرياسة (فان قيل) كيف قال تعالى ولم يخش الا الله والمؤمن يخاف الظلمة والمفسدين (أجيب) بأن المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى أبواب الدين وان لايختار على رضا الله تعالى عنه رضا غيره لتوقع مخوف واذا اعترضه أمران أحدهما حق الله تعالى والآخر حق نفسه أن يخاف الله تعالى فيؤثر حق الله تعالى على حق نفسه وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم ومن عمارة المساجد ترميمها وفرشها وتنويرها بالسرج التى لاسرف فيها وادامة العبادة فيها والذكر ومن الذكر درس العلم فيها بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما تبنى المساجد لاجله كحديث الدنيا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة وفى الحديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وفى الكشاف انه صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره قال شيخ شيخنا ابن حجر لم أجده هكذا وفى الطبرانى عن سلمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم زائره وروى عنه صلى الله عليه وسلم من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوءه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد وراح أعد الله تعالى له نزلا

من الجنة كلما غدا أو راح وفى قوله تعالى (فعسى أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات (أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم والانتفاع بأعمالهم التى قد استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها فانه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا الى ايمانهم العمل بالشرائع وضموا اليه الخشية من الله تعالى فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائرا بين لعل وعسى فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بخير من عند الله ومنع للمؤمنين من أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها وذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله) أقوالا فعن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل لا أبالى ان لا أعمل عملا بعد ان أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فنزلت وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام وبالهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فنزلت وقيل ان المشركين قالوا لليهود نحن علينا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه فقالت لهم اليهود أنتم أفضل فنزلت وقيل ان عليا قال للعباس رضى الله عنهما يا عم ألا تهاجرون الا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال العباس ما أرانى الا تارك سقايتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس أمره صلى الله عليه وسلم على ذلك وروى انه صلى الله عليه وسلم جاء السقاية فاستسقى فقال العباس رضى الله عنه لابنه الفضل يا فضل اذهب الى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال له صلى الله عليه وسلم اسقنى قال يا رسول الله يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح وعن أبى بن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه اعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس رضى الله عنهما الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل انما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه اسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب به وسقى فضله اسامة وقال أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوه فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة وهو حلال فان غلا وخمر حرم *(تنبيه)* السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية فلا بد من مضاف محذوف تقديره اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كايمان من آمن بالله (لا يستوون عند الله) أى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله

وجاهدوا

وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على كفره لان الله تعالى لا يقبل عملا الا مع ايمان به وبين عدم تساويهم بقوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم منهمكون فى الضلال فكيف يساوون الذين عاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين (الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عند الله) أى اعلى مرتبة وأكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه الصفات والمراد من كون العبد عند الله بالاستغراق فى عبوديته وطاعته وليس المراد منه قطع العندية بحسب الجهة والمكان لان الارواح البشرية اذا تطهرت من دنس الاوصاف البدنية أشرقت بأنوار الجلال وتجلى فيها أضواء عالم الكمال وسرت من العبودية الى العندية وقيل أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام (فان قيل) على هذا كيف قال فى وصفهم أعظم درجة مع انه ليس للكافر درجة (أجيب) بأن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لانفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ونظيره قوله تعالى قل آلله خير أم ما يشركون وقوله تعالى أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم (وأولئك) من هذه صفتهم (هم الفائزون) أى بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم) أى يخبرهم (ربهم) والبشارة الخبر السار الذى يفرح الانسان عند سماعه وتستبشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ثم ذكر سبحانه وتعالى الذى يبشرهم به بقوله تعالى (برحمة منه ورضوان) فهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله تعالى سبحانه وتعالى على العبد نهاية مقصوده (وجنات) أى بساتين كثيرة الاشجار والثمار (لهم فيها) أى الجنات (نعيم) أى جزاء خالص عن كدرها (مقيم) أى غير منقطع وقوله تعالى (خالدين فيها) حال مقدرة وحقق الخلود بقوله تعالى (أبدا) ولما ذكر تعالى هذه الاحوال قال (ان الله عنده أجر عظيم) وناهيك بما يصفه الله بالعظم وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالعظم والاسم الاعظم فكان أعظم الثواب لان ايمانهم أعظم الايمان * وذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) أقوالا فقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك الله ان لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عندهم ويدع الهجرة فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه حتى رخص لهم بعد ذلك قال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة أى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الايمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله تعالى (ان استحبوا) أى اختاروا (الكفر على الايمان) أى أقاموا عليه تركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم) أى ومن يختر المقام معهم على الهجرة والجهاد (فأولئك هم الظالمون) أى فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله تعالى واختيار الكفار على

المؤمنين * ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا ارحامنا فنزل قوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة وقيل من العشرة فان العشرة جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة (وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) أى عدم نفاقها بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) أى تستوطنونها راضين بسكناها (أحب اليكم من الله ورسوله) أى الهجرة الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فقعدتم لاجل ذلك عن الهجرة والجهاد أى ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) أى انتظروا وتربصين وهو تهديد بليغ (حتى يأتى الله بأمره) قال مجاهد بقضائه أى عقوبة عاجلة أو آجلة وقال مقاتل بفتح مكة (والله لا يهدى القوم) أى لا يخلق الهداية فى قلوب (الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا (لقد نصركم الله) النصرة المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن) أى اماكن للحرب (كثيرة) كبدر وقريظة والنضير والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم على ماذكر فى الصحيحين من حديث زيد ابن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منها وأما جميع غزواته وسراياه وبعوثه فقيل سبعون وقيل ثمانون (ويوم) أى واذكر يوم (حنين) وهو واد بين مكة والطائف أى يوم قتالكم فيه هوازن وقوله تعالى (اذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين وكانت قصة حنين على مانقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وقد بقى من شهر رمضان أيام وخرج متوجها الى حنين لقتال هوازن وثقيف واختلفوا فى عدد عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وقال قتادة كانوا اثنى عشر ألفا عشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا اليهم من الطلقاء وهم الاسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا وبالجملة كانوا عددا كثيرا وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة اعجابا بكثرتهم فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وقيل قائلها أبو بكر رضى الله عنه وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول بعيد جدا لانه صلى الله عليه وسلم كان فى أحواله كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها ثم اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وتخلوا عن الذرارى ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون حتى بلغ منهزمهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وناهيك بهذا شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تناهى شجاعته قال البراء بن عازب كانت

هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وأكببنا على الغنائم واستقبلونا بالسهام فانكشف
المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه الا العباس وأبو سفيان قال البراء والذى
لا اله الا هو ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط قد رأيته وأبو سفيان آخذ بالركاب
والعباس أخذ بلجام الدابة وهو يقول انا النبى لا كذب * انا ابن عبد المطلب فطفق
يركض بغلته نحو الكفار لا يولى ثم قال للعباس وكان صيتا صح يا عباس فنادى يا عباد الله
يا أصحاب الشجرة وهم أصحاب بيعة الرضوان المذكورون فى قوله تعالى لقد رضى الله عن
المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة يا أصحاب سورة البقرة قال الطيبى وهم المذكورون فى قوله
تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون وقيل الذين أنزلت عليهم سورة البقرة فرجعوا
جماعة واحدة يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة
والسلام هذا حين حمى الوطيس أى اشتد الحرب ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من
تراب فرماهم ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وروى أنه صلى الله عليه وسلم نزل
عن البغلة ثم أخذ قبضة من تراب الارض ثم استقبل بها وجوههم ثم قال شاهت الوجوه قال
سلمة بن الاكوع فما خلق الله تعالى منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا
مدبرين فهزمهم الله تعالى (فلم تغن) أى الكثرة (عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما
رحبت) أى برحبها أى بسعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب
ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه (ثم وليتم مدبرين) أى الكفار ظهوركم مدبرين أى
منهزمين والادبار الذهاب الى خلف خلاف الاقبال (ثم أنزل الله سكينته) أى رحمته التى
سكنوا اليها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين) أى على الذين انهزموا فردوا الى النبى صلى
الله عليه وسلم لما ناداهم العباس باذنه صلى الله عليه وسلم وقيل هم الذين ثبتوا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب (وأنزل جنودا) أى ملائكة (لم تروها) بأعينكم قال سعيد
ابن جبير مد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وقيل ثمانية آلاف
وقيل ستة عشر ألفا وروى ان رجلا من بنى النضير قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق
والرجال الذين عليهم ثياب بيض ما كنا نراكم فيهم الا كهيئة الشامة وما قتلنا الا بأيديهم فأخبروا
بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبى
العيال وسلب المال (وذلك جزاء الكافرين) أى ما فعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا روى أنه صلى
الله عليه وسلم لما قسم ما أفاء الله عليه يوم حنين فى الناس وفى المؤلفة قلوبهم لم يعط الانصار شيأ
فكأنهم وجدوا اذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معاشر
الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم
الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله لو شئتم قلتم جئتنا
كذا وكذا أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى الى رحالكم لولا الهجرة
لكنت امرأ من الانصار لو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الانصار

شعار والناس دثار انكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض وعن رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل واعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال العباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيـ * ـد بين عيينة والاقرع

فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن يخفض اليوم لا يرفع

قال فأتم رسول الله صلى الله عليه وسلم له مائة (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) منهم بالتوفيق للاسلام (والله غفور رحيم) فيتجاوز عنهم ويتفضل عليهم روى ان ناسا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل مالا يحصى فقال ان عندى ما ترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيأ والحسب ما يعده الانسان من مفاخر آبائه كنوا بذلك عن اختيار الذرارى والنساء على استرجاع الاموال لان تركهم فى ذل الاسر يفضى الى الطعن فى احسابهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده شئ وطابت نفسه أن يرده فشأنه أى فليلزم شأنه وأمره ومن لا تطب نفسه ليعطنا وليكن قرضا علينا أى بمنزلة القرض حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه فقالوا رضينا وسلمنا فقال انى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى فروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أن قد رضوا (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أى ذو نجس لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو انهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات فهى ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها مبالغة فى وصفهم بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن رحمه الله تعالى من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين والنجس مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع (فلا يقربوا المسجد الحرام) أى لنجاستهم وانما نهى عن الاقتراب للمبالغة والمنع من دخول الحرم قال العلماء وجملة بلاد الاسلام فى حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخل المسجد بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام فى الحرم لا يؤذن له فى دخول الحرم بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم القسم الثانى من بلاد الاسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بالاذن ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى

لا ادع الا مسلما فأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق فى الطول وأما فى العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشأم والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان لكن لا يدخل المساجد الا باذن مسلم لحاجة وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) اشارة الى العام الذى حج فيه ابو بكر رضى الله تعالى عنه ونادى على رضى الله عنه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة وقيل سنة حجة الوداع ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يقرأ على مشركى مكة أول براءة وينبذ اليهم عهدهم وان الله برىء من المشركين ورسوله قال اناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة لانقطاع السبيل وفقد الحمولات وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون فلما امتنعوا من دخول الحرم خافوا الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (وان خفتم عيلة) أى فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم (فسوف يغنيكم الله من فضله) أى من عطائه وتفضله من وجه آخر وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل المطر عليهم مدرارا فكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وتبالة وجرش وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وتبالة بفتح التاء وجرش بضم الجيم وفتح الراء وشين معجمة قريتان من قرى اليمن وقيد ذلك بقوله تعالى (ان شاء) لتنقطع الآمال اليه تعالى ولينبه على أنه متفضل فى ذلك وان الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفى عام دون عام (ان الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة (عليم) أى بوجوه المصالح (حكيم) أى فيما يعطى ويمنع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقال من أين تأكلون فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب كما قال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) (فان قيل) اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك (أجيب) بأن من اعتقد أن العزير ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك وبأن من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) من الشرك وأكل أموال الناس بالباطل وتبديل التوراة والانجيل وغير ذلك (ولا يدينون دين الحق) أى الثابت الذى هو ناسخ لسائر الاديان وهو الاسلام كما قال تعالى ان الدين عند الله الاسلام (من الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى بيان للذين لا يؤمنون (حتى يعطوا الجزية) وهى الخراج المضروب على رقابهم فى نظير سكناهم فى بلاد الاسلام آمنين مأخوذ من المجازاة لكفنا عنهم وقيل من الجزاء بمعنى القضاء قال الله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ أى لا تقضى وقوله تعالى (عن يد) حال من الضمير أى منقادين مقهورين يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وهل يجوز أن يوكلوا مسلما فى دفعها أولا ينبنى على تفسير الصغار المذكور فى قوله تعالى (وهم صاغرون)

أى أذلاء منقادون لحكم الاسلام ويكفى فى الصغار ان يجرى عليهم الحكم بما لا يعتقدون حله أن يجوز التوكيل على هذا تفسيره ان يجلس الآخذ ويقوم الكافر ويطأطئ رأسه ويحنى ظهره ويضع الجزية فى الميزان ويقبض الآخذ لحيته ويضرب لهزمتيه وهما مجتمع اللحم بين الماضغ والاذن من الجانبين مردود بأن هذه الهيئة باطلة ودعوى سنيتها أو وجوبها أشد بطلانا ولم ينقل ان النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحدا من الخلفاء الراشدين فعل شيأ من ذلك وعلى تفسيرها بما ذكر يمتنع التوكيل اذا قيل بوجوبه لا باستحبابه *(تنبيه)* مفهوم الآية يقتضى تخصيص الجزية بأهل الكتاب ولكن ألحق بهم المجوس لانه صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر وقال سنوا بهم سنة أهل الكتاب وكذا من زعم التمسك بصحف ابراهيم وزبور داود صلى الله عليهما وسلم ومن أحد أبويه كتابى والآخر وثنى وأولاد من تهود أو تنصر قبل النسخ أو شك كأن فى وقت التهود والتنصر أكان قبل النسخ أم بعده فلا نعقد لاولاد من تهود أو تنصر بعد النسخ فى ذلك الدين ولا لعبدة الاوثان والشمس والملائكة والسامرة والصابئون ان خالفوا اليهود والنصارى فى أصول دينهم فليسوا منهم والا فنهم وعن مالك تؤخذ الجزية من كل كافر الا المرتد وعن أبى حنيفة الا مشركى العرب وأقل الجزية دينار لكل سنة عن كل واحد لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه الى اليمن خذ من كل حالم أى محتلم دينارا صححه ابن حبان والحاكم وتؤخذ من زمن وشيخ هرم وأعمى وراهب وأجير وفقير عجز عن كسب فاذا تمت سنة وهو معسر ففى ذمته حتى يوسر وقال أبو حنيفة على الغنى ثمانية وأربعون درهما وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولا شئ على فقير غير كسوب ولا بدّ أن يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبى ومجنون وتلحق افاقة مجنون كثرت فان قل زمن الجنون كساعة من شهر فلا أثر لها ولو بلغ ابن ذمى ولم يعط جزية ألحق بمأمنه وان أعطاها عقد له وقيل عليه كجزية أبيه ولا يحتاج الى عقد له اكتفاء بعقد أبيه ومن مات ممن عقدت له الجزية أو أسلم أو جن أو حجر عليه بفلس أو سفه بعد سنة فجزيته كدين آدمى أو فى أثنائها فقسط وتسقط بالاسلام والموت عند أبى حنيفة (وقالت اليهود عزير ابن الله) اختلفوا فى قائل هذه المقالة على أقوال أحدها قال عبيد بن عمير انما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء وثانيها قال ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير وعكرمة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبع دينك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلى هذين القولين القائل انما هو بعض اليهود الا أن الله تعالى نسب ذلك الى اليهود بناء على عادة العرب فى ايقاع اسم الجماعة على اسم الواحد يقال فلان ركب الخيول ولعله لم يركب الا واحدا منها وفلان يجالس السلاطين ولعله لم يجالس الا واحدا وثالثها أن هذا المذهب لعله كان فاشيا فيهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود لذلك فان الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على

التكذيب واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه أن يرد اليه الذى نسخ من صدورهم فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه التوراة فأذن فى قومه وقال يا قوم قد آتانى الله تعالى التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله تعالى ثم ان التابوت أنزل بعد ذهابه عنهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا أنه ابن الله وقيل لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له الى أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة وأملاها عليهم عن ظهر قلبه لا يخرم منها حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى قلبه وهو غلام الا أنه ابنه وقال الكلبى ان بختنصر لما ظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره فلم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة فبعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله تعالى مائة سنة وأرسل اليه ملكا باناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة فى صدره فلما أتاهم وقال لهم أنا عزير كذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فاتل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوا بها ما كتبه عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله وقرأ عاصم والكسائى عزير بالتنوين والباقون بغير تنوين قال الزجاج الوجه اثبات التنوين فقوله عزير مبتدأ وقوله ابن خبره واذا كان كذلك فلا بد من التنوين فى حال السعة لان عزيرا ينصرف سواء كان عربيا أم عجميا وسبب كونه منصرفا أمران أحدهما أنه اسم خفيف فينصرف وان كان أعجميا كهود ولوط والثانى أنه على صيغة التصغير وأن الاسماء الاعجمية لا تصغر وأما الذين تركوا التنوين فلهم فيه أوجه أحدها أنه أعجمى معرفة فوجب أن لا ينصرف وثانيها قال الفراء نون التنوين ساكنة من عزير والباء من ابن الله ساكنة فحصل ههنا التقاء الساكنين فحذف التنوين للتخفيف ورد هذا الوجه بأنه مخالف لما تقرر من ان الوجه عند ملاقاة التنوين للساكن التحريك لا الحذف وثالثها ان الابن وصف والخبر محذوف والتقدير عزير بن الله معبودنا ورد هذا أيضا بأنه يؤدى الى تسليم النسب وانكار الخبر المقدر لان من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بأمر من الامور وأنكره منكر توجه الانكار الى الخبر فكان المقصود بالانكارة قولهم عزير ابن الله معبودنا وحصل تسليم كونه ابن الله ومعلوم أن ذلك كفر (وقالت النصارى المسيح) عيسى (ابن الله) واختلف فى السبب الذى قالوا ذلك لاجله فقيل انما قالوه استحالة لان يكون ولد بلا أب وقيل ان النصارى كانوا على دين الاسلام احدى وثمانين سنة بعدما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع

يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان الحق مع عيسى وقد كفرنا وصيرنا الى النار ونحن مغبونون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار فانى ساحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقاتل عليه يقال له العقاب فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه وقال للنصارى نوديت من السماء ليس لك توبة الا أن تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصروه ودخل بيتا فيها مكث فيه سنة لا يخرج منه ليلا ولا نهارا حتى تعلم الانجيل ثم خرج منه وقال انه نودى ان الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم عمد الى ثلاث رجال اسم واحد منهم نسطورا والآخر يعقوب والآخر ملكا فعلم نسطورا ان عيسى ومريم والاله ثلاث وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولا جسم ولكنه ابن الله وعلم ملكا ان عيسى هو الاله لم يزل ولا يزال فلما اشتهر ذلك فيهم دعا كل واحد منهم وقال له أنت خالصتى فادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم انى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسى تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس وواحد الى ناحية أخرى وأحكم كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فهذا هو السبب فى وقوع الكفر فى طوائف النصارى هذا ما حكاه الواحدى رحمه الله تعالى قال الرازى عقب هذه الحكاية والاقرب عندى أن يقال ورد لفظ الابن فى الانجيل على سبيل التشريف ثم ان القوم لاجل عداوة القوم بالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوّة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك وفشا هذا المذهب الفاسد فى اتباع عيسى عليه السلام والله سبحانه وتعالى اعلم بالحقيقة (ذلك قولهم بأفواههم) أى لا مستند لهم عليه (فان قيل) كل قول يقال بالفم فما معنى بأفواههم (أجيب) بأنه قول لا يعضده برهان فما هو الا لفظ تفوهوا به فارغ من معنى تحته كالالفاظ المهملة التى لا تدل على معان وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر فى القلب وما لا معنى له مقول بالفم لا غير أو بأن يراد بالقول المذهب كقولهم قول الشافعى رحمه الله تعالى يريدون مذهبه وما يقول به كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم لانه لا حجة معه ولا شبهة حتى تؤثر فى القلوب وذلك أنهم اذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ولا ولد لم تكن لهم شبهة فى انتفاء الولد قال أهل المعانى لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك زورا (يضاهون) قال ابن عباس يشابهون وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم ولا بد من حذف مضاف تقديره يضاهى قولهم قول الذين كفروا ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا والمعنى ان الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهى قولهم قول قدمائهم فالكفر قديم فيهم غير مستحدث أو يضاهى قول المشركين الملائكة بنات الله وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم وقرأ عاصم بكسر الهاء وبعدها همزة مضمومة والباقون بضم الهاء ولا همز بعدها وقوله تعالى (قاتلهم الله) دعاء

عليهم بالهلاك فان من قاتله الله تعالى هلك أو تعجب من شناعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله وقيل لعنهم الله روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال كل شئ فى القرآن مثله فهو لعن (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق الى الباطل مع قيام الدليل بأن الله تعالى واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله تعالى لا يتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطباتهم فالله تعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم) أى اتخذ اليهود أحبارهم أى علماءهم والحبر فى الاصل العالم من أى طائفة كان واختص فى العرف بعلماء اليهود من ولد هرون وكان أبو الهيثم يقول واحد الاحبار حبر بالفتح وينكر الكسر واتخذ النصارى رهبانهم أى عبادهم أصحاب الصوامع والراهب فى الاصل من تمكنت الرهبة من قلبه فظهر آثارها على وجهه ولباسه واختص فى العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع (أربابا من دون الله) لانهم أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ماحرم الله تعالى كما تطاع الارباب فى أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عبادة كما قال تعالى بل كانوا يعبدون الجن وقال ابراهيم الخليل عليه السلام يا أبت لا تعبد الشيطان وعن عدى بن حاتم أنه قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته ثم انتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة فوصل الى هذه الآية فقلت انا لسنا نعبدهم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ماحرمه فتحلونه قلت بلى قال تلك عبادتهم قال عبد الله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

(فان قيل) انه تعالى كفرهم بسبب ان أطاعوا الاحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره على ما هو قول الخوارج (أجيب) بأن الفاسق وان كان يقبل دعوى الشيطان الا أنه لا يعظمه بل يلعنه ويستخف به وأما هؤلاء فكانوا يقبلون قول الاحبار والرهبان ويعظمونهم وقد يبالغ بعض الجهال فى تعظيم شيخه بحيث يميل طبعه الى القول بالحلول والاتحاد وذلك الشيخ اذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الآخرة بعيدا عن الدين قد يلقى اليهم ان الامر كما يقولون ويعتقدون وعن الفضيل رضى الله تعالى عنه ما أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق أو صليت لغير القبلة (والمسيح بن مريم) أى اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فأهلوه للعبادة بذلك مع كونه ابن مريم فهو لا يصلح للالهية بوجه لمشاركته للآدميين فى الحمل والولادة والاكل والشرب وغير ذلك من أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للالهية (وما أمروا) أى فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا) أى ليطيعوا على وجه التعبد (الها واحدا) أى لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة من أمر الله بطاعته فهى فى الحقيقة طاعة الله تعالى وقوله تعالى (لا اله الا هو) صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) أى تعالى وتنزه عن أن يكون له

شريك فى العبادة والاحكام وأن يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والاجلال (يريدون) أى رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفئوا نور الله) أى شرعه و براهينه الدالة على وحدانيته وتقديسه عن الولد أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (بافواههم) أى بأقوالهم الكاذبة وشركهم وفى تسمية دينه أو القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا وعنادهم اطفاءه بأفواههم تمثيل لحالهم فى طلبهم أن يبطلوا نور الله بالتكذيب بالشرك بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده و يبلغه الغاية القصوى فى الاشراق والاضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه (و يأبى الله) أى لا يرضى (الا أن يتم نوره) باعلاء التوحيد واعزاز الاسلام (فان قيل) كيف جاز أبى الله الا كذا ولا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (أجيب) بأنه أجرى أبى مجرى لم يرد ألا ترى كيف قوبل يريدون أن يطفئوا بقوله و يأبى الله وكيف أوقع موقع ولا يريد الله الا أن يتم نوره وقوله تعالى (ولو كره الكافرون) محذوف الجواب لدلالة ما قبله أى ولو كرهوا اغلبته (هو الذى أرسل رسوله) محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) أى القرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا له (ودين الحق) أى دين الاسلام (ليظهره) أى ليعليه (على الدين كله) أى جميع الاديان المخالفة له وهذا كالبيان لقوله تعالى و يأبى الله الا أن يتم نوره ولذلك كرر (ولو كره المشركون) غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الشرك بالله تعالى (فان قيل) الاسلام لم يصر غالبا لسائر الاديان فى أرض الصين والهند والروم وسائر بلاد الكفر (أجيب) عن ذلك بأوجه الاول بأنه لا دين بخلاف الاسلام الا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم فى بعض المواضع وان لم يكن ذلك فى جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشأم وما والاها الى ناحية الروم والمغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلى الهند والترك وكذا سائر الاديان فثبت ان الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل فكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا الوجه الثانى ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال هذا وعد من الله تعالى بجعل الاسلام غالبا على جميع الاديان وتمام هذا انما يحصل عند خروج عيسى عليه السلام فانه لا يبقى أهل دين الا دخلوا فى الاسلام وقال السدى ذلك عند خروج المهدى لا يبقى أحد الا دخل فى الاسلام أو أدى الخراج الوجه الثالث أن المراد اظهاره فى جزيرة العرب وقد حصل ذلك فانه تعالى ما أبقى فيها أحدا من الكفار وقال ابن عباس الهاء فى ليظهره الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها و يظهره عليها حتى لا يخفى عليه شئ منها (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار) أى علماء اليهود (والرهبان) أى عباد النصارى (ليأكلون) أى يتناولون (أموال الناس بالباطل) كالرشا وانما عبر بالاكل لانه معظم المراد من المال واشارة الى تحقير الاحبار والرهبان بأن يفعلوا ما ينافى مقامهم الذى أقاموا أنفسهم فيه باظهار الزهد والمبالغة فى التدين قال الرازى ولعمرى من تأمل أحوال الناس فى زماننا وجد هذه الآيات كأنها

ما أنزلت الا فى شأنهم وشرح أحوالهم فترى الواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه فى الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله (ويصدون الناس (عن سبيل الله) أى دينه ولما كان مطلوب الخلق فى الدنيا المال والجاه بين تعالى فى صفة الاحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الامرين أما المال فهو المراد بقوله تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل وأما الجاه فهو المراد بقوله ويصدون عن سبيل الله فانهم لو أقروا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم ولاجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون فى المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم ويبالغون فى القاء الشبهات وفى استخراج وجوه المكر والخديعة وفى منع الخلق من قبول دينه الحق (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) يحتمل أن يراد بقوله الذين أولئك الاحبار والرهبان فيكون مبالغة فى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بقوله تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل ووصفهم أيضا بالبخل الشديد والامتناع من اخراج الواجبات عن أموال أنفسهم بقوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة وان يراد المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطى منكم بطيب زكاة ماله سواء فى استحقاق البشارة بالعذاب الاليم وأن يراد كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الاحبار والرهبان أو كان من المسلمين لما روى عن زيد بن وهب قال مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الارض فقال كنا بالشأم فقرأت والذين يكنزون الذهب الآية فقال معاوية ماهذا فينا ماهذا الا فى أهل الكتاب فقلت انها فيهم وفينا فصار ذلك سببا لوحشة بينى وبينه فكتب الى عثمان ان أقبل الى فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لى تنح قريبا فقلت انى والله لن أدع ما كنت أقول وأصل الكنز فى كلام العرب الجمع وكل شئ جمع بعضه الى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الاجزاء اذا كان مجتمع الاجزاء واختلف علماء الصحابة فى المراد بهذا الكنز المذموم على قولين الاول وهو ما عليه الاكثر أنه المال الذى لم تؤد زكاته لما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية والشجاع الحية والاقرع صفته لطول عمره لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهى صفة أخبث الحيات والزبيبتان الزائدتان فى الشدقين وروى لما نزلت هذه الآية كبر على المسلمين فذكر عمر رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وقال ابن عباس فى قوله تعالى ولا ينفقونها فى سبيل الله يريد الذين

لا يؤدون زكاة أموالهم قال القاضى عياض تخصيص هذا المعنى بمنع الزكاة لاسبيل اليه بل الواجب أن يقال الكنز هو الذى ما أخرج عنه ما وجب اخراجه ولا فرق بين الزكاة وبين ما يجب من الكفارات وبين ما يلزم من نفقة الحج وبين ما يجب اخراجه فى الدين والحقوق والانفاق على الاهل والعيال وضمان المتلفات وأروش الجنايات فيجب فى كل هذا الآثام وأن يكون داخلا فى الوعيد والقول الثانى ان المال الكثير اذا جمع فهو الكنز المذموم واحتج الذاهبون الى هذا القول بعموم الآية وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية تباللذهب تباللفضة قالها ثلاثا فقالوا له أى مال نتخذ قال لسانا ذاكرا وقلبا خاشعا وزوجة تعين أحدكم على دينه وقال عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها وتوفى شخص فوجد فى مئزره دينار فقال صلى الله عليه وسلم كية وتوفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال كيتان وأجاب القائلون بالاول بأن هذا كان قبل فرض الزكاة فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم أن يجمع عبده مالا من حيث أذن فيه ويؤدى ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال كانت قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للاموال وقال ما بالى لو أن لى مثل أحد ذهبا أعلم عدده أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى وروى انه صلى الله عليه قال نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وكان فى زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة معهم الاموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف وكان عليه الصلاة فى السلام يعدهم من أكابر الصحابة وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والادخل فى الورع والزهد فى الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه وكونه أدخل فى الورع لامور منها ان كسب المال شاق شديد وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب فيبقى الانسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل وأخرى فى طلب الحفظ ثم انه لا ينتفع منها الا بالقليل ومنها ان كثرة المال والجاه تورث الطغيان كما قال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فالطغيان يمنع من وصول العبد الى مقام رضوان الرحمن ويوقع فى الخذلان والخسران ومنها أنه تعالى أوجب الزكاة وذلك سعى فى تنقيص المال ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع فى تنقيصه (فان قيل) قال عليه الصلاة والسلام اليد العليا خير من اليد السفلى (أجيب) بأن اليد العليا انما افادته صفة الخيرية لانه لما أعطى ذلك القليل تسبب أنه حصل فى ماله ذلك النقصان القليل فحصل له الخيرية وبسبب أنه حصل للفقير بذلك الزيادة القليلة حصلت له المرجوحية (فان قيل) انه تعالى ذكر شيئين وهما الذهب والفضة ثم قال ولا ينفقونها فلم أفرد الضمير (أجيب) بأن الضمير راجع الى المعنى دون اللفظ لان كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقيل ذهب به الى المكنوز وقيل الى الاموال وقيل التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب لانه داخل فى الفضة من حيث انهما معا يشتركان فى عينية الاشياء أو ان ذكر أحدهما يغنى عن الآخر كقوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها جعل

الضمير للتجارة وقيل التقدير والذهب كذلك كما أن قول القائل * فانى وقيار بها الغريب * أى وقيار كذلك (فان قيل) ما السبب فى كونه خصهما بالذكر من سائر الاموال (أجيب) بأنهما خصا من دون سائر الاموال لأنهما أشرف الاموال وهما اللذان يقصدان بالكنز ومن كنزا عنده لم يعدم سائر أجناس المال فكان ذكر كنزهما دليلا على ماسواهما ثم انه تعالى لما ذكر من يكنز الذهب والفضة قال تعالى (فبشرهم) أى أخبرهم (بعذاب أليم) أى مؤلم وعبر بالبشارة على سبيل التهكم (يوم يحمى عليها) أى الكنوز بأن تدخل (فى نار جهنم) فيوقد عليها (فتكوى) أى تحرق (بها) أى بهذه الاموال (جباههم وجنوبهم وظهورهم) قال ابن مسعود رضى الله عنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضع على حدته وسئل أبو بكر الوراق لم خصت الجباه والجنوب والظهور بالكى قال لان الغنى صاحب الكنز اذا راى الفقير قبض جبهته واذا جلس الفقير بجنبه تباعد عنه وولى عليه ظهره وقيل المعنى انهم يكوون على الجهات الاربع أمامن مقدمه فعلى الجبهة واما من خلفه فعلى الظهر واما من يمينه ويساره فعلى الجنبين وقيل لان جمعهم وامساكهم المال كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره كلما بردت عليه أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وقوله تعالى (هذا ما كنزتم) على ارادة القول أى يقال لهم هذا ما كنزتم (لانفسكم) أى لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى تمنعون حقوق الله تعالى فى أموالكم وعن أبى ذر رضى الله عنه قال انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الاخسرون ورب الكعبة فقلت يارسول الله فداك أبى وأمى من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم (ان عدة الشهور) أى عددها (عند الله اثنا عشر شهرا) وهى المحرم وصفر وشهر ربيع الاول وشهر ربيع الثانى وجمادى الاول وجمادى الثانى ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم واعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة واحدة تامة وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسىء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية

قوله وأيام هذه الشهور الخ المذكور فى كتب الفقه أن السنة الهلالية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدسه وأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم الاجزأ من ثلاثمائة جزء من اليوم اه

فكان حجهم يقع تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره مامن الشهور فأعلم الله تعالى ان عدة الشهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثناعشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثناعشر شهرا أى فى علمه وحكمه (فى كتاب الله) أى فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل وهو أصل الكتب التى أنزلها الله تعالى على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا (يوم خلق السموات والارض) اى ان هذا الحكم حكم به وقضاه يومئذ أى السنة اثناعشر شهرا (منها) أى الاشهر (أربعة حرم) ثلاثة سواه ذوالقعدة بفتح القاف وذوالحجة بكسر الحاء على المشهور فيهما وسميا بذلك لقعودهم عن القتال فى الاول ولوقوع الحج فى الثانى والمحرم بتشديد الراء المفتوحة سمى بذلك لتحريم القتال فيه وقيل لتحريم الجنة فيه على ابليس ودخلته اللام دون غيره من الشهور لانه أولها فعرفوه كأنه قيل هذا الشهر الذى ابتدأ أول السنة وواحد فرد وهو رجب ويجمع على ارجاب ورجاب ورجوب ورجبات ويقال له الاصم والاصب وقيل لم يعذب الله أمة فى شهر رجب ورد عليه بأن الله تعالى أغرق قوم نوح فيه قاله الثعلبى وهذا الترتيب الذى ذكرناه فى عد الاشهر الحرم وجعلها من سنتين هو الصواب كما قاله النووى فى شرح مسلم ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض السنة اثناعشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان وعدها الكوفيون من سنة واحدة فقالوا المحرم ورجب وذوالقعدة وذوالحجة قال ابن دحية وتظهر فائدة الخلاف فيما اذا نذر صيامها مرتبة فعلى الاول يبتدئ بذى القعدة وعلى الثانى بالمحرم ومعنى الحديث أن الاشهر رجعت الى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذاالحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ومعنى الحرم ان المعصية فيها أشد عقابا والطاعة فيها أكثر ثوابا والعرب كانوا يعظمونها جدا حتى لولقى الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له (فان قيل) أجزاء الزمان متشابهة فى الحقيقة فما السبب فى هذا التمييز (أجيب) بأن هذا المعنى غير مستبعد فى الشرائع فان أمثلته كثيرة ألا ترى أنه تعالى ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد الحرمة وميز يوم الجمعة عن سائر أيام الاسبوع بمزيد الحرمة وميز يوم عرفة عن سائر الايام بتلك العبادة المخصوصة وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة وهو وجوب الصوم وميز بعض ساعات اليوم بوجوب الصلاة فيها وميز بعض الليالى عن سائرها وهى ليلة القدر وميز بعض الاشخاص عن سائر الناس باعطاء خلع الرسالة واذا كانت هذه الامثلة ظاهرة مشهورة فأى استبعاد فى تخصيص بعض الاشهر بمزيد الحرمة (ذلك) أى تحريم الاشهر الاربعة (الدين القيم) أى المستقيم وهو دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما وقيل المراد بالدين الحساب يقال الكيس من دان نفسه أى حاسبها والقيم معناه المستقيم فتفسير الآية على

هذا التقدير ذلك الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوى وقال الحسن ذلك الدين القيم الذى لا يبدل ولا يغير فالقيم هنا بمعنى القائم الدائم الذى لا يزول وهو الدين الذى فطر الناس عليه (فلا تظلموا فيهن) أى الاشهر الحرم (أنفسكم) بالمعاصى فانها فيها أعظم وزرا لان الله تعالى خص هذه الشهور بمزيد احترام فى آية أخرى وهو قوله تعالى الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج فهذه الاشياء غير جائزة فى غير الحج أيضا الا انه تعالى أكد فى المنع منها فى هذه الايام تنبيها على زيادتها فى الشرف وقال ابن عباس ان المراد فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم والمقصود منع الانسان من الاقدام على الفساد مطلقا فى جميع العمر قال الفراء والاول أولى لان العرب تقول فيما بين الثلاثة الى العشرة فيهن فاذا جاوزه هذا العدد قالوا فيها والاصل فيه ان جمع القلة يكنى عنه كما يكنى عن جماعة مؤنثة ويكنى عن جمع الكثرة كما يكنى عن واحدة مؤنثة كما قال حسان

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قال يلمعن ويقطرن لان الاسياف والجفنات جمع قلة ولو جمع جمع الكثرة لقال تلمع وتقطر هذا فى الاختيار ثم يجوز اجراء أحدهما مجرى الآخر كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

فقال بهن والسيوف جمع كثرة وقيل المراد بالظلم المقاتلة فى هذه الاشهر وقيل النسىء الذى كانوا يعملونه فينقلون الحج من الذى أمر الله تعالى باقامته فيه الى شئ آخر ويغيرون تكاليف الله تعالى والجمهور على ان حرمة المقاتلة فى الاشهر الحرم منسوخة وعن عطاء لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم والاشهر الحرم الا أن يقاتلوا ويؤيد الاول ماروى انه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة وقوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعا فى كل الشهور (كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) بالعون والنصرة ومن كان معه نصر لا محالة (انما النسىء) أى التأخير لحرمة شهر الى آخر كما كانت الجاهلية تفعل كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ورفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمون صفر ويحلون المحرم فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر اخروه الى ربيع وهكذا شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى القعدة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر رضى الله عنه فى السنة التاسعة فى ذى القعدة قبل حجة الوداع بسنة ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه فى شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر وأعلمهم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام وقد رجع المحرم الى موضعه الذى وضعه الله تعالى وذلك بعد دهر طويل وروى عن أبى

بكر رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته لنا أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد واختلفوا في أول من نسأ النسيء فقال ابن عباس بنو مالك بن كنانة وكان يليه أبو ثمامة وجنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يقوم على جمل بالموسم فينادي ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم ينادي في قابل ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقال الكلبي أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وقيل أول من فعل ذلك عمرو بن لحي وهو أول من سيب السوائب وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار وقوله تعالى (زيادة في الكفر) معناه انه تعالى حكى عنهم أنواعا كثيرة من الكفر فلما ضموا تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرم الله تعالى وهو كفر كان ضم هذا العمل الى تلك الانواع المتقدمة من الكفر زيادة في الكفر لان الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرا فزادتهم رجسا الى رجسهم كما ان المؤمن كلما أحدث طاعة ازداد ايمانا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقرأ ورش النسي بقلب الهمزة ياء وادغام الياء فيها فبقيت ياء مضمومة مشددة والباقون بهمزة مضمومة هذا في الوصل وأما الوقف فورش يقف بياء مشددة ساكنة وحمزة كذلك وله فيه الروم والاشمام والباقون بهمزة ساكنة (يضل به) أي بهذا التأخير الذي هو النسيء (الذين كفروا) قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وفتح الضاد لقوله تعالى زين لهم سوء أعمالهم والباقون بفتح الياء وكسر الضاد على معنى انهم هم الضالون لقوله تعالى (يحلونه) أي يحلون النسيء من الاشهر الحرم (عاما) ويحرمون مكانه شهرا آخر (ويحرمونه عاما) فيتركونه على حرمته وانما فعلوا ذلك (ليواطؤا) أي ليوافقوا (عدة) أي عدد (ما حرم الله) من الاشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة أشهر ولا ينقصون عنها ولا ينظرون الى أعيانها (فيحلوا ما حرم الله) بمواطأة العدة من غير مراعاة الوقت الذي يحلون اليه الاشهر الحرم (زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل حتى حسبوا هذا القبيح حسنا (والله لا يهدي القوم الكافرين) أي هداية موصلة الى الاهتداء لما سبق لهم في الازل انهم من أهل النار * ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف الى المدينة وحث على غزوة تبوك وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر وطابت ثمار المدينة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز جلا للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم

فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فنزل (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم) بادغام التاء في الاصل في المثلثة واجتلاب همزة الوصل اذ أصله تثاقلتم ومعناه تباطأتم وملتم عن الجهاد (الى الارض) والقعود فيها والاستفهام للتوبيخ قال المحققون وانما تثاقل الناس من وجوه الاول شدة الزمان في الصيف والقحط والثاني بعد المسافة والحاجة الى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به عادتهم في سائر الغزوات والثالث ادراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت والرابع شدة الحر في ذلك الوقت ثم قال لهم الله تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا) وغرورها (من الآخرة) بدل الآخرة ونعيمها (فما متاع الحياة الدنيا في) جنب متاع (الآخرة الا قليل) أي حقير لان متاع الدنيا ينفد عن قريب ونعيم الآخرة باق على الدوام فلهذا السبب كان متاع الدنيا بالنسبة الى نعيم الآخرة قليلا وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لان الله تعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم الله على التثاقل ويؤكده هذا الوعيد المذكور في قوله تعالى (الا) أي بادغام نون ان الشرطية في لا في الموضعين (تنفروا) أي تخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد (يعذبكم عذابا أليما) أي مؤلما في الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فيها أو بالاهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو وقيل باحتباس المطر عنهم قال ابن عباس استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أي يأت بهم بدلكم قال ابن عباس هم التابعون وقال سعيد بن جبير ابناء فارس وقال أبو روق هم أهل اليمن قال الرازي وهذه الوجوه ليست تفسيرا للآية لان الآية ليس فيها اشعار بها بل حمل لذلك المطلق على صورة معينة شاهدوها وقال في الكشاف بعد ذكره ذلك والظاهر مستغن عن التخصيص (ولا تضروه شيأ) أي لا يقدح تثاقلكم في نصر دينه شيأ فانه الغني عن كل شئ وفي كل أمر وقيل الضمير راجع الى الرسول صلى الله عليه وسلم أي ولا تضروه لان الله تعالى وعده أن ينصره ووعده كائن لا محالة (والله على كل شئ قدير) أي فيقدر على التبديل وتغيير الاسباب والنصرة بلا عدد كما قال تعالى (الا تنصروه) أي محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون (فقد نصره الله) فانه المتكفل بنصرة رسوله صلى الله عليه وسلم في اعزاز دينه واعلاء كلمته أعنتموه أو لم تعينوه فانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدد والعدد وقد نصره (اذ) أي حين (أخرجه الذين كفروا) من مكة حين مكروا به حيث تشاوروا في قتله أو اخراجه أو اثباته في دار الندوة فكان ذلك لاذن الله له في الخروج من بينهم حالة كونه (ثاني اثنين) أي أحدهما أبو بكر رضي الله عنه لا ثالث لهما لم ينصرهما الا الله تعالى وقوله تعالى (اذ) بدل من اذ قبله (هما في الغار) أي غار ثور الذي في اعلى الجبل المواجه للركن اليماني بأسفل مكة على مسيرة ساعة منها لما كمنا فيه ثلاث ليال ليفتر عنهما الطلب وذلك قبل أن يصلا اليكم ويعولا في النصر عليكم وقوله تعالى (اذ) بدل ثان (يقول) صلى الله عليه وسلم (لصاحبه) أبي بكر الصديق رضي الله عنه وثوقا بربه غير منزعج من شئ وقد قال له أبو بكر لما رأى أقدام المشركين

لو نظر أحدهم تحت قدميه لابصرنا (لاتحزن) والحزن هم غليظ بتوجع يرق له القلب وانما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما لما وصلا الغار نزل أبو بكر الغار أولا يلتمس ما فى الغار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم مالك فقال بأبى أنت وأمى الغار مأوى السباع والهوام فان كان فيه شئ كان بى لا بك وكان فى الغار جحر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما طلب المشركون الاثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم لاتحزن (ان الله معنا) فقال له أبو بكر وان الله لمعنا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم نعم فجعل يمسح الدموع عن خده وروى لما طلع المشركون فوق الغار وأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وروى لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحدا ويقولون لو دخلا هذا الغار تكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت *(تنبيه)* دلت هذه الآية على تفضيل أبى بكر رضى الله عنه من وجوه منها ان الهجرة كانت باذن الله تعالى وكان فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين وكانوا فى النسبة الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب من أبى بكر رضى الله عنه فلولا ان الله تعالى أمره بأن يستصحبه فى تلك الواقعة الصعبة الهائلة والا لكان الظاهر أن لا يخصه بهذه الصحبة وتخصيص الله تعالى له بهذا التشريف دال على منصب عال له فى الدين ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لاتحزن ان الله معنا ولاشك ان المراد من هذه المعية المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة وقد شرك صلى الله عليه وسلم بين نفسه وبين أبى بكر فى هذه المعية وكفى بها شرفا ومنها أن قوله لاتحزن نهى عن الحزن مطلقا والنهى يوجب الدوام والتكرار وذلك يقتضى أنه لا يحزن أبو بكر رضى الله عنه بعد ذلك البتة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت ومنها اطباق الكل على ان أبا بكر هو الذى اشترى الراحلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ان عبد الرحمن بن أبى بكر واسماء بنت أبى بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابى بكر أنت صاحبى فى الغار وصاحبى على الحوض قال الحسن بن الفضل من قال ان أبا بكر رضى الله عنه لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكار نص القرآن وفى سائر الصحابة اذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (فأنزل الله سكينته) أى طمأنينته (عليه) هل هو للنبى صلى الله عليه وسلم أو لابى بكر رضى الله عنه رجح الثانى لوجوه الاول ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات وأقرب المذكورات المتقدمة فى هذه الآية هو أبو بكر لانه تعالى قال اذ يقول لصاحبه والتقدير اذ يقول محمد لصاحبه أبى بكر لاتحزن وعلى هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر فوجب عود الضمير اليه والثانى ان الحزن والخوف كانا حاصلين لابى بكر لا للرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان آمنا

ساكن

ساكن القلب فيما وعده الله تعالى أن ينصره على قريش فلما قال لابى بكر لاتحزن صار آمنا فصرف السكينة لابى بكر ليصير ذلك سببا لزوال خوفه أولى من صرفها الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع انه كان قبل ذلك ساكن النفس قوى القلب الثالث انه لو كان المراد انزال السكينة على الرسول صلى الله عليه وسلم لوجب أن يقال ان الرسول كان قبل ذلك خائفا ولو كان خائفا لما أمكنه أن يقول لابى بكر لاتحزن ان الله معنا فمن كان خائفا لم يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ولو كان راجعا الى الرسول لوجب أن يقال فأنزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لاتحزن فيكون ذلك مما يدل على فضيلة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ومنها حديث الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام عن عائشة رضى الله عنها وعن أبويها قالت لم أعقل أبوى الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينا طرفى النهار بكرة وعشية فلما ابتلى المسلمون قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر انى رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر رضى الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك يارسول الله قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق الشجر وهو الخبط أربعة أشهر قالت عائشة فبينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة قال قائل لابى بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر والله ماجاء به فى هذه الساعة الا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر انما هم أهلك يارسول الله فقال قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر الصحبة يارسول الله قال نعم قال أبو بكر فخذ احدى راحلتى هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحب الجهاز ووضعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت اسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فسميت بذلك ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الرحمن بن أبى بكر وهو غلام شاب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء يفعل ذلك كل ليلة من الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل هاديا عارفا بالهداية وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما بعد صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلى فأخذ بهم طريق الساحل فعلم بهم سراقة بن مالك المدلجى وكان كفار قريش جعلوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر كل واحد منهما لمن قتله أو أسره دية قال سراقة فتبعتهم حتى دنوت منهم فعثرت فرسى فخررت

عنها فقمت وأهويت بيدى الى كنانتى فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى وعصيت الازلام فقربت بى حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسى فى الارض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذى أكره فناديتهم الامان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك جعلوا فيك الدية وأخبرتهم بما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى الا ان قال اخف عنا فسألته ان يكتب لى كتاب أمان فأمر عامر بن فهيرة فكتب لى رقعة من ادم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا أقبلوا من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا فلما قربا من المدينة وصل الخبر الى الانصار فخرجوا مسرعين فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فأخذ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو ابن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام فى بنى عمرو بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان مربدا لغلامين سهل وسهيل فساومهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنائه ويقول وهو ينقل اللبن

هذا الحمال لا حمال خيبر ＊ هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول أيضا

ان الاجر أجر الآخرة ＊ فارحم الانصار والمهاجرة

قال ابن شهاب لم يبلغنا فى الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا فاظهار خروجه صلى الله عليه وسلم لابى بكر رضى الله تعالى عنه مما يدل على فضيلته وفضائله رضى الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين وفيما ذكرناه كفاية وأما الضمير فى قوله تعالى (وأيده) فاتفقوا انه للنبى صلى الله عليه وسلم فهو معطوف على قوله تعالى فقد نصره الله (بجنود لم تروها) أى من الملائكة الكرام فى الغار ويوم بدر والاحزاب وحنين وجميع مواطن قتاله (وجعل كلمة) أى دعوة (الذين كفروا) الى الكفر (السفلى) أى المغلوبة فخيب سعيهم ورد كيدهم (وكلمة الله) اى الى الاسلام (هى العليا) أى الغالبة الظاهرة وقيل كلمة الذين كفروا ما كانوا قدروا بينهم من الكيد بالنبى صلى الله عليه وسلم وكلمة الله هى ما وعده بالنصر والظفر بهم فكان ما وعده الله تعالى حقا وصدقا (والله عزيز) فى ملكه (حكيم) فى أمره وتدبيره لا يمكن أن ينتقض شئ من مراده فلا محيص عن نفوذ ما أراده ولما بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مبلغا هيأها به للقبول اقبل عليها سبحانه وتعالى فقال (انفروا خفافا وثقالا) أى على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التى يثقل عليكم وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة ولهذا

اختلفت

اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال الحسن شبانا وشيوخا وقال عطية العوفى ركبانا ومشاة وقال أبو صالح فقراء وأغنياء وقال الحكم بن عيينة مشاغيل وغير مشاغيل وقال حمزة الهمدانى أصحاء وأصحاب مرض وعن صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت ياعم لقد أعذر الله اليك فرفع حاجبيه وقال استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا انه من يحبه الله يبتليه وعن الزهرى خرج سعيد بن المسيب الى الغزو وقد ذهبت احدى عينيه فقيل انك عليل صاحب مرض فقال استنفرنا الله الخفيف والثقيل فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلىّ ان أنفر قال ما أنت الا خفيف أو ثقيل فرجع الى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى ليس على الاعمى حرج أى فهى منسوخة بذلك وقال ابن عباس نسخت بقوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية وقال السدى لما نزلت اشتدّ شأنها على المسلمين فنسخها الله تعالى وأنزل ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقال عطاء الخراسانى منسوخة بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) أمر ايجاب للجهاد أى ما امكن لكم بهما كليهما أو أحدهما على حسب الحال والحاجة (ذلكم) أى هذا الامر العظيم (خير لكم) أى خاص بكم ويجوز أن يكون أفعل تفضيل أى عبادة المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كما قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله هل يمكن بلوغ درجة المجاهد فقال هل تستطيع ان تقوم فلا تفتر وتصوم فلا تفطر ثم ختم تعالى الآية بقوله تعالى (ان كنتم تعلمون) أى ما حصل من الخيرات فى الآخرة على الجهاد لا يدرك الا بالتأمل ولا يعرفه الا المؤمن الذى عرف بالدليل ان القول بالقيامة حق وان القول بالثواب والعقاب صدق ونزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو كان) ما تدعوهم اليه (عرضا) أى متاعا من الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (قريبا) أى سهل المأخذ وقوله تعالى (وسفرا قاصدا) أى وسطا فحذف اسم كان وهو ما قدرته قال الزجاج لدلالة ما تقدم عليه وانما سمى السفر قاصدا لان المتوسط بين الافراط والتفريط يقال له مقتصد قال تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد لان المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل أحد وقوله تعالى قاصدا أى ذا قصد كقولهم لابن وتامر (لاتبعوك) أى وافقوك طلبا للغنيمة (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة التى تقطع بمشقة (وسيحلفون) أى المتخلفون (بالله) اذا رجعت من تبوك معتذرين (لو استطعنا) أى لو كان لنا استطاعة بالبدن أو العدة (لخرجنا) أى فى هذه الغزاة (معكم يهلكون أنفسهم) أى بسبب هذه الايمان الكاذبة كما قال تعالى (والله يعلم انهم لكاذبون) فى ذلك لانهم كانوا مستطيعين الخروج (عفا الله عنك لم أذنت لهم) أى عفا الله تعالى عنك يا محمد ما كان منك فى ذلك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك واختلفوا هل فى ذلك معاتبة للنبى صلى الله عليه وسلم أم لا فقال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه

وسلم لم يؤمر بهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ الله تعالى بالعفو قبل أن يعيره وقال القاضي عياض في الشفاء ان هذا أمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك وليس عفا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي لم يكن يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب وقال مكي هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وقال السمرقندي ان معناه عافاك الله وقال الرازي ان ذلك يدل على مبالغة الله في توقيره وتعظيمه كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما عنده عفا الله عنك ما جوابك عن كلامي ورضي الله عنك ما صنعت في أمري فلا يكون غرضه من هذا الكلام الا مزيد التبجيل والتعظيم أي كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا أصلح الله الأمير والملك ونحو ذلك (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أي في اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) أي فيما أظهروا من الايمان باللسان لو لم يؤذن لهم لقعدوا بلا اذن غير مراعين ميثاقهم الذي واثقوك عليه بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة (لا يستأذنك) أي لا يطلب اذنك بغاية الرغبة فيه (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي الذي يكون فيه الجزاء بالثواب والعقاب (أن) أي في أن (يجاهدوا) وانما حسن هذا الحذف لظهوره (بأموالهم وأنفسهم) بل يبادرون الى الجهاد عند اشارتك اليه وبعثك وما عليه فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف عنه فان الخلص من المهاجرين والانصار كانوا يقولون لا نستأذنه صلى الله عليه وسلم في الجهاد فان ربنا ندبنا اليه مرة بعد مرة فأي فائدة في الاستئذان ولنجاهد معه بأموالنا وأنفسنا وكانوا بحيث لو أمرهم صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلي رضي الله عنه في غزوة تبوك لما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبقى في المدينة شق عليه ولم يرض حتى قال له صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى (والله عليم بالمتقين) أي الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يا محمد في التخلف عن الجهاد معك من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا (وارتابت) أي شكت (قلوبهم) في الدين وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان فاذا داخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم) أي فتسبب عن ذلك انهم (في ريبهم يترددون) أي المنافقون يتحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين * (تنبيه) * اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآيات فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله تعالى وجهاد عدوهم من غير

استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن فى التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا فى الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون فى التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) الى الغزو معك (لأعدوا له) أى قبل حلوله (عدة) أى قوة وأهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون كالحاضرين فى صلب الحرب الواقفين فى الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها * ولما كان قوله تعالى ولو أرادوا الخروج يعطى معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى (ولكن كره الله انبعاثهم) أى لم يرض خروجهم معك الى الغزو (فثبطهم) أى حبسهم بالجبن والكسل (وقيل) لهم (اقعدوا مع القاعدين) أى مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ومعنى قيل لهم أى قدر الله تعالى عليهم ذلك بان ألقى فى قلوبهم القعود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه فى القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين (فان قيل) خروج المنافقين مع النبى صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال تعالى ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عفا الله عنك لم أذنت لهم فى ترك الخروج (أجيب) بأن خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى (لو خرجوا فيكم) أى معكم (ما زادوكم) بخروجهم (الا خبالا) أى فسادا وشرا بتخذيل المؤمنين وتقدم الكلام على قوله لم أذنت لهم * (تنبيه) * لا يصح أن يكون فيه الاستثناء منقطعا لان الاستثناء المنقطع يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقوله ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه فى هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام كأنه قيل ما زادوكم شيأ الا خبالا (ولأوضعوا) أى أسرعوا (خلالكم) أى بينكم فيما يخل بكم بالمشى بالنميمة (يبغونكم الفتنة) أى يطلبون منكم ما تفتتنون به وذلك انهم يقولون للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التى تجبنهم (وفيكم) أى والحال ان فيكم (سماعون لهم) أى عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم (فان قيل) كيف يكون فى المؤمنين الخالصين من يطيع المنافقين (أجيب) بأنهم ربما قالوا قولا أثر فى قلوب ضعفة المؤمنين فى بعض الاحوال وقوله تعالى (والله عليم بالظالمين) وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين (لقد ابتغوا الفتنة) أى العنت ونصب الغوائل والسعى فى تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبى يوم أحد وحين انصرف بمن معه وعن ابن جريج وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به (من قبل) أى قبل غزوة تبوك (وقلبوا لك الامور) أى ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء بينهم فى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك

(وظهر أمر الله) أى غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) له أى على رغم منهم فدخلوا فيه ظاهرا * ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس وكان من المنافقين يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الاصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد ابن قيس يا رسول الله لقد علم قومى انى مغرم بالنساء وانى أخشى ان رأيت بنات بنى الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لى بالقعود ولا تفتنى واعينك بمالى قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيه (ومنهم) أى المنافقين (من يقول ائذن لى) أى فى القعود فى المدينة (ولا تفتنى) أى ببنات بنى الاصفر وقيل لا توقعنى فى الفتنة وهى الاثم بأن لا تأذن لى فانك ان منعتنى من القعود وقعدت بغير اذنك وقعت فى الاثم وقيل لا تلقنى فى الهلاك فان الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لى بها وقيل لا تفتنى بسبب ضياع المال والعيال اذ لا كافل لهم بعدى قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) أى ان الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف وظهور النفاق لا ما أخبروا عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى جامعة لهم لا محيص لهم عنها يوم القيامة أو هى محيطة بهم الآن لان اسباب الاحاطة معهم فكأنهم فى وسطها (ان تصبك) يا محمد فى بعض الغزوات (حسنة) أى نصرة وغنيمة (تسؤهم) أى تحزنهم لما فى قلوبهم من الضعف والمرض (وان تصبك مصيبة) أى نكبة وان صغرت فى بعض الغزوات كما وقع يوم أحد (يقولوا) أى سرورا وتبجحا بحسن رأيهم (قد أخذنا أمرنا) أى بالجد والحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) أى قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) أى مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه (ان يصيبنا الا ما كتب الله) أى قدره (لنا) فى اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا ان أراده ما لم يقدر له (هو) أى الله (مولانا) أى ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فى جميع أمورهم لان حقهم أن لا يتوكلوا على غيره فليفعلوا ما هو حقهم (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (هل تربصون) فيه حذف احدى التاءين من الاصل أى تنتظرون أن يقع (بنا) أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين) تثنية حسنى تأنيث أحسن أى الا احدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر أو الشهادة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الجهاد فى سبيل الله اما أن يسلم ويغنم فيحصل له المال واما أن يقتل فى سبيل الله فتحصل له الشهادة وهى العاقبة القصوى وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته الا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة (ونحن نتربص بكم) أى احدى السوأيين من العواقب اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) لا سبب لنا فيه كان ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد

وعود (أو) بعذاب (بأيدينا) أى بسببنا من قتل ونهب وأسر وغير ذلك (فتربصوا) بنا ماذكرنا من عواقبنا (انا معكم متربصون) ماهو عاقبتكم ولابد أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أنفقوا طوعا أو كرها) أى من غير الزام من الله ورسوله أو ملزمين وسمى الالزام اكراها لانهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه أو طائعين من غير اكراه من رؤسائكم لان رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الانفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم (لن يتقبل منكم) أى لا تقبل منكم نفقاتكم على أى حال كان (فان قيل) كيف أمرهم بالانفاق ثم قال لن يتقبل منكم (أجيب) بأن هذا أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا وروى أنها نزلت فى الجد بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مالى أعينك به فاتركنى ثم علل تعالى سبب منع القبول بقوله تعالى (انكم) أى لانكم (كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله) أى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم وقرأ حمزة والكسائى يقبل بالياء على التذكير لان تأنيث النفقات غير حقيقى والباقون بالتاء على التأنيث (ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى) أى متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط (ولا ينفقون) أى نفقة من واجب أو غيره (الا وهم كارهون) أى فى حال الكراهة وان ظهر خلاف ذلك وذلك كله لعدم النية الصالحة وهذا الاينافى طوعا لان ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم) أى وان أنفقوها فى سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فان ذلك من غير اخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية (ولا أولادهم) الذين يتجملون بهم فان ذلك استدراج ووبال كما قال تعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) وان كان يتراءى أنها لذيذة لان ذلك من شأن الحياة وتعذيبهم فيها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب (فان قيل) هذا لا يختص بالمنافق فما فائدة تخصيصه به (أجيب) بأن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة فى الدنيا فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا والمنافق لا يعتقد ذلك فبقى ما يحصل له فى الدنيا من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا (وتزهق) أى تخرج (أنفسهم) بسببها (وهم) أى والحال انهم (كافرون) أى يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه فى الغالب كثر ماله وولده فكثر اعجابه بماله وولده وبطره وكفره نعمة الله تعالى والاعجاب السرور بالشئ مع نوع الافتخار به ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشئ وانقطاعه عن الله تعالى فانه لا يبعد فى حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشئ عن ذلك الانسان ويجعله لغيره والانسان متى كان متذكرا لهذا المعنى زال اعجابه بذلك الشئ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وكان صلى الله عليه وسلم يقول هلك المكثرون وقال أيضا مالك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست

فأبليت أو تصدقت فأبقيت وروى من كثر ماله اشتد حسابه ومن أراد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا والاخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة والمقصود منها الزجر عن الاطناب من الدنيا والمنع من التهالك فى حبها والافتخار بها لان الانسان خلق للآخرة لا للدنيا فينبغى أن لا يشتد عجبه بالدنيا وان لا يميل قلبه اليها فان المسكن الاصلى له هو الآخرة لا الدنيا * ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خالين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد الى ذكر فضائحهم وقبائحهم فمنها اقدامهم على الايمان الكاذبة كما قال تعالى (ويحلفون) أى المنافقون (بالله) للمؤمنين اذا جاؤا معهم (انهم لمنكم) أى على دينكم وملتكم (وماهم منكم) أى لكفر قلوبهم (ولكنهم قوم يفرقون) أى يخافون منكم أن تفعلوا بهم ماتفعلوا بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) أى حصنا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا هربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم وفارقوكم (أو مغارات) أى سراديب جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدخلا) أى موضعا يدخلونه (لولوا اليه) والمعنى انهم لو وجدوا مكانا على أحد هذه الوجوه الثلاثة مع انها شر الامكنة لدخلوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) أى يسرعون فى دخول ذلك المكان اسراعا لا يرد وجوههم شئ ومن هذا يقال جمح الفرس وهو فرس جموح وهو الذى اذا حمل لا يرده اللجام * ثم ذكر تعالى نوعا آخر من قبائح المنافقين وهو طعنهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات بقوله تعالى (ومنهم من يلمزك) أى يعيبك (فى الصدقات) قال أبو على الفارسى ههنا محذوف والتقدير يعيبك فى تقسيم الصدقات واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال أبو سعيد الخدرى بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا اذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم رأس الخوارج وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال يارسول الله اعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك ان لم أعدل فمن يعدل قد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله ائذن لى فيه أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له الجواظ المنافق ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم انه يعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أبالك أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا فلما ذهب قال صلى الله عليه وسلم احذروا هذا وأصحابه فانهم منافقون وقال ابن زيد قال المنافقون والله مايعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا هواه فنزلت وروى أبو بكر الاصم فى تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه ماعلمك بفلان فقال مالى به علم الا انك تدنيه فى المجلس وتجزل له العطاء فقال صلى الله عليه وسلم انه منافق أداريه عن نفاقه واخاف أن يفسد على غيره فقال لو أعطيت فلانا بعض ماتعطيه فقال صلى الله عليه وسلم انه مؤمن أكمل ايمانه وأما

هذا المنافق أداره خوف فساده (فان أعطوا منها) أى من الصدقات (رضوا) أى رضوا عنك فى قسمتها (وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) أى وان لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا قال أهل المعانى ان هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم وذلك لانه لشدة شرههم الى أخذ الصدقات عابوا رسول صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الجور فى القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل الى الدنيا وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله تعالى من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله تعالى وأما المنافقون فان أعطوا كثيرا فرحوا وان أعطوا قليلا سخطوا وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لاجل الدين وكلمة اذا للمفاجأة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط (ولو أنهم) أى المنافقين (رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى ما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره (وقالوا) أى مع الرضا (حسبنا الله) أى كافينا الله من فضله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) أى من غنيمة أو صدقة أخرى ما يكفينا (انا الى الله) أى فى أن الله تعالى يغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس ويوسع علينا من فضله (راغبون) أى عريقون فى الرغبة ولذلك نكتفى بما يأتى من قبله كائنا ما كان وجواب لو محذوف والتقدير لكان خيرا لهم نقل عن عيسى عليه السلام أنه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذى حملكم عليه فقالوا الخوف من عقاب الله فقال أصبتم ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا لانذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب بل لاظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالالفاظ الدالة على صفات قدسه فقال أنتم المحقون المحققون * ثم بين سبحانه وتعالى مصارف الصدقات تحقيقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل (انما الصدقات) أى الزكوات مصروفة (للفقراء) والفقير هو الذى لا يجد ما يقع موقعا من كفايته كأن يحتاج الى عشرة دراهم وهو لا يجد الا درهمين أو ثلاثا مأخوذ من الفقار كأنه أصيب فقاره (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى يجد ما يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه كأن يحتاج الى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية مأخوذ من السكون كأن العجز أسكنه والمسكين أعلى من الفقير ويدل عليه قوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين وروى أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر وقيل الفقير أعلى لقوله تعالى أو مسكينا ذا متربة والعبرة عند الجمهور فى عدم كفاية الفقير والمسكين بالعمر الغالب بناء على أنه يعطى كفاية ذلك (والعاملين عليها) أى الزكاة فيعطى العامل وان كان غنيا ويدخل فى اسم العامل الساعى وهو الذى يبعثه الامام لاخذ الزكاة والكاتب والحاشر والعريف وهو الذى يعرف أرباب الاستحقاق والحاسب والحافظ للاموال والكيال والوزان والعداد عمال ان ميزوا أنصباء الاصناف لا المميزون للزكاة من المال وجامعوه فان أجرتهم على المالك (والمؤلفة قلوبهم) وهم اما ضعيف النية فى الاسلام فيعطى ليقوى اسلامه أو شريف فى قومه يتوقع باعطائه

اسلام غيره او كاف لنا شر من يليه من الكفار أو مانعى الزكاة فيعطى حيث اعطاؤه اهون علينا من بعث جيش وأما مؤلفة الكفار لترغيبهم فى الاسلام فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للاجماع ولان الله تعالى أعز الاسلام وأهله وأغنى عن التأليف (وفى الرقاب) وهم المكاتبون كتابة صحيحة فيعطون ما يؤدون من النجوم ان عجزوا عن الوفاء ولو لم يحل النجم لان قوله تعالى وفى الرقاب كقوله تعالى وفى سبيل الله وهناك يعطى المال للمجاهدين فيعطى للرقاب فلا يشترى به رقاب للعتق كما قيل به (والغارمين) وهم من لزمتهم الديون وهم ثلاثة أضرب دين لزمه لمصلحة نفسه ودين لزمه بضمان لا لتسكين فتنة ودين لزمه لتسكينها وهو اصلاح ذات البين فمن استدان لمصلحة نفسه أعطى لا ان استدان فى معصية الا ان تاب عنها فيعطى اذا احتاج وكان بحيث لو قضى دينه مما معه تمسكن فيترك له ما يكفيه ويعطى ما يقضى به بقية دينه ويعطى ولو قدر على قضائه بالكسب وكذا المكاتب ويشترط حلول الدين فى اعطاء الغريم وان ضمن لا لتسكين فتنة وهو معسر ملتزم بمال على معسر أعطى ما يقضى به دينه واذا قضى به دينه لا يرجع على الاصيل وان ضمن باذنه وانما يرجع اذا غرم من عنده ويعطى معسر ملتزم بمال على موسر بلا اذن من الاصيل لانه اذا غرم لا يرجع عليه بخلاف ما اذا ضمن باذنه ولا يعطى موسر ملتزم بمال على موسر وان ضمن موسر ما على معسر أعطى الاصيل دون الضامن والغارم لاصلاح ذات البين يعطى مع الغنى ولو فى غير دم ويعطى المستدين لقرى ضيف وعمارة مسجد وبناء قنطرة وفك أسير ونحو ذلك من المصالح العامة عند العجز عن النقد (وفى سبيل الله) وهم الغزاة المتطوعون أى الذين لا رزق لهم فى الفىء ويعطون ولو أغنياء اعانة لهم على الغزو وتحرم الزكاة على الغازى المرتزق ولو كان عاملا فاذا عدم الفىء واضطررنا الى المرتزق ليكفينا شر الكفار اعانه الاغنياء لا من الزكاة (وابن السبيل) أى الطريق وهو من ينشئ سفرا مباحا من محل الزكاة فيعطى ولو كان كسوبا أو كان مسافر النزهة ويعطى أيضا المسافر الغريب المجتاز بمحل الزكاة وانما يعطيان ان لم يجدا معهما شيئا يكفيهما لسفرهما وقوله تعالى (فريضة من الله) نصب بفعله المقدر أى فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن فى للفقراء (والله عليم) أى بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين (حكيم) يضع الاشياء فى مواضعها وانما أضيفت الصدقات الى الاصناف الاربعة الاولى بلام الملك والى الاربعة الاخيرة بفى الظرفية للاشعار باطلاق الملك فى الاربعة الاولى وتقييده فى الاخيرة حتى اذا لم يحصل الصرف فى مصارفها استرجع بخلافه فى الاولى ويجب تعميم الاصناف الثمانية فى القسم ان أمكن بأن قسم الامام ولو بنائبه ووجدوا والظاهر الآية سواء فى ذلك زكاة الفطر وزكاة المال وان لم يمكن بأن قسم المالك اذ لا عامل أو الامام ووجد بعضهم كأن جعل عاملا بأجرة من بيت المال فتعميم من وجد منهم وعلى الامام تعميم احاد كل صنف من الزكاة الحاصلة عنده اذ لا يتعذر عليه ذلك وعلى المالك أيضا ان انحصر الآحاد بالبلد بأن سهل عادة ضبطهم ومعرفة عددهم ووفى بهم المال فان أخل أحدهما بصنف ضمن وان لم ينحصر أو لم يف بهم المال ويجب

اعطاء ثلاثة فأكثر من كل صنف لذكره فى الآية بصيغة الجمع وهو المراد فى سبيل الله وابن السبيل الذى هو للجنس ولا عامل فى قسم المالك ويجوز حيث كان أن يكون واحدا ان حصلت به الكفاية كما يستغنى عنه فيما مرّ وتجب التسوية بين الاصناف غير العامل لا بين آحاد الصنف الا أن يقسم الامام وتتساوى الحاجات فتجب التسوية لان عليه التعميم فعليه التسوية بخلاف المالك اذا لم ينحصروا أولم يف بهم المال ولا يجزيه نقل الزكاة من بلد وجوبها مع وجود المستحقين فيه الى بلد آخر أوحال الحول والمال ببادية فرقت الزكاة بأقرب البلاد اليه أمّا الامام ولو نائبه فله نقلها ولو امتنع المستحقون من أخذها قوتلوا وشرط أخذ الزكاة من هذه الثمانية حرّية واسلام وأن لا يكونوا هاشميا ولا مطلبيا ولا مولى لهما كما بينته السنة هذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وقال الرازى وغيره لادلالة فى الآية على قول الشافعى فى أنه لابدّ من صرفها الى جميع الاصناف لانه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الاصناف وأمّا ان صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الاصناف كلها فلا كما انّ قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فأنّ لله خمسه الآية يوجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق وماذهب اليه الشافعى رضى الله تعالى عنه قول عكرمة وماذهب اليه الائمة الثلاثة من جواز صرفها الى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وكل على هدى من ربهم (فان قيل) كيف وقعت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم (أجيب) بأنه تعالى ذكر ذلك ليدل على أنّ هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا باستحقاقهم الحرمان وانهم بعداء عنها وعن مصارفها فمالهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها وعن قاسمها (ومنهم) أى المنافقين (الذين يؤذون النبىّ) هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ويعيبونه وينقلون حديثه (ويقولون) اذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه (هو أذن) أى يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمى بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسماع كما يسمى الجاسوس عينا لذلك واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما نقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له فيصدقنا فيما نقول فانّ محمدا أذن أى أذن سامعة يسمع كل ما يقال له ويقبله وقال محمد بن اسحق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبيل بن الحرث وكان رجلا ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوّه الخلقة وقد قال صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبيل بن الحرث وكان ينم حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لا تفعل ذلك فقال انما محمد أذن فن حدثه شيأ صدقه فنقول ماشئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فنزلت وقال الحسن كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل الا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب

سمر يع الاغترار بكل ما يسمع فلهذا السبب سموه بأذن وقوله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أذن خير لكم) تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذى ذموه به بل من حيث انه يسمع الخير ويقبله ثم فسر تعالى ذلك بقوله تعالى (يؤمن بالله) أى يصدق به لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين (فان قيل) لم عدى فعل الايمان بالباء الى الله تعالى والى المؤمنين باللام (أجيب) بأن الايمان المعدى الى الله تعالى المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء والايمان المعدى للمؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فعدى باللام كما فى قوله تعالى وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وقوله تعالى فما آمن لموسى الاذرية من قومه وقوله تعالى أنؤمن لك واتبعك الارذلون وقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقرأ نافع أذن فى الموضعين بتسكين الذال والباقون بالرفع (ورحمة) أى وهو رحمة (للذين آمنوا منكم) أى لمن أظهر الايمان حيث يقبله ولا يكشف سره وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير والباقون بالرفع * ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخير بين أن كل من اذاه استوجب العذاب الاليم بقوله تعالى (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) أى مؤلم لانه اذا كان يسعى فى ايصال الخير والرحمة اليهم مع كونهم فى غاية الخبث والخزى ثم انهم مع ذلك يقابلون احسانه بالاساءة وخيراته بالشرور فلا شك انهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ثم ذكر نوعا آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى (يحلفون بالله لكم) أيها المؤمنون (ليرضوكم) أى لترضوا عنهم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا يعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم وقال قتادة والسدى اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن أشر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار يقال له عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام وقال والله ما يقول محمد حق وأنتم أشر من الحمير ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا ان عامرا كذب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى بالارضاء بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم لتلازمهما كقولك احسان زيد واجماله نعشنى وجبرنى أو ان العالم بالاسرار والضمائر هو الله تعالى واخلاص القلب لا يعلمه الا الله تعالى ولهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر أو لان الكلام فى ايذاء الرسول وارضائه أو وخبر الله أو رسوله محذوف وفى كلام البيضاوى اشارة الى ان المذكور خبر الاول لانه المتبوع وفى كلام سيبويه انه للثانى لكونه أقرب مع السلامة من الفصل بين المبتدا والخبر (ان كانوا) أى هؤلاء المنافقون (مؤمنين) أى مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة

(ألم يعلموا) قال أهل المعانى هذا خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه وتركه فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله تعالى ألم يعلموا أن من شرائع الدين التى علمهم رسولنا (انه) أى الشأن (من يحادد الله) أى من يخالف الله (ورسوله) وأصل المحادة فى اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا أى صار فى حد غير حده كقولك شاقه أى صار فى شق غير شقه ومعنى يحادد الله أى يصير فى حد غير حد أولياء الله تعالى بالمخالفة وقوله تعالى (فأن له نار جهنم) أى على حذف الخبر أى فحق ان له نار جهنم لان الفاء واقعة فى جواب الشرط فتقتضى جملة وفأن له نار جهنم مفرد فى موضع رفع بالابتداء وقدر خبره مقدما لان أن لا يبتدأ بها قال الرازى أو ان معناه فله نار جهنم وان تكررت للتوكيد واعترض بأن فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبى ثم قال أو جواب من محذوف والتقدير ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له نار جهنم (خالدا فيها) أى دائما من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبدا * ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى (ذلك) أى الامر البعيد الوصف العظيم الشأن (الخزى العظيم) أى الهلاك الدائم (يحذر) أى يخاف (المنافقون أن تنزل عليهم) أى المؤمنين (سورة تنبئهم) أى تخبرهم (بما فى قلوبهم) أى بما فى قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزؤن ويخافون الفضيحة بنزول القرآن فى شأنهم قال قتادة هذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة اثارت مخازيهم ومثالبهم قال ابن عباس أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج) أى مظهر (ما تحذرون) اخراجه من نفاقكم قال ابن كيسان نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له فى ليلة مظلمة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة الا تبعث اليهم فتقتلهم فقال اكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله (ولئن) اللام لام القسم (سألتهم) أى المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك الى تبوك (ليقولن) معتذرين (انما كنا نخوض ونلعب) فى الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك قال قتادة كان النبى صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزآن بالنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يغلب الروم ويفتح

مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه نزل فى أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وانما هو قوله وكلامه فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا الركب على فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب أى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعل الركب لنقطع الطريق بالحديث واللعب قال الله تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله) أى بفرائضه وحدوده وأحكامه (وآياته) أى القرآن وسائر ما يدل على الدين الذى لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير ولا بصيرة (ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم الذى عظمته من عظمته وهو مجتهد فى اصلاحكم وتشريفكم واعلائكم (كنتم تستهزؤن) توبيخا وتقريعا لهم على استهزائهم بما لا يصلح الاستهزاء به والزاما للحجة عليهم ولا يعبأ باعتقادهم الكاذب * ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال الله تعالى (لا تعتذروا) أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة (قد كفرتم) أى أظهرتم الكفر بقولكم هذا (بعد ايمانكم) أى بعد اظهار الايمان (فان قيل) المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى قد كفرتم بعد ايمانكم (أجيب) بأنهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر فقد أظهروا الكفر بعد ما أظهروا الايمان كما تقرر (ان نعف عن طائفة منكم) أى باحداثهم التوبة واخلاصهم الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) أى مصرين على النفاق والاستهزاء قال محمد بن اسحق الذى عفا الله عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعى يقال هو الذى كان يضحك ولا يخوض وكان يمشى مجانبا لهم وكان ينكر بعض ما يسمع والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول خرج فلان الى مكة على الجمال والله تعالى يقول الذين قال لهم الناس يعنى نعيم بن مسعود فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه وقرأ عاصم نعف بالنون مفتوحة وضم الفاء ونعذب طائفة بنون مضمومة وكسر الذال وطائفة بالنصب والباقون ان يعف بياء مضمومة وتعذب بضم التاء وفتح الذال وطائفة بالرفع ثم بين تعالى نوعا آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم والمقصود منه بيان ان انهم كذكورهم فى تلك الاعمال المنكرة والافعال الخبيثة بقوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى متشابهة فى النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشئ الواحد كما يقول الانسان لغيره أنا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) أى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الانفاق فى كل خير من زكاة وصدقة وانفاق فى سبيل الله والاصل فى هذا ان المعطى يمد يده ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده فقبض اليد كناية عن الشح وقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما لان النسيان ليس فى وسع البشر ولخبر رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وأيضا فهو فى حق الله تعالى محال

فلا بد من التأويل وهو من وجهين الاول معناه انهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسى فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته وجاء هذا على مزاوجة الكلام كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الثانى النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والاحسان وانما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لان من نسى شيأ لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم (ان المنافقين هم الفاسقون) أى الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله تعالى به المنافقين حتى بالغ فى ذمهم وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كرهت كسلت لان المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله تعالى الا وهم كسالى فما ظنك بالفسق * ولما بين سبحانه تعالى كثيرا من أحوال المنافقين والمنافقات وانه نسيهم أى جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى أكد هذا الوعيد وضم المنافقين الى الكفار فيه بقوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أى المجاهرين فى عنادهم يقال وعده بالخير وعدا وأوعده بالشر وعيدا (نار جهنم خالدين فيها) أى مقدرين الخلود ولاشك ان النار المخلدة من أعظم العقوبات (هى حسبهم) أى كافيتهم فى العذاب (ولعنهم الله) أى ابعدهم مع من أبعدهم من رحمته * ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج نفى ذلك بقوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع وقوله تعالى (كالذين من قبلكم) رجوع من الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة ثم انه تعالى وصف الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا بقوله تعالى (كانوا أشد منكم قوة) أى بطشا ومنعا (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق للانسان وقدر له من خير وشر كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) أى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم فهو خطاب للحاضرين (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الاولين باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ العاجلة تمهيد الذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم * ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك المتقدمين فى طلب الدنيا وفى الاعراض عن طلب الآخرة بين حصول المشابهة بين الفريقين فى تكذيب الانبياء وفى المكر والخديعة بقوله تعالى (وخضتم) أى ودخلتم فى الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (كالذى خاضوا) أى كالذين خاضوا أو كالفوج الذى خاضوا هذا كله اذا جعلنا الذى موصولا اسميا فان جعلناه موصولا حرفيا أول مع صلته بمصدر أى كخوضهم والفوج الجماعة (فان قيل) أى فائدة فى قوله تعالى فاستمتعوا بخلاقهم وقوله تعالى كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه كما أغنى

قوله تعالى كالذى خاضوا عن أن يقال وخاضوا الخضتم كالذى خاضوا (أجيب) بأن فائدة ذلك ان يذم الاولين عامة ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك نهاية فى المبالغة كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه بقولك أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب وأمّا وخضتم كالذى خاضوا فعطوف على ماقبله مستند اليه مستغن باسناده اليه عن تلك التقدمة (أولئك) أى هؤلاء الاشقياء (حبطت) أى بطلت (أعمالهم فى الدنيا) أى بزوالها عنهم ونسيان لذاتها (والآخرة) أى وفى الدار الآخرة لانهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم فى الدارين بل يعاقبون عليها وزاد فى التنبيه على بعدهما عما قصدوا لانفسهم من النفع بقوله تعالى (وأولئك هم الخاسرون) أى الذين خسروا الدنيا والآخرة والمعنى أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا ابطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون وفى الالتفات الى مقام الخطاب اشارة الى تحذير كل سامع عن مثل هذه المقالة قال بعض كبراء التابعين أدركت سبعين ممن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وذكر أن مالكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبى ياشيخ قم فاركع فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا فقيل له فى ذلك فقال خشيت أن أكون من الذين اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما وقال تعالى لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ينظر المنافق الى مايسقط فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم كما روى أن الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوى أهل المساوى فكيف بمعايب أهل المحاسن والمنافق يأخذ من الدين ما ينفع فى الدنيا ولا يأخذ ما ينفع فى العقبى ويجتنب فى الدين مايضر فى الدنيا ولا يجتنب مايضر فى العقبى مما لا يضر فى الدنيا * ويذكر أن رجلا من صلحاء المسلمين دخل كنيسة فقال لراهب فيها دلنى على موضع طاهر أصلى فيه فقال له الراهب طهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت قال المسلم فخجلت منه وقوله عز من قائل (ألم يأتهم) فيه رجوع من الخطاب الى الغيبة أى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) أى خبر (الذين من قبلهم) من الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا * ولما شبه تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين فى الرغبة فى الدنيا وفى تكذيب الانبياء والمبالغة فى ايذائهم لرسلهم بين منهم ستة طوائف الاولى (قوم نوح) أهلكوا بالطوفان (و) الثانية (عاد) وهم قوم هود أهلكوا بالريح والثالثة ثمود وهم قوم صالح أهلكوا بالرجفة (و) الرابعة (قوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وأهلك نمروذ ببعوضة سلطها الله تعالى على دماغه فقتلته (و) الخامسة (أصحاب مدين) وهم قوم شعيب ويقال انهم من ولد مدين بن ابراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة (و) السادسة (المؤتفكات) وهم قوم لوط أى أهلها أهلكوا بأن جعل الله تعالى أعالى أرضهم سافلها وامطر عليهم حجارة وانما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشأم

والعراق

والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرّون عليهم ويعرفون أخبارهم وقوله تعالى (أتتهم رسلهم) راجع الى كل هؤلاء الطوائف (بالبينات) أى المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فنعجل لكم النقمة كما عجلت لهم وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع (فما كان الله ليظلمهم) بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب * ولما بالغ سبحانه وتعالى فى وصف المنافقين بالاعمال الفاسدة والافعال الخبيثة ثم ذكر عقبه أنواع الوعيد فى حقهم فى الدنيا والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا فى مقابلة قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض (فان قيل) لم قال تعالى فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم اولياء بعض ما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأنه لما كان نفاق الاتباع حصل بسبب التقليد لاولئك الاكابر بسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة وقوله تعالى (يأمرون بالمعروف) أى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة (وينهون عن المنكر) أى الشرك والمعاصى والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (ويقيمون الصلاة) أى المفروضة ويتمون أركانها وشروطها (ويؤتون الزكاة) أى الواجبة عليهم فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين ويقبضون أيديهم المعبر به عن البخل وقوله تعالى (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما يأمرهم به فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين نسوا الله فنسيهم * ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهى ثواب الآخرة بقوله تعالى (أولئك) أى المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات (سيرحمهم الله) بوعد لا خلف فيه (ان الله عزيز) أى غالب على كل شئ لا يمتنع عليه ما يريده (حكيم) أى لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه * ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الاجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) قد ذكر فى هذه الآية أن الرحمة هى هذه الانواع المذكورة فى هذه الآية أولها قوله تعالى جنات تجرى من تحتها الانهار فهى لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة * ولما كان النعيم لا يكمل الا بالدوام قال تعالى (خالدين فيها) والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الانهار البساتين التى يحير فى حسنها الناظر لانه تعالى قال (ومساكن طيبة فى جنات عدن) أى اقامة وخلود وهذا هو النوع الثانى فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الاخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه قد كثر كلام أصحاب الآثار

فى صفة جنات عدن فقال الحسن سألت عمران بن الحصين عن قوله تعالى ومساكن طيبة
فقال على الخبير سقطت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قصر فى الجنة من اللؤلؤ فيه
سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا
على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل
مائدة سبعون لونا من الطعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة
واحدة ما يأتى على ذلك أجمع وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن دار
الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر أى دار الله تعالى التى أعدها لاوليائه وأهل طاعته
والمقربين من عباده وعن أبى هريرة رضى الله عنه قلت يارسول الله حدثنى عن الجنة ما بناؤها
قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة وبلاطها المسك الاذفر وتربتها الزعفران وحصباؤها الدر
والياقوت فهى النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه وقال ابن مسعود
جنات عدن بطنان الجنة قال الازهرى بطنانها وسطها وقال عطاء عن ابن عباس هى قصر
فى الجنة وسقفها عرش الرحمن وهى المدينة التى فيها الرسل والانبياء والشهداء وأئمة الهدى
وسائر الجنان حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة
من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الاذفر وقال عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله
تعالى عنهما ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله
الا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة قبابه على
حافتيه وقال الرازى حاصل الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى
الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول وقال فى الكشاف وعدن علم بدليل قوله تعالى
جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى انه صفة الجنة قال الازهرى مأخوذ من قولك
عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن جعلنا
الله تعالى ومن نحبه من أهلها وأحل علينا رضوانه فانه المقصود الاعظم كما قال تعالى
(ورضوان من الله أكبر) لانه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى الى نيل الوصول والفوز باللقاء
روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك
وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم
فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من
ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك قال تعالى أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا
وهذا هو النوع الثالث وقرأ شعبة ورضوان بضم الراء والباقون بالكسر (ذلك) أى الرضوان
أو جميع ما تقدم (هو الفوز العظيم) الذى تستصغر دونه الدنيا وما فيها * ولما وصف الله تعالى
المنافقين بالصفات الخبيثة وتوعدهم بأنواع العقاب وكانت عادة الله تعالى فى هذا الكتاب
الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد لاجرم ذكر عقبه وصف المؤمنين بالصفات الشريفة
الطاهرة الطيبة ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجة العالية ثم عاد الى شرح أحوال الكفار

والمنافقين

والمنافقين بقوله تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) أي المجاهرين (والمنافقين) أي الساترين كفرهم بظهور الاسلام (فان قيل) الآية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جائز فان المنافق كما مرّ من يستر كفره و يقرّ بلسانه ومن كان كذلك لم تجز محاربته ومجاهدته (أجيب) بأن ليس في الآية مايدل على ان ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر وانما تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين وكيفية تلك المجاهدة انما تعرف من دليل آخر وقد دلت الدلائل المفصلة على ان المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ومع المنافقين بالحجة والبرهان وحمل الحسن جهاد المنافقين على اقامة الحدود عليهم اذا تعاطوا أسبابها قال القاضي وهذا ليس بشئ لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق * ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعا على الرفق وحسن الخلق قال تعالى (واغلظ عليهم) أي بالانتهار والمقت في الجهادين لانعاملهم بمثل ماعاملتهم به من اللين عند استئذانهم في القعود وهذا بخلاف مامضى في وعيد المنافقين حيث قدمهم فقال المنافقون والمنافقات فقدم في كل سياق الاليق به (ومأواهم) أي مسكنهم في الآخرة (جهنم وبئس المصير) أي المرجع هي (يحلفون) أي المنافقون (بالله ماقالوا) أي مابلغك عنهم من السب والمفسرون ذكروا في أسباب نزول هذه الآية وجوها الاول روى أنه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد لئن كان مايقول محمد في اخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقا لنحن شرّ من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شرّ من الحمار فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله عز وجل ماقاله فرفع عامر يده وقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزلت فقال الجلاس لقد ذكر الله تعالى التوبة في هذه الآية ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ثم تاب وحسنت توبته الثاني أنها نزلت في عبد الله بن أبي لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه النبي صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضي الله عنه بقتل عبد الله بن أبي فجاء عبد الله بن أبي وحلف أنه لم يقل الثالث روى قتادة أن رجلين اقتتلا احدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الجهني على الغفاري فقال عبد الله ابن أبي للاوس انصروا أخاكم فوالله مامثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه فسأله فحلف بالله ماقاله فنزلت (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهي سب النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هي كلمة الجلاس بن سويد وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي (وكفروا بعد اسلامهم) أي وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام (وهموا بمالم ينالوا) أي من قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك توافق خمسة عشر منهم اذا تسنم العقبة أي علاها بالليل فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها فبينماهم كذلك اذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل و بقعقعة

السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال الحكم الحكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون هموا بقتل عامر حين رد على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) أي وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فان أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالاموال ووجدوا الدولة وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين في بذل النفس والمال لاجله وقتل للجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى فالمنافقون عملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم ان نقموا منه وقال ابن قتيبة معناه ليس هناك شئ ينقمون منه ولا يعيبون من الله الا الصنيع وهذا كقول الشاعر

ما نقموا من بني أمية الا انهم يحلمون ان غضبوا

وكقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيها عيب (فان يتوبوا) أي من كفرهم ونفاقهم (يك خيرا لهم) في العاجل والآجل من اصرارهم على ذلك وهذا الذي حمل الجلاس على التوبة والضمير في يك للتوبة (وان يتولوا) أي يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) بالقتل والاسر والاذلال (والآخرة) بالعذاب الاكبر الذي لا خلاص لهم منه وهو خلودهم في النار (وما لهم في الارض) أي التي لا يعرفون غيرها لسفول هممهم (من ولي) يحفظهم منه (ولا نصير) يمنعهم وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها في شئ ناصر أو غيره وأغلظ اكبادا من أن يرتقي فكرهم الى ما بها من العجائب وما بها من الجنود واعلم أن هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ولاشك انهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى ومنهم الذين يؤذون النبي ومنهم من يلمزك في الصدقات ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) فيه ادغام التاء في الاصل في الصاد (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشأم فلحقه شدة فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس الانصار لئن آتانا الله من فضله لاصدقن ولأؤدين منه حق الله تعالى والمشهور في سبب نزول هذه الآية ان ثعلبة بن حاطب الانصاري قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما لك في رسول الله اسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لاعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما

فنمت كما تنمى الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلى فى غنمه باقى الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا فصار لا يشهد لا جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ثلاثا فنزلت آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لاخذ الصدقة وكتب لهما اصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرّا بثعلبة وخذا صدقاته فأتياه وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الاجزية أوأخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الىّ فانطلقا فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا الى ثعلبة فقال كمقالته الاولى ولم يدفع اليهما شيأ فرجعا الى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذى صنع ثعلبة فأنزل الله تعالى هذه الآية وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال انّ الله تعالى منعنى من أن أقبل صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال صلى الله عليه وسلم لقد قلت لك فما أطعتنى فرجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ثم جاء بها الى عمر أيام خلافته فلم يقبلها فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه (فان قيل) العبد اذا تاب تاب الله عليه فلماذا منع الله تعالى من قبول صدقته (أجيب) بأن الله تعالى لما قال خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وكان هذا المقصود غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة ثم قال الله تعالى (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أى منعوا حق الله تعالى منه (وتولوا) عن طاعة الله تعالى (وهم معرضون) أى عن طاعة الله تعالى (فأعقبهم) أى صير عاقبتهم (نفاقا) متمكنا (فى قلوبهم الى يوم يلقونه) أى الله يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه) أى بسبب اخلافهم ماوعدوه من التصدق والصلاح لانّ الجزاء من جنس العمل (وبما كانوا يكذبون) أى يجددون الكذب دائما مع الوعد ومنفكا عنه فقد استكملوا النفاق عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدّثوا فكذبوا وقد قال صلى الله عليه وسلم آية المنافق أى علامته ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان (ألم يعلموا) أى المنافقون (انّ الله يعلم سرّهم) أى ماأسروا فى أنفسهم من النفاق والعزم على اخلاف ماوعدوه (ونجواهم) أى ماتناجوا بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها فكيف يجترؤن على النفاق الذى الاصل فيه الاستمرار والتناجى فيما بينهم مع علمهم بأنّ الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر وانه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر (وانّ الله علام الغيوب) والعلام مبالغة فى العالم والغيب ما كان غائبا عن الخلق

فكيف يمكن الاخفاء عنه وقوله تعالى (الذين) مبتدأ (يلمزون) أى يعيبون (المطوعين) المتنفلين (من المؤمنين) أى الراسخين فى الايمان (فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم) أى طاقتهم فيأتون به (فيسخرون منهم) أى يستهزؤن بهم والخبر (سخر الله منهم) أى جازاهم على سخريتهم (ولهم عذاب أليم) على كفرهم وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو لمزهم لمن يأتى بالصدقات روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف درهم فاجعلها فى سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله تعالى فى مال عبد الرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقا من تمر وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء أبو عقيل الانصارى بصاع من تمر وقال أجرت الليلة الماضية نفسى من رجل لارسال الماء الى نخله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالى وأتيتك بالآخر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا عبد الرحمن وعثمان ما يعطيان الا رياء والله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت وقوله تعالى (استغفر لهم) يا محمد (أو لا تستغفر لهم) تخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار لهم وتركه قال صلى الله عليه وسلم انى خيرت فاخترته يعنى الاستغفار رواه البخارى (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام سأزيد على السبعين وذلك لانه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص لانه الاصل لجواز ان يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد وانما خص السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبع وهو عدد شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد أى عدة مراتبه الاصلية والفرعية معدكرأول فروع فروعه وهى سبعة آحاد عشرات مئين آحاد ألوف عشرات ألوف مئين ألوف آحاد ألوف الالوف وقوله تعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) اشارة الى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى المتمردين فى كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره وهو عدم يأسهم عن ايمانهم ما لم يعلم انهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى ما كان

للنبى

للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (فرح المخلفون) عن غزوة تبوك (بمقعدهم) أى بقعودهم فهو اسم للمصدر (خلاف رسول الله) هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد والخلاف المتروك ممن مضى (فان قيل) انهم احتالوا حتى تخلفوا فكانوا متخلفين لا مخلفين (أجيب) بأن من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه الى الجهاد مع المؤمنين يوصف بأنه مخلف حيث لم ينهض وأقام * (تنبيه) * قوله تعالى خلاف فيه قولان الاول وهو قول الزجاج بمعنى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ساروا أقاموا قال وهو منصوب لانه مفعول له والمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والثانى قال الاخفش ان خلاف بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم وايثارهم ذلك على السكون والراحة وكره ذلك المنافقون وكيف لا يكرهون ومافيهم مافى المؤمنين من باعث الايمان وداعى الايقان (وقالوا) أى قال بعض المنافقين لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطا (لا تنفروا) أى لا تخرجوا الى الجهاد (فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى يعلمون أن بعد هذه الدار دارا أخرى وان بعد هذه الحياة حياة أخرى وان هذه مشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما تخلفوا ولبعضهم

مسرة احقاب تلقيت بعدها * مساءة يوم اربها شبه الصابى
فكيف بأن تلقى مسرة ساعة * وراء تقضيها مساءة أحقاب

وقوله تعالى (فليضحكوا قليلا) اى فى الدنيا (وليبكوا كثيرا) أى فى الآخرة ورد بصيغة الامر ومعناه الاخبار بأنه ستحصل لهم هذه الحالة ودليل ذلك قوله تعالى (جزاء بما كانوا يكسبون) أى أن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيث فى الدنيا روى أن أهل النفاق يبكون فى الآخرة فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول أعمارهم فى الدنيا قليل بالنسبة الى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل روى عن أنس انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا فتباكوا فان أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتنفرغ العيون حتى لو أن سفنا اجريت فيها لجرت قال البيضاوى ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم (فان رجعك) أى ردك (الله) من غزوة تبوك (الى طائفة منهم) أى ممن تخلف بالمدينة من المنافقين وانما قال الى طائفة منهم لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين وأراد بالطائفة المنافقين

منهم (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد تبوك (فقل) يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم (لن تخرجوا معى أبدا) أى فى سفر من الاسفار ان الله تعالى قد أغنانى عنكم وأحوجكم الى (ولن تقاتلوا معى عدوا) اخبار بمعنى النهى للمبالغة وقوله تعالى (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) تعليل له وكان اسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم وأول مرة هى الخرجة الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) أى المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان وغيرهم قال الرازى واعلم ان هذه الآية تدل على ان الرجل اذا ظهر له من بعض اخوانه مكر وخداع ورآه مشددا فيه مبالغا فى تقرير موجباته فانه يجب عليه أن يقطع العلقة بينه وبينه وأن يحترز عن مصاحبته * ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه الى الغزوات اذلالا لهم أمره بمنع الصلاة على من مات منهم اذلالا لهم أيضا بقوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) روى أن ابن أبى رأس المنافقين دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلى عليه واذا مات يقوم على قبره ثم أرسل للنبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل اليه القميص الفوقانى فرده وطلب الذى يلى جلده ليكفن فيه فقال عمر رضى الله عنه لم تعطى قميصك للرجس النجس فقال صلى الله عليه وسلم ان قميصى لا يغنى عنه من الله شيأ وانى أؤمل من الله أن يدخل فى الاسلام كثير بهذا السبب فيروى أنه اسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مات جاء ابنه يعرفه وكان ابنه مؤمنا خالصا صالحا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل عليه وادفنه فقال ان لم تصل عليه يارسول الله لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فقام عمر رضى الله عنه بينه وبين القبلة فنزلت هذه الآية وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا تصل على أحد منهم مات أبدا قال عمر فعجبت من جراءتى على النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضى الله عنه وذلك ان الوحى ينزل وفق قوله فى آيات كثيرة منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر وقد سبق شرحه ومنها آية تحريم الخمر ومنها آية تحويل القبلة ومنها آية أمر النساء بالحجاب ومنها هذه الآية فصار نزول الوحى على مطابقة قول عمر منصبا عاليا ودرجة رفيعة له فى الدارين ولهذا قال فى حقه عليه الصلاة والسلام لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبيا وانما سنه صلى الله عليه وسلم عن التكفين فى القميص ونهى عن الصلاة عليه لان الضنة بالقميص كانت تخل بالكرم وكان الله تعالى أمره أن لا يرد سائلا بقوله تعالى وأما السائل فلا تنهر ولان ابنه كان بالوصف المتقدم فأكرمه النبى صلى الله عليه وسلم لمكان ابنه ولان الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم ولانها كانت مكافأة لالباسه العباس قميصه حين كان أسر ببدر والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع فى حق الكافر قال الواحدى مات فى موضع جر لانه صفة للنكرة كانه قيل

على احد منهم مات وقوله تعالى أبدا متعلق بقوله ولا تصل والتقدير ولا تصل أبدا على أحد منهم منعا كليا دائما وقال البيضاوى مات أبدا يعنى الموت على الكفر فان احياء الكافر للتعذيب لا للتمتع فكأنه لم يحى واختلف فى تفسير قوله تعالى (ولا تقم على قبره) فقال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه قال الكلبى لا تقم لاصلاح مهمات قبره وهو من قولهم قام فلان بأمر فلان اذا كفاه أمره وتولاه وقيل لا تقم عند قبره لدفن أو زيارة والاول أولى لان النهى للتحريم ثم انه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) أى كافرون يعنى لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم فسقط بذلك ما قيل ان الفسق أدنى من الكفر فما الفائدة فى وصفهم بعد ذلك بالفسق وأجيب أيضا بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد ان وصفه بالكفر تنبيها على ان طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العلم (فان قيل) كيف هم صلى الله عليه وسلم أن يصلى على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه وقيل انه صلى عليه (أجيب) بأن التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فانه كان ظاهره الاسلام فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) سبق ذكر هذه الآية فى هذه السورة بعينها ولكن حصل بينهما تفاوت فى ألفاظ أربعة أولها أن فى الآية المتقدمة فلا تعجبك بالفاء وههنا بالواو ولان الآية الاولى ذكرت بعد قوله تعالى ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق وانما كرهوا ذلك الانفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الاموال والاولاد فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الاعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو وثانيها أنه قال تعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وههنا كلمة لا محذوفة لان مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالادون ثم يترقى الى الاشرف فيقال لا يعجبنى أمر الامير ولا أمر الوزير وهذا يدل على انه كان اعجاب أولئك الاقوام بأولادهم فوق اعجابهم باموالهم وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الامرين عندهم ثالثها أنه تعالى قال هنالك انما يريد الله ليعذبهم وههنا قال انما يريد الله أن يعذبهم فالفائدة فيه التنبيه على ان التعليل فى أحكام الله تعالى محال وان ورد حرف التعليل ومعناه انه كقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله وما أمروا الا بأن يعبدوا الله رابعها انه ذكر فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وههنا أسقط لفظ الحياة تنبيها على ان الحياة الدنيا بلغت فى الخسة مبلغا الى أنها لا تستحق أن تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها قال الرازى فهذه وجوه فى الفرق بين هذه الالفاظ والعالم بتحقيق القرآن هو الله تعالى (فان قيل) ما الحكمة فى التكرير (أجيب) بأنه أشد الاشياء جذبا وطلبا للخواطر الاشتغال بالدنيا وهى الاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى فى المطلوبية والمرغوبية كما أعاد تعالى

قوله فى سورة النساء ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء مرتين وقيل انما كرر هذا المعنى لان الآية الاولى فى قوم منافقين لهم أموال وأولاد فى وقت نزولها وهذه الآية فى قوم آخرين والكلام الواحد اذا احتيج الى ذكره مع أقوام كثيرين فى أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع آخرين وقوله تعالى (واذا أنزلت سورة) يحتمل ان يراد بالسورة تمامها وان يراد بعضها أى طائفة من القرآن وقيل المراد بالسورة سورة براءة لان فيها الامر بالايمان والجهاد (ان آمنوا بالله) أى بأن آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة (وجاهدوا مع رسوله) (فان قيل) كيف يأمر المؤمنين بالايمان فان ذلك يقتضى الامر بتحصيل الحاصل وهو محال (أجيب) بأن معناه الدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون أى اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير الايمان لا يفيد شيأ ثم حكى الله تعالى ان عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى (استأذنك أولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم (وقالوا) أى اولوا الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) أى الذين قعدوا العذر كالمرضى والزمنى وقيل مع النساء والصبيان ثم ذمهم الله تعالى بقوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) جمع خالفة أى النساء اللاتى تخلفن فى البيوت وقيل الخوالف ادنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم وانما خص أولوا الطول بالذكر لان الذم لهم لازم لكونهم قادرين على السفر والجهاد وأما من لامال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج الى الاستئذان قال المفسرون كان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف (وطبع) أى وختم (على قلوبهم) أى هؤلاء المنافقين (فهم لا يفقهون) أى لا يعلمون ما فى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف من الشقاوة والخذلان ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه بقوله تعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى بذلوا المال والنفس فى طلب رضوان الله تعالى والتقرب اليه وفى قوله تعالى لكن فائدة وهى تقريرانه وأن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه اليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا كقوله تعالى ان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة الى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع وهو أنواع أولها ما ذكره تعالى بقوله سبحانه (وأولئك لهم الخيرات) أى منافع الدارين النصرة والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الخيرات الحور العين لقوله تعالى فيهن خيرات حسان ثانيها ما ذكره الله تعالى بقوله (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطالب المتخلصون من العقاب والعتاب وثالثها ما ذكره بقوله تعالى (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) هذا بيان ما لهم من الخيرات الاخروية (وجاء المعذرون) بادغام التاء فى الاصل فى الذال أى المعتذرون بمعنى المعذورين (من الاعراب) الى

النبى

النبى صلى الله عليه وسلم (ليؤذن لهم) فى القعود لعذرهم فأذن لهم واختلف فى هؤلاء المعذرين فقيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت اعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال صلى الله عليه وسلم سيغنينى الله عنكم وقيل نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله وعن قتادة اعتذروا بالكذب والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح كما فى قول لبيد

* ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يريد فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو التعذير الذى هو التقصير يقال عذر يعذر اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل انهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكره قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) اى فى ادعاء الايمان من منافقى الاعراب عن المجيء للاعتذار فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام فقال ان اقواما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف الآخرون لا لعذر ولا لشبه عذر جراءة على الله وهم المراد بقوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله (سيصيب الذين كفروا منهم) أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد فى حق من توهم العذر مع أنه لا عذر له ذكر أصحاب الاعذار الحقيقية وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى (ليس على الضعفاء) كالشيوخ ومن خلق فى أصل الفطرة ضعيفا نحيفا (ولا على المرضى) كالزمنى والعرج والعمى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فى الجهاد (حرج) أى اثم فى التخلف عنه فنفى سبحانه وتعالى عن هذه الاقسام الثلاثة الحرج فيجوز لهم ان يتخلفوا عن الغزو وليس فى الآية بيان انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته اما بحفظ متاعهم أو لتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم كان ذلك طاعة مقبولة ثم انه سبحانه وتعالى شرط فى جواز هذا التأخر عن الغزو شرطا بقوله (اذا نصحوا لله ورسوله) فى حال قعودهم بالايمان والطاعة فى السر والعلانية وان يحترزوا عن القاء الارجافات وعن اثارة الفتن ويسعوا فى ايصال الخير الى المجاهدين الذين سافروا اما ان يقوموا باصلاح مهمات بيوتهم واما ان يسعوا الى ايصال الاخبار السارة من بيوتهم اليهم فان جملة هذه الامور جارية مجرى الاعانة على الجهاد وقوله تعالى (ما على المحسنين) فى موضع ما عليهم لبيان احسانهم بنصحهم مع عذرهم (من سبيل) أى طريق الى ذمهم أو لومهم والمعنى انه سد باحسانه طريق العتاب ومن أعظم الاحسان من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مخلصا من قلبه فان ما عليه من سبيل فى نفسه وماله لاباحة الشرع بدليل منفصل اذ العبرة

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمحسن هو الآتى بالاحسان ورأس أبواب الاحسان ورئيسها هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله (والله غفور) أى محاء للذنوب (رحيم) أى بجميع عباده وفى ذلك اشارة الى أن الانسان محل التقصير وان اجتهد فلا يسعه الا العفو ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء وبين انه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط ان يكونوا ناصحين لله ورسوله وهو كونهم محسنين وانه ليس لاحد عليهم سبيل ذكر قسما رابعا من المعذورين بقوله تعالى (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) الى الغزو وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعلية بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ندبتنا بالخروج أى أسرعنا فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين وقيل هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان وقيل أبو موسى وأصحابه وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر وقوله تعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وقوله تعالى (تولوا) جواب اذا (وأعينهم تفيض) أى تسيل (من الدمع) أى دمعها فان من للبيان كقولك أفديك من رجل وهو أبلغ من يفيض دمعها لانه يدل على ان العين صارت دمعا فياضا وقوله تعالى (حزنا) منصوب على العلة (أن لا يجدوا) أى لئلا يجدوا ومحله نصب على انه مفعول له وناصبه المفعول له الذى هو حزنا (ما ينفقون) فى الجهاد ولما قال تعالى ما على المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له (انما السبيل) أى انما يتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد (وهم أغنياء) أى قادرون على أهبة الخروج معك وقوله تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان (وطبع الله على قلوبهم) فلاجل ذلك الطبع قال الله تعالى (فهم لا يعلمون) أى ما فى الجهاد من منافع الدارين أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع (يعتذرون) أى هؤلاء المنافقون (اليكم) أى فى التخلف (اذا رجعتم) من الغزو (اليهم) بالاعذار الباطلة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له ويحتمل ان يكون له وللمؤمنين روى ان الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلا فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل قال تعالى (قل) لهم يا محمد (لا تعتذروا) بالمعاذير الباطلة (لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به وقوله تعالى (قد نبأنا) أى أعلمنا (الله من أخباركم) أى بعض أحوالكم التى أنتم عليها من الشر والفساد علة لانتفاء تصديقهم لان الله تعالى اذا أوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم الاعلام بأحوالهم وما فى ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى

أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه (ثم تردون) أى بالبعث (الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى الله المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد وغير ذلك من الخبائث التى أنتم عليها فيجازيكم عليه (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم) أى رجعتم (اليهم) من تبوك انهم معذورون فى التخلف (لتعرضوا عنهم) أى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم (فأعرضوا عنهم) أى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق قال ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام قال مقاتل قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لاتجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت ثم ذكر تعالى علة الاعراض بقوله (انهم رجس) أى قذر لخبث باطنهم فكما يجب الاحتراز عن الانجاس الجسمانية يجب الاحتراز عن الارجاس الروحانية خوفا من سريانها الى الانسان وحذرا من أن يميل طبع الانسان الى تلك الاعمال وقوله تعالى (ومأواهم جهنم) من تمام العلة (جزاء بما كانوا يكسبون) من الاعمال الخبيثة فى الدنيا واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لاتجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فان ترضوا عنهم) أى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) لانه تعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم والمقصود من الآية عدم الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الامر بالاعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم * ونزل فى سكان البادية (الاعراب) أى أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) أى من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ولا ضبط ضابط فنشؤا كما شاؤا ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات نفاقا ولو قابلت الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لعرفت الفرق بين أهل الحضر وأهل البادية قال العلماء من أهل اللغة يقال رجل عربى اذا كان له نسب فى العرب وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودى ثم تحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابى بالالف اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلا وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الاعرابى على الاعراب والاعاريب والاعرابى اذا قيل له ياعربى فرح والعربى اذا قيل له يا اعرابى غضب له فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم اعراب والذى يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال حب العرب من الايمان وأما الاعراب فقد ذمهم الله تعالى فى هذه الآية وقيل سموا بالعرب لان ألسنتهم معربة عما

فى ضمائرهم ولاشك أن اللسان العربى مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد فى سائر الالسنة قال الرازى ورأيت فى بعض الكتب عن بعض الحكماء انه قال حكمة الروم فى أدمغتهم وذلك لانهم يقدرون على التركيبات العجيبة وحكمة الهند فى أوهامهم وحكمة اليونان فى أفئدتهم وذلك لكثرة مالهم من المباحث العقلية وحكمة العرب فى ألسنتهم وذلك لحلاوة ألسنتهم وعذوبة عباراتهم ثم حكم الله تعالى على الاعراب بحكم آخر بقوله تعالى (وأجدر) أى أحق وأولى (أن) أى بان (لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) من الاحكام والشرائع فرائضها وسننها (والله عليم) بما فى قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) فى سبيل الله تعالى (مغرما) أى غرامة وخسرانا والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده وهم أسد وغطفان (ويتربص) أى ينتظر (بكم الدوائر) أى دوائر الزمان أن ينقلب عليكم فيموت النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون قال الله تعالى (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم معترض قال التفتازانى بين كلامين لا فى اثناء كلام ولا فى آخره دعاء عليهم بنحو ما دعوا به قال الله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم أى يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه الا ما يسوءهم ويكيدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح مصدر اضيف اليه للمبالغة كقولك رجل سوء فى نقيض قولك رجل صدق (والله سميع) لاقوالهم (عليم) بما تخفى ضمائرهم ولما بين سبحانه وتعالى انه حصل فى الاعراب من يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغرما بين ان فيهم قوما مؤمنين صالحين مجاهدين يتخذ انفاقه فى سبيل الله مغنما بقوله تعالى (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) كبعض جهينة ومزينة فوصفهم الله تعالى بوصفين كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر والمقصود التنبيه على انه لابد فى جميع الطاعات من تقديم الايمان وفى الجهاد أيضا كذلك والثانى ما ذكره بقوله تعالى (ويتخذ ما ينفق قربات) جمع قربة أى يقربه (عند الله) الذى لا أشرف من القرب عنده (و) وسيلة الى (صلوات) أى دعوات (الرسول) صلى الله عليه وسلم لانه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى قال تعالى وصل عليهم أى ادع لهم ولما كان ما ينفق سببا لذلك قيل يتخذ ما ينفق قربات وصلوات الرسول (الا انها) أى نفقاتهم (قربة لهم) عند الله وهذا شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول وقد اكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله تعالى الا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها ثم زاد فى التأكيد فقال تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) فان دخول السين توجب مزيد التأكيد وهذه النعمة هى أقصى مرادهم وقرأ ورش قربة برفع الراء والباقون بالسكون والاصل هو الضم والاسكان تخفيف (ان الله غفور) أى بليغ الستر لقبائح من تاب (رحيم) بهم * ولما ذكر تعالى فضائل الاعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وما أعد لهم من الثواب بين تعالى ان فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها

بقوله

بقوله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) أما من المهاجرين فقال سعيد ابن المسيب هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم أهل بيعة الرضوان وقال محمد بن كعب هم جماهير الصحابة وقيل هم الذين أسلموا قبل الهجرة واختلف في أول الناس اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من أسلم بعد خديجة علي بن ابي طالب وهذا قول جابر واختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والاكثرون على انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من اسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول عروة بن الزبير وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن الموالي زيد ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء أربعة سباق الخلق الى الاسلام وأما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي الاولى وكانوا ستة نفر ثم العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا فهؤلاء سباق الانصار وقيل المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة ويدل على هذا انه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين لهم انهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملا فوجب صرف ذلك اللفظ الى ما قد صاروا به مهاجرين وانصارا وهو الهجرة والنصرة فوجب أن يكون المراد منه السابقين الاولين في الهجرة والنصرة ازالة للاجمال عن اللفظ وأيضا فان الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك اثنى الله تعالى عليهم ومدحهم (والذين اتبعوهم) أي الفريقين الى يوم القيامة (باحسان) أي في اتباعهم فلم يحولوا عن شئ من طريقتهم وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم وقيل بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه والمد ربع الصاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من اعمال البر والانفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة وعن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعده قرنين أم ثلاثا والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان من عشر سنين الى عشرين سنة وقيل من مائة الى مائة وهذا هو المشهور وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة ثم جمعهم الله تعالى في الثواب فقال (رضي الله عنهم) فالسابقون مرتفع بالابتداء وخبره رضي الله عنهم أي بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم

من نعمه الجليلة في الدنيا والآخرة (وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الانهار) أي هي كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء يجري منه نهر وقرأ ابن كثير بزيادة من تحتها وبجرّ التاء بعد الهاء والباقون بغير من وفتح التاء ثم نفى سبحانه الانقطاع بقوله تعالى (خالدين فيها) وأكد المراد من الخلود بقوله تعالى (أبدا) ثم استأنف مدح هذا الذي أعدّه لهم بقوله تعالى (ذلك) أي الامر العالي الرتبة (الفوز العظيم) ولما شرح تعالى أحوال منافقي المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقي الاعراب ثم بين ان في الاعراب من هو مؤمن صالح مخلص ثم بين ان رؤساء المؤمنين من هم وهم السابقون والمهاجرون والانصار ذكر أن جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى (وممن حولكم) أي أهل بلدتكم وهي المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها وقوله تعالى (ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدا الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) على ان مردوا صفة موصوف محذوف كقول الشاعر

* أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أي انا ابن رجل جلا فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وقال الزجاج في الآية تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه وأصل المرود الملاسة ومنه صرح ممرد وغلام أمرد (لا تعلمهم) بأعيانهم أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشكك في أمرهم ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى (نحن نعلمهم) أي لا يعلمهم الا الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم ابطانا ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في ايمانهم وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى واختلفوا في تفسير قوله تعالى (سنعذبهم مرتين) فقال الكلبي والسدي قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فأخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثاني عذاب القبر (فان قيل) كيف هذا مع قوله تعالى لا تعلمهم نحن نعلمهم (أجيب) بأنه تعالى أعلمه بهم بعد ذلك وقال مجاهد الاول القتل والسبي والثاني عذاب القبر وقال ابن زيد الاول المصائب في الاولاد والثاني عذاب الآخرة وقال ابن عباس الاول اقامة الحدود عليهم والثاني عذاب القبر وقيل عذبوا بالجوع مرتين وقيل الاول ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والثاني عذاب القبر وقيل الاول احراق مسجدهم مسجد الضرار والثاني احراقهم بنار جهنم كما قال تعالى (ثم يردون) أي في الآخرة (الى عذاب عظيم) هو النار وقوله تعالى (وآخرون) أي وقوم آخرون مبتدا وقوله تعالى (اعترفوا بذنوبهم) ولم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة نعته والخبر (خلطوا عملا صالحا) أي وهو جهادهم قبل ذلك أو اعترافهم بذنوبهم أو غير ذلك (وآخر سيئا) أي وهو تخلفهم (عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه نزلت في طائفة من المتخلفين عن غزوة

تبوك واختلف فى عددهم فعن ابن عباس انهم كانوا ثلاثة عشر وروى عنه انهم كانوا خمسة وقال سعيد بن جبير كانوا ثمانية وقيل كانوا ثلاثة ندموا لما بلغهم ما نزل بالمتخلفين وتابوا وقالوا نكون فى الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقها ويعذرنا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته فى رجوعه من سفره فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له انهم أقسموا الا يحلوا انفسهم حتى تحلهم وترضى عنهم فقال وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم وأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا وانما تخلفنا عنك بسببها اخذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) من الذنوب أو حب المال المؤدى الى مثله وتجرى لهم مجرى الكفارة هذا قول الحسن كان يقول ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وانما هى كفارة الذنب الذى صدر ويدل عليه انه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم وتصدق بها وابقى لهم الثلثين ولم يأخذ الجميع لان الله تعالى قال خذ من أموالهم والصدقة الواجبة لا يؤخذ فيها ثلث المال (وتزكيهم بها) أى وتنمى بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم والسنة أن يدعو آخذ الصدقة لصاحب الصدقة اذا أخذها وعن الشافعى رضى الله عنه انه كان يقول أحب أن يقول الوالى عند أخذ الصدقة اجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهورا وبارك لك فيما أبقيت (ان صلاتك سكن لهم) أى تسكن اليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لان روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية باهرة فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوة روحه الروحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت اسرارهم وانتقلوا من الظلمة الى النور ومن الجسمانية الى الروحانية فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة وقرأ حفص وحمزة والكسائى صلاتك بغير واو بعد اللام ونصب التاء على التوحيد والباقون بالواو وكسر التاء على الجمع لتعدد المدعو لهم وقيل ان هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذ الزكوات من الاغنياء وعليه أكثر الفقهاء اذ استدلوا بهذه الآية فى ايجاب الزكاة وقالوا فى الزكاة انها طهرة (والله سميع) لاقوالهم واعترافهم ودعائك لهم (عليم) بندامتهم ونياتهم ولما حكى سبحانه عن القوم الذين تقدم ذكرهم انهم تابوا عن ذنوبهم وانهم تصدقوا وهناك لم يذكر الا قوله عسى الله أن يتوب عليهم وما كان ذلك صريحا فى قبول التوبة ذكر بعد ذلك انه يقبل التوبة وانه سبحانه يأخذ الصدقات ترغيبا لمن لم يتب فى التوبة وترغيبا لكل العصاة فى الطاعة بقوله تعالى (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ) أى يقبل (الصدقات) والضمير اما للمتوب

عليهم والمراد أن يتمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم وأما لغيرهم والمراد به التحضيض عليها والآية وان وردت بصيغة الاستفهام الا ان المراد بها التقرير فى النفس ومن عادة العرب فى افهام المخاطب وازالة الشك عنه أن يقولوا أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته أما علمت أن من أحسن اليك يجب عليك شكره فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ترغيبا فى التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم فأنزل الله تعالى هذه الآية ترغيبا فى التوبة ثم زاد تأكيدا بقوله تعالى (وأن الله هو التواب الرحيم) أى وان من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله يقبلها من عبده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد مؤمن يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى السماء الا الطيب الا يضعها فى يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربى أحدكم فلوه حتى ان اللقمة لتأتى يوم القيامة وانها كمثل الجبل العظيم ثم قرأ أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات (وقل اعملوا) أى وقل لهم أو للناس يا محمد اعملوا ما شئتم (فسيرى الله عملكم) فانه لا يخفى عليه شئ خيرا كان أو شرا فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (و) يرى أيضا (رسوله والمؤمنون) أعمالكم أما رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على أعمالكم وأما رؤية المؤمنين فبقذف الله تعالى فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) أى وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شئ من أعمال بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أى فيخبركم (بما كنتم تعملون) من خير وشر فيجازيكم على أعمالكم واعلم ان الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام أولهم المنافقون الذين مردوا على النفاق والثانى التائبون وهم المرادون بقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم وبين انه تعالى قبل توبتهم والقسم الثالث الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون فى قوله تعالى (وآخرون) أى من المتخلفين (مرجون) أى مؤخرون عن التوبة وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بغير همز بين الجيم والواو والباقون بهمزة مضمومة بين الجيم والواو (لامر الله) أى لحكم الله تعالى فيهم والفرق بين القسم الثانى وبين هذا ان أولئك سارعوا الى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا اليها قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وستأتى قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا تخلفوا كسلا وميلا الى الراحة لا نفاقا ولم يعتذروا الى النبى صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف أمرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم بعد (اما يعذبهم) بأن يميتهم من غير توبة (واما يتوب عليهم) ان تابوا (فان قيل) كلمة اما واما للشك والله تعالى منزه عن ذلك (أجيب) بأن الترديد بالنسبة للعباد أى ليكن أمرهم عندكم على هذا فى الخوف والرجاء فان الله تعالى لا تخفى عليه

خافية وفي هذا دليل على ان كلا الامرين بارادة الله تعالى (والله عليم) باحوال عباده (حكيم) فيما يفعل بهم * ولما ذكر تعالى اصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى (والذين اتخذوا مسجدا) قال ابن عباس رضى الله عنه وهم اثناعشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا (ضرارا) أى مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا) أى وتقوية للنفاق وقال ابن عباس يريدون به ضرارا للمؤمنين وكفرا بالنبى صلى الله عليه وسلم وماجاء به وقال غيره اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبى صلى الله عليه وسلم والاسلام (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة (وارصادا) أى ترقبا (لمن حارب الله ورسوله) وهو أبو عامر والد أبى حنظلة الذى غسلته الملائكة وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لانه زالت رياسته وقال للنبى صلى الله عليه وسلم ماهذا الذى جئت به قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم عليه السلام فقال له أبو عامر انا عليها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انك لست عليها فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من القوة والسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء وانتظروا مجىء أبى عامر ليصلى بهم فى ذلك المسجد وقوله تعالى (من قبل) متعلق بحارب أى حارب من قبل أن يبنى مسجد الضرار أو باتخذوا أى اتخذوا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف * ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الاربعة قال تعالى (وليحلفن ان أردنا الا الحسنى) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه الا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المصير الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المظلمة والليلة الشاتية (والله يشهد انهم لكاذبون) فى قولهم * (تنبيه) * قوله تعالى والذين اتخذوا محله نصب على الاختصاص كقوله تعالى والمقيمين الصلاة أو رفع على الابتداء والخبر محذوف أى وممن ذكرنا الذين * ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للاغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك وقالوا يارسول الله بنينا مسجدا لذى العلة والليلة المظلمة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة فقال صلى الله عليه وسلم انى على جناح سفر فى حال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل أى رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد نزل قوله تعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه لا تصل فيه أبدا وقال الحسن هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب الى ذلك المسجد فنادى جبريل لا تقم فيه أبدا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن

السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا جميعا سريعا حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك انظرونى حتى أخرج لكم بنار من أهلى فدخل الى أهله وأخذ سعفا من النخل فاشعل فيه نارا ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فهدموه وأحرقوه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدا فريدا غريبا وقيل كل مسجد بنى مباهاة ورياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى أو بمال غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار وعن عطاء لما فتح الله تعالى الامصار على عمر رضى الله تعالى عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وان لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه وقوله تعالى (لمسجد) اللام فيه للابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد (أسس) أى وضع أساسه وقواعده (على التقوى) أى تقوى الله تعالى (من أول يوم) أى من أول أيام وجوده لان من تعم الزمان والمكان أى فأحاطت به التقوى لانها اذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره (أحق) أى أولى (أن) أى بأن (تقوم) أى تصلى (فيه) واختلف فى هذا المسجد الذى أسس على التقوى فقيل هو مسجد المدينة قاله زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى قال أبو سعيد رضى الله عنه دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى المسجد الذى أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى وعن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة أى ثوابت وقيل هو مسجد قباء قاله سعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهو يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة ويدل على هذا قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله تعالى عليهم (والله يحب المطهرين) أى يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه روى انها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء فقالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فماذا الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يارسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يحبون أن يتطهروا وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن ساعدة انه صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال ان الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور وفى قصة مسجدكم فما الطهور الذى تطهرون به قالوا والله يارسول الله ما نعلم شيأ الا انه كان لنا جيران من اليهود فكانوا

يغسلون

يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وفي حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه وقيل كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الماء أثر البول وعن الحسن هو التطهر من الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفمن أسس بنيانه) أي بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أي على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه (خير أم من أسس بنيانه على شفا) أي طرف (جرف) أي جانب (هار) أي على قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار أي مشرف على السقوط (فانهار به) أي سقط مع بانيه (في نار جهنم) خبر وهذا تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤول اليه والاستفهام للتقرير أي الاول خير وهو مثال مسجد قباء والثاني مثال مسجد الضرار قال الرازي ولا نرى في العالم مثالا أحسن مطابقة لامر المنافقين من هذا المثال وحاصل الكلام ان أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله تعالى ورضوانه والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر فكان البناء الاول شريفا واجب الابقاء وكان الثاني خسيسا واجب الهدم * قيل حفرت بقعة في مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منها وقرأ نافع وابن عامر أفمن أسس بضم الهمزة وكسر السين الاولى مع التشديد وضم النون قبل الهاء والباقون بفتح الهمزة والسين مع التشديد أيضا ونصب النون قبل الهاء وقرأ شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر ورسمت أم هنا مقطوعة من من والكلام على أسس بنيانه كالكلام على التي قبلها وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة جرف بسكون الراء والباقون بالرفع وأما شفا فلا إمالة بخلاف هار فان أبا عمرو وشعبة والكسائي يقرؤنه بالامالة المحضة وابن ذكوان بالفتح والامالة وورش بالامالة بين بين والباقون بالفتح (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي الى ما فيه صلاح ونجاة (لا يزال بنيانهم الذي بنوا) أي بناؤهم الذي بنوه وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبني واطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال ضرب الامير ونسج زيد والمراد مضروبه ومنسوجه وليس بجمع خلافا للواحدي في تجويزه ان يكون جمع بنيانة لانه وصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله (ريبة) أي شكا (في قلوبهم) والمعنى ان بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة وانما جعل سببا للريبة لان المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم في كل الاوقات وصاروا مرتابين في أنهم هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبي صار حسرة وندامة لانهم ندموا على بنائه وقال السدي لا يزال هدم بنائهم ريبة أي حرارة وغيظا في قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) قطعا اما بالسيف واما بالموت بحيث لا يبقى لهم قابلية الادراك وقيل التقطع بالتوبة ندما وأسفا (والله عليم) بأحوالهم وأحوال عباده (حكيم) في الاحوال التي يحكم بها عليهم وعلى غيرهم * ولما تقدم الانكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله الآية ثم الحزم بالجهاد بالنفس والمال في قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا الآية ذكر فضيلة الجهاد وحقيقته بقوله تعالى (ان الله اشترى) أي بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة (من

المؤمنين) بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه (أنفسهم) التى تفرد بخلقها (وأموالهم) التى تفرد برزقها وهو يملكها دونهم وقدم النفس اشارة الى أن المبايعة سابقة على اكتساب المال ولما ذكر البيع اتبعه الثمن بقوله تعالى (بأن لهم الجنة) مثل الله تعالى اثابتهم على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشراء وروى تاجرهم الله تعالى فأغلى لهم الثمن وعن عمر رضى الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعا وعن الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رازقها وروى أن الانصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت فقال اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون به أنفسكم وأموالكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولا نستقيل فنزلت ومر اعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها فقال الاعرابى كلام من قال عليه الصلاة والسلام كلام الله عز وجل فقال الاعرابى والله بيع مربح لانقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد وقال الحسن اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الارض مؤمن الا وقد دخل فى هذه البيعة والمراد بالاموال انفاقها فى سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم وفى جميع وجوه البر والطاعات وقوله تعالى (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) استئناف بيان ما لاجله الشراء وقيل يقاتلون فى معنى الامر وقرأ حمزة والكسائى بتقديم المقتولين على القاتلين لان الواو لاتقتضى الترتيب ولان فعل البعض قد يسند الى الكل أى فيقتل بعضهم ويقاتل الباقى والباقون بتقديم القاتلين وقوله تعالى (وعدا عليه حقا) مصدران منصوبان بفعليهما المحذوفين ثم أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت (فى التوراة) كتاب موسى عليه السلام (والانجيل) كتاب عيسى عليه السلام (والقرآن) أى قد أثبته فيهما كما أثبته فى القرآن أى الكتاب الجامع لكل ما قبله (ومن أوفى بعهده من الله) أى لا أحد أوفى منه سبحانه لان الاخلاف لا تقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذى له الغنى المطلق وقوله تعالى (فاستبشروا) فيه التفات عن الغيبة أى فافرحوا غاية الفرح (ببيعكم الذى بايعتم به) فانه أوجب لكم عظائم المطالب كما قال تعالى (وذلك هو الفوز العظيم) * (تنبيه) * هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيد أولها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بكون المشترى هو الله تعالى المقدس عن الكذب والخيانة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ثانيها انه تعالى عبر عن ايصال هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ثالثها قوله تعالى وعدا ووعد الله تعالى حق رابعها قوله تعالى عليه وكلمة على للوجوب خامسها قوله تعالى حقا وهو لتأكيد التحقيق سادسها قوله تعالى فى التوراة والانجيل والقرآن وذلك يجرى مجرى اشهاد جميع الكتب الالهية وجميع الانبياء والرسل على هذه المبايعة سابعها قوله تعالى ومن أوفى بعهده من الله وهو غاية فى التأكيد ثامنها قوله تعالى فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وأيضا هو مبالغة فى التأكيد تاسعها قوله تعالى وذلك هو الفوز وعاشرها قوله تعالى العظيم فثبت

اشتمال

اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة فى التأكيد والتقرير والتحقيق * ولما ذكر تعالى فى هذه الآية انه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية أولها قوله تعالى (التائبون) وهو مرفوع على المدح أى هم التائبون يعنى المذكورين فى قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين وقال الزجاج لا يبعد أن يكون قوله التائبون مبتدأ وخبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وان لم يجاهدوا لقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى أو خبره ما بعده أى التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال والتائبون صيغة عموم محلاة بالالف واللام فتتناول التوبة من كل معصية والتوبة انما تحصل عند أربعة أمور أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ثانيها الندم على ما مضى ثالثها العزم على الترك فى المستقبل رابعها أن يكون الحامل له على هذه الامور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فان كان غرضه منها رفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو لغرض من الاغراض الدنيوية فليس بتائب ولا بد من رد المظالم الى أهلها ان كانت الصفة الثانية قوله تعالى (العابدون) أى الذين أخلصوا العبادة لله وقال الحسن هم الذين عبدوا الله فى السراء والضراء وقال قتادة قوم أخذوا من ابدانهم فى ليلهم ونهارهم الصفة الثالثة قوله تعالى (الحامدون) وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون اظهار ذلك عادة لهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء الصفة الرابعة قوله تعالى (السائحون) واختلف فى المراد منهم فقال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما ذكر فى القرآن من السياحة فهو الصوم وقال صلى الله عليه وسلم سياح أمتى الصوم وعن الحسن أن هذا صوم الفرض وقيل هم الذين يديمون الصيام قال الازهرى قيل للصائم سائح لان الذى يسيح فى الارض متعبدا لا زاد معه كان ممسكا عن الاكل والصائم ممسك عن الاكل فلهذه المشابهة يسمى الصائم سائحا وقال عطاء السائحون الغزاة فى سبيل الله تعالى وروى عن عثمان بن مظعون انه قال يا رسول الله ائذن لنا فى السياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله وقال عطاء السائحون هم طلاب العلم والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس لانه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلقى الاكابر من الناس فيستحقر نفسه فى مقابلتهم وقد يصل الى المدارسة الكثيرة فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الاحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته وبالجملة فالسياحة لها أثر قوى فى الدين الصفة الخامسة والسادسة قوله تعالى (الراكعون الساجدون) أى المصلون وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لان بهما يتميز المصلى عن غيره بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلى وغيره ولان القيام أول مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيها على أن المقصود من الصلاة

نهاية الخضوع والتعظيم الصفة السابعة والثامنة قوله تعالى (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الآمرون بالايمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ودخول الواو فى والناهون عن المنكر للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة فكأنه قال الجامعون بين الوصفين ولان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى فى صفة الجنة وفتحت أبوابها ايذانا بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث ان السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو الثمانية وقيل الموصوفون بهذه الصفات هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الصفة التاسعة قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أى لاحكامه بالعمل بها والمقصود أن تكاليف الله تعالى كثيرة وهى محصورة فى نوعين أحدهما ما يتعلق بالعبادات والثانى ما يتعلق بالمعاملات (فان قيل) ما الحكمة فى أن الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ثم ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الاجمال فى هذه الصفة التاسعة (أجيب) بأن التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها فى أغلب أوقاته فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها فى أكثر أوقاته مثل احكام البيع والشراء وأحكام الجنايات ودخل فى هذه الصفة التاسعة رعاية أحوال القلوب بل البحث عنها والمبالغة فى الكشف عن حقائقها أولى لان أعمال الجوارح انما تراد لاجل تحصيل أعمال القلوب * ثم ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسعة قوله تعالى (وبشر المؤمنين) تنبيها على أن البشارة فى قوله تعالى فاستبشروا لم تتناول الا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات التسعة وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكأنه قيل وبشرهم بما يجل عن احاطة الافهام وتعبير الكلام * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) فقال سعيد بن المسيب عن أبيه انه نزل فى شأن أبى طالب وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية فقال أى عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه الى تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم أنه عن ذلك فنزل ذلك وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن يعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى انك لا تهدى من أحببت الآية وقال بريدة لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها فنزل ما كان للنبى

الآية

الآية وقال أبو هريرة زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من حوله وقال
استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنته ان أزورها فأذن لى فزوروا القبور فانها تذكر
الموت وقال قتادة قال النبى صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله
تعالى هذه الآية وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما
مشركان فقلت له تستغفر لهما وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم عليه السلام لابيه وهو
مشرك فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وروى الطبرانى بسنده عن
قتادة قال ذكر لنا أن رجالا قالوا يا نبى الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم
ويفك العانى أفلا نستغفر لهم فقال صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم
لابيه فأنزل الله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى
قربى (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى بأن ماتوا على الكفر قال البيضاوى وفيه
دليل على جواز الاستغفار لاحيائهم فانه طلب توفيقهم للايمان وبه دفع النقض باستغفار
ابراهيم عليه السلام لابيه الكافر فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة
وعدها اياه) أى وعدها ابراهيم أباه بقوله لاستغفرن لك أى لاطلبن مغفرة لك بالتوفيق للايمان
فانه يجب أى يقطع ويمحو ما قبله وقرأ هشام ابراهام بالالف بعد الهاء فى الموضعين والباقون
بالياء فيهما (فلما تبين له أنه عدو لله) بأن مات على الكفر أو أوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن
(تبرأ منه) أى قطع استغفاره (ان ابراهيم لأواه) أى كثير التضرع والدعاء (حليم) أى صبور
على الاذى والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار لابيه مع صعوبة خلق أبيه عليه (وما كان الله ليضل
قوما) أى يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لاجل ارتكابهم المنهى عنه (بعد اذ هداهم
للاسلام (حتى يبين لهم) بيانا شافيا الداء العمى (ما يتقون) أى ما يجب اتقاؤه للنهى أما قبل
العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم
وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه وقيل انه
فى قوم مضوا على الامر الاول فى القبلة والخمر وغير ذلك وفى الجملة دليل على أن الغافل غير
مكلف (ان الله بكل شئ عليم) أى بالغ العلم فهو يبين لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف
عليه الهدى وما تركه تعالى فانما يتركه رحمة لكم لا يضل ربى ولا ينسى (ان الله له ملك السموات
والارض) فلا يخفى عليه شئ فهو خبير بكل ما ينفعكم أو يضركم (يحيى ويميت) أى يحيى من
شاء على الايمان ويميته عليه ويحيى من شاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لاحد عليه
فى حكمه وعبيده (وما لكم) أيها الناس (من دون الله) أى غيره (من ولى) يحفظكم منه
(ولا نصير) يمنع عنكم ضرره (لقد تاب الله) أى أدام توبته (على النبى والمهاجرين والانصار)
وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبة النبى صلى الله عليه وسلم لانه كان سبب توبتهم فذكره معهم
كقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول ونحوه وقيل هو بعث على التوبة والمعنى ما من أحد
الا وهو محتاج الى التوبة حتى النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والانصار لقوله تعالى وتوبوا

الى الله جميعا اذ مامن أحد الا وله مقام ينتقص دونه ماهو فيه والترقى اليه توبة من تلك النقيصة واظهار لفضلها بأنها مقام الانبياء والصالحين من عباده *(فائدة)* اتفق القراء على ادغام دال قد فى التاء (الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى فى وقت العسرة لم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة الشدة فكانت عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون مامعهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فمضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ورضى عنا بهم آمين وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه ويجعل ما بقى على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر يارسول الله ان الله تعالى قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله تعالى قال أتحب ذلك قال نعم فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعا حتى أظلت السماء ثم سكبت فملأ وا مامعنا ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (من بعدما كادتزيغ) أى قرب أن تميل (قلوب فريق منهم) أى هم بعضهم عند تلك العسرة العظيمة أن يفارق النبى صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ولم يرد الميل عن الدين فلذلك قال الله تعالى (ثم تاب عليهم) لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الامر اليسير (فان قيل) قد ذكر الله تعالى التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار (أجيب) بأن الله تعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم وقرأ حفص وحمزة يزيغ بالياء على التذكير لان تأنيث القلوب غير حقيقى والباقون بالتاء على التأنيث وأدغم أبو عمرو الدال من كاد فى التاء بخلاف عنه (انه بهم رؤف رحيم) هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب فالرأفة عبارة عن السعى فى ازالة الضر والرحمة عبارة عن السعى فى ايصال المنفعة وقيل احداهما للرحمة السابقة والاخرى للمستقبلة وقوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى عن غزوة تبوك وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع معطوف على الآية الاولى والتقدير لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهذه الثلاثة كلهم من الانصار وهم المذكورون فى قوله تعالى وآخرون مرجون لامر الله روى عن ابن شهاب الزهرى قال أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب

ابن

ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال كعب كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك اني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فأخبرهم بوجهه الذي يريد فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا فهممت أن أرتحل وأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك وكنت اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني ان لا أرى لي اسوة الا رجلا مغموصا في النفاق أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في معطفيه فقال معاذ بن جبل بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا حضرني همي وطفقت أذكر الكذب وأقول بما أخرج به من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما راح عني الباطل وعرفت اني لم أخرج بشيء أبدا فيه كذب وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس وجاءه المخلفون يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا تسعة وثمانين رجلا فقبل منهم صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضبان ثم قال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قلت بلى يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت ان أخرج من سخطك بعذر ولقد أعطيت جزلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عفو الله والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد كان كافيك لذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لهم هل أتى هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما اسوة فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ولبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أثبت القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين وأطوف بالاسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريبا منه واسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى واذا التفت نحوه أعرض عنى حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس الى فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فقلت يا أبا قتادة انشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت فبينما أنا أمشى فى سوق المدينة اذا بنبطى من أنباط الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه يقول من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان فاذا فيه أما بعد فقد بلغنى ان صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء فيممت به التنور فسجرته به حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين أمرنا ان نعتزل نساءنا ولا نقربهن فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله تعالى فى هذا الامر قال كعب فجاءت امرأة هلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له ان هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم هل تكره ان أخدمه فقال اخدميه ولكن لا يقربك قالت والله انه مابه حركة الى شئ والله لا يزال يبكى منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا فقال بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك لاذن لك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدرينى ما يقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال الذى ذكره الله تعالى فى قوله (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) أى مع رحبها أى سعتها فلا يجدون مكانا يطمئنون اليه (وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم بالغم والوحشة أى بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس (وظنوا) أى أيقنوا (أن) مخففة (لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم) أى وفقهم للتوبة (ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) اذ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ينادى بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا وعرفت أنه جاء فرج وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى الى الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى وكسوته اياهما والله ماأملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى رضى الله تعالى عنه والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ
ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق
على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه * ولما
حكم الله بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى بترك
معاصيه (وكونوا مع الصادقين) أى مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم
أجمعين في الغزوات ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت وقيل كونوا مع
الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وقيل مع بمعنى من
أى وكونوا من الصادقين * (تنبيه) * في الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ويدل
عليه أيضاً أشياء منها ما روى عن ابن مسعود أنه قال عليكم بالصدق فانه يقرب الى البر والبر
يقرب الى الجنة وان العبد ليصدق فيكتب عند الله تعالى صديقاً واياكم والكذب فان الكذب
يقرب الى الفجور والفجور يقرب الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً
ألا ترى أنه يقال صدقت وبررت وكذبت وفجرت ومنها ما روى أن رجلاً جاء الى النبي صلى الله
عليه وسلم وقال انى رجل أريد أن أومن بك الا أنى أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس
يقولون انك تحرم هذه الاشياء ولا طاقة لى على تركها فان قنعت منى بترك واحدة منها فعلت
فقال صلى الله عليه وسلم اترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه
وسلم عرضوا عليه الخمر فقال ان شربت وسألني النبي صلى الله عليه وسلم وكذبت فقد نقضت
العهد وان صدقت أقام على الحد فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا
في السرقة فعاد الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب
انسدت أبواب المعاصي على وتاب الكل ومنها ما قيل في قوله تعالى حكاية عن ابليس فبعزتك
لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين لان ابليس انما ذكر هذا الاستثناء لانه لو لم يذكره لصار
كاذباً في ادعاء اغواء الكل فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الاستثناء واذا كان الكذب
شيئاً يستنكف منه ابليس لعنه الله فالمسلم أولى أن يستنكف منه ومنها قول ابن مسعود
الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجز له اقرؤا ان شئتم وكونوا
مع الصادقين (ما كان) أى ما صح وما ينبغي بوجه من الوجوه (لاهل المدينة) أى دار الهجرة
ومعدن النصرة (ومن حولهم) أى في جميع نواحي المدينة الشريفة (من الاعراب) أى
سكان البوادي وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار وقيل عام في كل الاعراب لان اللفظ
عام وحمله على العموم أولى وقوله تعالى (أن يتخلفوا عن رسول الله) أى عن حكمه وقوله تعالى
(ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى بأن يصونوها عما رضى لنفسه عليه الصلاة والسلام من
الشدائد وفي نصبه النصب والجزم على أن لا ناهية روى عن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه واستوى
ونضج وله امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت له الرطب والماء البارد فقال

ظل ظليل و رطب يانع أى ناضج وماء بارد وامرأة حسناء و رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ما هذا بخير فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى الطريق فاذا راكب يزهاه السراب أى يدفعه وهو عبارة عن السرعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فكان هو ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له (ذلك) أى النهى عن التخلف (بأنهم) أى بسبب انهم (لا يصيبهم ظمأ) أى عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) أى مجاعة (فى سبيل الله) أى فى طريق دينه (ولا يطؤن) أى يدوسون وقوله تعالى (موطئا) مصدر أى وطأ أو مكان وطء (يغيظ) أى يغضب (الكفار) أى وطؤهم له بأرجلهم ودوابهم (ولا ينالون من عدو نيلا) أى قتلا أو أسرا أو غنيمة أو هزيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (الا كتب لهم به) أى بذلك (عمل صالح) أى ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى لا يترك ثوابهم وأظهر موضع الاضمار تنبيها على أن الجهاد احسان *(تنبيه)* فى هذه الآية دلالة على أن من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى وكذا القول فى طرف المعصية فان حركته فيها كلها سيآت فما أعظم بركة الطاعة وما أكبر ذل المعصية الا أن يغفرها الله تعالى * عن أبى عيسى رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله تعالى على النار (ولا ينفقون) فى سبيل الله (نفقة صغيرة) تمرة فما دونها (ولا كبيرة) أى أكثر منها مثل ما أنفق عثمان رضى الله تعالى عنه فى جيش العسرة (ولا يقطعون) أى يجاوزون (واديا) أى أرضا فى سيرهم مقبلين أو مدبرين (الا كتب لهم) ذلك من الانفاق وقطع الوادى (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى يجزيهم الله جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب *(فائدة)* الوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو فى الاصل فاعل من ودى اذا سال ومنه الودى وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الارض يقولون لا تصل فى وادى غيرك *(تنبيه)* فى الآية دليل على فضل الجهاد والانفاق فيه ويدل عليه أشياء منها ماروى عن ابن مسعود قال جاء رجل بناقة مخطومة فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة ومنها ماروى عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومنها ماروى عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا ومافيها وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية ومافيها ومنها ماروى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه فى سبيل الله قال ثم أى قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله تعالى وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره وقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فيه احتمالان الاول أنه كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد والثانى أن يكون من

بقية أحكام الجهاد فعلى الأول يقال وما استقام لهم ان ينفروا جميعا نحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم لهم ان يتثبطوا جميعا فانه يخل بامر المعاش (فلولا) أى فهلا (نفر من كل فرقة) أى قبيلة (منهم طائفة) أى جماعة ويمكث الباقون (ليتفقهوا) أى ليتكلفوا الفقاهة (فى الدين) ويتجشموا مشاق تحصيلها ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا الى أوطانهم (ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لانه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغى أن يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس وصرف وجوههم اليه والتبسط فى البلاد ليدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وفى قوله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم وفى قوله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله تعالى له طريقا الى الجنة (لعلهم يحذرون) عقاب الله تعالى بامتثال أمره ونهيه وعلى الاحتمال الثانى يقال انه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون الى النفير وانقطعوا عن التفقه فامروا بأن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير فى ليتفقهوا ولينذروا للبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف ولينذر والباقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم قال ابن عباس فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما اذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما أمر صلى الله عليه وسلم أولا بانذار عشيرته الاقربين وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشأم وقيل هم قريظة والنضير وفدك وخيبر وقيل الروم لانهم كانوا يسكنون الشأم والشأم أقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطروا الى أهل ناحية أخرى (وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة وصبرا على القتال والغلظة ضد الرقة أى اغلظوا عليهم (واعلموا ان الله مع المتقين) بالعون والنصرة والحراسة (واذا ما أنزلت سورة) من القرآن (فمنهم) أى المنافقين (من يقول) أى لاصحابه انكارا واستهزاء بالمؤمنين (أيكم زادته هذه) السورة (ايمانا) أى تصديقا قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) بزيادة العلم الحاصل فى تدبر السورة وانضمام الايمان بها وبما فيها الى ايمانهم (وهم يستبشرون) أى يفرحون بنزولها لانه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم (وأما الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى علاج (فزادتهم) أى السورة أى نزولها (رجسا الى رجسهم) أى كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها (وماتوا) أى هؤلاء المنافقون (وهم كافرون) أى وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم

قال مجاهد في هذه الآية دليل على أن الايمان يزيد وينقص وكان علي رضي الله تعالى عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقوله تعالى (أولا يرون) قرأه حمزة بالتاء أي أيها المؤمنون والباقون بالياء على الغيبة أي المنافقون (أنهم يفتنون) أي يبتلون (في كل عام مرة أو مرتين) بالامراض والقحط والحرب (ثم لا يتوبون) من نفاقهم ونقض عهودهم الى الله تعالى (ولا هم يذكرون) أي ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده (واذا ما أنزلت سورة) فيها عيب المنافقين وتوبيخهم وقرأها صلى الله عليه وسلم (نظر بعضهم الى بعض) أي تغامزوا بالعيون انكارا لها وسخرية أو غيظا لما فيها من عيوبهم ويريدون الهرب يقولون (هل يراكم من أحد) أي من المؤمنين اذا قمتم فان لم يرهم أحد قاموا وخرجوا من المسجد وان علموا ان أحدا يراهم ثبتوا على تلك الحالة (ثم انصرفوا) على كفرهم ونفاقهم وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون وقوله تعالى (صرف الله قلوبهم) أي عن الهدى يحتمل الاخبار والدعاء (بأنهم) أي بسبب أنهم (قوم لا يفقهون) أي لسوء فهمهم وعدم تدبرهم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أي من جنسكم عربي مثلكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ولهم فيها نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام وعن الطبراني قال صلى الله عليه وسلم اني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح كنكاح الاسلام وعن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بادغام دال قد في الجيم والباقون بالاظهار (عزيز) أي شديد شاق (عليه ما عنتم) أي عنتكم وايتاؤكم المكروه وقيل يشق عليه ضلالكم (حريص عليكم) أي ان تهتدوا أو على ايصال الخير اليكم (بالمؤمنين) أي منكم ومن غيركم (رؤف) أي شديد الرحمة بالطائعين (رحيم) بالمذنبين وقدم الابلغ وهو الرؤف محافظة على الفواصل وعن الحسين بن الفضل لم يجمع الله تعالى لاحد من الانبياء بين اسمين من أسمائه الا لنبينا صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد الهمزة من رؤف والباقون بالقصر (فان تولوا) أي فان أعرضوا هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب (فقل حسبي الله) أي يكفيني الله وينصرني عليكم وانما كان كافيا لانه (لا اله الا هو) فلا مكافئ له ولا رادّ لامره ولا معقب لحكمه (عليه توكلت) أي فلا أرجو الا اياه ولا أخاف الا منه لان أمره نافذ في كل شيء (وهو رب العرش) أي الكرسي (العظيم) وخصه بالذكر تشريفا له ولانه من أعظم مخلوقاته سبحانه وتعالى روى عن أبي بن كعب قال آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر

السورة وقال هما أحدث الآيات بالله عهدا ومارواه البيضاوي رحمه الله تعالى تبعا للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أنزل علي القرآن الا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فانهما أنزلا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة حديث منكر ومخالف لما مر عن أبي من أن آخر ما نزل الآيتان

انتهى والله سبحانه

وتعالى اعلم

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله سورة يونس)

